
بيار ميكال
تاريخ العالم المعاصر
١٩٤٥ - ١٩٩١
تعريب
يوسف ضومط
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0130770

بيار ميكال

تاريخ العالم المعاصر

١٩٤٥ - ١٩٩١

تعريب

يوسف ضومط

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مقدمة المترجم

بعد مضي ستة عشر شهراً على انتهاء الحرب الباردة بين الجبارين العالميين، أثر انهيار الاتحاد السوفياتي في نهاية العام ١٩٩١ أعلنت واشنطن في أيار سنة ١٩٩٣، عن وقف « حرب النجوم » منهيةً حقبة طويلة من حرب التسلح.

هل سيشهد العالم مرحلة جديدة من ذلك السلام الذي طالما حلم به لينصرف الى معالجة جراحه النازفة في بعض أقطار المسكونة، لا سيما في أفريقيا والشرق الاوسط وأميركا اللاتينية حيث تستوطن الأوبئة والجوع والفقر، فيما يتجاوز عدد سكان الأرض الخمسة مليارات نسمة ؟.

يطرح هذا الكتاب مجمل هذه الأسئلة انطلاقاً من نتائج الحرب العالمية الثانية، مروراً بصراع الجبابرة وحروبهم الكبيرة والصغيرة، الباردة والساخنة، وصولاً إلى الوحدة الأوروبية وانهيار الاتحاد السوفياتي وحرب الخليج، محللاً أسباب الأزمات الكبرى وخفاياها والمعضلات الاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بنحو نصف قرن من تاريخنا المعاصر، ومتسائلاً عن ماهية النظام الجديد الذي تنعقد زعامة العالم في ظله للولايات المتحدة الاميركية، وهل انتهت حروب الشرق والغرب لتبدأ حروب أخرى هي الحروب الاقتصادية بين أميركا واليابان وأوروبا.

إذا كانت حقوق الانسان عنوان المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية

الثانية وولادة منظمة الأمم المتحدة، فهل ستكون حقوق الشعوب عنوان المرحلة المقبلة ؟ ان نزعة الشعوب الى الوحدة جلية للعيان بعد سنوات طوال من التفرقة كما هي حال الأرمن والأكراد والفلسطينيين، وهل ستتعرض خريطة العالم لاعادة النظر من جراء ذلك ؟ لا شك إن مثل هذه التساؤلات تعني الكثير للقارئ العربي الكريم ونأمل أن يجد الجواب عنها في هذا الكتاب.

يوسف ضومط

٢٠ أيار ١٩٩٣

مقدمة

ضريح فردريك الكبير

حين توقف سقوط القذائف في ساعة متأخرة من ليل ٨ أيار ١٩٤٥، عند الساعة ٢٣ والدقيقة الواحدة، كانت برلين قد تحولت الى اطلال وهتلر قد انتحر في ٣٠ نيسان، ومعه امست المانيا العظمى اثراً بعد عين. وبانهيار صناعة الروهر وسقوط قيادة الأركان البرلينية، فقد الرايخ عناصره الحيوية. لم يكن بين المنتصرين من كان يحلم بامكانية الابقاء حتى في الخيال على دولة المانية. وهكذا بدت بلاد فردريك الكبير وبسمارك كأنها ازيلت من الخريطة.

قبل اثنتي عشرة سنة، حضر هتلر، في قصر بوتسدام البروسي، برفقة الماريشال هيندنبورغ، عرضاً عسكرياً لضباط قدّموا خلاله للمستشار الجديد اعلام بروسيا ذات الصليب الأسود، رمز الانتصار الذي تحقق على الروس في تانينبورغ عام ١٩١٤. فتلاقت في هذا الاحتفال « المانيا القديمة والحديثة »، المانيا مقاتلي الحرب العالمية الأولى ومحرضي الجماهير من ذوي القمصان البنية، والاعلام التي انقذت سراً من بين ايدي قوات الاحتلال السوفياتية وحفظت بعناية واجلال، تزين اليوم قاعة الشرف في اكاديمية هامبورغ العسكرية، فهي امست ذكريات لا رموزاً. وكان هتلر قد وقف امام ضريح فردريك الكبير، في كنيسة حامية بوتسدام ليعلن قيام الرايخ الثالث المدعو لأن يستمر لالف عام.

عام ١٩٤٥، وجد مندوبو الحلفاء الذين قدموا برلين للاشراف على استسلام الجيوش الالمانية دون قيد او شرط، مشقة كبرى في ايجاد مدرسة ما تزال تحتفظ بسقفها. بعد فترة وجيزة، اقترح السوفيات الاجتماع في القطاع الذي يحتلونه في بوتسدام، للتفاوض حول سلام المنتصرين. في الواقع، كان ستالين يدعوهم الى ارضه وهذا يشكل بحد ذاته موتاً ثانياً لفردريك الثاني الذي ما يزال طيفه يرفرف فوق بوتسدام.

تبيّن ايضاً، في ذلك الحين ان اوروبا، وليس المانيا وحدها، قد اصبحت اثراً بعد عين. ذلك ان الرايخ الثالث قد جرّها معه الى الهاوية. فقد اضطرت فرنسا لاقتحام الحواجز السياسية التي اقامها الانكليز والاميركيون في وجهها بغية فرض ممثل لها هو الجنرال دي لاتر دي تاسيني. كان ستالين يتهمها بتوقيع اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٠، متناسياً انه كان نفسه في ذلك الحين مرتبطاً بالمانيا النازية بمعاهدة عدم اعتداء. اما انكلترا الباسلة التي انقذت العالم في آب ١٩٤٠، فتمثلت في دورة بوتسدام الثانية بكليمان أتلي بدلاً من تشرشل الذي خذله الناخبون. وكان روزفلت توفي في ١٢ نيسان ١٩٤٥.

لم يكن امام ستالين سوى ترومان كبديل عن روزفلت وأتلي كممثل ثانوي عن تشرشل. ولم يكن يعرف ان كان عليه ان يفرح ام يحزن لهذا الأمر. وهو نفسه، منذ بضعة اسابيع بدّل من اسلوبه ولهجته، وتخلّى عن سترته الواقية وغليونه واعتمر قبعة مزنّرة بالاحمر؛ ذلك ان الماريشال كان المنتصر في الحرب وحقق النصر الاكبر فيها حين حملت تلك الحرب اسمه في ستالينغراد. كان ينوي املاء شروطه ليس على المهزومين فقط بل على حلفائه ايضاً من خلال تفسيره التنازلات التي اضطروا للقبول بها في طهران عام ١٩٤٣ وفي يالطا عام ١٩٤٥ وراح يبدي منذ ذلك الحين ازدراءه بدستور منظمة الامم المتحدة التي ارسى الاميركيون معالمها الأولى في سان فرنسيسكو، واعترض على دعوة الارجنتين واستدعى

وزير خارجيته مولوتوف : اذا كان ترومان عمد الى الغاء قانون القرض الطويل الامد الممنوح للاتحاد السوفياتي في حين ان الحرب مع اليابان لم تنته بعد، فان عليه ان يدرك ان مشروع روزفلت حول السلام العالمي مرشح للاجهاض. قلق هوبكنز ــ وهو المؤتمن من قبل روزفلت على العلاقات مع موسكو ــ من هذا الفتور السريع ونجح في اقناع الزعيم السوفياتي بالاجتماع مع ترومان لتبديد سوء التفاهم. اقترح ستالين قصر بوتسدام مكاناً للاجتماع، مفسحاً في المجال لاقامة الحوار مع العملاق العالمي الآخر : اميركا. فاللقاء بين الجبارين، من وجهة النظر هذه، خصوصاً بعد اعتزال تشرشل، لا يعني السلام بل لقاء « القمة » الأول الذي لن يقبل ستالين بعده اي لقاء آخر.

فرضت آلية « التحالف الكبير » في زمن الحرب تنازلات متبادلة، كان هوبكنز يهمس بها باستمرار في اذن روزفلت. ولم يكن مؤكداً ان روزفلت سيبقى محتفظاً بتلك الذهنية. فالرئيس ترومان الذي نزل في مرفأ « أنفر » في ١٥ تموز، مثلما فعل ولسون قبله في « بريست »، سبق ان اختاره روزفلت نائباً له لكونه يمثل اليمين الجنوبي في الحزب الديمقراطي. من المؤكد ان عضو مجلس الشيوخ عن ولاية ميسوري كان سياسياً محنكاً يعرف اصول اللعبة، غير ان هذا التاجر ولاعب البوكر الذي يهوى لعبة « البيسبول » لم يتدرب على يدي الرئيس الراحل في حقل الشؤون الدولية. وقد دفعته سليقته القوية خلال الحرب، الى توجيه تصريحات عنيفة الى الصحافة يعبّر فيها بقوة عن نفوره من المانيا الهتلرية وروسيا الستالينية على السواء. ما كاد يقسم اليمين حتى جاء من ينبئه ان ستالين القى في السجن القادة العسكريين في بولونيا الحرة، ممن كانوا يستمعون الى ال ب.ب.سي، واذاعة الحكومة البولونية من لندن. تنبه ترومان لهذا الأمر وهو الذي يدرك الاهمية الخاصة التي يمثلها اللوبي البولوني في الحزب الديمقراطي. واقترح عليه هاريمان، السفير الأميركي في موسكو، ممارسة التصلب والحزم : فالعم الطيب جو (هكذا كان

الاميركيون يلقبون ستالين تحبباً) كان محاطاً بمستشارين عدوانيين وكان ينبغي التأهب لصدّ « هجوم بربري » جديد على اوروبا. لا شك ان ترومان كان متنبهاً لتحذير تشرشل الذي اعلن في ١٢ ايار ما يلي : اسدل الستار الحديدي امام وجوههم (السوفيات). نجهل كل ما يجري خلفه ».

هل ينبغي المجازفة بمواجهة الوحدات السوفياتية في اوروبا ؟ بادر الاميركيون الذين حشدوا جيوشهم في الجنوب لمنع تيتو من نهب « تريستا »، الى الانسحاب من الاراضي التي يحتلونها في تورينج في منطقة ساكس في ميكلامبورغ، التزاماً منهم بما تعهدوا به في يالطا. فتبعهم مئات الالوف من المدنيين الالمان اثر انسحابهم. في الواقع، نصح قادة البنتاغون بعدم قطع العلاقة مع السوفيات طالما لم تنته الحرب مع اليابان. واستبدل ترومان ناظر خارجيته المتشدد ستاتينيوس، بعضو مجلس الشيوخ عن ولاية كارولينا في الجنوب، جيمس بيرن، الذي اشتهر بصفاته كمفاوض بارع، اذ لا ينبغي الظهور، في بوتسدام بمظهر العالم المنقسم، حتى ولو كان لقاء سان فرانسيسكو ما يزال يثير شعوراً مريراً بان اتحاد الشعوب المنتصرة لم يعد قائماً.

* * *

أثبتت محادثات بوتسدام بالبرهان، اذا كان من داع له، ان التفاهم مستحيل. فطرحت للمرة الأخيرة، على المجتمعين المسألة الجوهرية التالية : هل يمكن توحيد العالم ؟ اذا كان ترومان ما يزال يحتفظ ببعض الامل، فلأنه كان يخفي تحت ردائه، جرياً على تقاليد سلفه روزفلت، « عصا غليظة » على قدر كبير من الأهمية : القنبلة الذرية. لعلّه كان يعتقد، على غرار ستيمسون، ان ستالين قد يتأثر بذلك فيقبل بالديمقراطية السياسية في اوروبا مقابل التعاون في مجال التكنولوجيا الجديدة.

هل يمكن لستيمسون ان يظنّ بان ستالين كان يجهل مدى تقدم

الابحاث الأميركية في حقل الذرة ؟ لا شك انهم حرصوا على ابقاء الروس بمعزل عما يجري؛ حتى ان تشرشل اراد احتجاز العالم الفيزيائي الدانمركي نيل بوهر الذي كان يقترح مشاطرة السر. لم يكن له ان يعلم بان السوفيات على اطلاع بمجريات الابحاث من خلال اللاقط الهوائي لاذاعة ن.ك.ف.د في لندن، وبواسطة عملائها في الولايات المتحدة الأميركية : ذلك ان دافيد غرينغلاس وهو ميكانيكي من لوس الاموس، والعالمان الفيزيائيان في الجانب البريطاني كلوس فاكس والان نان ماي من مختبرات مونتريال، كشفوا مراحل انجاز صنع هذه القنبلة التي جرى تفجيرها للمرة الأولى في صحراء المكسيك الجديدة في تموز ١٩٤٥. ابلغ ترومان بمقتضى رسالة مرمّزة، في ١٦ تموز عند الساعة ١٩,٣٠ « ان النتائج تفوق الآمال » وتلقى تقريراً وافياً عند الساعة ٢١. عند ذاك عقد الرئيس مع بيرن وستيمنسون والعسكريين اجتماعاً تقرر خلاله قصف اليابان.

لم يكن لتحذيرات نيل بوهر الذي التقى تشرشل وروزفلت شخصياً، ولا رسالة اينشتاين بتاريخ ٢٥ آذار ان تحول دون استخدام الآلة السياسية ــ العسكرية للسلاح الجديد. حين شرح ستيمنسون والجنرال غروفس لترومان، بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٤٥، ان العاملين في المجمع النووي الاميركي والبالغ عددهم ١٥٠,٠٠٠ شخص، قد زودوا بلادهم بالسلاح القاطع المطلق، بكلفة بلغت ملياري دولار، وافق على اقتراح وزير الحربية الذي عرض تشكيل لجنة « مؤقتة » برئاسة بيرن لوضع سياسة استخدام السلاح الجديد. فتشكلت اللجنة من عسكريين وموظفين كبار واربعة علماء بينهم فرمي واوبينهايمز في ١٩ ايار، قررت اللجنة بالاجماع استخدام القنبلة ضد اليابان، واغفلت نظرية زيلارد المبنية على « التحذير المسبق »، لجهة تحاشي المجزرة من خلال اجراء انفجار من شأنه اقناع اليابانيين بالاستسلام. حتى تقرير جائزة نوبل الذي قدّمه جايمس فرانك في حزيران والعرائض التي رفعها العلماء الفيزيائيون في

شيكاغو، لم تنجح في تعديل القرار الاميركي، كونه حصيلة تشاور مسبق جرى بين روزفلت وتشرشل في منزل الرئيس الأميركي في هايدبارك. وكان على ستيمنسون ان يغادر المؤتمر في ٢٥ تموز للاشراف محلياً على الاستعدادات الجارية لالقاء القنبلتين اللتين اصبحتا جاهزتين في تينيان في ارخبيل ماريان.

حين دخل ترومان قاعة سيسيلينهوف في قصر بوتسدام، في ٢٤ منه، كان يعلم انه لم يعد بحاجة للمساعدة السوفياتية للحصول على استسلام اليابان. فالبرقيات الواردة اليه من اميركا تحثه على التصلب والحزم. ولم يعد لتحذيرات زيلارد وزن يذكر : ما همّ اذا كان امتلاك القنبلة سوف يضع الاميركيين غداً تحت رحمة الصواريخ النووية السوفياتية، او اذا كان العالم سيدخل في سباق محموم نحو التسلح، فالمطلوب هو الافادة من الفرصة المتاحة مباشرة لتحقيق سلام نهائي. هل ينبغي ابلاغ ستالين بالأمر ؟ لا شك بذلك، وقد تم ذلك بسرعة وقبل المساء. ظل ابن جيورجيا هادئ الأعصاب، حتى انه اشار بوجوب استخدام القنبلة « بفعالية » على حد ما روى الأميرال ليهي.

هل كان يستعد لتقويم نتائج التفوق الأميركي بصورة « واقعية » ؟ قطعاً، إذ استمر يتصرف كأن القنبلة غير موجودة. ما رأي ترومان ؟ يقول هذا الأخير : « لدي الكثير من الديناميت بحيث لا استطيع تفجيرها فوراً ». لا شك أنه يستطيع اجبار اليابان على الاستسلام، لكنه يرتاب في قدرته على استخدامه لإجبار ستالين على التراجع. فهذا الأخير لن يتنازل قيد انملة. وراح، على العكس، يهاجم الجميع. هل كان الحلفاء على عجلة من أمرهم لإنهاء الوضع في المانيا ؟ لا قيمة لاي اتفاق من دون موافقة مجموعة الامم المتحدة البالغ عددها ٥١ دولة. ألم يكن توقيع اتفاقات منفصلة مع ايطاليا وبلغاريا والمجر ورومانيا وفنلندا اكثر الحاحاً من ذلك ؟ اقترح ستالين ان يصار الى مناقشة ذلك مثالثة، بواسطة وزراء

الخارجية الذين كانوا يجتمعون تباعاً لهذا الغرض. ثم وافق في النهاية، على انضمام فرنسا الى الشركاء الآخرين للبحث في موضوع ايطاليا، والصين في مسائل الشرق الأقصى. فلا تطلبوا منه شيئاً اكثر ...

هل طالب الحلفاء باجراء انتخابات حرة في بلدان اوروبا الشرقية، وفقاً لما نصت عليه اتفاقيات يالطا ؟ هز ستالين كتفيه متسائلاً : هل يمتلك اليونانيون حرية الانتخاب في ظل الاحتلال البريطاني ؟ احتج ايدن من دون جدوى، وذكّر بالثروات التي استولى عليها السوفيات في رومانيا بحجة انها المانية، في حين أنها كانت في الواقع ملكاً لشركات انكليزية او اميركية وصادرها هتلر. فقال ستالين : « لنعّين خبراء في هذه المسألة ». ثم طالب بليبيا باعتبارها مستعمرة ايطالية، وبامارات كارس وأرداهان الارمينيتين، وبالاشراف على المضائق التركية. فتصدى الحلفاء بالطبع لهذه الهجمة نحو الجنوب والتي كانت تنمّ عن طموحات غريبة.

خلال المرحلة الثانية للمؤتمر، بين ٢٧ تموز و ٢ آب، اظهر الديكتاتور مزيداً من التصلب. ولم يعطِ الاستثار الاميركي للسلاح النووي لترومان اية فائدة في المفاوضات. وقد اصيب بالذهول حين راح الماريشال يطالب بخط اودير ـ نيس كحدود فاصلة بين المانيا وبولونيا. لا شك انه كان يوافق على ان يطلق على غونيكسبرغ، مدينة كانط وعاصمة بروسيا الشرقية، تسمية كالينينغراد، وان يتقاسم الروس والبولونيون تلك المقاطعة، لكن كيف يمكنه القبول بأن يتولى الجيش الأحمر تنظيم انتقال مئات الآلاف من الألمان نحو الغرب وتسليم اراضيهم الى الادارة البولونية الجديدة ؟ يتعذر مواجهة هذا الأمر الواقع بغير احتجاج شكلي.

لم يتوصل الحلفاء الى الحصول من ستالين على قيام انتخابات حرة في بولونيا. انما نجحوا في عقد اتفاق حول المانيا بغية تجريدها من كافة صناعاتها الحربية وتحاشي اعادة بنائها كدولة. وهنا اظهر ستالين مزيداً من

الكرم اذ تخلى عن الثروات وسبائك الذهب الالمانية التي وقعت بين ايدي الحلفاء في المناطق التي سيطروا عليها. فهو قد وضع يده على ٢٥٪ من التجهيزات الصناعية واعتبر انه نال ما يكفيه. كما وافق على الحصول على ثلث الاسطول التجاري والحربي العائد لالمانيا، فيما استولى الحلفاء على البقية الباقية.

هل سيلتقي الثلاثة مجدداً في واشنطن كما اقترح ترومان ؟ ردّ ستالين غامزاً من طرف عينه : ان شاء لله. وهكذا انتهى لقاء القمة الأول بولادة عالم ذي رأسين.

* * *

اين انتصارك ايها الموت ؟ هيروشيما، في ٦ آب وناغازاكي في ٩ منه، وضعتا بيرل هاربور طي النسيان. والشعب المعتدي وسفاح آسيا اصبح الضحية الأولى لنار السماء. فاستسلمت اليابان على الفور، غير ان السوفيات استولوا، اعتباراً من ٨ منه، على المقاطعات التي وافق روزفلت على التنازل عنها : فاحتلوا فاندشورى التي تشكل الجزء الجنوبي من ساكالين وجزر كوريل، شمالي هوكايدو. وبذلك توافرت لهم نافذة واسعة على الشرق الأقصى. لا شك ان الاميركيين اصبحوا قادرين على التحكم بشروط السلام مع اليابان وعلى حماية حليفهم الصيني شيان كاي شيك المنصرف الى حربه مع الشيوعيين؛ لكن استخدام القنبلة الذرية اقلق الرأي العام الأميركي. فوجدت الاعتراضات الأولى مكانها في اعمدة الصحف، اذ صرح القس برنارد ايدينغ بيل، في كنيسة الروح القدس « بان أساليبنا في الحرب بربرية ودموية ». أما « النيويورك تايمس »، فقد نشرت تصريح المراجع الدينية والسياسية العليا (المطران بروملي اوكسنام، وناظر الخارجية في عهد ايزنهاور، جون فوستر دالاس)، التي طالبت باجراء رقابة دولية على السلاح الذري. وقد لاحظ ايدينغ بيل ان الولايات المتحدة تجازف برؤية العالم يقف في مواجهتها باسم « الصليبية

الاخلاقية ». فهل يحق لشعب اقدم، بضربة واحدة، على ابادة عشرات الآلاف من المدنيين، ان يتكلم باسم الحق في منظمة الامم المتحدة ؟

في الواقع، لم تدق ساعة الأخلاقيات بعد، حتى ولو اعلن ستيمنسون، قبل اعتزاله الحياة السياسية في ايلول، انه من انصار سياسة الانفتاح على موسكو، بغية تحاشي سباق التسلح. هل كانت اجهزة الاستخبارات الأميركية تعرف ان ستالين قد كلّف العالم الفيزيائي ايغور كورشاتوف، منذ مطلع عام ١٩٤٣، بجمع مادتي الاورانيوم والغرانيت اللازمتين، وان اول مفاعل ذري سوفياتي سيكون قيد العمل عشية الميلاد عام ١٩٤٦ ؟ ويخشى ان يكون التفوق الذي احرزه التقنيون الأميركيون قصير الأمد. ذلك ان ستالين، بعد قمة بوتسدام، انكبّ بكليته، كما كان متوقعاً، على سباق التسلح النووي. كما احتدم النقاش، فيما وراء الاطلسي، اعتباراً من ايلول ١٩٤٥ حيال ما دعا اليه العسكريون بأن على بلادهم الافادة من تقدمها العلمي على افضل وجه وعدم مشاطرة اسرارها مع احد. واعلن الجنرال غروفس بان السوفيات لن ينضمّوا الى النادي النووي قبل عشرين عاماً على الأقل. كما رأى كونانت المسؤول عن الأسلحة النووية في « لجنة الابحاث الدفاعية الوطنية »، مع مديرها فانغار بوش، ان ستالين سيحصل على قنبلته الذرية خلال مهلة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات. واقترح ستيمنسون عرض معاهدة على السوفيات حول اجراء الرقابة على السلاح والحدّ منه. واعتبر ٨٠٪ من المستجوبين، في استطلاع للرأي اجرته مؤسسة غالوب، ان على الولايات المتحدة الحفاظ على تفوقها واسرارها الأمر الذي اتاح لناظر البحرية، فوريستال، ان يعلن : « القنبلة هي ملك الشعب الأميركي » وابدى ستيمنسون خشيته من ان القنبلة الهيدروجينية الجاري تصنيعها سوف تجرّ العالم الى سباق مدمّر نحو التسلح، لكنه لم يلقَ آذاناً صاغية. لا شك ان الحيرة استبدت بترومان، غير أن آلة الانتاج كانت آخذة بالدوران، وسعت الولايات المتحدة للافادة من سلاحها الجديد، للوقوف في وجه الشيوعية ــ الآخذة

بالانتشار في العالم كله ــ والتهديد بالرعب للحدّ منها.

يسود الاعتقاد بأن ترومان نفسه قد ذهل من بأس وعدوانية فريق العسكريين والصناعيين الذين اخذوا يتألبون حول البرنامج النووي، لأنه بادر على الفور الى اشراك الكونغرس في ادارة الذرة. لا ينبغي لردة الفعل هذه ان تذهلنا، ذلك أنه بقدر ما راح الرأي العام العلمي والصحافة والمراجع الدينية ينقلون النقاش الى العلانية، سعى الرئيس للحصول على ضمانات. وقال : « علينا ان نكون حرّاساً لهذه القوة الجديدة ». ولاحظ ان السياسة النووية بقيت حتى الآن بمنأى عن الرقابة البرلمانية، كونها خضعت لاشراف الجنرال غروفس والوزير سيتمنبسون والمدير بوش بصورة شبه حصرية. واوعز ترومان بنشر تقرير العالم الفيزيائي هنري سميث الذي دبج على الورق مختلف مراحل التطورات الجارية، حرصاً منه على ان يكون بمنأى عن النقد. وفي ٣٠ تشرين الأول اقترح الرئيس، في رسالة رسمية الى الكونغرس، تشكيل لجنة تتولى الاشراف ليس على انتاج الاسلحة وحسب، بل التفاوض مع الدول الحليفة. وفي ١١ تشرين الثاني، عقدت على نهر « بوتوماك » قمة اتاحت تأكيد مبدأ السرية حيث اعلن ترومان مع حلفائه البريطانيين والكنديين، انه من غير الوارد مشاطرة السر مع السوفيات. وسوف يرفض ترومان، في المستقبل، تزويد الانكليز والكنديين بما يتيح لهم انجاز سلاحهم الجديد بالسرعة اللازمة. وتوجب على الانكليز الاتكال على انفسهم لصنع قنبلتهم النووية. كان اهتمام الرئيس الاميركي منصبّاً على السيطرة، في بلاده بالذات، على مجمل القطاع النووي من خلال اقتراح تشكيل لجنة من تسعة اعضاء، من بينهم عسكريون، للتحكم بالتطورات المستقبلية. احتج العلماء بشدة وتجمعوا في قاعة « اتحاد العلماء النوويين » حيث شنّوا اول حملة صليبية، في نشرة حملت عنوان : « أما عالم موحّد وإما لا شيء ». تلقّف بريان ماكماهون ــ وهو عضو شاب في مجلس الشيوخ ــ بهذه الحركة، وشكّل لجنة في قلب مجلس الشيوخ. فوافق ترومان الذي كان ينوي

مواكبة هذه الحركة، على تشكيل اللجنة شرط ان تضم المدنيين فقط !

هكذا تشكلت، بفضل قانون ماكماهون الصادر في تموز ١٩٤٦، « اللجنة المشتركة للكونغرس » التي ضمت ثمانية عشر عضواً من المجلسين والحزبين، للاشراف على اعمال اللجنة الجديدة المشكلة من خمسة اعضاء يعينهم ترومان بموافقة مجلس الشيوخ. وبذلك بقي الرئيس فوق الشبهات.

هل سيتبع الرئيس، كما أمل سيتمنسون قبل استقالته، سياسة انفتاح عالمية حتى درجة التعاون مع السوفيات ؟ على العكس، اذ لحظ قانون ماكماهون انزال عقوبة الاعدام لمن يفشي السر الكبير، وارتفعت موجة الانعزالية تحت تأثير « اللجنة المشتركة ». والمشاركة غير واردة اذ ينبغي، اجراء رقابة على الدول التي يمكنها الافادة من معلومات لتطوير طاقتها النووية بصورة سلمية. أما الولايات المتحدة فتحافظ على سرها العسكري متحاشية التدخل في ما يؤول لاستثمار الاكتشافات في المستقبل اينما حصلت في العالم. فاستحق ترومان تكريم الكونغرس له اذ سلّمه مفتاح السيطرة على الكرة الأرضية، فيما تحمّل الشيوخ والنواب المسؤولية كاملة أمام الرأي العام الأميركي والعالمي.

* * *

غير أن الولايات المتحدة لم تكن بحاجة، خلال صيف عام ١٩٤٥ لتفوقها النووي للسيطرة على العالم، اذ كان تفوقها المالي والزراعي والصناعي ساحقاً. فقد اصبح الدولار العملة المتداولة في الاسواق العالمية والمضمونة بكميات كبيرة من الذهب. ذلك ان طريقة التعامل النقدي القائمة على مبدأ « البيع نقداً »، والمتبعة منذ مطلع الحرب، قد اجبرت الاطراف الاوروبية المحاربة على تسديد مشترياتها من السلاح بالذهب والنقد النادر ــ وهكذا حافظت ادارة روزفلت على حيادها الصوري امام الرأي العام ــ وتكدس ٦٠٪ من ذهب العالم في المصارف الأميركية.

وكان الانكليز قد خسروا نصف ممتلكاتهم من النقد الأجنبي ورزحوا تحت دين بلغ ١٤ مليار ليرة، وشكّل على حد تعبير الخبير جون ماينار كينز « كارثة مالية » شبيهة بهزيمة « دنكيرك » العسكرية. وكان الأميركيون يمتلكون وحدهم مقدار ما بحوزة سكان الأرض من الثروات. في الواقع، كان عليهم تحمّل مجهود ضرائبي استثنائي، اذ بغية تمويل « برنامج النصر » البالغة كلفته ٣٢١ مليار دولار (اي ما يوازي ٣٥ مرة موازنة عام ١٩٤٠)، تحمّلوا دفع ٤٠ مليار دولار من الضريبة، بدلاً من ٥، والقت ضريبة الدخل بثقلها على ٤٢ مليون اسرة كما فرضت الضريبة على الشركات فيما خص ارباح الحرب بنسبة بلغت ٩٠٪. غير ان هذا المجهود الضرائبي الذي لم يسبق له مثيل بقي متواضعاً في نتائجه، ذلك ان ثلاثة اخماس النفقات كان يجري تمويلها بواسطة الاستدانة. في كل حال، ادّت السحوبات المقتطعة لحساب « ضريبة النصر » الى ايهام المستخدمين بأنهم يتحمّلون عبء « اكبر قانون ضرائبي في التاريخ »، حتى ولو كان الدين العام قد ارتفع، في خمس سنوات، من ٤٩ الى ٢٥٩ ملياراً. اضافة الى ذلك، ادّى انتاج السلاح الى قيام نظام العمالة التامة وزوال البطالة (٦٥ مليون مستخدم من بينهم ١٩ مليون امرأة) والى زيادة الاثراء العام، لأن الطبقات الوسطى اصبحت تمثل، عام ١٩٤٥، وبحسب كيركندال، ثلث السكان. ولم يؤثر تجنيد ١٢ مليون رجل في مجهود الانتاج او في تراكم الأرباح. وقد شكل رجال الأعمال القدوة من خلال مشاركتهم التامة في « برنامج النصر ». مثاله ان ستيمنسون كان محافظاً لمؤسسة مالية فتحول الى مدير مصنع للفولاذ. وكذلك فعل وليم س. كنودسني مدير شركة جنرال موتورز الذي اصبح مسؤولاً عن عقود التسلح بتكليف من روزفلت. وهكذا تحوّل اصحاب الملايين الى صناعيين، ولم تشكل الحرب صدمة لهم بأي شكل من الأشكال. على العكس، اذ انتجت الصناعات الأميركية من الاسلحة عام ١٩٤٤ ما يعادل خمسي انتاج الكرة الأرضية من السلاح.

ادى تكديس وسائل الدفع المتوافرة الى الاخلال في عمليات التبادل والى تعريض الازدهار الاقتصادي للخطر. فاذا كانت الصناعة الاميركية تريد الحفاظ على ايقاعها بعد الحرب، فيتعيّن عليها اجراء عملية اعادة توزيع للثروات بغية تشجيع التجارة. وقد عقد لهذا الغرض اجتماع في بريتون وودز، في ولاية نيو همشير، من الأول من تموز حتى ٢٢ منه ١٩٤٤، برعاية وزير الخزينة هنري مورجينتو. ويأتي هذا الاجتماع تتمة لثلاثة لقاءات دولية سابقة عالجت مسألة دعم الزراعة وسبل تطورها العالمي (في فرجينيا)، واعادة الاعمار والاغاثة (في اتلانتيك سيتي) واخيراً اعادة تحديد شروط العمل (في فيلادلفيا). وبذلك أكد روزفلت تصميم اميركا على تنظيم مرحلة ما بعد الحرب بطريقة عقلانية. ففي بريتون وودز سعى علماء الاقتصاد والمال من ٤٤ دولة (اكثر من نصفهم من دول اميركا وعشرة فقط من اوروبا) الى وضع تصوّر لتطبيع الوضع المالي واتخاذ الاجراءات التي تتيح اعادة التوازن وعودة العلاقات التجارية الى طبيعتها بين الدول الغنية والدول الفقيرة.

جرى، في هذا الاجتماع، اتخاذ قرارات رهنت مستقبل العالم لمدة نصف قرن؛ فالذهب لن يكون بالتأكيد وحده قاعدة النقد، باعتبار ان الانكليز لا يرغبون به بسبب وصولهم الى حافة الافلاس. اما التبادل الاقتصادي فينبغي تثبيته بالاستناد الى النقد الأميركي الذي حددت قيمته بمبلغ ٣٥ دولاراً لكل اونصة من الذهب. وانشئ صندوق النقد الدولي لتأمين استقرار مختلف العملات لدى الدول الاعضاء، التي لم يعد بالتالي لعملتها اي مسوّغ كي تعلو او تهبط باكثر من ١٪ من قيمتها. وهكذا تحولت الولايات المتحدة الأميركية الى حارس يسهر على النظام النقدي العالمي.

غير ان الدول احتفظت بحريتها، لأنها كانت تستطيع تخفيض عملتها أو اعادة تقويمها بالنسبة لقاعدة الدولار ــ الذهب، وحتى اجراء رقابة

على النقد ـــ على مسؤولياتها. ولم تكن مجبرة على الانتساب الى صندوق النقد الدولي، غير أن قبولها لم يكن ممكناً الا اذا شاركت في التمويل، وبالقياس الى مدى نفوذها. وهكذا، احتج بيار منديس فرانس بشدة، بوصفه الناطق باسم اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، لأن حصة بلاده تقل عن حصة الصين بمبلغ ٤٥٠ مليون دولار، في حين أن الولايات المتحدة دفعت ثلث المبلغ الاساسي (١٠ مليارات دولار). ذلك أن توزيع الحصص كان حاسماً لأن الدول الاعضاء كانت تتمتع بسلطة تقريرية تتناسب وحجم مشاركتها النقدية. أما الاتحاد السوفياتي فقد رفض التسليم بهذا التحكم الجائر، فيما قبلت في هذا الصندوق بتاريخ ٢٧ كانون الأول ١٩٤٥. عضوية ٢٥ دولة شكلت فئة المحظوظين على وجه الكرة الأرضية. وقد لفت مورجانتهو نظر منديس فرانس الى ان فرنسا قد حصلت على امتيازين هامين، فهي من جهة، واحدة من الدول الرئيسية الخمسة المودعة في الصندوق ولها، من جهة اخرى مقعدها في لجنته التنفيذية. وسوف يصبح الدخول الى قدس اقداس عالم المال الدولي، هدف كافة الدول الحريصة على احتلال مكانتها كشريكة في هذا الصندوق بغية الحصول على القروض. وبعد ثلاثين سنة، سوف تحتشد دول اوروبا الشرقية على ابواب هذا النادي حيث النفوذ يرتبط بالدولار بشكل وثيق.

كذلك نشأت في اليوم نفسه مؤسسة اخرى هي صندوق المدفوعات الدولية وانحصرت عضويته بالدول ذاتها التي توجب عليها دفع مساهمتها في الرأسمال والحصول على حق التعامل في الاسواق المالية. وكان على هذا المصرف ان يستجيب لحاجة الدول المحتاجة التي عليها التقدم بطلب لهذه الغاية، مقابل تقديم الضمانات. وهكذا كان هذا المصرف يمتلك الوسائل التي تخوله ـــ للموافقة على القروض المطلوبة ـــ الزام الدول الاعضاء باتباع سياسة اقتصادية في موازناتها، تتطابق مع المعايير التي يحددها. وبذلك امسك صندوق المدفوعات الدولية وصندوق النقد

الدولي ليس بمفتاح تنمية دول « العالم الثالث » وحسب بل ايضاً بمسألة رقابة وادارة نظام المبادلات الدولية الذي تنامت فعاليته مع الايام.

* * *

اصبح الاميركيون اسياد المال في العالم بفضل تلك المؤسسات الدولية التي امتنع السوفيات عن المشاركة فيها، كما كانوا يمتلكون وحدهم قوى متحركة في المحيطين الكبيرين. ولم يكونوا متورطين في احتلال المستعمرات والأراضي. اذ من اصل ١٢ مليون مجنّد، جرى توزيع ٥ ملايين منهم فقط في ٩١ وحدة عسكرية انتشرت على كافة الجبهات. وكانت ضرورة مساعدة بريطانيا العظمى على السيطرة على المحيط الاطلسي والتصدي للاسطول الياباني في المحيط الهادئ قد قادت الاميركيين لاتباع سياسة تسلح بحري جعلت من اسطولهم، عام ١٩٤٥، اقوى الاساطيل في العالم، اذ بلغت حمولته ٤٢٥٠ طناً مقابل ٢٤٩٥ طناً للاسطول البحري البريطاني. وقد شكّلت القوات البحرية الاميركية، من خلال ثلث او ربع عددها في المحيط الاطلسي فقط، اسطولاً كبيراً مؤلفاً من ٩٠ حاملة طائرات وسفن ثقيلة وغواصات تحمل على متنها حوالي ٥٠٠,٠٠٠ جندي من نخبة جنود البحرية. وبلغ عدد العمال في الاحواض البحرية المليون عامل وتجاوزت اعداد القوات البحرية عام ١٩٤٥ ٣,٤ مليون رجل. ولم تشهد بحار العالم اسطولاً بحرياً بهذه الاهمية على الاطلاق، وهو ضمن للولايات المتحدة سيطرة مطلقة على المحيطين الهادئ والهندي، بعد استسلام اليابان.

كانت القوات الجوية الجناح الآخر من تلك القوة التي حققتها الولايات المتحدة الأميركية. واذا كان الانكليز قد طوروا اولى برامج تصنيع الطائرات القاذفة الثقيلة، فالسلاح الجوي الأميركي كان الوحيد الذي يمتلك قاذفات ضخمة ب ٢٩ تنطلق من قواعد تبعد عشرة آلاف كلم عن أهدافها. عام ١٩٤٥، جرى تعبئة مليوني رجل في سلاح

الطيران الذي وزّع قواعده في كافة انحاء العالم كي يستقبل ما يناهز ٨٠٠٠٠ طائرة من بينها الطائرات المطاردة السريعة ب ٥١ من طراز موستانغ.

كما خرجت المدارس في فترات قياسية ما يناهز ٢٠٠٠٠٠ طيار. اما انكلترا، وهي القوة الجوية الثانية في العالم، فقد تعرضت لخسائر جسيمة ولم تعد تمتلك، عام ١٩٤٥ اكثر من ٩٢٠٠ طائرة. وبذلك يتبين لنا الفارق الكبير بين القوتين.

الى جانب ذلك، شكّلت الاختراعات التكنولوجية منافع ذات اهمية بالغة الى جانب كونها مصدر نفوذ وكسب مادي لا يستهان به. واذا كانت الاحواض البحرية استطاعت صنع سفينة واحدة في ١٤ يوماً، فانها انزلت على وجه السرعة آلاف السفن الى المياه، ضامنة بذلك لاميركا ثلثي الشحن العالمي، ومن بينها ٦٠٪ لشحن النفط وحده. وهذا الخلل الكبير جعل الاسطول التجاري الأميركي يحتلّ المركز الأول في العالم. وجاء التقدم في صناعة طائرات البوينغ ذات القدرة على الطيران لمسافات طويلة، ليتيح للشركات الأميركية ان تمتلك، عام ١٩٤٥، ١٥٠٠٠ طائرة عابرة للمحيط، فاحتكرت حركة النقل الجوي بصورة شبه تامة.

راحت جميع الجيوش في العالم تسعى للتزود بالسلاح الأميركي وشراء سيارات الجيب الخارجة من مصانع فورد باعداد تبلغ ٦٠٠,٠٠٠ سيارة، الى جانب ٨٠,٠٠٠٠ شاحنة ج م س التي تسلّم السوفيات منها ١٠٠,٠٠٠ شاحنة. والمعلوم ان البحرية تستطيع القيام بعمليات انزال بحري بفضل اجهزتها المتطورة، وتجهيز جزر نائية بالقواعد العسكرية، واصلاح حاملات الطائرات المصابة في عرض البحر وتقديم عدد وافر من المرافئ الاصطناعية. فالجيش الأميركي هو الاقدر على الحركة والاحدث من حيث التجهيز بالنظر لاستعماله الرادار، واجهزة التخابر اللاسلكي (توكي ووكي) ومحطات الارسال والاضواء الكاشفة التي تتيح اطلاق

النار ليلاً. والمعروف ايضاً ان المظلات تصنع من النايلون وان مادة د.د.ت تقتل البرغش في المعسكرات القائمة في المحيط الهادئ، وان الجرحى والمرضى يستطيعون استعمال مخدر جديد صنع حديثاً في المختبرات الأميركية، وهو ستربتومايسين الذي اكتشف عام ١٩٤٤ بعد البنسلين. واذا كان البريطانيون قد اخترعوا اولى الناظمات الآلية التي تستطيع فك رموز الرسائل الالمانية السرية، فان الأميركيين صاروا اسياد الأكترونيات باختراعهم جهاز مارك الذي يتمتع ببرنامج آلي يقوم بعمليات حسابية بصورة اسرع من الانسان بمئة مرة.

الى ذلك، امتلكت اميركا دماغاً الكترونياً يستطيع انتاج ماية الف ذبذبة كهربائية في الثانية، كما نجحت في صنع مسجلات الصوت ونقل رسائل عدة على موجة واحدة بواسطة مضاعف الارسال، واصبحت من دون منافس في حقل الاتصالات، فالموجات القصيرة آخذة في الحلول محل الاسلاك البحرية (كابل) في نظام الهاتف عبر القارات. كما اضحت الولايات المتحدة على اتصال بتسعين دولة بفضل تجهيزات آرسي اي. كما اخذت كبرى وكالات الصحافة (يونيتد برس واسوشيتد برس) تستخدم التقنيات الحديثة واسلاك اي تي تي لاستكمال انتشارها في العالم، منافسة بذلك وكالة تاس السوفياتية ورويتر البريطانية التي انصرفت كلياً نحو الاخبار الاقتصادية. وقد ساعدت الدولة الاتحادية على اتباع هذه السياسة، معتبرة ان مبدأ الاعلام الحر يجب أن يغزو العالم قاطبة. وقد قام الاتحاد الاميركي لناشري الصحف بالانتقال (على متن طائرات سلاح الجو الأميركي) الى احدى عشرة دولة اعتنقت هذا المبدأ، عام ١٩٤٤، وشكّلت بالتالي اول قوة ضاغطة في العالم.

وهذا البلد الذي ينتج نصف ما ينتجه العالم من الفحم وثلثي انتاجه ايضاً من النفط يتحمل في الوقت عينه ومن خلال منظمة الامم المتحدة، تبعة مساعدة المناطق البائسة في العالم، وبالدرجة الأولى تلك التي تخلّى

عنها المستعمرون. وهذه هي مهمة « منظمة الامم المتحدة للاسعاف والنهضة » التي وزعت خلال سنتين ٢٥ مليون طن من المواد الغذائية للبلدان المحتاجة. وثمة منظمة اخرى هي منظمة الأغذية والزراعة (الفاو)، تتولى توزيع فائض القمح والذرة من القارة الأميركية على مختلف بلدان العالم. اما منظمة الطيران المدني ومنظمة النقل عبر القارات فتقومان بمساعدة البلدان المنكوبة على اعادة تجهيز ذاتها بغية اسعافها. ذلك ان مهمة الامم المتحدة الأولى هي توفير الاسعافات الآنية.

في الاصل، كانت الامم المتحدة « نادياً » تخيله روزفلت لاستضافة الاعداء من دول المحور. ففي الاول من كانون الثاني ١٩٤٢، وقعت ٢٦ دولة « اعلان الامم المتحدة » الذي نصّ على مبادئ نظام السلام والامن في العالم كله وهي التالية : الدول الكبرى الاربعة (الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي والصين) ودول الدومينيون البريطانية الخمسة (المرتبطة بالتاج البريطاني)، وتسع دول صغيرة في اميركا الوسطى ترتبط بالولايات المتحدة، وثماني دول اوروبية لها حكومات في المنفى (اليونان ويوغوسلافيا وبلجيكا، وهولندا، والنروج واللوكسمبورج وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا). وضم مؤتمر « دومبارتون اواكس » في آب ـــ ايلول ١٩٤٤ سبع دول جديدة. وهذا الانضمام الجديد ليس بريئاً : فالحبشة (التي اخلاها الايطاليون عام ١٩٤١) وليبيريا لم تفاجئا احداً باعتبار ان هاتين الدولتين افريقيتين ومستقلتين، وهو امر غير مألوف. اما الفيليبين (وهي مستعمرة اسبانية قديمة انتقلت تحت ظل الحماية الأميركية) فقد تلقت وعداً من روزفلت بمنحها استقلالها قريباً فلماذا لا يصار الى اشراكها على الفور في جلسات الامم المتحدة. وسبق لايران ان وقعت معاهدة مع الحلفاء ويمكن قبول عضويتها مثل العراق الذي تحتله بريطانيا وهو ذو نظام ملكي ويدّعي الاستقلال. اما البرازيل فدخولها طبيعي، ذلك ان الاميركيين وظفوا الرساميل في مناجم الحديد وبنوا مصنع الفولاذ في فولتا ريبوندا،

واستخرجوا الثروات المعدنية والزراعية في البلاد. وتضاعفت تجارتها مع الولايات المتحدة، اذ بلغت قيمة الاستثمارات اكثر من ١٠٠ مليون دولار. كما بنت شركة بان ام المطارات الدولية. وقد وافق الرئيس فارغاس، بعد تردد طويل (الجاليات الالمانية والايطالية واليابانية كثيرة العدد في البرازيل) على دخول بلاده الحرب عام ١٩٤٢ : كانت البحرية تتصدى للغواصات الالمانية، وتم ارسال حملة عسكرية مؤلفة من حوالي عشرين الف جندي الى الجبهة مع ايطاليا. كما يمكن قبول عضوية المكسيك ايضاً : ذلك ان الديكتاتور كارديناس ينتمي الى اليسار وقد امم النفط ووزع الملكيات الكبيرة. أما خلفه كاموشو فقد انحاز الى الولايات المتحدة اعتباراً من عام ١٩٤٠. فتلقت بلاده مساعدة مالية وقرضاً لتجهيز الجيش الذي قدّم فرقة من طياريه للعمل مع الطيران الأميركي في المحيط الهادئ. وقد ادت تسوية النزاع القائم حول النفط بين البلدين الى توجّه البلاد نحو التصنيع وانشاء المدارس؛ ومعلوم ان المكسيك تستورد ٩٠٪ من حاجاتها من الولايات المتحدة. وعلى هذا الاساس حصلت المكسيك على مقعدها في الامم المتحدة، اسوة بجنوبي افريقيا في عهد الماريشال سموت، وقبل وقوعها تحت نظام التمييز العنصري في ظل حكم مالان.

لماذا لم توقع كل من فرنسا والارجنتين اعلان الامم المتحدة ؟ ادّى الخلاف الناشب بين ديغول وروزفلت الى غياب فرنسا عن المشاركة في عضوية الامم المتحدة حتى كانون الثاني ١٩٤٥ حين انتسبت اليها. اما الارجنتين، فقد انتهت بقبول ستالين بعضويتها لكونه كان يتهم نظام بيرون الديكتاتوري بالتريث في اعلان الحرب ضد المانيا حتى آذار ١٩٤٥. وحين انعقدت قمة سان فرانسيسكو، في نيسان، انضمت الى النادي جمهوريات جديدة في اميركا الجنوبية، ومصر وتركيا والعربية السعودية، كما قبلت عضوية كل من سوريا ولبنان وكلاهما كانا تحت الانتداب باشراف عصبة الامم. وكذلك روسيا البيضاء واوكرانيا اللتين ادعى ستالين انهما جمهوريتان مستقلتان. وجرى الاحتفاظ بمقعد لبولونيا

على الرغم من عدم معرفة نوع الحكومة التي ستتألف فيها بالضبط. وهكذا وافقت ٥١ دولة على احترام الحقوق الاساسية للانسان « من دون اي تمييز في العرق والجنس والدين ». وجرت ادانة الاعمال العدوانية ودعيت الدول المستعمرة الى الاعتراف « باسبقية السكان في البلدان المستعمرة ». وصار للامم المتحدة ــ خلافاً لما كان عليه الحال في عهد عصبة الامم ــ ان تلجأ للقوة المسلحة لتأمين السلام. غير ان استعمال هذه القوة لم يكن خاضعاً لقرار الجمعية العمومية : وحده مجلس الامن يستطيع تقرير ذلك، ويتمتع كل من الاعضاء الدائمين الخمسة (الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي وفرنسا وانكلترا والصين) بحق النقض (الفيتو). والبيت الزجاجي الذي ارتفع صرحه لاحقاً على قطعة ارض قدمها الثري الأميركي روكفلر، بني على اساسات غير واضحة، ذلك أن الأميركيين كانوا متمسكين كالسوفيات بحق النقض الذي يؤمن استقلال سياستهم الخارجية، لكنه كان يعرّض عمل المنظمة للشلل في كل حين. مع ذلك، سوف تحقق ناطحة السحاب هذه الحلم الاميركي بعد الحرب، اذ ستشكل بيت الحق الذي سوف يؤدي مع مرور الزمن الى زوال الظلم. وستتولى المنظمات الاجتماعية للتنمية الثقافية (الاونيسكو) المساهمة في اخراج العالم من حلقة العنف الجهنمية من خلال التخفيف من حدة التوتر. وينبغي، في تصور مؤسسي منظمة الامم المتحدة، ان تؤدي الثقة بالتقنية والعقل، والايمان بقيم الحرية والمساواة، الى انتصار الخير حتماً.

* * *

جرى التساؤل حول مدى ضرورة اعادة بناء « دولتي الشر »، المانيا واليابان. واحتلّ الاميركيون، في المحيطين مواقع مختلفة : فقواتهم البرية هي باعداد كبيرة في اوروبا (ثلاثة ملايين رجل في مقابل ١,٤ في المحيط الهادئ والصين وبرمانيا). غير أن تفوقهم الجوي والبحري اتاح

لهم سحق اليابان التي وقعت صك الاستسلام في ٢ ايلول، على متن البارجة ميسوري قبالة طوكيو. وكان تمثيل الحلفاء رمزياً، لأن الأميركيين وحدهم المنتصرون، فضلاً عن احتلالهم اليابان لوحدهم. أما السوفيات فلا يستطيعون التدخل سوى في اوروبا الشرقية، وعليهم في المانيا ان يحسبوا حساباً كبيراً لحلفائهم. وهنا برز التفاوت المثير في معاملة الدولتين العدوتين، ففيما بقي امبراطور اليابان في مركزه، على رأس دولة اعيد بناؤها على الفور، زالت الدولة الالمانية من الوجود.

ثمة ما يقارب ٦,٤ مليون من المدنيين والعسكريين اليابانيين ينبغي عليهم مغادرة الصين وكوريا واسيا الجنوبية ــ الشرقية، غير أنهم عادوا الى ديارهم دون ان يضطروا الى مغادرة بلدانهم. بالمقابل، غادر ١١ مليون الماني بيوتهم من دون اي امل بالعودة، وقد اخرجتهم منها الشعوب السلافية التي اسكنها ستالين بالقوة في الاراضي المحررة، وقد جاؤوا من بروسيا الشرقية وسيليزيا وبوميرانيا وكذلك من بلاد السوديت (في تشيكوسلوفاكيا) حيث هربوا اولاً من وجه الجيش الأحمر ثم طردوا منها بلا هوادة. اما اليابانيون فقد نجحوا بصعوبة في البقاء على قيد الحياة خلال شتاء عام ١٩٤٥، فالعديد من المدن دمرت بنسبة ٥٠٪، ومات مليونا جندي، وفقدت البلاد اسطولها التجاري الذي كان يتيح لها استيراد البضائع، وصناعتها ووسائل المواصلات، وعانى ١٣ مليون نسمة من الجوع. غير أن مصير الالمان كان اشد سوءاً، اذ هلك ٦ ملايين نسمة بفعل الحرب، واذا كانت الطاقة الصناعية هي ابعد من ان تدمّر فان السكان قد غادروا المدن التي تعرضت للدمار (١٣٥,٠٠٠ قتيل سقطوا في غارة واحدة على دريسر في ١٣ شباط عام ١٩٤٥)، واستئناف النشاط الاقتصادي غير ممكن من جراء عدم توافر اليد العاملة والمواد الأولية. وهدّد المرض والاوبئة سكان الجزء الغربي من المانيا البالغ عددهم ٤٥ مليوناً. يتبين اذن ان اليابان محظوظة نسبياً، وتحميها لغتها وحضارتها؛ ونادراً ما نجد خبراء اميركيين يستطيعون التحدث باللغة

اليابانية او قراءتها. وتمت ازالة الوثائق والخطط على وجه السرعة، وتحاشى ماك ارثور ــ وهو الحاكم ذي النظارات السوداء ــ اللجوء الى اي تدبير جائر، فلم يفرض حظر التجول او القانون العرفي. وظل جنود الاحتلال يستهلكون حصصهم اليومية من الطعام والشراب من دون اللجوء الى اعمال المصادرة، وتجول الضباط في الشارع من دون سلاح. واعتقد الاميركيون ان اليابانيين شعب عاقل يحتاج فقط للتخلص نهائياً من العسكريين.

غير أن النظام الذي اقيم كان ثورياً، ذلك أن ماك ارثور اراد ليس فقط تجريد البلاد من السلاح بل انشاء النقابات والتعليم الحرّين واجراء الانتخابات الديمقراطية حيث تستطيع النساء ممارسة التصويت ــ وقد قال : « اريد تحطيم نفوذ العسكريين، فالنساء لا تحب الحرب » ــ وهو سعى لتغيير اليابان لا بعملية تطهير بسيطة، بل بانقلاب اجتماعي وسياسي في العمق. ولم تنج اليابان من محاكمة مجرمي الحرب، غير أن ماك ارثور لم يكن مستعجلاً، وسوف ينتظر حلول عام ١٩٤٨ كي يحاكمهم. فاوقف ١١٢٨ شخصاً فقط. واقدم عدد من الوزراء على الانتحار. واطلق توجو على نفسه رصاصة في قلبه لكنه نجا من الموت، وتناول الاميركونوي السم كيلا يسيل الدم الملكي الثمين على الأرض. واعلنت حكومة البارون شيديهارا « الشرعة اليابانية لحقوق الانسان » التي املاها عليها ماك ارثور. لقد فرض « البرابرة ذوو الشعر الأحمر » نظرتهم الى الدنيا على اليابان، ففتحوا علب الليل، وأكشاك بيع الصحف وعلّموا اليابانيين لعب القمار مع احتساء الجعة او الكوكاكولا. كان المجتمع في الظاهر منفتحاً على التغيير ... واليابان يحكمها نظام يقوم على سلطة احتلال واحدة.

لا شيء من هذا القبيل في المانيا حيث وضع الحلفاء يدهم مباشرة على مسألة السيادة وجردوا البلاد من سلطتها. وقد اكّد ستالين عام

١٩٤٢ اسوة بويلسون عام ١٩١٨ انه « من السخف تشبيه طغمة هتلر بالشعب الالماني والدولة الالمانية » وبعد تحقيق النصر في ستالينغراد، حاك ستالين مسألة تشكيل « لجنة المانيا الحرة » بغية ايصال النخب الشيوعية الى سدة الحكم لاحقاً في برلين. اما الحلفاء الذين لم يكونوا يريدون السماع بدولة المانية، فقد اتفقوا في طهران علي فكرة تفكيكها النهائي. حتى ولو لم تتبع خطة مورجانتهو. الذي كان ينوي تحويل الرايخ الى دولة تقوم على تربية الماشية وتدويل المنطقة الصناعية في الروهر وانقطاع مناطق واقعة في اطراف البلاد ـــ فقد عمد الحلفاء في لندن الى تقسيم البلاد ـــ التي قلصت مساحتها الى الحدود التي كانت لها عام ١٩٣٧ ـــ بغية الوصول الى تجزئتها واحتلالها لآمد طويل. وهكذا جرى رسم ثلاث مناطق وتقسيم « برلين الكبرى ». تمثلت فرنسا ـ التي قبلت عضويتها كدولة محتلة في مؤتمر بوتسدام ـــ في مجلس القيادة في برلين وكذلك في هيئة الرقابة ذات الرئاسة الدورية المؤلفة من قادة الجيوش الأربعة. جرى تنظيم الاستسلام للشعب بأكمله لا للجيش وحده. وقد اوكلت الوثيقة رقم ١٠٦٧ الصادرة عن مؤتمر بوتسدام الى سلطات الاحتلال المهمة التالية : تجريد البلاد من السلاح تحت اشرافها ومسؤوليتها وخصوصاً اقتلاع جذور النازية وتطهير الادارات والمؤسسات والقضاء والتعليم والبلديات منها. وفي حين لم يفرض الاميركيون على اليابان سوى نفقات الاحتلال، اقتطع الحلفاء في المانيا على سبيل التعويض عن الاضرار جزءاً مهماً من المعدات الصناعية لحساب الاتحاد السوفياتي. فقد تضمن الاحتلال سلب الحقوق، مقابل عمليات النهب التي مارسها النازيون في كل انحاء اوروبا خلال الحرب. غير أنه ينبغي التوضيح ان المانيا ستعامل على اساس كونها كياناً اقتصادياً واحداً وسوف يصار الى اقامة حكم محلي لا مركزي على اساس ديمقراطي وتحت رقابة القوى المحتلة.

محاكمة مجرمي الحرب لم تدم طويلاً، اذ بدأت محاكمات نورمبرج

في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥ واستمرت حتى الأول من تشرين الأول ١٩٤٦. ترافقت احكام الاعدام العشرة شنقاً مع تطهير ومحاكمة مرتكبي الجرائم الجماعية. وقد اوضحت توجيهات الهيئة الحاكمة صراحة ان « المانيا لم توضع تحت الاحتلال بهدف تحريرها ». اقيمت معسكرات اعتقال لكافة الذين جرى توقيفهم بسبب وظائفهم. وهكذا تم احتجاز ٦٤,٠٠٠ شخص في المنطقة البريطانية و ٩٥,٠٠٠ في القطاع الأميركي و ١٩,٠٠٠ لدى الفرنسيين و ٦٧,٠٠٠ لدى السوفيات. اقيل جميع الموظفين من مناصبهم وحظر على اعضاء الحزب النازي ممارسة اي نشاط باستثناء العمل اليدوي. وجرى اعتماد مجموعة من الاسئلة المتماسكة التي تتيح غربلة السكان. لا شك ان الاخطاء عديدة، واتاحت بعض حالات عدم امكانية استئناف الدعاوى باعادة بعضهم الى منصبه، مثل البروفسور هايديجير المنتسب الى الحزب الوطني الاشتراكي، اذ كان ينبغي استئناف الدروس ...

بقي الاداريون الحلفاء، وعددهم قليل جداً، وليسوا دائماً اكفّاء، عاجزين عن تأمين استئناف النشاط الاقتصادي : ففي عام ١٩٤٦ عانى ١٠٠,٠٠٠ شخصاً في هامبورغ من مرض الاوديما من جراء الجوع واحصي في كولونيا ١٥٠٠٠ مومس. مع ذلك، اقام المحتلّون في المدن الغربية مجموعة من الوجهاء الجدد الذين سوف يتسلمون شؤون البلاد في المستقبل. فعيّن رينهود ماير وزيراً في بادرويرتينبرغ وكارلو شميدت في توبينجين. كما عين لودفيغ ايرهارد وزيراً في ميونيخ والدمقراطي المسيحي هنريتش لوبكه في دوسلدورف. كما انشأ المحتلّون ادارات بلدية من خلال تقسيمها جغرافياً بصورة مصطنعة. حتى في القطاع السوفياتي، جرى السماح بقيام اربعة احزاب، من بينها الحزب الاشتراكي ــ الديمقراطي. فسقطت المانيا في التقسيم. بعد ذلك، اتاح التنافس الاميركي ــ السوفياتي نشوء تجمعات اكثر تماسكاً، بمبادرة من

الحلفاء الذين اصبحوا فجأة على عجلة من امرهم لاعادة تشكيل الدولة الالمانية.

لم تتعرض اليابان لمثل هذا التردد، فهي عاشت منذ اول الامر اللعبة الديمقراطية تحت قبضة الجنرال ماك ارثور. فكانت الحكومات مسؤولة امام « الدييت » (مجلس الممثلين ومجلس المجموعات). ولم يعد الامبراطور الهاً او « كامي » (اي روحاً خالدة) بل « رمز الدولة ووحدة الشعب ». لم يعد لديه مستشارون. وثروته الضخمة المماثلة لثروة روكفلر، عادت الى الدولة. اما حكام المقاطعات فينتخبون، والمحكمة العليا تحمي استقلال القضاة الذين تعينهم الحكومة.

ونصت المادة ٩ من الدستور الجديد على ان الشعب الياباني قد « تخلّى عن الحرب الى الأبد » ولا يمتلك اي جيش — وهي المرة الأولى التي تقبل فيها دولة ما تضمين دستورها ما يحظر الحرب. لكن، الم تتخلَ اليابان، بهذا الشرط، عن جزء من سيادتها ؟

* * *

سعى ماك ارثور للتخلص من الامبراطور هيروهيتو، وتصفية بعض معاونيه، غير أن القاضي الاميركي كينان صمد في وجه القاضي الاوسترالي ويب لابعاد تهمة الحرب عن الامبراطور واسرته. ولم تصب هذه التهمة سوى توجو ورئيس الوزراء السابق هيروتا وخمسة جنرالات اعدموا شنقاً. في حين ان اليابانيين اقدموا حين احتلوا آسيا على محاكمة ٥٧٠٠ ونفذوا حكم الاعدام بـ ٩٢٠ منهم، فاعدم الجنرال هوما في مانيلا وشنق الجنرال ياماستيا في الفيليبين. لكن من غير الوارد محاكمة الامير هيفاشيكوني الذي اوعز بضرب المدن الصينية، ولا الامير فوشيمي الذي امر بمذابح نانكين. على الرغم من اعتراضات الاوستراليين والسوفيات والصينيين، وعلى الرغم من تدخل عضو الكونغرس في واشنطن السيناتور راسل، انقذت اليابان رأسها مع الامبراطور. وعندما سئل ماك ارثور لماذا عفا عنه

اجاب بأنه لا يستطيع مواجهة اندلاع ثورة بما بقي له من رجال لا يتجاوز عددهم ١٠٠,٠٠٠ جندي.

غني عن القول ان التصفية قد اصابت عدداً كبيراً من الاشخاص المعنيين وانتهت الى وضع يماثل ما اقدم عليه الغربيون في المانيا: فالشيوعيون اليابانيون الذين خرجوا من السجون، والصحافيون اليساريون والصينيون والكوريون عاونوا الاميركيين في وضع لوائح التطهير. فتم عزل العديد من الموظفين والسياسيين من مناصبهم، وتطهير ٣٥٠٠٠ مناضل سياسي، وتعرض ٢٠٠,٠٠٠ من المصابين بالطاعون للعقاب الجماعي. وجرى تفكيك المجمعات الصناعية والمالية (زاباتسو)، اذ ارسل ماك ارثور شاحنات عسكرية لمصادرة اسهم الشركات الرئيسية حيث ابعد ١٥٠٠ من كبار موظفيها وحلّت الشركات المشتركة الكبرى غير أن هذه العملية الاصلاحية ما عتمت ان غاصت في الرمال المتحركة. وفي المانيا، جرى توقيف هوغو ستينس وتسعة وثلاثين عضواً في كارتل الفحم، وحكم على الفرد غراب بالسجن لمدة ١٢ سنة. غير أن القانون الانكلو ــ اميركي رقم ٧٥ اوكل اعادة تنظيم الصناعة الى خبراء المان، وخلف تعقيدات حلّ الكارتلات القائمة، تكمن قواعد نهضة صناعية جديدة. ولا احد ينوي بعد اليوم تطبيق خطة مورجينتهاو.

* * *

هكذا نجد أن دولتين قد وصمتا بالعار وحرمتا من سيادتهما، ومع ذلك فان قدراتهما الصناعية التي اتاحت لهما خوض حروبهما العدوانية لم تدمّر.

ويمكن تفسير هذا التساهل من جانب الحلفاء بخشيتهم المزدوجة، من الصينيين الشيوعيين في الشرق والسوفيات في الغرب.

يبدو أن ترومان وماك ارثور لا يثقان بصورة كافية واكيدة بالصين كي

يجعلا من اليابان عدواً لدوداً. فالصين التي وقعت شرعة الامم المتحدة يحكمها شيانغ ــ كاي ــ شيك الذي خاض الحرب ضد اليابان باموال وأعتدة أميركية. وهو يرأس حزباً قومياً (غيوميندا غ) ولم ينجح في السيطرة على كافة انحاء البلاد بعد استسلام اليابان : فالروس تقدموا في ماندشوري، فيما كان ماوتسي تونغ يحصّن في الشمال مواقع جيشه الشعبي، للاستيلاء على الأسلحة التي خلفتها الوحدات اليابانية المنحلّة. واضطر ترومان الى ارسال ٥٠,٠٠٠ جندي اميركي وثلاثة الوية من المقاتلين الوطنيين الصينيين الى الشمال بطريق الجو. واصبح الجيشان التابعان لكل من ماو وشيانغ وجهاً لوجه وعلى باب قوسين او ادنى من المجابهة. وعلى الرغم من ان ستالين قد اعترف بالصين الوطنية فان جيش التحرير الشعبي رفض ذلك. غير أن القيادة السوفياتية تصرفت ميدانياً خلافاً لموقف ستالين الرسمي، مما اتاح قيام « الجيش الديمقراطي الموحد للشمال والشرق »، بفضل الاسلحة اليابانية التي استولى عليها جيش ماندشوري. وللحال اوفد ترومان الجنرال مارشال الى الصين في محاولة لفرض اتفاق، وفور جلاء السوفيات عن ماندشوري في نيسان ١٩٤٦، نشبت الحرب الأهلية، وشنّ جيش التحرير الشعبي هجوماً في الوقت الذي كانت القوات الأميركية تنسحب من الصين. وتحت ضغط اللوبي الصيني في واشنطن، ضاعف ترومان المساعدة الاميركية لشيانغ ــ كاي ــ شيك؛ ومذاك اصبحت المواجهة حتمية.

وثمة مواجهة اخرى مماثلة في كوريا حيث كان الجنرال السوفياتي سيستياكون وجهاً لوجه مع الجنرال الأميركي هودج الذي تلقى تعليمات بوجوب ممارسة سلطاته بالاشتراك مع نظيره السوفياتي وليس تفويض تلك السلطات الى الحكومة الكورية. على العكس، كان ستالين قد شجع في الشمال قيام حكومة شيوعية يرأسها كيم ــ ايل ــ سونغ، عضو الحزب الشيوعي السوفياتي. فاحتجّ زعيما كوريا الجنوبية، سينغمان ري وكيم كوو ضد السياسة الاميركية الجائرة وطالبا بالاستقلال. وبالنظر

لعدم امكانية التفاهم مع السوفيات على اجراء انتخابات حرة في كافة انحاء البلاد، اضطر الاميركيون للقبول بقيام جمهورية كوريا الجنوبية، بقيادة زعيمها الشعبي سينغمان ري، فكان ذلك بمثابة فشل جديد لانصار السلام العالمي. الى ذلك، كانت جنوبي شرقي اسيا مصدر ارباك لخبراء واشنطن : كيف يمكن تشجيع سياسة ازالة الاستعمار العزيزة على قلب روزفلت في حين كانت الاحزاب الشيوعية في برمانيا وماليزيا تستعد للقتال ضد البريطانيين الذين كانوا يؤكدون رغبتهم في اعلان الاستقلال ؟ كيف يمكن مساعدة هوشي منه في تونكين ضد الفرنسيين الذين كانوا جهزوا حملة عسكرية ضده ؟ كما امتنع النيرلنديون، خلافاً لكل منطق، عن احتلال اندونيسيا التي اعلن اليابانيون استقلالها. قرر ترومان عدم التورط، فمنح الفيليبين استقلالها الموعود في ٤ تموز ١٩٤٦، وانشأ فيها لمدة ٩٩ سنة، ٢٣ قاعدة عسكرية من بينها قاعدة كلارك فيلد الجوية في مانيلا، والقاعدتين البحريتين في سوبيغ باي وسانغلي بوينت.

لم يكن التطور السياسي في الصين وفي جنوبي شرقي آسيا يشكل حافزاً لدى الخارجية الأميركية لانتهاج سياسة صلبة تجاه اليابان. وكذلك الأمر في اوروبا حيث اصبحت المانيا حقل مزايدات بين الغربيين والسوفيات. وقد اخذ ستالين، تحت وطأة التهديد الذي شكّله التفوق النووي الأميركي، يتمسك بقوته البرية اذ كان الجيش الأحمر يمثل ورقته الرابحة بامتياز. وكان على الجيوش الغربية التوجه نحو وسط اوروبا في حين كان الجيش الأحمر يحافظ على قوته المؤلفة في ٢,٥ مليون مقاتل. وبقيت الدبابات قابعة في الثكنات في كل من العواصم المحتلة التالية : فيينا، وبراغ، وبوخارست، وبودابست، وصوفيا، وبرلين، وفرصوفيا. لا احد ينوي اخراج هذه الدبابات التي تساندها ٤٠,٠٠٠ بطارية مدفع، من ثكناتها. وكان الجيش السوفياتي يقوم، في كل مكان، بمهمة سياسية، اذ يحيط مفوضو الشرطة بالسكان، فور انتهاء المعارك. يروي بليفر ان المتحدرين من جمهوريتي بوجيكستان وبوريات السوفياتيتين كانوا ينزلون

في شوارع برلين « على احصنتهم ذات الوبر الكثيف »، تتقدمهم نساء « ينتعلن جزمات انيقة » ويقمن بتحقيقات لصالح « مفوضية الشعب للشؤون الداخلية » (ن ك ف د)، ويدوّن النتائج الأولى للاستجواب. من غير الوارد اجراء انتخابات حرة على الطريقة الأميركية في البلدان « المحررة »، بل اقامة انظمة « ديمقراطية » ذات حزب واحد بالاعتماد على شيوعيي حركات المقاومة، أو بالأحرى على المنفيين الذين تدربوا في موسكو. وكان ستالين، الذي اوعز عام ١٩٤٠، بتصفية عدد كير من ضباط الجيش البولوني في كاتين، قد امر، عام ١٩٤٣، بانشاء وحدة عسكرية بولونية على الاراضي الروسية، بقيادة الكولونيل برلينغ. وقد جرى استخدام هؤلاء المقاتلين الابطال في تحرير بولونيا. داخل البلاد، كان غومولكا قد شكل مقاومة شيوعية ادّت الى ولادة حزب العمال البولوني (حزب شيوعي). وقد جاء القضاء على بوركوموروفسكي في فرصوفيا وعلى المقاومة الموالية لحكومة المنفى في لندن ليترك المجال فسيحاً لقيام منظمات شيوعية عدة. كما تأسست لجنة بولونية للتحرير الوطني في شيلمو ثم في لوبلن فور دخول الجيش الاحمر الى هذه المدينة. واقترح بيروت الذي كان يرأسها على ميكولاجيسك، رئيس الحكومة البولونية في لندن، ان يصار الى تشكيل هيئة مشتركة يتمثل فيها الغربيون بنسبة ٤ ضد ١٤. ولدى اعتراض الانكليز والاميركيين، رد ستالين ان « لجنة لوبلن كانت ديمقراطية بالقدر الذي كان عليه ديغول »، وان ما يهمّ « الجيش الاحمر ان تكون مؤخرته مأمونة الجانب ». على الرغم من أنه وافق في يالطا على مبدأ الانتخابات الحرة مع مراقبين من الحلفاء فقد رفض كل التدخلات الأميركية وتصرّف بشكل جعل الشيوعيين يحكمون فرصوفيا لوحدهم.

اتبع النهج ذاته في كل مكان، اذا كان يتم رفض اقتسام السلطة سوى مع اشخاص ثانويين : ففي بلغاريا، وقع انقلاب مدبّر رافقته موجة واسعة من المظاهرات الشعبية، وحمل الى السلطة حكومة يرأسها عسكري لا

حزب له، لكن الشيوعيين احاطوا به. واعتباراً من ايلول ١٩٤٤، امر ستالين بتشكيل جيش احمر بلغاري لزجّه في المعركة. في رومانيا، شكل فيشنسكي بنفسه حكومة بيترو غروزوا حيث عمد وزير الداخلية الشيوعي الى اعتقال جميع المعارضين. في المجر انشأ الشيوعيون، في سجد، حين كانت المعارك ما تزال على اشدها، « الجبهة الوطنية المجرية للاستقلال »، (كانون الأول ١٩٤٤)، حيث شارك فيها الاشتراكيون — الديموقراطيون وحزب الفلاحين وصغار الملاكين. وتم تشكيل حكومة مؤقتة على الفور لتتولى التطهير. وقد اعتمدت خطة الجبهة الديمقراطية ايضاً في براغ حيث شكل بينيس حكومة اشتراكية برئاسة فيرلينجر واحتفظ الشيوعيون بثماني حقائب وزارية ومنها الداخلية. حتى في النمسا، وافق الرئيس الاشتراكي رينر على تكليف مناضل شيوعي بوزارة الداخلية. اما يوغوسلافيا، فكانت مستسلمة لقيادة تيتو الذي كان حليفاً لستالين آنذاك.

لم يملك الاميركيون اية وسيلة لفرض اعادة النظر بسياسة الاستيلاء القائمة على مبدأ استخدام القوة. ولذلك مالوا الى اخذ السوفيات على حين غرّة للاشراف على المانيا : فلو تركوا برلين، لكانوا خسروا اوروبا.

وجد الجبار العالمي الأول نفسه، اذاً، في اقل من سنة، في وضع دفاعي : ففي الشرق الأقصى، نوى الاميركيون التراجع الى نقاط اكثر صلابة في غربي المحيط الهادئ حيث كانت سيطرتهم لا جدال فيها، وهي اليابان والفيليبين. وقد تخلوا عملياً عن سياستهم الصينية ولم يتدخلوا في المواجهات القائمة بين الشعوب المستعمرة وسلطات الاحتلال. في اوروبا، نجحت خطة موسكو تماماً : لا شك ان الغربيين صمدوا في اليونان حيث واجه جنودهم تمرّد رجال المقاومة الثوريين، وفي تركيا حيث ستالين لم يستطع التقدم. غير أنهم خسروا يوغوسلافيا والبانيا واوروبا الشرقية كلها حيث انتهوا عام ١٩٤٧ الى الاعتراف بانتمائها الى

كتلة الدول الشرقية، لانتفاء الوسائل والارادة السياسية لديهم للرجوع عن التقسيم الذي تقرر ابان الحرب. وفي بوتسدام، بدا العالم لترومان ضبابياً.

فجأة، فرضت المفارقات نفسها، وانقلب اعداء الأمس الى حلفاء محتملين في الغد. بعد الانقسام الذي حلّ مباشرة محلّ الوحدة التي حلم بها روزفلت، امست اليابان والمانيا محطتين استراتيجيتين للدفاع، لأن ستالين، الذي لا يمتلك السلاح النووي وقدراته العسكرية التقليدية هي دون قدرات الغربيين ــ بقي قادراً في كل حال على فرض خيازاته.

من اين تأتيه هذه القوة الفريدة وهو الذي يسيطر بالقوة على بلد مدمر خسر ٢٠ مليون نسمة وما يزال غير مستقر من جراء هجرة السكان فيه ؟ انها ناجمة عن قدرته على الانعزال والانفراد. فالبلدان المحتلة، كما روسيا نفسها، خضعت على الفور للحكم الشيوعي، وابتعدت عن تيارات تبادل الافكار والبضائع مع باقي بقاع العالم : ذلك ان ستالين وجد ان كل بقعة كسبها الى جانبه، كانت تشكل سوقاً خسره الغرب، وان الشيوعية لا تستطيع التقدم الى الامام الا على خطوات رماة القنابل الذين يلحقون بالدبابات. ومتى تم الامساك بالطريدة، يجب تحييدها بالعزل، وكمّ الافواه والاستسلام من دون اية ردة فعل. وينطوي هذا المفهوم المتخلف حول السلطة على قدرة حديثة على التأثير في الخارج. واذا كان التيار الليبرالي وقف عند حدود الستار الحديدي، فثمة تيار آخر تمكّن من الخروج منه، عام ١٩٤٧ بفضل الاتصالات بين الاحزاب الشقيقة التي حملت مشعل الثورة اللينينية. فالشيوعية موجودة، حتى في الولايات المتحدة، وقد خرج المناضلون من السجون والمعتقلات في اليابان والمانيا، والجماهير المعبأة في نظام انتاجي مسعور اتاحت لستالين كسب الحرب، وفرضت عليه القوات المدرعة في الجيش وضع اوروبا تحت وصايته، ذلك ان شبكة الاحزاب الشيوعية تمكنت ان توفر له الامل بتقلبات جديدة، ويكفيه، لكسب العالم قاطبة للقضية الشيوعية، ان ينتظر ويقوّي دفاعاته. فليس للقنبلة النووية اي تأثير يذكر عليه. حتى أنه استطاع

الافادة من ردة الفعل الاخلاقية لدى الرأي العام الأميركي لصالحه ضد استخدام تلك القنبلة لاغراض عسكرية.

من هنا يمكن فهم هواجس الرئيس ترومان في بوتسدام حول اوروبا. ذلك أن انظار ساسة العالم كانت متجهة نحو الشعوب الصغيرة في اوروبا الشرقية، في حين كانت الصين تتحرك. والصينيون الحاضرون في المؤتمرات الدولية ليسوا سوى محاورين مؤقتين. والاحاديث الغامضة حول القضاء على الاستعمار بقيت دون متابعة، والبلدان الواحدة والخمسون المجتمعة في سان فرنسيسكو لم تشكل سوى جزء من سكان المسكونة وهم ينتظرون بفارغ صبر، على شرفة التاريخ، اسماع صوتهم.

لا احد يعير اهتمامه للجهود التي يبذلها اليهود من اجل انشاء وطن لهم، على الرغم من حرب الابادة النازية التي قضت على ستة ملايين منهم. مع ذلك، شكّل اكتشاف الفظائع في المعتقلات احدى اكبر الاحداث المباشرة بعد الحرب. فهل يكفي محاكمة واعدام بعض المجرمين في نورمبرغ لمحو تلك الذكرى البغيضة ؟ وهل يستطيع العالم استئناف سباق التسلح كالمعتاد ؟ فالصلة ليست قائمة بين هذه الجريمة الكبرى ومعركة الناجين منها التي تعيرها موسكو بعض الاهتمام لانها تعيد النظر بالمصالح الاستعمارية البريطانية في المنطقة. أما في واشطنن، فتتابعها وزارة الخارجية لقلقها حول التراجع الانكليزي ولحرصها على توطيد علاقات الصداقة (كما هي الحال مع العربية السعودية) مع الدول العربية التي لم تتخلص تماماً من نير الاستعمار، وتناضل، مثل الهند للتحرر منه. يبدو أن الاميركيين، وقد اعماهم تقدم الدبابات السوفياتية في اوروبا، قد نسوا للحظة انهم كانوا قادرين بفضل تقدّمهم التكنولوجي وتفوقهم التجاري والمالي والصناعي وفي حقل المواصلات، على تصور عالم واحد قائم على مبادئ الحرية. فالتحييد الذي حققه السلاح النووي اجبرهم على ممارسة الحرب الباردة في وجه الستار الحديدي. وسيرون العالم، خلال عشر سنين، بالاسود والابيض.

العالم بالأسود والأبيض
١٩٤٥ ـــ ١٩٥٧

تواصلت الحرب في المخيلة الجماعية طوال نيف وعشر سنوات، كيف لها ان تكون خلاف ذلك، وثمة ٥٠ مليون ضحية، نصفهم من المدنيين في القارة الأوروبية ـــ الاسيوية على وجه الخصوص ؟ هاجم الحلفاء المدن على غرار هتلر واليابانيين، ومارسوا الغارات الارهابية، وكانت الغارة الافظع ـــ وان لم تكن الاشد من حيث عدد الضحايا ـــ هي الأخيرة، وكانت نووية وعرفت باسم غارة العقاب.

وقد سوّغ تشرشل وستالين الغارات الارهابية بأنها الاعجوبة التي يؤمل منها ان تؤدي الى احداث شرخ بين الالمان وقادتهم القتلة : يا له من خطأ جسيم ! لقد عكس الدكتور غوبلز دعايته، وعرض الرايخ على انه ضحية، بغية تمتين اواصر اللحمة بين الشعب ضد الطائرات المجرمة. أما اليابانيون فقد نظموا المحاكمات العلنية الأولى ضد رفاق الملازم دوليتل (الذي قصف طوكيو عام ١٩٤٢ بواسطة سرب من الطائرات ذات المحركين). الم يقصف المدارس والمستشفيات ؟ غير أن الحرب بالابيض والاسود لا تتيح استخدام الاخلاق كسلاح يفضي الى الاجماع في الرأي حوله. والغريب، ان محرقة اليهود هي الوحيدة التي لم تؤلف موضوعاً للاستغلال، فهي تزعج الطرفين، اذ التزم الالمان السرية التامة ...

فيما حرص الاميركيون على عدم افشاء المعلومات وكانت « مفاجأة » اكتشاف المعسكرات عارمة على شاشات السينما، عام ١٩٤٥.

تميز العقد بين ١٩٤٥ و ١٩٥٥ بالتقدم الذي احرزته الصورة التلفزيونية في شرقي القارة الاورو ـاسيوية وغربيها. فهي اتت من اميركا حيث نشأ التلفزيون عام ١٩٤٥ ثم من انكلترا، الى ان غزت القارة بأكملها، حيث بثت اول نشرة للاخبار بشكل منتظم على القنال الفرنسية، عام ١٩٥٣. وباشرت ب.ب.ث. عند ذاك بث ٣٢ ساعة من البرامج الاسبوعية مع خمس محطات ارسال تغطي ٨٠٪ من البلاد. كما طورت كل من ايطاليا والمانيا شبكتيهما قبل اوروبا الشرقية التي بقيت اذاعية. وكانت تظهر على الشاشات الصغيرة، يومياً، صور بالاسود والابيض عن عالم ما تزال تطغى عليه شخصيات « الاحداث السياسية » اليومية في سينما زمن الحرب حيث كان يظهر ايزنهاور عائداً الى الولايات المتحدة، وتشرشل في بريطانيا وستالين في الاتحاد السوفياتي. اما صور ماو تسي تونغ وهوشي منه فهي عسكرية مثل صور الكولونيلات المصريين الذين طردوا الملك فاروق. واذا كان ديغول قد اختفى عن خشبة المسرح الامامية، فهو ما يزال يلعب، من « صومعته » في كولومبي، دور القائد بصورة فعالة. والشاشة الصغيرة بالاسود والابيض، هي في العادة، ماضوية، اذ كانت اوروبا المنكوبة تتذكر ملوكها وملكاتها. وكان الحدث الأول « المباشر » في التلفزيون البريطاني تتويج الملكة اليزابت. وكان التذكير بان العروش ما زالت قائمة في بلدان اوروبا الشمالية ــ الغربية وحدها، حيث الزهد الاشتراكي ــ الديمقراطي يفعل فعله ويساوي في رتابة ضبابية، بين طبقات المجتمع التقني الحديث؛ وتبقى صور القصور الملكية، مع الحرس المزركش الريش، علامة فارقة في السويد والنروج وبلجيكا وهولندا واللوكسبمورج. وكان يمكن لآل هوهنزوليرن وهابسبورغ ان يكونوا امراء لو لم تخسرهم المانيا والنمسا ...

اما الشاشة الكبيرة فتستخدم الاسود والأبيض، بصورة صارخة لابراز

التناقضات المؤلمة في المجتمع. « فالواقعية الجديدة » لفيلمي « سارق الدراجة »، او « الارز المرّ » اطلقت المسيرة، وعندما اخرج انطونيني فيلمه بالالوان « الصحراء الحمراء »، عام ١٩٦٤، فلكي يطبع باللون الرمادي السهل الايطالي حيث كان العمال البؤساء يشاهدون من بعيد عيد الجبابرة الجدد. والقيم الحقيقية في العالم هي بالاسود والابيض : فالصناعة ما تزال تعتمد على الفحم، وستالين مستمر في سياسته القائمة على انشاء اتحادات صناعية متضامنة، موحداً بواسطة سكة الحديد بين المناجم ومصانع الفولاذ. وفي فرنسا، تحقق اكبر انجاز بعد الحرب، بانشاء سكة الحديد الكهربائية لنقل الفحم من فالانسيان الى مصنع الحديد في تيونفيل. والعالم كله يهجس بمسألتي الفحم والصناعة الثقيلة : فالبرازيل تستخرج الحديد بكلفة كبيرة، واليابان تنشئ على وجه السرعة مصانع فولاذ ضخمة، والتنقيب جار على قدم وساق في الصين، والهند الصينية واستراليا. وبعد الفحم الحجري، جاء دور الطاقة الكهربائية التي تولدها المياه، كما هي الحال في السدود الضخمة في الاتحاد السوفياتي، والتجهيزات القائمة في جبال الالب وعلى نهر الرون. انه زمن انتصار القطار فيما تقلصت برامج انشاء الطرق السيارة في كل مكان، حتى أن فرنسا عام ١٩٥٥ لم تكن تملك سوى ٣٠ كلم من تلك الطرق.

اذا كان الاقتصاد قد اعتمد على الفحم الحجري، فان المجتمع الصناعي بقي بدائياً، فالعلاقات بين الطبقات هي بالاسود والابيض وتحتفظ بذكرى العنف في عهد زولا. وقد وضع الجغرافي الفرنسي الشهير جاك ووليرس، الذي رحل باكراً، كتاباً بعنوان « الاسود والابيض » حول مشاهداته في افريقيا، حيث تسود الخلافات بين الاعراق في مواجهة الاستعمار. ويشكل « صراع الطبقات » موضوعاً حساساً يتكرر في الدعاية الشيوعية التي تحرز نجاحاً باهراً بين جماهير عمال المناجم ومعامل الصلب في القارة القديمة كما في اوساط الثورة التي

ارتسمت معالمها في افريقيا وآسيا بعد عمليات القمع الاستعماري عام ١٩٤٥.

غير ان الوان الصورة تفاوتت بحسب المناطق ووفقاً لخطوط ممغنطة من الجنوب الى الشمال حتى الاميركتين. وعبّر الكاتب الاميركي فولكنر عن ذلك ايضاً بلهجة قاسية حين تحدّث عن ثورة الجنوب الفقير. في اوروبا، بدا الشمال كأنه مستعمرة الجنوب. والاتراك والاسبان والايطاليون في الجنوب، والبرتغاليون واليونانيون كانوا ينتظرون ساعة الهجرات الواسعة، لأن البؤس المخيف في آسيا وافريقيا لم يوفّر اوروبا.

وتكمن المفارقة في تلك السنوات العشر بعد الحرب في ذلك الاشعاع المفاجئ الآتي من الشرق، لأن التغيير التكنولوجي الحاسم الذي سوف يجنح بالعالم الى مرحلة جديدة لم يكن اميركياً بل سوفياتياً، وسنخرج من الاسود والابيض، لندخل في اللون، حين وضعت اول مركبة فضائية (سبوتنيك) في مدارها، عام ١٩٥٧. كانت المفاجأة في حينه عارمة. فهل كانت ثمرة الصدفة ؟

الفصل الأول

جمود الشرق

شكل انتصار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٥ مفارقة كبرى. اذ بدا ستالين المنتصر الأول في الحرب، واعتبرت تضحية الشعب الروسي الذي قدم عشرين مليون ضحية، بمثابة السبب الأساسي لانهيار المانيا النازية التي فقدت افضل وحداتها العسكرية على الجبهة الشرقية. وبدت معركة الابادة في ستالينغراد موازية لمعركة فردان في الحرب العالمية الأولى، حين « لم يمر الفاشيون ».

يبقى ان الاتحاد السوفياتي هو، من الوجهة العسكرية، في موقع الضعف، بالرغم من تفوق عديد الجيش الأحمر. فهو يتوزع على الاراضي التي احتلها من اقاصي آسيا حتى غربي اوروبا ويشكو من الهشاشة التكنولوجية، اذ بصرف النظر عن السلاح النووي، تضاعف التخلف في حقل الالكترونيات، وفي مجال الطائرات النفاثة الاكثر حداثة، الأمر الذي جعل طيران الحرب قديم العهد. الى ذلك، كان نضوب الثروات في البلاد يثير الريبة ويفرض خيارات على الحكام. فهل توقعت واشنطن للشيوعية بعد الحرب، هذه الاستكانة ؟

شكّل جمود اوروبا الشيوعية الحدث الابرز بعد الحرب. وقد استمر عبر نجاح الثورة الصينية التي يبدو انها وعدت بنشر الاشتراكية في القارتين معاً. لكنه تناقض مع الغليان المضطرب والصاخب الذي شهدته

مجموعة الدول الاستوائية بعد عام ١٩٥٥ والذي قذف بالدول الجديدة في باندونغ الى صدارة الاحداث. وحين عزل ستالين تلك الشعوب خلف ستار الحديد والخيزران، هل استطاع تأكيد رسالته الشيوعية العالمية وادعاء اقامة نظام الانغلاق على العالم كله ؟

خيار ستالين عام ١٩٤٥

لم يكن الجمود الذي سمّر اوروبا الشرقية نتاج يومه. ففي عام ١٩٤٥ كان قادة الاتحاد السوفياتي يؤمنون بتفوق النظام الاشتراكي ايماناً شديداً، لكنهم كانوا منقسمين؛ كان الاقتصادي السوفياتي « فارغا » قد نشر نظرية جديدة حول تطور الرأسمالية. وفي حين كان العديد من القادة يعتبرون، مع مولوتوف، بان الحرب وحدها هي التي اتاحت للنظام الرأسمالي المحتضر بعد ازمة ١٩٢٩، ان يستعيد عافيته، كان « فارغا » يرى ان ازمة النظام الليبرالي الاخيرة لن تقع في المستقبل القريب، لأن السوق تمتلك موارد حية لضبطه وتنظيمه. والغريب ان هذه الحجة استغلها المتصلبون، امثال مالينكوف الذي شكّك بانهيار الاقتصاد الاميركي بعد الحرب، وراح ينتقد فشل مولوتوف الذي اعتقد انه سيحصل على اعتراف الاميركيين بحكومة لوبلن مقابل وعد باجراء صفقة بمبلغ ست مليارات دولار لبولونيا. من الواضح، ان الولايات المتحدة لم تكن تعاني من الضيق كي تقدم على هذه الصفقة.

كذلك، لم يكن اكيداً ان هناك « تناقضات » تضع الاميركيين والاوروبيين وجهاً لوجه في النزاع الاستعماري الذي ينذر بالوقوع. صحيح ان روزفلت ابدى عدائيته للنظام الاستعماري، وكانت الشركات الاميركية تتحين بفارغ صبر الفرصة التي تقع فيها الأسواق المستعمرة في شباكها، غير أن هذه الخطوة الانتقالية كان يمكنها ان تتم بهدوء. لهذه الاسباب، كان فريق مالينكوف وبيريا، خلافاً لجدانوف الذي كان يوصي

باحياء التحالف الكبير، متشدداً في ضرورة تطوير القدرات العسكرية والصناعية.

وهكذا كانت لاختلاف وجهات النظر حول التحليل الاقتصادي نتائج فورية على سياسة الانتاج : اذ انحاز الى جدانوف انصار كوسيغين وفوزنيسنكي، ورادیونوف، وكل الذين اعتقدوا ان احياء التحالف الكبير مع اميركا يتيح تطوير برنامج متوازن بين الزراعة والصناعة الخفيفة، في حين كان الفريق الثاني، الخاضع لهواجس الامن ومقتضياته، يريد فرض انطلاقة جديدة للصناعات القادرة وحدها على تحمل اعباء البرامج الجديدة للبحوث التكنولوجية حول التسلح ولا سيما البرنامج النووي. والخيار في آخر المطاف، سياسي.

من البديهي ان الناس كانت تأمل بالاصلاحات. ذلك ان نهب الجيش الالماني لغربي الاتحاد السوفياتي والتدمير الناجم عن اربع سنوات من الحرب قد ادّيا الى انخفاض عدد الخيول الى النصف، والى ٢٠٪ للابقار و ٦٥٪ للخنازير. ولم يستطع السكان الحصول على الغذاء لولا تساهل اجهزة الرقابة الحكومية على احوال الزراعة في المناطق التي لم تتعرض للاجتياح، ولولا ظهور السوق الحرة وبعض المنتوجات المعدة للاستهلاك. وفي منطقة كورسك المنكوبة، طالب امين عام الحزب دورونين بافساح المجال واسعاً امام العائلات في الكولخوزات. واوجب الجفاف عام ١٩٤٦ والجوع الذي استتبعه، انتهاج سياسة اخرى. فاتجهت الاصلاحات نحو مزيد من التأميم.

لم يكن للمتشردين البالغ عددهم ٢٥ مليوناً سوى الانتظار : فالخيار السياسي كان شديد الفعالية اكثر من اي وقت مضى. واعطيت الصناعة الثقيلة الاسبقية المطلقة. وقرر ستالين التضحية بكل شيء في سبيل الحفاظ على الامن، لقناعته الراسخة بهشاشة الاوضاع في الاتحاد السوفياتي. واستعاد الجانب العملي موقعه على حساب الجدل النظري، فجرى هذه

المرة تحاشي التسويات المرتجلة التي ادت في السابق الى ازمة عام ١٩٣٧. واتخذت الخطوات السريعة فيما خص توظيف العمال في المصانع والمناجم الكبيرة، بغية ضبط عمليات التسريح الفوري. وتمّ تطهير الحزب، مرة اخرى من عناصره الفاشلة حيث حلّ محلهم تقنيو الانتاج الحربي. والحق سياسيون بالفرق القيادية التي كانت تؤيد فوزينسكي في نقده للمركزية القوية التي فرضتها الخطة. وانزل العقاب الصارم بالكسالى والفاترين. ولم يعد وارداً ان يتخلى الاتحاد السوفياتي عن مركزه كثاني منتج للاسلحة في العالم. وعليه الابقاء على فائض من السلاح لديه وتحديث تجهيزاته على وجه السرعة. لم تكن ارادة ستالين هي وحدها بالطبع سبب تلك العودة الى سياسة الصناعة الثقيلة. فالقوى الضاغطة المسيطرة كانت توجّه خيارات الكرملين. اذ ان استبعاد سياسة فوزينسكي الاقليمية تمّ بضغط من مجموعة الاورال الصناعية. وكان ستالين لا يتردد عن التذكير، بواسطة الدعاية، بالاحداث الدولية لفرض خياراته. مثاله، ان انسحاب مولوتوف من مؤتمر وزراء خارجية الحلفاء في لندن عام ١٩٤٨ قد استغلّ لشرح الضرورة الماسة التي توجب حماية الاتحاد السوفياتي من تهديد جديد. كما جرى التعليق على كل لقاء دولي وابراز لاءات (نيات) مولوتوف : بعد بوتسدام، قامر ستالين على طريقة من يخسر يربح، منددأ بمزاعم الغرب التهديدية.

على صعيد الجبهة الداخلية، تابع ستالين اعادة وضع الامور في نصابها : على الفلاحين ان يعيدوا الى الكولخوزات، ٤ ملايين هكتار من الاراضي التي استولوا عليها خلال الحرب، وان يعملوا بكدّ ونشاط، في حين حافظت الاسعار الزراعية على مستوى متدنٍ. واعتباراً من نهاية عام ١٩٤٦، اعيد العمل بنظام المقاولة (الاجر بالقطعة) في المعامل، واعلنت المعايير المعتمدة عشوائياً والتي كان يتعين على العمال التقيد بها.

عام ١٩٤٨، حين توفي جدانوف، اصبح بالامكان محاكمة

فوزنيسنكي وكذلك اصدقاء جدانوف خلال حملة تطهير في غاية الوحشية. واعيد النظر بالخطة الخمسية الرابعة بشكل اعطيت الاولوية لبرنامج التسلح الجديد : اعتباراً من عام ١٩٥٠، انتجت المعامل الدبابات الجديدة من طراز ت ٥٤ (التي سوف تستخدم لقمع الثورات في اوروبا الشرقية) وطائرات الميغ ١٥ واليوشين ٢٨ النفاثة. ووضع البرنامج النووي على نار حامية، ادت الى مفاجأة كبرى عام ١٩٤٩ : في تلك السنة، وخلافاً لتوقعات الخبراء الاميركيين، فجّر السوفيات قنبلتهم الذرية ــ وقد اعلن الحدث اثر ملاحظة الخبراء الانكلو ــ ساكسون وجود غيوم اشعاعية في الفضاء. ونجح كورشاتوف، وانتصر لافرنتي بيريا. هل هذا الانجاز نتيجة عمل العلماء الالمان الأسرى ؟ غولدشميدت* لا يعتقد ذلك. تم اعتقال مايتين وخمسين تقنياً المانيا وجرى استخدامهم في مختبر سوخومي، على ضفاف البحر الاسود، لكنهم عادوا كلهم أو بمعظمهم الى المانيا ــ اذ كان الروس يعهدون اليهم بالابحاث غير السرية فقط.

لا شك ان النجاح النووي مردّه الى ما حصل عليه التقنيون من اعداد مكثف وسريع. ويقدر عدد الاخصائيين وحملة الشهادات في الفترة الواقعة بين الأعوام ١٩٤٨ ــ ١٩٥٥ بنحو ٤ ملايين (جاك سابير، التقلبات الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي). اذا كانت العودة الى تشجيع المبادرة لدى العمال في المعامل وقطاع البناء، تشير الى الاهتمام بزيادة الانتاج في الصناعات الثقيلة، على الرغم من انخفاض عدد السكان (بلغ العجز السكاني ٤٥ مليون نسمة بعد الحرب)، فان البحث عن الارباح النوعية فرضته الحاجة الى انتاج اسلحة تنافسية. وقد تزامن خروج الدفعة الجديدة من الطائرات والدبابات من المصانع، مع برنامج بحري في غاية الطموح، سوف يحلّ في الروزنامة الجيوستراتيجية، بعد عشر سنوات من وفاة

---

* برتراند غولدشميدت : العقدة النووية. منشورات فايار، ١٩٨٠

ستالين. في الواقع، ضاعفت سياسة النمو الكمي من حدة النقص في السلع الاستهلالكية ومن امتعاض الطبقة العمالية. وقد اوجبت، بدءاً من عام ١٩٥١، اجراء بعض التصويب، من دون ان تزول الضرورات العسكرية او مستوياتها الاستثمارية العالية. من الواضح أن ستالين والفريق الضاغط الذي يسانده قد فرضا على الآخرين خيار التحدي السياسي لاميركا، وهو الجواب الوحيد الذي يملكانه ازاء شعور النقص الذي يعانيه الاتحاد السوفياتي بعد الحرب.

الروسنة(١) والتصويب(٢)

لم يعرف الاتحاد السوفياتي، حدوداً بهذا الطول، من قبل. والمفارقة الثانية هنا، ان الاستعمار الذي مارسه لم يكن مصدر قوة له بل مصدر ضعف. فقد ضمّ اليه مناطق مأهولة بما يقارب ٢٣ مليون نسمة، لم تعرف نظام التأميم في الثلاثينات. هذه كانت حالة بلدان البلطيق والمقاطعات الشرقية في بولونيا وبيسارابيا وغاليسيا. وكان ستالين قد فرض، في الداخل، ترحيل جميع السكان، لاتهامهم بالتعامل مع الالمان خلال الاحتلال : فالتتر في القرم و الكالموك والبالكار والالمان في فولغا والكاراتشاي والاينغوش والتشيتشين، شكلوا اكثر من مليون نسمة تركت ديارها. وقد ضمّ الاتحاد السوفياتي فوق ارضه اكثر من ١٢٠ امة و ٤٥ لغة مكتوبة. ونصف السكان فقط من غير الروس يتكلمون الروسية. والدول القوقازية كانت الاكثر خليطاً : في جيورجيا، ٦٨٪ من السكان البالغ عددهم ٥,٣ مليون نسمة كانوا جيورجيي الاصل، والباقي من الأرمن والروس والازيري والاوسيت والابخاز. ولم يستطع ستالين، في الحملة التي قادها

(١) الروسنة هي السياسة التي اتبعت بهدف فرض المؤسسات واللغة الروسية على المقاطعات والجمهوريات التي ضمت أو الحقت بالاتحاد السوفياتي.

(٢) التصويب ويقصد بها السياسة المتبعة لتطويع تلك المقاطعات والجمهوريات واعادتها الى الصواب.

لرفع الانتاج الى مستواه القياسي، ان يتحمل اي كبح مناطقي. ولذا اقام نظاماً ديكتاتورياً بهدف تحقيق الروسنة والمركزية. فسكان البلطيق الذين انضموا حديثاً الى الاتحاد السوفياتي وشاؤوا الحفاظ على تقاليدهم، دفعوا الثمن: ٤٠٠٠٠٠ ليتواني كاثوليكي، و ٣٥,٠٠٠ استوني و ١٥٠,٠٠٠ ليتوني رحّلوا الى آسيا. وسهر بيريا شخصياً على تطهير جيورجيا التي انخرط العديد من ابنائها خلال الحرب في جيش « الخائن » « فلاسوف » — تعرض اسرى هذا الجيش للإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص — وجرى ترحيل مليون معتقل الى سيبيريا، اذ كان ستالين يرفض الاستسلام في زمن الحرب. وكانت توضع على مداخل القرى تحذيرات تنبّه السكان الى ان المعتقلين العائدين الى ديارهم لا ينطقون بالحقيقة عن الاجنبي. جميع الذين نجوا من الاشغال الشاقة او النفي في سيبيريا، كانوا عرضة للشبهات.

اما اوكرانيا الغربية حيث كانت العصابات المسلحة منتشرة عام ١٩٤٥ في طول البلاد وعرضها، رافضة الانضمام الى الاتحاد السوفياتي لأن الفلاحين يفضلون حمل السلاح على التخلي عن ملكية ارضهم، فلم تخمد الفتنة فيها الا عام ١٩٥٠، وجرى ترحيل ٣٠٠,٠٠٠ نسمة من ابنائها، من بينهم العديد من الفارين من مناجم دونيتز ومصانع الفولاذ، وكذلك الكثير من الفلاحين الذين رفضوا التأميم. ولاسباب دينية، انذر البابويون — وهم جماعة من الكاثوليك التابعين لروما، الذين يمارسون الصلاة بحسب لغتهم وطقوسهم، بوجوب الاندماج مع الارثوذكس الذين يكرهونهم. وتعرض اساقفتهم للاعتقال والاعدام، وانتشرت عمليات القمع في كافة انحاء اوكرانيا الغربية. اما اليهود، فقد تعرضوا للشبهات شيئاً فشيئاً. وادى ترحيل تتر القرم الى اثارة المشاعر في اوساط العديد من مسلمي الجنوب. وخضعوا للقانون الذي فرضه ستالين، حول عدم احتجاب النساء، واستبدال الاحرف العربية بالكتابة السيريللية (ابجدية سلافية)، حتى ان الروسنة بلغت اسماء القرى والانهر والجبال. ذلك أن

ستالين لم يخفِ نواياه : ففي « خطاب النصر » الذي القاه في ٢٤ ايار ١٩٤٥، حيّا الروس بأعتبارهم « الشعب القائد للاتحاد السوفياتي، الذي حلّ في المرتبة الأولى من حيث المجهود الحربي، وينبغي أن يصبح « مرشد الامة كلها ». وقد كلف المؤرخون بابراز تأثير الروس الحاسم في تكوين الوطن السوفياتي. وكانت تقدّم الامبراطورية الروسية على أنها الرابطة الموحِدة بين الشعوب المتفرقة.

غير أن يد البطش عادت تضرب السوفيات والروس انفسهم، لدفع العمال الى بذل المزيد من الجهد ومعاقبة المتهاونين والكسالى. وكان ستالين يغتاظ حين تعرض لائحة الكولخوزات التي تتوافر فيها هيئات شيوعية للمراقبة والتحريك، بنسبة اقل من واحد على سبعة، الأمر الذي كان يستتبع انقضاض وابل من الشرطة على الارياف، « دعماً » للكولخوزات التي كان يجري الحديث عن تحويلها مجمعات كبرى او « سوفخوزات » (مدن زراعية). وتعرضت عمليات ذبح الثيران الخاصة الى قمع شديد، لأن ما يوازي مليوني ثور قد بيع خلسة خلال ستة اشهر من عام ١٩٤٨. وكان صدر في السنة الفائتة، مرسوم يعاقب بالاشغال الشاقة من خمس سنوات الى خمس وعشرين سنة، « كل تعرض لملكية الكولخوز »، وبذلك امسى الفلاحون من جديد، فريسة معتقلات الغولاك.

كانت هذه الملاحقة تستهدف الموظفين والاساتذة والمثقفين، على وجه الخصوص. والانغلاق الذي دعا اليه الحزب، بدأ بهؤلاء. اذ لم يكن يجوز لهم القيام بنشر سموم الغرب، بل الاكتفاء بالعقائد الماركسية ـــ اللينينية وحدها. والمفارقة ان جدانوف « الليبرالي » الذي كان يأمل الحفاظ على « التحالف الكبير » واصلاح الانتاج، اصبح بفضل ستالين أداة التقويم الأخلاقي، فتركت « الجدانوفية » ذكريات سيئة في النفوس. بعد الجفاف، عام ١٩٤٦، ابدى المثقفون، وهم الضحية الاولى، امتعاضهم. فانتزعت منهم وسائل الاحتجاج اذ صودرت مجلاتهم، وبعض

المؤلفين، من بينهم الكاتب الساخر زوشينكو والشاعرة اخما توفا، استبعد من عضوية اتحاد الكتاب التي لا يستطيع بدونها النشر. حتى الافلام، تعرضت للادانة : فالجزء الثاني من « ايفان الرهيب » الذي اخرجه ايزينستين، وقع تحت مقص الرقابة التي اتهمته بانه جعل من القيصر نظيراً لهاملت ». وعومل الكسندروف، وهو فيلسوف معروف، « كنباتي اثرم » من جراء تساهله مع الماورائيات الغربية. وتلقى المؤلفون الموسيقيون الكبار بروكونييف وشوستاكوفيتش وكاتشاتوريان تحذيرات قاسية. واعتباراً من عام ١٩٤٨، تعرض اليهود للاتهام بأنهم من اصحاب « الاعراق المختلطة ». وقبل اكتشاف مؤامرة « البذلات البيضاء » التي اسفرت عام ١٩٥٣ عن محاكمة الاطباء اليهود، اثيرت الشبهات حول جميع المثقفين، عندما وصلت الى موسكو سفيرة اسرائيل الجديدة غولدا مئير، اذ كان اليهود الروس ابدوا تعاطفهم معها، الأمر الذي اثار حفيظة السلطة، فعمدت الى حلّ اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية » والى منع المجلات اليهودية. واعتقل بعض اليهود (برغلسون وآخرون غيره) ورحّلوا الى سيبيريا واعدموا تحت ذرائع شتى. واية شبهة بسيطة بالانتماء الى الصهيونية كانت تؤدي الى الموت. فالسلطة لم تكن تنوي على الاطلاق ترك اليهود ينشرون في الاتحاد السوفياتي افكاراً تعتبرها تحريضية، ولا السماح للمجرمين بالخروج منه : فالزواج بين اليهود والغرباء كان ممنوعاً.

كان الفكر الرسمي ينتشر من خلال شخص ليسينكو، وهو رجل علم مزيف افتتن به ستالين. فقد ابعد عن المؤسسات الاختصاصيين الحقيقيين بعلم الوراثة وبعلم البيولوجيا، كي يبني نظرية ضبابية عن علم الوراثة تنكر قوانين مندل وتؤكد وراثة الطباع المكتسبة. وهكذا راح ستالين يتصور بان « انساناً جديداً » سيولد، ذات يوم، حاملاً، كل آمال الاشتراكية. لا احد يستطيع الاعتراض على هذا الزواج الشاذ بين علم الوراثة والمادية التاريخية. وينبغي التنويه الى ان العلوم الوحيدة التي اثارت انتباه الديكتاتور

كانت تلك التي تتيح التقدم في البحث النووي والعسكري. اما الاضطهاد فلم يكن يهدف الا لعزل الاتحاد السوفياتي عن الخارج تماماً، كيلا يحاول احد فتح النوافذ وادخال الهواء من الخارج.

الاحتجاز في معتقلات الغولاك

ثمة شرطة ساهرة تشرف بنوع خاص على فعالية الاحتجاز. لم يكن يستطيع السوفيات، بالطبع، الخروج من البلاد، دون اذن صريح او التجول بحرية في بلادهم. بعض المدن، ذات الاهمية الستراتيجية او العلمية، كان محظراً عليهم. وضماناً لاحكام اقفال الحدود، وتطويعاً للسكان، كان الحكم يمتلك مؤسستين اصبحتا في آذار ١٩٤٦ اساسيتين، وارتقتا الى مستوى وزارة : الاولى وهي ن ك ف د تحولت من مفوضية عادية للشرطة الى وزارة الداخلية (م ف د) والى وزارة امن الدولة (م ج ب). بعد ترقية بيريا الى عضوية المكتب السياسي ومجلس الوزراء (حيث اصبح نائباً للرئيس) تخلى عن وزارة الداخلية لصالح سيرغي كروغلوف « الجسيم القامة كالثور » والذي كان معاوناً سابقاً له. فيما ترأس اباكوموف وزارة امن الدولة، وهو لا ينتمي الى « مافيا بيريا القوقازية ». وكان ترأس خلال الحرب منظمة « سميرش » (وهي اختصار لشعار : الموت للجواسيس الالمان)، وادخل آلاف المخبرين في الجيش وصفّى الحركات القومية في المناطق المحررة التي كان يحتلها الجيش الالماني في السابق. كان يشرف على غربلة ملايين المواطنين السوفيات العائدين الى الوطن. عذّب واعدم انصار فلاسوف الذين تسلّمهم من الاميركيين، مستخدماً الغازات المسيلة للدموع للسيطرة عليهم. اصبحت منظمة « سميرش »، بعد حلها عام ١٩٤٦، مديرية في وزارة امن الدولة (م ج ب)، وتولّت دور « مساعدة شعوب البلدان المحررة على اقامة ودعم حكومة وطنية حرة ». وهكذا انيطت بها مهمة « بلشفة » الديمقراطيات الشعبية.

عام ١٩٥١، اقيل اباكوموف من منصبه لكونه مقرباً من بيريا، وحلّ محله انياتييف الاقرب الى ستالين. فتولى قسم خاص من امانة سره مراقبة الشرطة السياسية. حيث كان السيد المطلق. ورجاله من ذوي القبعات الزرق شكلوا جيشاً داخلياً مهمته ملاحقة المشبوهين او استجوابهم في المراكز المختصة او ارسالهم الى معسكرات العمل او الغولاك. لم يعرف بالضبط عدد الذين ملأوا معتقلات الغولاك من الاسرى القدماء، والمعارضين في المناطق المحررة، والمتعاونين مع العدو، و « مفتعلي حوادث التخريب » في الصناعة والزراعة، ومن مضطهدي الاقليات العرقية والدينية : ربما كان ٤ ملايين على الاقل أو ١٢ مليوناً. وكانت الاحكام تشدد من خمس الى عشر سنوات بموجب تدبير اداري عادي : ولم تشهد معسكرات الشمال عدداً من المعتقلين كالذي شهدته عام ١٩٤٨، اذا شكل ملايين المعتقلين الذين استغلوا كالعبيد، قوة عاملة اساسية للاتحاد.

في ظل النقص في اليد العاملة الذي اصاب البلاد، بعد الحرب، على الرغم من توظيف النساء، لم يذهب احد طوعاً للعمل في مناجم سيبيريا الشمالية أو صحاري آسيا الوسطى. كان معدل الوفيات مرتفعاً جداً في صفوف الحطّابين في سولوفكي وهي المركز الأول الذي انشئ في العشرينات على جزيرة في بحر مورمانسك. اما الورشة الستالينية الكبرى الأولى فكانت ورشة انشاء القنال بين البلطيق والبحر الأبيض، في الثلاثينات. كما جرى انشاء سكة حديد بين كوتلاس والمعسكرات المنتشرة نحو الشمال ــ الشرقي، على طول السكة الحديدية بين كوتلاس وفاركوتا. في الشمال الشرقي، كانت المنطقة غير المأهولة حول ساقية كوليما والتي يتعذر الوصول اليها بطريق البر، تعجّ بمعتقلات الغولاك التي نقلت عبر مرفأ ماغادان، وجرى بناؤها على شاطئ اخوست بجهود المحكومين بالاشغال الشاقة الذين تطلق عليهم تسمية « زيك ». لماذا كان يصار الى تعريض آلاف الناس للموت في تلك المنطقة النائية ؟

لأن كوليما غنية بالذهب. كذلك كان النحاس في كازاخستان يستخرج بسواعد مجموعات من السجناء في منطقة كاراغندا. وفي دجيزكازكان واكيبازتوز، بذل رجال « القبعات الزرق » جهوداً كبيرة، عام ١٩٥٣ لقمع ثورات السجناء. وفي السهب القاحل، بعيداً عن تلك المقاطعتين، عمل ٢٠٠٠٠٠ من هؤلاء على اخصاب الأراضي الزراعية. كان معدل الوفيات في صفوفهم ادنى مما هو عليه في مناجم الاورانيوم والذهب والالماس والرصاص والاميانت، القائمة في المقاطعة الشمالية ــ الشرقية الواسعة التي يعمل فيها معتقلو الغولاك. مئات الآلاف من المحكومين بالاشغال الشاقة بنوا سكة الحديد الممتدة من بحيرة بايكال حتى نهر امور. وخطّ الشمال الكبير لم يستقبل القطار على الاطلاق. بالمقابل، ادت قنال دون فولغا التي افتتحت عام ١٩٥٢ خدمات جلّى. وكذلك السدود الجبارة المنشأة في اوست ــ كامينوغورست وبراسك. وثمة مدن بكاملها مثل نوريسك او بالكاش او ماغادان قامت على سواعد « الزيك » الذين اعتبروا، بدءاً من عام ١٩٤٨ فقط، كيد عاملة تعطي مردوداً اقتصادياً ينبغي تنظيمه. وتمت زيادة الحصص الغذائية لافضل العمال الذين يحققون المعايير المحددة أو يتجاوزونها. كما ترك الاكثر ضعفاً يموتون. كان مردود عمل السجناء مردود اناس يجهدون للبقاء في ظل ظروف سيئة من التغذية والمعاملة. نشبت الثورات التي نظمها بعض العسكريين السابقين واحياناً بعض السياسيين، بدءاً من عام ١٩٤٨، واصبح التحرك اكثر عنفاً وحدة بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣. وصف سولجينتستين في كتابه « ارخبيل الغولاك » بؤس امة « الزيك »، بقوانينها الخاصة، وهيكلية نظارها المنحرفين، وعصاباتها التي روّعت العديد من الفلاحين والعمال المعتقلين بتهمة التخريب الاقتصادي».

من الواضح ان احتجاز ملايين الرجال لم يكن هدفه فقط تكوين قوة عاملة مجانية في المناطق الغنية بالمناجم او الغابات باعتبار ان استغلالها بالطريقة العادية شديد الكلفة، بل نشر الخوف في كل مكان من الجار

والواشي ورئيس الفريق، وبالتالي ضمان نجاح تلك الخطة الرابعة لما بعد الحرب والتي كان يتوقع ستالين منها ان تعوّض تأخير الاتحاد السوفياتي بالنسبة لاميركا. واذا كان ينبغي تصديق الاحصاءات في هذا المجال، فان الخطة الخامسة تكون قد كسبت الرهان جزئياً أكثر من الخطة الرابعة التي لم يتوافر لها الاقلاع. اذ يجب انتظار العام ١٩٥٤ حتى يسجل النفط رقم ٧٠,٧ مليون طن (بدلاً من ٣٥,٤ عام ١٩٤٦) و ٤٢,٢ مليون طن للفولاذ مقابل ٢٤,٤. ويتضاعف انتاج الكهرباء متيحاً استهلاك ١٧٠ مليار كيلواط ساعة بفضل تشغيل سدود كبيرة واستخراج ٣٩٠ مليون طن من الفحم الحجري. مع ذلك، وصف خروتشيف الخطة الخامسة « بالاسوء من الجميع »، لأنها كانت تهمل الزراعة والاستهلاك والاسكان بصورة مأساوية. لقد اصبح الاتحاد السوفياتي قادراً، مقابل اختلال هائل في التوازن، ولقاء عمليات الاحتجاز، على تنفيذ صناعة حربية على نطاق عالمي، على الرغم من أنه لم يتقدم كثيراً في الصناعات المتطورة والتجهيزات الجديدة. وبقيت الزراعة موطن الضعف لديه، الى ندرة المواد الاستهلاكية والحاجة الى المساكن. وقد اعدم فوزنيسنكي لانه عارض هذا الخيار الذي يعطي الاولوية للصناعة الثقيلة. وهكذا ما زالت شيوعية الحرب قائمة. وتساءل عملاء الاستخبارات لدى الحلفاء، عام ١٩٥٠ عما اذا كان الاتحاد السوفياتي، في حال اعادة تسلحه، لن يصل الى شفير مواجهة نزاع عالمي. ألم يكن يملك القنبلة النووية ؟

فرض الاشتراكية على الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي.

منذ عام ١٩٤٥، انتهجت البلدان « المستعبدة » في شرقي اوروبا السياسة التي رسمها الاتحاد السوفياتي. فجهاز ك ج ب مكلف بتأمين النظام في الجمهوريات الشعبية. ومهماته متعددة : التصفية والقضاء على المعارضين السياسيين والمقاومين للاشتراكية، لا سيما في الارياف. وعمل جهاز ك ج ب على تكوين شرطة سياسية يحيط بها ضباط هذا

الجهاز. ومما سهّل هذا الأمر تعيين وزراء شيوعيين في وزارتي الداخلية والدفاع، في جميع الدول، وحتى في الحكومات المناهضة للفاشية، حيث يمثّل الشيوعيون الاقلية. في بولونيا، تبعث وحدة من ن ك ف د، الجيش الأحمر عام ١٩٤٤، وقادها سيرون الذي نظم عملية القمع ضد المتعاملين مع العدو في القوقاز. وقد تم القضاء في ظل قيادته الوحشية، على عناصر المعارضة في شبكات المقاومة. وعيّن على رأس قيادة الشرطة السياسية الجديدة (اوب) ستانيسلاس رادكيوكس المتحدر من روسيا البيضاء، ويحيط به جنرالان سوفياتيان و ٢٠٠ مخبر. والمهمة الاولى لهذا الجهاز هي ضمان الامن على طول الحدود الجديدة. في كانون الأول ١٩٤٤، اضحى هذا الجهاز يضم ٢٥٠٠ عنصر، يفتقرون في معظمهم الى الخبرة ويقتضي اعدادهم بصورة جدّية بغية تنظيم الارهاب السياسي وضمان نجاح الانتخابات المزوّرة. ففي كافة الادارات، تولى المستشارون السوفيات اتخاذ القرار، وتنظيم الحملات ووضع لوائح الاعتقالات. وفي رومانيا نشاط مماثل، حيث تولى بودناراس عميل ن ك ف د تنظيم حرس الدفاع الوطني. والمخابرات السرية هي وراء الانتخابات المزورة عام ١٩٤٦ والاعتقالات التي مهدّت للمحاكمة الكبرى التي سبقت استقالة الملك ميشال في كانون الأول ١٩٤٧. وثمة مستشارون سوفيات يحيطون بالشرطة السياسية. في صوفيا، حلت الميليشيا الشعبية، محلّ الشرطة السابقة ونظمت مسألة الانتسابات الكثيفة الى الحزب الشيوعي. اقامت ن ك ن د شرطة سرية اخذت تتدرب على التزوير بمناسبة دورة الانتخابات الاولى في كانون الأول ١٩٤٥. ابدى المجريون مقاومة شديدة. كما أن وزير الداخلية راكوزي، ويطلق عليه لقب « الملك اليهودي للمجر »، على حد قول بيريا المعادي للسامية، تولّى الاشراف على شرطة الامن (ا ف و) التي جرى تجنيدها في بداية احتلال البلاد. واستعد للقضاء تباعاً على جميع المعارضين السياسيين. اما التشيكيون فبدوا، في الظاهر، اكثر تعاطفاً مع الشيوعية لان الحزب قد نال ٣٨٪ من

الاصوات في دورة الانتخابات الحرة لعام ١٩٤٦. والجيش الاحمر لا يحتل البلاد، التي تقف في وجه المحتل الالماني. تولى الشيوعيون، على الفور، الاشراف على وزارة الداخلية وشرطة الامن (س.ث.ب) التي ترأسها مستشاران من ن.ك.ف.د. هما تيخونوف وكازيانوف.

نشطت ن.ك.ف.د. في المنطقة السوفياتية المحتلة في المانيا، على وجه الخصوص، اذ عيّن سيروف بنفسه المايجور ميلنيكوف على رأس شبكة واسعة توجه نشاطه فيما خص تصويب مسار الزعماء الاشتراكيين ــ الديمقراطيين المهددين بالاعتقال فيما لو رفضوا الاندماج بالحزب الشيوعي. وسجن بعضهم في معسكر ساكسنهوسن السابق. كما راحت م.ج.ب. تشرف على شرطة الامن تماماً، عام ١٩٤٩.

كذلك نشط العملاء السوفيات في يوغوسلافيا حيث راحوا يراقبون عن كثب النظام التيتوي الذي كان يمتلك، هو ايضاً، شرطة سياسية فعالة تعرف باسم : مكتب حماية الشعب (اوزنا). وهكذا يتبين لنا ان شرطة ستالين اخذت تمهد طريق الاشتراكية في كل انحاء اوروبا الشرقية، من خلال مراعاتها الفرائض الشكلية المقنّعة للعبة الديمقراطية ودعم قيام اجهزة بوليسية للتجسس والمراقبة والقمع.

شكّل رفض الاشتراكية السبب الأول لاعمال المقاومة، مع نمو الشعور القومي والوطني والعوامل الدينية : في الصناعة، تمّ الاعداد لعمليات التأميم بسرعة بفضل سيطرة العمال على المؤسسات التي هجرها اصحابها لدى اقتراب الجيش الأحمر. وهكذا، سقط العديد من المعامل، في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا، في ايدي العمال او، كما حدث في رومانيا، في ايدي النقابات. في المانيا، كرّس الحلفاء، عام ١٩٤٦، المجالس العمالية للانتاج في القطاع السوفياتي، وتعرضت للتأميم بالأفضلية المناجم والصناعة الثقيلة والنقل والمصارف ومحطات توليد الكهرباء. وقد انجزت العملية بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٢. وكانت بلغاريا

قد حققت الاشتراكية في نهاية عام ١٩٤٨ وبولونيا اعتباراً من عام ١٩٤٦. اما القطاعات التي بقيت حرة فكانت محدودة للغاية. لم تؤدِ هذه التأميمات الأولى الى اضطرابات خطيرة، لأنها لم تكن تعني سوى حفنة قليلة من الملاكين وقد لحظ القانون المجري اسناد وظيفة تتلاءم مع مهنتهم ومؤهلاتهم.

اثار التأميم الجزئي للزراعة مقاومة اشد. فقد وجد ما يناهز ٦٠ مليوناً من فلاحي اوروبا الوسطى والشرقية ان حسنة الاشتراكية كانت في الاصلاح الزراعي الذي يؤمل منه الكثير. وقد اثار تقسيم الملكيات الواسعة الذي تحقق بسرعة الارتياح في صفوفهم. لكن السلطة ما لبثت ان اقدمت على ضمّ القطع الصغيرة الى مجموعات انتاجية واسعة عن طريق التعاونيات المنشأة بصورة اعتباطية وحيث كان موظفو الحزب يفرضون مشيئتهم. واجه تطور عمليات التأميم مقاومة شديدة في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا. ولم تطرح على بساط البحث مسألة ملكية الارض التي يجب أن تبقى بأيدي مستثمريها، غير أن تدخل الدولة من خلال التعاونيات، وفي مختلف مراحل الانتاج، اعتبر غير مقبول، حين ما سعت الدولة للتحكم بالتوزيع وتحديد اسعار السلع الغذائية والماشية على هواها. وعبّرت الاحزاب السياسية التي استمرت قائمة لسنوات في بعض الدول (المجر، تشيكوسلوفاكيا) عن استيائها قبل أن تعمد الاجهزة البوليسية الى اسكاتها بطرقها الوحشية المعروفة.

سواء في الدول المضمومة (كليتوانيا مثلاً) او في « الديمقراطيات الشعبية » كانت الكاثوليكية ديانة المقاومة للسلطة المادية الملحدة الجديدة. وقد انتقل خمسة ملايين مهاجر بولوني من مناطق ليتوانية في فيلنيوس وفوليني وبودولي، للاقامة في المقاطعات الغربية التي اخلاها المستوطنون الالمان. فاصبحت بولونيا كاثوليكية بنسبة ٩٨٪، اذ انضم الارثوذكس الى السوفيات، في حين انخفض عدد اليهود الناجين من

المذبحة، وتعرضوا مجدداً للاضطهاد[1]. وعانى الاكليروس الكاثوليكي من التنكيل النازي، فاعدم اربعة اساقفة و ٢٠٠٠ كاهن، وتمّ ترحيل اكثر من ٣٦٠٠ منهم[2] واعتقل الشيوعيون كهنة في المقاطعات الملحقة بالاتحاد السوفياتي. في المقاطعات البولونية الجديدة، سعى الكاردينال هلوند، رئيس اساقفة بولونيا، الى اعادة بناء الكنيسة (تموز ١٩٤٥) وعيّن كهنة للحلول مكان الكهنة الالمان. فأبدت الحكومة ارتياحها لاعتراف الكرسي الرسولي بالحدود الجديدة باعتبار ان الاكليروس البولوني حلّ محل الالماني فيها، غير ان المناورات السياسية للسلطات الدينية اقلقتها، حين راحت بعض المجموعات الكاثوليكية تنظّم ذاتها في انتخابات عام ١٩٤٧ ضد الحزب العمالي البولوني الموحّد المؤلف من الاشتراكيين والشيوعيين. وصدرت صحف تنطق باسم الديمقراطيين المسيحيين في فرصوفيا وكراكوفيا، وتدعو المجموعات الكاثوليكية للمقاطعة. عند ذاك، بدأت عمليات التنكيل والقمع ضد الصحافيين والكهنة. وعندما حلّ الاسقف ويزنسكي، عام ١٩٤٨، محل الكاردينال هلوند المتوفي، بلغ الاضطهاد ذروته. في المجر، لم يستطع الكاثوليك وهم الاكثرية بنسبة ٦٦٪، منع مصادرة املاك الكنيسة اعتباراً من عام ١٩٤٥، واقفال المدارس والمعاهد، وحلّ الجمعيات، ومنع صدور الصحف. ولم تنجح المقاومة التي نظمها الكاردينال جوزف ميدرزنتي في حماية الكنائس. وفي سلوفاكيا، تمت تصفيتها على الفور، باعتبار ان الاسقف تيزو تزعم خلال الحرب دولة سلوفاكية موالية لالمانيا. واصبحت الاديار سجوناً للكهنة، واعدم الاسقف المذكور في براتيسلافا، في ١٨ نيسان ١٩٤٧.

سادت سياسة الاحتجاز والقمع في جميع الدول المزعومة مستقلة في

---

(١) مارك هيلال، مذبحة الناجين في بولونيا بعد المجزرة عامي (١٩٤٥ ــ ١٩٤٧)، منشورات بلون، ١٩٨٥.

(٢) جان شيليني، الكنيسة في عهد البابا بيوس الثاني عشر، فايار عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٩.

الشرق الاوربي. والمبادلات التجارية مع الغرب مستحيلة، والتجارة بين بلد شرقي وآخر هي بالضرورة دون ما هي عليه مع موسكو. وينبغي على السوفيات تصدير كميات مطردة من الفحم والخشب والنفط والقطن والحديد الى تلك الدولة الفتية التي يأمل ستالين أن تقوم على غرار الاتحاد السوفياتي، بتطوير صناعتها الثقيلة. ارتبطت هذه الدول، اذن، بموسكو للحصول على المواد الاولية والطاقة اللازمتين لتطورها. بعد الحرب مباشرة، كان عليها الاتكال على نفسها كي تعيش. والمعروف اليوم أن موسكو وضعت برنامجاً متطوراً لتعزيز الاشتراكية في اوروبا الشرقية، خلال السنوات التي بدا طوالها مولوتوف، متشدداً اكثر فأكثر تجاه الغرب في المؤتمرات الدولية.

ستالين يعيد تشكيل اوروبا.

عندما انسدل الستار الحديدي، اخذ « التحالف الكبير » بالتفكك سريعاً بين مؤتمر وآخر ولم يشعر ستالين بالحاجة الى التفاوض. وكان يعمل سراً على تعزيز امنه ضد الولايات المتحدة التي يعتبرها قادرة على توجيه ضربات قاضية الى النظام الاشتراكي. وكان الخوف المتبادل السبب الاول للحرب الباردة.

عام ١٩٤٨، شكلت النفقات العسكرية نسبة ١٦٪ من موازنة الاتحاد السوفياتي، مقابل ٥٪ فقط لدى الولايات المتحدة و ٧٪ لبريطانيا او فرنسا. واعتقد السوفيات البالغ عددهم ٢٠٠ مليون نسمة ان الاعداء يحيطون بهم، وانصبت دعاية الحزب على هذا الهاجس من التطويق. فهل ينطبق ذلك على الواقع ؟

خلال المؤتمرات الاربع لوزراء الخارجية المنعقدة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦، اظهر مولوتوف عدائية متنامية، متهماً الغربيين بالاعداد لحرب ضد الاتحاد السوفياتي. وتعذر على المفاوض الاميركي بيرنز والفرنسي جورج بيدو والبريطاني بيفن الحصول على اي تنازل : ففي لندن، في

ايلول ١٩٤٥، قطع مولوتوف المناقشة حول مسألة تريستا (التي تطالب بها كل من يوغوسلافيا وايطاليا)، فيما رفض بيفن وبيرنز منحه اية وصاية على مرفأ طرابلس الذي ادّعى حاجته اليه لاسطوله التجاري. كما رفض مولوتوف بصورة قاطعة استقبال مراسلي الصحف الغربيين في رومانيا وبلغاريا، حيث كانت عملية اخضاعهما للنظام السوفياتي في اوجها. على الفور، اعترض الاميركيون على ممارسة السوفيات اية رقابة على اليابان. ولم يتح اللقاء الجديد المنعقد في موسكو بين ١٦ و ٢٧ كانون الأول احراز اي تقدم، اذ اثارت مسألة ايران ــ حيث يتكل ستالين على الحزب الشيوعي لانشاء جمهوريتين ديمقراطيتين في اذربيجان الايرانية وبلاد الاكراد ــ غضب الانكليز الذي وافقوا على منح الروس عضوية شرف في « مجلس الحلفاء من اجل اليابان » وهو مجلس لا سلطة له وقد انشئ « لمؤازرة » ماك ارثور. اعترف ستالين باجتماع باريس الذي ضم ٢١ دولة حاربت المحور في اوروبا من اجل السلام. غير أن اجواء التوتر بقيت سائدة في لندن، في كانون الثاني ١٩٤٦. وفي باريس، في نيسان ١٩٤٦، وجّه مولوتوف الاتهام الى الغرب بأنه ينوي تقسيم العالم على حساب الاتحاد السوفياتي. مع ذلك، وافق على اعادة جزر دوديكانيزو التي يحتلها الايطاليون، الى اليونان، وعلى تسوية الخلاف حول تريستا التي اصبحت « مقاطعة حرة ». لكن لا مجال للسير ابعد من ذلك، اذ رفض السوفيات الخوض في مسألة الملاحة على نهر الدانوب : لا سلام شامل في اوروبا الشرقية، وسيجري التفاوض في كل مسألة بموجب اتفاقات منفصلة.

جاءت النتائج مثبطة للغرب، اذ كان الاتحاد السوفياتي يسيطر باستمرار على اجواء المناقشات. والتنازلات الوحيدة التي تحققت تتعلق بايطاليا التي لم تفقد اية اراضٍ في الشمال انما تخلت لفرنسا عن قريتي تاند وبريغ في ميركانتور، ولم تتعرض مستعمراتها لاية منافسة. فرض الاتحاد السوفياتي معاهدات سلام مع دول المحور التي احتلها الجيش

الاحمر. ونالت رومانيا مقاطعة تراتسلفانيا من المجر، غير أنها تخلت للاتحاد السوفياتي عن رابيا وبوكوفين في الشمال. اما المجر فقد خسرت ايضاً المقاطعات التي ضمت اليها في عام ١٩٣٨، جنوبي سلوفاكيا، وفي عام ١٩٣٩، روتانيا. وخسرت ايضاً بانات التي عادت الى يوغوسلافيا. ولاسباب استراتيجية، ضم ستالين روتانيا الواقعة في طرف تشيكوسلوفاكيا الجنوبي واستولى على الاراضي الفنلندية شمالي غربي بوركالا وبيتسامو الغنية بالنيكل. ونال في الشمال، على طول المحيط الشمالي، حدوداً مشتركة مع النروج، حائلاً بذلك بين فنلندا وبحر بارينتس. وفرض اعادة تشكيل هذه الدول بحسب معايير لا تقوى الشعوب على الاعتراض عليها من جراء سيطرته العسكرية. حتى إن رومانيا اضطرت، على مضض منها، اعادة جنوبي دوبروجا الى بلغاريا. وليس للديكتاتور ان يتذمر من الغرب الذي ترك له صنع السلام الذي يبتغيه في الشرق. هذا السلام الذي سيؤدي الى جمود اوروبا لفترة طويلة.

فضلاً عن ذلك، لم يتخلَّ عن ممارسة نفوذه على الجزء الغربي من القارة، خصوصاً في دول الجنوب التي تواجه صعوبات جمة في استعادة عافيتها بعد الحرب. فالحرب الاهلية ما تزال تجتاح اليونان، وعزّز الحزب الشيوعي مواقعه في كل من فرنسا وايطاليا. هل سينتقل الجمود الاوروبي الى الاطلسي تبريراً للماطلات السوفياتية ؟ أليست المانيا المنقسمة على ذاتها، والغارقة في الفوضى هي « الجوف المفتوح » لاوروبا النازفة والعاجزة عن النهوض بذاتها ؟ دافع ديغول، بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ عن استقلال القارة تجاه الولايات المتحدة وحتى أنه وقّع معاهدة مع موسكو. واذا صحّ ما قاله المؤرخ فيليب روبريو، فانه تفاوض بما يشبه المقايضة، فحصل على تجريد الميليشيات الوطنية الشيوعية من السلاح مقابل عودة موريس توريز الفار من الجندية الي فرنسا عام ١٩٣٩ وتعيينه وزيراً. ولايطاليا ايضاً وزراء شيوعيون. اما الوجه الثاني لتلك السياسة التي تقضي بطلب المساعدة الاميركية بدلاً من تفكيك المانيا، الأمر الذي يفيد

فرنسا (وهي تدبرت امرها بالحصول على ضم منطقة « سار » اقتصادياً)، فهو يفترض اعداد برنامج يغطي الحاجات الفرنسية لمدة سنتين من المواد الغذائية والآلات والمواد الاولية التي تستطيع الولايات المتحدة وحدها توفيرها. لكن النقص بالدولار لم يتح لفرنسا ولا لسواها من الدول أن تموّل هذا البرنامج من الاستيراد. وبات بالتالي على الاميركيين الذين علقوا القروض، ان يعودوا فوراً اليها. ولذلك تلقت اوروبا، من خلال « اونرا » (ادارة الامم المتحدة للاسعاف والانعاش) الحصة الكبرى من قرض قيمته ٢١١٣ مليون دولار. وجرى تصريف الفوائض الاميركية باسعار متدنية، ونالت فرنسا وايطاليا حصتهما مواداً اولية ومرافئ ومطارات وسيارات وشاحنات وآلات وسفن واجهزة اتصال. اما بريطانيا العظمى، وهي الحليف المميز للولايات المتحدة وليست في كل حال مهددة بالشيوعية، فقد تلقت قرضاً ضخماً قدره ٤٤٠٠ مليون دولار من الخزينة الاميركية. وقد أملت الادارة الاميركية ان تبقى « حاملة الطائرات » البريطانية صامدة في قلب اوروبا المشرذمة. بدوره وافق مصرف التصدير والاستيراد الذي تموّله الدولة الفدرالية على قرض قيمته ٣٥٠٠ مليون دولار. وبذلك تكون الولايات المتحدة قد منحت او اقرضت ١٦ مليار دولار، وهو مبلغ ضخم يكاد يكفي لتخفيف المآسي والبؤس وسدّ الحاجات. ذلك أن اوروبا ما تزال تعاني، في نهاية عام ١٩٤٧ من نقص في الفحم والمواد الغذائية : في فرنسا، بقي التقنين قائماً على الخبز واللحوم. حين اصبح الجنرال مارشال وزيراً (كانون الثاني ١٩٤٧)، لاحظ ان الشيوعيين الذي نالوا ربع اصوات الناخبين في تشرين الأول ١٩٤٥، حصلوا على نسبة ٢٨,٨٪ في تشرين الثاني من السنة التالية. اما الحزب الشيوعي الايطالي فقد نال ١٩٪ لكنه مع حلفائه الاشتراكيين انصار بيتروniني، اصبح يمثل قوة برلمانية لا يستهان بها. فهل سيصبح توغلياتي وتوريز العائدين من موسكو سيدَيّ الوضع في اوروبا ؟

لا ينبغي ان تخدع المبالغ التي قدمتها الولايات المتحدة احداً، اذ حرص الاميركيون، من خلال هذه الاموال، على تثبيت هيمنة مصالحهم المطلقة في اوروبا. وهكذا امتنعوا عن تمويل خطة « مونيه » لانها لحظت تطويراً سريعاً للصناعة الثقيلة الفرنسية، على حساب المانيا التي صمموا على توفير سبل النهوض لها. كما اغتاظوا من جراء اصرار الوزير الديمقراطي ــ المسيحي جورج بيدو الذي ابقى بعد ترك الجنرال ديغول الحكم في كانون الثاني ١٩٤٦، على البرنامج الديغولي القاضي بوضع اليد على غربي المانيا، وعلى المطامع الفرنسية في منطقتي « سارّ » « ورينانيا » والمطالبة بتدويل منطقة « الروهر ». ومهما كانت المساعدة الاميركية ضخمة، فهي تتطلب، كي تكون اكثر اهمية، اعادة تنظيم سياسي لاوروبا وطرد الشيوعيين وضبط السياسات الخارجية. وما التحذير البريطاني الموجه في ٢١ شباط ١٩٤٧ الى الولايات المتحدة لابلاغها عجز بريطانيا عن حماية اليونان وتركيا مقترحة عليها الحلول محلها، سوى وضع الامور في نصابها المستقبلي : من الواضح ان الولايات المتحدة هي الوحيدة القادرة بعد اليوم على ابعاد الجمود التام عن القارة الأوروبية.

الولايات المتحدة تستعيد مسؤوليتها حول اوروبا

اضحت اوروبا هاجس البنتاغون ووزارة الخارجية، وانتقل عملاء وكالة الاستخبارات المركزية (سي.أي.إي) المنشأة حديثاً الى فرنسا وايطاليا واليونان وتركيا، لابلاغ واشنطن عن تطور الخطر الداهم. وكان مارشال يبغي، قبل ان يتحرك، تعبئة الرأي العام الاميركي من جهة، ومن جهة اخرى، التأكد من ان كل مساعدة ضخمة جديدة لاوروبا سوف تكون على قدر النفوذ السياسي الذي يمكن للاميركيين ممارسته. ذلك ان الهدف اصبح من الآن فصاعداً تأكيد سياسة احتواء الشيوعية، وقد صدر في كانون الثاني ١٩٤٦، تقرير عن وزارة الخارجية الاميركية، يصف

بشكل دقيق الطرائق التي يتبعها الشيوعيون للاستيلاء على السلطة في اوروبا الشرقية. وعندما أعلن ترومان، في ٤ كانون الثاني، عن تخفيف وتيرة تسريح الجيوش (١,٥ مليون جندي فقط من أصل ١٢ مليون ينبغي ابقاؤهم تحت السلاح، عام ١٩٤٧). انطلقت التظاهرات في مانيلا وطوكيو وسيول وغوام، وكذلك في باريس وفيينا وفرانكفورت ولندن والهامز. بالطبع، ابلغ جهاز ن.ك.ف.د موسكو بردات الفعل هذه، وكذلك بالاضرابات التي انفجرت في الولايات المتحدة حين وجد الرئيس نفسه مضطراً لمصادرة قاطرات السفن في مرفأ نيويورك. هل كان يخشى انفجار اضراب الجيش في الوقت الذي يتجه جو اوروبا نحو البرودة، يوماً بعد يوم ؟ نبّه المعلّق السياسي الشهير والتر ليبمان الى ذلك بالقول : « في الوقت الذي قرر فيه ستالين جعل القوة العسكرية هدفه الاول، نجد انفسنا مضطرين للعمل مثله ». وبات من الملّح ابلاغ الرأي العام الاميركي بأن الحرب مستمرة تحت شكل آخر، وفيها صار النظام الشيوعي هو العدو.

لا شك انها « حرب اخرى » وقد حافظ الاميركيون على برودة اعصابهم. ووردت الانباء لتؤكد ان الجيش السوفياتي يتابع تسريح قواته حتى الوصول الى ثلاثة ملايين جندي عام ١٩٤٦، فستالين يحتاج لليد العاملة. وقد اوضح تقرير السفير بوهلين، ان مهمات اعادة الاعمار في الاتحاد السوفياتي كانت على قدر كبير من الجسامة، بحيث ان هذا البلد لن يستطيع بذل جهود حربية جديدة. واكدت استخبارات القوات البحرية ان الانتشار السوفياتي كان دفاعياً بحتاً. وفي ١٢ شباط اعلن مساعد رئيس الاركان العامة عن انتفاء كل تهديد سوفياتي في المدى القصير. وعلّلت « البرقية المطوّلة » المؤلفة من ٨٠٠٠ كلمة والتي وجهها القائم بالاعمال الاميركي في موسكو، جورج كينان الى وزارة الخارجية، بأن تصلّب ستالين ناجم عن خوفه من العدوى الغربية. وهو لا ينوي شنّ الحرب بل تنمية الشيوعية بالدعاية ومساعدة الاحزاب الغربية. واعتبر

كينان ان منطقة القوة من شأنه وحده ان يدفع بستالين الى الوراء، وهذا المنطق ينطوي على وجوب توحيد دول اوروبا الغربية تحت الوصاية الأميركية. وهكذا اثبت كينان بشكل صارخ (وكان لتقريره اثر فوري حاسم في البيت الأبيض) وجهة نظر مارشال الداعية الى الامساك باوروبا بشكل حازم. وكانت الانتقادات التي وجهها السيناتور فانديبرغ الى بيرنز اذهلت مارشال، باعتبار ان الكونغرس قد امسى مقتنعاً بوجوب انتهاج سياسة حازمة. على الرغم من أن الولايات المتحدة قد ابقت تحت السلاح على قوّة عددية اقلّ من الاتحاد السوفياتي، فان سياستها القائمة على انشاء قواعد متراكزة في المحيطين، تضمن لها التفوق العسكري. اظهر استطلاع للرأي (غالوب) اجري في آذار، ان الاميركيين يستهجنون بنسبة ٧١٪ سياسة موسكو العدائية وان ٦٠٪ يرون ان الرد الاميركي غير متشدد بالقدر الكافي. في نيسان، فرض الشيوعيون على الاشتراكيين — الديمقراطيين في المانيا الشرقية، الاندماج معهم في حزب اشتراكي الماني موحد. فكانت هذه الخطوة الأولى نحو نشر الاشتراكية في القطاع السوفياتي. في ايلول، طالب بيرنز، في شتوتغارت، بحكومة مؤقّتة في القطاع الغربي من المانيا. واعلن ان القوات الأميركية باقية في المانيا ما دام الخطر قائماً، واشار ايضاً أنه من غير الوارد تقرير مصير « ريناني » والروهر، على حدة، كما يشتهي الفرنسيون. ولم يكن على مارشال سوى السير في طريق مرسومة على الثلج. فالامور الجوهرية تحققت. في كانون الأول، انشأ بيفن وبيرنز « قطاعين » موحدين ونظم الاميركيون انتخابات مجالس « لاندتاغ » الالمانية. وبات واضحاً ان الولايات المتحدة التي تخلت عن انعزاليتها، قد اتخذت قرارها الحاسم بالامساك عسكرياً بالمانيا. ولكن، بأية وسائل ؟

وفرّت مسألة اليونان وتركيا الذريعة المناسبة لمارشال : كان دين اتشيسون، مساعد وزير الخارجية، رجلاً ذا خبرة طويلة ويحوز على ثقة الاوساط الحاكمة في الساحل الشرقي من الولايات المتحدة، وقد دفع

ترومان الى ترؤس الحركة. في ١٢ آذار ١٩٤٧، توجه الرئيس الى مبنى الكابيتول حيث كان المجلسان بانتظاره. واعلن، في خطاب احتفالي، « ان سياسة البلاد الخارجية وامنها ». هما على المحك فيما خص المسائل المطروحة في المتوسط، وان الولايات المتحدة مدعوة للدفاع عن القيم الغربية في وجه التوسع الشيوعي، وطالب بمنح اليونان وتركيا اعتمادات قدرها ٤٠٠ مليون دولار فأقرّت على الفور.

حلّ « مذهب ترومان » القائل بمساعدة الدول المهددة بالشيوعية، محل الانعزالية الاميركية التقليدية. وحين عاد الجنرال مارشال من زيارته لموسكو، في ٢٨ نيسان، حيث فشلت كل محاولات التوافق، انكب على تحديد المساعدة الأميركية لاوروبا وفقاً للخطة التي وضعها خبراؤه. وفي ٨ ايار، اوضح اتشيسون الى رجال أعمال اجتمعوا اليه في كليفلاند (ميسيسيبي)، ان مصالحهم تقضي بسد العجز في اوروبا، لأن الولايات المتحدة سوف تصدّر خلال السنة الجارية من البضائع بما يوازي ١٦ مليار دولار، ولن تستورد سوى ما يوازي ٨ مليار دولار. ومن الملح، اذاً، توفير النقد النادر للاجانب، اذا كنا ننوي ضمان استمرار التوسع الاقتصادي. كما القى مارشال في ٥ حزيران، في جامعة هارفارد خطاباً مماثلاً جاء فيه : ان نهضة اوروبا امر ضروري لازدهار اميركا وتشكّل السد المنيع والوحيد ضد الشيوعية مؤكداً ان سياستنا غير موجهة ضد اي بلد، وضد اية عقيدة، بل هي ضد الجوع والفقر واليأس والفوضى ».

هل ستوافق اوروبا الشرقية على دعوة ناظر الخارجية الأميركية ؟ كان تدفق الدولار مغرياً للدول التي دمرتها الحرب. وكان ينتظر عقد مؤتمر لدول الغرب في باريس، في ١٢ تموز. حذر مولوتوف الدول الاشتراكية بقوله : لن يقبل الاتحاد السوفياتي سوى مساعدة اميركية ثنائية، ويرفض كل تنظيم قسري لها. وافقت تشيكوسلوفاكيا على العرض الاميركي فيما ترددت بولونيا. عند ذاك، اعلنت موسكو ان رومانيا وبولونيا رفضتا،

وتلقى غوتوالد، رئيس المجلس التشيكي الأمر بالرفض ايضاً. واعلنت جميع الديمقراطيات الشعبية ــ وكذلك فنلندا ــ وقوفها ضد خطة مارشال : وبذلك اصبح تقسيم اوروبا محققاً.

كان جلياً ان حجم الأموال التي خصصتها الولايات المتحدة ستناهز ١٤ مليار دولار، الامر الذي يتيح لها وسائل انهاض الغرب. كان دين اتشيسون قد عرض، أمام « لجنة التنسيق التابعة للاسطول البحري » لائحة بالدول المعنية بالمساعدات. وكان وزيرا الدفاع، باترسون، والبحرية، فوريستال المعنيين الاولين بأعمال تلك اللجنة. اجتمعت ست عشرة دولة في باريس خلال شهر تموز. وقد اجتهدت كل الدول الاشتراكية ــ الديمقراطية في اوروبا الشمالية ــ الغربية للافادة من المساعدات : السويد والنروج والدانمارك وايسلندا وبريطانيا العظمى، وايرلندا، والبلاد المنخفضة، وبلجيكا واللوكسمبورج والنمسا الاشتراكية وسويسرا، وكذلك دول الجنوب : البرتغال وفرنسا وايطاليا واليونان وتركيا. واعدّت الدول الست عشرة بياناً بعجزها الاقتصادي المتوقع للسنوات الاربع المقبلة. واضيف اليه العجز الذي تعانيه المانيا.

وكلفت لجنة التعاون الاقتصادي الاوروبي التفاوض مع الحكومة الاميركية بشأن القرض. كان التحرك الاجتماعي شديد الحدة في فرنسا وايطاليا بحيث اصبحت حتى « المساعدة المؤقتة » ضرورية. وابلغ جورج كينان الجنرال مارشال انه يخشى انفجار الثورة، الامر الذي حدا بالكونغرس على التصويت لمنح مساعدة فورية قدرها ٥٢٢ مليون دولار لفرنسا وايطاليا والنمسا. وصوّت فيما بعد على قانون ٢ نيسان ١٩٤٨ (برنامج شقاء اوروبا). قبل الموافقة، اشترط الكونغرس بعض الضمانات، لأن خطة مارشال لم تكن مهتمة بانهاض اوروبا وحسب، بل بامنها ايضاً.

اوروبا الاشتراكية والشيوعية : القطيعة عام ١٩٤٧

كانت فرنسا وايطاليا تثيران القلق الاشد، لا سيما فرنسا التي سلكت عام ١٩٤٥ طريق النظام الاقتصادي الموجّه وامّمت قسماً من اقتصادها. وتناولت التأميمات التي اعلنتها حكومة ديغول قطاع الطاقة (الغاز والفحم وشركة كهرباء فرنسا) والنقل (اضافة الى قطاع النقل الذي سبق تأميمه عام ١٩٣٧، كما أن شركات الطيران اندمجت فيما بينها لتؤلف شركة آر فرانس)، والتسليف والنقد، مع ٣٤ شركة تأمين واربعة مصارف كبرى. كان انشاء صندوق الضمان الاجتماعي وقيام لجان الادارة في المؤسسات، لا يوفران اطاراً مغرياً للرأسمال الاميركي، سيما وان خطة مونيه الاولى كانت تلحظ استثمار الاموال في الطاقة والفولاذ والاسمنت وسكك الحديد والتجهيزات الزراعية. من الثابت ان هذه الموجة من التأميمات لم تكن خاصة بفرنسا وحدها، اذ اصابت جزئياً ايطاليا وبريطانيا العظمى، وهذه الأخيرة مدينة للزعيم العمالي بيفن الذي وضع لها نظام ضمان اجتماعي مماثل للضمان الاجتماعي الفرنسي. في اوروبا المشرذمة، تولت الدولة شؤون تمويل الاستثمارات الكفيلة ببعث النشاط الاقتصادي، الامر الذي اثار قلق الولايات المتحدة.

كذلك كان التكوين السياسي الجديد للدول اللاتينية، مصدر قلق كبير : في فرنسا وايطاليا، اعطى تحالف الحزبين الشيوعي والاشتراكي الاكثرية بين تشكيلات اليسار. فقد اضطرت فرنسا لانتخاب جمعيتين وطنيتين، للوصول الى اقرار دستور ينص على نظام برلماني وحكومة ضعيفة تخضع لتحديات الجمعية الوطنية، في حين كان مجلس الشيوخ الذي سمي « مجلس الجمهورية » يتمتع بصلاحيات محدودة للغاية. وكان باستطاعة رئيس الجمهورية، الاشتراكي فنسان اوريول، الذي انتخب في كانون الثاني ١٩٤٧، تسمية رئيس الحكومة فقط، وللجمعية الوطنية وحدها حق تكليفه : لقد قضى الدستور على فرنسا بعدم

الاستقرار. كذلك كان نظام الحكم في ايطاليا، ففي هذين البلدين، لم يكن الحكم يمتلك السلطة اللازمة لمواجهة الازمة الاجتماعية الخطيرة.

مع ذلك، بين القوى السياسية الثلاث المسيطرة على ساحة الجمعية التأسيسية الفرنسية عام ١٩٤٥، لا شك ان الحزب الاشتراكي كان مطلعاً على الممارسات التي تتبعها الاحزاب الشيوعية في اوروبا الشرقية لتقوية نفوذها. فاذا وافق ديغول على ادخال الوزراء الشيوعيين الى الحكم، ينال تأييد الحزب الاشتراكي اذا رفض تسليمهم حقيبتي الدفاع والداخلية الرئيسيتين. حين اعتزل ديغول الحكم في كانون الثاني ١٩٤٦، قرر الديموقراطيون ــ المسيحيون (الحركة الجمهورية الشعبية) البقاء في الحكومة كي لا تبقى الساحة حرة لحزبي اليسار. والتزم حينذاك كل من روبير شومان وبيار هنري تيجين وجورج بيدو وموريس شومان على التعاون في اطار الحكومة مع زعماء الحزب الاشتراكي ليون بلوم وغي موليه وجول موش وفيليكس غوان، الأمر الذي يفترض اقصاء الشيوعيين. وعندما عيّن اوريول الاشتراكي راماديه على رأس الحكومة عام ١٩٤٧ عمد هذا الأخير الى اقالة الوزراء الشيوعيين الذين عارضوا التدخل الفرنسي في الهند الصينية وسياسة الحكومة في تصديها لمشكلة معامل رينو الاجتماعية. كان هذا الانقلاب السياسي يخدم، بنظر وزارة الخارجية الاميركية خطة مارشال المقبلة على افضل وجه، اذ بات من الواضح ان باريس قد اختارت معسكرها.

كانت ايطاليا عام ١٩٤٥، على غرار فرنسا، تتمثل بعدد وافر من الشيوعيين، من جراء الدور الذي قام به الحزب الشيوعي خلال المقاومة والظروف الاقتصادية الصعبة التي جعلت الجماهير تتنبه لتوجيهاته. وقد نال الحزب الديمقراطي ــ المسيحي بقيادة ألسيد دي غاسبيري ٤١٪ من الاصوات، اي ما يوازي ٨ ملايين ناخب مقابل ٤,٣٥ للحزب الشيوعي. والاستفتاء الذي نظم في حزيران ١٩٤٦ اعطى الافضلية للجمهورية ضد

الإبقاء على الملكية. وكان الديمقراطيون ـــ المسيحيون قد أفادوا من دعم البابا الكامل والسلطات الايطالية. ايّد البابا بيوس الثاني عشر وجهة نظر الاسقف مونتيني التي كانت تدافع عن فكرة الحزب الكاثوليكي الاوحد : « لا يحق لاي مسيحي ان يملّ من مقاومة الموجة اللادينية القائمة في الوقت الحاضر »، على حد ما أعلنه الحبر الاعظم في عيد الميلاد عام ١٩٤٦، امام مجمع الكرادلة. (من رسالته التي القيت عبر المذياع). وخاضت منظمات « العمل الكاثوليكي بمناضليها البالغ عددهم ٣٠٠٠٠٠، المعركة الانتخابية، فيما تكفل انقسام الاشتراكيين على انفسهم بالباقي، اذا بقي بيترونيني زعيم الحزب الاشتراكي الايطالي على تحالفه القائم مع الشيوعيين، بينما أيّد جيوزيب ساراغات اقصاء الوزراء الشيوعيين عن الحكومة، الامر الذي افسح في المجال لقيام حكومة من اليسار الوسط، انتقل غاسباري الى واشنطن مبدياً استعدادات ايطاليا الطيبة والمطالبة بمساعدة مالية عاجلة. لقد حان الوقت لتنفيذ خطة مارشال.

مع ذلك، لم تكن الحكومة الاميركية على عجلة من امرها لتقديم المساعدة المرجوة، اذ ان الطلب شديد على المنتوجات الصناعية، ومخزون القمح يجري تصريفه بفضل الطلبات الواردة من العالم كله. ولم يكن على الحكومة الاميركية ان تأخذ بعين الاعتبار الابتزاز الفرنسي الداعي الى ربط فتح السوق الوطني امام البضائع الاميركية بشروط خاصة بالتسليف. على العكس، فالخارجية الاميركية هي التي اشترطت للتعامل مع فرنسا ان تنضم هذه الأخيرة الى سياستها القاضية بانهاض المانيا، والتخلي عن سياسة الحياد التي انتهجها ديغول والتي تفترض ان ستالين يدعم وجهة النظر الفرنسية حول التقسيم الاقتصادي لالمانيا الغربية. والحال، فان ستالين ابلغ مؤتمر موسكو المنعقد في آذار ١٩٤٧ عدم تأييده لمشروع تمزيق المانيا ولا لاضعاف « الدولة الالمانية ». وقد جاء المدّ الديغولي في الانتخابات البلدية في تشرين الثاني ١٩٤٧ ليزيد

من الخشية بان الفرنسيين لم يتخلوا عن سياستهم الالمانية، الامر الذي ادّى الى تجميد الاتفاقات بين الدولتين.

في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٧، شكل ستالين، في سلارسكار ــ بوريلا، « الاممية الاشتراكية » التي كانت توجه للاحزاب الشيوعية الغربية تعليمات صارمة، من اجل خلق مناخ اجتماعي عدائي واحباط مشروع مارشال. ونُعِتَ الشيوعيون الفرنسيون، في المؤتمر، « بالبرلمانيين الاغبياء »، فيما ادى النقد الذاتي لجاك دوكلو الى اعلان الاضرابات الثورية التي تلتها التظاهرات العنيفة للتدليل على مدى فعالية الردّ الشيوعي ضد اعادة تسليح اوروبا. خلال خريف عام ١٩٤٧، ساد جو الحرب الاهلية في فرنسا وايطاليا، وكادِ الشيوعيون ان يفرضوا على الحكومة التراجع، مستندين الى الجو الاجتماعي الاليم السائد (جعل التضخم من زيادة الاجور مسألة تستدعي السخرية).

في باريس حلّ الجنرال ريفر على رأس قيادة الجيش، محل ديلاتر دي تاسيني الذي اعتبر منحازاً لجانب اقصى اليسار، فيما عمد الاشتراكي ديبرو، في الداخلية، الى تأنيب مدير الشرطة، شارل لويزه. وبذلك بات الصدام قريباً.

كي تحصل فرنسا على المساعدة بشكل مال نقدي وقمح اميركي، اضطرت للموافقة على رفع انتاج الفولاذ في منطقة الروهر الى ١١ مليون طن في السنة. لكنها في حزيران، بانتظار التسليم، خفضت من تقنين الخبز بمعدل ٢٠٠ غرام للشخص يومياً، اقترح السفير بوهلير على ناظر الخارجية ان يصار الى دفع مبالغ سرية الى النقابيين الفرنسيين الراغبين بترك الاتحاد العمالي العام بغية تشكيل نقابة جديدة باسم القوة العمالية وتولى « اتحاد العمل الاميركي » الذي افتتح في اوروبا مكاتب له،

وكذلك وكالة الاستخبارات المركزية[1] (سي.أي.إي.) الاهتمام بالامر. وبدا الارتباك ظاهراً على الاميركيين من جراء احتدام أعمال العنف النقابية، لدرجة انهم فكّروا في دعم ديغول الذي حقق انصاره الفوز في الانتخابات البلدية. لكن الجنرال الذي لم يكن يرغب بالعودة الى السلطة في ظل اوضاع على هذا القدر من الاضطراب، رفض كل دعم. في تشرين الثاني، شل الاضراب البلاد، اثر تظاهرة شيوعية في مرسيليا. غير ان حزم الاشتراكي جول موش وزير الداخلية في حكومة شومان، اتاح اخماد حركة العصيان، بفضل استخدام اجهزة الامن المنشأة حديثاً. اثر سقوط العديد من الضحايا وانصراف الدولة لمعالجة تحرّك الاتحاد العمالي العام الهادف الى الوقوف في وجه خطة مارشال، اغتنم الاميركيون الفرصة لتشجيع قيام « القوة العمالية » الناشئة عن انقسام الاتحاد العمالي العام، وبذلك يكون مارشال قد حقق هدفه الثاني في فرنسا كما في ايطاليا حيث كان قمع الحركات النقابية على اشده (لا سيما في بويل، وسيسيليا وروما وميلانو) وفشلت محاولة الشيوعيين قلب النظام.

لم يؤدِ هذا الانتصار المرّ الى تسوية مشكلة المساعدة الأميركية، اذ كان واضحاً ان خطة مارشال لن تعمم خيراتها على اوروبا الا اذا قررت هذه الأخيرة تشكيل مجموعة موحدة تضم المانيا، ووافقت على المشاركة في الدفاع عن القارة. لا احد يستطيع منع ستالين من استكمال « تجميد » اوروبا الشرقية. والخط الجديد الذي استتبع حلّ « الجبهات » المناهضة للفاشية والانتظام التام الى جانب موسكو، تعرّض بصورة مذهلة، في شباط ١٩٤٨ « لهزّة براغ »، وهي الرد الستاليني الحقيقي على اعلان خطة مارشال، اذ استقال الوزراء المعتدلون في حكومة الرئيس الشيوعي غوتوالد، بغية اجراء انتخابات مبكرة. ودعا غوتوالد الميليشيات

---

(١) ايروين م. ويل : التأثير الاميركي على السياسة الفرنسية، باريس منشورات بالان، عام ١٩٨٩.

الشعبية المسلحة والنقابات للاستيلاء على السلطة بالقوة والقضاء على رئيس الجمهورية، بينيس، الذي اضطر للاستقالة فيما بعد. ساد الشعور في العالم كله ان هذا الحدث يشبه اعلان الحرب، الأمر الذي شدد من عزيمة الاميركيين للتصدي للخطر الشيوعي في اوروبا.

اوروبا الاطلسية

هزت « صاعقة براغ »، في شباط ١٩٤٨، وجدان الرأي العام في الصميم وذكّرته بمونيخ عام ١٩٣٨. وابرق سفير الولايات المتحدة الى وزارة الخارجية بما يلي : « جرى استخدام طرائق الضغط والارهاب ذاتها التي كان هتلر يستخدمها حين كان ينوي اقالة رئيس دولة ما ». وبات تشبيه الشيوعيين من الآن فصاعداً، بالنازيين ممكناً، وينبغي التخلص من الديكتاتور الثاني. كتب الجنرال مارشال في ٣ آذار : « نجد بالضبط انفسنا في الحالة ذاتها كما فرنسا وانكلترا، عام ١٩٣٩، في وجه هتلر. انطباعي سيء للغاية، وينبغي اتخاذ قرار ما. سوف اتخذه ». فردّ عليه ترومان في ١٧ آذار من نيويورك، بمناسبة عيد القديس باتريك، حيث يشكل الايرلنديون الاكثرية الساحقة من السكان : « ثمة لحظات في تاريخ الشعوب، تدفعك الحكمة فيها الى التحرك بدلاً من التردد ». تهيأت الولايات المتحدة، وطلب الرئيس الى الكونغرس اعادة العمل بنظام الخدمة العسكرية الاجبارية للرجال بين ١٩ و ٢٥ سنة من العمر. هل هي الحرب ؟

بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩، كان يمكن للحرب ان تنفجر في اية لحظة في اوروبا حيث الاجواء عاصفة باستمرار. اما المحيط الاطلسي الجاثم تحت وطأة الخطر، فكانت تعبره السفن المزوّدة بالعتاد الحربي

الحديث. وفي المتوسط، تجمعت سفن الاسطول السادسّ لمواجهة الشيوعية الزاحفة نحو الجنوب. هل يوافق الاميركيون الذين استأنفوا « العمل كالمعتاد » بحسب التعليمات الرسمية، على انتهاج سياسة غير معهودة تلتزم بموجبها بشؤون اوروبا بلا انقطاع ؟ اذا كانت اميركا مجبرة باموالها على مساعدة الدول الاوروبية للنهوض من كبوتها تحت طائلة تقديمها لقمة سائغة الى الشيوعية، فهل هي ملزمة بالدفاع عنها ايضاً ؟ من البديهي ان الرئيس يحتاج الى تزويد بلاده بالسلاح الخلقي كي تتقبل هذه الايديولوجية الجديدة حول الحرب. غير أنه سعى الى فرضها ايضاً على اوروبا الجاحدة والمترددة والمشرذمة، من خلال قبضة الجنرال مارشال.

نظرية ترومان والتسليح الخلقي

لم تعد اميركا عام ١٩٤٨ تلك التي كانت في عهد روزفلت. منذ سنتين، واجه ترومان الديمقراطي مجلس الكونغرس ذي الاكثرية الجمهورية التي رفضت ان تقدم له الهدايا مقابل لا شيء. واعادة تزويد اميركا بالسلاح الاخلاقي، في مثل هذا الجو، لم يكن بالامر السهل. فكان عليه اللجوء الى الكلام الحازم الذي قد يخدم حملته الانتخابية في تشرين الثاني ١٩٤٨. وهو لم يتوانَ عن اللجوء اليه مراراً.

اميركا، بعد الحرب، ليست هانئة بالقدر الذي تتخيله باريس أو لندن، ولا تعيسة كما تعتقد موسكو. اذ قليلاً ما عانى سكانها البالغ عددهم ١٤٠ مليون نسمة، من جراء الحرب. خسرت من رجالها ٤٠٦٠٠٠ فقط. لا قصف على المدنيين ولا حرمان .. وتحوّل الاقتصاد باتجاه اقتصاد الحرب بسرعة ومن دون احداث هزات تذكر : بعد ١٥ يوماً على نهاية العمليات العسكرية، بلغ عدد العاطلين عن العمل المليون نسمة ووصل الى ٨ ملايين في ربيع عام ١٩٤٦. ولم تشكل هذه الزيادة، في

كل حال، مأساة يومية، اذ تقاربت مع ارقام عام ١٩٤١. واذا كانت اليد العاملة اصبحت نسائية بنسبة ٣٦٪، والقوى العاملة بلغت ٦٦ مليون (مقابل ٤٥ مليون عام ١٩٤١)، فان متابعة التوسع الاقتصادي باتت امراً ملحاً واصبح التجنيد العسكري المرتقب والحفاظ على مستوى مرتفع من الانتاج الحربي، من المسائل الملائمة والمرجوة. ولاقت مساعدة اوروبا استحساناً لا بأس به اذ أتاحت الأموال الممنوحة الى البلدان فيما وراء الاطلسي توثيق العلاقات التجارية وتحريك الانتاج.

لم تؤثر الهجرة الضعيفة على سوق العمل الذي بقي حكراً على الاميركيين، و ٩٠٪ منهم ولدوا في البلاد. غير أن السود البالغ عددهم ١٤,٦ مليون، لم يمكثوا قابعين في ولايات الجنوب، اذ اجتذبتهم المراكز الصناعية خلال الحرب فتركوا ولاياتهم العنصرية ــ حيث لم يكن يحق لهم الجلوس في الباصات الا في مؤخرتها، وحيث لا يقبل اولادهم في مدارس البيض، وحيث يصعب عليهم شق طريقهم الى صناديق الاقتراع في الدورات الانتخابية ــ وانتقلوا الى الولايات الشمالية، في الوقت الذي كان فيه البيض يرحلون الى كاليفورنيا، وهي الولاية الثانية في الاتحاد من حيث حجم سكانها عام ١٩٤٦. اما السود الذين قلّما شاركوا في المعارك (كانت قوات المارينز والبحرية والطيران ترفض تجنيدهم، فيما لم تستقبلهم سوى ٢٢ وحدة من القوات البرية فقط)، اصبحوا نذير خطر في الشمال : كان احدهم، ويدعى « آذا فيليب راندولف » قد حصل من روزفلت على قبول اخوته السود في الادارات الحكومية والمؤسسات التابعة للدفاع الوطني. ونظم مسيرة على الاقدام، الى واشنطن شارك فيها ١٠٠٠٠٠ نسمة من الساخطين.

كان ترومان ــ وهو ديمقراطي من الجنوب ــ يدعي انه يعمل في سبيل ارساء المساواة بين البيض والسود (اقلّه فيما خص استخدام العمال، وطوّر في برنامجه المعروف باسم « مايرديل » تشريعاً اجتماعياً

ينص على الاسكان وزيادة فرص العمل، والضمانات ورفع الأجور لتعويض التضخم الذي بلغ معدله السنوي نسبة ٣٨٪ عام ١٩٤٦. هل هدّد عمال المناجم وسكك الحديد باللجوء الى الاضراب ؟ حصل ترومان من الكونغرس على سلطات استثنائية ونوى « توظيف كل العمال المضربين، ضد حكومتهم، في القوات المسلحة ». وضع ترومان يده على المناجم وسكك الحديد وابدى اقصى درجات الحزم ضد النقابات. وحكم على جون أ. لويس — وهو زعيم يتمتع بشعبية واسعة — بغرامة قدرها ٣,٥ ملايين دولار، وامرت المحكمة العليا بتخفيضها الى ٧٠٠٠٠٠ دولار. كانت اميركا تسير في طريق يؤدي بها الى قضم برنامج « نيو ديل »، بْدلاً من الالتزام ببرنامج « فاير ديل ». توصّل السيناتور الجمهوري روبير تافت، زعيم المعارضة، الى اقناع الكونغرس بوقف المشاريع الاصلاحية التي دعا اليها الرئيس الديمقراطي. فباءت بالفشل مشاريع رفع الحد الادنى للاجور والضمان الاجتماعي. في ٢٣ حزيران ١٩٤٨ بعد بضعة شهور من براغ، صوّت الكونغرس على قانون تافت — هنري الذي حدّد بدقة اصول ممارسة الحق النقابي. وبات على القادة النقابيين ان يقسموا اليمين على عدم انتمائهم للحزب الشيوعي. كانت هذه المراجعة التقويمية للمواقف — والتي حاربها ترومان — هي احدى مراحل التسلح الخلقي.

اما الثانية فكانت تعزيز المؤسسات الدفاعية. كان الرئيس يفيد، في هذا المجال، من تنامي نفوذ البيت الابيض الذي تحقق في عهد روزفلت. كان من المسلّم به في السياسة الخارجية ان الرئيس مطلّع افضل من سواه على الاوضاع وينبغي أن يتمتع بحرية واسعة في التحرك. وكان ترومان يشدد على اهمية تنسيق العمل بين القوات العسكرية ووضع حدٍ لتنافس القوات المسلّحة الذي بلغ أشده إبان الحرب. وهكذا انشأ أمانة سر للدفاع تضم امانات السر الثلاث لوزارات الحربية والبحرية والطيران. وعيّن في هذا المنصب الايرلندي فوريستال وهو مناهض متطرف للشيوعية ومن

انصار العودة السريعة الى برنامج التسلح. وسبق له ان شغل منصب امين سر في قوات المارينز، وعرف بنزواته العنيفة (عام ١٩٤٩، اصيب بانهيار عصبي ووضع حداً لحياته برمي نفسه من بناء عالٍ). لعب فوريستال دور الرجل القوي في مجلس الامن القومي الذي انشأه ترومان من اجل تنسيق العمل في الخارج ليس فقط بين مختلف القوات المسلّحة، بل بين الجيش والسياسة ووكالة الاستخبارات المركزية التي كانت تمارس دوراً مزدوجاً: تزويد الرئيس بالمعلومات والتخطيط، بناء لطلب مجلس الامن، « لعمليات » محددة في الدول الاجنبية، قد تصل الى حد اعداد الانقلابات. وهكذا، اكتسبت الولايات المتحدة وسائل محاربة الجهاز الجبار ن.ك.ف.د، بسلاح مماثل، سيما وان انجازات هذا الجهاز في اميركا، باتت معروفة من الجمهور.

اعتباراً من عام ١٩٤٦، ارتفعت اصوات الجمهوريين مطالبة بالتسلح الخلقي. في شباط، طرح السيناتور فاندنبرغ، احد زعماء المعارضة، السؤال التالي : « ماذا تقصد روسيا من وراء ذلك » ؟ ايّد الجمهوريون، بالاجمال، استبدال بيرنز المرن، بمارشال المتشدد، مع ان هذا الأخير عاد من الصين ولم يتوصل الى اثارة مقاومة فعالة يقودها الحزب القومي التابع لشيانغ، في وجه الشيوعيين. وتلقى ترومان مزيداً من المراجعات التي تصرّ على وجوب انشاء « شرطة حازمة » تضرب بقبضتها على الطاولة ». وكان الرئيس قد استجاب لرغبة هؤلاء المتشددين واقال هنري والاس، وزير التجارة الذي بدا مناصراً للشيوعيين. احدث هدوء الجنرال مارشال وسطوته تأثيراً بليغاً في مجلس الشيوخ عندما دافع عن سياسة الحزم التي يتبعها في المتوسط فيما خص الشؤون اليونانية والتركية. ذلك اليوم، تعهد السيناتور الجمهوري فاندنبرغ للرئيس ترومان بمحضه تأييده من دون تحفظ. ولاقت « نظرية ترومان » التي عرضت في الكونغرس في ١٢ آذار ١٩٤٧، استحساناً كبيراً. وهتفت له الجمعية العمومية بحماس شديد عندما اعلن : « على الولايات المتحدة واجب دعم الشعوب الحرة التي

ترفض الخضوع لاقليات مسلحة او لضغوط خارجية ». وفي اليوم التالي راح يشهّر باولئك « المجانين » امثال والاس الذين يتأثرون بكلام الحوريات المثقفات في « الحي اللاتيني » الشهير في نيويورك والكائن في غرين ويتش فيلاج. من الواضح، بالنسبة لترومان، عدم وجود اية فوارق بين الدول التوتاليتارية والبوليسية سواء كانت « نازية او فاشية او شيوعية ». بعد انقضاء سنة واحدة على انقلاب براغ، سوف يستطيع الرئيس رفع صوته ايضاً، وسيكون على ثقة بان الاكثرية الساحقة من الكونغرس سوف تتبعه.

عام ١٩٤٨ : ازمة برلين وتصلّب الشرق والغرب

اسفر انقلاب براغ وتشكيل « الاممية الاشتراكية » عن نتيجة فورية تمثلت باقرار مجلس الشيوخ في ٢ نيسان خطّة مارشال لمساعدة اوروبا. بلغ حجم المساعدات ١٧ مليار دولار توزعت على الدول غير الشيوعية. وهذه الأموال كفيلة بانهاض المانيا.

تغيّر الجو السائد في القطاع الاميركي المحتل من المانيا : اعتباراً من ٢٥ تشرين الأول ١٩٤٧، اوعز الجنرال كلاي الى الصحف الالمانية بالتنديد بالشيوعية وفضحها. وتمّ انشاء أول مجلس اقتصادي الماني في القطاع الغربي. وفي ١٦ نيسان ١٩٤٨، اصبحت المانيا عضواً في « المنظمة الاوروبية للتعاون الاقتصادي، وتلقت مساعدة قيمتها ١,٤ مليار دولار. وفاز المسيحيون الديمقراطيون والاشتراكيون الديمقراطيون في انتخابات المقاطعات. في ٩ آذار ١٩٤٨، نشرت شرعة فرانكفورت » التي نصت على قيام حكومة اقتصادية المانية في القطاع : وهذا يعني التوجه نحو تكوين دولة المانية غربية. وبدا من اصدار المارك الغربي، في حزيران ١٩٤٨، ان تقسيم المانيا الى دولتين منفصلتين كأنه انقسام لا رجوع عنه.

جاء الردّ السوفياتي فورياً من خلال تهديد برلين التي يشكّل وضعها المعقد نقطة الضعف للمسألة الالمانية. اعتباراً من ٢٠ آذار، قاطع السوفيات أعمال لجنة الرقابة الحليفة واتخذوا تدابير حالت دون التنقل بين شطري المدينة سواء عن طريق السيارات او سكة الحديد. وهكذا وجد البرلينيون البالغ عددهم ٢,٥، انفسهم معزولين عن الخارج، فيما المواد الغذائية المتوافرة لا تكفي لاكثر من ٣٦ يوماً فقط.

ردّ الاميركيون على الفور بلسان ترومان: « سنبقى في برلين. نقطة على السطر ». وحرّك الجنرال كلاي جسراً جوياً من ٥٢ طائرة من طراز س ٥٤ و ٨٠ اخرى من طراز س ٤٧٥ راحت تنقل يومياً ٢٥٠٠ طن من الاغذية والعتاد، ثم ارتفع هذا الرقم الى ٤٥٠٠ طن. وحطت طائرات قاذفة من طراز ب ٢٩ في مطارات بريطانيا العظمى. في حزيران ١٩٤٩، تحقق ستالين من خسارته الجولة واضطرّ لرفع الحصار.

شغل الرئيس بالحملة الانتخابية حيث كافح بشراسة للتغلب على توماس ديوي، فلم يستطع استثمار نجاحه في برلين على الفور، غير أنه عاد واستغله في رحلاته الطويلة في سكة الحديد التي اتاحت له استخدام بلاغته في الريف على نحو لاذع. في هذا السياق من النجاح، استعاد الديمقراطيون الاكثرية في الكونغرس، وتوافرت لهم لاربع سنوات مقبلة، حرية التحرك، حيث انضم ديموقراطيو الجنوب، على صعيد السياسة الداخلية، الى الجمهوريين للوقوف في وجه اقرار تشريع تقدمي حول الحقوق المدنية للسود، وكذلك القوانين الاجتماعية.

لكن التسلح الخلقي افاد، بعد حصار برلين، من تنامي الاجماع حوله، ذلك ان تصلب الدول الشرقية عزّز الخوف من الحمر الذي سبق لاميركا ان شهدته في العشرينات. وفي الديمقراطيات الشعبية، نقلت الصحف انباء تزايد اجهزة الاحزاب الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا. فارتفع عدد المناضلين من ٥٠٠٠٠٠ الى ٣,٣ مليوناً. واستمعت الدول الست

المتمثلة في الاممية الاشتراكية، (مع فرنسا والاتحاد السوفياتي وايطاليا) الى جدانوف يعرض نظرية تقسيم العالم الى معسكرين متخاصمين، من دون توافر اية تسوية ممكنة. ولا مجال بعد اليوم للتعاون مع الاحزاب البورجوازية المناصرة للديمقراطية الليبرالية. وعليه تمّ القضاء على الديمقراطيين ــ الاشتراكيين، والاصلاحيين الزراعيين، وكذلك الديمقراطيين المسيحيين، في كل مكان. وجرى توقيف زعماء الاحزاب في المجر وبولونيا ورومانيا وبلغاريا، وفرض الحزب الاوحد بالقوة. تمرّد تيتو وسعى الى انشاء اتحاد بلقاني مستقل واقصى شركات الانتاج المختلطة التي كان يشرف ستالين من خلالها على الاقتصاد اليوغوسلافي لصالحه. وعندما نددت الامية الاشتراكية بتوجهاته، عمد الماريشال تيتو الى توقيف انصار ستالين وانشأ دولة اشتراكية مستقلة سوف تتلقى عروضاً اميركية بالمساعدة، بعد ان فرضت موسكو على البلاد حصاراً اقتصادياً. بالمقابل، اعدم في البانيا بطل الحرب والمؤيد لتيتو، كورشي دزودز، وحلّ محله احد اتباع ستالين انفر هودجا. في ثلاث سنوات، طال التطهير في الديمقراطيات الشعبية ربع عديد الاحزاب الشيوعية. فاقصي غومولكا في بولونيا، وسلانسكي في براغ وكوستوف في براغ. وتعرّض اليهود في رومانيا للاضطهاد فيما بعد، وتمّ القضاء على انّا بوكر وبازيل لوكا وكلاهما من كبار المسؤولين في الحزب. وفي نهاية عام ١٩٤٨، اعتقل بعض الاساقفة. وحكم على الكاردينال المجري ميندزنتي بالسجن المؤبد. في عام ١٩٤٩، سجن رئيس اساقفة بوهيميا كما لاقى المصير ذاته فيما بعد، زميله البولوني ويزنسكي. في ٣٠ حزيران ١٩٤٩، لجأ البابا الى سلاح الحرم الكنسي، واكّده في ١٧ آذار ١٩٥١، ضد « اولئك الذين خرقوا قوانين الكنيسة واغتصبوا حقوقها ». وستوجه الكنيسة اهتماماتها بعد الآن الى « الكنيسة الصامتة والمضطهدة ».

لا يمكن للاميركيين وهم مسيحيون بنسبة ٩٠٪ ان يبقوا لامبالين ازاء هذه الموجة الطاغية من التزمت الديني وبرز الكاردينال سبلمان، اسقف

نيويورك، في مقدمة المناهضين للشيوعية. وفي عام ١٩٤٩، وفّرت قضية « الجير هيس » لانصار « مطاردة المشعوذين »، فرصة ثمينة. اذ اتهم هيس بتزويد السوفيات بوثائق مهمة وبانتسابه الى الحزب الشيوعي الاميركي، علماً بأنه موظف بارز في الخارجية الأميركية في عهد روزفلت، وعمل مستشاراً للولايات المتحدة في الامم المتحدة ابّان اجتماعاتها في سان فرنسيسكو. كان المدعي محامياً من كاليفورنيا، وانتخب عام ١٩٤٦ نائباً جمهورياً ويدعى ريتشارد نيكسون. ادّت ادانة هيس الى قيام السيناتور ويزكونسين جوزف مكارثي بتحركات ناشطة اسفرت نتائجها عن اقصاء عدد كبير من المشبوهين من الادارة والجامعات والاوساط الفنية. عندما كشفت الصحف عن ان الفيزيائي فوكس ينقل المعلومات الى السوفيات، بدأت حملة منظمة لمطاردة الجواسيس وبلغت ذروتها باعدام جوليوس وأثيل روزنبرغ على الكرسي الكهربائي. واسفرت مناهضة الشيوعية ايضاً عن وقوع ضحايا في هوليود : عشرة سينمائيين معروفين — من بينهم ادوارد ديتريك ودالتو ترمبو اللذين دافع عنهما عدد كبير من الممثلين امثال هامفري بوغارت وجين كيلي — تعرضوا لهجوم عنيف قاده رئيس نقابة ممثلي السينما، وهو شاب طموح يدعي رونالد ريغان. بدت اميركا فريسة « الخوف من الحمر » ومصابة بالجنون لدرجة التنكر للمبادئ التي نادت بها. ينبغي انتظار عام ١٩٥٢، لنشهد فشل مكارثي في الانتخابات. منذ عام ١٩٤٨، والولايات المتحدة تشهد صراعاً بين النور والظلام، وتصدّر نزواتها بالاسود والابيض الى اوروبا : انها تريد القضاء على الشيطان اينما كان.

الحليف البريطاني يفك ارتباطه بالشرق الأدنى

هل أوروبا على استعداد للمشاركة في الحملة الصليبية الجديدة؟ بريطانيا نفسها مترددة، ومشاكلها الاستعمارية تصرفها جزئياً عن المسرح الاوروبي، لانها لم تتخلَّ عن البحث عن خلاصها فيما وراء البحار. حتى

عام ١٩٥٦، بقيت تصوّت باستمرار لحزب العمال، وتقف في طليعة دول اوروبا الغربية الاشتراكية الديمقراطية التي تسعى لتحقيق سعادة الفرد « من المهد الى اللحد »، من خلال العمل على توفير الحماية الاجتماعية له بالدرجة الأولى. تبنّى كليمان اتلي تقرير الليبرالي بيفيردج الذي ينص على قيام « الدولة الحامية ». لاول مرة، يفوز العمال بالاكثرية البرلمانية وحدهم، الامر الذي اتاح لهم اقرار قانوني « الضمان الوطني » « والاسعاف الوطني » اللذين ينظمان ضماناً اجتماعياً متقدماً مع مجانية العلاجات الطبية. جرى تحقيق هذا البرنامج من خلال فرض ضريبة مرتفعة على الدخل، ورافقها تأميم قطاعات الطاقة والنقل وصناعة الحديد، خلافاً لفرنسا التي اممت المصارف وشركات التأمين ايضاً. بعد تخفيض قيمة الليرة السترلينية عام ١٩٤٩ بنسبة ٣٠٪، استعادت الصادرات نشاطها وحتى أنها تجاوزت المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب. وشهد التوازن في الموازنة العامة على حسن ادارة الحكومة العمالية للشؤون العامة، والتي توصلت الى هذه النتائج من خلال تخفيض المجهود الحربي بصورة كبيرة : انسحبت بريطانيا من اجزاء واسعة من العالم، خصوصاً من المتوسط والمحيط الهندي، وفي مصر تراجعت قواتها حتى محيط قناة السويس، متخلية عن حصن القاهرة. ودفعت سوريا للاستقلال، الأمر الذي منع الفرنسيين، عام ١٩٤٥، من العودة اليها. اما لبنان فقد نعم باستقلاله منذ عام ١٩٤٣.

في ايلول ١٩٤٤، تأسست في الاسكندرية، بموافقة بريطانية جامعة للدولة العربية تضم مصر وشرقي الاردن والعراق وسوريا ولبنان. وانتسبت اليمن اليها، في ١٠ ايار ١٩٤٥، بعد توقيع ميثاق الجامعة في ٢٢ آذار ١٩٤٥، الذي عارض انشاء دولة يهودية في فلسطين. اعتقد البريطانيون، في حينه، ان بقاءهم في هذه المنطقة والحفاظ على مصالحهم النفطية تضمنه سيطرتهم على امارات الخليج الفارسي وقواعدهم العسكرية في شرقي الأردن، حيث الامير عبد الله، قائد الفرقة العربية هو صنيعتهم

المطواعة. غير أن مصر ثارت ضد الاحتلال البريطاني الممتد حتى السودان. تزايدت الاضرابات والتظاهرات الطلابية واعمال الشغب. والوضع متوتر ايضاً في فلسطين حيث يتواجه ١,٢ مليون عربي، عام ١٩٤٥، مع ٥٥٣٦٠٠ يهودي. تحاشياً لاغضاب العرب، خفضت لندن هجرة اليهود حتى عام ١٩٤٦ ـــ حين اقترحت لجنة تحقيق انكلو ـــ اميركية هجرة فورية الى فلسطين لحوالي ١٠٠٠٠٠ يهودي من الناجين من المذابح النازية. عند ذاك تضاعفت العمليات الارهابية ضد الانكليز الذين رغبوا في تقسيم البلاد الى اربعة اجزاء وسحب قواتهم تاركين العرب واليهود وجهاً لوجه. في حين فجر الصهاينة الفندق البريطاني « الملك داود » في القدس حيث مقر قيادة الأركان العامة (١١٠ قتلى) وقررت منظمة الامم المتحدة، عام ١٩٤٧، تقسيم فلسطين، مانحة النقب لليهود. في ١٤ ايار ١٩٤٨، انسحب البريطانيون، فيما اعلن اليهود قيام دولة اسرائيل. انفجرت الحرب على الفور بين الجيش الاسرائيلي المؤلف من ٧٠٠٠٠ رجل (الهاجاناه)، تدعمه منظمة ارغون المؤلفة من ٦٠٠٠ رجل، والجيوش العربية التي حوصرت في النقب وانقذها التدخل البريطاني. أقامت اسرائيل برلمانها في مدينة تل أبيب الحديثة، فيما سيطرت شرقي الاردن الذي صار اسمها الاردن على فلسطين العربية حيث حلّ فيها مليون لاجئ هرباً من الهاجاناه، في مخيمات بائسة. في الشرق الأدنى، حقق البريطانيون، كما في اليونان، انسحاباً شبه تام ـــ ولم يحتفظوا بوجود استراتيجي لهم الا في العراق لمراقبة الامارات التي هي محميات لهم، وفي السويس لحماية القناة.

مارسوا في الهند سياسة الانسحاب ذاتها واعلنوا عن رحيلهم في عام ١٩٤٧. ولم يبدوا اي اعتراض ضد استقلال ليبيا والكويت (اللذين تحققا على التوالي في عامي ١٩٥١ و ١٩٦١). لكنهم تصدوا للاضطرابات الخطيرة التي تسببت بها في الهند، المشاريع التقسيمية لنائب الملك وافل الذي سعى بها لارضاء حزب المؤتمر برئاسة نهرو

والرابطة الاسلامية بقيادة الدكتور جناح. سقط خلال صيف عام ١٩٤٧ ١٠٠٠٠٠ قتيل، في فتن اثارها المسلمون.

فرض اللورد موتباتن، نائب الملك، على حزب المؤتمر عام ١٩٤٦ القبول باستقلال الباكستان المؤلفة من مقاطعتين، الشرقية والغربية التي تضم بالوشيستان ايضاً. وفقاً لما هو متوقع، ابحرت القوات البريطانية في ١٥ آب ١٩٤٧ عائدة الى بلادها، ونالت سيلان وبيرمانيا استقلالهما. وبذلك يكون الانكليز قد انهوا اخلاء المحيط الهندي. وتطبيقاً لسياستهم في الحفاظ على وجود استراتيجي لهم، استمروا في ماليزيا وسنغافورة لحراسة مدخل بحر الصين.

على الرغم من تخفيض جيشها، تابعت بريطانيا، حتى في ظل الحكومة العمالية، تنفيذ برنامجها النووي (جرى تفجير اول قنبلة عام ١٩٥٢). ونجح المفاعل النووي الذي اقيم بعد الحرب في هارويل، بالقرب من اوكسفورد، في تشغيل بطارية اعتباراً من عام ١٩٤٧. عند ذاك، جرى تركيب بطاريات من البلوتونيوم بكلفة مرتفعة، وكذلك انشاء مصنع للفصل النظيري بالانتشار الغازي. واستنتد الباحثون الى أعمال الكنديين الذين نجحوا، عام ١٩٤٧، في تشغيل بطارية كبيرة تعمل بالماء الثقيل. قدمت كندا للولايات المتحدة وبريطانيا العظمى انتاجها من البلوتونيوم، لكونها لا تقوم بنفسها بصنع القنبلة. من الصعب على البريطانيين الذين سرحوا جيشهم واحتفظوا ببرنامج نووي مهم، ووظفوا الاموال في صنع الطائرات النفاثة الجديدة والاسلحة الحديثة، ان يتخلوا عن موقعهم المميّز في اوروبا من اجل المشاركة في الدفاع المشترك، من دون ان يثيروا اعتراض الرأي العام عندهم. والمواقع التي ينبغي عليهم المحافظة عليها في افريقيا تحول دون تخصيصهم الكثير من الامكانات لاحتلال المانيا. هل بوسع الاميركيين الذين لم يرغبوا بمشاركة الانكليز في الاسرار النووية، أن يقنعوهم بالمشاركة في الدفاع عن اوروبا تحت ادارتهم ؟ لقد فقدت

الحكومة البريطانية سيطرتها على البحار وقللت كثيراً من طموحاتها العالمية. واذا كانت مهمة قواتها المسلحة قد اقتصرت على الدفاع عن عدد ضئيل من المناطق الاستراتيجية، فان ذلك كله لن يدفعها بالتأكيد في احضان مارشال لو لم يكن مصرف انكلترا، بغير حاجة ماسة الى المال ولو لم يكن تموين الجزر وتسليم المواد الاولية لا يخضعان في جزء كبير منهما للمشيئة الأميركية الطيبة.

التورط الفرنسي في الهند الصينية

عانت فرنسا من الأحوال ذاتها التي تفاقمت من جراء تورطها في الهند الصينية وضعف صناعتها الحربية. كانت ترغب، حين انشأت الاتحاد الفرنسي، في ان تضم فيه شعوب امبراطوريتها الاستعمارية السابقة، عبر وعدهم بالتدرج بهم نحو تقرير المصير بالنسبة « للدول الشريكة »، فيما يمكن للمقاطعات الاخرى طلب الانضمام الى رابطة الشعوب الفرنسية؛ وعند ذاك تصبح مقاطعة لها تمثيلها السياسي في برلمان باريس. مع رحيل اليابانيين، من الهند الصينية، اعلن المناضل الشيوعي هوشي منه، في ٢ ايلول ١٩٤٥ استقلال « جمهورية فيتنام الديمقراطية ». هدّأ الجنرال لوكليرك، الذي انتقل الى هناك، من روع الكوشنشين حيث حلّت قواته محل قوات الاحتلال الانكليزي. ثم تفاوض مع كمبوديا واللاوس ومع هوشي منه الذي لم يكن راغباً في مواجهة الصين الوطنية ووافق على انضمام جمهوريته الى الاتحاد الفرنسي، فاستطاع جنود لوكليرك عند ذاك الدخول الى هانوي. وادت سياسة القوة التي انتهجها الاميرال تييري دارجانليو الى الصدام : وتسبب القصف المدفعي لهيفونغ (٦٠٠٠ قتيل) في تشرين الثاني ١٩٤٦ واحتلال مدينة هانوي بصورة وحشية، بوقوع هجوم جديد شامل قاده جياب، في ١٩ كانون الأول ١٩٤٦، فانفجرت حرب الهند الصينية. وشكّل الفرنسيون مع الامبراطور باوداي « حكومة فيتنام المركزية » التي شاركت في المعارك واصبحت دولة

شريكة في اطار الاتحاد الفرنسي. وفي اندونيسيا، تأجل موعد اعلان الاستقلال الى كانون الأول ١٩٤٩.

الامكانات المالية غير متوافرة لدى الانكليز. ومع ذلك تباطأوا كثيراً في تسريح جنودهم الذين بلغ عددهم في عام ١٩٤٦ نحو ٨٨٠٠٠٠ جندي (مقابل ٥ ملايين قبل سنة)، غير أن الجنرال ديغول توصل، عام ١٩٤٥، الى اقرار مخطط لجيش قوامه ٧٧٠٠٠٠ رجل، يتوزعون على ٢١ فرقة و ١٤ مجموعة متحركة. بعد رحيل ديغول، تناقص هذا العدد، كما ارقام موازنة الجيش، في البرلمان. وقد جهد الجنرالان دي لاتردي تاسيني وجوان، للحصول على ٤٦٠,٠٠٠ رجل، وتسليحهم بالعتاد المقدم من الحلفاء او من الغنائم التي حصلوا عليها من الالمان، مثل طائرات النقل من طراز جونكر ٥٢ التي ادّت افضل الخدمات في الهند الصينية.

اما الفرنسيون الذين لم يتخلوا عن برنامجهم النووي، فقد كانوا يميلون الى وضع الحد الاقصى من قواتهم في بلدان ما وراء البحار حيث كانت الثورات تتوالى. في ايار ١٩٤٥، استخدم الجنرال دوفال ١٠,٠٠٠ رجل للسيطرة على الثورات في اورانية وكابيلي. وارسلت تعزيزات الى الشرق ثم الى مدغشقر عام ١٩٤٧، ويقدر العدد اللازم في افريقيا بنحو ١٠٠,٠٠٠ جندي و ١١٦,٠٠٠ اولئك الذين كان عليهم التدخل في الهند الصينية. كيف لفرنسا ان توفّر لهم التجهيز والسلاح ؟

كان الاميركيون يقدمون مساعدات محدودة، مقابل مطاليب سياسية محددة. كانوا يعتبرون ان الوجود الفرنسي في الشرق الأقصى غير ملائم ومن شأنه دفع جنوبي شرقي آسيا نحو الشيوعية. قبل ١٩٥٠، كانت تلك المساعدات لا أهمية لها. وقد اضطرّ الفرنسيون للاكتفاء بحاملتي الطائرات ديكسمود واررومانش المستعارتين من البريطانيين. اما سلاحهم

الجوي فغير موجود، لان طائرات الشحن من طراز كارموران والطائرات النفاثة من طراز اسبادون، بدت غير فعالة.

لاحظ ضباط الجيش الفرنسي هبوط نفوذ الجيش في نظر الأمّة ولامبالاة الوسط السياسي، فأملوا انشاء جيش يندمج مع القوات الأميركية وفق صيغة تمكنه من الافادة من العتاد الاميركي الحديث. غير أن الاحزاب الثلاثة الرئيسية لم تكن مستعدة للتخلي عن الاستقلال الوطني. عارض الشيوعيون الفكرة وقاوموا حرب الهند الصينية، فيما عاد الاشتراكيون الى مفهوم جوريس الداعي الى انشاء جيش ــ ميليشيا يتولى الشؤون الدفاعية البحتة. وحدهم نواب حركة المقاومة، ومن بينهم كوست ــ فلوريه، دعوا الى ضرورة قيام جيش مسلح قوي، يتولى الدفاع بوجه الخصوص عن المقاطعات فيما وراء البحار.

كاد النجاح الصاعق « لتجمع الشعب الفرنسي » (الذي اسسه الجنرال ديغول) بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨، وانضمام مئات الآلاف من الانصار، ان يؤدي الى الاخلال باللعبة القائمة، لان انصار ديغول شاؤوا الظهور بمظهر المدافعين عن الاستقلال الوطني. فهل تستطيع الجمهورية الرابعة الاستمرار في وجه معارضة شيوعية ذات طبيعة ثورية، وحزب رافض ادان رئيسه بلا هوادة المبادئ التي يقوم عليها عهد بايو، عام ١٩٤٦ ؟ وكان الشيوعيون والديغوليون، يشكلون اكثرية الاصوات، تعاقبت حكومات « القوة الثالثة » وسط سلسلة من الازمات الوزارية، ذلك ان القوى التي تؤلفها ــ اشتراكيون وحركة المقاومة ــ تتخاصم بشدة حول بعض المسائل، كالمدرسة حيث يدافع اصدقاء بلوم ومواليه عن مدرسة الدولة العلمانية ضد « المدرسة الحرة » التي يدعمها الديمقراطيون ــ المسيحيون.

اما احزاب اليمين الصغيرة فقد انضمت الى الديمقراطيين المسيحيين من اجل التصدي للتدخل الاشتراكي في الحقل الاقتصادي والدفاع عن

مبدأ توازن الموازنة العامة ضد النفقات الاجتماعية. غير ان الخوف من خطر المتطرفين دفع بأحزاب الوسط الى الاتحاد فيما بينها كي تتوصل الى ممارسة الحكم من دون الوقوع في الجمود. كيف للاميركيين ان يضعوا ثقتهم، للدفاع عن اوروبا ضد الجيش الاحمر، في نظام منقسم يتردد في تحمّل مسؤوليته تجاه جيش يقع تحت سيطرة النساء.

لا شك أنهم يستطيعون اثارة مشكلات الامن التي تتوافق الاحزاب الممثلة في الحكومة حولها؛ في ٤ آذار ١٩٤٧، التقى الفرنسيون والبريطانيون في دونكرك لعقد اتفاق لتبادل المساعدة في حال التعرض للعدوان. لم يرعَ الاميركيون هذه المبادرة بصورة رسمية، ولا ذلك اللقاء في آذار ١٩٤٨ الذي ضمّ دول بينيلوكس في بروكسيل، حيث جرى توقيع اتفاقات فيما بينها للمشاركة في الجهود الدفاعية التي تتبادلها فرنسا وبريطانيا. بعد براغ وبرلين، بدا واضحاً لباريس ولندن ان الحماية الاميركية وحدها تستطيع انقاذ اوروبا. وبذلك اصبح الجنرال مارشال حرّ التصرف.

دقائق خطة مارشال

لا يثق الجنرال مارشال، في نظرته الى الشؤون الاستراتيجية، سوى بجيش اوروبي متكامل. وهو يمتلك السلاح الاقتصادي لفرض وجهة نظره. وهذا السلاح، في الواقع، يتلازم مع شروط تتيح « لبرنامج الشفاء الاوروبي » الذي اقرّه الكونغرس الاميركي التدخل في الاداء الاقتصادي والاجتماعي لمختلف الحكومات، في حال عدم تطابق هذا الاداء مع ما تأمله الاوساط الاقتصادية الاميركية. وجرى تأسيس ادارة مستقلة عن وزارة الخارجية في واشنطن، عين على رأسها بول هوفمان، الرئيس السابق لشركة ستوديبايكر وتتولى هذه الادارة درس حاجات الدول واعداد البرامج والعمل على تنفيذها، ولديها في باريس مراسل مسؤول عن

كل اوروبا هو المليونير النيويوركي افيريل هاريمان الذي قام بمهمات سياسية كبيرة لصالح روزفلت. وثمة بعثة قائمة في كل بلد مهمتها التأثير على الحكومة ـــ في فرنسا، كانت هذه البعثة برئاسة دافيد بروس. وقد طالب الاميركيون الحكومات الاوروبية بتشكيل لجان تستطيع اجراء الحوار باستمرار. افرزت خطة مارشال، اذاً، ادارة حقيقية : فالبعثة الاميركية في باريس تضم ٦٠٠ عضو على الاقل يقيمون بالقرب من ساحة الكونكورد، في فندق تاليران.

كانت آلية العمل بسيطة : تسلم الولايابت المتحدة الى الحكومات المعنية مساعدة عينية من المنتجات والمعدات والآليات، فتبيعها الحكومات بالعملة الوطنية الى المنتجين في السوق. وهكذا تكونت مبالغ نقدية ضخمة، واستخدمت نسبة ٩٥٪ منها في استثمارات محددة بعد موافقة الادارة الاميركية.

غير أن ما قابل هذه المساعدات من مطالب، شكل موضوع مفاوضات حفلت بالكثير من التجاذب وشد الحبال. كان ممثل الجانب الفرنسي، بول شويتزر، يجتمع كل يوم بالاميركيين. في ايطاليا لم تكن مطالب الدائنين دون ما كانت عليه في فرنسا. في اليونان، تولت البعثة ادارة دفة الاقتصاد بكامله. وحدها بريطانيا العظمى التي اعتبرت نموذجاً في الادارة والدقة، نجت من الرقابة. كانت الاهداف متطابقة لكل الدول : الوصول الى استقرار الاحوال المالية وزوال التضخم ومراقبة الاستثمارات بحيث تسهم في تحرير التبادل التجاري. في فرنسا، نالت الحكومة الوعد بعدم اعادة النظر بخطة انهاض الاقتصاد من خلال توفير مساعدة ضخمة للتجهيز، اعدّها جان مونيه، ورفض بحزم اي اقتطاع للمبالغ المخصصة لتطوير الطاقة الكهربائية والنقل.

في فرنسا وايطاليا، شكّل عدم الاستقرار الاجتماعي موضوع قلق مستمر لمارشال. كان احد اهداف خطته يقضي بانتزاع شعوب المتوسط

من الشيوعية من خلال توفير البحبوحة وحسن توزيع الثروات. لا احد يمكنه ان يأمل باستراحة اجتماعية دون ان يحطّم لولب الاسعار ــ الاجور. كانت سياسة التشدد النقدي التي فرضها الاميركيون تعاكس الارتفاع الفعلي للاسعار. واعتقدوا ان نجاح الخطة في فرنسا يمر عبر اصلاح المجتمع من خلال تنظيم جديد للنظام الضرائبي يلغي الامتيازات.

اعتبرت مجلة « فورتون » ان الفرنسيين هم « ابطال في التهرب من الضرائب » وسيقعون فريسة « سرطان الشيوعية ». واذا فاز الشيوعيون الحمر في البرلمان، فماذا سيكون مصير امتيازات اولئك الذي يدافعون عنها بحماس ؟ دعماً لموضوع التقشف وضبط الانفاق، ارتفعت اصوات كثيرة تدعو الى التقشف امثال منديس فرانس، بلوك ــ ليني، هيرفه ــ الفان، جان مونيه، رئيس الحكومة كويل، وامين سر وزارة المال، لأن الاميركيين هددوا بوقف مساعداتهم ولعب الورقة الالمانية، اذا لم تتوصل فرنسا الى تقويم ماليتها. وقبل أن يقبل بمهمة تشكيل الحكومة، كان كويل قد حصل على وعد اميركي بالافراج عن ١٢٠ مليار فرنك من الاموال المجمدة. كما عزز الثقة به عندما نجح في انهاء الاضراب الكبير لعمال مناجم الفحم، وتم الافراج عن تلك الاموال. في كل حال، بات واضحاً ان باستطاعة البعثة الاميركية الزام الحكومة الفرنسية بزيادة الاعباء الضريبية، واجبار « الشعب الفرنسي على تقليص زيادة المداخيل والارباح واللجوء الى التسليف، من اجل تحاشي ارتفاع الاسعار » (ايروين م. وول)

كذلك كانت البعثة تسهر على احترام الاتفاقيات الثنائية المعقودة بين الولايات المتحدة والدول المعنية، والتي اثارت حروباً كلامية عنيفة فضلاً عن معارضة شيوعية شديدة : لم يكن البريطانيون والفرنسيون على استعداد للقبول بافادة المانيا واليابان من « بند الدولة الاكثر رعاية ». بدا هذا البند لهما غداة الحرب، غير اخلاقي. الحّ الاميركيون على هذا الأمر

بغية تخفيض العبء المالي للاحتلال، من خلال تنمية التجارة الالمانية مع اوروبا. والمطلب الثاني يدور حول الاشراف على صندوق النقد الدولي الذي انشئ في بريتون وودز : كان من غير الممكن دعم المطلب الاميركي القاضي بتكليف الصندوق تحديد سعر القطع بين الدول. هذا التخلي عن السيادة دفع بياركوت، حليف الحزب الشيوعي، للقول على منبر البرلمان : « باعت الحكومة الفرنسية حق بكوريتها بصحن من العدس ». بالفعل، اضطر الاميركيون أمام المعارضة الحازمة التي ابدتها باريس ولندن، الى صرف النظر عن هاتين النقطتين وكذلك عن مسألة تسليم المواد الأولية الاستراتيجية التي تفتقران اليها.

هكذا يتضح لنا حجم الضغوط التي مارستها خطة مارشال على الحكومات الاوروبية؛ كان لها أن تكون ضغوطاً مزعجة وانتفاعية، كعرض تسليم الفرنسيين قاطرات ديزل المصنوعة في الولايات المتحدة، أو محطات حرارية تعمل بالفيول، تحت ذريعة ان الطاقة النفطية اقلّ كلفة من الكهرباء التي تولّدها المياه. ومن الانصاف القول ان الحكومات الاوروبية كانت تتصدى، لمطالب البعثات الاميركية بحيَل بارعة تضلل الخبراء الاميركيين وبالتهويل السياسي والمالي. كان مارشال يشدد من دون جدوى على تخفيف نظام الحماية الجمركية والتنسيق بين الدول الست عشرة من اجل تنمية التبادل على انواعه.

مع ذلك، عادت الثقة الى باريس، عام ١٩٥٠ : ارتفع الناتج الوطني غير الصافي بنسبة ٩٪ وازدادت الصادرات ٤٠٪ على الرغم من زيادات الاجور وتدني الانتاجية. والواقع ان خطة مارشال لم تعد تلحظ في اولوياتها، عام ١٩٤٩، النواحي الاجتماعية والمالية، اذ انصب اهتمام واشنطن على تأمين الدفاع عن اوروبا.

اعادة تسليح اوروبا الغربية

أملت وزارة الخارجية ــ وليس الكونغرس ــ بربط الولايات المتحدة واوروبا بمعاهدة دفاع مشترك، الامر الذي كان منافياً لتقليدها الانغزالي. والرئيس ترومان، الاكثر تقليدية بين الرؤساء هو الذي فرض هذا القرار، بعدما حررته الانتخابات من شبح روزفلت، واعتقد نفسه، بنتيجة الاصوات التي نالها اثر حملة قاسية، انه مكلف الاضطلاع برسالة سامية. واذا كان روزفلت قد طهّر العالم من رجس الشيطانين النازي والياباني، فان عليه ان يصرع التنين الشيوعي. وكان يردد : « ان تكون رئيساً، كمن يركب نمراً، فأما ان تمتطيه جيداً او يفترسك ». وهو اكتسب المزيد من الثقة بنفسه واستعان في ادارة دفة الحكم برجال حازمين امثال مارشال وفورستال.

اعتبر مارشال، مثل ترومان، ان الدفاع عن اوروبا مسألة انكلو ساكسونية. ويمكن الوثوق ببريطانيا العظمى وحليفتيها بلجيكا ونيرلندا وليس بفرنسا وايطاليا اللتين نخرتهما الشيوعية. وعليه فان التحالف يخضع لمدى نجاح التسلح الخلقي، وهي عملية سياسية تهدف للقضاء على الشيوعيين. في ايطاليا، لم يدخل قرار تزويد قوى الامن بالسلاح، حيز التنفيذ الا بعد فوز التكتل المناهض للشيوعية في الانتخابات، عام ١٩٤٨، ولم يتردد الاميركيون في تجنيد وكالة الاستخبارات المركزية (سي.أي.إي) كي ترصد عشرة ملايين دولار لدعم المرشحين « الاخيار » من الديمقراطيين المسيحيين والاشتراكيين من انصار ساراغات، كما جرى استخدام هذه الاموال لتأمين تدريب بعض المناضلين » « على تقنيات الحملات الانتخابية بالطريقة الاميركية : عقد الصفقات الانتخابية، التشهير، ونشر الاخبار الملفقة عن دول الكتلة الشيوعية. وعمدت عائلات الجالية الايطالية في نيويورك الى مراسلة ذويهم في البلاد لحملهم على الاقتراع لصالح المرشحين « الاخيار ». وقد استخدمت الطريقة ذاتها في الانتخابات الفرنسية، وقد ذكّرت

الحكومات محاوريها الاميركيين تكراراً بحزم الجيش وصلابته في وجه المضربين عام ١٩٤٧ : اذ لم يتردد بعض الجنود عن اطلاق النار على الشيوعيين. وكان المطلب الفرنسي مماثلاً للايطالي لجهة التزود الفوري بالسلاح.

لا شك ان الحذر الاميركي من نداءات الاوروبيين في الدول الغربية يجد تفسيره في طابع العجلة الذي ترتديه هذه النداءات. ما مصير هذه الاسلحة ؟ في الواقع، حرص مارشال على انجاز مشروع تحالف بعيد الامد، ولم يكن يعتقد بامكانية نشوب حرب فورية. ونوى في البداية دفع اوروبا الى التكتل. فالمساعدة العسكرية لا يمكنها ان تكون، في تصوّره، الا مدروسة ومتكاملة، اسوة بالمساعدة الاقتصادية. لا شك أن الدول الاوروبية تحتاج الى جيش داخلي، كما أن فرنسا بحاجة الى جيش استعماري، غير أن الاميركيين لا يقع عليهم تحمّل نفقاته. ويحتاج مارشال لضمانات لتنظيم التحالف، اذ عليه التأكد من أن الفرنسيين سيلتزمون استعمال الاسلحة المسلّمة اليهم في اوروبا. ولا ينوي الاميركيون البتة تمويل قيام جيش فرنسي مستقل.

وحدهم الفرنسيون، « كصوت صارخ في البرية » حذّروا من الخطر السوفياتي، بعد عملية براغ. هل تنطوي المنسألة على خطة سياسية لوزير الخارجية جورج بيدو، وهو الرئيس السابق للمجلس الوطني للمقاومة ويؤيد منذ عام ١٩٤٥ انتهاج سياسة مستقلة على الطريقة الديغولية ؟ ففي الوقت الذي يتفاوض على توقيع اتفاق دونكرك مع البريطانيين ضد عدو محتل هو بالتأكيد الماني اكثر منه روسي، ها هو يؤيد البلجيكي بول هنري سباك حين اصبغ هذا الأخير على ميثاق بروكسيل طابعاً اميركياً يماثل معاهدة الريو، من دون تعيين العدو. هل اهتدى بيدو فجأة الى دعوة ترومان حول محاربة الشيوعية، ام يسعى لدفع الاميركيين الى تحمل أعباء الدفاع عن اوروبا وتوفير الوسائل التي تتيح للجيش الفرنسي اعادة بناء

ذاته ؟ وقد اخذ الموفد الفرنسي الجنرال ريفرس على عاتقه انشاء جيش قوامه مليون رجل، فسمع في واشنطن ان البنتاغون يعتزم في حال هجوم روسي، القيام بردّ دفاعي يتجاوز المانش والاطلسي. الا يسعى الفرنسيون، منذ الآن، من خلال تقديم هذا العدد الضخم من الجنود، الى تحاشي اعادة تسليح المانيا التي صارت منطقية ولا بد منها اذا قرر الاميركيون تغيير خططهم وقرروا خوض الحرب في اوروبا ؟

على صعيد آخر، توجب على مارشال وترومان مواجهة الكونغرس من اجل الحصول على التزام بلادهم الدائم بشأن اوروبا. وعليهما ان يثبتا ان طلب الحماية صادر عن اوروبا الموحدة. في كانون الأول ١٩٤٧، ردّ مارشال على رئيس الوزراء البريطاني بيفن بان فكرة التحالف سابقة لاوانها ــ كما تلقى بيدو وتيجّين عام ١٩٤٨ جواباً تسويفياً مماثلاً، ذلك أن الولايات المتحدة كانت تصب اهتمامها بالقواعد المغربية القائمة في بورت ليوتي والدار البيضاء. بعد براغ، اجتمع البريطانيون والكنديون، مستبعدين الفرنسيين عن هذا النادي الانكلوساكسوني، الذي ارسى الاسس الاولى « للحلف الاطلسي »، وجرى البحث في اشراك دول القارة في المجهود الدفاعي. وكان ترومان قد استبق الكونغرس معلناً في ١٧ آذار ان اتفاق الدول الخمس الكبرى في بروكسيل يشكل « انجازاً يستحق دعمنا التام ! واني مقتنع بأن الولايات المتحدة سوف توفّر للدول الحرة الدعم الذي تتطلبه الظروف، وبالوسائل المناسبة ». هل سيوافق مجلس الشيوخ ؟ في ١١ حزيران، صرح السيناتور الجمهوري فاندينبرغ ان على الولايات المتحدة « المشاركة في اتخاذ تدابير اقليمية وجماعية تقوم على تقديم مساعدة فردية او متبادلة، فعالة ومتواصلة ». ما ان شاع هذا « القرار » في الصحافة، حتى انفتح الباب واسعاً امام ترومان.

من سيدعى للانضمام الى الحلف الاطلسي ؟ المانيا ؟ الموضوع غير وارد اطلاقاً في مؤتمر لندن المنعقد في الأول من حزيران، قررت الدول

الثلاث توحيد قطاعاتها المحتلة ودعوة جمعية تأسيسية المانية للانعقاد في ايلول، تمهيداً لتكوين دولة، كما تخلت فرنسا عن سياسة التقسيم العزيزة على قلب الجنرال ديغول. واعلن عن تكليف مكتب عسكري للامن للاشراف على نزع السلاح. وسيتم في واشنطن، في نيسان ١٩٤٩ توقيع اتفاق لتشكيل حكومة المانية غربية. وقضى « قانون بون الاساسي » الصادر في ٨ ايار، بانشاء جمهورية المانيا الاتحادية المكونة من ١١ مقاطعة. في ١٥ ايلول، انتخب الديمقراطي المسيحي كونراد ادنياور مستشاراً لها. وردّاً على ذلك، اعلن السوفيات في تشرين الأول قيام جمهورية المانيا الديمقراطية. فتكرس تقسيم البلاد.

افتتحت المفاوضات لتأسيس « منظمة حلف شمالي الاطلسي » في حزيران ١٩٤٨، اي قبل اكثر من سنة على اعلان قيام الدولتين الالمانيتين. جرى توقيع المعاهدة في نيسان ١٩٤٩، في واشنطن. لم يكن ممكناً، قبل نشوء الدولة الالمانية الغربية، في ذلك التاريخ البحث في اعادة تسليحها. والمفارقة ان ترشيح ايطاليا لعضوية المنظمة، وهي الحليفة لالمانيا خلال الحرب لم يأتِ من ترومان الذي يكره الايطاليين ويعتبر انضمامهم للمنظمة عملاً غير اخلاقي، بل من الفرنسيين الحريصين على قيام توازن ضمن المنظمة عبر اشراك دول متوسطية يتيح لها طلب اشراك المقاطعات الفرنسية في الجزائر. كما اشترطوا التزود بالسلاح فوراً وانتشار القوات الأميركية على اراضيها. وافقت الولايات المتحدة على تجهيز ثلاث فرق فقط من فائض المخزون الاوروبي. وقد اعلن جورج مارشال، خلال زيارته لباريس في تشرين الأول ١٩٤٨، امام رئيس مجلس الوزراء الجديد هنري كويل، بأن يكتفي الفرنسيون بتقديم قوات برية، فيما تتكفل الولايات المتحدة بالقوى الجوية والبحرية. غير أن الولايات كانت تدرك اهمية موقع فرنسا الاستراتيجي المركزي في قلب اوروبا، ولا تدخر جهداً للتأثير في الحياة السياسية والرأي العام. وقد تلقت فرنسا ما يقارب نصف المساعدة العسكرية المرصودة وقدرها

١٤٥٠ مليون دولار. وللوقوف في وجه الرد السوفياتي على قيام منظمة حلف شمالي الاطلسي، ونشاط « حركة السلام » المنشأة لهذه الغاية، كانت وكالة الاستخبارات المركزية تموّل، باساليب ملتوية، المشروع الحكومي المعروف باسم « السلام والحرية »، وهي حركة اسسها جان بول دافيد وتولّت نشر ملصقات مناهضة للسوفيات على جدران باريس. وخصصت اكبر حملة دعائية لنشر كتاب المنشق السوفياتي كرافشنغو الذي كشف حملات التطهير والاعتقالات في كتابه : « اخترت الحرية »، وقد شكك الحزب الشيوعي في صحة نسبته اليه، كما أتاحت الدعوى العلنية التي اقامها المنشق السوفياتي ضد المشهّرين والوشاة ـــ وقد ربحها ـــ قيام دعاية كبيرة وتغطية اعلامية واسعة. من المؤكد ان الولايات المتحدة لم تكن تهمل شيئاً يضمن لها توافر التسلح الخلقي لفرنسا حليفتها الجديدة، حتى انها راحت تمول مجلة « بروف » حيث كان مثقفو اليسار ينددون بالعنصرية الأميركية ومحاربة الشعوذة ...

اما مارشال الذي حلّ محله دين اتشيسون، فكان يرى ان سياسته قد تكللت بالنجاح، اذ ان معاهدة شمالي الاطلسي التي تضم ١٢ شريكاً، قد وقعت في باريس وواشطن على السواء. على الرغم من احتجاجات موسكو التي سبق لها ان وقعت مع باريس معاهدة « تعاون وصداقة، في عام ١٩٤٤، فان فرنسا باتت شريكاً كاملاً في الدفاع الاطلسي. كما ستنضم اليونان وتركيا الى هذا الحلف، بعد ايطاليا، وبذلك يتصل المتوسط بالمحيط الاطلسي ويكتمل طوق الحصار حول اوروبا الحمراء.

احتواء تركيا وايران واليونان في الجنوب

كان من السهل احتواء المد السوفياتي في المتوسط، وقد وعى الاميركيون خطورته منذ البدء، حين جرى حشد وحدات بلغارية على الحدود التركية، وتدريب المناضلين الشيوعيين في اليونان. وترافقت هذه المطامع باتجاه الجنوب، بتواجد عدواني للجيش الأحمر في اذربيجان،

قبالة ايران. هل يمكن الحديث عن استئناف المطامع التوسعية الروسية ؟

في الحقيقة، كان ستالين، بالاحرى في موقع دفاعي. اذ سبق له ان عانى الكثير، خلال الحرب، من الهجوم الالماني على نفط باكو، ومن اشتراك بلغاريا ورومانيا في اجتياح الاتحاد السوفياتي، كيلا يوهم نفسه بتضامن البلدان المحاذية للبحر الاسود معه. وعندما اوضح فرونز، رفيق لينين، للجنرال مصطفى كمال اتاتورك، مؤسس تركيا الحديثة، بأن « الاصوات التي دعت في السابق شعوبنا لاحتلال القسطنطينية والمضائق والاناضول، قد سكتت الى الابد »، فانه بدا كأنه تخلى عن احد المطامع الاساسية في السياسة القيصرية. بالفعل، نص اتفاق عام ١٩٢٥، الذي استكمل عام ١٩٣٦، في مونترو، على تكليف تركيا مهمة الامن في هذه المنطقة الحيوية، وعلى الترخيص للاسطول السوفياتي بعبور البوسفور. وعندما خلف الجنرال اينونو، اتاتورك، ظنّ ستالين ان عليه الذهاب ابعد من ذلك، من جراء قلقه من معاهدة التعاون المتبادل (التي تقتصر على المنطقة) التي وقعتها تركيا مع باريس ولندن. وسعى للحصول على تحريم عبور المضائق لكل سفينة لا تحمل علم دولة محاذية للبحر الاسود. غير ان ابنونو، الذي كان يواصل بيع الكروم لهتلر، رفض كل اتفاق مع ستالين، واعلن وقوفه على الحياد التام حتى شباط ١٩٤٥ حين انضم الى معسكر الحلفاء كي تتمكن بلاده من الإنضمام الى منظمة الامم المتحدة.

تسلّح ستالين بهذا التهرب التركي، واتفق مع تشرشل (الناقم هو الآخر على الاتراك) على اعادة النظر بنظام المضائق، وطالب ايضاً باعطائه قاعدة عسكرية في الدردانيل واعادة ولايتي ارداهان وكاهار التي استولت عليهما تركيا اثر سقوط نظام القيصر. وقال انه من غير الطبيعي ان تقدم تركيا، خلال الحرب على فتح المضائق واغلاقها على هواها. فهي ليست وحدها على البحر الاسود ...

كان ستالين قد اختار موقع قاعدته البحرية، في مرفأ ديدياغاس الواقع الى الجهة الشرقية من بحر ايجه. رفض الانكليز والاميركيون ذلك بشدة، واقترحوا ان يصار الى منع عبور السفن الحربية التابعة للدول الاجنبية الا بموافقة من الدول المحاذية للبحر الاسود. عام ١٩٤٦، اتخذت واشنطن موقفاً حازماً : لتركيا وحدها حق الدفاع عن المضائق. وفي حال تعرض هذه المضائق للتهديد، يصبح طلب تدخل مجلس الامن التابع لمنظمة الامم المتحدة مشروعاً. ارسل ترومان على وجه السرعة، الى المنطقة، اسطولاً كاملاً وانضمت اليه البارجة ميسوري، الراسية قبالة اسطمبول منذ نيسان ١٩٤٦. وظهرت حاملة الطائرات فرانكلين روزفلت في المياه التركية ترافقها مجموعة من السفن المطاردة والنسافة. ادّى « تصميم » ترومان[1] على المواجهة المرتكزة على احتكار السلاح النووي الاميركي، الى تراجع حكومة موسكو والى تشجيع الحكومة التركية على المقاومة. وبذلك جرى تحاشي الازمة. كما ان السوفيات توقفوا عن رفع اية مطالب بشأن منطقة المضائق، من دون ان يتخلوا عنها.

ظهر هذا « التصميم » ايضاً في قضية اذربيجان وهي على جانب كبير من الخطورة : منذ بداية القرن الحالي، والروس والانكليز، حماة ايران، يتنازعون الحدود الشمالية للبلاد، مرتكزين على غليان سكان المنطقة. وكان رضاخان، مؤسس السلالة الملكية الجديدة جنرالاً فارسياً قوي الشكيمة ويدعي التحدر من قورش الكبير. فسعى للتحالف مع هتلر من اجل التخلص من الوصاية البريطانية المتمثلة بشركة النفط الانكليزية النافذة، لدرجة ان القوات البريطانية والسوفياتية اجتاحت البلاد واحتلتها. استقال الشاه لصالح ولده محمد الذي عقد معاهدة مع القوتين المحتلتين، اللتين تعهدتا اجلاء جيوشهما بعد ستة اشهر على الاكثر من نهاية الحرب، لكن السوفيات حرّضوا الاكراد والازيري على الثورة ضد

(١) اندره فونتين : تاريخ الحرب الباردة، منشورات فايار، عامي ١٩٦٦ ـــ ١٩٧٦.

طهران، وساندوا مناضلي الحزب الشيوعي توده. عند ذاك عرض ستالين انشاء شركة مختلطة سوفياتية ايرانية لاستخراج النفط في شمالي البلاد. وفي كانون الأول ١٩٤٥، اعلن عن قيام جمهورية مستقلة في اذربيجان، وبعد ذلك بوقت قصير، عن قيام الجمهورية الشعبية الكردية. مورس الضغط على رئيس الحكومة الجديد، غافام كي يقبل العرض السوفياتي، ونظم حزب توده اضرابات واسعة في منشآت شركة النفط الانكليزية. حينئذ ارسل بيفن رئيس الحكومة البريطانية جنوده الى البصرة، قبالة مصفاة عبدان. هل ستنشب الحرب من اجل النفط؟ وهل سيتضامن الاميركيون مع « الاستعمار » البريطاني؟

دبّر جهاز الاستخبارات ثورة في صفوف قبائل الجنوب ضد غافام الذي وافق في النهاية على فصل وزرائه الشيوعيين من الحكومة. كما جرى تحريضه على مهاجمة اذربيجان واستعادتها فيما لم يبد السوفيات اية مقاومة ازاء تقدم القوات الايرانية. وهكذا تسنى لغافام اجراء انتخابات هادئة عام (١٩٤٧)، وعمد البرلمان الجديد الى رفض اية معاهدة نفطية مع الاتحاد السوفياتي. وبذلك انتهى الفصل الايراني، حيث رضخ السوفيات مرة اخرى، كما فعلوا في تركيا. لم يتدخل الاميركيون بصورة مباشرة، تاركين للبريطانيين حلّ الازمة بوسائلهم المتاحة. ولم ينجح ستالين في احداث الشقاق في الصف الانكلوساكسوني، وعند ذلك، لم يعد لمشكلة اذربيجان اي معنى.

اثار تراجع السوفيات في اليونان ـــ حيث لم يتورطوا مباشرة فيها ـــ قدراً كبيراً من الذهول سيما وان الاميركيين توجهوا الى جبهات القتال فور اعلان الانكليز قرارهم بالتخلي عن مقاومة الشيوعيين من اتباع الجنرال ماركوس الذين يسيطرون على الجبال في الشمال. عام ١٩٤٥، لعب ستالين لعبة يالطا وتخلى عن انصاره اليونانيين الذين اضطروا للاستسلام في نهاية المعارك. جرت الانتخابات في ظروف اثارت الريبة

والشكوك، وحملت الى البرلمان اكثرية موالية للملكية. واثر الاستفتاء الشعبي، استدعي الملك من منفاه في مصر حيث يقيم منذ الحرب، لاستلام الحكم. اثارت عودة الملكية نقمة فئة اليونانيين الذين شاركوا في أعمال المقاومة ضد الالمان، وفي معارك ١٩٤٠ التي انتصروا فيها ضد الايطاليين. حمل المتمردون السلاح، تدعمهم هذه المرة، الدول الشيوعية المتاخمة وهي يوغوسلافيا وبلغاريا والبانيا. بدا النظام الملكي يترنح تحت ضربات الثوار الذين تغلغلوا في صفوف الجيش والشرطة والادارة بغية شل قدراتها على المقاومة. واحتل العصاة مناطق واسعة من البلاد وشكلوا حكومة مؤقتة في جبال غراموس. ويخشى سقوط اليونان في المعسكر الشيوعي فور جلاء الجنود البريطانيين (وعددهم ٤٠٠٠٠) عن البلاد.

تسلّح ترومان بدعم الاقلية اليونانية الناشطة في نيويورك، وعزم على المواجهة، مستهلاً هجومه المعاكس بتصريح شديد اللهجة، وشبيه باعلان الحرب، وجّهه الى الكونغرس في ١١ آذار. وعلى الاثر، تم اقرار مبلغ ٢٥٠ مليون دولار واقلعت « سفنس الحرية » باتجاه مرفأ « البيره »، محملة بالتجهيزات والمواد الغذائية. لا لجوء الى القوة العسكرية، اذ ينبغي الاكتفاء بتدخل منظمة الامم المتحدة. وتبين للجنة تحقيق شكلت لهذه الغاية ان البلدان الشيوعية تساند الثوار. لا تدخل اميركي ولا اسطول حربي قبالة اليونان. هل علم ترومان ان ستالين لن يساند المتمردين ؟ لقد جرى ايفاد بعثة اميركية عملت على إعادة تنظيم الجيش الملكي، وانشاء ميليشيا فلاحية لمقاومة العمليات الفدائية. فالسوفيات لا يميلون للتدخل ويقتصر همهم الاول على القضاء على ماركوس، صديق تيتو. هل يستمر تيتو في دعم الثوار ؟ ولماذا يساند حركة اصبحت اليوم بين احضان موسكو ؟ وهو اعلن في تموز ١٩٤٨ انه اتخذ قراراً باغلاق حدوده. استمرت المعارك الدامية حتى ١٦ تشرين الأول ١٩٤٩. وانتقل آخر المشاركين في تلك المعارك الى البانيا وبلغاريا. وتم احصاء ٥٠٠٠٠ قتيل و ١١٠٠٠ قرية مدمّرة. كان قمع الثورة في غاية الوحشية وعجّت

سجون الملكية بآلاف الاسرى. وتوقف كل حديث عن اليونان بعد ذلك.

القواعد الاميركية في اوروبا وضعف منظمة حلف شمالي الاطلسي

اقام الاميركيون قاعدة بحرية، في سوداباي في جزيرة كريت، اضافة الى استخدامهم لقاعدتي مادالينا في سردينيا وغايتا شمالي ــ غربي نابولي. وهذا يعني ارساء اسس سياسة دفاعية دائمة في المتوسط مع انشاء الاسطول السادس فيما بعد. واستناداً الى احكام معاهدة حلف شمالي الاطلسي، تستطيع القوات البحرية الاميركية الرسو في كافة موانئ الاطلسي. وانشئت قاعدة بحرية في كيفلافيك، في ايسلندا، واخرى في هولي لوش، في بحر ايرلندا. وشيئاً فشيئاً اقام الاميركيون نظام مراقبة وانذار ودفاع، ورصدوا الاموال اللازمة لاقامة شبكة اتصال بين قواعدهم.

ما إن جرى توقيع معاهدة حلف شمالي الاطلسي حتى تكشفت نوايا الاطراف كافة : فالاميركيون تصرّفوا كما لو كان لهم الحق باقامة نظام دفاعي ذاتي في كل انحاء اوروبا. والردّ على اي اعتداء سوفياتي يعتمد على السلاح النووي والجوي والبحري. والسيطرة على المتوسط وشمالي الاطلسي مسألة حيوية في هذا المجال، اذ تتيح للطائرات القاذفة التوقف في المطارات البريطانية والتزود بالوقود، تمهيداً لضرب الاهداف في الشرق. كما يمكن اقامة قواعد متقدمة في تركيا واليونان ومالطة (البريطانية). وتبقى استمرارية الاتصال مؤمنة بفضل القواعد الفرنسية الجديدة. وفي ايطاليا، تتيح قاعدة بيز اللوجستية وتمركز المشاة في فيرونا امكانية ارسال تعزيزات فورية الى المتوسظ. وفيما خص دعم القواعد الالمانية، يعتمد الاميركيون على حلفائهم.

اما البريطانيون، فقد تعاملوا مع المسألة بنوايا مبيتة : « فالغطاء النووي » الاميركي لا بدّ منه لهم، غير أنهم لم يتورعوا عن تخصيص المبالغ الطائلة لانشاء قوة نووية وطنية، اذ لم ينووا التخلي عن استقلالهم

العسكري من جراء قيام حلف شمالي الاطلسي. ونظر قادة حزب العمال بجدية الى الخطر السوفياتي، لدرجة الابقاء على الخدمة العسكرية الاجبارية، وحتى اطالة مدتها. وسياسة الابقاء على البلاد تحت السلاح، في فترة السلم، مسألة جديدة في بريطانيا العظمى، اذ لم تواجه الحكومة معارضة سياسية عندما رفعت مدة الخدمة من ١٢ الى ١٨ شهراً ثم الى ٢٤، والموازنة العسكرية من ٨٣٠ الى ١٥٠٠ مليون ليرة. والحق ان هذا الجهد سينصبّ في الاصل للافساح في المجال للحكومة للتدخل فيما وراء البحار ولا سيما بعد عام ١٩٥٠، في ماليزيا وكينيا. أما في المانيا الغربية، فأبقت بريطانيا على اربع فرق مجهزة بطائرات نفاثة.

ارتدى الموقف الفرنسي من معاهدة حلف الاطلسي الكثير من الغموض. فعندما عرض الجنرال ريفرس على واشنطن انشاء جيش مؤلف من مليون جندي، لم يؤخذ عرضه على محمل الجد. اية ثقة يمكن وضعها بجيش يقاطع جنوده الخدمة العسكرية التي اصبحت ذات شعبية متدنية بحيث بات تطويع الضباط الجدد امراً صعباً، امام جيش سوفياتي مسلّح حتى اسنانه؟ فضلاً عن أن فرنسا تستخدم جيشها المحترف بصورة شبه حصرية فيما وراء البحار. اتقاء للخطر الذي اثاره انقلاب براغ، تقرر في تشرين الثاني ١٩٤٨، دعوة الاحتياط؛ لكن رئاسة الاركان في وزارة الدفاع بدت عاجزة عن تعبئة اعداد مهمة، من جراء النقص في العدة والعتاد. فاوعز رئيس الوزراء روبير شومان، عند ذاك، الى القادة العسكريين، بدراسة مسألة سحب الجيوش من افريقيا الشمالية على وجه السرعة، باعتبار أن اجتياح البلاد لن يتم، على حد قوله، قبل خمسة عشر او عشرين يوماً من القتال[1] ورأت لجنة الدفاع الوطني ان كلامه غير واقعي، اذ يتعين على فرنسا ان تؤمن الدفاع عن بلاد الرين مع سائر الدول الاخرى.

---

(١) جان دواز وموريس فايس، الدبلوماسية والاداة العسكرية باريس، ١٩٨٧.

كان يفترض بالحلفاء ان يشاركوا في القتال، في حال الاعتداء انطلاقاً من بروكسيل. وقد تألفت لهذا الغرض لجنة مشتركة للدفاع من وزراء الدول الخمسة المتعاقدة. واعتباراً من تشرين الأول ١٩٤٨، اخذت تجتمع في لندن لجنة مؤلفة من قادة الجيوش، في ظل خلاف نشب بين الفرنسيين والبريطانيين وزاده اجيجاً تصادم شخصيتي مونتغمري رئيس اللجنة ودي لاتر دي تاسيني قائد الجيوش البرية. ولم يكن يحلم الاول سوى بالدفاع عن المانش، والآخر عن الرين. فاحتكما الى الاميركيين حيث كانا يتوقعان منهم، أقله من الجانب الفرنسي تزويدهما بالمال والمساعدة التقنية اللازمين لتحديث الجيش. اثارت معاهدة بروكسيل الشعور بأن اوروبا غير قادرة وحدها على الوقوف في وجه هجوم سوفياتي حقيقي، وبالتالي فان الاميركيين تولوا رئاسة الحلف الاطلسي بناء على الحاح الاوروبيين وخصوصاً الفرنسيين. واعتباراً من ايلول ١٩٤٩، تألفت لجنة الدفاع المولجة باعداد الخطط واللجنة العسكرية المكلفة بمهمة تحديد السياسة العامة. ولكن، على أية جيوش ينبغي الاعتماد في تحديد تلك السياسة ؟

عام ١٩٤٩، اعترف ممثلو الدول الخمسة في بروكسل ان عليهم زيادة موازنتهم العسكرية. وتعهدت فرنسا بتجهيز ٢١ فرقة عسكرية. ولكن كيف يمكن ايجاد مبلغ ٢٣٠٠ مليار دولار فيما يصرّ بيتش وزير المال على عدم الافراج عنها ؟ عند ذاك، ساهم الاميركيون بتقديم بعض الاعتدة البسيطة. الى ذلك، احدث تفجير القنبلة النووية السوفياتية، عام ١٩٤٩، صدمة جعلت الحلفاء يدركون، في السنة التالية مدى ضعف جهاز حلف الاطلسي. مقابل ٢٧ فرقة سوفياتية مستعدة للهجوم من قواعدها في المانيا الشرقية، بانتظار وصول التعزيزات المؤلفة من ٧٥ فرقة، لم يكن الغربيون قادرين الا على تحريك ١٤ فرقة لا تنسيق فيما بينها ولا تجانس بين الاسلحة والعتاد. عام ١٩٤٧، كانت طائرات سلاح الجو الفرنسي، بثلثيها، مشلولة لاسباب تتصل بصيانتها، فيما كانت

الطائرات المطاردة تحدّ من طلعاتها توفيراً للدواليب. عام ١٩٤٨، تقرر في بروكسيل ان يتولى الفرنسيون فقط مهمة الاستطلاع والاعتراض، فيما تحصر عملية القصف بالطائرات البريطانية. ولما كانت الطائرات المطاردة غير متوافرة، فقد اشتروا من الانكليز طائرات من طراز فامبير اضافة الى اجهزة رادار كانوا يفتقرون اليها بشدة. وينبغي انتظار العام ١٩٥١ كي يبدأ الانتاج الصناعي الفرنسي من خلال امتلاك الوسائل التي تتيح انشاء سلاح جوي حديث.

كان لا بدّ، بعد عام ١٩٥٠، من ايجاد حلّ لمسألة توفير الاموال اللازمة لفرنسا. ففي ١٥ ايلول ١٩٥٠، اتخذ المجلس الاطلسي قراراً بانشاء قوة اوروبية متكاملة يرأسها الجنرال ايزنهاور ويساعده مونغمري، ويكون مركز قيادتها في روكانكور بالقرب من باريس. وارتأى الخبراء ان المجال الجوي الفرنسي له اهمية استراتيجية حيوية. واتخذت قيادة وسط اوروبا المولج بها جوان، مقراً لها في فونتينبلو، وقيادة شمالي اوروبا في اوسلو، وجنوبي اوروبا في نابولي. أما اللجنة العسكرية الدائمة، فبقيت في البنتاغون. كما بقي الحضور الأميركي قائماً في فرنسا والمانيا من خلال سبعة قواعد سلّمت الى المغرب، و ١٤ قاعدة جوية ومعسكرات للقوات البرية في الوسط الغربي من اوروبا فضلاً عن تسهيلات بالرسو في الموانئ العسكرية. مقابل هذه الخدمات التي يراها الاميركيون ضرورية، صار باستطاعة الفرنسيين توقّع تدفق الاموال التي تتيح لهم تجهيز ما تبقى من جيشهم. فقد نجحوا اخيراً في اشراك الولايات المتحدة في مجهودهم الحربي لجهة اعادة التسلح، متخلين، في الوقت عينه. عن صنع الاسلحة التقليدية التي يحتاجون اليها. وبذلك تكون فرنسا قد دخلت مع ايطاليا ودول اوروبية اخرى، في طور الاعانة الطويلة الامد.

مقاومة فرنسا للغزو الاميركي.

لم يكن لفرنسا اية حاجة امنية تدفعها نحو السعي لتطوير برنامج نووي مستقل. مع ذلك، عيّن الجنرال ديغول فردريك جوليو كوري على رأس مكتب الطاقة النووية التي انشأها عام ١٩٤٥. كان كوري من ابرز الفيزيائيين الفرنسيين وشيوعياً ويرفض البحث في استخدام الذرة لاهداف عسكرية. ناضل في « حركة السلام » ولقي مصرعه في نيسان ١٩٥٠. في هذا الوقت، كانت فرنسا انجزت بطاريتها الأولى، « زوي »، وانشأت مركز الابحاث في ساكلاي ـــ واكتشفت مناجم الاورواانيوم في ليموزين وعزمت على صنع بطارية اخرى اكبر قوة من الأولى. طوال تلك المرحلة التي سبقت الصناعة النووية، كان بعض العسكريين ينشر مقالات حول ضرورة امتلاك فرنسا للقنبلة. منهم الملازم ليساراغ الذي كتب عام ١٩٤٧ ما يلي : علينا اما امتلاك القنبلة الذرية، على وجه السرعة، واما القبول بان يكون جيشنا عبداً لاحد الحلفاء ». ما تزال الطريق بعيدة عن اول محطة لتفجير القنبلة في ريغان، عام ١٩٦٠. كان الهدف الوحيد لحكومات الجمهورية الرابعة، الحفاظ على القوى الحية في الجيش الفرنسي لاستخدامها في العمليات العسكرية فيما وراء البحار والاعتماد على المساعدة الاميركية فيما خص الساحة الاوروبية.

كان التمركز الاميركي المستمر في فرنسا وايطاليا وتركيا، كما في المانيا، امراً جديداً في زمن الحرب، ومثار حملات شيوعية تندد به. واصبح شعار : « ايها الاميركي، عد الى بلادك » لازمة تتردد في التظاهرات التي ينظمها الحزب الشيوعي في المدن والموانئ حيث كان العمال يرفضون افراغ العتاد الاميركي. هذا الحضور الاميركي الذي سعى اليه سياسيو الوسط، كان ايضاً مثار احتجاج الرأي العام التقليدي الذي كان يعبّر من خلال اقتراعه للجانب الديغولي عن رغبته في ان تسير فرنسا في طريق اخرى. وساهمت سياسة تصدير « رجال الاعمال » التي ساندتها الادارة بحجة مناهضة الشيوعية، على تغذية ردات الفعل الناقمة :

عندما كان الاميركيون يدافعون عن دواعي تحرير التبادل التجاري، ويشكون من البطء الفرنسي، كانوا يعرفون ان الصناعات الاوروبية عاجزة عن دخول السوق، في حين كانت الصناعات الاميركية قادرة على اغراق اوروبا بمنتوجاتها. قبل عام ١٩٤٩، كانت الانظمة الفرنسية تحدّ من توظيف الاموال الاميركية في فرنسا، بحيث لم تتجاوز هذه التوظيفات مبلغ ١٠ مليارات في شركات النفط وقطاع الكهرباء. وسمح باخراج ارباح الرساميل خارج البلاد في السنة نفسها، في الوقت الذي كان بعض المستثمرين، ومنهم شركة كوكاكولا مثلاً، يتأفف لنفاذ صبره. كشف ايروين م.وول عن شراسة المقاومة التي ابدتها السلطات العامة والمصالح الفرنسية ازاء غزو المجال التجاري من قبل شركات خصصت موازنة دعائية ضخمة. واحتج اليسار المسيحي والشيوعيون بشدة ضد هذا الغزو الاستعماري. رئيس شركة كوكاكولا، جيمس فارلي كان يتمتع بنفوذ قوي داخل الكونغرس لدرجة ان السفير في باريس دافيد بروس، اضطر للتدخل، بناء لطلب حكومته، لدعم مصالح المصدّر الاميركي من جراء منع البرلمان الفرنسي تداول منتجاته. واسفرت الجملة الشيوعية الضخمة ضد « الكولا الاستعمارية » الى اتخاذ اجراءات للحد من استيرادها، وهي اجراءات لم تطبق في كل حال، غير أن المعركة ضد او مع الكوكاكولا كانت رمزية.

اما موقف الحكومة الفرنسية الرافض لاستيراد السجائر الاميركية ــ الامر الذي ادّى الى انتشارها في السوق السوداء ــ فقد واجهته ادارة مارشال، بزيادة الاعتمادات الممنوحة لفرنسا، اربعة اضعاف، لشراء التبغ، مما افاد المنتجين الاميركيين في فيرجينيا، ونشر بين الجمهور الفرنسي الشاب طعم السيجارة « البلوند »، رمز التحرر بالمقارنة مع التبغ الاسود التقليدي. كذلك انتشرت لفافات « جمل » « ولاكي سترايك »، بعدما تألقت نجوم هوليود في الدعاية لها، بالاسود والابيض على الشاشة.

كما نددت المعارضة الشيوعية بالتسلط الذي تضمنته الاتفاقيات

المعقودة بين بلوم وبيرنز حول السينما، اذ فرضت على الموزعين الفرنسيين عرض انتاج هوليود بمعدل ٩ اسابيع من اصل ١٣. وقد ضغطت وزارة الخارجية بكل ثقلها كي يوافق الفرنسيون على هذه الشروط ـــ حيث قرروا، في كل حال، بعد وقت قصير اعادة التفاوض حولها، تحت ضغط حملة صحافية عنيفة. في جانب اليسار، جرى تحميل هذه الاتفاقيات تبعة اقفال الستوديوهات الفرنسية، واتهمت الافلام الاميركية العاطفية بكونها تنشر العنف وتبالغ في تصوير المشاهد الجنسية. ووجه الانتقاد الى السينما ايضاً بأنها تحتكر الانتاج الموجّه للشباب وبتغذية خيال الاولاد بالشخصيات الاميركية.

هذه الانتقادات والحملات هي ابعد من ان تكون من صنع الشيوعيين وحدهم. ذلك ان فرنسا الخارجة من الحرب، كانت تستهجن تلك الازياء الآتية من وراء الاطلسي، كما سبق لها ان فعلت في العشرينات. غير أن الافتتان بالتفوق التقني الاميركي « وبطريقة العيش الاميركية » كان واضحاً لدى الشبيبة التي كانت تنتظر بفارغ صبر تطور مجتمع مبني على اسس التسليف السهل والتبادل الاقتصادي الحر والانتاج بالجملة. عام ١٩٥٠، كانت بدايات التصنيع ما تزال خجولة، واجهزة التلفزيون نادرة الوجود في ايطاليا وفرنسا. ومصانع السيارات في بداية استئناف انتاجها. لكن اشارة الانطلاق اعطيت، والامل بحياة افضل كان يمرّ بالنسبة للكثيرين، عبر تغيير الذهنيات وطرائق الانتاج. وبدأ مطلب الحرية يتغلب على الرغبة في توطيد الامن والتي ساد التعبير عنها بعد الحرب مباشرة.

كان المنتجون الاميركيون لا يرغبون بغير الافادة من عودة الاميركيين الى اوروبا، بغية اشراك القارة بخيرات ما اطلق عليه فيما بعد تحقيراً، « المجتمع الاستهلاكي »، والذي كان اليساريون واصفياء المجتمع العائلي والديني يرفضونه بازدراء. جعل الاميركيون من مسألة ادخال الكوكاكولا الى اوروبا اختباراً لمعرفة مدى تقبل الاوروبيين للمنتجات الاميركية. وكان جيمس فارلي يرى « ان كل قنينة تحتوي على « روح »

الرأسمالية »، وكان لا يتردد عن ممارسة الضغوط على الحكومات من اجل حرية تداول هذه السلعة، لأن كل نصر يحققه لصالح هذه الشركة يعوّل عليه كافة المصدرين الاميركيين لفتح اسواق واسعة امامهم. لا شك ان خطة مارشال ترمي، في ذهن واضعيها، الى تطوير « تجارة حرة » عبر شمالي الاطلسي.

عام ١٩٥٠ : قنبلة ترومان

تلقّى الرئيس ترومان في البيت الابيض، في ٣١ كانون الثاني ١٩٥٠، تقرير وزير الخارجية دين اتشيسون من وزير الدفاع، لويس جوهنسون ومن رئيس لجنة الطاقة النووية، دافيد ليلينتال، حول مبدأ انتاج قنبلة هيدروجينية، تزيد قوتها بالف مرة عن قوة قنبلة هيروشيما. وكان هذا التقرير بمثابة الردّ على تفجير اول قنبلة سوفياتية عام ١٩٤٩. وازاء تردد ليلينتال من جراء تردد العلماء، قال ترومان : « لا خيار لنا ازاء تصرف الروس ». في الواقع، كان الرئيس يشير، وفقاً لما جاء في البيان الرسمي الصادر عن البيت الابيض، الى « ان لجنة الطاقة النووية قد تلقت الامر بمواصلة ابحاثها حول كافة الاسلحة النووية، بما في ذلك القنبلة الهيدروجينية ». لقد اتخذ « صانع القمصان في ميسوري[1]»، قراره، بالدخول في سباق التسلح النووي دون تأخير. دون استشارة الكونغرس.

في الواقع، جاء قرار ترومان متسرعاً من جراء ما كشفه احد الشيوخ على شاشة التلفزيون عن وجود مشاريع محددة لدى البنتاغون بشأن القنبلة الجديدة. من الطبيعي ان يصار الى اخذ الحيطة لمنع تسرب اخبار انقسام العلماء حول هذه المسألة ومعارضة المؤيدين للقنبلة الهيدروجينية، فقد تدخل ترومان لدى البنتاغون واللجنة المشتركة في الكونغرس، لاتخاذ القرار بشأنها. كان الجو السياسي مهيأ، حتى أن الرئيس خشي ان

---

(١) مهنة الرئيس ترومان قبل وصوله الى الرئاسة (المترجم).

يرى نفسه متخلفاً عن الركب عندما اعلن للعالم أنه يدّعي ابوة القنبلة الجديدة. وبذلك طمأن الاميركيين الذين اعتقدوا على غرار دين اتشيسون، وبعض السياسيين في واشنطن ان القنبلة الهيدروجينية هي الوسيلة الوحيدة لمنع الاتحاد السوفياتي من اجتياح اوروبا حين يتوافر له مخزون كافٍ من القنابل الذرية. وكانت تحليلات وزارة الخارجية تتلاقى على القول بأن اعتدال ستالين النسبي في الازمات الاوروبية مردّه الى التفوق الذري الاميركي. فاذا امتلك الورقة ذاتها، فقد يظهر في المستقبل متشدداً بقدر ما كان في برلين، وربما لجأ الى الحرب بغية الافادة من تفوق الجيش السوفياتي في ميدان الاسلحة التقليدية.

كان هذا التفاوت في القوة يقلق البنتاغون. فاذا ما لجأ الاميركيون الى الاحتياط، فانهم يستطيعون بالتأكيد رفع عدد قواتهم لكنهم لن يتمكنوا باستمرار من تجنيد جيش كبير يتميز بالقدرة على القتال وتتوافر له الخدمات الجيدة، في الجانب الآخر من الاطلسي. وكان لا بدّ للقادة العسكريين من التسليم بأن على الجيوش الاوروبية سدّ الفراغ وتشكيل اجمالي القوة المحاربة. القى ترومان نظرة على الارقام فوجد ان موازنة الدفاع قد هبطت من ٤٥ مليار دولار عام ١٩٤٦، الى ١٣ مليار، عام ١٩٤٩، واستنفد سلاح الطيران معظم الاعتمادات على حساب البحرية ولا سيما القوات البرية. وتطابق هذا التوزيع مع وجهة نظر رئاسة الاركان حول الضربة الذرية التي تجعل من حشد الجيوش في ميدان القتال شأناً لا طائل تحته. وعرض مجلس الامن القومي المنعقد في نيسان، على الرئيس اربع فرضيات : الانكفاء او الحرب الوقائية، أو « القلعة الاميركية »، او العودة الى السلاح التقليدي، وقد اخذت ادارة ترومان بالفرضية الأخيرة. أما دين اتشيسون المتميز باناقته وبقناعته بان العالم لن يعرف السلام من دون تحقيق التفوق الأميركي، فاخذ يدافع عن وجهة نظر ترومان، مشيراً الى رغبة اميركا في ابتكار حلول ديناميكية تحقق الحلم الاميركي الجديد القائل بأن توحيد شعوب الاطلسي من شأنه توفير الأمن والازدهار لها

بشكل لم يسبق له مثيل. للتعريف باتشيسون، كان كيسينجر يستشهد بعبارة يرددها القاضي هولمز : « للاسف، ايها السادة، لن نستطيع عيش احلامنا؛ سنكون سعداء اذا استطعنا اعطاء افضل ما لدينا، وعلمنا في اعماق قلوبنا اننا فعلناه بكل نبل وكرامة ». وهكذا بفضل ستالين، تصالحت في الخطاب السياسي مثالية جيفرسون مع التحضير للقنبلة الهيدروجينية. ذلك ان التجربة القاسية قد اقنعت الاميركيين بان طريقة التعامل الوحيدة مع السوفيات هي خلق قوة ضاغطة ... ومتى تم القضاء على كل نقاط الضعف (في اوروبا مثلاً، بفضل اعادة تسليحها)، عند ذاك يمكن توقيع معاهدات ذات معنى مع الروس. إنها عودة الى الكلام عن « العصا الغليظة ».

التكامل العسكري في اوروبا

اتخذ ترومان قراره بشأن امتلاك الوسائل التي تخوله التسلح بطريقة حديثة تختلف عن حشد الجيوش، بعد عام ١٩٤٩ (تفجير القنبلة النووية السوفياتية) وليس بعد انقلاب براغ عام ١٩٤٨. وتشير ارقام الموازنة الجديدة الى عزمه الحقيقي على توسيع مدى نفوذه في اوروبا وليس فقط الاكتفاء بنقاط ارتكاز موزعة في العالم حول الدول الشيوعية.

حتى الآن، لم يكن الاميركيون يعتقدون فعلاً باحتمال نشوب الحرب. وقد علمتهم التجربة ان موقفاً حاسماً يكفي دائماً كي يتراجع ستالين، كما حدث في اليونان وتركيا وايران. وانقلاب براغ لم يكن مختلفاً في طبيعته عن أعمال العنف التي قاستها سائر دول اوربا الشرقية بغية الوصول بها الى الاشتراكية. كانت تشيكوسلوفاكيا داخلة في القطاع العائد للاتحاد السوفياتي وفقاً لمعاهدة يالطا. فاذا شاء الاتحاد السوفياتي الرضوخ في بولونيا، لماذا يقاتل من اجل براغ ؟

في برلين، حرص السوفيات على منع العنف من التحول الى نزاع. لا شك أنهم كانوا يبالغون في التعسف، غير أن هذا الموقف لا معنى له الا

لفرض التفاوض معهم. كان الجنرال مارشال يهزأ من الهلع الذي اصاب الفرنسيين بعد براغ وبرلين. لم يكن يعتقد باحتمال وقوع نزاع ما، لكنه عندما لاحظ قيام كتل متواجهة على وشك التصادم في اوروبا، عمد الى رسم سياسة للتسلح طويلة الاجل، لا ترمي الى الدخول في حرب مع الاتحاد السوفياتي، بل الى حماية الاطلسي. بدا له تهافت الاوروبيين مضحكاً ومشبوهاً. لماذا الاستعجال في نقل قوات فرنسية وايطالية الى ما وراء الرين، وهي في حالة سيئة من التسلح ولا تتكامل مع نظام الدفاع الاميركي ؟

لم ينسَ مارشال ان الحكومتين البريطانية والفرنسية تطالبان بالمساعدة. حتى الآن، كانت طوالع السياسة الاميركية الجديدة تجد ان افضل وسيلة لاستئصال الشيوعية من دول اوروبا المتوسطية ليست بالتسلح، بل بالافساح في المجال لها كي تستفيد من حسنات النظام الحر. كانت خطة مارشال ترمي الى جعل الشيوعية نظام بالياً، بفضل الاثراء الهائل والسريع لضفتي الاطلسي، حين يتيح التقدم العلمي والتقني تطور الصناعة، ونشر استخدام المواد البلاستيكية والاجهزة الالكترونية، ومراكب السير والمنتجات الغذائية المخصصة للمدن. من هذا المنظور، على « الشركات » — وليس على الدول وحدها — ان تتخلى عن نظرية مالتوس حول تحديد النسل وعصر النفقات، وتصحيح الخطط المعدة لتقويم الاوضاع الاقتصادية بصورة حاسمة. مثل خطة مونيه في فرنسا التي طالما انتقدها الاميركيون لانها كانت تعطي الاولوية لمشاريع باهظة الكلفة كالنقل والطاقة او لبناء المساكن والمدن الجديدة، ولاجتذاب اليد العاملة ذات الاجور المرتفعة، الى المصانع الاكثر انتاجاً، وتشجيع الاستهلاك من دون الوقوع في التضخم من خلال تصحيح النظام الضرائبي على المداخيل، والدخول في المجتمع الاستهلاكي من دون التحسر على الماضي حين كان المحظوظون يفرضون مشيئتهم. ان تصبح اوروبا هذه اشتراكية وأن تؤمم مناجمها ومصانعها، لا يضير مارشال في شيء، شرط

ان تبقى تجارتها ونشاطاتها المالية غير مقيدة، وان تخضع لنظام صندوق النقد الدولي، وللمنظمة الجديدة التي تأسست في جينيف لتنظيم التجارة وخصوصاً للتخفيف من وطأة السياسة الجمركية. لم يساور الشك أذهان القادة الاميركيين بان تحرير المبادلات التجارية، من خلال معالجة مسألة عدم توافر السيولة (بالدولار) سوف يجعل اوروبا قادرة على تسديد مشترياتها وعلى امتلاك وسائل الانتاج الضرورية للتصدير، واستطراداً على القضاء على الاسباب الرئيسية لانتشار الشيوعية باعتبار ان عودة الازدهار سوف يقضي على بؤر الفقر في اوروبا، خصوصاً في دول المتوسط حيث تنمو الشيوعية وتتجذر.

من السابق لأوانه، قيام تكاملية عسكرية مع فرنسا وايطاليا الخارجتين من حلقة التضخم والازمات الاجتماعية الخطيرة، وحدها بريطانيا كانت قادرة على النهوض الاقتصادي والتسلح الخلقي معاً. واذا كانت بقية الدول الاوروبية ترغب في الافادة من الحماية الاميركية التي يعتزم وزير الخارجية الاميركية اعتمادها بعد برلين وبراغ، فما عليها سوى اتباع طريق الوحدة التي تعاهدت على سلوكها في بروكسيل. وقد ادرك دين اتشيسون الذي خلف مارشال في منصبه، الاهمية السياسية للتسلح الذي يزيد من تبعية الدول الاوروبية وطواعيتها. حتى فرنسا سلّمت، تحت وطأة التهديد باعادة النظر في سياستها والاعتراف بجمهورية المانيا الغربية. وقد أتاح اكتشاف اتشيسون، عام ١٩٤٩، لأهمية المجال الفرنسي في الاستراتيجية الدفاعية الاوروبية، التفاوض حول تسليم السلاح، الذي ينتظره القادة الفرنسيون بفارغ صبر، مقابل التنازل عن القواعد العسكرية. لو كانت المسألة تتعلق بالدفاع عن اوروبا الغربية، لما بدا تسليح المانيا فجأة امراً ملحاً لا يمكن تفاديه. غير أن ترومان واجه على حين غرة، في ٢٥ حزيران ١٩٥٠، امراً ملحاً آخر، حين هاجم الشيوعيون كوريا. وتوقفت اوروبا عن ان تكون ميدان الخطر بامتياز، وتسلطت الاضواء على الاحداث الجارية في المحيط الهادئ.

ظهور الصين على المسرح

في كوريا، وفي المحتلان السوفياتي والاميركي بتعهداتهما، فالأول اجلى قواته من الشمال، عام ١٩٤٨، والثاني من الجنوب، عام ١٩٤٩. وخلفا وراءهما نظامين متناقضين، لم يلبثا ان تزودا بالسلاح من سلطات الاحتلال نفسها. ليس في الافق ما يهدد السلام. في ١٢ حزيران ١٩٥٠، صرّح دين اتشيسون للصحافة ان خطوط الدفاع الاميركية تقف عند اليابان والفيليبين، وان الاميركيين لن يخوضوا الحرب دفاعاً عن مصالح القارة، لا في الصين ولا في الهند الصينية ولا في كوريا. وبذلك اصبحت موسكو وبكين، طليقتي اليدين.

لقد عقدا للتو اتفاقاً للتعاون في ١٤ شباط. وقام رئيس جمهورية الصين الشعبية الجديدة، ماوتسي تونغ بزيارة موسكو، وهو الذي لم يسبق له ان غادر بلاده البتة. لقد اصبح الهجوم على كوريا محتملاً من جراء هذا الاتفاق الذي وضع الصين رسمياً في الخط السياسي للكرملين في حين ان العاصمة السوفياتية تريثت بالاعتراف بحكومة شيانغ ــ كي ــ شيك الوطنية، حتى انتصار الجيش الشعبي. انطلاقاً من هذا الواقع، بدا اعتداء كوريا الشمالية ضد كوريا الجنوبية، كأنه، في حزيران ١٩٥٠، مواجهة جديدة بين نمرين لم يكشرا عن انيابهما حتى الآن إلا في اوروبا : تصدت دبابات باتون في الجنوب لدبابات ستالين في الشمال.

كان الجباران يفضان نزاعاتهما، أمام الرأي العام العالمي بواسطة الدول الصغيرة. وعليه ينبغي توقع الاسوأ.

لكن كوريا كانت بعيدة عن حدود الاتحاد السوفياتي. والمؤازرة لن تأتيها، في حال الرد الاميركي، الا من بكين. فهل تجمّع لدى جمهورية ماو الجديدة، في خلال فترة قصيرة، ما يكفي من القوة لتتحدى الترسانة الاميركية في عقر دارها ؟ كيف استطاعت الولايات المتحدة ان تدع دولة شيوعية جبارة تنشأ في غربي المحيط، وقادرة على تحديها ؟ لقد اقتفى الاميركيون موقفهم، في الصين كما في كوريا، اثر الموقف السوفياتي: لما كان الجيش الستاليني قد انسحب من ماندوشوري، فلم يعد للاميركيين اي مبرر للبقاء في الصين. وادّى هذا الاستنكاف المزدوج الى تحرير القوى ودفعها باتجاه الحرب الاهلية.

ماوتسي تونغ والستالينيون : ١٩١٩ ـــ ١٩٢٧.

هل اشرف على قيادة هذه الحرب في المعسكر الشيوعي الصيني، رجال تدربوا في موسكو ؟ غالباً ما قيل ان الشيوعيين الصينيين تلقوا ثقافتهم العقائدية من رئيسهم ماو تسي تونغ الذي لم يخرج يوماً من بلاده. في الواقع، ما كان لماو ان يؤكد اصالة المعركة التي يخوضها لو لم يتصدَ لرفاقه الذين تلقوا تثقيفهم وتدريبهم في موسكو أو في الغرب. ولم تتلون الشيوعية « بالأصفر » الا بصورة بطيئة وتحت ضغط الاحداث، متأثرة بالحرب اكثر مما تأثرت بالعقيدة. واذا كان ماو تغلب بسهولة على خصومه البولشفيك، فانه حرص دائماً على عدم قطع علاقته بستالين الذي سارع الى رأب صدع علاقاته به ما ان شعر ان الريح تنفخ في شراع الماوية الجديدة.

لا شك ان ماو، الذي ولد عام ١٨٩٣، لم يقطن يوماً في لندن أو جنيف او باريس او موسكو، على غرار سائر الزعماء الاسيويين في

العشرينات. كان ماو يتحدر من اسرة فلاحية ثرية في هونان، لكنه تمرّد على والده وانفصل عنه، وسعى لتحصيل علومه في مدارس شانغ شا، عاصمة الولاية. في الثامنة عشرة، قاتل في صفوف الزعيم الذيمقراطي سون يات سين، مؤسس الجمهورية الصينية. وابدى اعجابه، في ذلك الحين، بجورج واشنطن ونابوليون، ملاحظاً « ان السلطة السياسية تخرج من فوهة المدفع »، وهي فكرة بعيدة، في كل حال، عن حكمة كونفوشيوس.

اذا كانت حياة ماو حافلة حقاً بما يتطابق وصورة الفلاح والجندي التي عاشها، فان انخراطه في الشيوعية ناجم في الدرجة الاولى عن صراع الافكار الغربية فيه. وفي خضم الحركة الطلابية الثورية في جامعة بكين حيث عمل اميناً للمكتبة، خضع مباشرة لتأثير شخصيتين شيوعيتين بارزتين هما لي — تا — شاو وشين دوكسيو. واعتنق الافكار الماركسية — اللينينية وانضم الى رفاقه في النضال ومنهم من اطلع على الماركسية في اوروبا. وكان دينغ كسياوبينغ يقيم في فرنسا ويتحدر من اسرة ميسورة فاجبره والده على مغادرة حقول سيشوان المغطاة بالخيزران، بناء لنصيحة احد اسياد الحرب الذي كان يعتبر المدارس الصينية غير مهيأة لتعليم الافكار والتقنيات الحديثة. كان دينغ يصغر ماو باحدى عشرة سنة وينتمي الى طبقة الفلاحين الميسورين، وتعلما كلاهما في مدرسة صينية، غير أن دينغ اعتنق الشيوعية في فرنسا، حيث تعهده زوأنلي، الذي يكبره سناً ويقيم في باريس في بولفار اوغيست بلانكي. وكان دينغ وزو يتذوقان الكرواسان ويرتادان المكتبة اليسارية العائدة للاخوين شين، ولدي تسين دوكسيو؛ وهذا الأخير هو اول ماركسي صيني وسبق له أن عاش في باريس وتعرّف في صباه الى خمّارات باريس واصدر مجلة « الشبيبة الجديدة ». تولى زوأنلي، أمين سر رابطة الشبيبة الصينية في اوروبا، تنسيق شؤون العمل النضالي للصينيين الشباب القادمين الى فرنسا بموجب منحة وفرتها لهم غرفة التجارة في شونفينغ. انتسب

دينغ الى الحزب من خلال الرابطة، واصبح، في التاسعة عشرة، عضواً في قيادته ومسؤولاً عن شؤون الدعاية. فوجّه مقاومة المناضلين ضد الوطنيين الصينيين. وفيما عاد دينغ الى الصين، عام ١٩٢٤، كان لا بدّ للقادة الصينيين الذين كانوا يقطنون في « المدينة الصينية » الكائنة في شارع ترافرسيار، في بولونيا ــ بيلانكور، من اللجوء بعد سنتين الى موسكو، لأن الشرطة الغربية قررت القضاء على تلك البؤر الثورية.

عام ١٩٢٦، ترك ماو عمله كمدير مدرسة في مسقط رأسه حيث اسس خلية شيوعية، كي يتحول الى شيوعي محترف في الحزب الذي اعيد تنظيمه بناء لنصائح السوفيات. وعاش عنذاك في شانغاي حيث نجا من حملات التطهير بفضل تدخل رئيسه الجديد تشيانغ كاي شيك. وبعد القمع الوحشي لاضراب معامل النسيج في شانغاي، عام ١٩٢٥، تأكد له عجز الحركة العمالية واعتبر ان الثورة لا يمكنها أن تنفجر الا باندفاعة مفاجئة لجماهير الفلاحين التي تهب « كالاعصار »، على حد قوله. والحال، أن سياسة ستالين تجاه الصينيين كانت تدعو دائماً الى وحدة القوى العمالية ــ الفلاحية ــ البورجوازية التقدمية والتحالف مع الجيش. واتاح وصول بورودين وفريق عمل هام من الخبراء السوفيات الى الصين، عام ١٩٢٣، انشاء « جيش وطني ثوري » و « اكاديمية عسكرية »، تولى زوأنلي مهمة التوجيه السياسي فيها، بعد استدعائه من فرنسا. وادى تخريج ٦٠٠٠ تلميذ منها خلال سنتين الى تغلب الجيش في معركته على « اسياد الحرب »، لكن الجنرال شيانغ، قائد الجيش، عاد ووجه السلاح الذي زوّده به السوفيات، الى صدور الشيوعيين الصينيين. تمثّل خطأ ستالين الذي اوعز بوجوب مهادنة الثورات الفلاحية التي كان ماو يناصرها، في انه تابع تحالفه مع الجيش، بدلاً من السعي لايجاد قواعد اخرى يرتكز اليها الحزب الشيوعي. وفيما كان يدعي انه « يعصر شيانغ كليمونة الحامض قبل التخلص منه »، كان في الواقع يفسح في المجال للجنرال المنتصر كي يقضي على انصاره السابقين من الشيوعيين؛ عند ذاك، ركب

المستشارون العسكريون السوفيات القطار الى موسكو.

عاد الطالب دينغ كسياوبينغ الى الصين. وكان في جامعة سون ـ يات سين في موسكو قد تعلّم تاريخ الثورة الروسية والحركة العمالية وقرأ لينين والبرافدا. وكان انهى دروسه حين انفجر صراع رفاقه مع ستالين الذي حملهم مسؤولية سقوط ٤٠٠٠٠ ضحية في حملة التطهير التي قام بها شيانغ. كان دينغ يتمتع بحظوظ واسعة للترقي داخل الحزب، فهو خريج موسكو، وعقد صداقات متينة مع كبار قادة الثورة. والتقى العديد من الذين سيتبوأون المناصب الرفيعة في المستقبل، في الاوساط الشيوعية في آسيا، لا سيما في جامعة العمال الشرقيين، حيث تعرّف الى الفيتنامي هوشي منه، القادم مثله من باريس. وكان الجنرال فينغ يوكسيانغ الذي قاد فرقة عسكرية لمحاربة اسياد الحرب، قد صادفه في موسكو وعيّنه في قيادة الاركان بصفة مستشار سياسي. عندما انضم الجنرال الى حزب شيانغ ضد الشيوعيين، لجأ دينغ وفاء منه لماو، الى العمل السري. في ٧ آب ١٩٢٧، اشترك في هانكو، مع ماو في جلسة نقد ذاتي، حيث جرت اقالة الامين العام للحزب، شين دوكسيو، من منصبه. لكن، كيف يمكن الحفاظ على العمل النضالي في بلد يسيطر عليه شيانغ ؟ بعضهم التحق « بالشقي الاحمر » ماو، في جبال جيانجي الجنوبية، والبعض الآخر التزم بخط موسكو وعاش متخفياً في بيوت شانغاي الوضيعة. كان دينغ من بين هؤلاء. وهكذا فشلت اولى مراحل المؤازرة السوفياتية للحركة الشيوعية الصينية. وتركت لدى اصدقاء ماو شعوراً بالمرارة، اذ قام الشيوعيون بناء لاوامر موسكو، « بعمل شاق » لصالح الديكتاتور.

بزوغ الماوية البطيء : ١٩٢٧ ـ ١٩٤٥

كان الاميركيون على اطلاع واسع على العلاقات المتوترة القائمة بين الشيوعيين الصينيين والكرملين. فضلاً عن ذلك، كانوا يبالغون في وصف الخلافات التي نشبت خلال الحرب من جراء الازدراء الذي عامل به

ستالين خصومه. مع ذلك، عقد تحالف جديد بين الحزب الشيوعي الصيني والجيش ضد اليابانيين. في البداية، سعى ستالين لاستغلال ديناميكية الثورة الصينية لانشاء خلايا سوفياتية في المدن، ضد الجيش. وتم سحق حركات تمرّد قامت في نانشانغ وكانتون لكن ستالين لم يتخلّ عن قيادة الحزب الشيوعي الصيني : عيّن كوكيوبي عام ١٩٢٧، على رأس الحزب تم استبدله بلي ليسان الذي واصل سياسة المقاومة المسلحة، بواسطة « جيش احمر » جرى تشكيله حديثاً. وفي أعقاب الهزيمة العسكرية، تسلمت الحكم مجموعة من ٢٨ شيوعياً تخرجوا جميعاً في موسكو. بين المغامرات التي جرت في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٠، انتهت مغامرة دينغ كسياوبينغ في جبال جوانجي في الجنوب، بصورة مأساوية، حين اضطر للانسحاب مع فرقتين عسكريتين يقودهما، باتجاه الشمال، ثم ترك قواته تتكبد مشقات السير على الثلج كي تلتحق بقوات ماو في جبال جيانجي، وانتقل خفية الى شانغاي عبر هونغ كونغ ليلتقي بالمجموعة البولشفية الحاكمة في الحزب. وبذلك انتهت السياسة التي دعا اليها ستالين الى فشل دموي ذريع.

وحده، ماو تسي تونغ الذي لجأ الى جبال جيانجي، نجا من ملاحقة جيش شيانغ. وباشر في المناطق التي سيطر عليها اصلاحات زراعية، فالتف السكان حوله، ولم يعد يشكو نقصاً في المواد الغذائية او في الجنود. وانتقل، يحدوه شعور بالنصر، في تشرين الثاني ١٩٣١، لحضور اول مؤتمر صيني في روجين حيث كان يحضره مندوبون من حزب شانغاي الموالي لموسكو. وعندما انتخب رئيساً « للجمهورية السوفياتية الصينية »، رفض كل نظريات ستالين لا سيما تحويل حرب العصابات الى حرب نظامية. وانتهت الحملات التي شنها شيانغ كاي شيك ضده الى ازاحته من قاعدته، في حين راحت مجموعة البولشفيين الثمانية والعشرين الموالين لستالين تستغل متاعبه للحلول مكانه على رأس الجمهورية الجديدة، مبعدة ماو عن اجتماعات الحزب. في ١٥ تشرين

الأول ١٩٣٤، انطلقت قوة من الجيش قوامها ١٠٠٠٠٠ رجل « مسيرتها الطويلة »، باتجاه شمالي شانغسي، حيث نجحت في التمركز فيها في تشرين الأول ١٩٣٥. بعد هذا الامتحان الشاق، عاد ماو واستعاد زمام الحزب وسيطر على البولشفيين، لكن اتباع ستالين لم يعترفوا بهزيمتهم.

في آب ١٩٣٥، دعت الاممية الدولية الاحزاب الشيوعية في العالم كله، للاشتراك في تحالفات وطنية، تخوفاً من الفاشية والهتلرية. في كانون الأول ١٩٣٦، تمكن ستالين من اجبار شيانغ كاي شيك الذي كان يواجه المتاعب، على التخلي عن الحرب ضد الشيوعيين. فاصبح بنظر موسكو الزعيم المرشح لشن المعركة ضد المعتدي الياباني، وتولى ستالين مهمة اقناع الشيوعيين الصينيين بقبول تلك السياسة : بين عام ١٩٣٧ و ١٩٤٥، عانى الصينيون عذابات الحرب، املاً منهم بقيام تفاهم بين الوطنيين والشيوعيين.

امام الخطر الياباني الداهم، كان لا بد لاختلاف الرأي بين الوطنيين والشيوعيون من أن يتلاشى، وكذلك الخلافات داخل الحزب نفسه. واطلق الشيوعيون شعاراً كان له تأثيره البالغ في صفوف ابناء الريف : « الصينيون لا يتحاربون مع الصينيين ». كان دينغ كسياوبينغ الذي كان اعتنق نظرية ماو حول حرب العصابات ضد انصار موسكو في الجيش، قد تعرّض لانتقام البولشفيين والتحق بماو، مشاركاً هذا الأخير في محنة « المسيرة الطويلة ». تولى تحرير صحيفة الجيش « النجم الأحمر »، وكسب ثقة ماو لدرجة أن هذا الأخير عينه مستشاراً سياسياً فوق ليو بوشينغ، الملقب « بالتنين الاعور » الذي كان يرأس قيادة فرقة من نخبة الجنود هي الكتيبة ١٢٩. في ظل « الجبهة الموحدة » التي وافق على تشكيلها رسمياً، نجح ماو في إقناع البولشفيين بخطه السياسي وتمكن من العودة الى المكتب السياسي والى لجنة الشؤون العسكرية التي يرأسها زوأنلي.

يتحدر أنلي من عائلة من الأعيان، وتلقى تربية مميزة في الرقة والتهذيب. كان يمثل بشخصه الخيط الرفيع الفاصل بين البولشفيين المتشددين والماوية الناشئة. ونشر ماو تحليلاً لزو يمكن اعتباره مطابقاً لوجهة نظر ستالين : « ادى الصراع الوطني الى تراجع صراع الطبقات ». اعتباراً من آب ١٩٣٧، اطلق الشيوعيون على الجيش الأحمر تسمية : « الجيش الوطني الثوري الثامن »، ووضع تحت القيادة النظرية لشيانغ الذي لجأ الى قاعدته في شونكينغ حيث ما كان له ان يصمد فيها، اعتباراً من عام ١٩٤١، لولا المساعدة الجوية الاميركية، والتعزيزات الواردة اليها من بيرومخانيا عبر طريق شقّها الحلفاء. مارس الاقطاع بطريقة اثارت الانشراح لدى الحلفاء وستالين، مع ان القوات التي اظهرت فعاليتها في مقاومة اليابانيين انحصرت في ثلاث فرق ماوية يرتدي رجالها سترة رمادية لا قبة لها وينتعلون احذية من القش المجدول، ويأتمرون بأوامر ضباط لا يحملون اشارات محددة، وحققوا انتصارات رائعة بفضل تقنية « ضربات الدبوس » التي تسببت بخسائر جسيمة في صفوف اليابانيين في السهل الشمالي الكبير، جنوبي هاباي.

رفعت هذه الانتصارات من شأن هذا الرجل « ذي القبعة المجعدة » الى مصاف محرر البلاد وحامي حمى الارياف ضد اليابانيين الذين اقترفوا مذابح عشوائية اثارت ردة فعل وطنية عارمة. تميزت هذه المذابح بثلاثيتها الشهيرة : « احراق وتدمير وقتل ». لم يكن جنود ماو يدخلون القرى لارتكاب المجازر او لتجنيد الرجال بالقوة او النهب كما فعلت وحدات شيانغ، بل للقيام بالاعمال الزراعية واقتسام الغلال وتخفيض الضرائب عن بدلات ايجار الارض، ومصادرة اراضي الملاكين المتعاملين مع العدو. في تلك المرحلة، نشأت فكرة عبادة ماو، « الشمس الحمراء » في الارياف الصينية، فقد اضحى « العم ــ الجندي ــ المحرر »، وسعى من عاصمته يانان، الى تعميم فوائد تجربته الناجحة على الارياف المحررة. وكان يسخر من البولشفيين المحيطين به قائلاً : « يمكن استخدام براز الكلاب

في تسميد الارض. لكن، لاي غرض تستعمل العقائد ؟ فهي لا تنفع للتسميد ولا غذاء للكلاب ». اضطر خريجو معاهد موسكو للتخفيف من حماسهم للنظريات الستالينية وحضور المؤتمر السابع للحزب بين ٢٣ نيسان و ١١ حزيران ١٩٤٥، حيث حقق ماو « المرشد الكلي الحكمة »، نصراً كبيراً. وقد أعلن ليو شاوكي، خلال احتفال نقابي، « ان الرفيق ماو تسي تونغ هو اكبر منظّر ورجل علم عرفته الصين في تاريخها ». هل سيعتقد ماو نفسه لينيناً جديداً ؟ حرص المؤتمر قبل ارفضاضه على توجيه نداء الى شيانغ كاي شيك، من اجل عدم حلّ الجبهة الموحدة للشيوعيين والوطنيين. اما ستالين، فلم يكن لديه بعد اي مبرر للقلق، ذلك ان « اعظم مفكر في تاريخ الصين » لم يخرج عن الرتل او يتصرف بمفرده. وبات باستطاعة ستالين أن يعتدّ بكونه ما يزال الناطق الوحيد باسم الشيوعيين في العالم.

نحو الحرب الاهلية في الصين : ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦

تغيّر موقف روزفلت من الصين، في مؤتمري القاهرة (تشرين الثاني ١٩٤٣) وطهران (٢٨ تشرين الثاني ــ اول كانون الأول ١٩٤٣). ففي حين كان ينوي تجهيز ٩٠ كتيبة صينية على وجه السرعة، لتحاشي استيلاء الشيوعيين باي ثمن على البلاد، اذا به يعدل فجأة عن هذا المشروع. في الواقع، تلقى للتو من ستالين وعداً بدخول الحرب ضد اليابان، في اقل من ثلاثة اشهر على نهاية المعارك في اوروبا. « حافظوا على زمركم، فنحافظ على زمرنا .. » وسيقوم روزفلت بالضغط على الوطنيين الصينيين، وستالين، على الشيوعيين كي يوافق كلا الطرفين على تشكيل حكومة موحدة. وسوف يوقع السوفيات معاهدة صداقة مع شيانغ.

بالفعل، بدأت المفاوضات في موسكو، في ٣٠ حزيران ١٩٤٥. وافق شيانغ على التوقيع، لان ستالين اكد له انه سيكون الطرف الوحيد

للاسلحة والمعدات التي ينوي تزويد الصين بها. يبدو ان سيد الكرملين لم يكن يستسيغ، وكذلك روزفلت، رؤية ماو تسي تونغ، على رأس جمهورية شعبية في الصين. غير أن الاميركيين لاحظوا، من خلال بعض الاشارات، ان اللعبة السوفياتية غير واضحة : لا شك أن ماو وافق على الذهاب الى شونكينغ للتفاوض مع شيانغ حول سلام ينقذ الجبهة الموحدة التي خطط لها ستالين عام ١٩٣٧. ومن اصل ٩٠٠٠٠٠ جندي نظامي واكثر من مليوني جندي مساعد، لم يحصل سوى على ٢٠٪ من حصته من القوات الصينية المقبلة. جرى توقيع معاهدة السلام من دون التوصل الى اتفاق حول نقطة رئيسية تتصل بادارة المدن والولايات، وهل يمكن أن تبقى تلك الادارة شيوعية في « قواعد » الجيش الاحمر ؟ اذا وافق شيانغ، انقسمت البلاد؛ وإذا رفض، وقعت الحرب الأهلية. فتقررت العودة إلى الحديث حولها.

لوحظ غياب الحزب الشيوعي عن « الحزب السياسي الاستشاري » الذي عليه ان يحلّ محل البرلمان بانتظار الانتخابات العامة. ميدانياً اشتد النزاع بين الشيوعيين والوطنيين على امتلاك السلاح من المخزون الياباني. وكان الاميركيون قد سهلوا انتقال ٦٠٠٠٠٠ رجل نحو الشمال، كي تقع معظم تلك الاسلحة بين ايدي الضباط من اتباع شيانغ. اما في ماندشوري، فقد عمد الضباط الروس الى توزيع سلاح ٦٠٠٠٠٠ جندي ياباني جرى ارسالهم الى معتقلات سيبيريا، على الشيوعيين. وهكذا تم تشكيل « جيش موحد ديمقراطي في الشمال الشرقي »، لا بدّ من ان يكون عدوه جيش شيانغ، حليف ستالين.

ادراكاً منهم لخطورة الوضع، سعى الاميركيون، بناء لنصيحة ويدماير، اقامة نوع من الوصاية الدولية على ماندشوري. وعندما عزم الاسطول السادس انزال بحارته في ميناء ديرين، واستخدام سكة حديد ماندشوري واجه رفضاً سوفياتياً قاطعاً. وثبت للاميركيين بنتيجة هذا الاختبار الايجابي ان ستالين بدعم الشيوعيين في ماندشوري.

هل سيوفر الدعم لهم في الصين ايضاً ؟ استأنف الاميركيون البرنامج العسكري الذي تصوّره روزفلت في مؤتمر القاهرة، وارسلوا السلاح والمعدات اللازمة لتجهيز ٩٠٠٠٠ رجل. اما جيش شيانغ الذي يشرف على قيادته جنرالات فاسدون، فلم يتوصل الى تشكيل اكثر من ٣٩ وحدة تسيطر على جنوبي يانكسي، فيما يشرف الشيوعيون على منطقة شان ـــ غان نينغ. وكان الرهان في الحرب الاهلية يقوم على السيطرة على السهل الكبير في الشمال. لا شيء يثبت ان السوفيات يريدون تقديم مساعدة اضافية لماو في حال نشوب حرب اهلية، اذ يجب على الاسلحة اليابانية أن تكفيه.

باشرت بعثة مارشال مهمتها في ٢٠ كانون الأول ١٩٤٥، في جو من الغموض والابهام. ونجح الجنرال في الحصول فوراً من زوأنلي على وقف اطلاق للنار وعلى قبول مبدأ تشكيل جمعية وطنية، تكون الاكثرية فيها شيوعية بالضرورة وكانت فرضية ترومان تقوم على ان الانتخابات الحرة سوف تبعد الارياف الصينية عن الهيمنة الشيوعية، في اعقاب مساعدة اقتصادية اميركية وفيرة، باعتبار ان الارّز والقمح « والنائب » تكفي لسعادة الانسان. وكما أن ويلسون شاء، عام ١٩١٧، جمع لينين وجميع ممثلي الاتجاهات السياسية في روسيا، على سطح جزيرة برينكيبو (تركيا)، بغية اغراق النظام البولشيفي في بحر من الاحزاب الصغيرة، كذلك اوعز ترومان لمارشال تشكيل « مؤتمر وطني من ممثلي التيارات السياسية الرئيسية » بغية تحقيق « وحدة الصين بالوسائل السلمية والديمقراطية ». لم يكن يرى أن « التيارات السياسية » تنحصر، على الارض، في قوتين متجابهتين فقط. وعندما نجح مارشال، بعد وقف اطلاق النار، في عقد اجتماع « المؤتمر الاستشاري السياسي »، مع تمثيل الشيوعيين فيه، اعتبرت اللجنة العسكرية الفرعية المولجة بتجريد القوات العسكرية الموجودة على الساحة من سلاحها، ان للشيوعيين كتيبة واحدة في ماندشوري، و ٧ في الشمال، و ٢ في الوسط، مقابل ٥٠ للوطنيين ـــ

فيما طالب زو بخمسة في ماندشوري. كان هم شيانغ منصباً على غزو تلك المقاطعة مجدداً لانها الاغنى في الصين؛ وفي ٢٣ ايار ١٩٤٦، دخلت قواته في شانغشون، في معركة مع الشيوعيين البالغ عددهم ٣٠٠٠٠٠ جندي. وفيما اقترب من هاربن، اعلن مارشال وقف النار. فتوقفت القوات الوطنية في عز انتصارها، مسمّرة في مواقعها، ومفسحة في المجال للشيوعيين في اعادة بناء قواتهم.

عند ذاك اسقط السوفيات القناع : اذ كان مستشاروهم يدربون الصينيين على استعمال الاسلحة الثقيلة، وضباطهم يدعمون جيوش ماو لوجيستياً. بقيت هذه المساعدة سرية حتى لحظة نشرها بصورة علنية عام ١٩٧٠. واذا كانت غير مباشرة حرصاً على عدم توريط الأميركيين اكثر فاكثر مع المعسكر الوطني، فانها كانت كثيفة. لم يكن ستالين مضطراً لمداهنة ترومان في اسيا اكثر مما فعله في اوروبا. والصين التي دمرتها الحرب، لا تستطيع النهوض وتكوين ذاتها قوة جبارة الا بمساعدة الاميركيين وبانتصار شيانغ. ولا تشكل الصين الشيوعية التي تمتلك مقاطعة صناعية واحدة في ماندشوري اي خطر على الاتحاد السوفياتي. اما انتصار الشيوعيين، فلا بدّ ان يلاقي، في تلك الاجواء السائدة في نهاية عام ١٩٤٦، صدى كبيراً في العالم كله. بعد الآن، ومهما كانت عليه الخلافات في الماضي، فان ماو يستطيع الاتكال على مساعدة الكرملين في ما يبذله من جهد اخير في سبيل التحرير.

١٩٤٦ ــ ١٩٤٩ : حرب ماو ضد شيانغ

ادّى انسحاب آخر القوات الأميركية، اثر فشل مهمة بعثة مارشال، الى نجاح ستالين في لعبته، اذ اصبح التدخل في الصين منوطاً به اذا شاء، بعد ان مني الاميركيون بفشل سياسي اغلق باب الصين في وجههم. كان النصر بمتناول يدهم، اذ كان يكفيهم مساعدة ماو للقضاء على نظام

شيانغ الذي ينهشه التضخم والفساد والهزال. وليس بمقدور اللوبي الصيني في واشنطن انقاذه. ورفض الشيوعيون ايفاد مندوبين عنهم الى اجتماع الجمعية الوطنية المنعقد في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٦، مؤثرين حديث البارود عليه.

لم يخطئ الجنرال ويدماير، اخر مبعوث اميركي للرئيس ترومان، في تقديره. ففي تقريره المؤرخ في ١٩ ايلول، اكّد ان « تحقيق الاتحاد السوفياتي للاهداف التي ينشدها في الصين يهدد الامن الاستراتيجي للولايات المتحدة ». كما أثبت التواطؤ التام بين ستالين وماو: « تحقيقاً لاهدافه، يتمتع الاتحاد السوفياتي بمؤازرة ناشطة للحزب الشيوعي الصيني الذي يظهر، من خلال عمله ونشاطه، انه اداة السياسة الخارجية السوفياتية ». وينصح التقرير بارسال « مساعدة عسكرية فورية، كافية وسريعة باشراف المستشارين الاميركيين ». — وهي نصيحة لقيت استحساناً في اوساط اللوبي الصيني — في الواقع، ما كان ينبغي الوثوق « بالحكومة الصينية الحالية، الفاسدة والمتزمتة والعديمة الفعالية ». لماذا لم تطلب الولايات المتحدة وساطة منظمة الامم المتحدة من اجل تسوية مشكلة ماندشوري ؟

لا شك ان المعلومات الواردة الى الحكومة الاميركية حول المساعدة السوفياتية كانت مشجعة، لأن ترومان طلب من الكونغرس في نيسان ١٩٤٨ مساعدة غير مبالغ فيها للصين، اذ بلغت قيمتها ٢,٢ مليار دولار تصرف بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٩، وهي ادنى بكثير من الاعتمادات الممنوحة لاوروبا. كان الاميركيون يرغبون فعلاً في انقاذ الصين، ولكن ليس باي ثمن. عندما قدم ويدماير تقريره، كان ميزان القوى قد اختلّ تماماً. فاعتباراً من نيسان ١٩٤٧، غادر الشيوعيون مواقعهم في جبال شاندونغ، لمهاجمة المدن، وشنوا حملة على ماندشوري. في الخريف، تم اجتياز النهر الاصفر، وجرى عزل الوحدات الخاصة الموالية لشيانغ في

المدن المحاطة بالارياف التي سرعان ما انضم سكانها الى الشيوعيين. استخدمت المساعدة الاميركية لتعويض الخسائر التي مني بها الجيش الوطني، وصرف منها ١٢٥ مليون دولار لشراء الاسلحة. متى ستسلّم هذه الاسلحة الى المقاتلين ؟

بات الهجوم الشيوعي ممكناً اثر تسلّم الذخيرة السوفياتية ووصول ١٠٠٠٠٠ كوري شمالي جرى ادخالهم في قوات لين بياو. في تشرين الثاني ١٩٤٨، سارع الاميركيون الى تسليم ١٢٠٠ طن من الاعتدة الحربية القادمة من اليابان. وافرغت السفن الحربية حمولتها في ميناء تياجين، غير أن الجنرال فيوزوي الذي يدافع عن بكين لم يجد في هذه الصفقة ضالته لان الاسلحة غير صالحة للاستعمال من جراء عدم ادخال الاصلاحات اللازمة عليها. تقدم لين بياو وسقطت الفرقة ٨٤ التابعة لشيانغ بين يدي العدو. ودخلت قوات ماو سهل الشمال التي تعرف جغرافيته جيداً لكونها احتلته لفترة طويلة. خلال الشتاء، وقعت المعارك الدموية الثلاثة في هواهاي حيث قتل فيها ٢٥٠٠٠٠ شيوعي. هزم الوطنيون وفقدوا ٦٠٠٠٠٠ رجلاً من بينهم ٤٠٠٠٠٠ اسير. هاجم الحمر بكثافة، وفقاً للخطة المعروفة باسم « المد البشري » والتي كان لها اثرها البليغ ضد الاميركيين في كوريا. في المعركة الأولى، خسر الشيوعيون ١٠٠٠٠٠ قتيل مقابل ٢٠٠٠٠. واذا كانوا نجحوا في تحقيق النصر، فان ذلك عائد لشجاعة الجنود والى خيانة ليوفاي، المسؤول عن الاستراتيجية في القيادة الوطنية والذي سلّم الخطط الميدانية للعدو. وفقد ضباط جيش شيانغ معنوياتهم. وفي المناطق التي ما زالوا يشرفون عليها، تصرفوا كالطغاة الطامعين، وفقدوا ايضاً ثقة السكان الذين كانوا ينتظرون بفارغ صبر « تحريرهم ». في مطلع عام ١٩٤٩، خسر شيانغ مدينتي نيانت سين وبكين. هل حاول الاميركيون التدخل لحماية جنوبي يانغ سي كيانغ الذي ما يزال صامداً ؟ سبق لوزير الخارجية ان اوعز لسفيره في نانكين بعدم زج الولايات المتحدة في الحرب الاهلية. مع ذلك، مارس

شيانغ ضغوطاً عسكرية جديدة بعد الهزائم الكبيرة التي مني بها خلال الشتاء. وطلب من مارشال ان يتولى الضباط الاميركيون مهمة الاحاطة بالجيش الصيني، فرفض ترومان الطلب. في كانون الأول ١٩٤٩، قامت محاولة جديدة، لفتح مفاوضات السلام. من دون ان تسفر عن اية نتيجة من البديهي ان الرئيس لم يكن يرغب بانقاذ شيانغ الذي انسحب الى قريته، في ٢١ كانون الثاني. عبثاً طلب الصينيون الى السوفيات ممارسة الضغط على ماوتسي تونغ كي لا يجتاز يانغ سي. بالطبع، ترك ستالين ماو يشنّ آخر هجوم له. في ٢٠ نيسان ١٩٤٩، عبر الجيش الشعبي النهر من عدة امكنة. وكان دينغ كسياوبينغ في عداد من عبروه، مع ليو بوشينغ، من جهة نانجينغ. فانهار الجيش الوطني.

استسلمت نانكين وكذلك شانغاي. وبدأ جنود شيانغ يبحرون باتجاه فورموز. خلال صيف ١٩٤٩، بات الشيوعيون اسياد الصين في الشمال والوسط ـــ وبقيت التيبت وحدها بحاجة « للتحرير » وكذلك الولايات في الجنوب والجنوب الغربي والغرب. وباتت مقاومة الحاميات الوطنية المعزولة في تلك المناطق شبه منهارة.

هل سيتمّ الاعتراف بالنظام الجديد في الخارج ؟ لم يكن ذاك النظام على عجلة من أمره لطلب ذلك من الغرب. عندما اصيبت السفينة البريطانية « اماتيست » بنيران القصف الشيوعي، طلب تشرشل ارسال حاملتي طائرات الى الشرق الأقصى، فاعلن ماو استعداده اقامة علاقات مع الخارج، على اساس « المساواة والمعاملة بالمثل، والاحترام المتبادل للاستقلال والسيادة ». كانت بريطانيا العظمى ـــ التي تسيطر على هونغ كونغ ـــ كما البرتغال على ماكاو، اول دولة اوروبية تعترف بالجمهورية الجديدة التي أعلن عن قيامها في بكين في الأول من تشرين الأول ١٩٤٩. هل كان ماو على استعداد لنسج علاقات اقتصادية مع اوروبا، مكوناً بذلك في الشرق الأقصى نموذجاً آخر ليوغوسلافيا المحايدة، في

منتصف الطريق بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ؟ لا شك أن بعض الدول الاوروبية المحايدة (كالسويد والدانمارك وسويسرا وفنلندا) كان يأمل ذلك، وقد اعترف بالجمهورية الشعبية، وكذلك الدول الاسيوية كالهند وبرمانيا واندونيسيا. هل سينتقل العالم فجأة بفضل ماو من الاسود والابيض، الى صورة اخرى بالالوان ؟

« يمكن دائماً اخذ بعض شرائح اللحم من فم نمر عجوز »

اعلن ماو، للحال، ان « الصين لا تستطيع الميل الا لجهة واحدة ». لقد ساند الاتحاد السوفياتي الحزب الشيوعي الصيني في الجبهات الاساسية. وهو الدولة الاولى التي اعترفت بالنظام الجديد. واوضح ماو قائلاً : « لا وجود لطريق ثالثة »، علماً بأن قواته واصلت طيلة السنة « تحرير » المناطق في الغرب والجنوب، حتى بلغت في كانون الأول ١٩٤٩، حدود الهند الصينية الفرنسية. وعندما رغبت يوغوسلافيا في ايفاد سفيرها، تظاهرت بكين بالصمم كيلا تغضب الكرملين. وبقيت العلاقات الدبلوماسية مع دول جنوبي شرقي آسيا مقطوعة حتى عام ١٩٥٥. بالمقابل، سارع ماو الى اقامة علاقات مع جمهورية فيتنام المقاومة. ووافق بلا قيد او شرط على ما يمارسه السوفيات من نفوذ على حدود تركستان الصينية وماندشوري ومنغولوليا الخارجية، ولم يقلق من ذلك لأن المساعدات كانت تأتي عبر هذه البوابات الى الصين التي تحتاج اليها بصورة ملحة. وبقاء الروس اسياد الساحة في ديرين وبورت ارثور وسكة الحديد في ماندشوري لا يزعجه في شيء، أذ كان يعلم ان هناك مفاوضات شاملة ستبدأ عاجلاً مع الاتحاد السوفياتي.

جرى توقيع معاهدة التحالف بين موسكو وبكين في ١٤ شباط ١٩٥٠ وهي تحلّ محل المعاهدة السابقة المعقودة بين ستالين وشيانغ والتي تحفظ للصين مقعدها في مجلس الأمن بين الدول الخمس العظمى التي

تملك حق النقض. لا شك ان انتصار ماو قد بدا في واشنطن وباريس ولندن كأنه انتصار لستالين. « فالحرب الباردة » قد ازالت الخلافات لتفسح المكان لعلاقات التضامن والصداقة بين الطرفين.

هل ثمة تسلط من احد الطرفين في هذه العلاقات ؟ من نافل القول ان التجربة تغري ستالين الذي وفّر للصين مساعدات قيمة خلال الحرب الاهلية ولا غنى عنها لاعادة اعمار البلاد، كي يفرض شروطاً جائرة باعتبار ان الحذر بين الزعيمين ما زال سائداً. غير ان تحفظات ماو اصبحت من الماضي : فهو عانى من الذهنية العقائدية للسوفيات الذين سعوا لفرض مفاهيمهم العسكرية ولم يؤيدوا تقنية القتال التي اعتمدها الجيش الشعبي الا بعد حين وفي أعقاب هزائم مريرة. غالباً ما اخرجت النصائح السوفياتية الداعية للاعتدال، الصينيين عن طورهم : فيماندشوري، زوّد الضباط الروس الشيوعيين بالاسلحة اليابانية، لكن ستالين اعادها رسمياً الى حكومة نانكين الوطنية، الأمر الذي حمل شيانغ على التدخل.

اما تحفظات ديكتاتور موسكو ازاء شخصية ماو تسي تونغ، فلم تكن اقل شأناً. اذ سبق له أن عانى في اوروبا من تمرد تيتو وسحره الكاريسمي، فضلاً عن ان التأثير الذي كان يمارسه ماو على جنوده وعلى سكان القرى المحررة، كان مماثلاً. ولا بدّ لمثل هذا النجاح الشعبي من أن يقلق ستالين، وهو الخبير في شؤون عبادة الشخصية. ولم يطمئن للاستقبال الحار الذي اعدّه سكان موسكو لصاحب « المسيرة الطويلة ». هل كان للشيوعية ثلاثة رؤوس : في بلغراد وبكين وموسكو ؟ ألم يكن مؤلف « الديمقراطية الجديدة » الذي استبدل في كتاباته، « البروليتاريا » « بالشعب »، وأبدى ازدراءه بالعقائد والنظريات، انحرافياً بالقوة ؟

ثمة تحفظ آخر لستالين : في لعبة الشطرنج التي يمارسها منذ عام ١٩٤٣، مع الولايات المتحدة، لم يكن يبغي سيد الكرملين الذهاب بعيداً. فهو يدرك ان هزيمة الصين الوطنية قد اثارت لدى الولايات

المتحدة ما لا يمكن ترميمه. واذا كان ترومان قد اعلن أنه لن يعرّض السلام العالمي للخطر دفاعاً عن تايوان، فان وجود الاسطول السادس في المحيط الهادئ، وانتقال مئات الالوف من المقاتلين الى تايوان، والموارد المالية الطائلة لعائلة شيانغ كاي شيك وعلاقاتها بالاوساط الصحافية والمالية الاميركية (مثل مجلة تايم ماغازين)، كل ذلك كان يدفع نحو توقّع ردّة فعل يسعى ستالين لتحاشي دفع ثمنها. بدأت مجلة « تايم لايف »، تعوّد قراءها على الفكرة القائلة بأن الصين اصبحت شيوعية من جراء المؤامرة التي استهدفتها. كان بروس، رئيس تحرير المجلة، ابن مبشر اميركي في الصين، وغير راضٍ على غرار ملايين المواطنين من امثاله، ان تتحول الصين « الحبيبة، المسيحية، الوديعة، وبين ليلة وضحاها، الى ستماية مليون شيوعي معادي ». ادرك ستالين مدى الصدمة في اوساط الرأي العام الأميركية وابدى قلقه حيالها. وكان حتى الآن حريصاً على عدم انتهاج سياسة مغامرة في الصين، لعلمه بمدى تمسك الاميركيين بموقعهم الخاص في المحيط الهادئ. وينبغي توقع ردّة فعل في غاية العنف.

في خضم هذه الأحوال، لا بدّ للمحادثات بين بكين وموسكو من أن تكون شاقة وطويلة. وقد اعلن ماو فيما بعد « اننا لم نكن متفقين في الرأي مع ستالين، ولكن قد نتمكن دائماً من اخذ بعض شرائح اللحم من فم نمر عجوز ». وافق ستالين على توقيع معاهدة « صداقة وتحالف وتعاون »، من أجل ضمان الأمن الصيني. وهي عبارة عن تحالف دفاعي ضد اليابان (حيث يخشى ان يعمد الاميركيون لاعادة تسليحها ودفعها لمهاجمة الصين مجدداً) او « اية دولة حليفة لهذه الأخيرة بهدف الاعتداء ». حاذر ستالين بحذق تسمية الولايات المتحدة بوضوح. سعت الدولتان، خلال ثلاثين سنة، على التشاور، في كل مرة، تعرض امن احدهما للخطر. كان على الاتحاد السوفياتي ان يبقى سيد علاقاته بغية التدخل السريع في المحيط الهادئ. ولا بد من انشاء شركة مختلطة

لاستثمار الخطوط الجوية بين بكين وألماآتا عبر سينكيانغ، وبين بكين وايركوسك وتشيتا عبر منغوليا الخارجية المرتبطة بالاتحاد السوفياتي كدولة مستقلة والتي انفصلت عملياً عن الصين بعد ان كانت جزءاً لا يتجزأ منها منذ معاهدة عام ١٩٢٤. وشكلت سكة الحديد في ماندشوري وموانئها في البحار الدافئة، احدى الوسائل الاساسية لوصول الامدادات العسكرية : وعد السوفيات باعادتها الى الصين، بعد عقد معاهدة سلام مع اليابان أو في العام ١٩٥٢ كحد اقصى. واذا كان مرفأ بورت ارتور قد اعيد على الفور مقابل تعويض، فان اعادة مرفأ ديرين الى بكين، لم تتحقق الا بعد توقيع اتفاق بين موسكو وطوكيو.

ثمة شركات مختلطة اخرى قيد الانشاء لاستخراج النفط والغاز والمناجم الاستراتيجية في سيانكينغ، وهي مقاطعة حدودية تقع جنوبي بحيرة بايكال. وارتبطت اعادة تسليح الجيش بمدى سرعة انشاء صناعة ثقيلة. وكان السوفيات قد عمدوا الى تفكيك المنشآت اليابانية في ماندشوري التي تستطيع وحدها انتاج الفولاذ بكميات كبيرة. وقدرت قيمة تلك المنشأت بملياري دولار. عرضت موسكو قرضاً قيمته ٣٠٠ مليون يدفع على خمسة اقساط سنوية مقابل الآلات والاسلحة التي يقدمها الاتحاد السوفياتي، ويمكن تسديدها سلعاً عينية كالشاي والذهب والمواد الاولية، أو بالدولار الاميركي. من الواضح أن ستالين لم يهدِ الصين شيئاً.

المساعدة السوفياتية للشيوعية على الطريقة الصينية : عامي ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠

في الواقع، استطاع نظام ماو ان يثبت اقدامه في ظل الحماية السوفياتية، التي كانت تمنع كل ردة فعل مباشرة من الجانب الاميركي : ومن البديهي ان اعادة سريعة لبناء السدود ومنشآت الري والطرق وسكك الحديد، واستئناف العمل في المناجم وانشاء افران جديدة، وفتح مصانع لانتاج البنادق والاسلحة الاوتوماتيكية والمدافع والدبابات، كل ذلك

استوجب اعداد برنامج مساعدات طارئة واللجوء الى ١٠٠٠٠ مهندس وتقني سوفياتي، والى خبراء عسكريين لتنظيم تحوّل الجيش الشعبي الى جيش للدفاع الوطني. استوحى تنظيم الخدمة العسكرية والهيكلية التراتبية النظام السوفياتي بشكل دقيق. وشارك الضباط والجنود في « بناء الاشتراكية »، من خلال تمثيلهم في كافة مراكز الدولة التي عملت على بلشفة الصين وفقاً لمحطات لم يستطع ستالين ادخال تعديلات عليها. وإذا كان الغربيون قد املوا خلاف ذلك، من جراء التأخير في تأميم الزراعة والابقاء على قطاع خاص في التجارة والصناعة، فانهم سرعان ما خففوا من غلوائهم : اعتباراً من عام ١٩٤٩، وضع النظام الصيني نصب عينيه هدف تحقيق الشيوعية الناجزة وسرّع مراحلها : جرى تأميم المصارف بكاملها، ومصادرة المصالح الاجنبية. وفي السنة ذاتها، فرض الحزب سيطرته على المؤتمر السياسي الاستشاري الشعبي، بفضل ممثلي الجيش والمناطق الخاضعة لسيطرة الضباط الحمر، كما من خلال المنظمات الجماهيرية والرابطات الشيوعية. وارتكزت الديكتاتورية على « تحالف العمال والفلاحين » مع حلفائهم المؤقتين الذين جرى اختيارهم في صفوف « البورجوازية الوطنية » التي تختلف مصالحها عن مصالح « البورجوازية المحلية » المتعاملة مع الغرب. الحق ان مصادرة الاراضي لم تكن، في الاصل ملحوظة الا للملاكين العقاريين، وبدا الاصلاح الزراعي الذي قضى باعطاء كل فلاح قطعة ارض لا تزيد مساحتها عن هكتار واحد، كأنه انقاص من قدر الشيوعية. فكان لا بد، لتأميم الأراضي ان يتبعه الاصلاح الزراعي دون تأخير. كان من المتوقع، في الحقيقة، وفقاً للنموذج السوفياتي، ان يؤمن فوائض الانتاج الزراعي تمويل برنامج صناعي تخصص للصناعة الثقيلة فيه نسبة ٨٠٪ من التوظيفات.

يفترض مثل هذا البرنامج اقامة نظام اغلاق الحدود مع الغرب، وتطوير ديكتاتورية سياسية تعمل على نشر الارهاب. لم يكن ماو تسي تونغ، من هذه الزاوية، اقل شأناً من ستالين : اقيم نظام مراقبة لا هوادة ولا ثغرة فيه

من اجل اجبار الجماهير على بذل الجهود اللازمة، وتثبيط عزائم المتمردين، والقضاء على الفساد والتخريب : فالحزب الذي بلغ عدده، عام ١٩٤٩، ٤,٥ ملايين عضو، متواجد في كل قرية حيث اقام رابطة فلاحية محلية مهمتها تصنيف الفلاحين الى اربع فئات : ملاكون عقاريون، أغنياء ومتوسطون، وفقراء، ولا بدّ من مصادرة أملاك الفئتين الاولى والثانية. انيطت بالحزب، اذا، مسؤولية توزيع الاراضي في الريف وتنظيم المحاكم الشعبية التي تتيح اشراك الجماهير في جلسات النقد الذاتي، وفي فرض الاحكام التي تناولت بالاعدام خمسة ملايين ضحية[1]. غير أن الاصلاح اصاب ١٢٠ مليون فلاح، ولم تؤدِ موجات الحقد التي انطلقت في الارياف الى قيام ثورات او صدامات دموية، بل على العكس، أتاحت للنظام أن يستقطب قبل بدء عملية التأميم، الاكثرية العظمى من القرويين الذين لم يقعوا ضحيتها بعد، وما زالوا متفرجين على « الثورة » او مشاركين فيها. بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٣، (اي البداية الفعلية للتأميم) استطاع النظام الاتكال، من دون خشية، على الارياف التي قدمت عدداً وافراً من المتطوعين الذين يحتاج النظام اليهم لتوطيد الأمن الخارجي (بواسطة الجيش الجديد) والامن الداخلي (بفضل الميليشيا).

الحق ان الاجراءات الاولى المتخذة في ايار ١٩٥٠، لالغاء « نظام الزواج الاقطاعي » اثارت النقمة. فحرية الزواج ومساواة المرأة في الحقوق، ومنع المعاشرة غير الشرعية وتعدد النساء وخطوبة الاولاد ورعاية الاولاد غير الشرعيين، كل ذلك اثار سخط انصار المحافظة على التقاليد القديمة. غير أن الحملة التي بدأت عام ١٩٥١، لقمع المعترضين ضاعفت درجة الارهاب في الريف كما في المدن. وكثرت الاتهامات وجرت تصفية جيوب المقاومة. امسك الحزب بالبلاد بقبضة من حديد،

(١) ميسنير — مرجع سابق

بمساعدة الجيش الأحمر. ترأس زوأنلي « مجلس شؤون الدولة » المؤلف من ٢١ عضواً، وماو، الحكومة المركزية الشعبية المؤقتة. كذلك كانت اللجنة الثورية الشعبية المكلفة ضبط النظام العام برئاسة ماو. اما الادارات الاقليمية فكانت تحت اشراف « جيوش الارياف » الشيوعية. تمثّل الجهاز الفعلي الحاكم باللجنة الدائمة للمكتب السياسي في الحزب الشيوعي. والتي يعد عدد اعضائها على اصابع اليد الواحدة، فهي تعيّن المسؤولين في المناصب الرئيسية وتقيلهم منها بكل حرية. ويتولى ماو رئاسة الدولة والجيش واللجنة المركزية ولجنة الشؤون العسكرية في الحزب. وتتوافر لهذه الديكتاتورية وسائل ضغط من المنظمات الحزبية كاتحاد النقابات، ورابطة الشبيبة واتحاد الشبيبة الشيوعية « والرواد ». وترتبط « الهيئات الأمنية » بجيش التحرير الشعبي، وكذلك لجان الحماية في المؤسسات. وتخضع الشرطة السياسية لنظام مماثل للنموذج السوفياتي.

لدى اندلاع حرب كوريا، لم تكن الصين قد استكملت تطوير مؤسساتها، اذ كانت جملة من المؤسسات ما تزال خاصة، وتأميم الأراضي غير مطبق، فيما اعيد تنظيم الاتصالات، واستؤنف الانتاج الصناعي. ادى قيام النظام الديكتاتوري الشيوعي والاسراع في شنّ الحملات الارهابية، الى تضامن الجماهير مع الثورة الماوية التي قضت على جميع المعارضين واغلقت المنافذ على التأثيرات الخارجية في كل انحاء البلاد. على الرغم من ضآلة قدرتها الصناعية، شكّلت الصين قوة يعوّل عليها في حال نشوب حرب عالمية، بفضل المساعدة التقنية والمادية التي وفرها لها الحليف السوفياتي.

هجوم كوريا الشمالية والردّ الأميركي : حزيران ـ تشرين الأول ١٩٥٠.

في غياب الوثائق والمراجع، يبقى موقف ستالين من الاعتداء الكوري غير معروف فيما اذا كان ايّد هذا الاعتداء او قرره. وينبغي الاعتقاد بأنه

لم يكن يتوقع دخول الولايات المتحدة في الحرب لأن ممثلها في مجلس الأمن التابع لمنظمة الامم المتحدة غادر القاعة احتجاجاً على عدم قبول الصين الشعبية في المنظمة الدولية. ولا يبدو أن هذا النزاع قد استهوى الصين لأنها كانت منشغلة حينذاك في مسألة ضم التيبت التي سيدخلها الجيش الأحمر ويخشى اندلاع الحرب مع الهند. فلو كانت تنوي دخول المعركة، هل كانت زوّدت فيتنام بالسلاح والذخيرة ودربت في معسكراتها ۲۰۰۰۰ رجل كانت بحاجة اليهم، في خريف ۱۹٥۰ لشن هجومها الواسع ضد الفرنسيين ؟ ثمة وحدات اخرى من الجيش الأحمر اخذت مواقعها قبالة فورموزا، واحتلت جزر كوشان التي كان الوطنيون حرروها قبالة شنغاي، وحصنت « جبهة فوكيان » استعداداً لشن هجوم محتمل على تايوان. لم تتصور اجهزة الاستخبارات الاميركية يوماً ان الصين، وبدرجة أدنى الاتحاد السوفياتي يمكنهما المغامرة في كوريا.

هل كانت كوريا هي التي بادرت بالهجوم وحدها ؟ بادرت الصحف السوفياتية، على الفور، الى تأييد الهجوم، الأمر الذي يظهر، تواطؤ ستالين، على حد ما يعتقد اندره فونتين. كما ايدت وجهة نظر كوريا حول « تحريض » سيغمان ري، الذي ترك الجيش الجنوبي يهاجم مدينة هيجو، شمالي ــ غربي سيول، معلناً : « اذا كنا لا نستطيع الدفاع عن الديمقراطية بالحرب الباردة، فسوف نحقق النصر بالحرب الساخنة ». وهذا الرجل الذي فشل في الانتخابات، وتحفل سجونه بآلاف المعتقلين السياسيين، لن يتورع عن المجازفة بالهجوم سواء تواطأت امريكا معه ام لا. غير أن النصر المفاجئ الذي حققته كوريا الشمالية، وعدم جهورية الجيش الجنوبي، ينفيان وجهة النظر تلك. يرى خروشوف ان الزعيم الكوري الشمالي كيم ايل سونغ، سافر الى موسكو، قبل شن الهجوم، فطلب اليه ستالين اخذ موافقة الصين، الأمر الذي ينفي احتمال ان يكون ستالين قد دبّر الأمر من اجلِ جرّ كوريا للدخول في عملية تطويق الصين التي يجري اعدادها انطلاقاً من منغوليا الخارجية. فيما خص تصميم

الصين المسبق، فيبدو غير وارد من جراء انشغال الجيش الأحمر بمهمات تستنفد كل طاقاته، فضلاً عن كونه غير مسلح بصورة كافية. غير أنه من الواضح أن بكين وموسكو قد تركتا كوريا الشمالية تشن الهجوم، لانهما كانا يعتبران ان الرد الاميركي غير وارد.

في الواقع، اتخذ ترومان قراره باستئناف التسلح في نيسان ١٩٥٠. اذ لم يعد وارداً الاكتفاء بشبكة قواعد استراتيجية في الشرق الأقصى، وينبغي حشد قوة تدخل قادرة على التصدي لكل طارئ. لا شك انه كان يفكر بالأحرى في احتمال التدخل الى جانب تايوان، فيما لو عزم الشيوعيون على انزال قواتهم فيها. وكان يخشى ان يدفع الرأي الأميركي الذي هاله انتشار الشيوعية في الصين، البيت الأبيض الى التصدي.

كان يوم ٢٥ حزيران نهار احد. وفيه ذهب الرئيس الى عطلة نهاية الاسبوع في ميسوري، والحكومة متفرقة. علم ترومان بالهاتف ان دين اتشيسون دعا مجلس الامن القومي للاجتماع. في المساء، عاد الرئيس الى واشنطن للقاء معاونيه وتقرير الردّ. كما دعي مجلس الأمن في منظمة الامم المتحدة للانعقاد، ولم يكن ثمة مقعد للسوفيات كي يستطيعوا بالتالي ممارسة حق النقض. فصوّت على اول قرار يدين المعتدي، وطالب بانسحابه ووقف القتال، واطلق نداء الى اعضاء الامم المتحدة للتدخل جماعياً عند الاقتضاء. جاء هذا القرار في اوانه، اذ كان هجوم الصين على التيبت يحرض العديد من الدول لاتخاد موقف ضد الخطر الشيوعي الهدام في جنوبي شرقي آسيا. اعتباراً من ٢٧ حزيران، علمت واشنطن ان قوات كوريا الشمالية دخلت سيول : اربع وحدات تؤازرها ثلاث فرق من الدرك، مجهزة بالاسلحة السوفياتية، اجبرت ٦٠٠٠٠ رجل من جيش سينغمان ري على الهرب.

ادّى سقوط سيول الى جعل تدخل ترومان العلني ضرورة ملحة. فأعلن أنه أمر القوات البحرية والجوية الأميركية للقيام فوراً بنجدة كوريا الجنوبية. غير

أنها كانت طليعة جيش دولي سوف يتشكل تحت مظلة الامم المتحدة. تجاوز خطاب ترومان حدود كوريا، ولاحظ زوأنلي على الفور ان هذه الحرب كانت « كالشحمة على الفطيرة » للاميركيين، لكونها أتاحت لهم تسويغ تدخل شامل ضد الشيوعية في هذه المنطقة من العالم، وبالفعل، كان مبدأ « الاحتواء » يفترض دخول الاسطول السادس في مضيق فورموز لحماية تايوان، الأمر الذي كان يهدد الصين الشعبية بصورة مباشرة، وهذا هو الرد الأميركي المنتظر منذ نجاح الثورة الماوية. ورأى زوأنلي ان « الجيش الأبيض »، بدأ زحفه. واكد ترومان ان اي اعتداء محتمل للجيش الأحمر على تايوان يشكل « تهديداً مباشراً لامن منطقة المحيط الهادئ ولقوات الولايات المتحدة ». واصدر الرئيس اوامره بمضاعفة عديد القوات الأميركية المتمركزة في الفيليبين، وبالتفاوض مع الفرنسيين بغية تقديم مساعدة اميركية لهم للوقوف في وجه العدو الفيتنامي الذي يتلقى الاسلحة الصينية بكميات وفيرة. كان التغيير جذرياً، اذ تخلت اميركا مؤقتاً عن الاهتمام بمسرح الحرب الباردة الاوروبي، لتضع كل جبروتها في المحيط الهادئ، وهذا التوجه الجديد اثلج قلب الحاكم الأميركي في اليابان ماك ارثر.

جرى تجهيز فرقتين على الفور للتدخل في كوريا، حيث اصبح الوضع مأساوياً : اعتباراً من نهاية تموز، اقترب الكوريون الشماليون من الساحل الجنوبي، وفي ٥ ايلول، لم يعد الجنوبيون يسيطرون على اكثر من ١٥٪ من اراضيهم، على جبهة بوازن ــ تاغو.

اخذت التعزيزات الواردة من الأمم المتحدة ترد الى كوريا : بعضها من الدول الاعضاء في منظمة حلف شمالي الاطلسي : من بريطانيا وفرنسا (الوحدة الفرنسية بقيادة الجنرال مونكلار)، والبلاد المنخفضة واللوكسمبورج وبلجيكا وكندا واليونان وتركيا. وانضمت نيوزيلندا واتحاد الجنوب الافريقي الى بريطانيا، وكذلك فعلت كولومبيا مع

الولايات المتحدة. وارسلت الحبشة والنمسا وحدات رمزية. وكانت تايلاندا مع الفيليبين الدولتين الوحيدتين في المنطقة اللتين انخرطتا في الحرب. أما الهند، التي اعلنت حيادها، فعرضت وساطتها على اساس الاعتراف بحق الصين الشعبية في عضوية الامم المتحدة، الأمر الذي رفضته الولايات المتحدة بشدة، لعدم رغبتها في « منح أية مكافأة للمعتدي »؛ وجرت محاولة اخرى قامت بها مصر ويوغوسلافيا ولاقت المصير ذاته.

الكلمة الآن لماك ارثر، فقد ابحرت الفرقتان التابعتان له من اليابان بحيث قضّت مضاجع العدو الرابض في الجنوب، واستطاعت في بضعة أيام استعادة سيول بفضل التفوق الحاسم لسلاح الطيران الاميركي. وفي الايام الأولى من تشرين الأول، بلغت القوات الجنوبية الخط ٣٨. هل كان عليها التوقف عنده ام مواصلة الزحف باتجاه الشمال ؟

التدخل الصيني وعزل ماك آرثر: ١٥ تشرين الأول ١٩٥٠:

كان ماك ارثر يؤيد فكرة احتلال البلاد كلها، من دون الاخذ بعين الاعتبار بشكل واف لاحتمال دخول الصين والاتحاد السوفياتي الحرب. وكان مجلس الامن القومي ايضاً من انصار تسوية المسألة دفعة واحدة من خلال تنظيم انتخابات حرة برعاية جيش الامم المتحدة. وكان ينبغي استشارة هذه المنظمة، حيث استعاد الاتحاد السوفياتي مقعده في مجلس الامن ويمكنه بالتالي من استخدام حق النقض. وتقرر نقل المشكلة الى الجمعية العمومية، بالنظر للتهديدات التي تلقي بثقلها على السلام. وبالنظر لعجز مجلس الامن، قضت التوصية الموقّعة من سبع دول عظمى، بالطلب الى الجمعية العمومية درس امكانية توصية الاعضاء باتخاذ اجراءات معينة، منها على سبيل المثال تجاوز الخط ٣٨. وبذلك يستطيع البنتاغون التحرك بصورة شرعية، استناداً الى تصويت اكثرية أعضاء الجمعية العمومية، الى جانب القرار الذي سيندّد بالاتحاد السوفياتي. على الرغم من تحفظات

فرنسا وبريطانيا اللتين خشيتا تدخلاً صينياً، فقد تغلبت وجهة النظر الأميركية. وزحفت قوات ماك ارثر باتجاه الشمال، اعتباراً من ١٥ ايلول، وفي ١٩ تشرين الأول، دخلت بيونغيانغ. وفي نهاية الشهر، توقفت دبابات الاستطلاع على ضفاف يالو الذي يحاذي الحدود الصينية. اذا كان ماو تسي تونغ وستالين قد هللا للحرب في مرحلتها الأولى، فهل سيدعان الاميركيين يسحقون حليفهما ؟

عزز الاميركيون وسائل قتالهم، وأعلن وزير الخارجية دين اتشيسون فيما بعد، انه « تورطنا في كوريا بشكل كلي » هل كان يتوقع التدخل الصيني ؟ جرى تمديد الخدمة العسكرية لمدة سنة، واقرّ الكونغرس مبلغ ١٠ مليارات دولار تخصص لتأمين السلاح، اذ قد تؤدي هذه الحرب المحلية الى نشوب حرب شاملة، ولا يجوز الوقوع فريسة لاية مفاجأة. ولا بدّ من تعزيز السلاح التقليدي لا سيما وان الاميركيين ليسوا الوحيدين الذين يمتلكون القنبلة الذرية، وان كانوا متقدمين كثيراً عن سواهم في هذا المضمار.

ليل ١٥ ــ ١٦ تشرين الأول، عبرت طلائع القوات الصينية الحدود الكورية. واعتبرت الصين ان وجود القوات الاميركية بمحاذاة قدس اقداسها في ماندشوري يشكل تهديداً خطيراً : فمن يسيطر على ماندشوري يسيطر على الصين، هكذا تصرفت اليابان، عام ١٩٣١. اذا كان الاميركيون قد فرضوا مشيئتهم على كوريا واجتازوا الخط ٢٧٨، فالأمر لم يعد يقلق « باحتواء » الشيوعية وحسب بل « بالانسحاب الى الوراء ». ذلك ان غزو القوات الرجعية لآسيا يجري على قدم وساق في كوريا كما في الهند الصينية. والصين تدخل الحرب بحذر. فهل تعرضت لضغط السوفيات الذين يعجزون من الوجهة اللوجستية عن التدخل، ويمتنعون عن الانحياز بصورة مباشرة ضد قرار صوتت عليه الامم المتحدة ؟ هل تنوي الصين تحقيق النصر في الشرق الأقصى ضد « نمر

من ورق ». في البداية، خاضوا الحرب بتؤدة، لادراكهم التفوق المادي للعدو. وعندما أعلن مارك ارثر في ٢٤ تشرين الثاني عن هجوم شامل قوامه ١٥٠٠٠٠ رجل، كشف الصينيون عن ان « المتطوعين الشعبيين » بقيادة الجنرال بينغ ديهوا فاق عددهم ٢٠٠٠٠٠ رجل، وسيرتفع الى ٨٠٠٠٠٠ في غضون سنة. العتاد الصيني في مجمله من منشأ سوفياتي وهو قديم العهد وغير ذي فعالية. لكن جنود ماو يهاجمون باعداد كبيرة وفق تقنية ثورية، واثاروا البلبلة في نفس الجنرال الاميركي والكر الذي اصدر الامر للجيش الثامن بالانسحاب. بلغ الصينيون في ١٨ كانون الأول ١٩٥٠، الخط ٣٨، والنشوة تغمرهم، اذ اجبروا « التنين » على التراجع. في كانون الثاني ١٩٥١ اخلى الاميركيون والكوريون الشماليون سيول امام التقدم الشيوعي.

اشتاط ماك ارثر غيظاً واطلق العنان لقواته الجوية التي راحت تنقل التعزيزات لوقف الاندفاعة الصينية المجنونة. وتتطلب استعادة سيول اكثر من شهرين، من جراء قدرة الجنود الحمر القتالية. تميّز الاتراك بالعمليات الهجومية، وكانوا في مقدمة قوات الامم المتحدة، وعاد بيرقهم يخفق مجدداً على طول الخط ٣٨، اثر جهود باهظة بالتضحيات. في نيسان وايار ١٩٥١، شن الصينيون هجومين جديين باءا بالفشل امام سد كثيف من النيران الأميركية. فانكفأت الجيوش الى الجبال التي تحولت الى ما يشبه الأوكار المحصنة.

في الصين، ارتفع التسلح الخلقي الى ما يشبه التزمت : وزادت الحرب من وتيرة الارهاب، واحصي في بكين ٣٠٠٠٠ محاكمة خلال التسعة اشهر الأولى من عام ١٩٥١. وتوقفت كرة القدم في الملاعب، لان الجماهير الغفيرة مدعوة لمحاكمة « الخونة » ومشاهدة تنفيذ احكام الاعدام فيهم. وقدّر عدد الضحايا بين ٨٠٠٠٠٠ وثلاثة ملايين. وغالباً ما حكم عليهم بالاعدام او الاشغال الشاقة او السجن، سواء كانوا صينيين او

اجانب. واطلقت حملة « مقاومة اميركا ومساعدة كوريا »، بصورة خاصة عام ١٩٥٠، وهي موجهة الى المثقفين من انصار التغرب. اغلقت المدارس والجامعات والارساليات والكنائس في كل انحاء البلاد، وكذلك المكتبات العامة التي ساهمت في نشر الفكر الغربي. عزل ماو الصين على غرار ما فعل ستالين في بلاده، واغلق الابواب في وجه الرياح التي تهب من البعيد. ٢٠٠٠٠ مبشر بروتستانتي ومرشد تابع لجمعية الشبان المسيحيين التي تحظى باحترام كبير في أميركا القوات في السجن وخضعوا لاعادة توجيه وتدريب، والكهنة لعملية غسل دماغ أو الطرد خارج البلاد. وقامت حملة اخرى تحت شعار « اصلاح الفكر » وتعرضت للمثقفين والفنانين الصينيين. وسعت المحاكمات الى استدراج المتهمين للاقرار علناً بما ينسب اليهم والجهر « بخضوعهم وانبعاثهم »، سائلين الغفران من الشعب، متعهدين بالتخلي عن « ثقافاتهم الرجعية ». وفي كانتون، قضت الاحكام باحراق الكتب الغربية.

تابع ماو، في السياق نفسه تطهير البلاد، من خلال حملة مزدوجة على « الاضداد الثلاثة » (الفساد والتبذير والبيروقراطية)، وفي عام ١٩٥٢، على « الاضداد الخمسة » والتي لم تعد تتعرض للحزب والجيش بل للتجار والفنانين و « الرأسماليين » وكل الذين ظلّوا على هامش التأميم. ضاعف الارهاب من رغبة ضباط الجيش الاحمر في تحقيق النصر مهما كان الثمن، ولدى الجنود في الازدراء بالموت. وهذا ما يفسر الهجمات المكثفة والمتكررة التي بدت للاميركيين بمثابة عمليات انتحارية. قاد الصينيون حرباً ثورية، وتواجد المستشارون السياسيون في كافة الوحدات العسكرية حتى الصغرى منها. والدروس في الستالينية حفظت عن ظهر قلب : فيما مضى كان ماو يدافع عن حرب العصابات، بينما تطالب موسكو باعتماد الحرب الثورية الجماهيرية. القتال في كوريا يكاد يكون حرب ابادة.

الضحايا في الجانب الشيوعي باعداد ضخمة جداً : مقابل ٢٣٦٢٩

قتيلاً لدى الاميركيين، احصي ٣٠٠٠٠٠ كوري شمالي و ٥٠٠٠٠٠ صيني. وقدّر عدد المدنيين القتلى في الجنوب بنحو ٣٧٣٠٠٠. واذا صح ما نشرته مجلة « بريد كوريا » (٢٨ حزيران ١٩٨٢) فان عدد القتلى المدنيين والعسكريين يتجاوز المليون. تحولت الحرب الى حمام رهيب من الدم، لم يجد المتحاربون سبيلاً الى وقفه. فالصينيون يرفضون اي تفاوض لا يسبقه الاعتراف ببلادهم في الامم المتحدة، الأمر الذي لا يوافق عليه الاميركيون. وماك ارثر يريد تحقيق النصر على الأرض، حتى ولو اضطر للبحث عنه في الصين نفسها. واستشاط غيظاً ضد ترومان الذي رفض مساهمة القوات الوطنية الصينية في القتال، وسافر بنفسه الى تايوان اثباتاً لعدم موافقته ودفع الرأي العام الأميركي الى النضال الشامل. وتعامل مع رئيس الولايات المتحدة بطريقة غريبة اذ اضطر الرئيس لقطع اكثر من نصف الطريق لملاقاته في جزيرة واك، في ١٥ تشرين الأول ١٩٥٠ للبحث في مسألة دخول الصين الحرب. هل اقنع الجنرال الرئيس ترومان بضرورة القضاء على الصينيين لدرجة مهاجمتهم في مانشوري بالقنبلة الذرية، وفقاً لما أعلنه من المؤتمر الصحافي الذي عقده في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٠ حيث قال : « سنتخذ كافة الاجراءات الضرورية لمواجهة الوضع القائم ». فسأله احد الصحافيين : « هل يتضمن ذلك استخدام القنبلة الذرية ؟ — انه يتضمن كل الاسلحة التي بحوزتنا — هل تطرق البحث حقاً الى هذا الاحتمال ؟ — اجل ».

هل كان البنتاغون على استعداد للمغامرة في نزاع عالمي، مستفيداً من تفوقه على الاتحاد السوفياتي، لشن حرب ذرية ضد الصين الشيوعية ؟ كان الصينيون يشنون هجماتهم ابان تساقط الثلوج، ويزحف مقاتلوهم ليلاً لتفادي طلعات الطيران الاستطلاعية، فضلاً عن معاملة الاسرى بطريقة وحشية الأمر الذي القى الرعب في نفوس الأميركيين الذين لم يسبق لهم ان قاتلوا الشيوعيين. فهي حرب جديدة تماماً، على حد ما قاله ماك ارثر.

لا شك أن ترومان كان عقد العزم على استخدام القنبلة، لانه عدل عن

ذلك فيما بعد، مؤكداً ان قواته ستبقى في كوريا. مرة اخرى، اختار البنتاغون الحرب الدفاعية، حتى ولو اثار ذلك سخط ماك ارثر. ورفض الرئيس قصف محطات التوليد في ماندشوري، انما وافق على تدمير الجسر فوق نهر يالو ــ كان ذلك اقصى ما تساهل به ــ. وكان وزير الخارجية قد تقدم بشكوى الى الامم المتحدة اسفرت عن ادانة الاعتداء الكوري مشيراً بذلك الى نيته في التفاوض. وجاء رد ماك ارثر في ٥ نيسان، على شاكلة تقرير موجه لزعيم المعارضة الجمهورية ويوصي باشراك الجيش الوطني الصيني في القتال. واضاف : « اذا خسرنا هذه الحرب، فسوف نخسر اوروبا [...] علينا تحقيق النصر، ولا بديل لنا سواه ». اثار هذا الكلام نقمة الرئيس الذي ابلغه البنتاغون في ٩ نيسان انه لا يمانع في استدعاء الجنرال ماك ارثر ... وعزله.

دلّ الاستقبال الحافل الذي لقيه الجنرال في شوارع سان فرنسيسكو على مدى تحسس الاميركيين بتلك الحرب. جرى تنكيس الاعلام وارتفعت الاصوات منددة بترومان واحرقت صوره، ووصفت صحف كاليفورنيا ما قام به « بالمجزرة السياسية » وغرق البيت الابيض تحت وابل من برقيات الاحتجاج، واظهر استطلاع للرأي العام تأييداً لماك ارثر بنسبة ٦٩٪. وكان ارثر. واقفاً في سيارته المكشوفة، طوال مسافة ٢٣ كلم تفصله عن فندقه وهو يردد: « ليحفظ الله أميركا ». بعد قليل، ادت المدفعية ١٧ طلقة تحية لوصوله الى واشنطن. استمع اليه الكونغرس، يستعيد واقفاً اغنية الجندي القديم الذي « لا يموت ابداً ». واصطفّ سبعة ملايين ونصف المليون شخص يهتفون له على الجادة الخامسة. وبكت الصبايا والنسوة لدى مرور موكبه. بقي ترومان صامتاً، اذ كان يعرف ان مجلس الامن القومي يناهضه. ويكفيه ان ينتظر.

انجازات الحاكم الأميركي في اليابان

اتاحت انجازات مارك ارثر الضخمة في اليابان للاميركيين الاعتماد على موارد هذا البلد لشن الحرب في كوريا. وقد ادرك البنتاغون ان عدو الامس اصبح يشكل في المحيط الهادئ ما يوازي « حاملة طائرات » بريطانية في الاطلسي. بعد فترة من التأرجح، تحولت اليابان الى بلد ديمقراطي ولم تبدِ مقاومة تذكر للاصلاحات الاجتماعية العميقة التي فرضها الجنرال. مثاله ان الاهل وافقوا على الاختلاط الجنسي في المدرسة، وبرنامج الدروس الذي يمتد ١٦ سنة وصولاً الى الجامعة (مع معدل نجاح بلغ نسبة ٩٠٪ في امتحان نهاية الدروس الثانوية). توقفت تحية العَلَم في المدارس، وقرر الاهالي توفير كل فرص النجاح لاولادهم. وسلّم الملاكون بوجوب التخلي عن الأراضي للفلاحين الذين يحرثونها، باعتبار ان نصف الاراضي قد تغير مستثمروها. وما ان اقرّت الحقوق النقابية حتى اخذت تشاهد مجموعات من المضربين في الشوارع. وكان ماك ارثر قد سعى لتدبير فوز نقابة اشتراكية (سودومي) في المؤسسات، بتأييد واسع من ارباب العمل، ضد النقابة الشيوعية.

اطمأن ماك ارثر الى رئيس الحكومة يوشيدا. ذلك ان هذا الرئيس كان يشغل منصب سفير في لندن ويتقن الانكليزية فضلاً عن كونه صهر الكونت ماكينو، رجل الاعمال المعروف في يوكوماها. لم يكن يفكر هذا الاب الهادئ، في خضم عاصفة التضخم النقدي وغمرة الاضرابات والتظاهرات العنيفة، الا في تسيير آلة الحكم والاقتصاد. واذا كان الارز والفحم يشكلان الانتاجين الاساسيين في اعادة اعمار البلاد، فان الاصلاح الزراعي من شأنه تحسين الوضع الغذائي والمعيشي. ولذلك ينبغي توفير الاسمدة اللازمة باعادة فتح المناجم وتحديث الانتاج. وهكذا تأسست مصانع الفولاذ والمواد الكيميائية. واسس يوشيدا مكتب تثبيت الاقتصاد بغية تنظيم النشاط الاقتصادي، ومصرف تمويل اعادة الاعمار الذي كان

يعتمد في رأسماله على المصرف المركزي الياباني، واعطيت الاولوية للتوظيف في الصناعة الثقيلة.

فيما خص البقية، كان ينبغي الانتظار والصمود، كي يرسل الاميركيون الحبوب. ويسلموا ما يتيح انشاء اسطول تجاري، ويساعدوا على السيطرة على التململ الاجتماعي.

لعب ماك ارثر دوره بكل جدارة، فأدان التظاهرة التي نظمها الحزب الشيوعي في ايار ١٩٤٦ امام القصر الامبراطوري، في غمرة هتافات تنادي : « اعطونا ارزّاً » وقال في حينه : « ان النزوع الى العنف الجماعي واللجوء الى اساليب التهديد الجسدي يشكلان تهديداً خطيراً لمستقبل اليابان ». كما ندد بشعارات المتظاهرين ومنشوراتهم المنقولة غالباً عن « احدى اللغات الاجنبية ». في الحقيقة، احتشد اكثر من ١٢٠٠ « جاسوس »، في المكاتب السوفياتية العائدة لمندوب مجلس الحلفاء ديريفنكو، لمتابعة نشاطات الحزب الشيوعي الياباني والنقابة الصديقة. في ٣١ كانون الثاني ١٩٤٦، منع ماك ارثر الاضراب العام الذي دعت اليه النقابات واصدر الجنرال ايكلبرغر الى جنوده الأمر بوجوب منع كل تحرك. على الرغم من الجوع والتضخم فان حركة الشارع اصيبت بالوهن واليأس.

لم يصمد يوشيدا في الحكم اذ خذله البرلمان الجديد. فحلّ الاشتراكي كاتاما محله، بعد بضعة اسابيع من اجراء الانتخابات في نيسان ١٩٤٧. حيث نال حزبه ثلث المقاعد ـــ لكنه لم يستطع الاقامة طويلاً في رئاسة الحكومة. فالتضخم عاد الى سابق عهده، انما التوظيفات في الصناعة الثقيلة استمرت وكذلك النشاط الاقتصادي. جرى التفاوض بشأن تثبيت سعر الين، على الرغم من الاعصار النقدي، بغية جعل التصدير ممكناً. عام ١٩٤٧، شملت الحرب الباردة كل اوروبا. وبدأ الجنرال ماك ارثر يفكر جدياً بوجوب اعطاء الاولوية « للمسيرة الديمقراطية » في

اليابان على خطة نهوضها. في السنة ذاتها، ساد هذا المنحى في التفكير لدى ماكلوي والجنرال كلاي في المانيا.

ثمة تحوّل اخذ يشق طريقه حين ابدت الاوساط الاقتصادية امتعاضها من حملة التطهير القائمة ضد « التروستات » والتدابير التي ينوي اتخاذها ماك ارثر بحقها. جاءت البادرة من رجال الاعمال الاميركيين الذين يريدون دخول سوق الرساميل اليابانية وتنظيم حركة الانعاش الاقتصادي بغية اعادة دفع التجارة الى الامام. والحق أن الجنرال كان بدأ منذ عام ١٩٤٧، بتزويد اليابان بكميات وفيرة من القمح والمواد الاولية. لا شك أنه شعر بتبدل مجرى الرياح لكونه وضع على الرف فجأة مشروعه القاضي بتدمير النظام الرأسمالي الياباني. وهو يعلم أن الاستثمارات الاميركية تمثل، مع الجنرال الكتريك وغودريش ووستينغهاوس واسوشيتد اويل، ٧٥٪ من الرأسمال الاجنبي في اليابان. ولهذه الشركات ٤٠٠ مليون دولار عليها تحصيلها وابلغته ذلك. ولم يتضح للجمهوريين والبنتاغون لماذا لم ينجح خبراء ماك ارثر في دفع عجلة الاقتصاد الى الامام، في الوقت الذي ينشط فيه الاخصائيون الروس في تحريك الشارع بواسطة الشيوعيين. ووقعت الصحافة وكذلك الكونغرس على وثيقة اعدتها البعثة الاميركية حول القضاء على « التروستات »، واطلقت حملة تحريضية ضد ماك ارثر وكيف انه يسعى لتعزيز النظام الموجّه الذي يناقض المبادئ الليبرالية. هنا ظهر السيناتور كنولاند على المسرح وراح يطالب باعادة المبادرة الحرة الى طوكيو. لم تفكر وزارة الخارجية في دعم ماك ارثر، في ذلك الجو السائد من الحرب الباردة، بل على العكس عمدت الى تعزيز الاتجاه السائد الداعي الى نهوض اليابان.

خطة نهوض اليابان

تشكلت بعثة من رجال الاعمال من بيرسي جونسون رئيس المصرف الكيميائي وتراست كومباني، ومن درابر نائب رئيس مصرف ديليون ريد وصديق آل روكفلر، وكانت مهمة هذه البعثة تمهيد الطريق، باعتبار ان لهذين الرجلين صلات وثيقة بالتروستات اليابانية السابقة. اوصت البعثة بوجوب فتح السوق أمام حركة الرساميل الاميركية من خلال اتخاذ اجراءات ضرائبية معينة، وتقديم القروض للمؤسسات والتخلي الفوري عن برنامج ضرب التروستات. جرت اعادة النظر باللائحة على الفور، فتبين ان ١٨ شركة من اصل ٣٢٥ تعرضت لحملة التطهير. اما النظام الرأسمالي الياباني الذي عانى، في كل حال، من خسارة ثروات عائلية كبيرة، فلم يفقد شيئاً، اذ اعادت الاستثمارات المؤسساتية شراء معظم الاسهم البالغ عددها ١٨٠ مليون والتي تبدلت ملكيتها منذ عام ١٩٤٦، ووضعتها بين ايدي المصارف التي لم تكن كلها جديدة (ميتسوبيتشي وسوميتومو بقيتا قائمتين).

تزامن هذا التحول المفاجئ مع انعطاف سياسي بارز : ايّد الديمقراطي ــ الليبرالي اشيداهيتوشي، فور استلامه الحكم، ماك ارثر الذي طلب الى وكالة الاستخبارات المركزية والنقابات الاميركية التابعة « لاتحاد العمل الاميركي » التدخل مالياً من اجل تشكيل حركة نقابية مناهضة للشيوعية في اليابان. حملت الانتخابات التي جرت في كانون الثاني ١٩٤٩، يوشيدا الى الحكم مجدداً، مع غالبية واسعة من الديمقراطيين ــ الليبراليين الذين سوف يؤمنون الاستقرار السياسي في المجلس لمدة طويلة. أما أرثر الذي ايّد السياسة الجديدة، فقد فرض على يوشيدا برنامجاً وضعه الاقتصاديون الاميركيون ويقضي بتثبيت الاجور والحد من التسليف وتخفيف الضرائب وتوازن الموازنة. حضر الى اليابان اخصائي في حقل محاربة التضخم، سبق له أن مارس مهماته في المانيا، ويدعى جوزف م. دودج وكان يشغل منصب رئيس مصرف ديترويت.

وعمل على ضرب كل الخطط التي وضعها اليانيون لتمويل الصناعة. والغى مصرف تمويل اعادة الاعمار معتبراً ان القروض التي يقدمها تؤدي الى التضخم حتى ولو كانت اساسية في عملية دفع عجلة الاقتصاد الى الامام. وفرض التشدد في صرف موازنة الدولة لعام ١٩٤٩، ملغياً كل المساعدات المالية. وحدد سعر صرف الين بالنسبة للدولار بـ ٣٦٠ مقابل واحد. فتحت الحدود أمام تدفق الرأسمال الاجنبي، وسمح لرجال أعمال الاميركيين بالذهاب الى طوكيو. تحسنت الأوضاع النقدية بسرعة، غير أن الافلاس والبطالة والاضرابات تزايدت. عبثاً أوفد يوشيدا وزير ماليته اكيداهاياتو الى واشنطن من اجل تليين تلك التدابير. لكن دودج بقي قاسياً لا يلين. انما وافقت واشنطن على اقراض اليابان مبلغ مليار دولار (مقابل ٤,٤ لالمانيا)، وعلى مضاعفة المساعدة الغذائية وزيادة كميات المواد الاولية. رأى دودج ان هذه الأموال ينبغي تخصيصها فقط لمساعدة النظام الرأسمالي الياباني على تمويل ذاته من دون اية مساعدة من الدولة. غير أن هذا الرهان لا يمكن تحقيقه الا في ظل الاستقرار السياسي والاجتماعي.

في هذا الوقت، بادر ماك ارثر الى تأدية الخدمة الأخيرة التالية : كانت سنة ١٩٤٩ ساخنة والهياج الشعبي عارماً. نجح الحزب الشيوعي في تحقيق اختراق سياسي في الانتخابات بفضل تأييد ٢٥٠٠٠٠ اسير حرب افرج عنهم الاتحاد السوفياتي بعد سنتين من التوجيه والارشاد، فضلاً عن ١٠٠٠٠٠ من مروجي الدعاية الجدد الذين عززوا العمل النضالي. جاءت ردات فعل الجنرال عنيفة : فرض على يوشيدا اصدار قانون يمنع « المنظمات المتطرفة »، وحلّ رابطة الكوريين التي تعتبر بمثابة بؤرة للمشاغبين، وكذلك المجلس الوطني للتنسيق بين النقابات حيث يسيطر الشيوعيون. وجرى تنظيم حملة واسعة في المؤسسات والادارات، لمراقبة كل مشبوه وطرده من عمله على الفور، وبذلك تم طرد الوف الموظفين وعمال سكك الحديد. وفقدت النقابات مليون عضو فيها، لأنهم اصبحوا

على الدوام عرضة لمضايقات السلطة والاعيبها. مع ذلك احصي عدد وافر من الاضرابات خلال ١٩٥٠، لا سيما في المناجم وسكك الحديد والموانئ، إنما جرى تشكيل مجلس عام للنقابات اليابانية، يتحلى بالليونة والطواعية للمبادئ الأميركية فتدنت بالتالي نزاعات العمل واصبحت اقل عنفاً.

بقي الحزب الشيوعي الذي تعرض رئيسه نوزاكا لاتهام موسكو له بانه يهمل المهمة الثورية. عند ذاك، شنت الصحافة الشيوعية في اليابان حملة ضد المحتل الاميركي. فاستغل ماك ارثر الفرصة لمطاردة الصحافيين والمناضلين واعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، بواسطة الحكومة. بقي الحزب مرخصاً له بالعمل، غير أن اعضاءه لا يستطيعون العيش. وضاعفت حرب كوريا من الاجراءات القمعية، وادّت الى ما اطلق عليه في طوكيو « التطهير الاحمر ». تمّ طرد ٦٠٠ صحافي، وصرف ١٠٠٠٠ آلاف مستخدم في المؤسسات الخاصة من عملهم للاشتباه بنشاطهم المعادي لاميركا. اوقفت صحيفة « اكاهاتا » الشيوعية عن الصدور، وكانت نشرت في صدر صفحتها الاولى صورة كيم — ايل — سونغ، وخبر انتصاره في الهجوم على كوريا الشمالية. عند ذاك انتقل القادة الشيوعيون الى العمل السري، مع ان الحزب لم يحظّر عليه العمل بصورة رسمية. على خط موازٍ، عادت المسائل المحظورة عام ١٩٤٥ لتظهر من جديد : اعيد النظر بلوائح التطهير، وجرى توظيف بعض المشبوهين السابقين. لكن من غير المعقول اعادة الاعتبار لشخصيات بارزة امثال (كيشي وهاتوياما وايشيبيشي الذين اصبحوا فيما بعد رؤساء حكومة)، انما استأنف عدد من الضباط في الجيش الامبراطوري الخدمة في الشرطة الوطنية المنشأة حديثاً والمؤلفة من ٧٥٠٠٠ رجل والمجهزة بالعتاد الثقيل كالمدفعية والدبابات. وكان دور هذه القوة ينحصر في مساندة الشرطة المحلية في حالات الاضراب واعمال الشغب والتظاهرات. غير أن الأميركيين طالبوا بأكثر من ذلك، وقرر مجلس الامن

القومي، وجوب تشكيل قوة شبه عسكرية قوامها ١٥٠٠٠٠ رجل قادرة، على حد ما اوضح ماك ارثر، على « ضمان ممارسة حق الدفاع عن النفس بصورة تلقائية ضد كل هجوم لا تحريض عليه ». والأمر يتعلق بافساح المجال لليابان للدفاع عن شواطئها ضد اي صيني او سوفياتي بانتظار وصول النجدة الاميركية. في حال الموافقة، تصبح اليابان الحليف المميز وبمثابة حاملة طائرات اميركية في المحيط الهادئ في الجهة الغربية، والشقيق التوأم لحاملة الطائرات البريطانية.

المعاهدة الاميركية ــ اليابانية في سان فرنسيسكو: ٨ أيلول ١٩٥١

بلسمت الاعجوبة اليابانية كل الجراح، وعادت الشمس تشرق من جديد على الامبراطورية الديمقراطية. هل يستطيع اليابانيون تحقيق السلام بعدما خسروا الحرب عام ١٩٤٥ ؟ في الواقع، تمتلك اليابان مركزاً جغرافياً مميزاً، اذ تشكل قاعدة لا غنى عنها للبحرية والطيران والقوات الأميركية المشاركة في حرب كوريا. وشكل نمو الطلب على المنتجات الصناعية بصورة سريعة ومكثفة حافزاً للمؤسسات اليابانية للتوسع والانتاج بعد الجمود الذي فرضه دودج عليها. فتم انشاء محطات الاتصال اللاسلكية، ومجمعات الترانزيت ومراكز التصليح. وبارتفاع عدد الجنود الاميركيين في الجزيرة، غصت بهم أماكن اللهو، وتدفقت الدولارات على المدن الكبيرة. من المؤكد ان اليابان لا تستطيع تقديم اعتدة حربية الى الجيش المحتل، غير أن هذا الأخير يحتاج الى البزات والبطانيات والحقائب والقبعات والشاحنات والمحركات واجهزة الراديو، وكافة الادوات الاستهلاكية التي يستخدمها في الحرب يومياً. وتمثل هذه الطلبات هبة عجائبية هبطت في جيوب الصناعيين وبلغت نحو مليار دولار. ونفذت البضائع المكدسة في المخازن، كما الثلج تحت الشمس، فنسي الناس دودج، وتضاعف انتاج الفولاذ ثلاث مرات، وارتفعت حرارة المصانع الكيميائية، واصاب الازدهار مختلف القطاعات حتى الزراعة

الغذائية والبناء. واعتباراً من ١٩٥١، تجاوز الانتاج. مستويات ما قبل الحرب، وما زال مستمراً في الارتفاع ...

زادت المبادلات بنسبة الثلث، والصادرات تضاعفت، واتاح الاحتياطي النقدي، بالعملة الصعبة استيراد السلع الضرورية للصناعة. وارتفعت الاجور الفعلية بنسبة الثلث في عام ١٩٥٠ وحده. لا شك أن الاسعار ارتفعت بسرعة، ولكن من يقلق للتضخم حين يستعيد الشعب كله الامل بمستقبل زاهر من جراء انتفاء البطالة، وتجهيز المؤسسات وتزويد الصناعة بمحركات جديدة ؟

لم يشهد ماك ارثر هذا الفصل الأخير الذي أعاد لليابان استقلالها. حتى أنه لم يدعَ الى احتفالات السلام. اصبح حاكم السنوات العجاف نسياً منسياً؛ وتعلقت انظار اليابانيين بشخص جون فوستر دالاس، وهو متزمت طويل القامة، يهوى الدبلوماسية، والتنقل بالطائرة من بلد الى آخر، على غرار نظيره كيسينجر فيما بعد. جاء دالاس الى العمل الدبلوماسي بلا استعداد، اذ كان يحتل منصب سيناتور جمهوري، ومقرباً من روكفلر، اضافة الى مهنته الاساسية كمحامٍ في نيويورك. سعى دالاس الى ادخال اليابان، بعد تحررها من مشاكلها، في تحالف « حر » مناهض للشيوعية. ولم يوفّر اي جهد لبلوغ هدفه.

يوشيدا، شخصية محببة تنتمي الى وسط رجال الاعمال وتولى التفاوض بشأن مساهمة اليابان في المجهود الحربي الدفاعي عن الغرب. والسؤال الحقيقي الذي يطرح نفسه في مسألة الحرب والتسلح هو التالي : هل توافق اليابان على عدم الالتزام بالمادة ٩ من دستورها الذي يحظّر عليها التسلح وحق اعلان الحرب ؟ هل توافق على معاهدة تفرض عليها وجود قواعد عسكرية على ارضها وعليها جنود اجانب بوسعهم استخدام الاسلحة النووية ؟ اطلق اليسار في الحرب الاشتراكي النقاش حول هذه المسألة، وشارك فيه النقابيون والبوذيون والجامعيون الذين

يتحسسون قضايا الذرة. عام ١٩٥٠، عقد بعض الأساتذة الجامعيين في طوكيو ندوة حول الحرب والسلم عرضت فيها وجهة نظر انصار السلام، وتضمنت صياغة برنامج ينطوي على رفض اليابان توقيع معاهدة عسكرية مع الولايات المتحدة، اذ كان اليابانيون يرفضون ان يكونوا طعماً للنار بعد الآن.

يتلاقى هذا الموقف مع صياح شعوب استراليا وبيرمانيا والفيليبين الذين يحتفظون بذكريات مريرة عن الحرب. ولم يكف اندريه غروميكو، نائب وزير الخارجية السوفياتية عن التنديد بالاستعمار الاميركي الذي يعامل اليابان كمستعمرة. وقد نقم على يوشيدا لمطالبته بساكالين وجزر كوريل، مكرراً القول بان على جميع الدول المتحاربة، بما فيها الاتحاد السوفياتي، ان تصنع السلام مع العدو المغلوب، بعد انقضاء خمس سنوات على نهاية المعارك. بات السلام، خط الدفاع الرئيسي عند اليابانيين : ادرك يوشيدا ان عليه المناورة مع الاميركيين للحصول على اقصى ما يستطيعه منهم. فكلما الحّ هؤلاء على مشاركة اليابان في الحرب، كلما كان عليها اظهار ترددها وعرض نقاط ضعفها، وتحفظات الرأي العام لديها. أما في الجوهر، فيبدو واضحاً ان التسلح قنبلة اقتصادية ينبغي التخلص منها، والقواعد الاميركية شرّ لا بد منه، وتشويه ظاهر لمعنى السيادة ينبغي القبول به اذا كان لا بد من كسب المعركة الحقيقية وهي معركة القوة الاقتصادية التي تقرر المستقبل. في نهاية المطاف، وافق يوشيدا على الحماية العسكرية الأميركية انما من دون المشاركة اليابانية في المجهود الدفاعي : ولا بد في هذه الحال من أن تكون بنود هذه المعاهدة غير متوازنة.

عرض دالاس على اليابان اتخاذ الترتيبات الملائمة التي تدعم سيادتها، كاعادة النظر في القوانين التي فرضها عليها ماك ارثر، ولا سيما المادة ٩ من الدستور الذي يحظر عليها اعلان الحرب. ورمى دالاس الى الحصول

على ملحق للمعاهدة تتضمن بنوداً سرية حول القضايا الامنية. وقد نصّ الملحق المذكور على كون الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي يمكنها استخدام قواعد في اليابان من دون استشارة هذا البلد حول اهداف سياستها الاسيوية؛ ويمكن لحاملات الطائرات المزودة بالاسلحة النووية الرسو في الموانئ من دون استشارة الحكومة اليابانية. ويحق للولايات المتحدة التدخل في اليابان اذا وقعت اضطرابات داخلية تهدد امن الولايات المتحدة، وهي لا تلتزم البتة بحماية أمن اليابان. دخلت هذه المعاهدة غير المتوازنة حيز التنفيذ في ٢٨ نيسان ١٩٥٣، وتضمنت بنداً وحيداً اثار الارتياح لدى الرأي العام الياباني اذ قضت باخلاء المدن من الجيش، فأحس الشعب ان الاحتلال قد انتهى بعد ست سنوات وثمانية اشهر. واشار استطلاع للرأي نشرته « منيتشي » غداة توقيع المعاهدة (في ٨ ايلول ١٩٥١، في دار الاوبرا في سان فرنسيسكو)، ان ٨٠٪ من اليابانيين يؤيدون المعاهدة مقابل ٢٩٪ فقط اعلنوا مناهضتهم لوجود القواعد الاميركية على ارضهم. بذلك كسب يوشيدا الرهان.

غابت الصين الشيوعية عن سان فرنسيسكو، واعترض الاتحاد السوفياتي على المعاهدة. ابقت الولايات المتحدة على اسطولها الحربي في اوكيناو، فيما اظهر الاسطول السوفياتي المزيد من اشارات التهديد في جزر كوريل. في سان فرنسيسكو اعلن ترومان : « لننسَ الحقد والكراهية، كيلا يكون بيننا، بعد الآن، لا غالب ولا مغلوب ». و توقف اليابانيون عند عبارة أنهم لن يعاملوا بعد الآن كمغلوبين. اما الاميركيون فقد حصلوا على القواعد الاستراتيجية اللازمة لاعداد العدّة لدحر الشيوعية، في منطقة المحيط الهادئ، بعد فشلهم في ذلك في اوروبا.

الفصل الرابع

النظرة الجديدة

شكّل العقد الخامس من القرن العشرين زمن الحداثة التي جاءت من اميركا وعمت الشاطئ الاوروبي في الأطلسي : فالازياء والسينما آخذتان في التغيّر، كالسياسة. طائرات « جت » قصّرت المسافات، والموجات القصيرة ساهمت في نشر محطات التلفزيون في الغرب. الكل يريد نسيان الحرب، وايديولوجية الرعب والكبت لم تطل سوى ارض الشرق الجليدية حيث راحت ترتسم، بعد موت ستالين عام ١٩٥٣، محاولات خجولة للتخلص منها.

تغيرت السياسة، ونظم الغرب انطلاق الحركة الليبرالية بفضل النجاح السريع الذي حققته عملية إعادة الاعمار: كانت لخطّة مارشال والاتحاد الاوروبي الذي بوشر به، ولعواقب الحرب الكورية آثارها البعيدة في ركود ازمة الاطلسي ودفع عملية التبادل الى اعلى مستوياتها. ادى الاثراء الى تراجع الشيوعية من خلال تبدّل الذهنيات. وليس « للعيش الافضل » من عدو سوى هموم العالم القديم السائر الى الزوال، وتردده وتقاليده القديمة، والرفض غير جائز.

نادى الفريق الجديد الذي تسلّم الحكم في الولايات المتحدة وعلى رأسه الجمهوريان ايزنهاور ودالاس، « بالنظرة الجديدة » : فالنموذج الذي مثّله ماك ارثر « الفاتح » لم يعد رائجاً. والصراع مع العالم الشيوعي

طويل الامد. والتفوق النووي غدا امراً جوهرياً اكثر من أي يوم مضى، شرط استخدامه لاغراض السلم وتفادي المغامرات المدمرة. وانطوت « سياسة المجازفة المدروسة » على التزام عسكري اميركي يقوم على فن التقدم نحو شفير الهاوية مع عدم الوقوع فيها. وشرح دالاس ذلك بقوله: « اذ كنت تخاف السير نحو شفير الهاوية، فأنت هالك لا محالة ». عام ١٩٥١، انتقلت المهاوي من اوروبا الى اسيا، وقرّر الاميركيون حشد كل قوتهم فيها.

من كوريا الى الهند الصينية

جرى تطبيق نظرية « المجازفة المدروسة » التي صاغها دالاس، في كوريا اولاً. رفض ترومان، بناء لتوصية البنتاغون، دفع الحرب مع الصين الى الامام، اذ لم يبقَ، بعد استقرار الجبهة، سوى اقامة السلام من دون الاعتراف بالعدو الرئيسي، الأمر الذي كان يكسبه النصر. ففي حرب الاستنزاف الايديولوجية، تغدو هيبة الامة ونفوذها قوة اساسية ولا تستطيع الولايات المتحدة فقد مكانتها اذا اعترفت بالصين الأخرى. غير أنها لا تستطيع المجازفة بحرب شاملة بزجّ الاولى في المرجل الكوري.

في النهاية، اعلنت الهدنة. واعلن ترومان في حينه ان خوض الحرب على نطاق واسع مع الصين الحمراء كان من شأنه ان « يخدم اهداف الكرملين ». بعد رحيل ماك ارثر، تقدم السوفيات بمبادرات سلمية الى الامم المتحدة. لا مجال لاشراك الحكومات في بحثها، فالعسكريون يناقشونها فيما بينهم. التقى ريدواي خصومه في ١٠ تموز ١٩٥١ في كوريا. وجرى البحث في خط التماس وتم الاتفاق على تعيين مراقبين محايدين، من السويسريين والسويديين، والبولونيين والتشيكيين، لأن السوفيات يرفضون مراقبين من الأمم المتحدة باعتبارها طرفاً في الحرب، وتعثرت المفاوضات حول مسألة الاسرى : فالأميركيون هم الأكثر عدداً.

واذا كانوا ينوون العودة الى كوريا الشمالية، فلن يفرج عنهم، على حد ما اصرّ عليه الشيوعيون. تأجلت المحادثات الى تشرين الأول ١٩٥٢. لدى سؤال الامم المتحدة، عرضت تسليم الأسرى الى دولة محايدة تتولى الاشراف على استفتائهم عن البلد الذي ينوون التوجه اليه. تمّ توقيع الاتفاق وفقاً لهذه الاسس في باغونجوم، في ٨ حزيران ١٩٥٣. غير أنه اعيد النظر بالمسألة كلها حين اطلقت كوريا الجنوبية سراح ٢٧٠٠٠ اسير لا يرغبون بالالتحاق بمعسكرهم. فاستؤنفت المعارك على اشدها، من دون نتيجة. عند ذاك جرى توقيع الهدنة في ٢٧ تموز ١٩٥٣. وتعهدت الولايات المتحدة لسيغمان ري الذي كان ينوي متابعة القتال حتى توحيد الكوريتين، تقديم مساعدة اقتصادية وتوقيع معاهدة دفاعية معه. وافقت الولايات المتحدة على الاجتماع بالعدو في جنيف، عام ١٩٥٤ شرط عدم طرح مسألة الاعتراف بالصين الشيوعية. وبالنظر لفشل المحادثات، سعت كوريا الجنوبية لتعزيز جيشها، بعد انسحاب ست فرق اميركية من اصل ثمان. أما الفرقتان الباقيتان، فجرى تعزيز قوتهما وتزويدهما بالاسلحة النووية. ووافقت الولايات المتحدة على اعتبار امنها الخاص عرضة للخطر من جراء اي هجوم تتعرض له كوريا الجنوبية. وهكذا اضطرت الى الابقاء على قوة قوامها ٥٠٠٠٠ رجل في هذه البلاد، والى تسليح وتدريب الوحدات الكورية الجنوبية، التي تشكلت بفضل الدعم المالي الاميركي ـــ اما الاتحاد السوفياتي الذي انتظر حلول عام ١٩٥٦ لتحديث الطيران الكوري الشمالي، فلم يكن مرتبطاً بمعاهدة عسكرية معينة. وكذلك بكين التي سحبت معظم وحداتها، لم تعقد تحالفاً محدداً مع كوريا الشمالية. وكان وجود جنودها على اراضيها الضامن الوحيد لاحترام كوريا الجنوبية لها. كان الاميركيون يحتلون، اذن، مكانة عالية مقابل عدو يتمتع بدعم حلفائه الذين يزدادون انقساماً فيما بينهم. هل ستتفق موسكو وبكين في المستقبل على ابقاء نظام الجنرال نام ايل خارج دائرة الخطر، في الوقت الذي انتقد فيه زوأنلي

السوفيات في جنيف بأنهم لم يدعموا بقوة مطلب الصين الاساسي المتعلق بالاعتراف الدولي بها ؟

فرض الصراع الناشب بين الصينيين على الولايات المتحدة ان تتورط اكثر فأكثر الى جانب شيانغ كاي شيك، ويرى ترومان ان المسائل الثلاثة في كوريا والهند الصينية وتايوان مترابطة فيما بينها، ويحق لهذه الدول الافادة من دعم الولايات المتحدة لكونها تشكل طليعة حرّاس العالم الحرّ على الشاطئ الغربي من المحيط، وتشارك، بهذه الصفة في نظام الدفاع الأميركي الجديد.

الوضع في الهند الصينية كان الأكثر مأساوية : اعتبرت الولايات المتحدة، منذ عام ١٩٤٥ ان الحرب التي يخوضها الفرنسيون، بمثابة حرب استعمارية كلاسيكية ورفضوا مدّ يد العون لهم. بالرغم من الطلبات المتكررة لحكومات الجمهورية الرابعة. بعد محاولة فرنسا على غرار ما فعلت هولندا في اندونيسيا، حلّ الحركة الوطنية الهندوصينية، من خلال انتهاج سياسة توحّد الدول المحيطة بفيتنام بغية عزلها، قامت باستدعاء امبراطور انّام المخلوع باو ـــ داي، من منفاه في الصين، تمهيداً لاتباع سياسة استقلالية مخادعة. اقرت تلك السياسة عام ١٩٤٧، واسفرت عن اتفاق « خليج الونج » الذي يعترف « باستقلال » دولة تبقى جزءاً لا يتجزأ من الاتحاد الفرنسي. دفع تقدم القوات الشيوعية في الصين بالفرنسيين الى استعجال الخطوات باتجاه الحكم الذاتي؛ واجازت اتفاقيات الاليزيه عام ١٩٤٩ لفيتنام بتوقيع عقود دولية حول المسائل التي تعنيها بعد موافقة فرنسا. ولم تتضمن تلك الاتفاقيات اي بحث في مسألة السيادة. واصبح باو ـــ داي رئيس دولة تضم الفيتنام الصينية ويتمتع بالصلاحيات التي تزوده بها فرنسا، في حين كانت هولندا تمنح الاستقلال الكامل لمستعمراتها السابقة في اندونيسيا، وتتحول لاوس وكمبوديا الجارتين الى دولتين تتمتعان بالحكم الذاتي، من دون السيادة.

ادّى اعتراف الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية بجمهورية فيتنام الديمقراطية، في كانون الثاني ١٩٥٠ الى تغيير مفاجئ في اللعبة، اذا كان الاتحاد السوفياتي والصين يدعمان النظام الشيوعي، هل يمكن للولايات ان تبقى مكتوفة اليدين ؟ قبل ستة اشهر من بدء القتال في كوريا، ندد وزير الخارجية دين اتشيسون « بالمخرب » هوشي منه، ووصفه « بالعدو اللدود لاستقلال شعوب الهند الصينية ». وفي شباط، اعترفت الولايات المتحدة وبريطانيا بالدول المستقلة الثلاث، واقامت معها علاقات دبلوماسية. ولقد انسحبت سياسة « التراجع الى الوراء » على الهند الصينية، وغدت حرب الفرنسيين « الاستعمارية » كفاحاً من أجل الحرية.

« نظرية الدومينو » في الهند الصينية : ١٩٥٠ ــ ١٩٥٤

انطوى التزام ترومان على اجراء رقابة سياسية ومالية وعسكرية على المساعدة المقدمة الى فرنسا، وضاعف من الضغط الذي مارسه على هذا البلد منذ بداية خطة مارشال. كان الاميركيون يريدون التأكد من ان الفرنسيين يخوضون الحرب وفي الوقت عينه يعملون على اقامة المؤسسات السياسية التي تكفل المسيرة الديمقراطية في فيتنام. وبدا واضحاً ان المساعدات التي يتلقاها شيوعيو الشمال من الصين، تحوّل الحرب الفرنسية الى حرب دولية، وتطرح على بساط البحث مسألة السلام في المحيط الهادئ. ومن المؤكد ان الرأي العام الأميركي لن يقبل ارسال الجنود (البويز) الى فيتنام للمشاركة في القتال الى جانب المستعمرين، لكن الكونغرس سيبقى ساهراً على مراقبة الاموال والعتاد المرسل الى الجيش الفرنسي.

من غير الوارد تصوّر اجراء مفاوضات مع جمهورية الشمال التي ترتبط جغرافياً بالصين وتحصل منها على مساعدة عسكرية ومؤازرة تقنية وايديولوجية : قامت في المناطق « المحررة » في تونكين، حملات

مستوحاة مباشرة من التجربة الصينية حول الاصلاح الزراعي او « الاضداد الثلاثة ». واجرت بعثة عسكرية في بكين تقديراً لحاجات رجال المقاومة الذين يتلقون اسلحة صينية وروسية وتشيكية اعتباراً من ١٩٥٠. تحولت منطقة كوانسي قاعدة عسكرية للجنرال جياب الذي كان يحضّر فيها لوجيستية المعارك ضد الجيش الفرنسي. في الوقت الذي كان فيه مجلس الأمن القومي في واشنطن يضع « نظرية الدومينو » التي تتنبأ بسقوط الانظمة غير الشيوعية تباعاً في جنوبي شرقي آسيا، تحت ضربات الصين، كانت الجمهورية الشعبية في بكين تبدو وكأنها توفّر الحجة لأكثر المتشائمين من اصحاب تلك النظرية، من جراء تزويدها الفيتناميين بالف طن من الأسلحة والذخيرة، شهرياً. في فرنسا، حيث يمتنع عمال الموانئ عن تفريغ السفن الأميركية من العتاد الحربي الموجّه لتموين تلك « الحرب القذرة » كانت الضغوط تمارس باستمرار على واشنطن للحصول على الطائرات (من طراز القاذفات) وعلى قنابل النابالم، من أجل حماية هانوي. وكانت فرنسا تتوقع الحصول على المساعدات المالية لمتابعة القتال، بعد ان انفقت اكثر من الف مليار فرنك في حربها في الهند الصينية. وهي تدعي ان شريكها الجديد في الشرق الأقصى يتولى تغطية نفقات تلك الحرب، ادراكاً منها ما للحجة المناهضة للشيوعية من فعالية بعد الآن. ويتابع الأميركيون : اقر الكونغرس، عام ١٩٥١ مبلغ ٥٠٠ مليون دولار لجنوبي شرقي آسيا، وخصص الجزء الأكبر منه للهند الصينية عام ١٩٥٠، كانت فرنسا تتلقى ١٠٠٠٠ طن من الاعتدة، وسوف تتلقى في السنة المقبلة اكثر من سبعة اضعاف تلك الكمية، وما يقارب عشرة اضعاف في العام ١٩٥٢.

ازدادت الولايات المتحدة قناعة بالخطر المحدق في تونكين. عام ١٩٥٠، اسفر هجوم جياب على تايلاندا عن نصر بارز؛ وفي نيسان، سيطرت قواته على شمالي غربي تونكين، وفي حزيران، على الطريق رقم ٤، واصبح في الخريف سيد نصف البلاد. سارع الفرنسيون الى تعيين

دي لاتر دي تاسيني على رأس جيشهم في الهند الصينية. أما الاميركيون، فكانوا يدرسون لوجيستية اجلاء سريع للجيش الفرنسي في حال وقوع الكارثة. وكانوا قد انشأوا في سايغون مكاتب « وكالة الولايات المتحدة للمعلومات » « والمجموعة العسكرية للاسعاف العسكري »، حيث تجمع فيها مئات الخبراء لتقويم الجهود والنواقص لدى الفرنسيين. منذ زيارة البرلمانيين الاميركيين من أجل تحضير برنامج الرئيس حول وجوه المساعدة الممكنة، اقتنع الكونغرس بان فرنسا التي نشرت المسيحية والحضارة في الهند الصينية، ينبغي مساعدتها، وان بامكان الامبراطور باو ــ داي توحيد البلاد ضد الشيوعيين. وساد الاعتقاد في اوساط مجلس الشيوخ بأن على الاميركيين الحلول محل الفرنسيين اذا فقد هؤلاء مقوّمات الصمود. عام ١٩٥٢، كان مجلس الامن القومي ينوي انزال مجموعة كوماندوس في الصين الجنوبية، عن طريق تايوان بغية مهاجمة الخطوط الصينية ــ الفيتنامية، في الوقت الذي تتولى فيه البحرية محاصرة الشواطئ الصينية. كانت واشنطن اذاً قد قررت القيام بعمل ما وتغلبت على ترددها. واستعدت وزارة الخارجية للدفاع عن ملف الهند الصينية امام الرأي العام.

في الوقت عينه، ضغط جون فوستر دالاس بكل ثقله لفرض سياسة مستقلة تماماً. واوصت لجنة « مالبي » بانشاء جيش فيتنامي ــ جنوبي لسد النقص الحاصل لدى القوات الفرنسية التي ملّت الحرب. ايّد بليفن، رئيس الحكومة في حينه، المشروع وطلب منحه مبلغ ٤٧٠ مليون دولار لتحقيقه. غير أن وكالة الاستخبارات المركزية حذرت البنتاغون من مغبة ذلك بالقول : من غير المحتمل أن يستطيع الفرنسيون الصمود اكثر من ١٨ شهراً. ويمكن للتدخل الاميركي المباشر وحده أن ينقذهم، الامر الذي من شأنه هدر الاموال التي اقرها الكونغرس في قضية خاسرة. كذلك نبّه جورج كينان وزارة الخارجية : « لا الفرنسيين ولا الاميركيين، ولا كلاهما معاً يستطيعون تحقيق النصر ».

مع ذلك، اصرّت الدبلوماسية الاميركية على المضي قدماً في مشروعها. وضاعف هيت، السفير في هانوي، ونظيره بروس، في باريس من تقاريرهم المطمئنة. وطلب دين اتشيسون من باو ــ داي ان يعلن انشاء الجيش الفيتنامي. ووصل به الأمر الى اقتراح تغيير قائد الجيش، الجنرال كاربانتيه، الذي اعتبر مسؤولاً عن مساوئ الجبهة الصينية. اذا كان الاميركيون يدفعون، فإنهم يريدون تولي القيادة.

ادّى تعيين جان دي لاتر دي تاسيني الى تأخير الاستحقاقات الداهمة. ودهش الرأي العام من جراء استعادة الامساك السريع بزمام الوضع العسكري، وانشاء الجيش الفيتنامي، وموقف الجنرال امام الصحافة الاميركية. وصفّق للقائد الجديد وتذكّر ليوتي ودراتانيان في تونكين. وحققت زيارته لواشنطن في ايلول ١٩٥١ نجاحاً كبيراً. على التلفزيون، عرف كيف يجد الكلمات التي تؤثر في الرأي العام الأميركي، مشدداً على أنه لا يخوض حرباً استعمارية، بل يقاتل، مثل ريدواي في كوريا، لمنع الشيوعيين من اسقاط تايلاند وماليزيا والهند نفسها. وقال : « انا رجلكم، كما ديدواي هو رجلكم. وعليكم أن تعطوني ما احتاج اليه من دون ان احتاج الى طلبه منكم ». وحصل على سلاح وفير. لكنه مات في عز مجده، في كانون الثاني ١٩٥٢ بعد بضعة اشهر من وفاة ولده الملازم في الجيش الفرنسي في الهند الصينية.

احسّ جان بروس بتبدل المناخ في باريس : بيار منديس فرانس وجان مونيه اللذان يدافعان عن وجوب فك الاشتباك اصبحا مسموعي الكلمة اكثر فأكثر. هل ستتخلى فرنسا عن الهند الصينية ؟ في الوقت الذي تتكثف فيه المساعدة العسكرية الأميركية، كان القادة الفرنسيون ينسحبون الى مواقع دفاعية، خلافاً لخطة دي لاتر ولمتطلبات المعركة. طالبت واشنطن بمزيد من التنسيق والايجابية. اما الجنرال سالان، القائد الجديد، فكان يؤخذ عليه تشاؤمه الشديد وسلبيته. مرة اخرى، فرض الاميركيون

تغييراً في القيادة، وعيّن نافار وكانت مهمته تحقيق النصر خلال سنتين، بمساعدة جيش فيتنامي قوامه ١٣٥٠٠٠ رجل، وتنظيف الجنوب وضرب خطوط الاتصال مع الصين في الشمال. كما اشترط الاميركيون ان يتخلى الفرنسيون عن تنظيمهم العسكري القائم على كتائب مقاتلة، وتشكيل قوة ضاربة مؤلفة من بضعة وحدات كبيرة. لكن هل يمكن الاعتماد على الجيش الفيتنامي ؟ وقد نبّه سالان الى ذلك بالقول : ما كان صالحاً في كوريا، لن يكون كذلك بالضرورة، في فيتنام.

كان الفرنسيون يعلمون ان المساعدة الصينية، وحتى السوفياتية هي في ازدياد مطرّد، وغدا الجنرال جياب يمتلك بطارية مضادة للطائرات ومدافع ميدان. وحقق هجومه الاول في لاوس، عام ١٩٥٣ نجاحاً تاماً. وفقد سالان الكثير من الضحايا عندما سعى الى حماية العاصمة، لوانج برابانج، خصوصاً اولئك الابطال البالغ عددهم ٢٤٠٠ رجل والذين دافعوا عن سام ــ نوا. اسفرت خطة نافار التي ايّدها الاميركيون وموّلوا تنفيذها، الى قيام وضع في غاية الخطر والهشاشة، وانتهى الى كارثة ديان ــ بيان ــ فو.

ديان ــ بيان ــ فو وجنيف

تدفق السلاح والذخيرة على الفيتناميين بمعدل ٦٠٠٠ طن شهرياً : وكان نافار يردد عام ١٩٥٤ : « انها حرب مختلفة »، فيما جياب يشن الهجوم تلو الآخر في دلتا ملكونج، في لاوس. ومنعاً لسيطرة الفيتناميين على هذه المقاطعة، سعى نافار الى حشد قواته في منخفض ديان ــ بيان ــ فو، بناء لرغبة شديدة ابدتها الادارة الاميركية. والمفارقة في هذه المرحلة الأخيرة من الحرب الهندوصينية، هي ان الاميركيين رفضوا تقديم اية مساعدة « للمستعمرين »، حين توسلّها هؤلاء، وكانوا في السابق يوزّعون المساعدات بلا حساب على الجيوش والحكومات التي كانت

تنفقها من اجل اعادة التوازن الى ميزان مدفوعاتها، واكتفى الاميركيون بالتمني على الفرنسيين متابعة المعركة وهم يدركون سلفاً انها خاسرة.

عبّر سالان عن هذا التشاؤم بصورة جلية بالقول : كان الجيش النظامي يضم عناصر في غاية التباين والتنافر (قوات من شمالي افريقيا، وافريقيا السوداء، متطوعون المان في الغالب من الفرقة الاجنبية، مقاتلون سابقون في عهد منيشي)، كي يستطيعوا مواجهة المعركة في اطار وحدات عسكرية كبيرة، وفي بلاد لا تتلاءم طبيعتها مع المناورات العنسكرية بشكل مقبول، وفي وسط شعب انتشرت في صفوفه اعداد كبيرة من المستشارين السياسيين الفيتناميين. « فالحرب الثورية » انتشرت بقوة بتأثير من المستشارين الصينيين. كان الفرنسيون يقاومون ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً، ضمن وحدات صغيرة، ولا يعتمدون على القوات الفيتنامية الجنوبية الا قليلاً لعدم الاطمئنان الى قدراتها القتالية من جراء عدم حصولها على التدريب الكافي. ولم يكن باستطاعة الفرنسيين مواجهة التفاف قوات جياب حولهم لكثافة عددها وسلاحها الثقيل. كان عددهم ضئيلاً كي يستطيعوا الصمود، خصوصاً في ذلك المنخفض البعيد في ديان ــ بيان ــ فو.

ولما كان نافار قد تلقى المبالغ الطائلة من الأميركيين مقابل وعده بالانتقال الى الحرب الهجومية، فكان لزاماً عليه أن ينفذ خطته التي حققت نجاحاً باهراً في البداية، حين بدا ان الفرنسيين قطعوا خطوط الاتصال بين فيتنام ولاوس بفضل انزال مظلي كثيف وناجح. غير أن الانباء سرت، إعتباراً من كانون الثاني ١٩٥٤، ان ديان ــ بيان ــ فو باتت مطوّقة.

مفارقة جديدة : خصصت وزارة الخارجية الاميركية اعتمادات مهمة وحثت الحكومة الفرنسية المترددة على مهاجمة الهند الصينية وعندما بات واضحاً ان ثلاث فرق فيتنامية اضحت جاهزة للهجوم وان المدفعية

الصينية تقصف المواقع المحصنة، مدمّرة القاعدة الجوية، عند ذاك، اوصى القادة العسكريون الاميركيون بوجوب مساعدة حليفهم الذي اتبع تعليماتهم ونفذ مقترحاتهم ولأن مغامرة ديان ـــ بيان ـــ فو كانت من صنعهم. بعد سبعة ايام على بدء الهجوم طلب رئيس الأركان الفرنسي ايلي في ٢١ آذار، من واشنطن تدخل الطائرات ب ٢٩ الجاثمة في الفيليبين. وافق الاميرال رادفورد على العملية، لكن فوستر دالاس رفضها : لا يستطيع الاميركيون الدخول في تلك الحرب اذا لم يكونوا واثقين من كسبها وتولّوا عملياتها بأنفسهم. واشترط مجلس الامن القومي اجتماع القوات الحليفة قبل التدخل. وحين اقترح الجنرال كوتلر استخدام ثلاث قنابل ذرية تكتيكية لفك الحصار، ردّ ماك ارثر الذي اصبح مستشاراً لوزارة الخارجية بأن مثل هذا العمل يثير الرأي العام في العالم كله ضد الولايات المتحدة. هذا الرجل الذي تحدّى ترومان للحصول على موافقته على قصف ماندشوري، يرفض اليوم نجدة الفرنسيين تحت علم اميركا ...

والمفارقة الأخيرة، ان الاميركيين الذين انضموا الى رأي البريطانيين القائل بأن الهزيمة الفرنسية في الهند الصينية لا تعني البتة انتصار الشيوعية في جنوبي شرقي آسيا، والذين وافقوا ايضاً على اجراء محادثات مع الصين الحمراء، في جينيف، لا يمكنهم تحمّل فكرة انسحاب الفرنسيين من فيتنام، اذ اكّد « دالاس أن فرنسا هي بصدد خلق فراغ في كل مكان هي فيه؛ واذا لم نكن يقظين، فيمكننا ان نخسر اوروبا وآسيا وافريقيا، دفعة واحدة ». بعد سقوط ديان ـــ بيان ـــ فو، وقف دالاس في ١٣ ايار ١٩٥٤، كمبشر متزمت، مقطب الوجه، يخطب على ضريح احد الحلفاء، ليعلن في مجلس الامن القومي : « نتوقع انهيار فرنسا بشكل اخطر من انهيارها عام ١٩٤٠. من المحتمل ان تقوم في فرنسا حكومة مستعدة للتعاون مع السوفيات، كما فعلت حكومة عام ١٩٤٠ مع الالمان ». ولتذهب فرنسا الى الجحيم.

اذا كان الاميركيون قد رفضوا التدخل في المرحلة الحاسمة من الحرب، فهل سيكون لهم تأثير في فرض السلام؟ لقد وافقوا على الاجتماع بوفد فيتنامي في جينيف، في ١٢ ايار. التقت تسع دول (الدول العظمى الأربعة والصين الشعبية، ودول الهند الصينية الثلاث وجمهورية فيتنام الديمقراطية)، للبحث في ارساء سلام يعتبره العالم كله مؤقتاً : فالفيتناميون في الشمال والجنوب يريدون توحيد بلادهم، والبريطانيون لا يهتمون الا بحماية ماليزيا وسنغافورة الواقعتين تحت سيطرتهم. ولكن من دون اغضاب الصين الحمراء التي تتغاضى عن وجودهم في هونغ كونغ. وكان الاميركيون الاكثر تشكيكاً وقطعوا المفاوضات في مؤتمر كوريا المنعقد في ١٥ حزيران اذ كانوا لا ينوون التقيد بتسوية لمشكلة الهند الصينية، ثم يعمدون فيما بعد الى نقضها.

امتدت المباحثات طويلاً من دون ان تتدخل الولايات المتحدة لاستعجال تسوية المشكلة، وعد زوأنلي، الذي كان يرغب في تحاشي وقف المفاوضات، بالتوسط، كي تنسحب فيتنام من كمبوديا واللاوس، الأمر الذي طمأن البريطانيين، واتاح لرئيس الحكومة الفرنسية الجديد بيار منديس فرانس، الانضمام الى مفاوضات جينيف، كي يحدد تاريخ ٢٠ تموز، موعداً لبدء المفاوضات. في عشرة ايام، تمت تسوية كل شيء : قسمت فيتنام الى شطرين، على جانبي الخط ١٧. وتعهدت كوريا الشمالية باجلاء جيشها عن اللاوس، واعترفت فيتنام باستقلال لاوس وكمبوديا. وقد جرت انتخابات حرة بالاقتراع السري عام ١٩٥٦، في كلا الشطرين تحت اشراف لجنة دولية. وقد تعهد كل شطر عدم انشاء قواعد جديدة او ادخال قوات اضافية او سلاح الى الجانب المعادي. وعلى اطلاق الاسرى دون قيد او شرط. والنشاز الوحيد صدر عن المندوب الاميركي بيدل سميث الذي صرح بان بلاده تحتفظ بحق استعمال القوة لتعديل الاتفاقات، لكنها « تعتبر اي استئناف للاعمال العدوانية خلافاً للاتفاقات المعقودة، امراً خطيراً للغاية، ومن شأنه تهديد

السلام والأمن الدوليين ». كانت واشنطن تراعي ظروف المستقبل.

احتواء الصين في جنوبي شرقي آسيا

انفجرت ازمة تايوان، في اعقاب التسوية التي تم الاتفاق عليها في جنيف. حيث ابقت الولايات المتحدة على مستشاريها في فيتنام الجنوبية، وجاءت حصتها هزيلة في تلك التسوية. اعتباراً من حزيران ١٩٥٠، كان الاسطول السابع يجوب مضيق فورموز، محبطاً كل اعتداء. غير أن القوات الصينية اخذت تحتشد في « جبهة فوكيان » بانتظار الفرصة للانقضاض على الجزيرة الكبرى، بعد ان سيطرت على جزيرتي كيموي وتاشين الاستراتيجيتين، حيث كانت المدافع الثقيلة فيها تعيق حركة الملاحة بين مرافئ اموي وفوشو وشانغاي. اقام الاميركيون مثلثاً دفاعياً بين سيول وطوكيو وتايبه (عاصمة تايوان) من شأنه تكريس حال الفصل بين شطري الصين لمدة طويلة، الامر الذي لا يستسيغه الشعور الوطني في الصين الشعبية. وفي الوقت الذي لم يكن السلام قد استتب بعد في كوريا، وقعت في تايوان احداث تسبب بها صينيو بكين، حين اسقطت الطائرات الصينية، في ٢٣ تموز، طائرة تجارية بريطانية تحمل على متنها ستة اميركيين، فوق عرض البحر. بعد يومين، اسقط سلاح الجو البحري الاميركي طائرتين عسكريتين صينيتين. وكان سيغمان ري يقوم بجولة في الولايات المتحدة طغت عليها الخطابات العدوانية. في تايبه، كانت قوات شيانغ ــ كاي ــ شيك تستعد للهجوم مجدداً على المنطقة. هل كان الاميركيون قادرين، على توسيع حرب كوريا لتشمل منطقة تايوان، والتدخل في الوقت ذاته ضد الصين الشيوعية ؟

في نهاية آب ١٩٥٤، بدأت العمليات الحربية تشتد حول كيموي حيث راحت المدفعية البعيدة المدى الرابضة على الشاطئ تقصفها بشكل مركّز. وانقسم الرأي في قيادة الاركان الأميركية، بين مؤيد لعملية انزال

بحري للقضاء على مرابض المدفعية الصينية وتشتيت الجيش في جبهة فوكيان، وبين ما دعا اليه كل من الجنرال ريدواي وبيريل سميث للاخذ برأي الرئيس وجون فوستر دالاس بوجوب اقتصار العمليات على الدفاع عن تايوان.

طلبت بكين انعقاد مجلس الامن التابع لمنظمة الامم المتحدة، فعارضت الولايات المتحدة ذلك. فنشطت عند ذاك في الصين الشعبية حملة دعائية ضد اميركا مع محاكمة علنية وادانة ١١ طياراً اميركياً بالسجن لمدة ١١ سنة، بتهمة القيام بغارات ارهابية اثناء حرب كوريا. في غضون ذلك، استحسنت الحكومة الأميركية توقيع معاهدة دفاع مشترك لضمان تايوان وجزر بيسكادور، ما عدا الجزر الواقعة على الشاطئ الصيني، ضد اي اعتداء، ونبّهت تايبه الى عدم تقديمها المساعدة اذا حاولت الصين الوطنية القيام بانزال بحري في الصين البرية. وعندما استولى الجيش الاحمر في كانون الثاني ١٩٥٥ على جزيرة يكيانغ، ضغط الاميركيون على شيانغ كاي شيك للانسحاب من تاشين التي رأى البنتاغون انه يتعذر الدفاع عنها. وهكذا جرى اجلاء ١٠٠٠٠ جندي عنها تحت حماية الاسطول السابع. ووافق مجلس الشيوخ على إعطاء الرئيس الأميركي الصلاحيات اللازمة لارسال قوات دفاعية الى تايوان، واطلق على هذه الصلاحيات « قرار فورموز » واقرّه الكونغرس بغالبية واسعة، شكلت مؤشراً على اهتياج الرأي العام الاميركي. واسهب لوبي الصحافة الصينية في تضخيمه.

بعد الهزيمة الفرنسية في الهند الصينية والاخطار المحدقة بتايوان، شاءت الولايات المتحدة توفير الأمن الشامل لجنوبي شرقي آسيا وكذلك الى المنطقة الشرقية الشمالية، بعقد اتفاقيات مع كافة الدول المناوئة للشيوعية. غير ان ازالة الاستعمار عن الجنوب، منذ استقلال الفيليبين عام ١٩٤٦، لم تنجز بعد، ولم تكن الدول البيضاء تشاطر الدول الجديدة

الرأي في خياراتها السياسية. ولم تتحمس واشنطن لتحرّك الرئيس كيرنيو الذي خلف روكساس في رئاسة دولة الفيليبين ــ بشأن سعيه لاقامة « اتحاد المحيط الهادئ » مع تايوان وسواها من الدول. كان من الصعب اقناع بيرمانيا ــ التي استقلت حديثا، عام ١٩٤٧، واصبحت عضواً في منظمة الامم المتحدة، واعترفت بالصين الشيوعية .. بالابتعاد عن بكين مقابل حصولها على مساعدة اقتصادية قدرها ١٩ مليون دولار. اما في ماليزيا، فان ما تتعرض له الدولة من تخريب واضطرابات على ايدي الشيوعيين، وهي ما تزال تحت سيطرة التاج البريطاني، يردعها عن اتخاذ موقف شديد العدائية من بكين. وفي سينغافورة، كانت القاعدة الانكليزية الكبرى ملأى بالصينيين. واستلزم اجلاء الاستعمار عن الهند الصينية وساطة بريطانية ثم اميركية. وكان الاميركيون قد تأثروا ايجاباً، عام ١٩٤٨، بقمع فتنة شيوعية، ضد رئيسي اندونيسيا هاتّا وسوكارنو. والتقوا مع الانكليز حول معارضة الهند والجامعة العربية لعملية القمع التي يقودها النيرلنديون ضد القوى المنادية بالاستقلال بدعم من الجماهير الاسلامية. وكانت واشنطن قد انضمت الى الامم المتحدة في ممارسة الضغط لمنح اندونيسيا استقلالها. لكن العصيان الشيوعي لم يتوقف على الرغم من نيلها الاستقلال. وكيف يمكن بالتالي عقد معاهدات مع حلفاء على هذا القدر من الهشاشة ؟ اما الدول البيضاء في تلك المنطقة (اوستراليا ونيوزيلندا)، فكانت تتهم الولايات المتحدة باعادة بناء القوة اليابانية وتسليح العدو السابق. وهكذا اضطرت الولايات المتحدة لعقد ثلاث معاهدات دفاعية منفصلة، في المحيط الهادئ، مع اليابان والفيليبين واوستراليا ونيوزيلندا. غير أن هذا النظام الدفاعي بدا غير فعّال ازاء تنامي الخطر الصيني.

بعد سقوط ديان ــ بيان ــ فو ودعم بكين لفيتنام، اعتبرت الولايات المتحدة عقد معاهدة مع دول جنوبي شرقي آسيا تماثل حلف شمالي الاطلسي امراً حيوياً. وكان عليها التفاهم مع بريطانيا التي تسيطر على

قاعدة سينغافورة، وتتولى مهمات استراتيجية مهمة، لا سيما عمليات المقاومة التي أخذ الجنرال تمبلر يشنها ضد رجال العصابات الشيوعية في ماليزيا، وهي عمليات استوجبت حشد نحو ١٠٠٠٠٠ جندي بريطاني. وكان على البريطانيين العمل، من خلال وجودهم العسكري، على تطوير البلاد باتجاه الاستقلال الذي تحقق عام ١٩٥٧ من خلال خيار سياسي لصالح الماليزيين (يشلكون ٤٣٪ من السكان مقابل ٤٤٪ من الصينين و ١٠٪ من الهنود). وارتبطت البلاد بمعاهدات امنية مع حكومة لندن التي عقدت ايضاً اتفاقاً آخر مع دول المنطقة (اوستراليا، نيوزيلاندا، وماليزيا). وبقي « سلاح البحرية الملكية » متمركزاً في سينغافورة شمالي بورنيو.

غير أن الطابة الاميركية اطاحت بكل هذه اللعبة : كان دالاس يبدي اهتماماً بشؤون الدفاع عن منطقة جنوبي شرقي آسيا. وعقد مع تايلاند التي تشكل حاجزاً امنياً لجهة الغرب اتفاقاً امنياً ذا طابع خاص. فجرى ارسال قوة تايلاندية الى كوريا، وتولت الولايات المتحدة تجهيز الجيش، اذ اعتبرت ان هذا البلد يشكل سدّاً منيعاً ضد الشيوعية على غرار الفيليبين. وتدفقت المساعدات الاقتصادية على دول حلف كولومبا الذي انشئ بمبادرة بريطانية وضمّ الدول القريبة من الميحط الهادئ — وهي الدول التي كانت تشكل في الماضي مستعمرات بريطانية او مرتبطة بالتاج، وهي كندا والهند والباكستان وسيلان ونيوزيلاند وما عتمت خطة التنمية الاقتصادية التي تولى الاميركيون تمويلها (عام ١٩٥١)، ان تحوّلت الى حركة مكافحة الشيوعية وانتشارها. وثمة دول لم تكن على عداء شديد مع الشيوعية مثل برمانيا واندونيسيا انضمت الى الحلف وكذلك اصدقاء الولايات المتحدة كالفيليبين وتايلاندا واليابان، فيما انضمت اليه ماليزيا وسينغافورة لاحقاً. وكان لا بدّ لهذه القاعدة من العمل الاقتصادي الاقليمي والنفوذ الذي مارسته دبلوماسية الدولار من ان يسهّل عقد هذا الحلف الدفاعي.

كان لا بدّ للفرنسيين ايضاً من الانسحاب من فيتنام، تاركين الساحة للاميركيين وحدهم الّذين فاوضوا الرئيس الجنوبي نفودين ديام حول تقديم مساعدة اقتصادية وعسكرية مهمة. لم تعد المسألة تتعلق باجراء انتخابات عامة، بل باقامة نظام دفاعي يتولى كبار العسكريين الاميركيين الاشراف على كافة شؤونه. في حال نشوب ازمة، ينبغي على البلدان الاقليمية الحليفة تقديم التعزيزات الفورية للقوات الاميركية. هذا ما رمت اليه منظمة معاهدة جنوبي شرقي آسيا التي تختلف جذرياً عن حلف شمالي الاطلسي. ذلك أن مجموعة المستشارين العسكريين التي ترتبط بمجلس الوزراء في الدول الاعضاء (الذي يجتمع مرة واحدة في السنة على الاقل)، لم تكن تمارس اية سلطة قيادية، ولم يتم انشاء اية قوة عسكرية دائمة في تلك البلدان. ولم تنضم دول الهند الصينية ولا الصين الوطنية الى مثل هذه المنظمة التي لا تتدخل دولها الثمانية الا في حال وقوع اعتداء على احداها. وقد وافقت كل من نيوزيلاندا واوستراليا وبريطانيا وفرنسا على الاشتراك فيها الى جانب الولايات المتحدة مع ثلاث دول اقليمية هي الفيليبين وتايلاندا والباكستان.

في الواقع، تكمن فائدة هذا الحلف الدفاعي في أنه يضمن دول الهند الصينية الثلاثة الحرة ضد اي اعتداء من الشمال، وهي فيتنام الجنوبية وكمبوديا واللاوس. وقد تعهدت كل دولة عضو فيه باعتبار أي هجوم محتمل على احداها تهديداً لامنها الخاص. وبذلك يكون دالاس قد نجح في اقامة هذا الحلف، وفي اقامة سد منيع في وجه الصين. هل يمكنه الوثوق بالجبار الهندي ؟

الهند وجارها الخطر

رفضت الهند بشكل قاطع المشاركة في حلف يفرض عليها التزامات عسكرية ضد الشيوعية الى جانب الولايات المتحدة. وكان حزب

« المؤتمر » مسيطراً على النظام القائم فيها. وحين جرت اول انتخابات عامة فيها، امتدت ستة اشهر، من تشرين الأول ١٩٥١، لغاية آذار ١٩٥٢، وتولّى مليون موظف مهمة تسجيل عمليات الاقتراع لـ ١٧٣ مليون ناخب اعطوا غالبية اصواتهم لنهرو، الذي وضع اسس جمهورية علمانية تتمتع فيها الاديان بذات الحقوق، وحدّد الاهداف التي يعمل لها حزب المؤتمر الوطني الهندي بأنها ترمي الى « رفاهية وتقدم شعب الهند ». وهذا يعني أنه يعطي الاولوية للشأنين الاجتماعي والاقتصادي في بلاده وينظر بقلق الى كل محاولة سياسية ترمي الى جرّ الهند الى مغامرة خارجية. اطّلع نهرو على المبادئ الماركسية وعركها، ولم يتملكه اي شعور مناوئ للثورة الشيوعية القائمة في الصين، على الرغم مما جاء في الدستور من ان « حق التملك والحيازة والتصرف بالملكية » هو، الى جانب حرية التعبير من الحقوق الأساسية للمواطن. لعل نهرو كان يميل الى اعتماد تجربة التخطيط الاشتراكي، لكنه لم يكن شيوعياً.

شملت الانتخابات في الهند ٥٧٠٠٠٠ قرية وكافة الطبقات، وشاركت فيها المرأة وسمح لابناء المهراجا ترشيح انفسهم. وكان شغل الحكومة الشاغل يتركز على تحقيق الاصلاح الزراعي وتشجيع زيادة الانتاجية الزراعية بكل الوسائل، الامر الذي استوجب بذل جهود كبيرة في مجال توفير التربية والمعونة الفنية للسكان البالغ عددهم ٣٠٠ مليون نسمة. وجرى استثمار كافة الثروات الطبيعية، كمناجم الفحم والحديد، والنفط والغاز (تغطي الثروات المحلية نسبة ٨٥٪ من حاجات الاستهلاك). وتم تأميم المصارف بغية تأمين التسليف اللازم للانماء من دون اللجوء الى المساعدات الخارجية. طمحت الهند الى النسخ على المنوال الاشتراكي من خلال تكديس ما يكفي من الرساميل بفضل فائض القيمة الزراعي والصناعي (لا سيما صناعة النسيج) بغية تطوير المبادلات بصورة ايجابية والحدّ من الاستهلاك. لم يستبعد نهرو القروض التي يمنحها صندوق النقد الدولي وسائر المنظمات الدولية الاخرى، لكنه كان يأبى

اللجوء الى المعاهدات الثنائية بين دولة واخرى والتي من شأنها تهديد استقلال بلاده، الأمر الذي يعني أنه كان يقاوم النفوذ الأميركي. وكان الاستاذ ماهالانوبيس الذي صاغ فكرة التخطيط، قد اطلق اول خطة خمسية (١٩٥١ ــ ١٩٥٦) ذات منحى اشتراكي، وتضمنت تطوير البنى التحتية والطاقة والري. وسوف يبرز المنحى الإشتراكي بصورة اوضح في الخطة التالية التي بوشر بها، عام ١٩٥٦. وتوسعت الى التوفيق بين التنمية على الطراز السوفياتي والنسيج الاجتماعي الهندي القائم في المؤسسات الحرفية والريفية والعائلية. ولم تهمل الهند انتاج السلع الاستهلاكية شرط ان تكون معدّة للتصدير. وكان هذا الجهد التنموي الكبير يفترض حشدَ كلْ الموارد في سبيل اهداف غير عسكرية. وجرى تسريح الجيش الهندي البالغ عديده ٢,٥ جندي تحت السلاح، عام ١٩٤٥ وخفضت الاموال المخصصة للتسلح. غير أن توقيع المعاهدة الدفاعية بين باكستان والولايات المتحدة عام ١٩٥٤، دفع الحكومة الهندية لتعزيز جيشها الذي تدنى عديده الى ٢٥٠,٠٠٠ رجل فقط. كما اضطرت الى تحديث الجيش والبحرية وشراء الاسلحة وتجنيد التلامذة. واستمرت الهند حتى العام ١٩٥٥ دولة منزوعة السلاح وعكس موقعها الدولي رغبتها في انتهاج الحياد والسلم. استهوت شخصية نهرو زعماء الدول النامية بحيث استطاع فرض مفهومه للاستقلال الوطني على الدول الصغيرة المجاورة.

اما الجار الصيني، فلم يرمِ سلاحه وبقي الجيش الأحمر على الحدود الهندية. غير أن الهند لم تكن معزولة، خلافاً للنظام الشيوعي في بكين، واستمرت علاقاتها التجارية والمالية قائمة مع لندن وتستقبل السفن التي ترفع العلم الاميركي. بالمقابل، كانت الموانئ الصينية تخضع لرقابة شديدة، والبلاد تنغلق على نفسها وترفع ستاراً كثيفاً يمنع الافكار والسلع والرساميل من الدخول. وتعرّض الاجانب للطرد او الاعتقال. وعاشت الصين حمّى الحصار التي اصابت روسيا في العشرينات، وراحت تشبّه

قوات شيانغ ــ كاي ــ شيك المتمركزة في تايوان بالقوات الاميركية المقيمة في كوريا واليابان. اتاحت تجربة الحرب في كوريا الفرصة لبكين كي تسرّع في الداخل، من خلال الحملات المتتالية، تأميم الأراضي واعادة النظر في مسألة الدفاع الوطني التي لا تتلاءم مع الحروب الخارجية. ذلك ان « حرب التحرير الشعبية » كانت تعطي الانسان الاولوية على العتاد، والهوى السياسي، على الموهبة العسكرية. وكان الجنرالات يشيرون بان على الصين التي تمتلك اراضٍ شاسعة، ان تخطط « لحرب طويلة » وان تحوّل « الحرب الدفاعية »، كما فعل الفيتناميون في ديان ــ بيان ــ فو الى « هجوم معاكس حاسم »، وينبغي حشد القوى السياسية قبل بدء العمليات العسكرية. و « النصر الحاسم » وحده يدلّ بوضوح على الجيش المنتصر. وهكذا يمكننا الحديث عن النصر في فيتنام وليس في كوريا حيث ابقى العدو قواته في وضع دفاعي.

كان الكلام يدور في الاوساط العسكرية والسياسية في بكين حول فشل الحرب في كوريا؛ ذلك ان الجيش الأحمر كان قائماً حتى ذلك الحين، على اساس كونه قوة سياسية من شأنها فرض الشيوعية داخل البلاد بالاتكال على السكان الذين قدم لهم يد المساعدة في أعمالهم. في كوريا، لم يشكل « المتطوعون » جيش تحرير وطني. وكان من الصعب ايضاً نشر ايديولوجية لتحرير الشعب باعتبار ان قوات الامم المتحدة المواجهة تنادي بمبادئ مؤتمر سان فرنسيسكو وحقوق الانسان. ولم يكن باستطاعة الصينيين، الافادة من اقتصار نشر الايديولوجية بهم وحدهم كما كانت الحال مع الفيتناميين مقابل الفرنسيين. وسرعان ما اكتشف « المتطوعون » ان « الحرب الشعبية » غير ممكنة في كوريا، وان شدة النيران تتناقض مع تعاليم ماو. وتبين ان عملية الحشد الكثيف للجنود التي من شأنها ابادة وحدات العدو، الواحدة تلو الأخرى، والتي طبقها ماو بنجاح في الحرب الأهلية، غير ذي فاعلية. في بداية الهجوم، حوصرت اول فرقة « للمارينز » من قبل مجموعة عسكرية يقودها الجنرال الاحمر

سونغ سيلون. وتمكن المارينز من اختراق الحصار خلال اثني عشر يوماً، على الرغم من تدني عددهم بفضل استخدام الطائرات لقذائف النابالم. لمعالجة هذا النقص التكنولوجي، لجأ الصينيون الى خطة الموجات البشرية » وتكبدوا خسائر فادحة بلغت ٢٠٠٠٠٠ رجل في الهجومين اللذين شنوهما في ربيع عام ١٩٥١، من دون التوصل الى اختراق الخطوط الاميركية. زد على ذلك، ان وسائل الاتصال القديمة المتوافرة لدى الجيش اضطرتهم لاتباع نهج صارم في تنفيذ العمليات العسكرية (لا وجود لاجهزة الراديو لدى الضباط دون رتبة قائد الفوج، وتستعمل الصفارات والصنوج والابواق والاشارات البصرية). ويستوجب نقل المعلومات والاوامر من قيادة الاركان الى الخطوط الامامية فترة يومين. وبدت هذه النواقص في التجهيز واللوجيستية مأساوية؛ ثمة فرقتان، على سبيل المثال، فقدتا ٨٠٪ من عديدهما من جراء وباء الحمى الصفراء أو جروح لم تعالج. ولا يتناول الجنود الطعام الساخن ويصابون بالبرد. وقد شوهد بعض المتطوعين مرتدياً ثلاث بزات قطنية لاتقاء البرد في الشتاء، فضلاً عن الاقدام المجمدة من جراء انتعال احذية من القماش فوق الثلج. بالمقابل كان الاميركيون مزودين بتجهيزات كاملة، ويهاجمون جنوداً يعانون من البرد والتشقق بنسبة ٩٠٪ منهم. فكيف يمكن للصينيين ان يهددوا الهند ويواجهوا الخطر الآتي من الصين الوطنية ومن الولايات المتحدة، من دون اعادة نظر عميقة في نظامهم العسكري ؟

ستالين يصاب بفقر من جراء تسليح الصين وتجهيزها

عززت حرب كوريا من قناعة المسؤولين في بكين من أن الوقوف في وجه « الجيوش البيضاء » التابعة لأميركا وحلفائها، وتطوير قوتها الصناعية من خلال حرق المراحل، غير ممكنان من دون مساعدة مهمة من موسكو. بدءاً من عام ١٩٥٢، برزت هذه المساعدة في القطاعات التجهيزية الثقيلة، ذلك ان ماو كان يسعى لمتابعة جهوده الثورية من خلال

تعزيز العلاقات مع موسكو، وليس بالانفتاح على الغرب (بواسطة بريطانيا العظمى المتواجدة في هونغ كونغ وهي اول دولة عظمى تعترف بالنظام الصيني الجديد). وهكذا سقطت الصين في « الجليد »، جارفة معها فيتنام الشمالية.

وفّر الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية تجهيز الجيش والصناعة بنسبة ٨٠٪ من قيمة المبادلات الدولية. وشكّلت الآلات والاسلحة نسبة ٧٠٪ من الاستيراد، في حين صدّرت الصين الحاصلات الزراعية والمواد الاولية المنجمية. وكان مشترى مصانع الاسمدة اساسياً ولا يقل اهمية عن حيازة المضخات لانشاء اوسع مساحة مروية في العالم في الاراضي القاحلة في الجانب الشمالي ــ الشرقي من البلاد، وفي حقول القمح والارز والقطن في الشمال والوسط (تم استصلاح أو حيازة ٥٠ مليون هكتار بحسب هذه التقنيات مقابل ٣٣ مليون هكتار في الهند فقط). وجرى حفر ملايين الآبار بمساعدة السوفيات. وتم تجهيز مزارع الدولة والاستثمارات الجماعية بمرائب ضخمة للجرارات الزراعية. وانجز السوفيات اولى السدود الكبيرة المعدة للري وتوليد الكهرباء معاً. كما جهزوا سكك الحديد، فأقاموا ١٠ ملايين عارضة، عام ١٩٤٩، واعادوا بناء ٢١٠٠٠ جسر في سنتين. وكان الحمالون يرصفون، كل يوم ١٢ كلم من الخطوط الحديدية، باشراف ورقابة التقنيين السوفيات. عام ١٩٥١، افتتح الخط الاستراتيجي نانينجمونجو الذي يربط فيتنام الشمالية بشبكة الصين الجنوبية، عام ١٩٥٥، ادى انشاء سكة الحديد بين المناطق الثلاثة (بكين ــ كالغان ــ اولان ــ باتور ــ ايركوسك) الى تقصير المسافة بين موسكو وبكين بنحو ١٠٠٠ كلم. عام ١٩٥٧، جرت اعادة انشاء الخط الفرنسي في يونان. عام ١٩٤٩، تم وصل الخط الذي يعبر البلاد من الشرق الى الغرب، بمدينة كسيان وجرى تمديده حتى كسينجيانغ. كما عبر القطار سيشوان التي لم تشهد اي سكة حديدية فيها قبل ١٩٥٠، وذلك باتجاه كانتون وشونكينغ. كذلك قدم السوفيات

العون في سبيل شق الطرقات الكبيرة نحو التيبت في يونان وفوجيان، وهي الطرقات الاستراتيجية التي عبرتها شاحنات الجيش الخارجة من اولى المعامل المنشأة بحسب الخرائط الهندسية السوفياتية (حيث كان يتوقع انتاج ۲۰۰۰ شاحنة سنوياً بحسب الخطة الخمسية الأولى). وتم افتتاح مصنع « العلم الاحمر » لبناء السيارات السوفياتية في شانغون، واطلقت عليه تسمية « التحرير ». كما كان النفط المستخرج في يونان وكارامي ولانغو، سوفياتياً، ويتم تكريره في لانزو، ونقله بالانابيب السوفياتية. اما الطائرات العاملة على خطوط موسكو وبوخارست وطهران وكاراتشي ورانغون وبيونجيانغ فكانت من طراز انطونوف وايليوشين.

استلهم التخطيط الصيني للصناعة النموذج السوفياتي بدقة متناهية. فتبنّى ماو مخططاً ستالينياً لانشاء ست مناطق اقتصادية كبرى كانت تقوم عليها مجمعات لصناعة الحديد بنيت بمعدات ثقيلة مستوردة من الاتحاد السوفياتي. وثمة مئات من المشاريع العائدة للصناعات الميكانيكية، اطلقها الخبراء السوفيات، مثل الآلات الثقيلة في تايوين، او الماكنات ــ الآلة في هاربين. وجرى تجهيز ۲۰ مصنعاً بالمعدات السوفياتية والالمانية التي يمكنها انتاج العتاد الحربي. واتاحت مصانع الادوات الكهربائية في هاربين ثم في كسيان، تعويض النقص القائم لدى الصين في حقل تجهيزات الاشارة والراديو. وبذلك تكون موسكو قد قبلت، عبر المساعدة الصناعية، رهانين مزدوجين : انطلاقة الصين وتحديث جيشها، بغية الرد على التهديد الاميركي. وكان نجاح هذه المساعدات بالنسبة لموسكو مسألة هيبة ونفوذ، باعتبار ان النموذج الصيني سوف يكون مثار حسد بين كافة الدول الآسيوية، بدءاً من الهند.

اعتبر ستالين ان المساعدة الممنوحة للصين لها حق الأولوية، حتى على حساب حاجات بلاده. وقد ادت مقتضيات الحرب الباردة اضافة الى خيار الصناعة الثقيلة والتجهيز، لتزيد من حدة النقص في الصناعات

الاستهلاكية. وهكذا ساهمت المساعدات الخارجية السوفياتية في تأخير تطور المجتمع السوفياتي. وتأميناً للانسجام بين دول الكتلة الاشتراكية، ربط ديكتاتور الكرملين اقتصاديات دول المنظومة الاوروبية العاجزة عن النهوض وحدها. بالدبابة الروسية : اعتباراً من عام ١٩٤٩، راحت بلغاريا ورومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا تتمحور حول الجبار السوفياتي ضمن اطار منظمة « الكوميكون » (مجلس التعاون الاقتصادي المشترك)؛ ثم انضمت اليها جمهورية المانيا الديمقراطية ـــ فيما قبلت عضوية كل من الصين وفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية ومونغوليا بصفة مراقب. وكانت تلك المنظمة قد انشئت للتصدي لخطة مارشال وتوطيد علاقات الدول الاعضاء مع الاتحاد السوفياتي. وينص نظام الكونيكون على تبعية الدول الشرقية تجاه الاتحاد السوفياتي فيما خص شراء منتجات الطاقة والمعادن مقابل بيع موسكو حاصلات زراعية او منتجات صناعية. وهذا يعني حث الدول الاشتراكية على التصنيع وفقاً للنموذج السوفياتي. و « الكتلة » كانت متراصّة تماماً، وفقاً لنظام واحد يمتد من برلين حتى بكين.

لم تؤدِ وفاة ستالين عام ١٩٥٣، الى اعادة النظر بهذا النظام، بأي شكل من الأشكال : كان الديكتاتور قد طوّر البرنامج الذري الذي انتهى الى تفجير اول قنبلة عام ١٩٤٩، فضلاً عن برنامج التسلح الذي افضى عامي ١٩٥٠ ـــ ١٩٥١ الى انتاج الاسلحة الحديثة، كالدبابة ت ٥٤، وطائرات الميغ ١٥ النفاثة، وايليوشين ٢٨. وانصبت التوظيفات في الحقل الصناعي حيث بلغت ذروتها عام ١٩٥٠، لا سيما في الصناعات الميكانيكية والالكترونية، القادرة وحدها على المحافظة على الجهد العسكري في مستوى رفيع، وبقيت النفقات العسكرية من الناتج الوطني الخام مرتفعة اذ تراوحت بين ٣٣ و ٣٤٪. على الرغم من ازدياد النقص في السلع الغذائية بعد الغاء نظام التقنين، عام ١٩٤٨، والتوقف المفاجئ بين عامي ١٩٥١ ـــ ١٩٥٢، للانطلاقة الصناعية، حسم النقاش حول

السلطة التي ستخلف ستالين، بعد عام ١٩٥٣ لصالح خروتشوف ضد مالينكوف. وقد ابدى الأول، وهو اوكراني الاصل، قلقه لتدني المردود الزراعي، ورغب في اعطاء الاولوية لتوفير التجهيزات اللازمة لانماء الارياف، من دون اعادة النظر بالموقع المتفوق الذي بلغته الصناعات الثقيلة، والتي سبق للقوى الضاغطة فيها ان ساندته للوصول الى السلطة، في حين استعاد مالينكوف من ناحيته موقعه في جانب المعتدلين الذين سعوا الى اعادة ضبط توزيع الاعتمادات وابداء مزيد من الاهتمام بالسلع التجهيزية. وكان يمثّل تلك « الطبقات المتوسطة » الناشئة عن حركة التصنيع ومن النزوح باتجاه المدن، ومن ملاكات الحزب الجديدة في عواصم الجمهوريات التي ما زالت تتذكر البرنامج الاصلاحي لفوزنيسنسكي الذي امر ستالين باغتياله.

خروتشوف وعهده الاستعماري

هل سيقيض للعهد الستاليني الجليدي البقاء بعد وفاة صاحبه ؟ ساد الامل في الغرب في ان يطلق خروتشوف « نظرة سوفياتية جديدة » تتيح للعالم ولا سيما في اوروبا، القضاء على التيارات الهوائية الباردة. فهل يأتي الربيع من الشرق ؟

كان خيار خروتشوف لصالح انتاج السلع الاستهلاكية يتطلب، في الواقع، انتاج الاسمدة والآلات والجرارات، ومتابعة توليد الكهرباء، وكلها تصب في خانة الصناعة الثقيلة. لا شك أن تحالف القطاعين الرئيسيين كان ممكناً، سيما وان التوظيفات الزراعية المخصصة للنهوض بالانتاج بقيت متواضعة. ذلك ان استصلاح الاراضي البكر في سيبيريا الجنوبية كان ينطوي على انتقال السكان اليها وتوفير المعدات الثقيلة. غير أن النتائج الحسنة كانت فورية، اذ شكّلت محاصيلها عام ١٩٥٦، نصف الموسم. كما ادى ارتفاع الاسعار الى تحسين اوضاع الفلاحين، بحيث

لم يعد ضرورياً البتة العودة الى التأميم. وعمد خروتشوف الى تصفية محطات الآليات والجرارات الثقيلة وبيعها الى الكولخوزات. ودعا الى تشكيل تجمعات زراعية اوسع واكثر عقلانية. ويمكن القول ان قاعدة حكمه قد ارتكزت على مبدأ التحالف بين قطاعي الزراعة والصناعة الثقيلة مع مراعاة مبدأ التأميم.

ادى التطور في القطاع الغذائي والصناعات الخفيفة الى تحسن المداخيل الزراعية وارتفاع مستوى معيشة الإسرة، وترافق ذلك مع انتهاج سياسة وصنفت بالشعبية ازاء العمال. فاحيا خروتشوف النقابات من جديد، والغى « القوانين الجائرة » التي وضعها ستالين بشأن معاقبة الاخطاء المرتكبة في المعامل، وحارب التفاوت بين الاجور. ودعا الى تحميل المواطن مسؤوليته، وليس الى تعزيز ديكتاتورية الحزب. بهذا كان خطابه جديداً.

كان البرنامج قليل الكلفة، اذ انطوى على اعطاء الاولوية للامركزية والعلاقات الافقية بين المؤسسات (مع الغاء وزارات الفروع) من دون احداث انقلاب في البنيات القائمة، اضافة الى بعض الاصلاحات الخجولة غير الفعالة، حرصاً على عدم المس بجهاز الحزب. يتحدر خروتشوف من اسرة متواضعة، اذ كان والده عاملاً في منجم، وترعرع في حوض السفن في دونتز قبل انتسابه الى الحزب الشيوعي، عام ١٩١٨، خلال الحرب الأهلية. ارسله الحزب الى مدرسة الراشدين ثم الى معهد التدريب. كان من انصار ستالين الاوفياء، ولفت اليه نظر غاغانوفيتش امين عام اللجنة المركزية في اوكرانيا. انتسب الى المعهد الستاليني للصناعة في موسكو، وعيّن الامين الثاني للجنة الاقليمية في موسكو. وعمل شخصياً على تحقيق قطار المترو الذي يعتبر انجازاً كبيراً للمدينة والنظام. اصبح عملياً عمدة موسكو بعد تعيينه الامين الأول في المدينة. انتخب عضواً في اللجنة المركزية عام ١٩٣٤، ودخل بعد اربع سنوات المكتب السياسي،

مترقياً درجات السلم وصولاً الى السدة العليا. في كييف حيث كان يمارس وظيفة امين السر الأول، تولى، عام ١٩٤٩، مهمة تصفية المعارضة الانفصالية في المقاطعات المحتلة من بولونيا ونجح في نقل المصانع نحو الشرق ابان الاجتياح الالماني، عام ١٩٤١. رقي الى رتبة فريق في الجيش الأحمر وحارب في ستالينغراد. عام ١٩٤٤، ارسله ستالين الى اوكرانيا للاشراف على اعادة الاعمار، ولا سيما لقيادة « الحركة التصحيحية » السياسية، في مسارها المطلوب. لم يكن توصّل تماماً الى تأميم الزراعة الأوكرانية حتى استدعاه ستالين الى موسكو ليعيّنه امين سر اللجنة المركزية. كان، عام ١٩٥٤، في الستين من عمره، ومقرباً من سيد الكرملين مالينكوف. وبعد اقالة بيريا، جهد للتصدي لمالينكوف الوريث المزعوم لستالين. كان مديناً له في حياته السياسية وفي تربيته ونجاحه.

ما ان اعتلى سدة الحكم حتى ابتعد عنه. كان اسلوبه بسيطاً لا بل غوغائياً، ولا يتردد في الخروج في شوارع موسكو، ويزور سائر مناطق الاتحاد، متجولاً برفقة الصحفيين في حقول القمح والذرة. كان يقابل ذكرى سلفه الطاغية، بصورة الحاكم الصريح المتعاطف مع الناس وصاحب المشية الرشيقة. كانت « النظرة الجديدة » للرئيس السوفياتي تدفع بالاوساط السياسية في لندن ونيويورك للاعتقاد بأن شوارع موسكو لن تشهد جليد الحرب الباردة بعد اليوم. فهل سيتخلى الاتحاد السوفياتي عن عزلته العدائية لينفتح على العالم الحرّ، كما كانت رحلات الزعيم السوفياتي الجديد المتكررة الى الخارج توحي به ؟

في الواقع لم يتخلَّ خروتشوف عن شيء من ذلك وراح يردد بأن اليوم الذي تلحق بلاده بالولايات المتحدة في الدور الذي تلعبه كدولة عظمى في العالم، ليس ببعيد. وساد الاعتقاد بأنه يتحدث عن مستوى المعيشة، فيما كان لا يحلم الا بالقوة. يشهد على ذلك ما دار من مناقشات حول

التسلح : اعتبر مالينكوف ان القوة العسكرية السوفياتية تحول دون اي هجوم وتبعد شبح الحرب، فيما زيادة التسلح غير ضرورية. هل كان خروتشوف من هذا الرأي وهو الذي كان يقتطع بعضاً من الاعتمادات المخصصة للتسلح وينوي تسريح قسم من الجيش الأحمر ؟. لقد اوعز بانتاج طراز جديد من الدبابات وبدراسة برنامج للصواريخ وخصص الأموال الطائلة لتعزيز إنتاج الأسلحة الذرية. لم يكن يحلم بزيادة عدد الوحدات الموزعة وحسب، بل بتحول الجيش نحو استعمال الاسلحة المتطورة القادرة على تهديد العدو الاميركي الذي يتفوق عليه في مجال التقنية الحديثة. وينبغي كسب الرهان. وانطلق السباق نحو انتاج الاسلحة الجديدة، وارتبط به اكثر من اي وقت مضى نفوذ الدول وقدرتها على تشكيل التحالفات حولها. كان خروتشوف يحلم في تأليف شبكة واسعة من التحالفات حول بلاده، تتجاوز حلقة الدول الاشتراكية وحدها وتتيح له بالتراضي أو بالقوة انتزاع المكانة الأولى التي تحتلها الولايات المتحدة.

واذا كان ستالين قد عزل بلاده خلف الستار الحديدي فان خروتشوف راح يدعو لانطلاقة جديدة تكون امينة للفكر اللينيني، وترتكز على الشعور بتفوق النظام والبلاد. عندما جرى تعريفه الى البارون ادمون دي روتشيلد، على أنه « الرجل الاكثر ثراء في اوروبا »، ردّ بعجرفة ظاهرة : « الرجل الاكثر ثراء في اوروبا لا يوازي شيئاً ازاء المواطن الاكثر فقراً في الاتحاد السوفياتي ».

عام ١٩٥٣: أيزنهاور ودالاس يرغبان في إعادة تسليح أوروبا.

فجأة تغيرت صورة النظام الشيوعي في العالم، كما لو كان على هذا النظام ان « يتعايش » مع الرأسمالية ويضع حداً للحرب الباردة، ولعلّ تصفية بيريا، بعد الحقبة القاسية من الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود من

جراء « مؤامرة اصحاب البذلات البيضاء »، قد اتاحت اعادة النظر في تلك المحاكمة المشينة، الأمر الذي ترك انطباعاً جيداً في الاوساط الصحفية. غير أن الصحافيين لم يعرفوا ان العفو العام الذي أعلنه خروتشوف طال على وجه الخصوص صغار المراهقين، لدرجة أن المعتقلين في معسكرات فوركوتا وجكاركا وكينفور ثاروا على هذه العملية التي لم تشملهم. وبدت عملية الحاق جهاز ك.ج.ب. بوزارة العدل ومنحه الاستقلال الذاتي امتيازاً خالصاً « لنظام القانون » الذي يفاخر خروتشوف باقامته في الاتحاد السوفياتي. هل كان خبراء واشنطن على خطأ ؟ هل كان عليهم التفاؤل ببشائر هذا الربيع المسكوبي الذي يعيد فجأة الى بساط البحث سياسة التسلح التي بذلت جهود شاقة في وضعها قيد التنفيذ في اوروبا الغربية ؟

والادارة الأميركية تغيرت بدورها ايضاً : فاز الجمهوريون بالرئاسة ومجلسي الشيوخ والنواب معاً. فهل يبشر وصول ايزنهاور الى سدة الرئاسة، عام ١٩٥٢، بقيام عهد جديد ؟ كان رئيس جامعة كولومبيا قد قاوم طويلاً مسألة ترشيحه للرئاسة عن الحزب الديمقراطي، مردداً على اسماع سائليه انه « ليس جمهورياً ولا ديمقراطياً »، لدرجة ان ترومان فكّر به كخليفة محتمل له. ولم ينضم الرئيس السابق الى مؤيدي ترشيح ستيفنسون ـــ وهو مثقف لامع نجح في مهنته في الامم المتحدة ـــ الا بعد التحاق الجنرال ايزنهاور بصفوف الحزب الجمهوري. كان ايزنهاور الذي حقق النصر في عملية اوفير لورد، ذا ابتسامة اميركية خالصة ويتحدر من الارياف (ولد في ابيلان، وهي مدينة صغيرة في تكساس)، ويمارس الشعائر الدينية ويتحلى بميل الى العمل المتقن، ورثه عن اجداده الالمان الذين استوطنوا الولايات المتحدة في منتصف القرن الثامن عشر، معتدل ودبلوماسي بارع، منظم محترف، ويكره المثقفين الديمقراطيين (يسميهم « رأس البيضة »)، ويتخذ معاونيه من اوساط رجال الاعمال : دالاس، محام شريك في احد اشهر مكاتب المحاماة في نيويورك مع سوليفان

وكروموبل؛ وشارلز ويلسون، وزير الدفاع كان المدير العام السابق لشركة جنرال موتورز؛ وجورج همغري وزير المالية، كان الرئيس السابق لشركة كبرى. هل كان ايزنهاور الذي يهوى « السير في وسط الطريق »، يشاطر فوستر دالاس نظرته حول وجوب « السير على حافة الهاوية » ؟

على الرغم من « النظرة الجديدة » التي كانت للجمهوريين، لوحظ ان الحرب الباردة شهدت ايام عزّ اخرى حين عيّن الجنرال ايزنهاور ريتشارد نيكسون نائباً له. عقب صدور هذا التعيين، سارعت صحيفة « نيويورك بوست » الى اتهامه بقبض اموال « انتخابية » من « نادي المتمولين الكاليفورنيين ». بعد نصف ساعة دافع نيكسون عن نفسه، على شاشة التلفزيون (الذي شهد انتشاراً واسعاً في تلك الآونة في اميركا)، بصحبة زوجته بات، التي قال عنها أنها لا ترتدي « الفيزون »، بل معطفاً من « الصوف الجمهوري الجيد ». ويبدو ان الهدية التي تلقاها كانت عبارة عن كلب صغير. انهال سيل من البرقيات لتهنئة ذاك الذي تعهد عبر التلفزيون « بمطاردة المحتالين والشيوعيين ». فاستقبله ايزنهاور بالعبارة التالية : ديك، انك الرجل الذي اصطفيه ».

كان الاميركي العادي، الخائف من الغزو الشيوعي للعالم، يجد صورته في نيكسون. هل كان ايزنهاور اكثر اعتدالاً ؟ سبق له ان منع الفيزيائي اوبنهايمر « ابا القنبلة الذرية » من الاطلاع على الوثائق النووية السرية لأن وكالة الاستخبارات الفيدرالية (اف.بي.أي) علمت « بصداقته مع الشيوعيين »، وأنه ابدى معارضته لبرنامج القنبلة الهيدروجينية. واعلنت لجنة خاصة شكلت بناء لطلب العالم الفيزيائي، بان الادارة على حق في ما اتخذته من اجراء. وفي قضية الزوجين روزنبرغ المتهمين بالتجسس لحساب الاتحاد السوفياتي، لم يبدل ايزنهاور موقفه، على الرغم من المناشدات الكثيرة الواردة اليه ــ لا سيما من قداسة البابا وبعض رؤساء الدول الاوروبية والبيراينشتاين، وجرى تنفيذ حكم الاعدام على الكرسي

الكهربائي يحق المتهمين، مع ان مسؤوليتهما الجرمية مشكوك بها. يقال إنه كان يزدري بمكارثي ولم يفعل شيئاً لمنع أعمال التعقب بحق الشيوعيين التي بلغت ذروتها في حينه. ذلك أن السيناتور مكارثي بات يتهم بصورة عشوائية، الدبلوماسيين ووزارة الخارجية وجزالات البنتاغون، وحتى بعض رجال الاكليروس البروتستانتي بالتعاطف مع الشيوعية. اما الرئيس، الذي فرض على حكومته تلاوة صلاة صامتة في بدء كل جلسة، فقد بدا مستاء. غير أن الرياح الليبرالية، اخذت، في كانون الثاني ١٩٥٤، تهبّ على موسكو، في حين كانت شعبية السيناتور قد بلغت ٥٤٪. وينبغي انتظار نهاية السنة كي يشهد تدني شعبيته وفقدان الاعتبار في مجلس الشيوخ. اذا كانت الادارة الجمهورية لا تؤيد مكارثي في عنفه الكلامي، فإنها كانت مصممة على تشديد حملتها ضد الشيوعية.

كان وجود دالاس في وزارة الخارجية ينبئ بما تمّ التصميم عليه : كان ينوي فرض اعادة تسليح المانيا الغربية على اوروبا وخصوصاً على فرنسا. فمنظمة حلف شمالي الاطلسي لن تكون عملانية الا بجيوش اوروبية ذات قيادة واحدة ومجهزة بعتاد موحّد النمط والنوعية. والتهديد السوفياتي خطير لدرجة لا يوكل ردّه الى جيوش متباينة فيما بينها من حيث الجهوزية والتجهيز. والجيوش الملحقة بحلف شمالي الاطلسي قد جاءت من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وبلدان بينيلوكس وايسلندا والبرتغال والنروج والدانمارك وايطاليا. تضاف الى هذه الدول العشر كل من اليونان وتركيا بعد سنة ١٩٥٢. وبقيت المانيا مستبعدة وهي رأس الرمح لضمان الدفاع عن القارة.

كيف يمكن ضمان قيام « استراتيجية جبهوية » من جيش اوروبي متكامل ؟ تابع دالاس باهتمام بالغ نتائج سياسة الاتفاق الاقتصادي الاوروبي. وكان المجلس الاوروبي قد تأسس في لندن، في ايار ١٩٤٩. لكنه لم يؤدِ بالطبع، الى اتحاد سياسي من جراء التحفظات البريطانية،

غير أن الفرنسي جان مونيه بادر مع رئيس الوزراء روبير شومان الى انشاء « تكتل الفحم والفولاذ » الذي ضمّ فرنسا والمانيا ثم بلدان البينيلوكس وايطاليا، في ما عرف « بالمجموعة الاوروبية للفحم والفولاذ » والتي مهرت نفسها في نيسان ١٩٥١ بمؤسسات فعالة تمهيداً لانطلاقة « اوروبا الست »، عام ١٩٥٣، وادّى انشاء قطاع جمركي مشترك لمنتجَين اساسيَين الى مزيد من التفاؤل بالمستقبل، فلماذا لا يصار الى التخطيط لاتفاق عسكري يضم المانيا ؟ كان النظام في بون بحزبيه السياسيين (الديمقراطي ــ المسيحي، والاشتراكي ــ الديمقراطي) قد رفع اديناور الى سدة المستشارية، وهو على استعداد كلي لمثل هذا الاتفاق. في الواقع، اقترح الفرنسيون « مشروع تكّتل الفحم ــ الفولاذ » بغية الحفاظ على المكانة الصناعية الاولى التي يتمناها جان مونيه لبلاده بين الدول الاوروبية. كما كان يرمي الى تحطيم المجموعات الصناعية الالمانية في منطقة الروهر ومنعها من السيطرة على قطاعي الطاقة والحديد. وفي السياق ذاته، كانت الولايات المتحدة قد فرضت الخطوط العريضة للاتفاق الجمركي، اذ سعى بول هوفمان، المسؤول عن توزيع الاعتمادات في مشروع مارشال الى ايصال البلجيكي سباك الى رئاسة الهيئة الجمركية التي كانت تهدف الى تخفيض التعرفات الجمركية. واشترط الاميركيون تخفيضها بنسبة ٥٠٪ وخصصوا ربع الاعتمادات في مشروع مارشال عام ١٩٥٠ لتمويل التجارة الخارجية للدول الاوروبية، تعبيراً عن رغبتهم الشديدة في رؤية البواخر التجارية تمخر عباب الاطلسي جيئة وذهاباً. وادى انشاء اتحاد المدفوعات الاوروبية الى تسهيل هذه الحركة، غير أن الدول الاوروبية لم تنشط الا تحت الضغط الأميركي. وقد اضطرت واشنطن، في سبيل ذلك، الى اجتذاب الثور الفرنسي من خلال التلويح له بمنديل مشروع نهوض المانيا.

كانت الخطة ذاتها ممكنة ايضاً فيما خص اعادة تسليح اوروبا، اذ كان يكفي تهديد باريس ــ التي كانت تتلقى العتاد الحربي من الولايات

المتحدة وحدها بموجب عقد ثنائي موقع عام ١٩٥٠ ـــ بتخفيض تلك المساعدة لصالح المانيا. لكن عندما واجه الفرنسيون خطر انضمام الجيش الالماني الذي يعاد بناؤه الى حلف شمالي الاطلسي، سارعوا الى طرح مشروع « مجموعة الدفاع الاوروبية التي تتضمن تشكيل ١٥ فرقة فرنسية، في حين كان الاميركيون يطالبون بعشر فرق المانية. فقد جعلتهم الضرورة اسهل مراساً. ومقابل مواصلة الدعم المالي الأميركي، اشترطت الولايات المتحدة منحها حق الاطلاع على مشروع الموازنة الفرنسية واعترضت على الجهود العسكرية المبذولة في حقل التسلح وانتقدت مشروع انتاج طائرة ميستير ٤٥٠ التي تنتجها مصانع داسو، والمدرعة البالغة زنتها ١٢ طناً. هل ينبغي التوقف، من جراء عدم توافر الاعتمادات المالية، عن انتاج طائرة بريغيت ٨٩١، والغواصات والطائرات المقاتلة والاكتفاء بانشاء صناعات لقطع الغيار المعدة لصيانة العتاد الأميركي ؟ تم الاتفاق على تصنيع المدرّعة الثقيلة، بعد قيام رئيس مجلس الوزراء رينه بليفين، بعرض مشروعه حول مجموعة الدفاع الأوروبية. بذلك يكون الفرنسيون قد وافقوا، تحت الضغط الأميركي، على الحد من سيادتهم. أما ايزنهاور ودالاس اللذين توصلا الى ما يبغيان، فكانا يعتقدان بوجوب عدم تخفيف الضغط عن الفرنسيين.

عام ١٩٥٤ : ايزنهاور يرغب في فرض « مجموعة الدفاع الاوروبية » على فرنسا

نصت معاهدة باريس، الموقعة في ايار ١٩٥٢، على انشاء « مجموعة الدفاع الاوروبية » بعد مصادقة البرلمانات الوطنية عليها. هل ستصادق الجمعية الوطنية الفرنسية عليها ؟ كان الوضع السياسي قد تغيّر كثيراً في مطلع الخمسينات : فقد اتاح قانون الانتخاب الصادر عام ١٩٥١ لاحزاب الوسط تشكيل « لوائح ائتلافية » تسمح لها بالحصول على كل المقاعد في حال نيلها الاكثرية المطلقة من الاصوات، الأمر الذي ادّى الى

تخفيض عدد النواب الشيوعيين الى ١٠١، مقابل ١١٧ نائباً ديغولياً، كما نالت الكتل الاربعة الأخرى حوالي ١٠٠ مقعد لكل منها. وصار بامكانية هذه الجمعية « السداسية الاضلع » انهاء النظام الثلاثي السابق وتشكيل اكثرية يمينية، الامر الذي كان يخشاه الأميركيون. اذ كانوا، في الواقع، يخافون ان يجتذب سحر موسكو الجماهير العمالية التي سبق للحزب الشيوعي ان عبأها بحملاته ضد القوات الاميركية في فرنسا وضد قائدها ريدواي الذي لقب بالطاعون (في الواقع، اتهم الجنرال الاميركي زوراً بانه خاض حرباً جرثومية في كوريا). وكان الخبراء الأميركيون الذين يتولون تحت اشراف السي.اي.إي. وهيئة الاستراتيجية النفسية (التي انشئت عام ١٩٥١) وهيئة الاعلام الاميركية، تنظيم حملة ضد الشيوعية، يفضلون قيام حكومات من اليسار الوسط بقيادة الاشتراكيين. غير ان الحزب الاشتراكي كان قد انتقل الى صفوف المعارضة، تاركاً الساحة للاكثرية من اليمين الوسط بقيادة رئيس الحكومة انطوان بيناي. حقق هذا الأخير بدعم من الأكثرية المؤلفة من الديغوليين وحركة المقاومة الشعبية والمستقلين والفلاحين واقصى اليمين، نتائج ملموسة على صعيد الحد من التضخم والعجز في الموازنة، الأمر الذي اثار اعجاب الخبراء الماليين في واشنطن، لا سيما تشدّد رئيس الحكومة الجديد في محاربة الشيوعيين. فقد اقتحمت الشرطة مركز الحزب الشيوعي واعتقلت جاك دوكلو، وجرى ايقاف رؤساء بلديات شيوعيين عن أعمالهم، ورفعت الحصانة البرلمانية عن خمسة اعضاء من المكتب السياسي. وكان لتصدي قوات الشرطة للمظاهرات المناوئة لريدواي ابلغ الاثر في اوساط وزارة الخارجية: ثمة ٤٠٠٠٠ جندي ينتشرون في فرنسا، وتمّ انشاء ٢٨ مطاراً حربياً، إضافة إلى الطرقات والمرائب والاتصالات التلغرافية الممتدة بين بوردودي لاباليس والحدود الالمانية. « كان جنود حلف شمالي الاطلسي يستخدمون عملياً الاراضي الفرنسية التي اصبحت منطقة عسكرية محتملة ومصدر تفاوض مع الحكومة الفرنسية التي هلّلت للدولارات المتدفقة

عليها من البنتاغون من أجل مساعدة جيشها. غير أن الاعتمادات العسكرية لم تكن تتيح تقديم اكثر من سبع فرق عسكرية الى حلف شمالي الاطلسي بدلاً من اربع عشرة، من جراء الاعباء الاستعمارية واعادة الاعمار في البلاد. واذا كان الاميركيون يعتقدون ان باستطاعتهم فرض مسألة تسليح المانيا على الفرنسيين، من خلال المساعدات المالية، فان هؤلاء كانوا بالمقابل يعتقدون ان بوسعهم الافادة من المميزات الاستراتيجية التي كانوا يقدمونها على ارضهم لجيوش الاطلسي. في النهاية رضخ الاميركيون للامر ودفعوا نفقة انتاج طائرات نفاثة وبدل التزود بالذخيرة التي تنتجها المصانع الحربية الفرنسية. وبذلك يكون بيناي قد حقق هدفه : وسوف يستطيع الفرنسيون تجنيد حوالي عشر فرق في المانيا، وستكون لهم صناعتهم الخاصة بانتاج السلاح، اضافة الى التصرف بقواتهم في المستعمرات من دون اية رقابة.

كانت حاجتهم ماسة الى هذه القوات، ليس فقط في الهند الصينية و حدها، بل في المغرب الذي شكّل مصدر ارباك لهم. فالحركات الاستقلالية المغربية والتونسية اخذت تنشط، متكلة على مساعدة الأميركيين لدعم قضيتهم امام منظمة الامم المتحدة. لكن الحكومة الفرنسية كانت تمتلك حجة قوية لفرض الحذر على وزارة الخارجية الاميركية، اذ تخلت لها عن قواعد مهمة في المغرب. تجاه هذا الامر، لم يجد الاميركيون بدأ من اقتراح بعض الاصلاحات، لكنهم تركوا لدول العالم الثالث حرية طرح المسألة أمام الامم المتحدة، لانهم لا يريدون اسقاط الحركة القومية العربية ـــ التي كان دالاس يعيرها اهتماماً بالغاً. واستطاعت فرنسا بالتالي اتباع سياسة الحضور العسكري في المغرب حيث جرى خلع الملك محمد الخامس، وفي تونس حيث استبدلت حكومة محمد شينيق باخرى سهلة المراس وتم اعتقال المعارضين قال دين اتشيسون : نحن كمن يسير على البيض. مع افريقيا الشمالية، يعتبر الفرنسيون انفسهم دولة عظمى، ومن دونها، لا يعودون كذلك. اما

دالاس فكان يتأرجح بين الحذر والتشجيع السري لحركة القومية العربية القادمة من مصر. واثبت تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية بأن الاضطرابات القومية سوف تنتشر سريعاً في الجزائر.

لم تكن فرنسا راغبة البتة في الحاق العديد من جيشها في تشكيلة الجيش الاطلسي. غير أن التناقض في هذه السياسة بادٍ للعيان : فاذا كانت قواتها غير كافية في الجيش الأوروبي المقبل، فستكون في وضع الدونية ازاء المانيا التي ستمتلك سريعاً الوسائل التي تتيح لها تجنيد عشر فرق. ولا بدّ بالتالي من العودة الى « مجموعة الدفاع الاوروبية ». وقبل البحث في تمويله، ينبغي التصويت عليه في الجمعية العمومية حيث يصعب الدفاع عن هذا الملف من جراء جهل مصادر التمويل. وبعد سنتين من الحيل والمناورات الفرنسية، كان لا بدّ لايزنهاور من ان يثور ويغضب. مع ذلك، كان متمسكاً « بمجموعة الدفاع الأوروبية » والوحدة الاوروبية باعتبارهما هدفين رئيسيين ينبغي تحقيقهما في سبيل انجاح سياسة الحلفاء ». لماذا هذا الاصرار ؟ جرى عام ١٩٥٢، تفجير اول قنبلة ذرية بريطانية، وفي تشرين الثاني، تفجير القنبلة الهيدروجينية الأميركية. فهل كانت الريبة تساور ايزنهاور من ان تسريع ستالين لبرنامجه الذري ينبغي ان يتيح له تعويض التأخير السوفياتي، باعتبار انه جرى تفجير القنبلة الهيدروجينية بعد ثمانية اشهر في سيبيريا ؟ كانت الولايات المتحدة ما تزال متفوقة على الاتحاد السوفياتي، غير ان ضعف اوروبا على صعيد الاسلحة التقليدية كان مأساوياً : اي هجوم للجيش الأحمر ستكون نتائجه وخيمة للغاية، ولم يرد الاميركيون مطلقاً على الاسئلة التي طرحها الفرنسيون حول استعمال السلاح الذري في حال وقوع اعتداء في اوروبا. هل كانوا ينوون المجازفة بأمنهم من أجل سائر دول الحلف الاطلسي، امام الخطر الرهيب الذي تشكله القنبلة الهيدروجينية ؟

مال القادة العسكريون الاميركيون الى تسليح المانيا وحدها والتخلي

عن المساهمة الفرنسية. ولتكتفِ فرنسا بفتح حدودها وتوفير القواعد العسكرية ! لم يستطع دالاس اقناع رينه ماير، رئيس الوزراء الجديد، بالاسراع في تصديق معاهدة مجموعة الدفاع الاوروبية. فالحكومة الجديدة كانت تتمتع بتأييد اكثرية ضئيلة من اليمين الوسط، وهي على درجة عالية من الهشاشة بحيث ينبغي لها اخذ معارضة الديغوليين بعين الاعتبار والذين طالبوا بتعديل الاحكام التي تتضمنها المعاهدة بخصوص مسألة السيادة. وسيتاح لفرنسا سحب قواتها من اوروبا بغية التدخل فيما وراء البحار من دون طلب موافقة حلفائها.

المخاتلة قائمة من هنا وهناك، ولم يكن جوزف لانيال اوفر حظاً من ماير. فالانتخابات الرئاسية تقترب، ولانيال ينافس كوتي. وارتأى دالاس ان يتدخل بتهديد فرنسا « باعادة نظر » قاسية في السياسة الاميركية اذا لم يتم التصديق على المعاهدة. سقط لانيال ووصل منديس فرانس الى الحكم. ولا احد يجهل ان زعيم الاكثرية الجديدة من اليسار الوسط ولا يؤيد « مجموعة الدفاع الاوروبية ».

تغيرت فرنسا خلال بضعة اشهر، اذ انسحبت من الهند الصينية، وفاوضت تونس حول توقيع معاهدة للحكم الذاتي، الحقتها فيما بعد بمعاهدة الاستقلال. هل كانت تسعى لاعادة تقويم دورها في العالم ؟ لم يكن منديس فرانس يحفل البتة بالسياسة الامنية الاميركية التي تبالغ، بحسب رأيه، في تقدير الخطر السوفياتي. وحين رفضت المعاهدة في ٣٠ آب ١٩٥٤، سارع رئيس مجلس الوزراء الى اقتراح حل بديل جرى اعتماده في مؤتمر لندن المنعقد بين ٢٨ ايلول و ٣ تشرين الأول ١٩٥٤، وقضى بانضمام المانيا الى الحلف الاطلسي ومنح فرنسا بالمقابل بعض الضمانات : لا يحق للجيش الالماني امتلاك الاسلحة، الذرية او الكيميائية او الجرثومية، ولا المقاتلات البعيدة المدى ولا الصواريخ الموجهة الكبيرة. ويقتصر حجم السفن الحربية على ٣٠٠٠ طن. وتعهد

البريطانيون المشاركون في الدفاع عن اوروبا، بعدم سحب قواتهم من القارة الاوروبية. واوضح مؤتمر باريس المنعقد بين ٢٠ و ٣٠ تشرين الأول بأن اتفاق بروكسيل سيتحول الى « تحالف دول اوروبا الغربية »، وهكذا لم يعد لدالاس اي مبرر لمقاطعة منديس فرانس، لانه حصل على على ما كان يبتغيه : فالاميركيون حلّوا في سايغون محل الفرنسيين، ونال الالمان حق انشاء جيش وطني واستعادوا سيادتهم شبه كاملة على ارضهم.

عام ١٩٥٥ : رياح التغيير تهب على اوروبا

لم تصمد حكومة منديس فرنسا طويلاً، وسقطت في ١٥ شباط ١٩٥٥. وسرعان ما لاحظ الأميركيون ان هذه الحكومة المؤلفة من اليسار الوسط والتي غاب عنها الاشتراكيون، لم تكن تنوي التقرب من الكرملين على الاطلاق. وبقيت امينة لعلاقاتها الاطلسية، من دون اعادة النظر بعلاقاتها مع الغرب. مع ذلك، كانت ترفض الوصاية الأميركية، وتصم اذنيها عن التهديدات بالغاء الاعتمادات المخصصة لها، وتلجأ الى تنمية التبادل الاقتصادي من اجل ضمان استقلال فرنسا. وكانت رياح جديدة من التغيير تهب على القارة الاوروبية، في الوقت الذي كانت عملية اعادة تسليح المانيا التي طالما حلم بها دالاس، على وشك التحقيق مع ان الالمان لم يبدوا اية حماس لفكرة وضع اشارات على طرقات بافيير يكتب عليها : « انتبه، مرور دبابات ! ». كانت اوروبا قد تغيرت بفضل استئناف المبادلات الاقتصادية عبر الاطلسي وما استتبعها من ثورة صناعية على الطريقة الاميركية.

تفجرت الثورة الصناعية في الولايات المتحدة اولاً اذ استمر الناتج الوطني الخام في الارتفاع في ظل ثبات الاسعار واستقرار القوة الشرائية للدولار، وبفضل التقنيات الجديدة المدهشة التي فتحت اسواقاً واسعة

لها. فالسيارة والطائرة وكيمياء المواد البلاستيكية وصناعات البناء (الزجاج والاسمنت)، وخصوصاً الاكترونيات، قلبت الحياة اليومية رأساً على عقب، مستفيدة من وجود اسواق واسعة بفضل انطلاقة التسليف واستخدام الدعاية بشكل مكثف. واستخدمت الاشعة الهرتزية في الاتصالات الهاتفية، واعتباراً من عام ١٩٥٠، انشأ الأميركيون شبكة من ١٢٠٠٠ كلم. أما تقنية الادوات الكهربائية المصنوعة من مادتي سيلينيوم وجيرمانيوم، فقد بدأت دورتها حول العالم انطلاقاً من الولايات المتحدة منتجة اجهزة الراديو بأحجام صغيرة. وانتشر التلفزيون في اميركا على نطاق واسع. في فرنسا بلغ عدد الاسر التي تمتلك جهاز التلفزيون، عام ١٩٥٠، ٣٧٩٤ اسرة، مقابل ٥٠ مليون جهاز اميركي. أما بريطانيا، فقد احتفلت ببلوغها المليون جهاز عام ١٩٥٢ (والمانيا، عام ١٩٥٧، وفرنسا عام ١٩٥٨). عام ١٩٥٥، انتجت الصناعة الأميركية ٣,٦ مليون جهاز راديو ترانزيستور. خلال حملته الانتخابية لعام ١٩٥٢، استخدم « أيك » (ايزنهاور) الراديو والتلفزيون بشكل مكثف. وحين بلغ الغزو الاعلامي القارة الاوروبية، تغيرت حياة الاسرة اليومية، ربما بدرجة اقل مما فعلته صناعة المحركات الصغيرة في جميع الدول الغربية في ميدان تطور صناعة الادوات المنزلية ووسائل النقل الخفيفة. كانت السيارة الصغيرة ذات القوة الخفيفة هي الأكثر شيوعاً، وقد تنافست السيارتان الفرنسيتان بقوة حصانين واربعة احصنة، مع الاوستن والفيسبا الايطاليتين، الأمر الذي ابهج المستهلكين من ذوي الدخل المتواضع. وادت حركات السكان (من نزوح ريفي الى الانتقال من الجنوب الى الشمال في فرنسا وايطاليا، الى حركة اللاجئين من المانيا الشرقية) الى تشجيع بناء المساكن والمنازل المستقلة بالاسمنت، وبشكل سريع وكلفة متدنية. ولم تكن « المجموعات الكبيرة » من الابنية التي شيدها كل من سارسيل وكوربوزبيه، قبيحة المنظر، في تلك الحقبة التي تكاثرت فيها الاكواخ القذرة، لا بل كانت مراكز سكنية تتوافر فيها الرفاهية. وتمكنت

الصناعات الخفيفة، بفضل سهولة التسليف، من تحرير ملايين الرجال والنساء من متطلبات الحياة اليومية، وانصرفت المرأة الى العمل خارج المنزل، الامر الذي اتاح زيادة مداخيل الاسرة. وساهمت الثياب الجاهزة والسيارة فضلاً عن تحديث السكك الحديدية في تشجيع حركة رحلات العطلة السنوية، التي بدأت تشق طريقها اعتباراً من عام ١٩٥٠. وفي سبيل ذلك وضعت فرنسا عام ١٩٥٧، برنامجاً يشمل انشاء الف كلم من الطرق السيارة العريضة؛ وكانت الأخيرة بين الدول الصناعية الكبرى، التي انجزت مثل هذا البرنامج، بعد المانيا وايطاليا.

كانت « الاعجوبة الفرنسية » ما تزال في بداياتها اي في مرحلة تنفيذ خطة مونيه والتوظيف في الصناعات الثقيلة. وبعد انقضاء عشر سنوات على الحرب، أخذت النزعة نحو العيش الأفضل تستمد نمطها من «النظرة الأميركية الجديدة »، وحضارة الكمية تأخذ مكانها بقوة. والمعجزة الحقيقية تحققت، في ذلك الوقت، في المانيا بفضل السياسة الاجتماعية التي اتبعها الدكتور ايرهارد، وزير الاقتصاد والمال في عهد المستشار اديناور. طبق ايرهارد التعاليم الاقتصادية لمدرسة فريبورغ الليبرالية. التي تشبه تعاليم مدرسة شيكاغو، وفرض عام ١٩٤٨، اصلاحات نقدية ادّت الى وضع اليد على تسعة اعشار الكتلة النقدية والى انكماش نقدي شديد، عند ذاك تضاعف الانتاج بوتيرة اعلى من الاسعار، وتراجع التضخم والبطالة. وبالنظر لغنى المانيا بالفحم وتوافر ما يوازي عشرة ملايين عامل قدموا من المانيا الشرقية، نشأت جملة صناعات جديدة اخذت تستخدم تقنيات حديثة جرى ضبطها في الغالب خلال الحرب لغايات عسكرية. واخترقت المصارف (دوتش بنك، دريسدر بنك، كوميرز بنك) جدار تكتلات صناعية كبيرة وذات نشاطات متعددة. الى ذلك، أتاح تدني نفقات الدولة ومستوى موازناتها العسكرية، تمويل الانفاق على التجهيز العام. وساعد مشروع مارشال على تحديث سكك الحديد والمرافئ والاقنية وعلى استكمال شبكة الطرقات العامة. كما افسح الفائض

التجاري الناجم عن تخفيض قيمة المارك، بنسبة ٢٠٪؛ عام ١٩٤٩، في المجال لانعاش الصادرات واجتذاب الاستثمارات الخارجية (منها ٤٠٪ جاءت من اميركا)، مما اتاح للدولة الالمانية الجديدة ان تتمتع سريعاً بالرخاء والبحبوحة، وتتحمل وحدها أعباء التسلح الذي فرضته الولايات المتحدة.

كذلك حققت بلجيكا وهولندا والدول الاسكندنيافية استقرارها المالي عام ١٩٥٠. وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تنوء تحت وطأة المشكلة الاستعمارية، وتمدّ يدها مستعطية واشنطن للحصول على إعتمادات التسلح، كانت تبدو اوروبا الشمالية الغربية في حالة اكتفاء ذاتي، وانهت اعادة بناء اقتصادها قبل الموعد المتوقع لها. وحققت بريطانيا العظمى النتائج ذاتها عبر سبل اخرى، ذلك ان العلاقات المميزة القائمة داخل دائرة العملة السترلينية، والتقشف الذي مارسته الحكومة العمالية، عزّزا حركة ازدهار ناشطة. وادى تخفيض الليرة، عام ١٩٤٩، كما في المانيا، الى تشجيع حركة التصدير؛ واعتباراً من عام ١٩٥٠، توقفت الحكومة عن قبض الاعتمادات المخصصة لها بموجب مشروع مارشال، معتبرة ان « الاعجوبة الكورية » وآثارها الحميدة تكفي لاسعادها. وحدها ايطاليا بقيت في المؤخرة، تتخبط في اعباء التزايد السكاني في الجنوب (ميزوجيورنو)، على الرغم من ان التكتلات الرأسمالية في الشمال اعادت دفع عجلة الانتاج الى الامام خصوصاً في حقل الكيمياء والنسيج.

من البديهي القول ان مشروع مارشال قد سهّل الاثراء السريع للدول الاوروبية من خلال توفير امكانية التجهيز الحديث. غير أن تحرير المبادلات الاقتصادية من كل قيد كان له دوره الحاسم، وقد ادى في ٢٥ آذار ١٩٥٧ الى توقيع معاهدات روما التي قضت بانشاء السوق الاوروبية المشتركة. وقامت جملة مؤسسات تشرف على تنفيذ النصوص، منها مجلس الوزراء، الجمعية العمومية المؤلفة من النواب الذين يعينهم

زملاؤهم في البرلمانات المحلية، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية، اللجنة النقدية، محكمة العدل والمصرف الاوروبي للاستثمارات. وادّى تخفيض التعرفات الجمركية (ثلاث مرات بنسبة ١٠٪ على ثلاث مراحل من اربع سنوات) وتنقل العمال والرساميل بحرّية، الى اعطاء دفع جديد للقارة الاوروبية التي اوكلت لأوراتوم الاهتمام بتزويدها بالمواد القابلة للانشطار واللازمة لمفاعلاتها النووية المقبلة. أما فرنسا التي وافقت على نتائج الاستفتاء الذي اجري في « السّار » وادّى الى الوحدة السياسية بين هذه المنطقة والمانيا، اعتباراً من عام ١٩٥٧، فلم يعد لها أي موجب للنزاع مع جارتها ـــ من جهة اخرى اثارت المكاسب التجارية التي يمكن تحقيقها شهية بريطانيا فبادرت الى انشاء « منطقة التبادل الحر » مع الدول الاسكندنيافية، والتي تتكامل، الى حد بعيد، مع الوحدة الجمركية الجديدة.

لا شك أن مجموعة الدول الاوروبية الست وما ينطوي عليه قيامها من اثراء سريع يشكلان حاجزاً ضد الشيوعية اكثر فعالية من الجيش الاوروبي الذي حلم به جون فوستر دالاس. ونتيجة المدّ التجاري واستئناف الانتاج الذي ضمن العمالة الكاملة، تخلّى البريطانيون، عام ١٩٥١ عن حزب العمال لصالح حكومة من المحافظين برئاسة ونستون تشرشل. وبعد مضي سنة واحدة، خاضت فرنسا تجربة بيناي كخطوة اولى نحو الاستقرار النقدي الذي عمل الوزير بيناي على تأمينه، عام ١٩٥٨، في عهد حكومة ديغول. ما من دولة اوروبية ـــ حتى ايطاليا التي امسك الحزب الديمقراطي ـــ المسيحي بالحكم فيها بيد متشددة ـــ كانت تحلم بأن تمسي ديمقراطية شعبية. ونشأت في فرنسا صحافة تنتمي الى اليسار الليبرالي (الاكسبرس، فرانس ـــ اوبسرفاتور). في ظل هذه الاوضاع، لم تعد الشيوعية تفتن بسحرها جماهير الفلاحين والمجتمع الجديد. وفي الوقت الذي كان الاتحاد السوفياتي يستكشف مع خروشوف امكانية نسيان هواجس الحرب، كان الغرب، يستعيض عن الاسود والابيض

بالشفافيات الملونة التي عمّمتها كوداك بكميات كبيرة. وغنّي عن القول ان الانفراج قد تحقق بفضل النجاح الاقتصادي في الغرب وليس من جراء وفاة ستالين وهذا الانفراج اعاد الى اوروبا الوان الحياة فيها، واقام بين الجبارين مجموعة من الدول السعيدة التي لا تتمنى سوى السلام في ظل الاستقلال. والتاريخ الذي يعيش من المآسي، هل سيهجر شواطئ الاطلسي الضاحكة ؟

نظرة الى الأرض... من فوق ١٩٥٧ ـ ١٩٧٣

مع اطلاق « سبوتنيك » وهو القمر الصناعي الأول، اطلّ عصر الفضاء في تاريخ العالم. وشكّل التقدم السوفياتي، في هذا الميدان، مفاجأة لواشنطن وسائر العواصم الغربية الأخرى. كما شكّل يوم ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ تاريخاً رمزياً، اذ اطلقت فيه سلسلة جديدة من الأقمار الفضائية لمراقبة بقايا القنابل الذرية والهيدروجينية التي تفجرها دورياً بعض الدول المتخلفة عن مسيرة التسلح. وبفضل التجسس المستمر والمنظم في الفضاء عبر توجيه الاقمار الصناعية، وكشف الاهداف والتحركات العسكرية على الكرة الأرضية، مهما كان حجمها ونوعها، سقطت كل الحواجز والستائر سواء كانت من الحديد أو القصب. « انتهى كل شيء » كما تقول الأغنية في فيلم دون جيوفاني.

تمّ الدخول في عصر التوازن الذي لم يخلُ ايضاً من القلاقل والاخطار. والمفارقة ان الاميركيين يطلقون عليه تسمية Mad التي تعبّر حروفها الثلاث عن سمات هذا العصر وهي الدمار المتبادل الاكيد. فكلا الجبارين يعلم كل شيء عن الآخر ويمسك بلحيته، ولا يتوانى عن التحدث اليه، وحتى ممازحته والضحك بوجهه، كما فعل خروتشوف

لدى زيارته للولايات المتحدة، امام عدسات المصورين.

ويمارس الجباران وحدهما لعبة « المعركة »، وهي عبارة عن لعبة بسيطة لا تحتمل الخداع. لكن ثمة شريك ثالث ورابع وخامس يقف مطالباً بمقعد له حول الطاولة. وفي المرحلة الأولى كانت اوروبا، هي التي طالبت بذلك حين دفع منديس فرانس بديغول الى خوض غمار اللعبة في الوقت الذي كان هذا الأخير يفضل انتظار ظروف افضل. وهكذا كان ديغول اول من اعتبر نفسه شريكاً مختلفاً في اللعبة مع الولايات المتحدة، ومطالباً بحرية التصرف. في كانون الأول ١٩٥٤ صمّم على القيام بدراسات لتطوير القنبلة الفرنسية وانشاء غواصة نووية. واذا كان القرار لم يتخذ بعد، فان النية تكشف ميل اوروبا لاستعادة حريتها بعد ان ملّت الزواج من حلف شمالي الاطلسي.

مشى خلف فرنسا، موكب الدول التي تحررت من النظام الاستعماري ودخلت منظمة الامم المتحدة مرنّمة اناشيد الحرية. غير أن الموكب ضم ايضاً عدداً من المجانين ممن سحرتهم الحرية. وكان لا بدّ من الامساك بهم، فتولى بوذا الهند (نهرو) ترويضهم ساعياً الى انتظامهم في صف عدم الانحياز، وحالماً بقيام فرقة باليه من دول العالم الثالث وراقصات من افريقيا وآسيا، تحت انظار العالم القديم الذي كان يتفجر غيظاً وغضباً. كانت هذه اللعبة المرحة اشارة لبدء حفلة راقصة في المدن الأميركية الحافلة بالسكان، حيث تتراقص، في احيائها السوداء، « الفهود السود » القادمون من غابات افريقيا الجنوبية والبرتغال. يقابل ذلك ما يبعثه الناي العربي من انغام شجية كأنها تصدر عن اوركسترا كاملة من الآلات الغريبة التي تتردد اصداؤها في الهلال الاسلامي من اندونيسيا حتى الباكستان، ومن الشرق الأوسط الى الادنى، كي تتلاشى على هضبات الاطلس المغربي. واندفعت القوافل العربية التي كان جورج بيدو يسميها ساخراً « بالدول الجمّالة »، نحو الجنوب، لتلهب افريقيا السوداء، وتزرع

الاسلام في الأرض المحروقة، وتحتشد على عنابر البواخر المتجهة نحو الشمال عابرة المتوسط لتلقي بحمولتها من المهاجرين في ايطاليا وفرنسا، فيما الفئات التركية المهاجرة تجتاح ضواحي المانيا. ما ان تحررت دول العالم الثالث من اليد العاملة الأكثر مهارة وهجرتها الفئات العمالية الناشطة، حتى اصبحت تشكل العالم الرابع ولم يعد تتوافر لها اية فرصة « للاقلاع » والتقدم. فالاقلاع في الميدان الاقتصادي، كما في حقل الطيران، كان الهدف الذي سعى اليه التقنوقراطيون الزنوج الذين تخرجوا من « معاهد الادارة » الفرنسية. ونادراً ما بلغوا هذا الهدف، ففي نيجيريا وشاطئ العاج والغابون، كم من اقلاعات فاشلة بعد ان كانت اقتصاديات تلك البلدان قد سارت على مدارجها.

غير أن تلك المسيرات الفاشلة قد حجبتها طويلاً دوامة السنوات الستين التي جعلت من الغرب جنّة غناء مشرعة الابواب على جمهور المهاجرين اليها. فالطاقة متوافرة بأسعار زهيدة من « الدول الجمّالة »، وكذلك اليد العاملة التي تدفقت اليها عبر البواخر؛ فاستقبلت اوروبا تلك الجماعات الجائعة الواقفة في صفوف طويلة امام مكاتب التوظيف. أما مفاجأة كوبا، ذلك الجبل الجليدي العائم في البحار الدافئة، فقد ايقظت اميركا اللاتينية وحركت فيها التوظيفات المالية وكذلك الثورات والفتن. وعادت الحفلات الراقصة الى بلاد « الليبرتادور » حيث تعقد التحالفات المحمومة في حقول قصب السكر في بحر الكاراييب. في افريقيا، يتذكر « البانتو » الحروب الكافرة، ويتخلى « البولز » في فوتا ـــ دجالون عن قطعانهم ساعين وراء حلم امبراطورية مالي الغابرة. هل ستفجر افريقيا حدود الاستعمار ؟ لا شك أن الجبارين يتورطان من دون حيطة كافية، « في السير على حافة الهاوية » في نزاعات اقليمية تشير، بحسب ما تظهره صور الاقمار الصناعية، الى وجود شقوق عميقة في الجغرافية السياسية الجديدة.

عام اطلاق السبوتنيك (ويعني في الروسية رفيق الرحلة) طلب الرفيق الصيني الدخول الى نادي الكبار، وجرى في تشرين الأول، توقيع اتفاق صيني سوفياتي ينص على قيام تعاون بين البلدين في حقل استخدام الذرة لاغراض عسكرية. غير أن هذا الاتفاق سيؤدي الى خلافات في المستقبل على الرغم من زيارة خروتشوف لبكين والتقاط صورة له مع العائلة الاشتراكية. هذا الحلم بغزو العالم من خلال امتلاك التكنولوجيا الفضائية والتحالف مع الشعوب المنضوية تحت علم لينين الاحمر بدا ممكناً حين برز الاتحاد السوفياتي كنموذج للدول المتطورة التي ينعقد المستقبل لها، من خلال تعاقب المواسم الزراعية الناجحة واستصلاح الاراضي البور في كازاخستان واكتشاف نوع من القمح ينبت حتى في اطراف السهوب الجليدية (التوندرا) وتكيّف الذرة الأميركية في تربة اوكرانيا. اجتذب هذا النموذج الساحر انتباه الصين والهند وبدا مرشحاً لحلّ مشكلة تزايد عدد السكان وجلّهم يعمل في حقول الارزّ والقمح، وعليه، كي يستمر ويعيش، ان يستصلح الصحراء. غير ان الصين لم تكن تستطيع الوقوع في الاوهام، وحاملات الطائرات التابعة للاسطول السابع قبالة شواطئها، ولا شيء يدل على ان السوفيات على عجلة من امرهم لابعادها. وغالباً ما كانت تلك الفجوة بين الدولتين الحمراوين، تختفي خلف حاجز من الورد. والى « التيفون » (اعصار استوائي مدمّر) الصيني ــ الاميركي الذي كان يجتاح المحيط الهادئ، ثمة حرب وشيكة على الحدود الصينية ــ السوفياتية : اذا كان المحيط الاطلسي واحة هادئة، فان المحيط الهادئ بقي مضطرباً. بدوره اضطرب المحيط الهندي والبحر الاحمر، وتلونت مياههما بالاحمر. هل ابلغ كل من سبوتنيك واكسبورير اسيادهما بأن الشرق الأوسط على حافة الانفجار ؟ ...

الفصل الخامس

البحر الأحمر

تسرّب الدم النازف من البحر الأحمر الى صحاري الجزيرة العربية ومصر، على مقربة من « مدرجات الشرق » التي تسور المتوسط. عام ١٩٤٥، اتاحت قناة السويس الدولية عبور النفط من الخليج الفارسي الى مصافي اوروبا. تعاقبت قوافل السفن المحمّلة بالنفط ليل نهار، فيما الخافرات الانكليزية ترصد الشواطئ وتراقب من العراق حقول النفط الاسود في الكويت ومصفاة عبدان الضخمة. في الجنوب، ترتفع درائك شركة ارامكو الاميركية منذ ان حصلت على امتياز التنقيب عن النفط من الملك ابن سعود، الصديق الامين للاميركيين، مثلما هو ملك الاردن صنيعة الانكليز. آبار النفط في حمى دبلوماسية النفط الساهرة عليها في لندن كما في واشنطن.

في القاهرة، السياسيون والادباء لا يكتمون غيظهم : هل الذهب الأسود امتياز يستأثر به البيض وحدهم ؟ وهل ينبغي نهب ثروات الارض التي تكاد تنضب من مواردها طعماً لثورة المحركات الهادرة في اوروبا ؟ في الواقع، حين اضاء الفانوس السحري البريطاني، في مستهل العشرينات، الصحراء العربية ودعا الجنرال اللنبي العرب لمحاربة الاتراك، لم يكن لأحد ان يتصور ان سراب الهلال الخصب سيتحول الى حقيقة لها نتائجها البعيدة. كذلك اغدق تشرشل الوعود للعرب، عام ١٩٤١، فيما

كانت القاهرة تعج بالانكليز. غير أن الانكليز كانوا ما يزالون، عام ١٩٤٥ يحتلون مصر والعراق والسودان والكويت والقنال. فساندوا في فلسطين استيطان اليهود فيها باعتباره عودة الى ارض الميعاد، ثم سعوا فيما بعد الى الحدّ منه. من جهة اخرى شجع فوستر دالاس الدول العربية، من المحيط الهندي الى الخليج الفارسي للانضمام الى حلف بغداد لمواجهة الخطر السوفياتي؛ وفيما يستبد بالعرب هاجس الثأر من الهزيمة التي لحقت بهم في اول حرب لهم مع اسرائيل، عام ١٩٤٨، كانت مصر اول من يرفع علم النبي الأخضر ...

لعبة الذهب الاسود في الشرق الأوسط

ثمة منابع عدة للذهب الاسود : ايران وهي الاقدم وكانت فيما مضى تحت سيطرة البريطانيين وحدهم. تليها العربية السعودية وامارات الخليج، ويأتي العراق ووادي ما بين النهرين في المرتبة الثالثة. منذ نصف قرن، وهذه المناطق تشهد بواسطة شركات النفط، صراعاً دولياً حاداً. ويزيد من حدة الصراع، ما تمثله المنتجات النفطية من أهمية في اقتصاديات ما بعد الحرب، فهي لا تمدّ الاستهلاك الخاص وحده بالوقود بل الصناعات المتعطشة للفيول، ومحطات توليد الكهرباء وسكك الحديد ايضاً. تضخم سيل الذهب الاسود المستخرج من الشرق الأوسط وتحوّل نهراً وتياراً جارفاً لا يحيي اوروبا وحسب بل اليابان والولايات المتحدة ايضاً حيث المصافي ضاعفت من انتاجها كثيراً. وباتت السيطرة على هذا المورد رهاناً يتجاوز الشركات ويربط الحكومات. فالنفط صار سلاحاً استراتيجياً.

في ايران. خاض البريطانيون معركة قاسية لابعاد ستالين عن آبار النفط، حيث كان يحرك الاضرابات بواسطة حزب تودة[1]، وعن حقول

---

(١) الحزب الشيوعي الايراني.

النفط في الشمال التي كان يعتزم التنقيب فيها مقتسماً الارباح مناصفة مع الايرانيين. لكن ابعاد السوفيات لم ينقذ البريطانيين من براثن تنافس كبريات الشركات الاميركية؛ وكانت اولها شركة ستاندارد اويل لروكفلر، فهي انقسمت عام ١٩١١، بعد صدور تشريع يمنع تشكيل التراست، الى فروع ناشطة مثل شركة شافرون (سوكال) التي حصلت من الملك ابن سعود على اول امتياز في جزيرة البحرين. أما تكساكو الفرع الآخر، فقد انضمت الى سوكال وشكلت شركة كالتكس لتقوم بالتنقيب عن النفط في السعودية، فيما تولى فرع ثالث تحت اسم الخليج تعقب اثر الشركة الانكليزية ـــ الايرانية للسيطرة على آبار الكويت. كما مارس الاميركيون ضغطاً على العراق كي يفسح البريطانيون المنتدبون بموجب تكليف من عِصبة الامم على هذه البلاد وهم ما يزالون يحتلونها عسكرياً، في المجال لشركتي اكسون وموبيل الاميركيتين (وكلاهما من ورثة امبراطورية روكفلر) الدخول في شراكة مع الشركة العراقية الى جانب شركة النفط الفرنسية والشركة الانكليزية ـــ الايرانية (التي اصبحت عام ١٩٥٤ الشركة البريطانية) وشركة شل وهي شركة انكليزية ـــ نيرلندية تسيطر على آبار النفط في اندونيسيا.

عام ١٩٤٨، ضاعف الاميركيون من وتيرة المنافسة، اذ استقدمت كالتكس كمية كبيرة من الرساميل لتسريع التنقيب في العربية السعودية. لماذا هذا الاستعجال ؟ للمنتجين الاميركيين ما يسوغ لهم تنويع اسواقهم، ذلك ان المكسيك، وهي ثاني منتج عالمي، عام ١٩١٨، كانت تعتزم فرض شروط استثمار اكثر ملاءمة لها. فاتجهوا مجدداً نحو فنزويلا الاكثر طواعية لهم وقاطعوا النفط المكسيكي المؤمم. وعندما فرض بيريز الفونسو، عام ١٩٤٨، على فنزويلا، قانون اقتسام الارباح مناصفة، طالبت دول الخليج بمعاملة مماثلة، فاستجاب الاميركيون لطلب العربية السعودية والعراق والكويت، باعتبار ان الخارجية الأميركية كانت ترغب في الاتكال على السعودية من أجل ضمان توازن النظام الدفاعي ضد

السوفيات في المنطقة. عند ذلك، ردّت الشركات بزيادة حجم الانتاج، غير ان البريطانيين رفضوا اعطاء ايران التي كانت تستوفي، عام ١٩٥١، نسبة قدرها ١٦٪ المنافع التي حصل عليها العراق، والعربية السعودية ولم يكن للازمة التي اطاحت بالدكتور مصدّق اي سبب آخر؛ اذ لم يتورع عن تأميم نفط بلاده، فسارع الشاه محمد بهلوي، عام ١٩٥٤ الى عقد اتفاق دولي قضى بانشاء اتحاد لاستثمار النفط الايراني حيث نالت الشركة الانكليزية ــ الايرانية وقد اصبح اسمها ب ب حصة معتدلة، وضم الاتحاد خمس شركات اميركية رئيسية الى جانب شركتي شل والنفط الفرنسيتين اللتين نالتا حصة ادنى. وشهدت سنة ١٩٥٤ نهاية استئثار بريطانيا بالنفط الايراني، حيث اصبح للاميركيين حضور مميز وعمدوا الى تخصيص الجانبين المتنافسين الايراني والسعودي بحصص انتاجية متوازنة ووضعوا بذلك يدهم بقوة على اسواق المنطقة.

بلغت السيطرة الأميركية على السوق العالمي درجة عالية بحيث كانت اسعار النفط تحدّد في نيويورك وتتحكم بها الشركات الأميركية الكبرى التي كانت تشجع على انتاج الذهب الاسود في البلاد العربية بالنظر لتدني كلفة استخراجه. وكان « لادارة التعاون الاوروبي » المكلفة من قبل مشروع مارشال توزيع الاعتمادات المالية على الدول الاوروبية، تأثير حاسم في هذا المجال : لما كان النفط يشكل احدى الحاجات الرئيسية لاعمار اوروبا، لذلك ينبغي تزويدها به باسعار متدنية؛ وقد وجدت ادارة التعاون الاوروبي فائدة كبرى في تخفيض كلفته وسعت الى تحقيق ذلك مع الشركات الكبرى التي وجدت مصلحتها في زيادة الانتاج. فتدفق النفط العربي عبر الاطلسي بكميات مطردة، الامر الذي اثار سخط المنتجين الاميركيين المستقلين واعتراضهم على اغراق السوق الداخلي به، حيث بلغت معدلات استهلاك الولايات المتحدة من نفط الشرق الأوسط، اعتباراً من عام ١٩٥٤، نسبة ١٠٪.

أدى تدفق تلك الكميات من النفط إلى ظهور ردّتي فعل: الأولى، من

جانب الدول العربية المحرومة من الذهب الاسود مثل مصر التي كانت تشهد عبور قوافل حاملات النفط في قناة السويس، او سوريا التي تمر انابيب النفط عبر اراضيها؛ فارتفعت الاصوات مطالبة بزيادة الالتزامات نحوها. ولم يكن تأسيس الجامعة العربية في القاهرة غريباً عن هذا الحرص في قيام عدالة في توزيع المغانم؛ باعتبار ان الدول العربية هي دول شقيقة، وعلى الدول الغنية ان تبدي عواطفها الاخوية لكي تتوافر لكل الدول الشقيقة الوسائل اللازمة التي تتيح لها محاربة اسرائيل.

جاءت ردة الفعل الثانية من الدول الغنية نفسها، التي كانت مسرحاً لتنافس الشركات الغربية حين لا تقع هي نفسها ضحية صراعات اخوية فيما بينها متأثرة بلعبة الشركات النفطية المسيطرة. وقد سعت الدول المنتجة، على غرار دول اميركا اللاتينية، الى لعب الورقة القومية (مثل محاولة الدكتور مصدق الفاشلة) لقلب معادلات القوة والسيطرة على خيرات ارضها.

تحاشياً لاحتمال قيام وحدة عربية تسعى لفرض جبهة موحدة في وجه الشركات المستثمرة، لم توفر الحكومات الحليفة جهودها في سبيل مساعدة الشركات على تثبيت اقدامها في الدول الخليجية الطيّعة. ومن الطبيعي ان تستمر في مساعدتها على البقاء فيها.

الانكليز يعتزلون الشرق الأوسط

لم يكن الغرض من حلف بغداد اقامة السلام الاميركي في منطقة تسودها النزاعات الكامنة. ولم يكن للدول العربية من المداخيل النفطية ما يكفيها لانتهاج سياسة التسلح، فهي كانت فريسة خلافات تتصل بالصراع على السلطة بين ابناء العائلة الواحدة، وكان الدبلوماسيون الانكليز اسياد اللعبة في هذا الميدان، فهم يعلمون ان الوهابيين، وهم طائفة متزمتة في شبه الجزيرة العربية، قد اخذوا ملكهم بالقوة، وفي آن معاً من الانكليز

والامير حسين ملك الحجاز وشريف مكة وزعيم الاسرة الهاشمية؛ وكان هذا الأمير يرى في عبد العزيز بن سعود عدوه اللدود الذي اعتلى العرش مكانه. اما الهاشميون، حلفاء الانكليز، فقد انكفأوا نحو الشمال، فاستقر فيصل البكر في سوريا واعتلى الثاني، عبدالله عرش العراق. لكن الفرنسيين طردوا فيصل من دمشق، فعمد الانكليز الى تثبيته في بغداد باعتبار أن عبدالله كان قد استقر في شرقي الاردن قبل ان يصبح ملكاً على الاردن. كان الهاشميون اول العاملين في خدمة التاج الانكليزي، في حين كان الوهابيون الذين يبغضون الانكليز، يحتفون بالاميركيين « الكفار ». كانت المملكة العربية الهاشمية امارة اقطاعية انشأها الانكليز للوقوف في وجه السلطنة العثمانية حليفة الالمان خلال الحرب العالمية الأولى والتي انهارت عام ١٩١٨. وحفاظاً على الامن في منطقة فاحشة الثروة، اختارت لندن في البداية نظام الامارات.

قامت في وجه هذا النظام قوتان عسكريتان : مصطفى كمال، وهو الذي قاد ثورة علمانية وتحديثية في تركيا، وكان ينظر الى الانظمة الملكية العربية على انها من بقايا الاقطاعية، والى ديانة الامراء على انها مخلفات مضرة؛ حتى انه خلع آخر سلطان عن عرشه في اسطمبول. وثمة سلالة عسكرية اخرى، هي سلالة رضا خان وهو جنرال نصّب نفسه شاهاً، عام ١٩٢٥ وادعى انه وريث ملوك العجم القدماء في ايران. ونظراً لتورط عاهلي ايران والعراق، خلال الحرب العالمية الثانية، مع النازيين، فقد اضطروا لاعتزال الحكم، فخلف محمد شاه والده في ايران؛ اما في العراق فقد استمر الملك فيصل الشاب وولي العهد عبد الاله في الحكم، فيما تمت تصفية رئيس الوزراء رشيد علي. في منطقة الخليج، كان عبدالله الذي اصبح فيما بعد ملك الاردن، الحليف الامين الوحيد للانكليز، وكان يمتلك جيشاً حديثاً بقيادة البريطاني غلوب باشا ــ وقد شارك هذا الجيش عام ١٩٤٨ في الحرب ضد اسرائيل. وارتأت حكومة لندن اقامة قواعد عسكرية في الاردن لأنها لم تعد تستطيع الاعتماد على

العراق مع أنه سبق ان وقع معها معاهدة تحالف في بورتسموت، عام ١٩٤٨، غير أن الاضطرابات المستمرة التي قامت في شوارع بغداد منعت الحكومات المتعاقبة من تصديق المعاهدة. فانسحب الانكليز من العراق وسوريا ولبنان، وابقوا على قواتهم جنوبي قناة السويس في مصر، حيث لم يكونوا هناك ايضاً على وفاق مع النظام الملكي القائم. فقد ضغطوا على الملك لتكليف نحاس باشا زعيم الحزب الاستقلاني « الوفد » برئاسة الحكومة ثم عملوا على اقالته عام ١٩٤٤. اعتباراً من ١٩٤٥، عزم رئيس الحكومة الجديد، نقراشي باشا تحطيم العوائق التي تحول دون استقلال مصر الناجز وانسحاب القوات البريطانية وتحقيق وحدة بلاد النيل »؛ وهذا معناه المطالبة بضم السودان الواقع تحت السيطرة البريطانية. وكان حزب الوفد يدافع عن هذا الموقف المتطرف لقطع الطريق على اية محاولة اتفاق مع رئيس الحكومة البريطانية الذي عرض في كل حال، الانسحاب من القاهرة ومصر والابقاء على قواته المسلحة على ضفاف القنال فقط.

عند ذاك، تدخلت الولايات المتحدة لتتولى العملية بالنيابة عن بريطانيا. فالانتظار لم يعد جائزاً، ذلك ان السياسة المسماة « بالهلال الخصيب » — مشروع توحيد العراق ولبنان وسوريا حول الملك عبدالله عاهل الاردن — قد ادت الى سلسلة من الانقلابات العسكرية في سوريا، حيث تكررت اعمال العنف من جراء رفض الانقلابيين من الكولونيلات تمرير انابيب النفط الاميركية القادمة من السعودية في الأراضي السورية، وسط انشراح شركة النفط الانكليزية — الايرانية. وادّى اغتيال الملك الاردني عبدالله، على يد متزمت فلسطيني، في ٢٠ تموز ١٩٥١، الى تفاقم الفوضى، غير أن الانكليز لم يلبثوا ان اطمأنوا لولده طلال الذي كان يتابع علاجاً في سويسرا من جراء انهيار عصبي، والذي اكّد انه سيتابع سياسة والده. واتفقت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا العظمى، في مؤتمر لندن، عام ١٩٥٠، على عدم تقديم السلاح الا للدول التي تتعهد

عدم شن اي حرب عدوانية. وكانت النية تتجه بذلك لحماية اسرائيل، وكذلك لردع الدول العربية من تحقيق وحدتها بالقوة، ومنع سوريا على وجه الخصوص من ابتلاع لبنان.

ابقى تصارع المصالح حول النفط على حالة من النزاع الخفي : واذا كانت الدول الاسلامية لا تتفاهم فيما بينها، فانها تتوحد لافشال سياسة الشركات الغربية. وتعرضت « التابلاين »، وهي خطوط انابيب ضخمة تمتد مسافة ١٥٠٠ كلم، وانشأتها شركة أرامكو لنقل نفط العربية السعودية مباشرة الى احدى المرافئ اللبنانية، لمقاطعة العراق، وكذلك مصفاة حيفا التي لم تعد تتلقى النفط الخام من العربية السعودية. وانضمت مصر الى المقاطعة، واغلقت قناة السويس في وجه ناقلات النفط في الوقت الذي كان فيه مضدق (عام ١٩٥١) يؤمم الشركة الانكليزية ــ الايرانية. فاضطرت بريطانيا العظمى الى ارسال قواتها البحرية الى الخليج لاجلاء الفنيين وتعزيز وحداتها العاملة في السويس بـ ١٠٠٠٠ رجل. في القاهرة، احرقت بيوت الجالية الانكليزية. هل تستطيع لندن وواشنطن الحفاظ على قواعدهما العسكرية في ليبيا التي نالت استقلالها في ظل حكم الأمير سعيد ادريس، الذي يكّن العداء للحكومة المصرية؟ طالما رائحة النفط لا تغري الامارة، فانه يمكن الاعتماد على ولاء الحاكم فيها. غير أن المجابهة بين العراق وايران، وبين العراق والعربية السعودية، بدأت تلوح في الأفق، اذ ليس بوسع هؤلاء الأشقاء الأعداء التفاهم فيما بينهم إلا تحت تأثير انفعال مشترك ينسيهم التنافس الشديد الذي تزكيه الشركات الاجنبية المستثمرة لخيرات ارضهم. وكانت الثروات التي تروي خزائنهم قد بدأت تغري تجار الاسلحة. وثمة ثلاث دول على الاقل ذات كثافة سكانية عالية، مؤلفة من فئات ريفية تعيش من زراعة الحبوب، وهي مصر النيل، والعراق ما بين النهرين، وإيران الهضاب المخضوضرة. وكانت مصلحة فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركية تقضي بأن يركّز سياساته المناوئة للسوفيات ــ وهي سياسة لا تتصل بالضرورة مع لعبة الشركات

النفطية الكبرى ـــ على تلك المحاور الثلاثة الرئيسية، وفي الوقت نفسه، حماية الدولة الاسرائيلية الطرية العود.

عبد الناصر وقناة السويس

انطلقت حركة العروبة مجدداً من مصر : في ٢٣ تموز ١٩٥٢، تسلّم الجيش السلطة، وارغم اللواء محمد نجيب الملك فاروق على سلوك طريق المنفى، ناقلاً معه مجموعته الرائعة من الزمامير. ثم وافق اللواء نجيب على نيل السودان لاستقلاله في المستقبل، وتفاوض مع بريطانيا على اجلاء قواتها عن قناة السويس. واستقبلت القاهرة فوستردالاس بحفاوة. لم يكن نظام الكولونيلات يتطلع بعد نحو موسكو وكان بوسع وزارة الخارجية الاميركية ان تفكّر في توفير المساعدة له اسوة بايران.

في آب ١٩٥٣، حاول عدد من الضباط الموالين للشاه، القيام بانقلاب عسكري في إيران ضد مصدّق الذي كان يستند على دعم الحزب الشيوعي له. في البداية، فشلت المحاولة، غير ان الشاه، اللاجئ الى العراق، علم ان الجنرال زاهدي نجح في اعتقال مصدق وزجّه في السجن. هل ساندت الولايات المتحدة هذه الانقلابات العسكرية؟ لا شك انها افادت منها، على الفور، اذ جرى في ٥ آب ١٩٥٤ توقيع اتفاق بين الشاه ومجموعة من الشركات النفطية التابعة لروكفلر على اساس المساواة مع الشركة البريطانية. ونصّ الاتفاق على منح الشركة الانكليزية ـــ الايرانية التعويض المستحق لها وبذلك فقد البريطانيون كل نفوذ لهم في ايران، حيث سبق لدالاس ان نسج علاقات متينة مع الشاه، على غرار ما كان ينوي فعله مع النظام الجديد في القاهرة.

في تشرين الثاني ١٩٥٤، اعتقل الكولونيل عبد الناصر اللواء نجيب

وفاوض البريطانيين بشأن انسحابهم من منطقة القنال. لا شيء يحول بعد الآن دون ترؤسه حركة العروبة التي سوف يكون في طليعة اهدافها تدمير اسرائيل. وهاجمت مجموعة من الفدائيين المصريين المزودين بالاسلحة السوفياتية والتشيكية، (بعد اتفاقات ايلول ١٩٥٥) المزارع الاسرائيلية (كيبوتز)، انطلاقاً من غزة. واطلق عبد الناصر، في وجه الجبارين العالميين، مشروع حركة الحياد الدولي، مع تيتو ونهرو، غير ان العروبة بقيت سلاحه الاساسي، اذ كان يدعي تحقيق حلم توحيد الدول العربية، بدعم من الاتحاد السوفياتي الذي اخذ يتدخل في شؤون هذه المنطقة، للمرة الاولى، منذ فشل ستالين في ايران. فقرر دالاس، على الفور، الاعتماد على الدولتين الصديقتين العربيّة السعودية، والعراق، لاقامة تحالف قوي مناوئ للسوفيات في الشرق الاوسط. وهكذا استفاقت الحرب الباردة مجدداً، على ضفاف البحر الاحمر، بعد ان ساد الظن بانها تلاشت في غير مكان من العالم.

ورد طلب انشاء التحالف من العراق، حيث كان رئيس وزرائه نوري السعيد يتوجس خيفة من السوفيات ويرغب في التفاهم مع جاريه التركي والايراني، ويرفض الدعوات الحيادية التي اطلقها عبد الناصر. كان منديريس رئيس الحكومة التركية على قناعة مسبقة بوجهة نظر نظيره العراقي، وسبق له ان وافق على اقامة قواعد عسكرية اميركية على اراضيه في اطار منظمة حلف شمالي الاطلسي. جرى في بغداد، في شباط ١٩٥٥، توقيع اتفاق بين الدول الثلاث التي كانت تقيم، في الوقت ذاته، علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة، وتم تشكيل مجلس دائم للسهر على تنسيق الجهود الدفاعية. انضمت ايران الى الحلف الجديد وكذلك باكستان. سعى عبد الناصر، من دون جدوى، ابعاد العراق عن تركيا، وعقد حلفاً دفاعياً مدته عشر سنوات فقط مع البلدان المناوئه للعراق وهي سوريا والعربية السعودية وايران. واتّهم عبد الناصر أشقاءه المسلمين الذين امتنعوا عن تأييده، باغفال مقتضيات الوحدة

العربية والجبهة المشتركة ضد اسرائيل والتزام مناهضة الشيوعية خدمة لاميركا.

انضمت بريطانيا العظمى الى حلف بغداد فيما بقيت الولايات المتحدة خارجه واكتفت بتقديم مساعدات اقتصادية للدول الاعضاء وايفاد مراقبين عنها لاجتماعات المجلس. ولم توافق على الانضمام الى اللجنة العسكرية، لتلقي الاوامر مباشرة، الا في عام ١٩٥٧.

زعزع حلف بغداد استقرار الاردن الذي ظنّ ان بريطانيا تمسك به. فقد ادّى النفوذ المصري الى فوز اكثرية برلمانية مناوئة للانكليز في انتخابات عام ١٩٥٦. وفي عمان، هيمن اللاجئون الفلسطينيون على الرأي العام، وراحوا يبثون احاديث عبد الناصر المناوئة لاسرائيل. فاوفدت لندن، في كانون الاول ١٩٥٥، الجنرال تاملبر لاقناع الملك بوجوب الانضمام الى حلف بغداد، فاستقال اربعة وزراء من الحكومة تحت وطأة التهديد الفلسطيني، وحلّ البرلمان، غير ان غالبية النواب الجديدة رفعت الى سدّة رئاسة الحكومة سمير الرفاعي، الفلسطيني الاصل، الذي تراجع عن موضوع الانضمام الى حلف بغداد ووقّع اتفاقاً مع مصر وسوريا بغية انشاء قيادة عسكرية موحّدة.

في آذار ١٩٥٧، سدّد العاهل الاردني الشاب حسين، الذي خلف عام ١٩٥٢، والده طلال الذي تنازل عن العرش، ضربة قاضية لمناصري عبد الناصر، وانهى الوجود البريطاني.. وأدت هذه التطورات الى اغتباط فوستر دالاس لالتحاق الاردن مجدداً بمعسكر حلف بغداد، وعودة الطمأنينة الى الناقلات النفطية.

غير ان الناصرية استمرت في سعيها تقويض النفوذ الغربي، فهاجمت الموقع الاهم للغرب في المنطقة وهو قناة السويس. « فالريس » الذي لم يكن يمتلك النفط، نوى وضع يده على عائدات القنال.

وفي ١٩ تموز ١٩٥٦، علم ان وزارة الخارجية الاميركية رفضت

تمويل مشروع سد اسوان المنوي انشاؤه على النيل لري مليون هكتار من الاراضي الزراعية وتوليد الكهرباء. فرّد في ٢٦ منه بتأميم شركة السويس، الامر الذي استدعى تشاوراً فورياً بين المساهمين الفرنسيين والبريطانيين. هل من المعقول ان يخضع هذا المحور الدولي لمزاجية كولونيل مصري، وهو الذي سبق له ان منع عبور السفن الاسرائيلية في القنال. وقررت لندن وباريس اعتماد الحزم والشدة.

لم تحذ واشنطن حذو فرنسا وبريطانيا. صحيح ان فوستر دالاس يكن العداء لعبد الناصر ــ الذي اخذ يتلقى السلاح من براغ وموسكو ــ وقد اظهر استياءه عندما امتنع عن تمويل السد. لكنه يكره دعم « سياسة المدفع » التي تقضي كما في الماضي، بانزال البحرية البريطانية والفرنسية على سواحل مصر. وهو يعلم ان الكونغرس لن يؤيد أبداً ارسال البحرية (المارينز) في حملة عسكرية من هذا النوع. ويخشى على وجه الخصوص ان يثير تدخّل القوى الاستعمارية لدى دول المنطقة حركة التفاف حول سياسة عبد الناصر، وقيام مدّ عروبي واسع في سائر الاقطار العربية. كما دعت الاوساط النفطية باتخاذ اقصى درجات الحيطة والحذر. ولم يرَ دالاس اي موجب لينساق في سياسة الاشتراكي الفرنسي غي مولليه الذي وجد في مسألة السويس فرصة ملائمة تتيح له حلّ قضية الجزائر.

غي مولليه وحرب الجزائر.

وجد ثوار الجزائر في عبد الناصر سنداً كبيراً لهم في حربهم التي سعوا بعناد شديد الى تدويلها. ومنذ العمليات الارهابية التي وقعت في عيد جميع القديسين، عام ١٩٥٤، باتت الحكومات الفرنسية المتعاقبة هشة من جراء انقسام الرأي العام الذي اجبر الكتل البرلمانية على تغيير تحالفاتها باستمرار، الامر الذي استتبع قيام اكثرية برلمانية جديدة. فلا

اليمين الوسط الحاكم حتى اجراء الانتخابات العامة عام ١٩٥٦، ولا الجبهة الجمهورية ــ المنتخبة على اساس برنامج اقرار السلام في الجزائر، بزعامة منديس فرانس وغي مولليه وشابان دالماس وميتران، يجرؤان على التخلي عن طرح شعار « الجزائر فرنسية »، لان تقسيم البلاد الى مقاطعات جعلها جزءاً لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية. ودعم « الاقدام السود » (مليون نسمة) بتضحياتهم المجهود الحربي بين عام ١٩٤٢ و عام ١٩٤٥. وسعت « الاشتراكية الوطنية » الى حصر الحرب في اطارها الداخلي من خلال ابعاد اكبر عدد من المدعوين للخدمة العسكرية الالزامية الطويلة (حتى ٣٠ شهراً)، الى ماوراء البحار الى جانب القوات النظامية.

نالت تونس والمغرب استقلالهما بعد ان كانتا تحت الحماية الفرنسية. وكان منديس فرانس قد انتقل في ١٤ تموز ١٩٥٤، الى تونس بمعية الماريشال جوان، من اجل منحها الحكم الذاتي، غير ان الزعيم الاستقلالي بورقيبه تابع نشاطه. في المغرب استقبل السلطان المخلوع محمد بن يوسف (الذي حلّ محله بن عرفه) في منفاه الجنرال كاترو، موفداً من حكومة ادغار فور، من اجل بحث بيان مشترك يصدر عن محمد الخامس وانطوان بيناي، وجرى تحديد اعلان الاستقلال في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٥. فطالب بورقيبه معاملة تونس بالمثل. فوافق غي مولليه على ذلك في حزيران ١٩٥٦، وتم الاتفاق على استمرار وجود القوات الفرنسية على أرضها. وكان مولليه يرغب في قطع الاتصال بين المتمردين الجزائرين ومصر، غير ان بورفيبه كان ينوي حصر الوجود العسكري الفرنسي في قاعدة بيزرت. وكان الاميركيون يكنون لبورقيبه كل مشاعر الودّ، بعد ان اقصى من « حزب » الدستور الجديد » وهو الحزب الوحيد في البلاد، منافسه صلاح بن يوسف، الموالي لعبد الناصر والجامعة العربية.

كان غي مولليه يعتبر حرب الجزائر مشكلة داخلية ويرفض كل

تدخل دولي وخصوصاً الاميركي بشأنها. مع ان هناك ثمانية ملاين مسلم يتلقون التدريب في القاهرة على اعمال الكوماندوس بهدف الانتشار في القرى والمدن يأت للعمل الثوري. أما الثوار فكانوا ينطلقون من قواعدهم في تونس ويعبرون الحدود دون عائق، فيما توفر حكومتا الرباط وتونس الدعم لهما. لم تكن ثورة عام ١٩٥٤ تدين بنجاحها الى « حركة انتصار الحريات الديمقراطية » بقيادة ميسالي الحاج، وهو مناضل قديم نادى بالاصلاح وتعّرض للسجن في بل — ايل، ولا الى « الاتحاد الديمقراطي » بزعامة فرحات عباس الذي كان يمثل نخبة اسلامية ناقمة على سوء الحكم، بل الى احد مؤسسي « جبهة التحرير الوطني »، بن بيلا، وهو ضابط صف في الجيش الفرنسي لجأ الى القاهرة وعرف كيف يشرك مصر في الثورة. وقد ترسخ دعم عبد النصار للثوار عندما فتش سلاح البحرية الوطنية سفينة « اتوس » المحمّلة بالاسلحة الى مصر بغية تسليمها الى جبهة التحرير. وكانت اذاعات القاهرة تقلّد اذاعات بودابست التي كانت، في تلك الحقبة، تدعو المجريين الى الثورة ايضاً.

كما في تونس والمغرب، كانت المقاومة الجزائرية قد ضاعفت من الاعمال الارهابية في المزارع المعزولة، ومن التظاهرات في المدن. وبعد حظر التظاهر، لجأت جبهة التحرير الى القاء القنابل في دور السينما والقنابل اليدوية في الأسواق، والى تصفية المدرسين والموظفين الفرنسيين والوجهاء المسلمين الموالين لفرنسا. واضطرت السلطات لاعتماد الوسائل القمعية، دفاعاً عن جماعة « الاقدام السود » التي كانت تتعرض لاشد انواع الارهاب. في فرنسا شنت بعض الصحف حملة عنيفة داعية لسلوك طريق التفاوض، فاتخذت الاكسبرس، و« تيموانياج كرتيان »[1]، وفرانس اوبسرفاتور، موقفاً معارضاً لمعظم الصحف التي

(١) « وتعني الشهادة المسيحية ».

ــ باستثناء « الاومانيته وليبراسيون ــ كانت تؤيد، سواء في اليسار او في اليمين، بقاء فرنسا في الجزائر. ولم يكن بوسع اية حكومة القبول باستقلال الجزائر، وكانت جماعة « الاقدام السود » تمتلك في البرلمان قوة ضاغطة تستطيع التدخل فيه يميناً او يساراً. وزاد في الطين بلة ما كان يعاني الجيش الفرنسي في الجزائر من ذل ومهانة من جراء هزيمته في الهند الصينية، واضعافه في المغرب وتونس في عمليات قمع لم تحلْ دون نيل البلدين استقلالهما الناجز، الامر الذي ينذر بمخاطرة سياسية جمة. ولم يكن الضباط يكتمون خشيتهم من عدم القدرة على احتمال اي مهانة جديدة. وكان لا بد من اخذ وجهة نظر الجيش بعين الاعتبار لدى تحديد الاهداف السياسية.

كانت الحرب بين الطرفين المتصارعين على اشدها، والاعمال الارهابية في ازدياد مطرد من دون ان يستطيع الجيش القضاء على تلك العصابات التي كانت تعبر الحدود ليلاً ناقلة الامدادات والاسلحة للثوار المختبئين في جبال الاطلس وغابات الأوريس. وجاء تعيين الديغولي جاك سوستيل في كانون الثاني ١٩٥٥ ليعطي دفعاً ايديولوجياً جديداً لانصار الجزائر الفرنسية، ذلك ان الحاكم العام الجديد كان يدعو الى « دمج » الجماهير الاسلامية في الجسم الفرنسي بانتهاج سياسة انفاق مالي تتبعها الدولة في حقل تجهيز البلاد وبناء المصانع والمعامل اللازمة لرفع مستوى السكان المسلمين. نالت هذه السياسة التي لم تكن تشكل خطراً على الوضع القائم في الرين، استحسان المستوطنين وتأييداً حاراً في صفوف مئات الالوف من « صغار البيض » الذين ارغمتهم جبهة التحرير على الاختيار بين « الحقيبة او الكفن ». ارتأى غي مولليه ان هذه السياسة خطرة، فهو قد انتخب على اساس برنامج يتضمن قيام مفاوضات مع جبهة التحرير. اجرى في ايطاليا، اتصالات مع زعمائها المقيمين في مصر، وكان يأمل في تحقيق اصلاحات تحظى بقبول الطرفين. وقرر الانفصال عن سوستيل. عند ذاك ثارت ثائرة الجالية الاوروبية في الجزائر

بمناسبة زيارة رئيس الحكومة الذي استقبل بغير حفاوة. وجاء تعيين كاترو ليصب الزيت على النار، وهو سبق له ان تولّى التفاوض بشأن رحيل الفرنسيين من الشرق، وعودة السلطان المخلوع الى الرباط. فتراجع مولليه اذ خشي قيام ثورة في الجزائر حيث كان يمكن لقادة الجيش فيها ان يدعموا جماعة « الاقدام السود »، واوفد روبير لاكوست اليها لحسم الوضع، متعهداً بتعزيز القوات الفرنسية فيها بـ ٤٠٠٠٠٠ رجل. تضمنت مهمة لاكوست وجوب الحصول على اتفاق لوقف النار مع جبهة التحرير، واجراء انتخابات عامة، والتوصل، لا الى الاستقلال، بل الى شكل من التعايش يأخذ بعين الاعتبار « الشخصية الجزائرية » المميزة. لم تكن الحكومة الفرنسية ذات التوجه الاشتراكي راغبة في التخلي عن الجزائر، خصوصاً بعدما اسفرت عملية اقفال الحدود عن نتائج مشجعة، وبعدما اظهر التنقيب وجود النفط والغاز في بعض المواقع من الصحراء.

اهمية الجيش في السياسة الفرنسية.

استمزج الاشتراكيون جبهة التحرير رأيها بوقف النار فرفضته كلياً بناء لنصيحة عبد الناصر ودعمه. وقد علم « الريس » ان السفير الاميركي ديلون قد اتخذ في ٢٠ آذار ١٩٥٦، موقفاً مؤيداً للوجود الفرنسي في الجزائر. ولم يكن يجهل معارضة الرأي العام الاميركي لتلك الحرب الاستعمارية، وكان يقيس مدى تقدم الافكار المناهضة للغرب بمدى زيادة عدد الدول التي تقف على الحياد اثناء التصويت في الامم المتحدة. ففي ٣٠ ايلول ١٩٥٥، ايدت الجمعية العمومية باكثرية صوت واحد ادراج المسألة الجزائرية على جدول اعمال اجتماعاتها، الامر الذي ادى الى انسحاب الوفد الفرنسي. لقد بات ممكناً لجبهة التحرير احراز نجاح دبلوماسي في حال عدم توصلها الى قرار عسكري.

قرر غي مولليه خوض المعركة في هذا الميدان. واتخذت الجمعية

العمومية، عقب ازمة السويس عام ١٩٥٦ قراراً بوضع المسألة الجزائرية على بساط البحث، بناء لطلب خمس عشرة دولة « افرو ــ اسيوية ». توجّه الفرنسيون الى نيويورك لاقناع الوفود ونجحوا في اسقاط القرار المقترح باغلبية ١٨ صوتاً والذي كان يطالب بمنح الشعب الجزائري حق تقرير المصير. وتقدمت مجموعة الدول اللاتينية ــ الاميركية باقتراح يتضمن التمني بالوصول الى « حلّ سلمي وديمقراطي » للمسألة الجزائرية، فوافقت فرنسا على ذلك.

كان الاتفاق المعقود بين سلطان المغرب والرئيس التونسي وقادة الثوار أشد خطورة من المعركة الدبلوماسية؛ فقد جرى تحضير اجتماع في تونس في ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٦ يشارك فيه بن بلاّ القادم من القاهرة عبر اسبانيا والمغرب حيث عقد محادثات مع السلطان واثناء انتقال بن بلا على متن طائرة فرنسية استأجرها المغرب ويقودها طيار فرنسي . اعترضها الطيران الفرنسي وارغمها على الهبوط في مدينة الجزائر حيث اعتقل بن بلا ورفاقه. وعلى الاثر، قامت تظاهرات في غاية العنف في المغرب، وقتل خلالها ٣٠ فرنسياً، واستقالت الحكومة، وتولى حزب الاستقلال السلطة وحده وتنغصت اجواء المغرب من جراء هذا الحادث الذي شكّل بالنسبة لفوستر دالاس كارثة حقيقية، خصوصاً انه لم يكن على استعداد للقبول بمشروع العملية العسكرية الفرنسية البريطانية ضد مصر والتي اشتم فيها ان الفرنسيين يخططون لقطع الطريق بين قادة التمرد الجزائري وسبل الاتصال بقواعدهم العملياتية في القاهرة.

وكان الجنرال شال قد انشأ في قبرص جهاز « استخبارات وعمل وحماية » مهمته الاستيلاء، اذا أمكن، على البناء الذي تشغله جبهة التحرير في القاهرة، مما يوفّر له القاء القبض على بعض المسؤولين ووضع اليد على الكثير من الملفات. وكان تأثير الضباط القادة على المسؤولين السياسيين عارماً في تلك الآونة، اذ كانوا يخوضون الحرب

وحدهم منذ اعلان حالة الطوارئ عام ١٩٥٥، ومنحهم في آذار ١٩٥٦ صلاحيات استثنائية تخوّل الجيش ممارسة صلاحيات الشرطة، خصوصاً في المدن. وفي العام ١٩٥٧، كلف الجنرال ماسّو ربح « معركة الجزائر » على رأس فرقة من المظليين اثارت اساليب التعذيب التي اعتمدها للحصول على المعلومات، حملة كلامية استغلتها جبهة التحرير. غير ان من يربح بحسب هذه الاساليب لا بدّ له ان يخسر. فاذا كانت هذه الوسائل قد اتاحت تحقيق الغلبة على جبهة التحرير، فهي قد ادّت ايضاً الى الاساءة الى سمعة فرنسا في العالم، بفضل التغطية الاعلامية للاحداث الجارية، وخصوصاً في الصحافة الالمانية والاميركية.

لم يكن مقاتلو جبهة التحرير يتعدون الألف، على الأكثر، في بداية العمليات. التي انتشرت عام ١٩٥٦، في كل أنحاء الجزائر وصولاً الى أوراني وكونستاتينوا. وأظهر مؤتمر سومام المنعقد في آب ١٩٥٦ ان نتائج العمليات كانت إيجابية على الصعيد السياسي. اذا كانت الفرنسيون لم يحرزوا نجاحاً اكيداً على الارض، حين جنّدوا المتطوعين لتأمين الحراسة في المزارع والقرى، فان استمرار القلاقل والارهاب اتاح لجبهة التحرير الامساك بجماهير المدنيين الذين باتوا، طوعاً اوعنوة، مخبرين او متعاطفين معها. فيما كان التنافس بين الفئات المنظمة من حركة التمرد تنتهي بالتصفية، وهكذا تم القضاء على جماعة ميسالي حاج التي اضمحلت بحيث لم يبق منها سوى المسؤولين عن ست « ولايات » (والولاية هي الوحدة الجغرافية او قطاع عمل « جيش التحرير الوطني »). اما القيادة الجماعية في القاهرة فكانت تنفي عنها كل ضعف وتفرض على كل مناضليها هدفاً وحيداً : الاستقلال.

تكيّف الفرنسيون شيئاً فشيئاً مع هذا الوضع الذي شهده قدامى المحاربين في الهند الصينية. ولكن كيف يملك نقل تلك النفحة الصوفية من النضال المناوئ للثورة الى المجندين الجدد، بحسب ما يدعو لها

« جهاز العمل النفسي » الذي ترأسه عام ١٩٥٦ الكولونيل لاشروا ؟ تولت المكاتب الخامسة في قيادة الاركان تظهير الاعلام الحكومي ونشره، فنشر روبير لاكوست كراساً مصوراً عن ضحايا الارهاب جرى توزيعه على نطاق واسع. ونفضت « مجلة الدفاع الوطني » عنها غبار التقليد وارتدت حلّة العصر؛ ونقرأ في عددها الصادر في شباط ١٩٥٧ ما يلي : يتحسس الجندي واجب تنبيه الأمة الى الأخطار المحدقة بها ؟ وشهدت صفحاتها تشهيراً بالمؤامرة الخارجية ومكاتب القاهرة والاستراتيجية التي اعدتها بكين وموسكو لبلبلة الاوضاع. تولّى الجيش مهمات سياسية ومؤازرة الجماهير المسلحة وتجمعاتها في القرى حيث يعنى الضباط بنشر دعايتهم المناوئة لجبهة التحرير. ونتج عن تسييس فريق القاهرة للحرب الارهابية قيام حرب « نفسية » هي في الواقع سياسية، وقد سعى الجيش لخوضها بما يمتلك من وسائل في الجزائر كما في باريس : والى تأثير الفريق الضاغط من فرنسيي الجزائر على النواب والصحافة، اضيف وزن الجيش ونفوذه. فظهرت اسطورة الجندي المظلي بقيمته المعروفة، ولعبت دور الرمز في النقاش الدائر في فرنسا : هل الجمهورية مهددة بالخطر بفعل جيشها العامل في الجزائر ؟ في الواقع، يخوض الجيش حرباً لا تتلاءم مع ما يمتلك من قدرات ووسائل، فالمدرعات الثقيلة غير متوافرة وكذلك الطائرات النفاثة، والعتاد المزود به من صنع فرنسي (كالمصفحات بانهارد والدبابات ام كس، والبنادق ماس، وموران وبروساس، وكذلك المروحيات من طراز الويث...). لكنه يعتقد انه يشن في النهاية، حرباً يستطيع كسبها، شرط ان يمنحه السياسيون في باريس الوقت والوسائل. وكان زعماء « الجبهة الجمهورية » يدركون تماماً مخاطر تسييس الجيش، واضطروا، من جراء رفض جبهة التحرير التفاوض، الى زيادة المجهود الحربي، مع اليقين بان دفع الجيش الى المعركة من شأنه ان ينتزع من « كبار العسكريين » احتكار خوضها والمكاسب السياسية الناجمة عن ذلك.

فرنسا تزوّد اسرائيل بالاسلحة.

جاء ارسال المجندين الشباب الى المزارع الجزائرية لحراستها في نطاق العملية العسكرية لمنع الاضطرابات فيها، ليذكّر بحرب اخرى يخوضها الاسرائيليون ضد الفدائيين المصريين، في المزارع (الكيبوتز)؛ فكان لا بد من قيام تحالف بين اسرائيل والمتضررين من سياسة عبد الناصر، اي بريطانيا وفرنسا. لكن هل يستطيع بن غوريون تصوّر خوض الحرب ضد مصر متحالفاً مع خصمه البريطاني السابق ؟ كان الاسرائيليون اولى ضحايا الاجراءات التعسفية التي اتخذها عبد الناصر باغلاقه قناة السويس، فضلاً عن التهديد الذي يمثله المصريون والجنود العراقيون المتمركزون في معسكرات الاردن ويتهيأون لشن الحرب عليهم. لم يكن بن غوريون يملك الخيار، اذ أن بقاء الدولة العبرية الناشئة كان على المحك.

تحققت مشاركة فرنسا في تسليح اسرائيل عبر تزويدها بطائرات مطاردة جديدة من طراز ميستير ٤ من صنع داسو، ووصلت الدفعة الاولى منها في ١١ شباط ١٩٥٦ الى احدى المطارات العسكرية الاسرائيلية. جاءت هذه الصفقة التي ابقيت طي الكتمان الشديد في فرنسا، نتيجة مفاوضات طويلة وعسيرة، وكانت الحكومة الاسرائيلية قد أبدت نيتها، اعتباراً من عام ١٩٥٣، شراء عدد من الدبابات الفرنسية الحديثة من طراز ام كس ١٣، وكان شيمون بيريز وزير الدفاع يتابع باهتمام التقدم السريع والمذهل للصناعة الفرنسية في حقل التسلح. وكان موريس شومان وزير الخارجية حينئذ وكذلك الوزير جورج بيدو قد قدما بعض الوعود بهذا الشأن، لدى تسلم محمد نجيب مقاليد السلطة في مصر. ذلك ان مساندة المصريين للحركة الاستقلالية المغربية كانت تزعج فرنسا التي كانت تتقرب حينذاك من اسرائيل، على الرغم من النصائح التي أغدقها عليها شركاؤها الاميركيون والبريطانيون بوجوب الحذر من مغبة ذلك. وكانت احدى السفن الحربية الاسرائيلية قد رست

في مرفأ مرسيليا لتنقل في احتفال مهيب، رفات البارون والبارونة روتشيلد الى اسرائيل، ليدفنا فيها. عام ١٩٥٤، ضاعف الانقلاب العسكري المزدوج لعبد الناصر في القاهرة وهاشم الاتاسي في دمشق قلق فرنسا، فالكولونيلات الجدد لن يوجهوا انظارهم بالتأكيد نحو باريس بل بالاحرى، على غرار القاهرة، نحو موسكو. فاغتنم سفير اسرائيل، في فرنسا، جاكوب تسور، الفرصة ليطرح مجدداً مسألة شراء الدبابات ام كس ١٣ امام المدير العام لوزارة الخارجية في الكي دورساي، الكسندر بارودي. وكانت مسألة تسليم الاسلحة قد غدت قضايا الدولة وتخضع لتقلبات الظروف الراهنة.

في نيسان ١٩٥٤، خلص بيدو الى القبول بتسليم الدبابات لازالة العوائق القائمة على صعيد التسلح بين الاسرائيليين والعرب ؟؟ كيف يمكن اقناع الاميركيين بهذه السياسة، وهم الذين اخذوا يتصلبون في موقفهم ازاء بن غوريون، بعد الحوادث الحدودية الاخيرة مع مصر ؟ استعجل منديس فرانس ووزيراه (كونيغ في الدفاع وادغار فور في المالية) تسليم الدبابات الى اسرائيل. غير ان شيمون بيريز اخذ يطالب بطائرات نفاثة لتحلّ محل الطائرات المروحية القديمة. وتوجهت بعثة من سلاح الجو الاسرائيلي الى باريس، لان الاميركيين رفضوا تزويد اسرائيل بالطائرات بحجة عدم الاخلال بميزان التسلح في الشرق الادنى. وكان وزير الخارجية الفرنسي قد نصح اسرائيل بحصر طلبها بست طائرات، تحاشياً لاغضاب واشنطن. اما رئيس الاركان موشي دايان، فقد ابدى اعجابه بالنماذج الجديدة من الطائرات والدبابات، لدى زيارته باريس بدعوة من كونيغ. وعاد بقناعة راسخة بان « باريس يمكنها ان تصبح مركزاً مهماً للتزود بالسلاح ». مع ذلك، ابدت لندن استياءها، متذرعة بان البريطانيين انفسهم لا يمتلكون مقاتلات نفاثة من هذا الصنف في الشرق الاوسط. كانت باريس تجازف بتعديل ميزان القوى العسكرية في المنطقة.

في غضون ذلك، كان عبد الناصر يمضي في مساندة الحكومات المطالبة بالاستقلال في افريقيا الشمالية، وسط سخط المسؤولين السياسيين والعسكريين في فرنسا. واحتج منديس فرانس بصورة رسمية ضد البرامج العدائية التي يبثها « صوت العرب » منحازاً بعنف الى جانب الارهابيين الجزائريين. وفيما كان جول موش يعلن في الامم المتحدة (حيث كان يمثل فرنسا في مؤتمر نزح السلاح) تفاصيل التعاون العلمي بين فرنسا واسرائيل في ميدان الابحاث الذرية كان ديوميد كاترو، وزير الدولة لشؤون الطيران، يتسلّم موافقة الحكومة على بيع طائرات مستير ٤ الى اسرائيل، وكذلك قاذفات فوتور التي لم يكن انجز تصنيعها بعد.

في القاهرة، حكم على اسرائيليين بالاعدام شنقاً بتهمة التجسس؛ كما اشتد التوتر على ضفاف البحر الاحمر. وفي الاستعراض العسكري بمناسبة عيد الاستقلال في تل ابيب، في نيسان ١٩٥٥، صفّق الجمهور بحماس شديد للدبابات ام ١٣، واعلنت الحكومة الاسرائيلية عن ان رئيس الحكومة الفرنسية الجديد ادغار فور قد وافق للتو على تزويد اسرائيل بطائرات مسيتير ٤. هل كان يمكن قيام تحالف عسكري بين فرنسا واسرائيل في اطار حرب الجزائر ؟

علم الاسرائيليون، بعد حين، ان مصر سوف تتسلم اسلحة فرنسية. ورداً على تساؤلات جاكوب تسور، اجاب الجانب الفرنسي ان هذه الاسلحة ستسلّم في وقت لاحق وقد تمت، على حد ما اكدّه كونيغ، « لاسباب تجارية بحتة ». هل كان ادغار فور ينوي الابقاء على الحديد حامياً تمهيداً لمفاوضات محتملة مع عبد الناصر حول افريقيا الشمالية ؟ لم تفصح مذكراته عن اي شيء من هذا القبيل. في غضون ذلك، كانت بريطانيا والولايات المتحدة تزود « الريس » بالاسلحة. فلماذا لا يحق لفرنسا ذلك ؟

في حزيران، وفيما اتخذت حرب الجزائر منحى اشد عنفاً، اضطر

ادغار فور، تحت ضغط الرأي العام، لوقف تزويد مصر بالاسلحة، وللتوجه نحو اسرائيل لتزويدها بالطائرات. غير ان شيئاً منها لم يصل.

في آب ١٩٥٥، علم ان السوفيات يزودون القاهرة بكميات ضخمة من الاسلحة، وان عبد الناصر يرفض بعد الآن كل عروض الاسلحة الغربية. وثمة اسلحة يجري تفريغها على ارصفة مرفأ الاسكندرية. هذا التسلح السريع ينذر بوقوع نزاع وشيك. في باريس، حلّ بيّوت محل كونيغ في وزارة الدفاع الكائنة في شارع دومينيك. وبدا ادغار فور، هذه المرة، اكثر تصميماً من قبل على تلبية كل طلبات اسرائيل التي تعتبر نفسها مهددة بتحالف مصري ــ سوري قد يضم الاردن ايضاً. وسوف تتسلم الدبابات والمدافع والطائرات النفاثة « فور خروجها من المصنع ». حتى ان بيّوت قال انه على استعداد لتسليمها « أصنافاً تؤخذ من مخازن الجيش ». فطار الاسرائيليون من الفرح. غير ان شيئاً من ذلك لم يصل.

في الواقع، جمّد انطوان بيناي ووزارة الخارجية التسليم. واوضحت الخارجية بان الطائرات النفاثة مباعة الى الولايات المتحدة بموجب طلب مباشر الى المصنع وتم دفع ثمنها. وابلغ فوستر دالاس للوزير الاسرائيلي شاريت ان عليه الظهور بمظهر الحذر والصبور، وان الولايات المتحدة تكاد تعيد النظر بموقفها حول « توازن الاسلحة » اذا استمرت شحنات الاسلحة السوفياتية الى مصر. وفي الوقت الذي جرى فيه تركيب طائرات الميغ السوفياتية واصبحت جاهزة للطيران تلقى الفرنسيون اخطاراً من الملحقين العسكريين ومن السفير الاميركي بوجوب الغاء صفقة طائرات ميستر التي طليت باللون الاسرائيلي في مرآب مصنع مارسيل داسو. طمأنت وزارة الخارجية الاميركيين بجعلهم يعتقدون بانها لم تتخلّ عن موضوع التفاوض مع مصر حول افريقيا الشمالية. فهل كانت الكي دورسي تنوي استئناف شحن الاسلحة الى القاهرة ؟ لكن الحكومة

الفرنسية تجاوزت حسابات الكي دورسي الغامضة وخلصت الى شحن دزينة من طائرات الميستير الى اسرائيل. في شباط، وصلت الطائرات الموعودة، واشترط غي مولليه ابقاء الشحنات سرية وتجزئة الكميات المسلّمة من الاسلحة. وتسلّم الطيارون الاسرائيليون مقاليد الطائرات في فرنسا، وحضر بن غوريون الى المطار شخصياً مع اعضاء حكومته لاستقبالهم.

بن غوريون يحضن دولة اسرائيل : ١٩٤٨ ــ ١٩٥٦

هل سيفضي هذا النصر المعنوي الى تحالف مع فرنسا ؟ في مؤتمر لندن المنعقد في ايار ١٩٥٦، أبدى السوفيات وجهة نظرهم التالية : اذا كانوا يبيعون السلاح، الى سوريا ومصر، فان ذلك مردّه الى التهديد الجاثم على حدودهم الجنوبية من جراء قيام حلف بغداد الذي يرعاه جون فوستر دالاس. ولن يوقفوا شحن الاسلحة الا اذ توقف الغربيون عن تزويد دول الحلف بالسلاح، الامر الذي ترفضه بريطانيا العظمى بشدة، فهي حريصة على الدفاع عن مواقعها النفطية في العراق. وقررت الدولة الغربية الثلاث بالتالي، بيع الاسلحة الدفاعية الى اسرائيل، ونجحت فرنسا، اخيراً، في اقناع حلفائها بصفقة طائرات ميستير واوراغان. وانتهى دالاس الى الرضوخ.

وقع حادث غريب اثار حذر الرأي العام الفرنسي : علم السفير الاسرائيلي انه يجري شحن مدرعات فرنسية على سفينة مصرية في مرفأ مرسيليا. وللحال صدرت صحف مرسيليا وعلى صفحاتها الاولى : جنودنا يموتون ونحن نرسل السلاح الى العدو ». وقامت صحيفتا الفيغارو وفرانس ــ سوار باستقصاء الحقائق. واعلنت الحكومة ان الامر يتعلق بتلبية طلب سابق سبق لادغارفور ان وافق عليه. اثار النائبان ارتور كونت وروبير بيروت الموضوع في الجمعية العمومية، وتقرر وقف

شحن الاسلحة الخفيفة التي يمكن لجبهة التحرير الوطني استخدامها في الجزائر. وشبّه احد النواب عبد الناصر بهتلر، الامر الذي اثار استنكار انطوان بيناي وزير الخارجية. واستغلت الصحافة المصرية هذه المبالغات الكلامية لاثارة الجماهير العربية ضد الفرنسيين. وعندما عمد عبد الناصر بعد ايام قليلة الى تأميم قناة السويس، وصف غي مولليه نفسه، الكولونيل المصري « بالديكتاتور الصغير ». بعد ذلك، ابيح بيع الاسلحة الفرنسية الى اسرائيل بصورة مطلقة.

سبق الاجتياح الذي قام به الجيش الاسرائيلي لصحراء سيناء التدخل الفرنسي ــ البريطاني، وقبل عقد أي اتفاق بين الأطراف: ليل ٢٩ ــ ٣٠ تشرين الأول ١٩٥٦، بدأت ٤٠٠ مدرعة اسرائيلية بالهجوم بمؤازرة ١١٠ طائرات تقابلها ٤٣٠ دبابة مصرية من صنع سوفياتي وفرنسي. وهناك ٥٠٠ دبابة سورية وأردنية تحتشد على الحدود بانتظار ساعة الهجوم. استخدم موشي دايان سلاحي الدبابات والطيران معاً، حسبما كان معمولاً به ولا يزال في الحرب العالمية الثانية، الامر الذي حقق فعالية مثالية كبيرة، اذ خرق الاسرائيليون الجبهة في بضع ساعات. لماذا وقع هذا الهجوم المباغت ؟

منذ اعلان وعد بلفور عام ١٩١٧، والمستوطنون اليهود ينظمون شؤونهم في « موطنهم القومي » الذي اصبح، عام ١٩٤٨، دولة اسرائيل. فقد انضم اليهود الناجون من المذابح الالمانية، وعددهم ٩٨٠٠ نسمة، الى القادمين من روسيا والبلقان ورومانيا ليؤسسوا معاً « الانسان اليهودي الجديد » في دولة ديمقراطية حديثة. وقد عبّر دافيد بن غوريون عن ثقته بصلابة « صخرة اسرائيل » حين كان يتلو وثيقة اعلان الاستقلال في متحف تل ابيب في ١٤ ايار ١٩٥٦، وعام ١٩٤٩، تشكّل مجلس النواب (الكنيست) من ١١٠ نواب، انتخبهم، لاول مرة، الرجال والنساء الذين تجاوزت اعمارهم ١٨ سنة؛ واسند الكنيست رئاسة الدولة الى

حاييم وايزمان، ورئاسة الحكومة الى المحارب القديم بن غوريون الذي انشأ نظاماً ديمقراطياً، برلمانياً، علمانياً في البلاد. ويحوز « حزب عمال اسرائيل » (الماباي) الذي يرأسه على اكثرية شبه ثابتة تتيح له البقاء في الحكم حتى عام ١٩٦٣ دون انقطاع تقريباً. وقد كان بالتالي متسلماً زمام الحكم خلال ازمة عام ١٩٥٦.

يضم « الماباي » بضع تجمعات سكانية تنتمي الى حركات الشبيبة الاشتراكية في الكيبوتزات، وهو ليس حزباً ماركسياً اذ يضم في صفوفه العمال والحرفيين والمهن الحرة والمستخدمين في المدن. كما يحارب حزب حاروت اليميني الذي اسسه عام ١٩٤٨، قائد منظمة ارغون، مناحيم بيغن، والذي يمثل في الكنيست اليهود القادمين من اوروبا الغربية، والمهاجرين حديثاً كاليمنيين، والمغاربة فيما بعد.

وثمة حركة دينية اخرى، تعرف باسم مزراحي، وقد اصبحت عام ١٩٥٦ الحزب الوطني الديني، وهو متشدد للغاية في السياسة الخارجية. وكان من شأن هذه التشكيلة الواسعة من الاحزاب ـــ الكبيرة والصغيرة ـــ زعزعة الاستقرار داخل الكنيست، غير ان الخلافات بينها، سرعان ما خمدت فور بدء الهجوم على سيناء. ورصّت الامة صفوفها حول بن غوريون، قلقة ومصممة على القتال حتى الموت.

اعتباراً من عام ١٩٤٨، تولى الجيش الاسرائيلي وحده الدفاع عن اسرائيل، وتفرقت وحدات منظمة ارغون. يرتدي الجنود البزة العسكرية ويخضعون لهيكلية تراتبية ويخدمون تحت السلاح طيلة ثلاث سنوات (سنتين للنساء). ويتابعون بانتظام، وحتى سن الواحدة والخمسين سنة فترات تدريب مدتها ستة اسابيع. وهذا يعني ان الامة كلها مسلحة ويمكن تعبئتها على الفور. ويحرص موشي دايان رئيس الاركان، منذ عام ١٩٥٣، على تعزيز وحدات الاستخبارات والمظليين والمدرعات، وعلى تنظيم الاتصال الميداني بين سلاحي الدبابات والطيران. وتدين

اسرائيل لشجاعته وبأسه، في الانتصار السريع الذي حققه جيشها عام ١٩٥٦، اذ كان مستعداً تماماً للمعركة.

لما كان العرب المقيمون في اسرائيل (١٥٦٠٠٠ نسمة) لا يخضعون للخدمة العسكرية، فان الكتائب كانت متجانسة في تركيبها حتى ولو لم يكن الجنود يتحدرون من اصل واحد، سواء قدموا من الكيبوتزات قبل الحرب، او من المخيمات المؤقتة المقامة على مداخل المدن؛ ذلك ان الاسرائيليين، البالغ عددهم ١٨٧٠٠٠٠ نسمة، يقومون بالخدمة العسكرية بكل ايمان، في دولة تعتبر نفسها في حرب دائمة. كان من الصعب تأطير وقيادة اليهود المتحدرين من اصل يمني والقادمين الى البلاد عام ١٩٥٠، وكذلك القادمين من العراق وعددهم يقارب ١٣٠٠٠٠ نسمة. غير ان المغاربة البالغ عددهم ١٢٠٠٠٠ نسمة وقد اعتادوا بسرعة حمل السلاح. كانت اسرائيل غنية بما تنجزه من عمل : بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٣، تم انشاء ٣٥٤ قرية جديدة ساهم سكانها في زيادة الزراعات المروية بنسبة ٤٠٠٪، وفي انتاج مايكفي من الاغذية، بدءاً من عام ١٩٥٠، لسد حاجات الجيش، والسكان. لم يكن عدد سكان اسرائيل يتجاوز في ذلك الحين ٣٠٠٠٠٠ نسمة من الفلاحين ــ الجنود، وكان يجري بناء القرى الجديدة بانتظام، في شمالي النقب، لاستقبال اليهود المغاربة، اعتباراً من عام ١٩٥٤. فيما كانت الصناعات التقنية المتطورة وصناعة الطيران، والاجهزة الدقيقة والالكترونيات تعمل في ميدان الدفاع. فالدولة العبرية تخصص منذ قيامها، نسبة ١٥٪ من نفقاتها للجيش.

يعرف المستوطنون والعمال في النقب او في وادي عزرائيل ان امتهم، اذا كان كيانها هشاً، فهي ليست وحدها في العالم. واذا كانت الطائفة اليهودية في الاتحاد السوفياتي التي يبلغ عددها حوالي ٣ ملايين نسمة، لا صوت لها خلف الستار الحديدي فان للاسرائيليين خمسة ملايين

يهودي في الولايات المتحدة (وغالبيتهم في ولاية نيويورك)، وقد شكلوا فريقاً سياسياً ضاغطاً متماسكاً. وهناك ايضاً ٧٠٠٠٠٠ يهودي يعيشون في فرنسا و ٤٥٠٠٠٠ في بريطانيا. خلال ٢٥ سنة، قدمت هذه الجاليات لاسرائيل ما يناهز ٣ مليارات دولار من التبرعات — صحيح ان العمل المنسق بين رؤساء الطوائف في اوروبا ما يزال مفقوداً، ولا يصح الحديث عن « التصويت اليهودي » في فرنسا، كما هي الحال في الولايات المتحدة، غير ان اسرائيل غدت مركز استقطاب روحي واليها تتجه انظار اليهود في العالم قاطبة، خصوصاً في تلك الليلة من ٢٠ تشرين الاول، حيث كان مصيرها على المحك في سيناء.

اسرائيل والحرب المستمرة.

ظن دالاس انه نجح في الهيمنة على الشرق الاوسط وضمّه الى معسكره المناوئ للشيوعية بفضل حلف بغداد. غير ان الدول العربية كانت متنبهة للمأساة القائمة حيث يتواجه خصمان لدودان في حرب لاهوادة فيها. من جهة، هناك سوريا ومصر والاردن تنوي تدمير اسرائيل وطرد اليهود من الارض العربية. ومن جهة اخرى، اسرائيل التي يتذكر ابناؤها قلعة « ماسادا » واستشهاد الحامية الصغيرة فيها ضد قوات طيطوس، بعد سقوط اورسليم عام ٧٠ ب. م. ويشكل القتال الذي تخوضه اسرائيل في نظر يهود العالم كله، مثالاً يحتذى. اذ بعد الابادة الجماعية التي تعرّض لها شعب الله المختار، ها هو يخضع لامتحان جديد. غير ان ابناء داود مزودون بالسلاح هذه المرة.

لقد اثبتوا تصميمهم على القتال في حرب الاستقلال عام ١٩٤٨، حين تألبت على حدودهم الجيوش النظامية لكل من مصر وسوريا والعراق وشرقي الاردن ولبنان. وكانت فرقة غلوب باشا التابعة للملك الاردني عبدالله الاكثر خطراً. بالمقابل، لم يبدِ المقاتلون المصريون بسالة قتالية تذكر، وجلّهم من الفلاحين بقيادة ضباط يحرصون على راحتهم

ورفاهيتهم اكثر من اي امر آخر. وكذلك هي الحال مع السوريين الذين شكّلوا خطراً على المنشآت الزراعية القائمة على ضفاف الاردن. وكانت المعارك ضارية بوجه الخصوص مع الفيلق العربي في القدس التي تعرضت للقصف الشديد. لكن الاسرائيليين تلقوا اسلحة تشيكية وفرنسية وطائرات ومدفعية ثقيلة ومدرعات. وبعد عشرة ايام، اسفرت معارك تموز ١٩٤٨ عن انتصار محقق للاسرائيليين. وعاد الاسرائيليون في تشرين الاول ليثبتوا تفوقهم مرة جديدة حين طردوا المصريين من النقب. اذا كان الاسرائيليون فقدوا ٦٠٠٠ رجل، فانهم كسبوا اول حرب لهم، واستولوا على كامل اراضي النقب وعلى الشطر الغربي من مدينة القدس، وعلى مواقع استراتيجية شمالي قطاع غزة وفي شرقي الاردن، في الوقت الذي كان ملك الاردن عبدالله يتعرض فيه للاغتيال على مدخل احد المساجد. تجاوز عدد اللاجئين العرب الذين هربوا من مناطق القتال وهجروا قراهم، ما لا يقل عن ٦٠٠٠٠٠ نسمة، واهتمت الامم المتحدة برعاية شؤونهم في الدول التي استقبلتهم مثل مصر والاردن وسوريا ولبنان. وقد تعيّن على الجيش الاسرائيلي مقاتلة عدد من هؤلاء اللاجئين الذين انخرطوا في جيوش العدو، عام ١٩٥٦ تحدوهم الرغبة في استعادة ارضهم وقراهم.

على الرغم من عودة السلام، اعتاد الاسرائيليون حالة الحرب ضمن حدود محاطة بالاسلاك الشائكة ويصعب الدفاع عنها. وبقي السكان يعيشون، بمعدل عال من الكثافة، في شريط ساحلي ضيق، لا يزيد عرضه في الوسط عن ٦٢ كلم فقط. وتتعرض منطقة الجليل الشرقية لنيران المدفعية السورية. ويستحيل ضبط الحدود الاردنية ومنع عمليات التسلّل منها. والقدس محاصرة ومتصلة بالبلاد بممر ضيق. ويعزز المصريون مواقعهم في الجزيرتين اللتين تتحكمان بطريق خليج العقبة وتتمركز حاميتهم في شرم الشيخ. ومراقبة الحدود تضطر الدولة الاسرائيلية على الابقاء على جنودها الفلاحين تحت السلاح.

يبقى القضاء على اسرائيل، اكثر من واجب لدى الدول العربية. واستعادت مصر لحسابها الدعاية المناهضة للسامية التي كانت سائدة في روسيا القيصر وفي اوروبا عام ١٨٩٠ وعام ١٩٣٠، وراحت تغرق العالم العربي بالمنشورات المثيرة، وغالباً ما كان الضباط المصريون يعيشون في مناخ يماثل ما ساد ايام الحكم الهتلري. فالنصوص المناهضة للسامية كثرت في الكتب المدرسية، وجرى التعريف باسرائيل على انها الشر المطلق والتجسيد الحي للشيطان، واليهود (الذي كان الاسلام يحميهم في السابق) على انهم ضالّون ويتمردون على الارادة الالهية، ويشكلون راس الرمح للغرب الصناعي والعسكري والاستعماري الفاتح الذي تجتذبه شمس الشرق الادنى. واستطاع القادة العسكريون المصريون بسهولة تطويع بعض اللاجئين الشباب في وحدات الفدائيين المكلفة مضايقة القرى الحدودية الاسرائيلية. وهكذا بين عام ١٩٥١ وعام ١٩٥٦، تم احصاء ٣٠٠٠ اشتباك عسكري داخل الخطوط الاسرائيلية و٦٠٠٠ عملية تخريبية و٤٠٠ قتيل وجريح معظمهم من المدنيين. كذلك كان صيادو بحيرة طبريا وفلاحو الاردن يتعرضون لنيران الجنود السوريين. في الجنوب شهدت اطراف قطاع غزة قلاقل مستمرة. واضطر جيش الدفاع الاسرائيلي انشاء الوحدة ١٠١ التي جرى تدريبها خصيصاً لمحاربة الفدائيين والاعمال الانتقامية. عام ١٩٥٣، قامت وحدة كوماندوس اسرائيلية بتفجير منازل قرية عربية وقتلت ٦٩ مدنياً، رداً على عملية ارهابية في قرية كيبيا حيث قتل فيها امرأة وطفلاها. فندد مجلس الامن الدولي باسرائيل، لكن عندما هاجمت مجموعة كوماندوس امنية سيارة ركاب كبيرة، عام ١٩٥٤، على طريق ايلات وجرحت ٢٠ شخصاً وقتلت ١١ راكباً، لم يتعرض النظام الاردني لاية ادانة، من جراء حق النقض السوفياتي الذي يفرض ممارسة العدالة باتجاه واحد. واذا كانت اسرائيل قد اضطرت للحرب عام ١٩٥٦، فلأنها استنفدت كل الوسائل، « فلا الامم المتحدة ولا لجان الهدنة المشتركة ولا الدول العظمى

اتاحت للدولة اليهودية خياراً جدياً في وجه سياسة اللكم والركل القائمة ضدها[1].

اتاح محور باريس ــ القدس الذي جرى اعداده منذ زمن بعيد، وتظهيره في عهد غي مولليه، لاسرائيل ان تعتمد على الاسلحة الحديثة : فقد انكب شيمون بيريز مع وزير الخارجية الجديد، غولداماير، على تحديد الخطوط العريضة للتحالف، حين بدت لندن وباريس مصممتين على الحرب، اثر فشل المحاولة الاميركية في التوسط بشأن مسألة قناة السويس. وقد علمت تل ابيب ان صفقة الاسلحة المعقودة بين القاهرة وبراغ بلغت قيمتها ٣٢٠ مليون دولار، ويتلقى المصريون بموجبها ١٢٠ طائرة مقاتلة و ٢٠ طائرة نقل، و ١٥٠ مدفعاً و ٤ سفن، ويتلقى السوريون، من جهتهم ١٠٠ طائرة مطاردة من طراز ميغ و ١٠٠ دبابة. واكتشفت غولدامير، لدى تسلمها وزارة الخارجية من سلفها موشي شاريت ان مصر وسوريا عقدتا اتفاقية دفاع مشترك في ١٧ تشرين الاول ١٩٥٥، واتفاقاً آخر في نيسان ١٩٥٦ مع العربية السعودية واليمن. وبعد ما طرد الملك حسين غلوب باشا واستغنى عن الفرقة العربية، ايقنت اسرائيل ان الاردن قد انضم الى المعسكر المصري. وبذلك وجدت اسرائيل نفسها تواجه كافة الدول العربية. وقد ادت المشاركة الاميركية في حلف بغداد الى تعريض اسرائيل للخطر، من دون ان تتمكن الدول الاعضاء في الحلف من التدخل للدفاع عنها. فقد ارتكزت دبلوماسية فوستر دالاس العربية على شحن الاسلحة، الامر الذي سوّغ للاتحاد السوفياتي الدخول بقوة الى المنطقة. واستطراداً، لم يؤدِ الضغط السوفياتي الى ارباك الاميركيين في مسألة السويس، بالدرجة التي اربك بها القوتين « الاستعماريتين »، مصر وبريطانيا، حليفتي اسرائيل الوحيدتين.

---

(١) ا. برنافي، تاريخ اسرائيل الحديث.

حرب اسرائيل الخاطفة.

كانت انكلترا مرتبطة مع الاردن باتفاق عسكري واضح، غير انها اضطرت للتعاون مع الدولة اليهودية بفعل تدخل الحكومة الاشتراكية الفرنسية. ففي ١٦ تشرين الاول رضخت انكلترا لطلب غي مولليه وكريستيان بينو. وكان سلوين لويد، وزير خارجيتها يفضل تدخل بلاده في الحرب بعد بدء الهجوم الاسرائيلي بحجة اعادة النظام الى نصابه في المنطقة. واقترح على الفرنسيين قصف المصريين والفرنسيين معاً. وفي هذا السياق، كتب ايلي بارنافي يقول ان الامر يتعلق بوضع قبعة (وهي قبعة دبلوماسية المدفع) غير مطابقة لذوق العصر، على رأس اسرائيل، الامر الذي فهمه بن غوريون جيداً ». وسبق له، في معاهدة سيفر في ٢٤ تشرين الاول، وقبل بضعة ايام من دخول الحرب، ان حصل من باريس على ضمانات سياسية وعسكرية لاسرائيل التي ستلعب في الازمة دور المفجر لها. فالهجوم المحدود على سيناء « سيضع في خطر » منطقة القنال، ويسوّغ الحملة العسكرية. في ٢٩ تشرين الاول، كان لاختراق الكولونيل شارون خطوط العدو اثره البليغ، ونجحت عملية « كادش ». وجاء دور الحلفاء في الهجوم.

امتثلت اسرائيل للانذار الفرنسي ــ البريطاني الموجه الى الاطراف المتحاربة لسحب قواتها من منطقة القنال، لكن مصر رفضت الاذعان له كما كان متوقعاً. على الاثر، اقلعت الطائرات الحليفة وقصفت، في ٣١ تشرين الاول، الطائرات المصرية الجاثمة على الارض، فيما كانت الطوابير الاسرائيلية تتوجّه بعضها الى غزه، وبعضها الآخر الى القنال وشرم الشيخ. فؤجئ المصريون وارتدوا الى الوراء من دون التوصل الى القيام بهجوم معاكس. فالطائرات من طراز ميغ ١٥ التي تسلموها حديثاً دمرت، وطوابير الدبابات احرقت. وكما رأينا في معركة كورسك، في الحرب العالمية الثانية، جنود الدبابات يمتنعون عن استخدام الدبابات

الجديدة من طراز « تيغر » و« بانتير » الخارجة حديثاً من المصانع الالمانية، خشية تعريض حياتهم للخطر قبل احكام سيطرتهم تماماً على آلياتهم الجديدة، كذلك لم يكن المصريون قد تعودوا على الدبابات التي تسلموها، بحيث تغلّب الاسرائيليون الاكثر تدريباً بسهولة عليهم: ففي الاول من تشرين الثاني، تم الاستيلاء على رفح والعريش، وفي الخامس منه على شرم الشيخ. واستغرق احتلال سينا ١٠٠ ساعة، وكلف الجيش الاسرائيلي ١٨٠ قتيلاً. في اليوم ذاته، هبط المظليون الفرنسيون والبريطانيون في بور سعيد، فيما توجهت قوة مدرعة الى السويس. هل ستنهار مصر الناصرية ؟

رأت اميركا في هذا الهجوم عملاً غير مقبول. ودعا فوستر دالاس الى تشكيل « جمعية اصحاب الحق في استخدام القنال » التي قاطعتها مصر. وحال الفيتو السوفياتي في الامم المتحدة دون حدود توصية لعبد الناصر بقبول تولي تلك الجمعية ادارة القنال. غير ان قطع المفاوضات — في الوقت الذي كانت مصر قد وافقت على المبادئ الستة التي حددها مجلس الامن (حرية المرور احترام السيادة المصرية، التحكيم وتحديد رسم المرور)، بدا لايزنهاور « ضربة قاضية للامم المتحدة ». واعادت هذه الحملة الاستعمارية الى بساط البحث روح حلف بغداد واتاحت للسوفيات التسلل الى المنطقة باعتبار انهم يقفون في وجه قوى استعمارية ادانتها منظمة الامم المتحدة نفسها. والغريب ان الولايات المتحدة قد اتخذت من الاتحاد السوفياتي شريكاً لها في هذه القضية؛ اذا كان حق النقض الذي مارسته لندن وباريس، في ٣٠ تشرين الاول، قد حال دون ادانة واشنطن للهجوم الاسرائيلي في الجمعية العمومية، فان القرار الذي اقترحته اميركا، في ٢ تشرين الثاني اشترط وقفاً فورياً للنار. وبين الدول البالغ عددها ٢٧٥ (بزيادة ٢٥ دولة عن عام ١٩٤٥)، صوتت ٦٤ منها مع القرار. وكانت اوستراليا

ونيوزيلاندا الوحيدتين اللتين اتخذتا جانب الدفاع عن الاطراف المهاجمة الثلاثة.

في فرنسا، ايّد الاشتراكيون بغالبيتهم سياسة غي مولليه المصرية (على الرغم من معارضة الراديكالي منديس فرانس للحملة العسكرية). في لندن، تظاهر انصار حزب العمال ضد ايدن ولويد. وفي اميركا، اعيد انتخاب ايزنهاور الذي تغلب بسهولة على ستيفنسون، من جراء اقتراح هذا الاخير وقف انتاج القنبلة الهيدروجينية، الامر الذي بدا للاميركيين في غير محله. واقسم الرئيس الاميركي على التوراة في « جو من الارتياح والبهجة ». في الواقع لعبت السياسة الخارجية دوراً ثانوياً للغاية في الحملة، وكان للمباغتة في عملية « كادش » الاثر البليغ في نجاحها.

رفضت بريطانيا وفرنسا اخذ قرار الامم المتحدة حول وقف النار بعين الاعتبار. ونوى المصريون، بعد عملية بور سعيد، الاستسلام، غير ان السوفيات عرضوا على الاميركيين القيام بعملية مشتركة وصفها ايزنهاور « باللامعقولة » مساء الخامس من الجاري، وجهّ الماريشال بولغانين الى باريس ولندن والقدس رسائل تهديدية، معلناً ان الاتحاد السوفياتي سيتدخل بصواريخه عند الاقتضاء. في ٦ تشرين الثاني، وهو يوم انتخاب رئيس الولايات المتحدة، كان انطوني ايدن متشنجاً للغاية، واستقال. ثم تبعه غي مولليه. في ٧ تشرين الثاني، استعادت الامم المتحدة الزمام وانشأت قوة دولية مهمتها الحلول محل الجيوش الغازية التي عادت ادراجها. اما قناة السويس التي سدتها هياكل السفن الغارقة، فلم تعد صالحة للعمل. في فرنسا وبريطانيا، جرى توزيع بطاقات تقنين المحروقات. وفي تكساس، بوشر في بناء ناقلات نفط ضخمة للطواف حول رأس الرجاء الصالح في افريقيا.

في الحقيقة، لم تحقق اسرائيل سوى هدف واحد، هو تدمير القوة المسلحة المصرية، ولم تقدم لها المشاركة العسكرية الحليفة، سوى

مساعدة طفيفة، باعتبار ان الغطاء الجوي الفرنسي كان قد امسى عديم الفائدة بعد وضع الطائرات المصرية خارج المعركة من جراء تدميرها. وتم الانسحاب من سيناء وقطاع غزة وشرم الشيخ، اعتباراً من كانون الثاني ١٩٥٧، الامر الذي أثار عاصفة من التظاهرات في المدن الاسرائيلية كافة. وبقيت قناة السويس مؤممة ومحظرة على السفن الاسرائيلية. ووافق البريطانيون بعد مدة على اداء رسوم المرور عبر القنال الى عبد الناصر.

لم يكن بن غوريون راغباً في تحمّل الحصار القائم على خليج العقبة، وخشي استئناف العمليات الفدائية انطلاقاً من غزة. فحقق بعض النجاح حين اعلنت مجموعة من ١٦ دولة بحرية، ضمانها لحرية الملاحة في الخليج. وصلت القبعات الزرق محل القوات المصرية في قطاع غزة. وقد ردّ بن غوريون على الذين اتهموه بتبديد « ثمار النصر »، بان حدود البلاد الجنوبية اصبحت بعد الآن محمية وان البحر الاحمر اضحى مفتوحاً امام سفنه التجارية، وهي نتيجة لا بأس بها.

وحدهم الغربيون كانوا الخاسرين. فالانسحاب السياسي الفرنسي والبريطاني من الشرق الاوسط اوجد فراغاً ويخشى ان يفيد منه السوفيات. كان الفشل ذريعاً خصوصاً لفرنسا التي اعاقتها حرب الجزائر. حتى ولو خسر عبد الناصر المعركة امام اسرائيل، فانه سيساعد الاستقلاليين الجزائريين من دون تردد، وسوف يحظى بدعم الولايات المتحدة التي شجب اعضاؤها (ومن بينهم الامم المتحدة) الحملة العسكرية الاستعمارية عليه. مع ذلك، كان من مصلحة الولايات المتحدة تأكيد حضورها في المنطقة. وكانت الغاية من « مبدأ ايزنهاور » الذي اعلنه الرئيس في آذار ١٩٥٧، هو الافساح في المجال له « لاستخدام القوات المسلحة لصالح كل دولة في الشرق الاوسط تطلب المساعدة ضد كل عدوان مسلح تشنه عليها كل دولة تلتزم الشيوعية الدولية ». وهكذا وجد الكونغرس ما يعوض به النواقص الفاضحة التي تضمنها حلف

بغداد، ووافق على اعطاء الرئيس صلاحية القيام بعملية محدودة من شأنها انقاذ دولة معرضة للخطر، وظن انه بذلك يطمئن اسرائيل.

خروتشوف وحركة الحياد في باندونغ

ثمة معسكران ترتسم خطوطهما على خريطة الشرق الاوسط. معسكر موسكو، ومعه القاهرة ودمشق؛ ومعسكر واشنطن الذي ورث المواقع الفرنسية والانكليزية، والى جانبه الأردن (حيث ساند فوستر دالاس الملك حسين ضد الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال نوار) والعربية السعودية التي انضمت الى المعسكر الغربي لاسباب تتصل بمصالحها النفطية. واذا كان خروتشوف قد تورط بهذا الشكل المتهوّر في الشرق الاوسط، فلأنه كان قد انساق في تيار جارف غمر الدول الحديثة الاستقلال، من البحر الاحمر حتى المحيط الهادئ : رأت موسكو في حركة الحياد التي نادى بها نهرو وعبد الناصر، سياسة ايجابية لكونها تخلق قوة ثالثة تضم الدول المتحررة من النفوذ الاميركي. وقد رمى تقرب خروتشوف من تيتو احتضان هذه الحركة غير المتوقعة، التي كانت بكين تتابع هي ايضاً مسيرتها باهتمام بالغ. اذا كانت موسكو تدعّي كونها زعيمة الحركة الشيوعية الدولية، فينبغي لها ان تكون منارة العالم الثالث وصديقته وحليفته.

انعقد مؤتمر باندونغ، في اندونيسيا من ١٨ الى ٢٤ نيسان ١٩٥٥، ووجّه الدعوة اليه خمسة اعضاء من « مجموعة كولومبو » هم : الهند وسيلان وباكستان واندونيسيا وبيرمانيا، وحضرته خمس وعشرون دولة. وتمثلت الدول العربية المستقلة بكل من مصر وليبيا والعراق وسوريا ولبنان والاردن واليمن والعربية السعودية وكذلك تركيا وايران وافغانستان والحبشة. وتمثلت افريقيا بمندوبين من غانا وليبيريا والسودان. وحضر من اسيا مندوبو فيتنام الشمالية والجنوبية، ولاوس وكمبوديا وتايلاند والفيليبين والنيبال. وتمثلت بكين واليابان. واستثنيت من الدعوة اسرائيل

وتايوان والكوريتان لاعتبار هذه الدول مرتبطة بالكتلتين العالميتين. ندّد مؤتمر باندونغ باجماع المشاركين فيه بالاستعمار والتمييز العنصري، مشيراً بالاصبع الى جنوبي افريقيا والولايات المتحدة حيث تزايدت الفتن العرقية بين البيض والسود في عهد ايزنهاور. كما ندّد بالاستعمار الفرنسي في المغرب وأيد اقتراحاً تقدمت به بكين يؤكد « حقوق الشعب العربي في فلسطين ». وعندما اقترحت سيلان ادانة الاستعمار السوفياتي في اوروبا الشرقية، تحدث نهرو، الملهم الحقيقي للمؤتمر، عن السلام الدولي وعن انشاء قوة ثالثة تهدف الى تأمين التوازن في العالم...

هكذا سعى رئيس وزراء الهند الى مراعاة جانب الاتحاد السوفياتي. وجاء موقفه متوافقاً مع سياسة بلاده الخارجية التي امتنعت لتوها، في الاول من آذار ١٩٥٤ عن قبول مساعدة عسكرية اميركية. وسبق لنهرو ان انتقد بشدة حلف بغداد وسواه من الاحلاف العسكرية. وبعدما ازال آخر آثار الاستعمار في بلاده (الوكالات التجارية الفرنسية الخمس في الهند، اضافة الى الوكالة البرتغالية « غوا » التي بقيت حتى عام ١٩٦١)، ادان ايضاً الهجوم الفرنسي ــ البريطاني على السويس ــ واستقبل تيتو بحفاوة بالغة عام ١٩٥٥، وعقد معاهدة صداقة مع مصر ودعا الكولونيل عبد الناصر لزيارة نيودلهي. وانتقل خروتشوف نفسه الى الهند بصحبة بولغانين في نهاية عام ١٩٥٥، معلناً بذلك تأييده « لحركة الحياد » ولوجوب تحديد « بقعة سلام » في المحيط الهندي.

هل كان بوسع الاتحاد السوفياتي تعويض المساعدة المالية والعسكرية التي كانت تقدمها الولايات المتحدة لدول المنطقة، وعبر ذلك، امتلاك الوسائل التي تتيح لها ارساء قواعد استعمار جديد في بحار الجنوب، تحت غطاء حماية حركة الحياد ؟ كانت القارة الهندية تشكل حاجزاً جبلياً يفصل بين الشرق الاوسط وبلاد كونفوشيوس، وغدت بالتالي هدفاً رئيسياً في السياسة السوفياتية، لان من يضع يده على الهند، يستطيع التحكم بالبحر الاحمر...

لم تكن مساعدة الكرملين لدول المنطقة ذات طابع بريء لكنها اتسمت بالاعتدال. وعندما قام بولغانين وخروتشوف وميكويان بزيارة بلغراد، في ٣ حزيران ١٩٥٥، كانوا يهدفون الى نشر « مبدأ التعايش السلمي » في كافة الدول من دون الاخذ بعين الاعتبار « الفوارق الايديولوجية والاجتماعية » بينها، الامر الذي يسوّغ التغلغل السوفياتي الى الدول الاسلامية والهند. كان خروتشوف يدعو، ليس فقط الى نوع من التعددية داخل الكتلة الشيوعية من خلال مصالحته مع تيتو بل الى عقد اتفاقات سلام في مناطق خطرة من الكرة الارضية، لاسيما في الخليج الفارسي والبحر الاحمر والمحيط الهندي.

حصل تيتو على مساعدة اقتصادية لا بأس بها. وكانت باكستان وافغانستان، بعد الهند، قد استقبلتا القادة السوفيات نال نهرو مساعدة مالية سوفياتية قدرها ١٣٥ مليون دولار لبناء مجمع كبير لصناعة الصلب، مع توفير المساعدة اللازمة على صعيد الآلات والخبرة التقنية. وكانت موجة جديدة من التأميم قد شملت القطاع المصرفي والنفط في الهند. فكان لا بدّ من الاعتماد على المساعدة السوفياتية في هذا الحقل ايضاً، مما قد يؤدي الى خلل في الميزان التجاري لصالح الاتحاد السوفياتي ودول « الكوميكون » والخليج الفارسي، وعلى حساب الولايات المتحدة.

كان لابدّ لهذه السياسة الخارجية الجديدة من ان تستتبع ايضاً سعي خروتشوف لاعطاء الاولوية للصناعات الثقيلة والحربية. اعتمدت موسكو على حركة « الحياد » لوضع برنامج تزويد دول العالم الثالث بالاسلحة من كافة الاصناف وعلى نطاق واسع. ولم تتدخل في الحياة السياسية الداخلية للدول حتى انها تركت شاه ايران يطارد الشيوعيين — كما هي الحال في العراق وسوريا ومصر حيث يتعرضون للمراقبة والاضطهاد. في دمشق، تأسس حزب البعث وضم عدداً من الاشتراكيين والمجددين الاصلاحيين العرب. وكان مؤسسون بالضرورة في خط خروتشوف لان ميشال عفلق وصلاح بيطار كانا يبشّران، مثل عبد الناصر، بالحياد

والاشتراكية والقومية العربية. زد على ذلك ان البعث كان علمانياً.
وبين عام ١٩٥١ وعام ١٩٥٤، كان حزب الدولة في سوريا والمؤيد للشيشكلي.

كانت عقيدته العروبية تساعد خروتشوف على زرع بزور العاصفة في صحراء الشرق الادنى، اذ لم تكن تستهوي « الاخوان المسلمين » الارهابيين في مصر، الذين كانوا يعتبرون عبد الناصر وحزب الاتحاد الاشتراكي العربي من افرازات الغرب العلماني والملحد والمادي. كان هدف الناصريين الوحيد تحقيق ثورة الطبقات الصاعدة التي استولت مع الضباط على السلطة، في وجه طبقة ملاكي الاراضي السابقين. كان اتاتورك ما يزال مثالاً يحتذى في الشرق الادنى، اذ كان الضباط المصريون يعتقدون بجدوى قيام دولة لا دينية في وجه قوى الغرب السياسية والاقتصادية وعلى ألّا تتورط في نزاعات الدول المهيمنة، وتسعى من خلال التنمية الاقتصادية والاصلاح الزراعي الى انشاء تكتل من الدول المتحدة. غير ان حزب جلال بايار الديموقراطي فاز باغلبية الاصوات، في تركيا، اعتباراً من عام ١٩٥٠، واخذ يوجّه البلاد نحو الولايات المتحدة والحلف الاطلسي، الامر الذي اثار غضب الضباط في الجيش التركي، الذين اتهموا، عام ١٩٦٠، رئيس الحكومة مندريس بخدمة « الليبرالية الاقتصادية والخضوع للاميركيين » وتم اعدامه شنقاً. من الطبيعي ان يغتبط خروتشوف للميول القومية والاتجاهات المناهضة للغرب في اوساط العسكريين في الدول المحايدة، اذ كانوا، لدى تسلمهم السلطة، يعمدون الى بناء دول منفتحة على تغلغل النفوذ السوفياتي : ومن يستطيع غير الاتحاد السوفياتي، تقديم المساعدات التقنية والمالية والعسكرية لها كي تقف في وجه الولايات المتحدة ؟

شباط ١٩٥٦ : الضربة الاولى « للتعايش السلمي ».

عرض خروتشوف على دول البحر الاحمر والمحيط الهندي نموذجاً

من الاشتراكية المتجددة والمسالمة « والمتحررة من الستالينية »، وقد لزم خروتشوف اربع سنوات (من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٥٧) كي يوطد سياسته الجديدة في قلب الاتحاد السوفياتي والدول الاوروبية الدائرة في فلكه. لدى وفاة ستالين، لم يكن خروتشوف سوى الامين العام الثاني في اللجنة المركزية. وقد اتاح له تحديد صلاحيات مالينكوف ودعم كاغا توفيتش وبولغانين، ان يصبح الأمين العام الاول. واستطاع ان يضع يده على امانات سر لجان الحزب الاقليمية التي كان لها الرأي الاخير في اللجنة المركزية. وما إن تخلص من هيمنة بيريا، حتى راح يعتمد على قادة الجيش وجهاز ك ج ب. وتغلّب على مالينكوف في مواجهة بينهما عام ١٩٥٥، اصبح على اثرها جوكوف وزيراً للدفاع في حكومة بولغانين. حين نجح خروتشوف في السيطرة على المواقع الرئيسية في جهاز الحزب، شرع ينتقد السياسة الخارجية المحافظة التي يتبعها مولوتوف ويكثر من الحديث لاول مرة، بدعم من ميكويان، عن « التعايش السملي ». حينذاك قام برحلة الى الصين حيث وقع اتفاقات عديدة اتاحت للسوفيات اطلاق ١٤٦ مشروعاً صناعياً ضخماً في تلك البلاد. كان التعاون مع الصين ويوغوسلافيا تيتو يأخذ حيزاً مهماً في سياسة خروتشوف الجديدة. وقد استطاع خروتشوف ممارسة الاعتدال في اوروبا، بعد ان حقق انفتاحاً واسعاً في الشرق؛ مثاله ان حلف فرصوفيا الذي نشأ في ايار ١٩٥٥ في عهد مولوتوف، رداً على قيام الحلف الاطلسي، حاذر ضم المانيا الشرقية على الفور اليه، كما وافق الاتحاد السوفياتي، في ١٥ ايار ١٩٥٥ على سحب قواته من النمسا، بصورة متزامنة مع انسحاب القوات الغربية. اذا كانت قمة جينيف قد فشلت، فان السوفيات ارتضوا لاول مرة الانسحاب من اوروبا ومغادرة غينيا : شعر اديناور، حينذاك، بتغيّر اتجاه الريح، فذهب الى موسكو لاقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي.

كان خروتشوف يشغل منصب الامين العام الاول للحزب، عندما

القى، في شباط ١٩٥٧، امام ممثلي ٥٥ حزباً شقيقاً و ١٤٣٦ مندوباً الى المؤتمر العشرين، خطابه حول « القضاء على الستالينية ». وأكدّ فيه ان ميزان القوى في العالم قد تغير، وان الاتحاد السوفياتي يستطيع الافادة من موقعه الايجابي بغية فرض الاشتراكية بالوسائل السلمية، وان « العبور الى مرحلة الشيوعية » يتطلب العودة الى دولة القانون. اثار هذا الكلام في المعسكر الاشتراكي نوعاً من الزلزال العنيف. وندّد الامين العام الاول « بعبادة الشخص » لدى ستالين، لكنه استهجن تردده واجرامه وفضح مسؤوليته في هزيمة عام ١٩٤١، ووصفه بسفاح الشعوب القوقازية التي اتهمت زوراً بالتعاون مع العدو عام ١٩٤٥، واعتبره مسؤولاً عن القطيعة مع تيتو وعن اضطهاد الاطباء اليهود.

رمى خروتشوف من تلاوة « تقريره السري »، ليل ٢٤ — ٢٥ شباط الى تأكيد سيطرته على جهاز الحزب. وعندما كشفت صحيفة « نيويورك تايمز » مضمون التقرير، اضطر خروتشوف لخوض معركة لاهوادة فيها، في موسكو، ضد المحافظين الذين سعوا للنهوض مجدداً، معتمدين على امانة سر اللجنة المركزية (حيث سبق لخروتشوف ان ادخل اليها جوكوف وشيبيلوف وبريجنيف وكان انصار العودة الى الوراء يتذرعون بالاضطرابات التي سادت في بولونيا والمجر: ففي حزيران ١٩٥٦، انفجرت سلسلة من الاحداث المناوئة للاتحاد السوفياتي في بوزنان. وكان غومولكا قد تولى الحكم في فرصوفيا تحت ضغط الشارع واشترط « سلوك طريق بولونية معينة باتجاه تحقيق الاشتراكية ». توجّه خروتشوف الى فرصوفيا بصحبة مولوتوف وبولغانين بغية تنظيم عملية قمع الفتنة واعطاء الامر للدبابات بالتقدم. لكنه اضطر أمام التصميم البولوني على المواجهة، الى سحب الماريشال روبوسوفسكي والمستشارين السوفيات من البلاد.

في بودابست، لم يستطع تحاشي المأساة: سبق له في تموز، اثر بداية الاضطرابات في بولونيا، ان فرض رحيل حكومة الستاليني

راكوسكسي. لكن المجريين رغبوا بالحصول على المزيد، واسفرت انتفاضة ٢٢ و ٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٦ عن عودة الديمقراطية وجلاء الجيش الاحمر. بعد فشل تدخل الدبابات في المرة الاولى، وافق ميكويان والسفير اندروبوف على تأليف حكومة برئاسة ناجي، وتولى كادار منصب امين عام الحزب. وما عتم ناجي ان تزعم الثورة واعلن في الاول من تشرين الاول، اعادة العمل بنظام تعددية الاحزاب وانسحاب المجر من حلف فرصوفيا والانضمام الى « حركة الحياد ». كان خروتشوف يرغب بالحياد للآخرين وليس للبلدان الشيوعية واطلق الجيش الاحمر على بودابست : ٢٠٠٠٠ قتيل. خطف ناجي على يد جهاز ك.ج.ب. وحوكم ونفذ به حكم الاعدام في رومانيا. واستتب الامن والنظام في فرصوفيا وبودابست في آن معاً. في موسكو، كان المحافظون يندددون بنواقص عملية « القضاء على الستالينية »، التي باتت تهدد البلاد. وافادوا من وجود خروتشوف خارج البلاد في زيارة الى فنلندا ليطالبوا باستقالته. فاشترط تحكيم اللجنة المركزية. سارع جوكوف الى الاستعانة بالطائرات العسكرية لنقل اعضاء اللجنة المركزية في ٢٢ حزيران وقررت عزل مولوتوف وكاغا نوفيتش (ولي نعمة خروتشوف)، ومالينكوف وسابوروف، « بسبب نشاطاتهم الهدامة »؛ وترقية جوكوف وبريجنيف. كلف مالينكوف بادارة محطة توليد في سيبريا وسافر مولوتوف الى مونغوليا لتولي منصب سفير فيها. بعد فترة قصيرة، اتهم جوكوف الذي استعان بالجيش، بالبونابرتية، وعزل بدوره. وبذلك تغلب خروتشوف على الازمة، واستطاع فرض سياسته على الجميع.

تجنبّ خروتشوف اعادة النظر في دور الحزب ومبدأ اولوية الصناعة الثقيلة على ما عداها. وخصص المراكز الرفيعة للعسكريين الذين تعرّضوا للاضطهاد في عهد ستالين، وأولى تحديث السلاح مركز الصدارة من اهتماماته. رفض اطلاق الحرية للمثقفين، وارغم الكاتب بوريس باسترناك والحائز على جائزة نوبل، على نشر تصريح مناوئ للغرب في اليرافدا.

ودفع بكينز بورغ وبوكوفسكي اللذين آمنا بالتغيير، الى صفوف المعارضة قبل ان يرميهما في السجن، وسوف يتوليان خفية توزيع اولى الكتب المحظورة.

ارتدت اقالة جوكوف معنى عميقاً : كشف تصريحه في البرافدا، في ٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ حين قال انه اراد « اخراج الجيش من دائرة رقابة الحزب »، عن وجود صراع عميق اسفر في النهاية عن هزيمة المتمسكين بالجيش الاحمر، ذي الوحدات المدرعة المتعددة وبكثرة الماريشالات فيه من « اكلة الفولاذ » في الحرب العالمية الثانية بعد اطلاق سبوتنيك، ادّى النقد الذاتي الى تعيين « الماريشال » او ستينوف، وهو مدني اعتمر قبعة عسكرية من طراز جديد : مقابل السلطة السياسية المتميزة الذي يعمل خروتشوف على تركيزها، والتي تعيد النظر في دور الاتحاد السوفياتي في العالم، ينبغي اعادة تحديد الوسائل العسكرية، مع ايجاد رؤيا جديدة لمناطق النزاع في العالم لا الانسحاب الاستراتيجي الذي يفرضه « التعايش السلمي ». وعلى الفور، استنتج ماوتسي تونغ ان على الصين اعطاء الاولوية للبرنامج النووي الذي اعده ني رونغزني، على الجيش الشعبي الذي يدافع عن بقائه اولئك المتحجرون من ايام الحرب الاهلية وعلى رأسهم وزير الدفاع بينغ ديهو.

حملة « المئة زهرة » و « الوثبة الكبرى الى الامام ».

اثارت مشكلة الشرق الاوسط اهتمام الصين؛ فقد كشف تزويد مصر بالاسلحة عن نوايا خروتشوف ازاء العالم الثالث. ذلك ان الطريقة السوفياتية المعتمدة لنشر الاشتراكية، من خلال الصناعة قد اقترنت بتقديم الوسائل العسكرية الحديثة ويخشى ان تتغلب على ما عداها في الكثير من المناطق، اذا لم تستعجل الصين تحقيق برنامجها الاقتصادي من اجل التوصل الى فوائض تتيح بناء قوة عسكرية، ومنح البلاد قدرات

مالية وتقنية عالية. وجرى التحرك على مستويين، تولى ماو نفسه التنسيق بينهما، بدا في المرحلة الاولى انه يشكل الطريق التي رسمها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي، ويبحث عن حل صيني للتحرر من الستالينية والقضاء عليها، وفي الوقت نفسه، متابعة عمليات التأميم في الزراعة والصناعة والتجارة، في البداية كان ماو يعارض الاصلاح الجذري، ثم قرر فجأة، في تموز ١٩٥٥ اطلاق « موجة عارمة من الاشتراكية في الارياف ». في كتابه بعنوان « الروابط العشر الكبرى » الذي نشره في نيسان ١٩٥٦ (بعد مضي شهرين على المؤتمر العشرين)، انتقد المغالاة في المركزية وتخلف التخطيط الستاليني، واطلق في الوقت عينه، بين كانون الثاني ونيسان ١٩٥٦، برنامجه المعروف باسم « الوثبة الكبرى الى الامام » والذي انتهى الى فشل ذريع.

الحقيقة ان طبقة الفلاحين لم تستسغ التأميم، باعتبار أن انتاج الحبوب قد انخفض، وان آلاف المنتجات الخارجة من المحترفات الشعبية قد رميت جانباً لانها غير نافعة، مثل تلك السكك الضيقة المعدة لحراثة الارض وزرعها بطريقة مكثفة. كيف يمكن التصدي لنزعة موسكو التغييرية ؟

لا شك ان زوأنلي قد غيّر موقفه في السياسة الخارجية : اذ ايّد غومولكا وناجي في المجرّ وتدّخل الجيش الاحمر في بودابست كما عزم ماو على ضرب المعارضة، ودعا في ايلول ١٩٥٦، ولاول مرة منذ عام ١٩٤٦، الى مؤتمر عام للحزب، ضم ٤٦ وفداً من الاحزاب الشقيقة، بغية افساح المجال في الكلام للمعارضة. شرح حينذاك دينغ كسياوبينغ نظريته « الواقعية » حول ضرورة التنمية الاقتصادية المرحلية التي ترمي جانباً النهج الستاليني. اطلقت حملة تصحيح حركة « المئة زهرة » في ٢٧ نيسان المقبل. وقد امكن الاعتقاد ان الصين تجاوزت دعوة « خروتشوف التغييرية » : اذ تضاعفت انتقادات العمال والفلاحين

والمثقفين، وطالبت رابطة الشبيبة الشيوعية التي يرأسها هوياوبانغ بالقضاء على الديكتاتورية. وامتلأت جدران الجامعات بالكتابات المرتجلة، فيما كانت صحيفة « كلارتية » الذي تنشر ما تخطّه اقلام مثقفي الحزب، تطالب باصلاحات ديمقراطية. هل في الامر فخّ نصبه ماو او حركة عفوية بلبلت جهاز الحزب ؟ في كل حال، استعاد الحزب خطه بقوة في حزيران ١٩٥٧، منددأ بفضيحة « اليمينيين ». حتى كانون الاول، طال القمع الطلاب والمثقفين والعمال والفلاحين الذين تمادوا في سيرهم في خط الحركة. لم يعرف الرقم الصحيح لضحايا الحملة « المناهضة لليمين »، غير ان طلاب بكين خضعوا « للاعمال الشاقة التصحيحية ». وجرى اعدام ثلاثة « يمينيين » أمام عشرة آلاف شخص في هانيانغ، وتمّ تشغيل ١٢٦٠٠ طالب خلال الفرص لجمع الزبل في مزارع الدولة، كما انتقل ٣٠٠٠ آخرين من شنفهاي للعمل في بناء البيوت الريفية. اعتمد ماو على المحازبين في الاقاليم لتطهير الجيش والحزب، وحقق نصراً كاملاً، اذ تم اعداد ما يلزم للاسراع في عملية نشر الاشتراكية في الارياف التي اطلق عليها « الوثبة الكبرى الى الامام ».

لم تنطو هذه العملية على قطيعة مباشرة مع الاتحاد السوفياتي. اذ اتبعت الصين الطريقة الستالينية في التأميم الزراعي القسري كما سلكت طريق موسكو حيث عقدت مع خروتشوف اتفاقاً حصلت بموجبه على مساعدة عسكرية وذرية. واعلن عن اتخاذ اجراءات لامركزية في التخطيط، في خريف عام ١٩٥٧ وانشئت ست مناطق اقتصادية، الهدف منها اثارة « عاصفة شيوعية » من خلال بعث التنافس السليم بين المناطق. تطابقت هذه الطرائق مع النموذج السوفياتي المعتمد حديثاً؛ حيث كان خروتشوف يأمل ايضاً في دفع العجلة الاقتصادية بواسطة جمهوريات الاتحاد السوفياتي.

قيض لماو ان يشاهد تجمع القوى البشرية والتقنية المتوافرة في

التعاونيات الكبرى (داش) واولى « العاميات الشعبية » في هينان، حيث احتشد عشرة ملايين فلاح « لتحلية » الريف بالمياه. ونقل ٢٠٠٠٠٠ عامل بالقوة الى المناطق الاكثر فقراً. جال ماو في الارياف عام ١٩٥٨، مشدداً على فكرة الانتاج الجماعي. وتعرّض المعارضون والفائزون والمخربون للعقوبات الجماعية الصارمة. واستبدلت الاسواق « بمراكز تبادل »، والغيث قطع الارض الصغيرة وتوزعت الموارد وأدوات الحراثة بالتساوي بين الجميع. وازدهرت في القرى المدارس المسائية للتعليم المهني ومحو الامية. واستخدم فائض المحاصيل في تمويل حركة التصنيع عام ١٩٥٩ واستيراد الآلات السوفياتية. كما جرت تعبئة الفلاحين للقيام بمهمات دفاعية في اطار ميليشيات فلاحية، عندما ظهر الاسطول السابع الاميركي في آب ١٩٥٨، في مضيق فورموزا. مع ذلك، اعلن خروتشوف، في موسكو، عن فشل تجربة « الوثبة الكبرى الى الامام ». فالنقص في السلع الغذائية استوجب اعادة النظر في الاهداف الطموحة، وفشل انتاج الحبوب في سد الحاجة. عام ١٩٨٨، تجرأ بينغ ديهو وزير الدفاع على الوقوف في وجه ماو، منددا بالمجاعة ومعلناً قيام ثورة قريبة في الارياف، وسوف يفقد منصبه ويموت في السجن. وقد اعلن ماو لجنود بينغ : « اذا انتم جيش التحرير، لن تؤيدوني، فسوف اقيم الجيش الاحمر في وجهكم ». كان الخط الغالب في بكين يتعارض تماماً مع سياسة موسكو. والقطيعة بين ماو تسي تونغ وخروتشوف استكملت عدتها، حين انتفت وحدة الاهداف بين جباري العالم الشيوعي. فانطوى النهج الصيني على مغالطة ستالينية تاريخية على الرغم من فشل الحلم اللامعقول المعروف « بالوثبة الكبرى الى الامام » وسقوط مئات الآلاف من الضحايا في سبيل تحقيقه.

المساعدة العسكرية السوفياتية للعرب

ادّى تطوّر الصين الى تفجير الامبراطورية الحمراء والى تحرير نظام

خروتشوف في علاقته الجديدة مع الغرب فضلاً عن اتاحة الفرصة لكسب مزيد من الدول في العالم الثالث الى جانبه.

هل استطاعت الولايات المتحدة دق اسفين في خاصرتي الجبارين ؟ حفلت ولاية ايزنهاور الثانية بالاضطربات العرقية والازمة الاقتصادية وارتفاع البطالة، مما اسفر على فوز الديمقراطيين في الانتخابات التشريعية عام ١٩٥٨؛ فانتقل الكونغرس الى المعارضة، وتقلصت حرية التحرك عند الرئيس. كما ادى اطلاق سبوتنيك الى تضاؤل النفوذ الاميركي. وطالب احد النواب باعلان « اسبوع الخجل والخطر »، فيما اعلن ليندون جونسون، وهو سياسي من تكساس عن الكارثة قائلاً : هيمنت الامبراطورية الرومانية على العالم بفضل الطرقات التي انشأتها، والامبراطورية البريطانية، بفضل اسطولها البحري. وها هم الشيوعيون يغزون الفضاء ». سعى الرئيس للرّد على التوازن القائم بين الجبارين، من خلال اقامة قواعد للصواريخ في دول حلف الاطلسي، لكن الدول التي وافقت على وضع صواريخ نووية في قواعد قائمة على ارضها لم تتجاوز الثلاثة وهي بريطانيا وتركيا وايطاليا. مع ذلك، استمر برنامج التسلح، مضيفاً مزيداً من الخلل في الموازنة. واعتباراً من كانون الاول ١٩٥١، بدأت الولايات المتحدة انتاج الكهرباء بالطاقة النووية. وفي شباط ١٩٥٢، وضعت قيد العمل محركاً للغواصة « نوتيلوس » ذا دفع ذري. في آب، عبرت نوتيلوس، لاول مرة، القبة الجليدية تحت القطب الشمالي. وفي كانون الاول ١٩٥٧، صار بوسع الرئيس عرض استخدام الغواصات الذرية على الدول الاعضاء في حلف الاطلسي. عقد اتفاق مع بريطانيا في تموز ١٩٥٨، لبناء الغواصات. وبعدما انهى الاميركيون برنامجهم الريادي، اصبح باستطاعتهم التفاهم مع السوفيات في جينيف من اجل وقف التجارب النووية. وعندما اطلق السوفيات عام ١٩٥٩، كاسحة الجليد النووية، لينين، سارع الاميركيون لوضع اول غواصة لهم، بولاريس، في الخدمة. من الواضح ان التفوق الاميركي في ميدان

الصواريخ النووية، قد اتاح ايضاً لجون فوستر دالاس ان يمارس « السير على حافة الهاوية ». وعندما هددت وزارة الخارجية موسكو بالانتقام اذا تعرضت تركيا للاعتداء، اضطر خروتشوف للتراجع. كذلك، تراجع زوأنلي، عام ١٩٥٨، عندما تولى الاسطول السابع الدفاع عن فورموزا. وقد ادّى مبدأ الانتقام في حال وقوع اعتداء شيوعي على اية بقعة من العالم الى شعور بالاحباط لدى المعتدي واتاح للرئيس، الذي يكره التدخل العسكري على الطريقة الكورية، تخفيض القوات البرية من ١,٤٨ مليون رجل الى المليون.

هل يستطيع ايزنهاور تجنّب التدخل في الشرق الاوسط ؟ فالحرب الخاطفة، عام ١٩٥٦، لم تحلّ المعضلات القائمة باستثناء توصّل اسرائيل الى استخدام البحر الاحمر في تجارتها مع الحبشة، الواقعة على شواطئ افريقيا الشرقية، امتداداً الى افريقيا الجنوبية. اما عبد الناصر الذي هزم في ساحة المعركة، فقد انقذ نظامه بفضل الدعم السوفياتي. والمساعدة العسكرية السوفياتية المستمرة لمصر اثارت حسد الدول المجاورة. واغتبط خروتشوف للحاقه بالولايات المتحدة على صعيد انتاج الصواريخ النووية العابرة للقارات بعد التجارب الناجحة التي اجريت في المحيط الهادئ. ولن تكون الاراضي الاميركية، بعد الآن، بمنأى عن الضربات السوفياتية. بالنظر لتوازن القوى، قد تتحدد هذه الضربة في منطقة يكون الاميركيون حراسها الوحيدين، بعد انسحاب الفرنسيين والبريطانيين منها.

العديد من الدول رفضت المساعدة الاقتصادية وقبلتها ثلاث هي العراق والاردن ولبنان. بالمقابل، حصلت مصر على مساعدة سوفياتية ضخمة لتمويل بناء سد اسوان. وافادت سوريا من شحن اسلحة وفيرة وتدريب ضباطها في المعسكرات السوفياتية. واذ لم يستطيع دالاس استقطاب كل الدول العربية، اقترح على ايزنهاور احياء حلف بغداد مع تركيا والاردن والعراق. واجتمع ملكا العراق والاردن مع الجانب

التركي في بيروت، واكدّا للرئيس اللبناني كميل شمعون الذي يتولى رئاسة دولة يتوزع سكانها مناصفة بين المسيحيين والمسلمين، بان لبنان لن يكون فريسة في أشداق سوريا.

عرض ضباط دمشق على الكولونيل عبد الناصر انشاء وحدة سياسية بين البلدين، فولدت الجمهورية العربية المتحدة، في الاول من شباط ١٩٥٨. وتم دمج مجلسي النواب معاً، وتزويد الجيشين بالعتاد السوفياتي نفسه. في ١٤ تموز ١٩٥٨، وقع انقلاب عسكري في بغداد، اطاح بالملك فيصل وولي العهد عبدالاله ورئيس الوزراء نوري السعيد الذين قتلوا جميعاً، وتسلم حزب البعث الموالي لسوريا الحكم، وشكّل الجنرال قاسم حكومة من العسكريين لم تلبث ان طالبت التزود بالسلاح السوفياتي، على الرغم من عمليات القمع التي مارستها بحق الشيوعيين في بلادها. واعلن العراق انسحابه من حلف بغداد. في لبنان، اهتاج مؤيدو قيام تحالف مع الجمهورية العربية المتحدة، وثاروا. في الاردن، تزايدت الاضطرابات التي اثارها اللاجئون الفلسطينيون في وجه السلطة عام ١٩٥٧. وانضمت اليمن الى الجمهورية العربية المتحدة. وتضاعفت حوادث الحدود مع اسرائيل. هل الثأر العربي وشيك ؟

في آذار ١٩٥٩، استقبل عبد الناصر وفداً فلسطينياً من ٥٠٠٠ رجل، جاء يطالبه بضم فلسطين الى الجمهورية العربية المتحدة. ها هي موجة العروبة في مدٍّ جديد. في تشرين الاول اسس الطالب ياسر عرفات منظمة فتح، وهي حركة مقاومة تضم الطلاب الفلسطينيين في القاهرة. شعر الرئيس اللبناني شمعون بالخطر المحدق به، فاستدعى الاميركيين لمساعدته. تردد ايزنهاور في البداية لانه لا يستطيع تهديد السوفيات بالرّد، كونهم لا يتواجدون على حدود لبنان، غير انه اضطر، في النهاية الى ارسال حملة عسكرية الى الشرق الاوسط.

استوقفت الحملة العسكرية النظر لضخامتها، ونصّبت الاميركيين

حراساً للامن في الشرق الاوسط، حيث تجمعت ٧٠ سفينة و ٤٠٠ طائرة في المتوسط، وتم انزال ٩٠٠٠ جندي في لبنان، في ١٤ تموز في الوقت الذي كان البريطانيون يسارعون الى ارسال ٢٠٠٠ مظلي الى الاردن. وبلغ عدد الوحدات الاميركية ١٥٠٠٠ رجل. وانتخب الجنرال فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس شمعون. وجّه السوفيات الى الحلفاء إخطاراً بوجوب اجلاء قواتهم من الاراضي العربية، فاستجابوا لان الامن قد استتب.

غير ان الامن لم يدم طويلاً، واضطر الاسطول السادس للتجول المستمر على سواحل المتوسط. ورأى ايزانهاور ان في الافق ما يشير الى وقوع حروب وشيكة في بعض المناطق، مما يوجب على الاميركيين الحضور الدائم، فبعدما تدخلوا في المتوسط، ها هو البحر الاحمر يتحول الى مخزن متفجر من الاسلحة، والمغرب يستقل. في الشرق الاقصى، ساندوا انظمة كوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية وتايوان بكل قواهم. ونظراً للتقدم السوفياتي السريع في حقل التسلح، نجح خروتشوف في اللحاق بخصمه الاميركي. وبدا مبدأ ايزنهاور الذي انجزت صياغته حديثاً، وقد تجاوزه الزمن. فالخطر النووي لم يعد كافياً للحفاظ على السلام في العالم، منذ اطلاق سبوتنيك، وانتاج الصواريخ السوفياتية البعيدة المدى. وغدا الوجود الاميركي في مناطق خطرة كالبحر الاحمر ضرورياً. فهل كانت وزارة الخارجية مطمئنة على الاقل الى سيطرتها على الاميركتين ؟

اعصار جنوبي الاطلسي

بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٦٧، تحوّل الاعصار من المحيط الهندي والبحر الاحمر باتجاه الغرب، جنوبي مدار السرطان، على ضفاف الاطلسي. وكان لهذا الزلزال ثلاثة محاور رئيسية :

في المحور الاول، الهزة القادمة من باندونغ، حين انتشرت فكرة الاستقلال، كبقعة الزيت، في كافة الاراضي الواقعة تحت سيطرة القوى الاستعمارية، كفرنسا وبريطانيا واسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا، وحتى الولايات المتحدة نفسها لتواجدها الكثيف في بحر الكاراييب وبدا من المتعذر الوقوف في وجه حركة التحرر من الاستعمار التي دفعت بالعديد من الدول الناشئة للتوجه الى الامم المتحدة. لكن ثمة بؤر مقاومة، لاسيما في جنوبي افريقيا، ويسعى الاستقلاليون الى الاستنجاد بموسكو، كما فعل بعض الدول العربية. ويخشى تسارع وثيرة العنف، فور ظهور المستشارين السوفيات على الساحة.

في المحور الثاني، الحركات العرقية : ساندت الدول المستقلة نضال الاقليات العرقية، اينما كانت، بما فيه القارة الاميركية. وقام في الدول الجنوبية كما في جنوبي افريقيا حاجز من الشعوب البيضاء يتصدى لهذه الحركة التي كادت ان تزعزع الدول الاكثر استقراراً من جراء تعاقب الاضرابات والقلاقل والفتن والاستعانة بالخارج.

اخيراً، الحركة المناهضة لاميركا، وهي قديمة العهد في اميركا اللاتينية، لكنها بعثت فجأة مع ظهور نظام كاسترو في كوبا، حيث شكّل استنجاده بموسكو خطراً داهماً على ابواب فلوريدا وبحر الكاراييب، قبل ان يضّم الدول الاكثر فقراً في اميركا اللاتينية. والضائقة الاقتصادية هي هنا السبب الاول في نجاح الثورة الكوبية. ادّت الارتجاجات العنيفة الصادرة عن المحاور الثلاثة، الاقتصادي والعرقي والسياسي، الى الحؤول دون ملاحة هادئة في مياه جنوبي الاطلسي. وفتحت لخروتشوف مجالات واسعة للتغلغل في مدارات جهنمية من الارض، والمجازفة بالوقوف على مشارف الحرب.

ديغول وحرب الجزائر : ١٩٥٨ ــ ١٩٦٢.

اذا كان الاميركيون قد احتفظوا في المغرب المستقلة، بقواعد عسكرية، وكذلك فعل الفرنسيون، مؤقتاً، بقاعدة بيزرت، فان مصير غربي افريقيا الاستوائية، وهي بعضها فرنسية من السينغال حتى الغابون، مرهون بحرب الجزائر. كان النزاع المغربي الطويل في مستهلّه، حرباً فرنسية ــ فرنسية حققت نهايتها بداية حركة القضاء على الاستعمار في افريقيا السوداء. بدّل الفرنسيون جمهوريتهم كي يستمروا في تلك الحرب، غير انهم لم يمتلكوا الوسائل لوقف الدول المطالبة بالاستقلال في امبراطوريتهم الغاربة، عند حدها بواسطة السلاح.

لملم الجنرال ديغول السلطة اكثر مما استولى عليها، عام ١٩٥٨ : فالحكومات الاخيرة في الجمهورية الرابعة كانت عاجزة عن الخروج من المأزق الجزائري، امام رفض زعماء الثورة التفاوض على مسائل لا تتصل بالاستقلال. منذ الاجتياح السوفياتي للمجر، واجه الحزب الشيوعي الفرنسي نقمة المثقفين الذين ابتعدوا عن صفوفه وحاربوه. كما انخرط، مع القوى التي بقيت حوله (لا سيما الاتحاد العمالي

العام) في نضال مرير ضد « الحرب القذرة » حيث وجد حلفاء له يتزايدون يوماً بعد يوم في صفوف البورجوازية الليبرالية والباريسية من قراء الاكسبرس وفرانس — او بسرفاتور، وكذلك في اليسار والوسط الذي بدأ يتململ بعد ارسال ٥٠٠٠٠٠ جندي بغية البحث عن حل سياسي في الجزائر. تعددت القوى المناوئة لكل تطور، من الضباط الى « الاقدام السود » من الشعب البسيط في المدن، الى كبار المستوطنين وصغارهم في البلاد، الى معظم الصحف، وغالبية القوى السياسية المعارضة (من اليسار الاشتراكي الى اقصى اليمين الجديد لحركة بوجاد) لاي حلّ يؤدي الى رحيل الجالية الفرنسية. دلّ تعاقب الازمات الوزارية ان رئيس الجمهورية، رينة كوتي، لم يستطع ايجاد رئيس حكومة يتمتع بغالبية في البرلمان تتيح انتهاج سياسة متماسكة. وأدى قيام « يوم » ثورة « الاقدام السود » في مدينة الجزائر، الذين هاجموا مقر الحكومة، بتحريض من الجيش، الى قطيعة بين الجزائر وباريس إثر تشكيل حكومة فليملين. ولا بدّ من استدعاء ديغول لتسلّم الحكم باعتباره المنقذ الوحيد للنظام.

لم يتطلع ديغول البتة الى انقاذ النظام القائم بل الى دفنه بهدوء ونعومة. واستبدله بجمهورية من اختياره حيث فكر ملياً في مؤسساتها خلال فترة تقاعده في كولومبي لودوزغليز. كلف بتشكيل الحكومة بعد استقالة بيار فليملين، في ٢٨ منه، ونال ثقة مجلس النواب في الاول من حزيران ١٩٥٨، ومنح في اليوم التالي صلاحيات استثنائية لوضع دستور جديد جرت مصادقة الشعب الفرنسي عليه في ٢٨ ايلول. وفي ٢١ كانون الاول، انتخب رئيساً للجمهورية. واسفرت الانتخابات التشريعية الجارية في ٢٣ و ٣٠ تشرين الثاني عن غالبية واسعة في البرلمان لحزب « الاتحاد من اجل الجمهورية الجديدة » الذي قلّص نفوذ احزاب الوسط واليسار، لاسيما الحزب الشيوعي الذي تدنى نوابه من ١٥٠ الى ١٠ نواب فقط. لم يعد لمجلس النواب الجديد ذات الصلاحيات كالسابق.

ورئيس الجمهورية هو الرئيس الفعلي للسلطة الاجرائية ويمارس الحكم بمعاونة الرئيس الاول رئيس الحكومة. وعام ١٩٦٠، صدر قانون يعطيه حق التشريع بموجب مراسيم حكومية. وتخوله المادة ١٦، في حالة الخطر، ممارسة كافة صلاحيات الدولة. وغابت الازمات الوزارية عن البلاد حتى تاريخ سقوط حكومة بومبيدو عام ١٩٦٢، اذ لم يكن البرلمان يتمتع بحق تعيين الحكومة ولا يمكنه اسقاطها بسهولة. وبقي ميشال دوبريه رئيساً للحكومة حتى نهاية حرب الجزائر عام ١٩٦٢.

حاز هذا النظام شبه الرئاسي كل الوسائل التي تتيح له فرض حلّ للمسألة الجزائرية. عسكرياً، أثبتت الحواجز على الحدود فعاليتها، غير ان الامن بات مضطرباً من جراء تدفق الاسلحة ليلاً عبر طرقات وعرة تسلكها القوافل في الصحراء. في مدينة الجزائر، في موستاغانيم، هدّأ الجنرال من روع « الاقدام السود » بالحديث عن « الجزائر الفرنسية » وبدا داعماً لسياسة الدمج والتكامل التي ينتهجها اقرب معاونيه جاك سوستيل. ظن الجنرال في البداية ان بوسعه حلّ مشكلة دمج الطوائف من خلال رفع مستوى معيشة الجماعات الاسلامية، بفضل اعتماد خطة القسطنطينية التي اعلن عنها في ٣ تشرين الاول ١٩٥٨. غير ان استحالة التفاوض مع الثورة دفعت برئيس الدولة الى طرح حلّ « تقرير المصير » عبر التلفزيون في ١٦ ايلول ١٩٥٩. في كانون الثاني ١٩٦٠، ادّى استدعاء الجنرال ماسو الى باريس، وهو الذي فرض الأمن والهدوء في مدينة الجزائر على طريقته الخاصة، الى اندلاع الحرب الفرنسية — الفرنسية، مع قيام الحواجز طيلة اسبوع كامل في قلب العاصمة (من ٢٤ كانون الثاني حتى الاول من شباط)، الامر الذي ساعد على تجريد انصار الجزائر الفرنسية من سلاحهم.

انتقل ديغول بنفسه الى الجزائر، في « جولة على الضباط » شارحاً للعسكريين بان الحل بات غير متوافر الا بانشاء « جزائر جزائرية مرتبطة

بفرنسا ». وبالفعل عقد، اعتباراً من حزيران ١٩٦٠، في مولون، مفاوضات سرية، مع « الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ». لم تحقق اهدافها المرجوة، اكثر مما حققته اللقاءات التي عقدها جورج بومبيدو فيما بعد في سويسرا عام ١٩٦١. قام اربعة جنرالات (شال، صالان، زيلير وجوهو) بعصيان جديد في مدينة الجزائر، احتجاجاً على استمرار المفاوضات، في الوقت الذي كانت خطة الجنرال شال قد حققت النصر على الارض. غير ان ما لقيه الانقلاب العسكري من معارضة بين صفوف الجنود وفي باريس، اضافة الى مداخلة ديغول، بلباسه العسكري، على الراديو والتلفزيون (ضد الزمرة « الرباعية » المتآمرة من الجنرالات)، كان كافياً لاعادة الامور الى نصابها. ولم تقف العمليات الارهابية « للمنظمة العسكرية السرية » في الجزائر والعاصمة، حائلاً دون توقيع الحكومة لاتفاقيات ايفيان، مع « الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية »، في ١٨ آذار، بعد ان قمعت بشدة تظاهرة يسارية من اجل السلام في (٨ قتلى في قطار شارون). في ٢٦ آذار، اطلق الجيش النار في شارع ايسلي في العاصمة (سقوط ٨٠ قتيلاً)، لاخماد ثورة « الاقدام السود » الذين عادوا بعد فترة قصيرة الى فرنسا بصورة كثيفة. في ٢٢ آب ١٩٦٢، نجا الجنرال ديغول باعجوبة من محاولة اغتيال في بيتي ــ كلامار ــ وايّد الاستفتاء الشعبي الذي جرى في فرنسا والجزائر معاً، منح الاستقلال للجزائر. ودخلت ثلاث دول عربية اضافية منظمة الامم المتحدة.

حصلت الجزائر على منطقة الصحراء، مع اتفاقات خصوصية بشأن استثمار آبار الغاز والنفط التي اكتشفها الفرنسيون ــ ومنطقة الصحراء كانت موضع نزاع بين كافة دول المنطقة اي الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا والنجير ومالي والتشاد ــ واقامت الجزائر علاقات مع الدول المجاورة التي نالت استقلالها من دون ثورة، بموجب القانون الذي اصدرته حكومة غاستون دوفير عام ١٩٥٦، وتبناه ديغول فيما بعد :

بموجب الاستفتاء الذي جرى عام ١٩٥٨، اختارت دول افريقيا السوداء في اطار الاتحاد الفرنسي (ما عدا غينيا في ظل حكم سيكونوريه التي قطعت كل صلة بفرنسا) اضافة الى مدغشقر التي انضمت الى الاتحاد ايضاً. عام ١٩٦٠، تحول الاتحاد الذي كان يرئسه ديغول، الى مجرد منظمة للتعاون بين اعضائها. وانضمت الى منظمة الامم المتحدة الكاميرون وتوغو وشاطئ العاج وداهومي والسنيغال ومالي والنيجر وفولتا العليا، وجمهورية افريقيا الوسطى والكونغو ــ برازافيل والغابون والتشاد ومدغشقر. لم تشكّل اي من هذه الدول الناشئة تهديداً للامن الدولي حتى من جانب غينيا. وارتبطت هذه الدول بمعاهدات عسكرية ابقت فرنسا بموجبها على قواعد لضمان الامن في افريقيا الناطقة بالفرنسية، كالسنيغال والتشاد والغابون وشاطئ العاج ودجيبوتي (التي ظلت تحت الوصاية الفرنسية حتى العام ١٩٧٧)، اضافة الى تأمين المساعدة الفنية والاقتصادية والثقافية الفرنسية لها. ثمة مجموعة واسعة من الدول نالت استقلالها السياسي من دون ان يكون بمقدورها تأمين عملية الاقلاع الاقتصادي ــ حتى في بعض الحالات، مجرد البقاء على قيد الحياة ــ وبدرجة اقل ضمانة سلامة اراضيها في حالة الحرب.

مصير المستوطنات الانكليزية والبلجيكية والبرتغالية في افريقيا.

لم تنتظر بريطانيا وبلجيكا فرنسا كي تتخليا عن مستعمراتهما في افريقيا، فنشأت من جراء ذلك دولتان قويتان، الاولى نجيريا وهي بلاد واسعة يبلغ تعداد سكانها ٦٠ مليوناً يتوزعون على ٢٥٠ عرقاً، من بينهما ثلاثة اعراق رئيسية هي : اليوروباس الذي يعمل المنتسبون اليه في زراعة الكاكاو في الغرب، والايبوس واتباعه مسيحيون يقيمون الى الشرق ويسيطرون على منجم الفحم الوحيد في افريقيا الغربية، والهاوساس الذين يعيشون من تربية الماشية في سهول الشمال ويسيطرون على اراضي غنية بمناجم القصدير والكلولومبيت. ظن البريطانيون أن قيام

الدولة الحديثة على اساس فيدرالي قد يساعدها على حماية نفسها، غير ان ضعف السلطة المركزية من شأنه تعريضها لحرب قبلية تزعزع كيانها.

الدولة الثانية كانت الكونغو البلجيكية وهي اكثر هشاشة من الاولى. ذلك ان المناجم الضخمة من اليورانيوم وسواها كانت تستثمر لصالح الحلفاء خلال الحرب، واتاحت تكوين طبقة رأسمالية من المستعمرين الكاثوليك. الى جانب طبقة عمالية تتمتع بمستوى من المعيشة لا بأس به. بلغ سكان ليوبولدفيل، عام ١٩٥٤، نحو ربع مليون نسمة. اثر الحروب القبلية، قررت الحكومة البلجيكية دعوة مندوبين عن ١٤ حزباً الى بروكسيل. من بين رؤساء تلك الاحزاب ثمة اثنان خرجا لتوهما من السجن، وهما كازافوبو، زعيم حزب اباكو، ولومومبا زعيم الحركة الوطنية الكونغولية التي تضم قوى اليسار والاشتراكيين والنقابيين المسيحيين. اتاح الاستقلال، عام ١٩٦٠، انشاء دولة موحدة أطلق عليها عام ١٩٧١ اسم زائير، وهي غنية بالثروات المنجمية التي تغري تجار الاسلحة. اذا استثنيت غامبيا التي نالت استقلالها في ظل التاج البريطاني، وغينيا ــ بيساو، التي ماتزال خاضعة للبرتغال، فان الساحل الغربي من المغرب الى الكونغو ــ برازافيل، كان يتمتع بحرية تقرير مصيره واقامة علاقات مع مستعمريه السابقين او التبادل التجاري المستمر مع الولايات المتحدة وكندا.

في الجانب الشرقي كانت كينيا واوغندا دولتين مستقلتين، ففي نيروبي، وضع جومو كينياتا حداً لثورة الموس ــ موس ضد المستوطنين الاوروبيين. وفي اوغندا، واجه الاقطاعيون السود في حزب كاباززا بورجوازية المدن في حزب « تجمع الشعب الاوغندي » الذي اسسه ميلتون او بوت، اول رئيس للبلاد، من دون ظهور اية اضطرابات في البلاد حتى الآن. وانضمت تانجانيكا الى جزيرة زانجيبار ليكّونا معاً دولة تانزانيا التي يحكمها الاشتراكي بوليوس نيير. اخيراً، كانت زامبيا

(وهي روديسيا الشمالية سابقاً) تشكّل، على نهر زامبيز، جمهورية ذات حزب واحد. في اقصى الجنوب، شكلت الموزامبيك في الشرق، وانغولا، في الغرب، حاجزاً استعمارياً يحميه الجيش البرتغالي التابع لسالازار، قبل ان يقوم حاجز ابيض من مستوطني روديسيا الجنوبية وجنوبي افريقيا، الذين يرفضون التخلي عن البلاد لسكانها السود. فالجنوب الافريقي كان يعاني من مشاكل سياسية تتراوح بين استقلال مرفوض ومشكلات عرقية ناجمة عن نظام التمييز العنصري الذي نشأ، في نهاية الحرب، في جمهورية جنوبي افريقيا.

هل كانت البرتغال تمتلك الوسائل للحفاظ طويلاً على تلك الاراضي الشاسعة ؟ في غينيا ــ بيساو، كانت المقاومة سهلة. اذ اسس اميلكار ولويس كابرال، عام ١٩٥٦، « الحزب الافريقي للاستقلال ». في آب ١٩٥٩، قامت تظاهرة تم سحقها بالقوة والدم. انطلقت اولى حركات المقاومة من حدود السينغال، وافادت من الدعم المحدود والثابت لهذه الدولة اثر نيلها الاستقلال. قرر حزب الاخوين كابرال « النضال حتى النهاية بكل الوسائل، بما فيه الحرب »؛ واصبح سيكوتورية المدافع الرئيسي عن الحركة المطالبة بالاستقلال والتي بلغت اهدافها عام ١٩٧٤.

ينضوي سكان انغولا البالغ عددهم خمسة ملايين في ثلاث حركات نضالية تعتمد على الخارج. ويتجلى التضامن الافريقي على اكمل وجه في الدعم الذي يلقاه رجال العصابات، لاسيما من الجزائر. في الخمسينات، التفت « الحركة الشعبية لتحرير انغولا » حول الدكتور اغوستينو ناتو وكابرال. ونشأ، بعد فترة قصيرة، « اتحاد شعوب شمالي انغولا »، بقيادة روبيرتو هولدن وبينوك اللذين سعيا الى فصل مملكة الكونغو السابقة عن انغولا. وعندما تراجع هولدن عن نواياه الانفصالية، حظي بدعم دولتي غانا وغينيا. وثمة حركة أخرى تدعي الحصول على الدعم الخارجي؛ وبمبادرة من الجزائر، توحدت الحركات الثلاث، عام

١٩٦٠، في تونس. واندلعت الثورة بدءاً من عام ١٩٦١، مثيرة ردة فعل قمعية عنيفة من الجيش البرتغالي. وتألفت حكومة انغولية في المنفى عام ١٩٦٢، بهدف تأمين وسائل النضال. استلهمت معظم هذه الحركات المبادئ الماركسية في نضالها، وهي لم تتلق، باستثناء لومومبا في الكونغو، اي دعم سوفياتي.

لم يلق سكان الموزامبيق البالغ عددهم ثمانية ملايين معاملة افضل. بدأت العمليات الاولى لرجال حرب العصابات اعتباراً من عام ١٩٦٤، مستخدمة اسلحة تم شراؤها من التجار. وكان البروفسور ادواردو موندلان قد اسس في دار السلام، عام ١٩٦٢، « جبهة تحرير الموزامبيق، من جراء اندماج ثلاث حركات نضالية. غير ان بعض المنشقين سارع الى تأسيس « حركة موزامبيق الثورية » التي اتخذت من النظام الصيني في بكين مثالاً لها. كان الاستقلاليون يعتقدون ان باستطاعتهم الاعتماد على الشيوعيين، لكن الحزب كان محظراً عليه القيام بنشاطاته، وغالباً ما كان زعماؤه في السجن. ادّى الهجوم على السجن المركزي في لواندا (انغولا) عام ١٩٦١، والذي قامت به مجموعة مسلحة بالخناجر والمتفجرات، ورجال العصابات في المنطقة الشمالية الذين يتحركون بدعم من الكونغو، الى توجّه حملة عسكرية برتغالية قوامها ١٨٠٠٠٠ جندي، وبلغت نفقاتها ما يقارب نصف موازنة البلاد. كان سالازار يرفض سماع اي حديث يتصل بوجوب التخلي عن المستعمرات الافريقية. غير ان الابقاء على القوات البرتغالية فيها شكل مصدر خلل كبير في موازنة الدولة. واعتباراً من عام ١٩٦١، سعى الثوار الى البحث عن مصادر تمويل وتسليح خارجيين. كانت الدول الافريقية المشرذمة ما تزال ترتبط على الصعيد الاقتصادي، بالدول الاوروبية والولايات المتحدة التي تشتري منها السلع الغذائية والمواد الاولية الاستراتيجية، وهي بالتالي عاجزة عن توفير المساعدات بشكل كافٍ ومنسّق. والدولتان الاكثر غنى، وهما الغابون والكونغو ــ كينشاسا، لم تكونا على عجلة

من امرهما لتقديم المساعدة لانشغالهما في حماية ذاتهما من الدول المجاورة او من الاعداء في الداخل.

الى ذلك كانت هذه الانظمة البيروقراطية الافريقية في غاية الهشاشة : بين عام ١٩٦٠ و عام ١٩٦٩، تغيرت عهود الحكم ٤١ مرة، منها اربع مرات بالطرق الدستورية. كان الاميركيون والسوفيات لا يهتمون إلا بالمناجم المعدنية، اذ ادى الانسحاب الفرنسي الى تهافت على البوكسيت (صخر يستخرج منه الالومينيوم)، فيما استأثر بنفط الغابون ونيجيريا اسياده السابقون. ونادراً ما ظهر الاميركيون في غير الكونغو ــ كينشاسا، بسبب اهمية مناجم النحاس فيها. هل تستطيع الدول الافريقية بتضامنها وتجمعها، ان تشكل قوة موحدة من شأنها القضاء على الاستعمار ؟ عام ١٩٦١، كانت الدول الافريقية منقسمة الى كتلتين، الاولى كتلة الدار البيضاء التي انضوت تحت رعاية ملك المغرب وضمت الدول العربية الافريقية، اي ليبيا وغانا ومصر والحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر، مع الدولتين اللتين رفضتا المساعدة الفرنسية، اي مالي وغينيا. اما الكتلة الاخرى المناوئة فقد اجتمعت في مونروفيا عاصمة ليبيريا وضمت ٢٠ دولة من بينها كل المستعمرات الفرنسية السابقة. كانت الحركات الثورية في غينيا ــ بيساو والموزامبيك وانغولا ماركسية النهج بحيث انها لم تثر حماس تلك الكتلتين؛ واذا كانت كتلة الدار البيضاء هي الاقرب الى المتمردين، فانها لم تكن تملك الوسائل اللازمة لمساعدتها. كما لم يكن الخبراء العسكريون السوفيات قد وصلوا بعد، غير ان المقاومة ضد البرتغال كانت لهم التربة الصالحة.

البؤرة المتفجرة في جنوبي افريقيا.

ثمة منطقة اضطراب اخرى ظهرت في اقاصي جنوبي افريقيا. ففي عام ١٩٤٨، فاز حزب الدكتور مالان في الانتخابات. فاقام نظام التفرقة الذي سارعت الدول المستقلة في افريقيا السوداء الى التمسك بذيل

شيطانه. وكان المتحدرون من اصل هولندي والبرونستانت الفرنسيون (ال بوير) الذي قطنوا البلاد منذ القرن السابع عشر، قد عانوا منذ مطلع القرن العشرين، اثر حرب قاسية، من السياسة البريطانية. فانكفأوا الى الجبال حيث واجهوا قبيلتي كافر وزاولو اللتين كانتا تستغلان الارض والمراعي. وهكذا سكن البيض المقاطعات الثلاث في باسوتولاند، وسوازيلاند وباشوانالاند واندمجوا في اتحاد جنوبي افريقيا الذي تأسس، عام ١٩١٠، من جمهوريتي اورانج الحرة وترانسفال، ومن المستعمرات البريطانية في كاب وناتال، ولما كان سكان تلك المستعمرات من اصل اوروبي وهم الاكثر عدداً، فان اللعبة الديمقراطية اتاحت لهم الوصول الى السلطة. اما السود، فلم يكن لهم حق التصويت وحق اشغال اكثر من ١٣٪ من الاتحاد، مع انهم يشكلون ٦٥٪ من السكان. ذلك ان قوانين التفرقة العنصرية هدفت الى اقامة حواجز لا يمكن تخطّيها بين المجموعتين العرقيتين. تحصّن السود خلف تحفظاتهم، وراحوا ينظمّون صفوفهم واسسوا حزبين سياسيين للنضال والمقاومة، الاول بقيادة نلسون مانديلا ووالتر سيزولو وغارين مباكي، الذين تعرضوا بعد حين للاعتقال والحكم بالسجن مدى الحياة، والثاني بزعامة روبير سوبوكي الذي لم يتمكن من ممارسة نشاطه بصورة شرعية لمدة طويلة. ادركت موسكو، فيما بعد، الاهمية السياسية للنضال ضد التمييز العنصري، وايدت الاول، وبكين الثاني. فهناك ١٨ مليون نسمة من السود يعيشون على هامش مجتمع يحقق من مناجم الماس والذهب مداخيل طائلة. كانت معدلات الاجور الافريقية بائسة، وحق العمل النقابي محصور بالبيض وحدهم. وطالب ملك الذهب، او بنهايمر، الذي كان يخشى وقوع اضرابات عنيفة، بانتهاج سياسة اجتماعية وتقدمية باتجاه الغاء التمييز العنصري، فلم يلق آذاناً صاغية من جانب الحكومة. فكان اربعة ملايين من البيض بمعاونة ٢٣ مليون من الخلاسيين، يفرضون مشيئتهم وقوانينهم على إحاطة غالبية سوداء من خلال احاطة بوليسية وعسكرية ساهرة ومتشددة.

هل تستطيع الولايات المتحدة الموافقة على تعايش دولة عنصرية مع الدول المستقلة الافريقية في اطار الامم المحدة ؟ كان الاعصار يتقدم بسرعة نحو اطراف اتحاد جنوبي افريقيا. وادّى استقلال افريقيا السوداء وكذلك تحرك السود في الولايات المتحدة، الى مزيد من الاهتمام بمشكلات جنوبي افريقيا ووضعها في مركز الصدارة من الرعاية الدولية. كانت جنوبي افريقيا قد دخلت الامم المتحدة من الباب الواسع. وينبغي القول ان البلاد كانت غنية، وحققت تقدماً سريعاً خلال فترة النزاع، كونها زودت المتحاربين بالمعادن الثمينة. اضافة الى الماس والذهب (حيث تحتل المركز العالمي الاول)، يمتلك الاتحاد كميات وفيرة من الفحم والغاناديوم والبلاتين والمانغانيز والكروم، وهو معدن لاغنى عنه في الصناعات الحربية، فضلاً عن اليورانيوم. اذا كانت هذه البلاد تعاني من القطيعة الاقتصادية، فان ذلك قد افاد الاتحاد السوفياتي الذي يصنّف ثاني منتج عالمي ومصدّراً رئيسياً لهذه المعادن. كان اتحاد جنوبي افريقيا يتجه نحو الاكتفاء الذاتي على صعيد الطاقة بفضل استخدامه المنظم لثرواته من الفحم الحجري الذي يحوّل الى هيدروكاربور بطريقة « ساسول » المعتمدة عام ١٩٥٦. كذلك كانت صناعة الفولاذ تنتج ما يكفي من الحديد والفولاذ لسد حاجات دولة تنتج المدرعات والبنادق والطائرات بنفسها. كان من غير اليسير مقاطعة جنوبي افريقيا باعتبار ان الشركتين المهيمنتين على استخراج المعادن، وهما دي بيرز والانكلو اميركان كوربوريشين، كانتا متعددتي الجنسية وتستثمران نسبة عالية من الرساميل الاميركية. اخيراً، اصبحت طريق النفط عبر رأس الرجاء الصالح، بعد ازمة السويس عام ١٩٥٦، طريقاً اساسية لتصدير النفط العربي نحو الغرب، وجرى انشاء ناقلات نفط ضخمة (تبلغ زنتها حتى ٥٠٠٠٠٠ طن)، ومرافئ ثانوية قبل المرافئ الأوروبية. ٦٥٪ من النفط الذي تتزود به اوروبا و٢٥٪ من النفط المتجه نحو الولايات المتحدة كان يمرّ عبر تلك الطريق. وكانت

٢٠٠٠٠ سفينة (ضعفي ما يعبر قناة بناما) تسلك تلك الطريق سنوياً، في مسيرتها نحو اوستراليا والهند ونيوزيلاندا وكذلك الصين واليابان.

نقشت منظمة الامم المتحدة شرعة حقوق الانسان على عتبة مؤسساتها ويبدو ان احترام هذه الحقوق « من دون تمييز في العرق » لا يعني دولة اتحاد جنوبي افريقيا. في الواقع، لم تكن القوانين المتعلقة بالتمييز العنصري قد اقرت، عام ١٩٤٥، ولا حرج من قيام الماريشال سموتس رئيس حكومة جنوبي افريقيا بكتابة مقدمة شرعة المنظمة الدولية بخط يده. وعندما حظر الحزب الوطني برئاسة الدكتور مالان الزواج المختلط، عام ١٩٤٩، لم تحتج الامم المتحدة، مع ان مندوب الهند لفت نظرها الى روح هذا القانون ومضمونه. وتضمن قانون تسجيل السكان لعام ١٩٥٠ وجوب تصنيف الافراد بحسب لون جلدهم. كما عيّن « قانون المناطق » امكنة السكن تبعاً للعرق، عام ١٩٥٨. ولم تصدر عن الامم المتحدة اية ادانة. وينبغي التريث حتى الستينات حين تم انشاء منظمات مراقبة مثل لجنة مناهضة التميز العنصري. عام ١٩٦٠، تغير كل شيء لان الاضطرابات التي وقعت في شاربفيل وسقط فيها ٧٠ قتيلاً قد نبهت الرأي العام العالمي الى ما يجري.

يمكن بالتأكيد اقامة علاقة بين ما حصل في جنوبي افريقيا وبين احداث الكونغو البلجيكي السابق حيث تمرّد الجنود السود على ضباطهم البيض. غادر الاوروبيون البلاد وسط موجة من الهلع والذعر. وفي ١١ تموز، اعلنت المقاطعة الجنوبية كاتانغا، الغنية بالمناجم مثل جنوبي افريقيا، الاستقلال تحت حكم مويز تشومبي. هذا الانفصال اوحت به عوامل اقتصادية، فالبلاد تنتج معادن ثمينة، ولا تريد مشاركة احد. وسارعت على الفور قوة بلجيكية من ١٠٠٠٠ جندي لحماية تشومبي. وبذلك تم انقاذ مصالح « اتحاد مناجم كاتانغا العليا » وهي شركة متعددة الجنسيات، وغنية جداً. غامر السوفيات، عند ذاك، بدعم باتريس لومومبا

رئيس الحكومة الكونغولية، الذي استنجد بالامم المتحدة لاعادة الوحدة الى البلاد. وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة الى تفضيل كازافوبو رئيس الدولة المركزية، على « الماركسي » لومومبا. في ٥ ايلول ١٩٦٠، يسرّت القبعات الزرق التابعة للامم المتحدة « خلع » لومومبا الذي سوف يلقى مصرعه في ٧ كانون الثاني ١٩٦١. واقدم انصاره المزوّدون بالاسلحة التشيكية، على احتلال شرقي الكونغو واقاموا حكومة في ستانليفيل. ثم توالت احداث كثيرة، قبل اعادة الوحدة الى البلاد، بفضل المساعدة الاميركية، حيث تبوأ السلطة الجنرال موبوتو. وبدا ان وكالة الاستخبارات الاميركية كانت اكثر فعالية من القبعات الزرق.

كانت احداث الكونغو موضع تحليل في الاوساط السياسية لجنوبي افريقيا بطريقتين مختلفتين : بالنسبة لانصار التمييز العنصري، اثبتت تلك الاحداث ان غياب الحكم الابيض قد ادّى الى الفوضى والاستعانة بالقوى الاجنبية. بالنسبة الى السود، برهنت الاحداث ان الثورة الشعبية تستطيع التغلب على القوى الدولية شرط الاعتماد على الرأي العام العالمي وعلى الدول التقدمية. اعتباراً من عام ١٩٦٠، اصبح الاتحاد السوفياتي الذي جاء تورطه خجولاً في الكونغو، ملاذ الثوار في العالم.

تبنى اليسار الرافض في جنوبي افريقيا هذا التحليل للاحداث الجارية. وكان « المجلس الوطني الافريقي » بزعامة مانديلا، هو الاقدم والاقوى بين حركات المقاومة السوداء الثلاث. يتحدر قادته من المدن ويناضلون، في البداية، بوسائل سلمية، في سبيل مجتمع المساواة المتعدد الأعراق، وقد دعت « حملة التحدي »، التي اقيمت عام ١٩٥٢، الى العصيان المدني بعد الاضطرابات التي وقعت في شاربفيل، تغيّر كل شيء، اذ وجد نلسون مانديلا « ان خمسين عاماً من اللاعنف لم تجلب للشعب الافريقي سوى قوانين اشد ظلماً ». وقد آن الاوان لتشكيل جناح عسكري سوف يطلق عليه اسم « رمح الامة »، فاما « الاستسلام او القتال ».

وانضم الى حزب مانديلا المناضلون السرّيون من اتباع الحزب الشيوعي بحيث جرى التساؤل عما اذ كان مانديلا شيوعياً. في الواقع، كلا. اذ عندما كان يتولى قيادة رابطة الشباب مع اوليفه تومبو، في « المجلس الوطني الافريقي » كان يقترح ابعاد الشيوعيين عنه. غير ان الملاحقات التي تعرض لها مناضلو الحزب الشيوعي جعلت منهم ضحايا التفرقة العنصرية سواء كانوا سوداً ام بيضاً. واذا كانت احداث شاربفيل قد اتاحت انضمامهم الى صفوف القوات المحاربة، فانها قد افسحت في المجال للبيض بتصوير المعارضة السوداء على انها ارهابية ومتحالفة مع موسكو. وسيقدم في روديسيا نظام مماثل بزعامة ايان سميت، حيث اخذ المستوطنون البريطانيون البالغ عددهم ٢٧٥٠٠٠ نسمة يمارسون التمييز العنصري، واعلنوا الاستقلال، غير ان الامم المتحدة رفضت الاعتراف به. وفي ناميبيا، المستعمرة الالمانية السابقة، سيطر الاوروبيون البروتستانت على الدولة واقاموا نظاماً قمعياً ما يزال قائماً على ساحل الاطلسي. والجدير بالذكر ان النظام القائم في جنوبي افريقيا شكل، بالنسبة للدول الحديثة في افريقيا موضوع تعبئة دائمة وعامل توحيد فيما بينها. وكان خروتشوف على اطلاع تام على الوضع الثوري القائم الذي قد يشعل النار في رأس الرجاء الصالح ويقطع الطريق على النفط الغربي.

السياسة الاميركية المناهضة للشيوعية والفاشية في اميركا اللاتينية.

نادراً ما كانت الولايات المتحدة تتدخل في شؤون القارة الافريقية، اذ كانت تتولى الدفاع عن مبادئ الامم المتحدة بطريقة واهية، فيما تتشدد في مساندة مصالح الشركات التي تستثمر المناجم ذات الاهمية الاستراتيجية، بالمقابل حرصت دوماً على الدفاع عن مصالحها في اميركا اللاتينية حيث غدا وضعها اكثر حراجة من جراء تورطها، في نهاية القرن التاسع عشر، في انتهاج سياسة استعمارية.

كانت الولايات المتحدة قد سعت في مؤتمر ليما عام ١٩٣٨، الى دفع حلفائها في اميركا اللاتينية، على ادانة التمييز العنصري وتأكيد تضامن دول الجنوب مع دول الشمال، في الدفاع عن استقلالها الوطني. جرى التأكيد على هذا التضامن مجدداً في ريودي جانيرو، عام ١٩٤٢. كان يهم الولايات المتحدة على وجه الخصوص. الاستمرار حتى نهاية الحرب.

ثمة نقطة سوداء على خريطة القارة الاميركية: النظام الارجنتيني. ذلك ان الارجنتين كانت تؤيد، مع الشيلي، المحور، وقد انتظرت حتى اللحظة الأخيرة لدخول الحرب الى جانب الحلفاء. وقد وصمت الولايات المتحدة الحكومة الارجنتينية بالفاشية ولم تدع إلى مكسيكو، عام ١٩٤٥. وثمة جانب آخر من مؤتمر الريو : نيكاراغوا؛ وهذه البلاد تسيطر على الخليج الواقع على مدخل قناة بناما، وتحتلها البحرية الاميركية قبل ان تقوم في وجهها حرب عصابات قادها عامل ميكانيكي يدعى اوغيستو سيزار ساندينو. فانسحبت قوات الاحتلال الاميركية، عام ١٩٣٢، مخلّفة وراءها نظام سوموزا البوليسي. نظمت المقاومة عمليات سرية وحاول الضباط المعادون للاميركيين القيام بانقلابات عسكرية، مثل ما جرى عام ١٩٤٧، الامر الذي اثار ردّة فعل واشنطن من جراء اختلال الامن في محيط القنال.

كانت المسألة، بالنسبة للارجنتين، اكثر تعقيداً : فالاميركيون ليسوا بحاجة، البتة، الى ثروات هذه البلاد التي ما يزال يستعمرها البريطانيون والاوروبيون. غير ان تصدير الحبوب واللحوم نافس البضاعة الاميركية فيما الثروة المنجمية لم تكن تثير شهية الدول. سكان الارجنتين البالغ عددهم ٢٥ مليوناً (ثلثهم يقيم في بونس ايريس) هم بغالبيتهم من البيض، او خلاسيون وهنود. جرى تأميم النفط الذي اكتشف بالغرب من كومودورو ريغادافا. وثمة مليون عامل يعملون في ٦٠٠٠٠ مصنع

ومعمل ويشكّلون جمهور الانصار المتحمسين لبيرون، وهو كولونيل شارك في انقلاب عام ١٩٤٦، حيث كان العسكريون قد اقاموا، على انقاض نظام ليبرالي متعاطف مع الانكليز، ديكتاتورية متشددة، وكان بيرون يشغل اولاً منصب وزير للعمل والشؤون الاجتماعية وقد القي في السجن من جراء تزايد شعبيته. بعد الافراج عنه، تزوج من ايفا دوارتي، وهي مغنية شهيرة في الاذاعة عام ١٩٤٦، حقق انتصاراً رائعاً في انتخابات رئاسة الجمهورية، في ظل هتاف انصاره (ديسكاميدوس وتعني بدون قمصان) وارتياح الجيش والملاكين الذين باتوا لا يخشون الفوضى. سعى بيرون، بمباركة الكنيسة لتحقيق، « ثورة اخلاقية ووطنية » تطمح لبلوغ الاستقلال الاقتصادي والحياد السياسي. في الوقت الذي كانت الشركات الاميركية تتهيأ للحلول محل الرأسمال البريطاني العاجز، والبحرية التجارية في الولايات التحدة تتولى معظم عمليات التبادل والاستيراد على وجه العموم، كان بيرون في وضع يضايقها. فالتدابير التي اتخذها لصالح العمال (من رفع الاجور، الى تخفيض مدة العمل، ومنح الشهر الثالث عشر، واستئناف حركة التجارة مع اوروبا، وشراء الشركات الاجنبية وتأميم البنك المركزي واطلاق خطة تصنيع برساميل الدولة، وتكاثر الحديث عن « العدالة الاجتماعية » الذي اخذ يلاقي صداه في سائر الجمهوريات الاخرى، كل ذلك، لم يكن يلقى استحسان المسؤولين الاميركيين. وسقط بيرون في بعض العثرات الكلامية — كقوله عام ١٩٤٦، « سننشئ نظاماً فاشياً مع الحرص على تجنب اخطاء موسوليني » — الامر الذي اتاح التشهير به ومقاطعة الارجنتين ضمن الحدود المسموح بها بنظر الدول الاوروبية. غير ان الاميركيين اضطروا للتراجع والقبول بدخول الارجنتين الى الامم المتحدة. لكن الانقلاب العسكري الذي وقع في ١٩ ايلول ١٩٥٥ اطاح به.

في بوغوتو، عام ١٩٤٨، كان الجوّ حاراً. ففي قلب المؤتمر المخصص للدول الاميركية، في عاصمة كولومبيا الحزينة. تعرض الرئيس

الليبرالي جورج غايتون للاغتيال، في ٩ نيسان، الساعة ١٣. فقد جمع ١٠٠٠٠٠ نسمة للفت انظار المندوبين الاميركيين الى بؤس الارياف وانعدام الامن فيها من جراء قيام العصابات بنشر الذعر في انحائها. خلال اسبوع كامل، انتشرت الاضطرابات في بوغوتا وسقط ٥٠٠٠ قتيل. وصرّح الجنرال مارشال المندوب الاميركي، في مؤتمر صحفي بان « الشيوعيين هم المسؤولون عن هذه الفتنة ». وتعهدت الدول المجتمعة في بوغوتا الى المندوب الاميركي، التعاون لزيادة التبادل الاقتصادي ورفع مستوى المعيشة، وخصوصاً محاربة الدعاية والنشاط الشيوعي. وهكذا بدأت اميركا اللاتينية تشهد ظهور الخطر الاحمر. في كولومبيا كانت ردة الفعل على طريقتها : اتفق مزارعو البن، وهم من الملاكين الكبار، مع قادة الجيش، من اجل انتهاج سياسة قمعية متشددة بقيادة الزعيم المحافظ العجوز لوريانو غوميز : ثم وضع دستور يستوحي الفاشية في احكامه اعدّه راهب يسوعي، وتضمّن حصر كل الصلاحيات بيد الرئيس والتعرض للقضاء. انشأ وزير الحزبية ارباليز فرقاً خاصة من الشرطة لمطاردة « الاشقياء ». وتعرّض الفلاحون للتعذيب فلجأوا حفاظاً على حياتهم الى الكهوف والغابات. ودكت معالم القرى وبترت ايدي الرجال. وطرحت آلاف الجثث طعماً للكواسر. وعلم في اوروبا، فيما بعد، ان هذه الحرب الاهلية التي لا تغتفر بين البيض والحمر قد كلفت اكثر من ٢٠٠٠٠٠ قتيل.

كانت هذه بدايات سيطرة الولايات المتحدة مجدداً على القارة، وهي تمتلك الوسائل العسكرية للتدخل الدائم، بفضل قواعدها في المكسيك وجزر غالاباغوس (الواقعة تحت سيادة الاكوادور)، ولا سيما في بناما، وهي منطقة حيوية لها حيث اقيمت ١٣٤ قاعدة اميركية فيها بموجب اتفاق تم توقيعه عام ١٩٤٢. وبعد انقضاء خمس سنوات، اعادت واشنطن ١٢٠ منها الى بناما، وطلبت الاحتفاظ بـ ١٣ منها لمدة خمس سنوات اخرى. اما قاعدة ريوهاتا، فقد تم استئجارها لمدة

عشر سنوات. وفوجئ البنتاغون الاميركي برفض البرلمان البانامي الذي كان ما يزال يراعي المصالح الاميركية، المصادقة على الاتفاق (في ١٣ كانون الاول ١٩٤٧). فاضطر البحارة الاميركيون للعودة الى ديارهم، واكتشف الرأي العام الاميركي مدى عمق الكراهية التي تكنّها تلك المنطقة الهادئة لاميركا. كان الرأي الراجح في واشنطن ان الارجنتين تطالب بجزر الفوكلاند، وغواتيمالا باستقلال الهندوراس، باسم السيادة والقضاء على الاستعمار، غير انه بدا من غير المعقول تخلي واشنطن عن منطقة امن القنال، او عن جمهوريات « الموز » في اميركا الوسطى حيث كان لشركة « يونايتد فروت » مصالح مهمة. ومن غير الوارد بالتالي الضغط على الاوروبيين (بريطانيا وفرنسا وهولندا) لمغادرة جزر الكاراييب التي يحتلونها. وفي مؤتمر سان توما، عام ١٩٤٦، ابقى الاميركيون طي الكتمان موضوع ازالة الاستعمار، بناء على الحاح شركائهم الاوروبيين. وفي هايتي، اطاح الجنرال ماغلوار بالرئيس ديمارسيه استيميه وهو محام نشأ في كنف عائلة فلاحية فقيرة، في الوقت الذي كانت سانت دومينغو، الدولة الاخرى في الجزيرة تخضع لحكم تريجيللو وديكتاتوريته الدامية.

الديمقراطيات في اميركا اللاتينية : البرازيل والمكسيك.

هل كان ينبغي ان تعتمد مكافحة الشيوعية على اولئك الطغاة في تلك البلدان الاستوائية ؟ وهل كانت الولايات المتحدة تستطيع الاتكال على تعاون بعض الدول الكبرى ؟ كانت المكسيك تثير اهتمامها بالدرجة الاولى، اذ تعرّضت لمعاملة قاسية وسيئة لدى تأميمها آبار النفط، ويخشى قيام ردات فعل عنيفة مناوئة للاميركيين في اوساط شعب تعوّد منذ زمن بعيد على الخطاب السياسي الداعي للمساواة والاستقلال الاقتصادي. وكان الديكتاتور العجوز بوفيريو دياز الذي اطاح به انقلاب عسكري، عام ١٩١١، قد اطلق حركة ثورية في صفوف جماهير الهنود ضد

الملاّكين ورجال الدين والمصارف الاميركية. وشهدت المكسيك ٤٠ سنة من الاستقرار السياسي والتوازن الاجتماعي. غير ان الجنرال لازارو كاديناس الذي حكم البلاد حتى عام ١٩٤٠، اعلن ان ملكية الارض تعود للدولة وحدها، وعمد الى توزيع ١٥ مليون هكتار من الاراضي الشاسعة على المزارعين الهنود، فافاد ما يقارب ٨٠٠٠٠٠ مزارع من هذا التوزيع وهم الذين شكلوا القاعدة الصلبة للحزب الثوري الذي اسسه عام ١٩٤٦ ووقف في وجه المحاولات الاميركية لزعزعة البلاد. وكان الجنرال قد صادر بطريقة هادئة ممتلكات الشركات الاجنبية وتحدى شركات النفط الكبرى. واستقبل اللاجئين الاسبان الهاربين من حكم فرنكو وعرض على الولايات المتحدة دخول الحرب الى جانبهاضد النازية، ثم اعتزل الحكم عام ١٩٤٠ رافضاً مزيداً من تدخل اميركا الشمالية في شؤونه. كان خلفه ايضاً، افيلا كاموشو، رئيساً يسارياً وانصرف، لسن التشريعات الاجتماعية : مدة العمل في اليوم ثماني ساعات، الضمان الاجتماعي، الحق بالاضراب والفرص المدفوعة. قاوم بكل قوته الهجوم المعاكس الذي شنته الشركات النفطية بلا هوادة ضده. وكانت شركتا ستاندارد ويل ورويال دوتش شل اتفقتا على تجميد صادراتهما المكسيكية وتعجيل اعمال التنقيب في فنزويلا. وتوقف تزويد الآبار والمصافي في المكسيك بالتجهيزات اللازمة. كان نيلسون روكفلر ينوي ارغام المكسيكيين على التراجع عن تأميم النفط. ولما كانت ستاند إداويل تملك كل آبار النفط في الشمال، والشل، آبار الجنوب، فان النفط اوشك على النفاذ جزئياً و توقفت اعمال التنقيب. واضطرت المكسيك على استيراد النفط الفنزويلي الذي كان يدفع ثمنه بالدولار مع اضافة ٣٧٪ على السعر العالمي. مع تأسيسه لشركة بجكس، توصل الرئيس كارونباس شيئاً فشيئاً الى اعادة تنشيط آبار النفط واطلاق الانتاج ودفع التعويضات الكاملة الى الشركات المصادرة، على الرغم من ان ستاندار داويل عارضت منح بجكس قرضاً توسلت الحصول

عليه من السوق الاميركي.

اتاحت تدابير الحماية من المنافسة الأجنبية، للصناعات الوطنية، التطور والازدهار، لا سيما في مقاطعة شيهواهوا القريبة من حدود الولايات المتحدة. ونشأت طبقة متوسطة راحت تعبّر عن حاجات متزايدة. وهكذا وجدت المكسيك نفسها، بفضل سياستها الاقتصادية المستقلة، في مستوى من الازدهار يماثل المستوى الاميركي في نهاية الحرب. وبعد استكمال الحكومات اليسارية الاصلاحات الزراعية والاجتماعية، تجاوزت البلاد ازمتها النفطية ولم تعد تنوي انتهاج سياسة خارجية مناوئة للولايات المتحدة. والبرهان على ذلك، ان افيلا كاموشو عمل على منح الاميركيين قواعد عسكرية في المكسيك من دون تحفظ. اذ ثمة ٨٠٠٠٠٠ عامل على الاقل يجدون بصورة غير شرعية عملاً مؤقتاً في الولايات المتحدة مقابل حفنة من الدولارات يدخلونها الى البلاد لدى عودتهم. كان المكسيكيون (٦٠٪ خلاسيون، و ٣٠٪ هنود و ١٠٪ بيض) يجهلون التمييز العنصري وتحرروا من تأثير الكنيسة بفضل القوانين العلمانية التي سنتها الدولة التي تناوئ رجال الاكليروس بشدة. وكادت التقاليد الثورية الحية ان تتلاشى في هذا البلد بفضل قيام حكومات اشتراكية غير ماركسية لمدة طويلة، الأمر الذي كان يثير الارتياح في اوساط وزارة الخارجية الاميركية التي لم تسعَ للتدخل في شؤون البلاد الداخلية.

في الارجنتين، انحاز سفير الولايات المتحدة بصورة صريحة ضد بيرون في الانتخابات التي كانت ستحمل الجنرال الى السلطة. وفي البرازيل، كانت المصالح الأميركية متعددة ومتنوعة، اذ سبق لفورد ان استثمر في قطاع المطاط في بيليم، كما وظفت بيتلهيم ستيل رساميلها في مناجم الحديد في ميناء جيريه. فالبرازيل غنية في ثرواتها الاستراتيجية التي جذبت الاستثمارات الاميركية. من هنا، لم يكن بوسع وزارة الخارجية الاميركية عدم ايلاء اهتمامها لهذا البلد الشاسع الذي قد يتعرض للتزعزع

ولمزيد من الفقر المدقع لدرجة المجاعة، كما حصل في سيرتاو، في الشمال الشرقي. ولذلك كانت وكالة الاستخبارات المركزية ساهرة على الوضع تماماً.

في الواقع، اقامت حكومات جيتوليو فارغاس عام (١٩٣٠ ــ ١٩٤٥ و ١٩٥١ ــ ١٩٥٤) نظاماً ديكتاتورياً قومياً وشعبياً، كما هي الحال في الارجنتين وكولومبيا، لجهة تشجيع التجهيز الصناعي وتعزيز الثقة في الخارج. بعد أزمة البن، عام ١٩٣٠، أعيد استثمار رساميل المزارعين في شركات منجمية وصناعية، في حين كانت الدولة تجهد لحماية المؤسسات عن طريق الرسوم الجمركية وتخفيض الضرائب وشق الطرق التي تؤمن المواصلات للمعامل، وبناء المرافئ لتصدير المعادن. وادّى انشاء التجمع الصناعي للفولاذ في فولتا ريدوندا، حيث كانت الرساميل بمعظمها أميركية، الى قيام حقنة من الاستثمارات الهامة. وفرض النظام انخراط الجماهير في اللعبة السياسية. مع ذلك سعى فارغاس الى تنويع مبيع الحديد، والتخلص من احتكار بيتلهام ستيل ويوأس ستيل اللتين كانتا تحددان الاسعار. على الرغم من الإتفاق الموقع عام ١٩٥٢، الذي يحظر على بلاده بيع المواد الأولية الاستراتيجية من الدول الاشتراكية، وجد فارغاس من المناسب تجاوز هذا الاتفاق، وباع الحديد الى تشيكوسلوفاكيا وبولونيا. فكان ما كان، وغادر الحكم وسط سخرية خصومه وانتحر عام ١٩٥٤.

لم يطرح هذا الحادث المأساوي مسألة الوفاق السياسي على بساط البحث، اذ خلفه رؤساء يساريون آخرون امثال كوبيتشك وجانبو كادروس. كانت البرازيل بسكانها البالغ عددهم ٩٠ مليوناً، سوقاً مغرية ومصدراً للمواد الاولية، كانت وفرة اليد العاملة تبشر بتصنيع سريع وسهل مع كافة ضمانات الأمن الاجتماعي. ففي عهد جيتوليو في البرازيل، لم يكن للاصلاح الزراعي ولا للحزب الشيوعي أية مكانة فقد منع الحزب

وحكم على زعيمه لويس كارلوس بريستي، عام ١٩٣٥ بالسجن لمدة ٤٦ سنة وثمانية اشهر. كان آنذاك عضواً في اللجنة التنفيذية للاشتراكية الدولية. وكان يطلق عليه في الاوساط الشعبية لقب « فارس الرجاء » واستمرت اسطورته حيّة عبر كتابات صديقه جورج امادو حتى فوزه في انتخابات مجلس الشيوخ عام ١٩٤٥، عندما رخص جوتوليو فارغاس للشيوعية بممارسة النشاط السياسي علانية. نال الشيوعيون ٥٦٨٠٠٠ صوت فقط. غير ان الامر لم يرق للاميركيين، ولا للعسكريين الذين لم يكن بامكانهم القبول بهذا الانحراف نحو اليسار. فتولوا مهمة خلع فارغاس واستبداله بالمرشح الوديع دوترا الذي اعتبر الشيوعيين خارجين على القانون وارغم بريستي على سلوك طريق المنفى. كانت الرساميل الاميركية قد تدفقت على البلاد خلال الحقبة الاولى من « الاعجوبة البرازيلية »، وقامت اثر التطور السريع للصناعة أزمة شرّعت الابواب على الكارثة : خرجت العملة الصعبة من البلاد، وادت المضاربات الى ارتفاع كبير في سعر صرف النقد الوطني. وعانى الفقراء مزيداً من البؤس سيما وان المناطق الشمالية تعرضت للجفاف، وحقول البن في بارانا للجليد.

في غضون ذلك، اعيد انتخاب فارغاس عام ١٩٥٠، فاغلق المرافئ على الفور وخفّض القروض المصْرفية، وضاعف الاجور المتدنية واعاد استيفاء الرسوم الجمركية. كما صمّم على الحدّ من الارباح الضخمة التي كانت تحققها الشركات الاجنبية التي وجدت نفسها مجردة من حق استثمار النفط البرازيلي. مرة اخرى، تجنبت الولايات المتحدة التدخل مباشرة : طلب القادة العسكريون برحيل وزير العمل جاوغدلار، ووجهوا مذكرة الى الرئيس تحذره من « مغبة سياسته الغوغائية ». كان كوبيتشيك، خليفة فارغاس، يستعد للاحتفال « باعجوبة » صناعية اكثر اشراقاً للبرازيل، قبل ان يجتاحها الدولار من جديد ...

ديكاتوريات الآند واميركا الوسطى والكاراييب.

ندّد فارغاس، في « وصيته السياسية » بهيمنة الشركات الأجنبية على مرافق البلاد. لقد عملت في البرازيل علي تحريك الاقتصاد وتنشيطه. أما في بحر الكاراييب، فلم تترك اثراً ظاهراً لها. وكان باستطاعة السلطات البرازيلية التدخل في السياسة الاجتماعية لامتلاكها الوسائل التي تتيح لها رفع الاجور وتحسين مستوى المعيشة، فيما لم تتوافر لطغاة الكاراييب مثل تلك النوايا والوسائل. وكانوا يتركون الشركات الأجنبية تستغل اشد الاستغلال عمال قصب السكر في كوبا وزراعات الموزِ في غواتيمالا. وبلغ بؤس السكان حداً جعل الدعاية الشيوعية تلقى تربة خصبة.

مع ذلك، لم يتوقع فوستر دالاس قيام ثورة ودهش عندما امتنعت كوستاريكا عن حضور مؤتمر كاراكاس عام ١٩٥٤. وعرض موضوع توحيد دول اميركا اللاتينية ضد الشيوعية وطلب الى المندوبين توقيع تعهدات واضحة في هذا المعنى كشرط حتمي لكل طلب قرض او مساعدة. وكانت بريطانيا قد اطاحت لتوها برئيس حكومة غويانا البريطانية بتهمة التعاطف مع الشيوعية فاستهجن الكولونيل اربنز رئيس غواتيمالا، هذا الابعاد بشدة، كما احتج مندوبه الى مؤتمر كاراكاس ضد « تدويل مبدأ المكارتية »، متهماً دالاس بالدفاع عن شركة يونايتد فروت، والتفاني في حماية مصالحها وهي التي تهيمن على معظم الأراضي الزراعية للدولة. اعتباراً من ١٩ تموز، اجتازت قوات الكولونيل ارماس، الهاربة الى الهندوراس، الحدود واجتاحت غواتيمالا واطاحت باربنز. لا شك أن الولايات المتحدة تدخلت للوصول الى اتفاق وارتأت أن اللياقة تقضي بمنع الجنرال غارديا من الوصول الى السلطة، بعد الانقلاب العسكري الذي دبره بالتآمر مع سوموزا زعيم نيكاراغوا ضد كوستاريكا، البلد الاكثر ديمقراطية في المنطقة كلها. واضطر الانقلابيون للتراجع تحت وطأة تهديدهم بغارة جوية.

بقي ناظر الخارجية، جون فوستر دالاس متيقظاً خصوصاً عندما أبلغ عن وصول سفينة سويدية محملة بالاسلحة المنقولة من براغ الى غواتيمالا. فهو كان يعلم ان الدول الشيوعية تبيع السلاح الى الكارايبب ودول اميركا الوسطى. ولذلك استعد لتسديد ضرباته الى الانظمة اليسارية. ولم يقم بأية محاولة للاطاحة بسوموزا الذي اخضع البلاد لنظام ديكتاتوري شديد الوطأة وحافل بالفساد والرشوة. انمااستعجلت « وكالة الاستخبارات المركزية الاطاحة بتروجيللو وحده، عام ١٩٦١، بعد ان ارتكب خطأ تصفية بعض الشهود الاميركيين على عملياته المشبوهة. لم يكن للولايات المتحدة من خطط لمواجهة الشيوعية، في الكارايبب سوى ترك حبل الديكتاتورية والظلم والارهاب على غاربه. ولم ترغب في الحد من جموح الاستعمار في استغلال تلك الدول، باحثة عن ضمان امنها بالحد الادنى من الكلفة.

كان ازدهار فنزويلا مضرب مثل للتأكيد على حسنات النظام الليبرالي. شهدت هذه البلاد الغنية بداية الثروة مع استثمار حقول النفط عام ١٩٢٢. بعد مضي ٣٠ سنة، شكل الذهب الاسود ٩٠٪ من صادراتها. غير أن خيرات النفط لم تعمّ كافة السكان البالغ عددهم ١٢ مليون نسمة، اذ ظلّ البؤس مخيماً على سكان الارياف، والاجور التي يتلقاها عمال النفط متدنية. غير أن غزو الرساميل الاميركية (التي حلّت محلّ الرأسمال البريطاني) ساعد الانتاج على بلوغ ارقام قياسية : ٩٥ مليون طن عام ١٩٥٣ و ١٤٦ مليون طن بعد ازمة السويس. وافادت البتروكيمياء وصناعة الفولاذ (التي نشأت بسبب اكتشاف مناجم ضخمة من الحديد) من استثمار الأرباح النفطية. وكان قادة حزب العمل الديمقراطي قد نجحوا بمساندة الجيش، في اختيار المحامي رومولو بيتانكور رئيساً للحكومة. فنجح في الحصول من شركات النفط على تقاسم الارباح بنسبة ٥٠٪، وعمل على اطلاق خطة إنمائية بعد انشاء الدولة شركة وطنية ومصافي تكرير واسطولاً تجارياً. وعندما تولّى

الكولونيل بيريز جيمينيز السلطة، عام ١٩٤٨، كان عليه مواصلة سياسة بناء المدن وشق الطرق والتصنيع بفضل العائدات النفطية. غير ان ازمة عام ١٩٥٨ اطاحت به واعادت بيتانكور الى السلطة. في غضون ذلك، شاركت فنزويلا بعض الدول العربية، عام ١٩٦٩، في تأسيس « منظمة الدول المصدّرة للنفط »، من اجل التأثير في الاسعار والعائدات التي تدفعها الشركات، وقد وجدت ان هذه السياسة اكثر ملاءمة من تأميم الشركات وهي السياسة التي اتبعتها الدول المنتجة وادّت الى ردات فعل قاسية في صفوفها. وكان الانقلاب العسكري الذي اعاد بيتانكور الى السلطة قد اثار قلقاً بالغاً في اوساط وزارة الخارجية الاميركية. هل كانت الدولة الاكثر غنى في اميركا اللاتينية في طريقها نحو الشيوعية ؟ اشتهر بيتانكور بكونه اشتراكياً طليعياً، واطاح بالكولونيل بيريز جيمينيز الذي سبق له ان اعدم معارضين في حزب العمل الديمقراطي، ومارس التنكيل بحق طلاب الحزب الاشتراكي ــ المسيحي والحزب الشيوعي. وكانت الضحايا قد التفت حول العسكريين اليساريين وعمال النفط الذين تصدّوا لبنادق الشرطة من اجل ايصال بيتانكور الى سدة الرئاسة. وعندما قام نائب الرئيس الأميركي نيكسون بزيارة كاراكاس، بعد نجاح الثورة، واجه سخرية الجماهير، ورجمت سيارته بالحجارة وقوبل بالهتافات الصارخة : « اخرج يا نيكسون، الموت للاستعمار الاميركي ». عمد بيتانكور الى قمع تحركات الطلبة الشيوعيين والكاثوليك اليساريين واعاد الامور الى نصابها. وساد الاعتقاد في واشنطن ان فنزويلا تستعد مجدداً للتنعم بخيراتها بصورة هادئة.

اثارت الاضطرابات الجارية في بلاد « الآند » اهتمام الادارة الجمهورية في البيت الأبيض في واشنطن ولم تعمد الى وضع خطة لمواجهة التحركات المتنامية في صفوف الفلاحين وعمال المناجم. في كولومبيا، فرض الجنرال روجاس بينيلا حكمه الديكتاتوري على البلاد بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٧. وتقاسمت الاحزاب تركته، بعد رحيله، لكن

رئيس الجمهورية ابقى على حالة الحصار القائمة. وكما توقع العسكريون، كانت الارياف مسرحاً لرجال العصابات الذين كانوا يعيشون عالة على السكان وينشرون الفوضى والخوف فيها. مع ذلك شهدت البلاد الازدهار والنمو. ففي عام ١٩٥٤، انشئ مجمع صناعي للفولاذ في بازدي ريو بمساعدة فرنسية. وسبق لايزنهاور ان رفض تمويل هذه الصناعة معتبراً ان من غير المفيد للولايات المتحدة تشجيع قيام صناعات تنافسية منتجة للادوات التجهيزية، في اميركا اللاتينية. وكانت ادارته تردد: « نعم للتجارة، لا للمساعدة ». وقامت الدولة بتطوير أعمال استخراج النفط، من دون المسّ بالامتيازات الممنوحة للشركات الخاصة. واعاد بينيلا النظام والهدوء الى الارياف وقضى على « العصابات » وقمع تظاهرات الطلاب الذين احتجوا بشدة على اغتيال « غاتان » زعيم الليبراليين، عام ١٩٤٨. بعد رحيل بينيلا، تناوب المحافظون والليبراليون على السلطة، وامتنعوا عن القيام بأية اصلاحات اجتماعية. فعادت الاضطرابات الى الريف حيث انتشرت العصابات (باندوليروس) مجدداً، اعتباراً من عام ١٩٥٩.

كان القلق يساور وزارة الخارجية ايضاً بشأن بوليفيا والبيرو. عام ١٩٥٢، سعى بازاستنسارو، مؤسسُ الحركة الوطنية الثورية في بوليفيا الى محاربة كل الاتفاقات الدولية التي ترعى مناجم القصدير، ونجح في الوصول الى رئاسة الجمهورية بمساندة الميليشيات العمالية والفلاحية. وعمد على الفور الى حلّ الجيش النظامي وعزل الضباط الموالين لاميركا وتأميم مناجم القصدير. كان البوليفيون البالغ عددهم ٥ ملايين نسمة يؤيدون في غالبيتهم قيام نظام يجري اصلاحاً زراعياً جذرياً من دون ان يتهم بالشيوعية. وكان الزعيم خوان ليشين، اللبناني الاصل، قد حرّض عمال المناجم على مساندة استنسارو للوصول الى الحكم. فدخلت البلاد التي شهدت ١٦٧ انقلاباً، في مرحلة سياسية يصعب التحكم في مسارها، على حدّ ما رأت واشنطن، باعتبار ان الميليشيات العمالية والفلاحية المسلحة كانت تستطيع بين ليلة وضحاها الاذعان لتعليمات الشيوعيين.

في البيرو، استمر المحافظون في السلطة، غير أن سكان البيرو كانوا يعانون من ضائقة اقتصادية شديدة الوطأة. وبدوا اكثر تعاطفاً مع الحزب الشيوعي. وكان موضوع محاربة الاستعمار الذي تروّجه الاشتراكية العالمية، قد لاقى بعض النجاح في اوساط الجيش حيث معظم الضباط يتحدرون من اصل وضيع. اما طلاب البيرو، فقد جعلوا من جامعة ليما بؤرة للماركسية اشد فتكاً من جامعات مكسيكو وكاراكاس وسانتياغو ــ الشيلي. مع ذلك، بقي الزعيم الشعبي هايا ديلا ثور وحزبه (الاتحاد الشعبي الثوري الاميركي) على مسافة بعيدة من الشيوعية، بغية تعزيز الحوار مع الديمقراطيات الاميركية، كما فعل بيتانكور في فنزويلا. وكان الجنرال اودريا رئيساً للبلاد منذ ١٩٤٨، وعرف كيف يستقطب الاستثمارات المنتجة. غير أن الازدهار انحسر عن البلاد عام ١٩٦٠، بعد وصول بالتران الى السلطة قبل سنة، عندما استقبله فلاحو منطقة كوزكو بالحجارة. كان الاميركيون يدركون ان عليهم عدم الاعتماد على جيش البيرو لاعادة الامور الى نصابها في حال قيام ثورة شيوعية.

الاعجوبة الاقتصادية في الدول الكبرى، والبؤس في الصغرى.

عام ١٩٦٠، كان الوضع العام في الدول اللاتينية الاميركية، يثير اهتمام وزارة الخارجية في واشنطن. ذلك ان دول المحيط الهادئ وهي في العادة هادئة، اخذت تشهد اضطرابات واسعة. ففي عام ١٩٥٨، انتخبت التشيلي الغنية بالنحاس، المرشح المحافظ جورج اليساندري لرئاسة الجمهورية، غير ان منافسه الاشتراكي سالفادور الليندي كان يتعقبه، فيما كان الديمقراطي المسيحي، فراي الذي ينادي بالاصلاحات، يتحين الفرصة المؤاتية. من جهة اخرى، كان عمال مناجم النحاس البالغ عددهم ٥٠٠٠٠ شخص، يحلمون بطرد التقنيين والاداريين العاملين في الشركات الاميركية الثلاث التي تستثمر اهم منجم للنحاس في العالم.

وكانت مناوأة « الغرينغو »[1] الشغل الشاغل للحزب الشيوعي الذي منع عام ١٩٤٨ من ممارسة نشاطه لكنه بقي يلعب دوراً مهماً في النضال السياسي لكونه كان يجمع ١٦٪ من الاصوات في اللوائح التي تضم شيوعيين باسماء مستعارة. كانت البورجوازية ترتعب من اليندي وتتوقع منه اعتماد سياسة حازمة. وكانت اوضاع البلاد من حيث التصنيع والنزوح الى المدن تجعل من فوز اليسار امراً محتملاً. في الاكوادور، حيث يخيم جو من اللااستقرار المزمن (٣٠ رئيساً بين عام ١٩٢٥ و ١٩٦٢) كان الرئيس فيلاسكوايبارا، الذي انتخب عام ١٩٥٢، ليبرالياً يتطلع الى موسكو بصورة تلقائية.

اما البرازيل التي رغبت في التخلص من لعنة الازمنة الغابرة فقد دشنت عام ١٩٦٠، عاصمتها الجديدة، برازيليا، وهي عبارة عن مجمّع معماري، حديث قائم في شبه الصحراء، لكن البيئة المحيطة به تحميه من كل محاولة انقلابية. شكّلت هذه المنشآت رمزاً للنجاح الاقتصادي الاستثنائي لعهد الرئيس كوبيتشيك بين عام ١٩٥٦ و ١٩٦٠. فهذا السياسي الشعبي كان مرشح الاشتراكيين ــ الديمقراطيين والعماليين والشيوعيين على السواء، وكاد يسقط في الانتخابات في ظل لامبالاة الجيش الذي يناصبه العداء. هذه « السمكة الحية »، التي تتحدر من أسرة تشيكية مهاجرة، « لا تستطيع العيش خارج المياه الباردة » كما تقول أغنية كتبت لزوجته. شغل منصب حاكم ولاية ميناس جيريه ونجح في مضاعفة انتاج الكهرباء، وفي بناء الطرقات والسدود. لا شك أن هذا الرجل اليساري كان يصبّ اهتمامه على رفع المستوى الاجتماعي للفلاحين الفقراء، لكنه، بدلاً من سن تشريعات حول اصلاح زراعي غير مضمون النتائج، سعى الى تطوير المكننة والتسليف الزراعي واستصلاح الاراضي البور. من المؤكد ان

---

(١) الغرينغو هو اللقب الذي يلصق بالأميركي في دول اميركا اللاتينية، كما « توركو » للبناني والسوري في المهاجر الأميركية.

سياسته الاقتصادية لم تكن تثير قلق واشنطن. فقد اعتمد على اصحاب الرساميل في ساو باولو، الذين كانوا يوفرون العمل لقرابة ١,٥ مليون عامل في مصانعهم البالغ عددها نحو ٤٠٠٠٠ مصنع، واطلق صناعة السيارات ـــ بمساعدة فورد وفولسفاكن ـــ وغدت البرازيل تنتج ١٨٠٠٠٠ سيارة سنوياً. كما رفع مصنع الفولاذ في فولتاريدوندا انتاجه الى ثلاثين طن لمواجهة الطلب المتزايد. كذلك اتاح الرأسمال الاميركي تطوير صناعة الادوات المنزلية الكهربائية والالكترونيات والبتروكيمياء. كما وضع كوبيتشيك خطة خمسية طموحة من شأنها زيادة شق الطرقات ثلاث مرات ومضاعفة انتاج الفولاذ وتخفيض سريع لمعدّلات الامية. لم تبدِ الولايات المتحدة اي اعتراض على هذه الاندفاعة الجديدة لأنها المستفيد الرئيسي منها. فهي التي انشأت واستثمرت مصانع اجهزة التلفزيون والبرادات وبنت محطات المحروقات على طول الطرقات والمخازن بفروعها المتعددة في كل انحاء البلاد. كانت هذه القفزة الى الامام للاقتصاد البرازيلي، تعتبر، على الرغم من التضخم الفاحش، مثالاً لنجاح النظام الليبرالي. مع ذلك، كانت البلاد تخضع لرقابة وسهر وكالة الاستخبارات المركزية لان التمركز الكثيف للجماهير العمالية قد يؤدي الى تعزيز قيام بؤر ثورية في البلاد.

ثمة هوة عميقة تفصل العامل في شركة فورد عن نظيره « الكابوكلو » في سيرتاو، من دون التحدث عن هنود امازونيا او عن اولئك الباحثين عن الذهب في ميناس جيريه الذين ما يزالون يستخدمون الوسائل البدائية في التفتيش عن الذهب في مجاري الانهر. لا شك أن رفض اجراء اصلاحات زراعية هي التي افضت الى « الاعجوبة ». فالمسؤولون السياسيون في البرازيل، كما في الارجنتين والتشيلي وفنزويلا، اتجهوا نحو الاهم وشرعوا الابواب واسعة امام الرساميل الاميركية بغية تجهيز وتطوير القطاعات والمناطق الاكثر مردوداً. لقد لعبوا لعبة التجار والمقاولين والممولين الاجانب مع الحرص على بحث شروط تمركز تلك الرساميل

بصورة مريرة وقاسية. ففي فنزويلا، لم يهب بيتانكور شيئاً للشركات النفطية الكبرى، واذا كان السياسيون البرازيليون اضطروا الى التخلي عن مناجم الحديد الى شركة هانا فينينج كومباني، واذا كانت ارباح الشركات الاجنبية لا يعاد استثمارها جميعاً في البلاد، فان النشاط الذي كانت تحدثه على الصعيد الاقتصادي، كان يعزز ترقي الطبقات المتوسطة، ورفع المستوى الثقافي والمعيشي لبعض المجموعات الثرية.

بالمقابل، كان معظم السكان في مجموعة دول « الأند »[1] وفنزويلا، يعيشون من الزراعة ويطالبون بالتغيير العميق. وكان من شأن الشكوى المتزايدة من الاستعمار الاميركي ومطاليب الجماهير، ان تؤدي الى تحرك في العمق وتفضي إلى ثورات شيوعية، شرط الا يتصدى لها الجيش. هذا النوع من المزيج المتفجر ادى الى نجاح فيديل كاسترو في كوبا، بعد ان اغفل الاميركيون شؤونها في أعقاب نجاح الاعجوبة الفنزويلية والبرازيلية ونهوض الارجنتين وفوز اليمين في التشيلي. كانوا يراقبون البراكين المتفجرة في جبال « الاند » حيث شبت النار في حقول قصب السكر في بحر الكاراييب.

لم يكن قدوم كاسترو منتظراً، خصوصاً الى هافانا، عاصمة اللهو والمتعة السهلة لفئة مستوطنة ترتكز ثروتها على زراعة قصب السكر فقط. كانت الارباح كبيرة، وكان بناء الفنادق الفخمة ومكاتب الشركات والمساكن على رمال الشاطئ، يدر على قسم من السكان فضلات ارباح لازدهار لا مثيل له. كانت كوبا تثير بنجاحها غيرة كل الجزر في بحر الكاراييب، مع ان سكانها الفلاحين كانوا يعيشون في فقر مدقع. أستثمر الاميركيون فيها مليار دولار عبر شركاتهم الضخمة التي كانت تسيطر

(١) الأند، سلسلة من الجبال المشرفة على الساحل الغربي لأميركا الجنوبية، وتكمن اهميتها الاقتصادية في الثروات المنجمية القائمة في فنزويلا (نفط وحديد) والتشيلي (نحاس وحديد) وبوليفيا (قصدير).

على ٤٠٪ من انتاج السكر وكذلك على خطوط سكة الحديد وشبكة الهاتف وتوزيع المياه والكهرباء، حتى قيل ان الوصاية الاقتصادية الاميركية جعلت من سفير الولايات المتحدة اكثر قوة في كوبا من رئيس اي دولة حصلت نظرياً على استقلالها منذ عام ١٨٩٨.

كاسترو سيّد كوبا: ٣١ كانون الأول ١٩٥٨:

كان سيد كوبا يدعى باتيستا. وكان هذا الكولونيل المحافظ قد فرض على الكوبيين نظاماً ديكتاتورياً دموياً بفضل دعم جيش يكن له الولاء لكونه كان يشرك ضباطه في سياسة النهب والعنف التي كان ينتهجها. فالاعمال التعسفية لم تكن تلقى العقاب، وعمليات السلب والاغتصاب والتعدي مباحة، وكذلك القمع الوحشي للتظاهرات الاجتماعية والسياسية. مارس باتيستا الحكم بين عام ١٩٤٠ و ١٩٤٤ ثم ابعد عن السلطة اثر انتخابات حرة، بتأثير من سفير الولايات المتحدة. وقد عاد الى سدة الرئاسة بفضل انقلاب عسكري. احتجاجاً على تلك العودة، قرر طالب في الحقوق في جامعة هافانا، يدعى فيديل كاسترو، خوض غمار الكفاح المسلح ضد الديكتاتور. فهاجم مع مئة من انصاره، في ٢٦ تموز ١٩٥٣، ثكنة موكاندا. لكنه فشل والقي في السجن ثم اعفي عنه ونفي الى المكسيك. اما رفاقه ومعظمهم من الطلاب فلم يتمكنوا كلهم من اللحاق به. فجنّد رفاقاً آخرين كانت لهم افكار ثورية، مثال الارجنتيني « شي » غيفارا، الذي اسس معه « حركة ٢٦ تموز » تخليداً لأول عملية ارهابية للحركة الكوبية ضد الطغيان.

دفع هذا الشاب المغامر رفاقه في عملية جديدة في ٢ كانون الأول ١٩٥٦. فانطلق حوالي ٥٠ مقاتلاً من رجال العصابات من المكسيك، ونزلوا على شواطئ كوبا. كان جنود باتيستا بانتظارهم. قتل الكثير منهم. ونجح ١١ منهم في النجاة والفرار الى الجبال. وجرى تنظيم شبكة من

المقاومة في ادغال سييرا مايسترا بمساعدة الفلاحين. خلال سنتين، امعن كاسترو التفكير، ونسج علاقات وثيقة مع ابناء السهل وبعث برسائل الى هافانا للاستعلام عن احوال النظام والسعي الى المؤيدين والانصار. علم ان وزارة الخارجية الاميركية قد اوقفت، عام ١٩٥٨، شحن الاسلحة الى كوبا، لأن ادارة ايزنهاور وجدت من غير اللائق التورط مع طاغية مثل باتيستا. فاستنتج ان الولايات المتحدة قد تستحسن قيام عمل ثوري في البلاد. لكنه سرعان ما ثاب الى رشده عندما علم ان السفير الاميركي ايرل سميت قد حصل من البنتاغون على ابقاء المدربين العسكريين في الجيش الكوبي. وبذلك استمر الحضور الاميركي قائماً واحتفظت الولايات المتحدة بقواعدها في الجزيرة.

بدأت مجموعات كاسترو تقوم بعمليات ارهابية واعمال فدائية. وتوصّل كاسترو الى توريط بعض وحدات الجيش النظامي الذي ملّ الفساد والخضوع في صفوف الضباط. وتقرر شن هجوم شامل لرجال المقاومة على هافانا. كان تصدي الجيش مفككاً وغير متوازن. وليلة ٣١ كانون الأول ١٩٥٨، هرب باتيستا خلسة من قصره. فاحتل الكرسي الرئاسي قاضٍ سابق، صديق لكاسترو بانتظار وصول هذا الأخير الى المدينة « المحررة » بعد اسبوع، على رأس موكب من السيارات، واستقبله الجمهور بالهتاف « لاصحاب اللحى » (باربودوس).

في ١٠ كانون الثاني، استدعي السفير سميث واعترفت الولايات المتحدة على الفور بالنظام الجديد. لا شيء كان يدل على ان كاسترو ينوي تحرير البلاد. اذ قام بطرد الطاغية، محققاً بذلك آمال الجمهوريين البروتستانت ومدير وكالة الاستخبارات المركزية الذي لم يتلق الكثير من هباته السخية.

من العقائد الوطنية في دول اميركا اللاتينية، ما يقضي بالتخلص من هيمنة الرساميل الاميركية. وهذه النقطة تزداد اهمية عندما يكون الانتاج

الوحيد في البلد مخصصاً بكامله للتصدير. ولذلك لا يستطيع كاسترو تجنب تحرير انتاج السكر من قبضة الاجنبي، حتى ولو لم يقرأ كلمة واحدة من كارل ماركس. كان اتباعه في الغالب من الشيوعيين العاملين في الخفاء، ولهذا انصبّ اهتمامه في البداية على الترخيص للحزب الكوبي الذي رفع اعلامه الحمراء في شوارع هافانا. وطارد رجال المقاومة السابقة اتباع باتيستا في العاصمة، وكانت هذه العملية التطهيرية ضرورية في نهاية حقبة طويلة من الديكتاتورية. غير أن التجاوزات الدموية احتلت الصفحات الأولى لليوميات الأميركية التي راحت تتساءل عن معنى « تحرير » كوبا.

مع ذلك، قام كاسترو بزيارة واشنطن وطلب في نيسان ١٩٥٩ مقابلة ايزنهاور. لم يستجب طلبه لكنه حاذر اغضاب الاميركيين، وصرح للصحفيين ان الحريات ستكون مصونة وعلى رأسها حرية الصحافة. وابلغ نائب الرئيس الاميركي نيكسون انه يضمن الاستثمارات الاميركية التي تحتاجها كوبا. عندما طلب اليه تحديد موعد الانتخابات، اجاب بأنه ينبغي وضع البرنامج الثوري موضع التنفيذ قبل دعوة الشعب للانتخابات. هل طالب بمساعدة مالية ؟ من الواضح أنه لم يحصل عليها. توفي فوستر دالاس وأمسى أيزنهاور في نهاية ولايته. فلماذا يسعى لقيام نظام ديكتاتوري يهدد المصالح الاميركية ؟ على العكس، مورست ضغوط في صفوف الجمهوريين في الكونغرس كي يتدخل ايزنهاور ضد كاسترو. لم يتقرر شيء حتى الآن وبدلت الصحف من لهجتها حين أعلن كاسترو، في ١٧ ايار، عن اصلاح زراعي وتوزيع ١٣٦٠٠٠ هكتار من الاراضي العائدة لشركة « يونايتد فروت ». ونشطت وكالة الاستخبارات الاميركية واتصلت بضباط الجيش الكوبي السابق الذين نجوا من عمليات التصفية وجهّز احدهم ويدعى المايجور ديازلانز عملية ترمي الى استعادة السلطة. تنبهت الشرطة الى ما يجري، لكن لانز نجح في الفرار الى الولايات المتحدة حيث ابلغها ان كوبا اصبحت شيوعية. وكرر هذا الكلام امام

مجلس الشيوخ بأن السوفيات اصبح لهم بلد جديد في بحر الكاريبب يدور في فلكهم. لم يكن لانز الشاهد الوحيد، اذ ثمة مئات من اللاجئين الذي عبروا البحر ناقلين الكلام ذاته. من أين يجد هؤلاء الاموال اللازمة في فلوريدا لاستئجار طائرات تقوم بشن الغارات على هافانا؟ هذه الغارات كانت خاصة ولا دخل للبيت الابيض بها. اتهم كاسترو ايزنهاور وهاجم الاميركيين بعنف.

في تشرين الأول، ثمة منعطف حاسم بدأ يرتسم في الأفق: تم توقيع اتفاق تجاري مع الاتحاد السوفياتي، وتسلّم المتطرفون السلطة: شي غيفارا وراوول كاسترو، شقيق فيديل اللذين أمعنا في مقاطعة واشنطن. وبيع السكر من السوفيات، بمعدل مليون طن سنوياً ولمدة خمس سنوات، اضافة الى سلفة مالية قدرها ١٠٠ مليون دولار. اوفد خروتشوف ميكويان لابرام الاتفاق. وعندما اعلن ايزنهاور ونائبه نيكسون ومدير ان.بي.آي. ادغار هوفر عن دعمهم المهاجرين الكوبيين وتجميد كل علاقة مع النظام الجديد، اعلن كاسترو بدوره عن اقامة علاقات دبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والنظام الكوبي الجديد. اثار الحصار الاقتصادي على الجزيرة حماساً وطنياً عارماً: وجرى تأميم كل ما هو اميركي. وفي ٣ تموز ١٩٦٠، صنّف شي غيفارا البلاد في المعسكر الاشتراكي الى جانب الصين والاتحاد السوفياتي. في ايلول، وصلت الى كوبا اولى شحنات الاسلحة التشيكوسلوفاكية. في مطلع عام ١٩٦١، اكتملت فصول القطيعة بمغادرة سفير الولايات المتحدة هافانا بصورة رسمية.

ايزنهاور والانحلال

جال السفير السابق ايرل سميث على الوسط السياسي في جورجتاون، الحي الراقي في واشنطن، حيث يلتقي صانعو الحياة السياسية. لماذا لم يلقَ آذاناً صاغية عندما طلب خنق ثورة كاسترو في مهدها؟ وهل

سيصغي الرئيس الجديد اليه ؟ انه ديمقراطي وقد انتخب لتوه. لماذا سيكون اكثر حزماً من ايزنهاور ؟

خلال ولايتي الجنرال ــ الرئيس بين ١٩٥٣ و ١٩٦٠، لم يقدم الجمهوريون اية تنازلات لموسكو. بل على العكس، لجأوا الى التهديد النووي لاجهاض الازمات الخطيرة. وبقي « ايك » اميناً لمبدأ « الهاوية » الذي وضعه دالاس. هل هدّد خروشوف باعادة فتح ملف برلين ؟ قامت واشنطن بترتيب شؤون الجبهة المشتركة في الغرب. وراح نيكسون في معرض موسكو يتبختر في متجر اميركي لبيع الادوات الكهربائية المنزلية، وشوهد على التلفزيون يمدّ « اصبعه مهدداً » بوجه خروتشوف. وعندما قبل هذا الأخير الذهاب الى واشنطن في زيارة رسمية (ايلول ١٩٥٩)، قدّم لضيوفه نموذجاً عن القمر الاصطناعي الذي اطلقه لتوه الى القمر، فبادر ايزنهاور الى اهدائه نسخة مصغرة عن الغواصة النووية بولاريس. هذه الصور التي بثتها مراراً القنوات الاحدى عشر العاملة في التلفزيون عودت الجمهور على اعتبار ايزنهاور متشدداً في موضوع العلاقات بين الشرق والغرب. خلال زياراته الى البرازيل والارجنتين والتشيلي والاورغواي، لم يواجه بالطبع بالهتافات المعادية كما حصل لنيكسون، لكنه استطاع قراءة لافتات الترحيب وعليها : « نحن نحب ايك، وكذلك فيديل ». وتعرض لانتقادات عنيفة في مجلس الشيوخ التشيلي والى تظاهرات جماهيرية معادية اضطرته للاعتكاف في طائرة مروحية في بيونس ايريس. رأى مستشاروه ان يد موسكو تحرك الثورة في اميركا اللاتينية واقترحوا عليه سحق النظام الكوبي. تلقى آلان دالاس الأمر بوجوب تدريب المهاجرين الكوبيين في معسكر الجيش الاميركي في غواتيمالا بغية الاستعداد لغزو كوبا، وفيما خص مسألة الطائرة يو ٢ (وهي طائرة استطلاع اميركية اسقطت في السماء السوفياتية على علو شاهق)، دافع ايزنهاور عن طيارها المتهم بالتجسس، وقال : « لا حاجة

للسوفيات الى يو ٢، اذ يملكون الاقمار الصناعية. في باريس حيث التقى الكبار في ايار ١٩٦٠. غادر خروتشوف القاعة غاضباً. وفي جلسة الجمعية العمومية للامم المتحدة في ايلول، ضرب الطاولة امامه بعقب حذائه من دون ان يتحرك الوفد الاميركي. عندما قيل للرئيس ايزنهاور ان الرئيس الشيوعي في لاوس باتت لاو قد يجازف باشعال الحرب مجدداً في الهند الصينية، ردّ بهدوء ان على الاميركيين التدخل، واذا تدخلوا فليكن ذلك « بصورة نهائية وأخيرة ». حتى آخر ولايته، بقي « ايك » « على حافة الهاوية ».

الصورة الرائجة عن الجمهوريين توحي بالتشدد والحزم..وهي صورة بالاسود والابيض ومن مخلّفات الحرب الباردة. واذا كان العالم تغير، فان « الحزب الكبير العجوز » بقي على حاله. فهو يعتبر النزوات العنصرية الاميركية كنتيجة للمدّ الشيوعي عند الشعوب الملونة. ويرى ان الزنوج الاميركيين البالغ عددهم ١٤,٥ مليوناً قد يشكلون خطراً بفعل الدعاية الشيوعية. مع ان جمعياتهم ورابطاتهم تعمل في سبيل السلم والانسجام الاجتماعي. فلا هيئة المساواة العرقية، ولا الرابطة الوطنية لتقدم الشعوب الملونة، كانتا تدعوان الى استخدام العنف، بل تطالبان بالاصلاح. والحزب الديمقراطي كان ينادي بذلك، وقد وضع وثيقة في ظل عهد ترومان، عام ١٩٤٦، توصي بوضع حد للتمييز العنصري واعلان المساواة في الحقوق. وامام تمرّد ناخبي الجنوب، اضطر ترومان لاصدار مرسوم اكتفى فيه بمنع التمييز العنصري في مجال الاستخدام على ان يقتصر ذلك على الموظفين الفيدراليين والقوات المسلّحة. وعام ١٩٥٤، عانى ايزنهاور من قاضٍ عجوز محافظ كان يشغل منصب حاكم ولاية كاليفورنيا، وهو ايرل وارن رئيس المحكمة العليا. ففي ١٧ ايار، اعلن وارن لا دستورية التمييز العنصري في مؤسسات التعليم. وهذا يعني اشعال فتيل الحرب المدرسية في الجنوب. واضطر ايزنهاور للتحرك فأمر « بمنع التمييز

العنصري » في مدارس ولاية كولومبيا التي كان يرئسها. وكان على قناعة بأنه يخوض مغامرة كبيرة، معتبراً ان القاضي وارن قد ذهب بعيداً في مواقفه.

لم يستتبع قرار المحكمة العليا أي تحرك فوري في العام ١٩٥٥، رفضت سيدة سوداء، تدعى روزا باركس، اخلاء مقعدها في حافلة ركاب في مونتغمري (الاباما)، الى رجل ابيض، فاعتقلت وحكم عليها بغرامة قدرها ١٠ دولار. عند ذاك، قرر قس معمداني شاب يدعى مارتن لوثر كينغ، مقاطعة شركة حافلات الركاب، وطلب الى السود السير مشياً على الاقدام. كان كينغ من اتباع غاندي ومن انصار المقاومة السلبية. خلال احد عشر شهراً، سارت الحافلات نصف فارغة. تعرّض منزل القس للاعتداء، فردّ بالقول : علينا الا نمسّ شعرة واحدة في رأس اخوتنا البيض ». في تشرين الأول ١٩٥٦، حكمت له المحكمة العليا واستطاع الملوّنون ركوب الحافلة من جديد. مذاك، اصبحت قضية الزنوج تتخذ حيزاً مهماً من اهتمام وسائل الاعلام.

بعد ذلك، اضطر ايزنهاور لاتخاذ موقف محدد. فصدر قانون الحقوق المدنية الذي اجاز للقضاة الفيدراليين فرض غرامات شديدة بحقّ السلطات التي تمنع، بمختلف الطرق او بالتهديد، الزنوج من التصويت في ولايات الجنوب، كما ينبغي التقيد بحظر التمييز العنصري في المدارس. وفي مدينة ليتل روك (اركانزاس)، اصدر احد القضاة، عام ١٩٥٧، الامر الى البلدية بوجوب تسجيل ٩ تلامذة زنوج في الليسيه، فرفض الحاكم الأمر ونشر الحراس امام مدخل المعهد، واذ عجز ايزنهاور عن ايجاد تسوية، أوعز بقبول التلامذة. فاحتشد الجمهور متوعداً حول الليسيه. تمركزت قوة مظلية من الف رجل حول المدرسة وبقيت في مكانها حتى نهاية العام الدراسي. اقفلت الليسية ابوابها طيلة سنتين واستوجب فتحها اصدار قرار من المحكمة عام ١٩٥٩. هذه الاضطرابات

التي شهدها العالم كله عبر شاشات التلفزيون، اعطت عن الولايات المتحدة، صورة سيئة لمجتمع عنصري منغلق عن كل تطور وشبيه بمجتمع جنوبي افريقيا.

عانى ايزنهاور الأمرّين من مسألة الزنوج حتى نهاية ولايته. ففي الأول من شباط عام ١٩٦٠، في عز الحملة الانتخابية، جلس اربعة طلاب الى طاولة مخصصة للبيض في مطعم يقع في كارولينا الشمالية، وامتنع النادل عن خدمتهم. استمروا جالسين مكانهم حتى ساعة الاقفال، متبّعين سياسة الاعتصام لأول مرة. حيثما كان السود يرغبون بالاحتجاج، كانوا يعمدون الى الجلوس على الطريق، مغامرين بخطر القائهم في السجن. هكذا في اتلانتا، مارس مارتن لوتر كينغ الاعتصام في متجر كبير. أفرج عن رفاقه، لكن حكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة اربع سنوات. ولا بد لمثل هذا الحكم القاسي، في عز الحملة الانتخابية من أن يلهب المشاعر ويؤجج الاهواء. والتقط الديمقراطيون طابة الحظ، حين نجح مرشحهم جون كينيدي في الاتصال هاتفياً بزوجة القس، عاملاً على اطلاع وسائل الاعلام على مضمون هذا الاتصال فيما تدخّل شقيقه روبير مع القاضي للافراج عن المتهم في اليوم التالي. استغلّ الحادث بصورة فورية على نطاق واسع، اذ قام منظمو الحملة الانتخابية بتوزيع مليون نشرة في الكنائس والاماكن العامة الأخرى. هل يمكن لمرشح على هذا القدر من التعاطف مع الزنوج ان يكون مناوئاً لكاسترو « الليبارتادور » ؟

انتخاب الديمقراطي الكاثوليكي كينيدي

ظهر المرشح كينيدي بمظهر الليبرالي، مقابل نيكسون الذي كان يمثل الجناح المتصلب في الحزب الجمهوري. كان الكاثوليكي جون فيتزجيرالد كينيدي يتحدر من اسرة ايرلندية ثرية تقيم في بوسطن، وشغل والده منصب سفير في لندن ابان الحرب، كما حارب هو شخصياً في

سلاح البحرية. لكنه كان على وجه الخصوص يتخلق باخلاق امه، روز فيتزجيرالد التقية والطموحة والتي تتمتع بمواهب استثنائية في حقل العلاقات العامة. سهرت على تحصيل ولدها الذي تابع، بعد هارفارد، دروسه الجامعية في كلية لندن للعلوم الاقتصادية حيث كان يحاضر هارولد لاسكي. لم يكن هذا العالم الاشتراكي، بالطبع، المثال الذي تبتغيه روز لابنها، لكنها كانت تعتقد ان على ولدها التعرف اولاً على افكار خصومه. وفي هذا السياق، شجعته ايضاً على السفر. فانتقل الى روما حيث استقبله البابا والكاردينال باتشيللي. حيثما حلّ في اوروبا، سواءً في باريس أو لندن، موسكو أو طهران، كان يقيم في السفارات الاميركية. التقى في موسكو، شارل بوهلين، افضل الاختصاصيين في الشؤون السوفياتية، وفي فارصوفيا، انطوني بيدل، وفي باريس، وليم بولليت. تناولت اطروحته لنيل الدكتوراه موقف البريطانيين المؤيدين للصلح والذي ادّى الى استسلام ميونيخ. ما ان انجزت كتابة هذه الاطروحة، حتى نشرت تحت عنوان: « لماذا انقسمت انكلترا » وضرب رقماً قياسياً في التوزيع بفضل اهتمام صديقه لوس، مدير دار « لايف ». ولا يستطيع شاب على هذا القدر من الموهبة الا ان يهتم بالشأن السياسي. منذ مدة طويلة كانت روز قد خططت لمستقبله السياسي وكانت ترى ان عليه خوض غمارها.

بدءاً من عام ١٩٤٦، ترشح كينيدي الشاب في بوسطن. ما ان انتخب حتى احتل مقعده بين اعضاء الحزب الديمقراطي في مجلس الممثلين (النواب)، وتميز بتصويته لصالح بناء مساكن اجتماعية، وللحركة النقابية، ومساعدة المدارس الخاصة الكاثوليكية. اذا كان تبنى وجهة نظر الرئيس ترومان بشأن النقطة الرابعة التي تعنى بمساعدة الدول المحتاجة، فهو قد ادان تخلّي الجمهوريين عن الصين، وشجب خفّة المسؤولين الذين لم يتوقعوا الكارثة قبل وقوعها. في الخامسة والثلاثين من عمره، كان مستعداً لدخول مجلس الشيوخ، ونجح في التغلب على السيناتور

لودج، احد وجهاء بوسطن، بفضل تنظيم حملته الانتخابية بصورة فعالة. انفق ٣٦٨٠٠٠ دولار، وتلقى الاموال من الشركات عبر العديد من لجان الدعم. جمع حوله فريقاً من خريجي جامعة هارفارد، بادارة محام شاب يدعى تيودور سورينسين. شكل زواجه من جاكلين بوفييه حدثاً اعلامياً. نشر كتاباً جديداً بعنوان : « ملامح شخصيات شجاعة »، حيث تغنّى برجال السياسة الاميركيين الذين برهنوا عن حزم وشجاعة. بيع منه ٧٠٠٠٠٠ نسخة ونال على اثره جائزة « بوليتز »، الأمر الذي زاد من شهرة السيناتور الشاب في عالم الصحافة، واتاح له الامل بترشيحه، عام ١٩٥٦ الى منصب نائب الرئيس، الى جانب ستيفينسون، مرشح الديمقراطيين. كان فشله الأول حين انتخب السيناتور كيفوفير لولاية تينيسي، بدلاً منه. لكن عدسات التصوير التقطت الابتسامة الابتسامة الساحرة للسيناتور كينيدي ووزعتها عبر الشاشة الصغيرة في كل البيوت الاميركية..

بين عام ١٩٥٦ و ١٩٦٠، ثابر على تحضير ترشيحه الى البيت الأبيض، مضاعفاً من رحلاته داخل البلاد. واعيد انتخابه في مجلس الشيوخ، عام ١٩٥٨، ووقف الى جانب الليبراليين فيما خص الحقوق المدنية للزنوج ولم يتردد في الدفاع عن الاستقلاليين الجزائريين. عام ١٩٥٩، دعا الى مساعدة الدول النامية شرط ان تكون مساعدة اقتصادية اكثر منها عسكرية، اذ بات مقتنعاً بأن على الاميركيين ان يرفعوا مستوى معيشة الملونين، اذا كانوا يرغبون محاربة الشيوعية بصورة فعالة. ورأى ان مشروع مارشال هو الذي ابعد نفوذ موسكو عن اوروبا، وليس منظمة حلف شمالي الاطلسي.

ثمة استعدادات اخرى كثيرة دفعته الى اتخاذ مواقف ضد التدخل في قضية كوبا. مع أنه بقي شبه صامت حول هذه المسألة خلال الحملة الانتخابية. ولعلّ المراحل الأولى من الانتخابات قد ساعدته على توضيح

فكرته، فالمستشارون كانوا كثراً حوله لأنه اتبع نهج روزفلت فيما خص احاطة نفسه بهيئة خبراء تسديه المشورة وتساعده في رسم السياسة، فهناك بيار سالينجر، الملحق الاعلامي الحاضر باستمرار على جبهة الخيال، والاختصاصي في الردّ على الهجمات الدينية التي يشنّها الجمهوريون؛ كما استعان « برؤوس » جامعتي هارفارد وماستشوستس، امثال غالبرايت، والتر هيلر، سيمور هاريس، ماك جورج بوندي، والت روستو وكلهم اختصاصيون في العلوم السياسية، فضلاً عن رجلي القانون كوكس وشايس. وكان باستطاعة هؤلاء تحضير ردّ يبدو فيه هذا « الايرلندي » الشاب سياسياً « مثقفاً » يحرص على القول بأن مستقبل كوبا واميركا اللاتينية يقوم على تسريع وتيرة الانماء وبالتالي على توفير المساعدات لهما. في الغرب الاميركي الاوسط، حيث كان يواجه سيناتور مينيسوتا، لم يكن من مصلحته بسط آرائه الليبرالية، باعتبار ان ابناء هذه الولاية كانوا يعتقدون، على غرار الجمهوريين بأنه ينبغي الدفاع عن مصلحة « اميركا اولاً ». اما فيرجينيا الفقيرة، فكانت تكن الكراهية لهذا الكاثوليكي المتعاطف مع مأساة العبيد والملونين في العالم الثالث. واعلنت منظمات بروتستانية عدة معارضتها له. واضطر لتوضيح نواياه الدينية باستمرار والاعلان عن تمسكه بفصل الكنيسة عن الدولة. غير أن صحيفة « اوبسرفاتوري رومانو » اعلنت أن للكنيسة « الحق بالتدخل في الحياة السياسية ». لحسن الحظ لم تحرّك هذه الجملة الصغيرة الحملات الكلامية، وبدا لكينيدي ان ولاية فيرجينيا قد « دفنت الجدل حول المسألة الدينية » الى الابد.

في الاجتماع العام للحزب في لوس انجلوس، لم تطرح قضية كاسترو على النقاش. ولاول مرة تمنى كينيدي ان يبقى بعيداً عن هذا المنزلق الخطر. وكان اللوم ينصبّ عليه لامتناعه عن ادانة مكارثي كما فعل الليبراليون. وكان المحافظون المتشددون يتهمون كينيدي بالتعاطف مع حركة الحقوق المدنية ويفضلون عليه ليندون جونسون، سيناتور تكساس،

الذي كان يحظى بتأييد البيض في الجنوب، فضلاً عن كونه بروتستانتياً. وهنا ايضاً عمد كينيدي الى تقليد روزفلت الذي كان اتخذ نائباً له احد اليمينيين من تكساس، وتحالف مع جونسون، بغية طمأنة الديمقراطيين الذين كانوا يخشون انزلاق الرئيس المقبل باتجاه الليبرالية المفرطة.

اميركا الستينات كانت على درجة من الغنى والثراء بحيث لم تكن تستطيع اتهام المرشحين من أن يكونوا كذلك، ومن الاعتزاز بالنفس بحيث يصعب عليها التصور ان رئيساً قد يتبع، حتى ولو كان ديمقراطياً يسارياً، سياسة متخاذلة مع الشيوعية. فهذا المرشح قد انفق مبالغ طائلة لتأمين فوزه. واذا كان شاهد البؤس الحقيقي في فرجينيا الغربية، واطلع على ارقام البطالة (٤ ملايين نسمة، ٥,٥٪ من القوى العاملة، ١٠٪ لدى العبيد) فهو يعلم ايضاً ان الاميركيين البالغ عددهم ١٧٩ مليوناً، يعملون على تحسين نمط حياتهم بفضل الاجهزة المنزلية والسيارات واجهزة الراديو والتلفزيون. والثورة المهبطية (الكاتودية) اصبحت شبه منجزة (٨٦,٧٪ من الاميركيين يشاهدون البرامج). والمناظرة التلفزيونية بين كينيدي ونيكسون سوف يشاهدها ١١٥ مليون شخص. وسوف يكون هذا العامل الاعلامي ذا اهمية حاسمة في الحملة الانتخابية على صعيد تقديم المرشح (طلاء الوجه باللون البرونزي وارتداء القميص الزرقاء، استرخاء ظاهر، وابتسامة مرحة)، غير أنه سيضعف من مضمون الخطاب السياسي الذي بات قصيراً وجامداً. وكان كينيدي لا ينفك يشدّد على موضوع « الحدود الجديدة »، مكرراً عباراته الناجحة، تلك التي جعلت الاحلام تراود مخيلة سكان ضواحي المدن (اصبحوا هم الاكثرية الغالبة بين الناخبين)، وسكان الولايات المشمسة في فلوريدا وكاليفورنيا الذين يتطلعون الى حياة افضل. أما « الحدود الجديدة » فهي حدود الشجاعة والارادة السياسية واستعادة الحركة بعد سنوات الجمود، والانطلاق نحو غزو الفضاء والانجازات العلمية وتحقيق العدالة الاجتماعية، وحرص كينيدي على القول في الاسكا (التي اصبحت مع هايتي ولايتين جديدتين

تحملان الرقم ٤٩ و ٥٠ بين الولايات المتحدة) انه رجل عمل لا رجل كلام. وتوجه الى النقابات المترددة بالتأكيد على أنه يدافع عن مبدأ تكافؤ الفرص ويعمل في سبيل بناء المساكن الاجتماعية، ومجانية الطبابة. هل نجح في اقناع هوفا رئيس نقابة سائقي الشاحنات، الذي يعتبر من اشد انصار نيكسون ؟ من غير المؤكد ان خطابه حول عدم التمييز المدرسي والحقوق المدنية، قد نالِ تأييد النقابيين، الذين ما يزالون يعارضون التوسع الاقتصادي، اكثر مما لقيه تعهده بتأسيس « هيئة السلام » لمساعدة الدول النامية. ولم يتميز كثيراً عن منافسه نيكسون، عندما اكّد أنه سيساعد جميع خصوم الديكتاتورين باتيستا وكاسترو، في كوبا. في الواقع، لم يكن مطّلعاً على كل مشاريع وكالة الاستخبارات المركزية حول الانزال الذي سوف تقوم به مجموعة من الكوبيين المناوئين لكاسترو على الجزيرة.

عام ١٩٦١ : خليج الخنازير وجدار برلين

انتخب كينيدي بغالبية زادت قليلاً عن ١٠٠,٠٠٠ صوت (يقول اخصامه بفضل التلفزيون) نالها بفضل مداخلته في قضية مارتن لوتر كينغ، وحصل على ٧٠٪ من اصوات العبيد واكثر من ٨٠٪ من اصوات اليهود والكاثوليك ولم تتجاوز نسبة البروتستانت التي صوتت له ٣٨ الى ٤٦٪. انه مرشح الاقليات. لكنه مدين بنجاحه لاصوات الساحل الشرقي، فيما حصل خصمه على اصوات مدن المحيط الهادئ. كتب اندره كاسبي يقول : « يتألف ناخبوه من سكان مدن الشمال والجنوب ». هذه هي حدود الناخب الليبرالي، وعلى الرئيس الجديد اخذ هذه المشاركة الجنوبية بعين الاعتبار، اذا كان ينوي التجديد لولاية ثانية. وعليه ايضاً الاعتماد على اكثرية قد تتبدد داخل الكونغرس.

اكتشف خلال الحملة الانتخابية، استخدام سلاحين سوف يتيحان له تعزيز الصلاحيات الرئاسية كثيراً : التلفزيون الذي يستطيع الافادة منه قدر

ما يريد، والذي لا يحفل به اعضاء مجلس الشيوخ أو يغفلون عنه، ثم استطلاعات الرأي. واتاحت الاستعانة بمعهد لويس ــ هاريس مضاعفة فعالية الحملة من خلال القاء خطابات تتلاءم مع جمهور متنوع. وهو امتلك هذين السلاحين تماماً عندما واجه قضية كوبا، ذلك أنه كان يستخدم هذه الوسائل اكثر من روزفلت للتوجه مباشرة الى الرأي العام، قافزاً بذلك فوق رؤوس ناخبي الكونغرس ومن دون ان يهمل الصحافة، لأنه يلقى دعم غراهام « ملك الشمس » في صحيفة « واشنطن بوست ». فهو يعلم أنه في حال وقوع ازمة، سوف يلقى دعم وسائل الاعلام كلها.

يعزو الرئيس انعطاف نظام كاسترو نحو اليسار الى سياسة ايزنهاور. فهو علم في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٠، بمشاريع الان دالاس، واطلق يد وكالة الاستخبارات المركزية بالعمل (نيسان ١٩٦١). لماذا هذا التصميم المفاجئ، بعد انتظار طال شهوراً عدة ؟ لقد اخذ على محمل الجد تنامي الخطر الشيوعي. ولم يخفِ شعوره، خلال حملته، أنه يعتبر تخلّف الولايات المتحدة في ميدان الصواريخ بمثابة كارثة. فخروتشوف اخذ يتحدث بطريقة لا تخلو من المكابرة، وقد صرح في برلين، في ١٥ كانون الثاني ١٩٦١، محذراً : من الآن حتى كانون الأول المقبل، ينبغي أن تعترف كل معاهدة سلام بوجود الدولتين الالمانيتين وبانضمام برلين الى جمهورية المانيا الديمقراطية. هل في الامر تحريض ؟ لا شك أن دعم موسكو لرجال المقاومة الشيوعيين في الكونغو وفيتنام الشمالية وفي غير مكان ينبئ بشن هجوم جديد.

على الولايات المتحدة مواجهة هذا التحدي ومنع قيام ميونيخ جديدة في كوبا. ولم يتردد كينيدي في توقع قيام حرب صليبية حقيقية. فكتب في مجلة « استراتيجية السلام » يقول : « ينتظر العالم منا ان نؤكد تمسكنا بايمان اجدادنا واعطائه له قيمة جديدة ». على الولايات المتحدة ان تقف في طليعة العالم الحر وتدافع عن الحرية في كل مكان. وقال في

خطاب تنصيبه : « سوف ندفع اي ثمن ونتحمّل كل عبء ونواجه كل صعوبة بغية تأمين بقاء الحرية وانتصارها ». وقد عين لشؤون الامن، عميد جامعة هارفارد، ماك جورج بوندي المعروف بمحاضراته التاريخية عن أزمة ميونيخ، فيما كلّف مؤرخاً آخر من هارفارد ارثر م. شليشينغر بادارة شؤون الدول الاميركية لا سيما كوبا. وفي سبيل تخطيط الشؤون الدفاعية، كلف ماكنمارا، الذي كان يشغل منصباً تقنياً في شركة فورد، كما استدعى الجنرال ماسكويل م. تايلور. وفي القطاعات الاستراتيجية، عين سفراء ضليعين، أمثال الاختصاصي بالشؤون السوفياتية، كينان، وكان سفيراً في بلغراد، والاقتصادي غالبرايت الذي كان سفيراً في نيودلهي.

على جميع الجبهات، ظهر مصمماً على محاربة « عدو يتسلل عملاؤه الى افريقيا وآسيا، ويقيمون حالياً على بعد ١٥٠ كلم من سواحلنا، في كوبا ». هذا الخطاب الذي القاه في كارولينا الشمالية في ١٨ ايلول ١٩٦٠، ينبئ بما سيكون عليه قراره في نيسان ١٩٦١. وكان خروتشوف قد اعلن في كانون الثاني أنه سيدعم في كل مكان من العالم « حروب التحرير الوطني ». والاسلحة التشيكية، وربما السوفياتية، هي في طريقها الى كوبا.

لن تخفق الاعلام في معركة الحرية، اذ سيخوضها الرئيس بسرية تامة، مستخدماً الطائرات التي تبدلت شاراتها الوطنية، والسفن التي ازيلت عنها النجوم البيضاء لتحل محلها الاعلام الكوبية، وبدا العمل الخجول مناقضاً للكلام الجريء. وتأسست « الجبهة الديمقراطية الثورية » بهدف الايحاء ان « تحرير » كوبا لا علاقة له بانصار الديكتاتور باتيستا، انما يقوم على سواعد اشخاص جدد، ديمقراطيين، وتلتفّ حولهم جماهير الفلاحين الذين اكّدت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية مناوأتهم لحكم كاسترو. وتوصّل وزير الدفاع بصعوبة الى ضمّ بعض جنود باتيستا السابقين الى القوات المناوئة لكاسترو التي تتدرب على القتال في

غواتيمالا. ولم تصرف الاعتمادات اللازمة مباشرة من الوزارة بل بواسطة بعض الشركات المهتمة بالشأن الاقتصادي الكوبي. وكان البنتاغون قد فرض هذا المخرج الذي يتيح التنصل من المسؤولية الاميركية في حال الفشل، على الرغم من مشاركة السلاح والطائرات والمدربين فضلاً عن البحرية الاميركية في العملية. وبغية طمأنة السيناتور فولبرايت، المعارض للمشروع، اعلن كينيدي انْ الزعيم الليبرالي الكوبي خوسيه ميرو كاردونا سيجري بعد تحقيق النصر، انتخابات حرة.

اسفرت عملية الانزال في خليج الخنازير (١٧ نيسان ١٩٦١) عن فشل ذريع، وجرى اعتقال المنفيين الكوبيين على الشواطئ، خلال يومين، من دون احراز أي تقدم باتجاه اسكامبراي حيث كان رجال المقاومة المناوئين للشيوعية بانتظارهم. ولم تستطع الطائرات الاميركية من طراز ب ٢٦ المطلية بالألوان الكوبية من تدمير طائرات كاسترو مع ان هذا السلاح ما زال ضعيفاً لديه. وشارك السكان الريفيون في الدفاع عن الجزيرة، ضد المهاجمين. رفض كينيدي تدخل القوات الأميركية واكتفت البحرية بانقاذ الهاربين. وفي الأول من ايار، اعلن كاسترو عن وضع دستور اشتراكي لكوبا، وفي ٢٦ تموز عن تأسيسه حزباً وحيداً. في كانون الأول، انضم رسمياً الى المعسكر الماركسي ــ اللينيني. اما الولايات المتحدة فقد خسرت المعركة والكثير من هيبتها في تلك المنطقة. اذ ما ان تسلّم كينيدي مهامه في البيت الأبيض حتى خسر ماء الوجه. وجاءت حصيلة الفشل فورية، اذ راح خروتشوف يسخر من الاحاديث التهويلية التي تفوّه بها الرئيس العام للكونغرس الذي اقرّ اعتمادات مالية اضافية. وبدا له الهجوم النووي الأميركي غير محتمل. ذلك أن « سياسة الوقوف على حافة الهاوية » لم تعد تنفع. في ١٣ آب، اقامت السلطات الشيوعية حاجزاً من الاسلاك في برلين ثم جداراً من الاسمنت يفصل بين شطري العاصمة السابقة، من دون أن يعترض الاميركيون. ويستطيع كينيدي الذهاب اليها ليقول مؤكداً : « انا من

برلين »، فطريق الحرية مقطوعة على سكان برلين الشرقية الذين سقطوا في الفخ.

التحالف من أجل التقدم

اطلّت الحرب الباردة على بحر الكاريبب، ويكاد الاعصار ان يضرب شواطئ المحيط الجنوبية، مجتاحاً في طريقه، شيئاً فشيئاً، البلاد النامية في افريقيا واميركا اللاتينية.انصبّ اهتمام لكينيدي على سدّ ابواب قارته في وجه الريح القادمة، واغلاقها على الشيوعية الزاحفة من الالاسكا وباتاغونيا.

من جهة اخرى، التقى مستشارو الرئيس الذين يطلق عليهم اسم « رؤوس البيض » على القول، ان الكتلة الشيوعية تظهر مزيداً من العدائية اكثر من اي يوم مضى، وسيكون للنصر الذي حققته في كوبا نتائجه في الشرق الأقصى حيث بدأت تسمع قعقعة السلاح في فيتنام. في الحالة الحاضرة، يمكن لانتصار كاسترو ان يعطي دفعاً جديداً للحركات الثورية في دول أميركا اللاتينية. وأدرك خبراء البيت الأبيض ان البؤس قد مهد الطريق للثورة، باعتبار ان القارة الاميركية قد افادت، منذ الحرب، اقل من سواها من المساعدات المالية والتقنية التي تمنحها الولايات المتحدة لها.

كان والتر روستو، مستشار الرئيس اول من لاحظ الثقل العالمي الذي تتمتع به الدول المستقلة حديثاً في افريقيا وآسيا، واهمية العلاقات التي قد توطدها مع بلدان اميركا اللاتينية التي قد يغريها الانضمام بدورها الى حركة الحياد. يرى اندره كاسبي، ان كينيدي ربما تأثر بهذا التحليل، فقد صرح في تشرين الأول ١٩٦٠ : « ان الفقر ليس جديداً في اميركا اللاتينية، انما الجديد هو التصميم على الخروج منه ». هل هو موقف مثالي ؟ لا شك أن الدول الفقيرة قد غدت، من خلال ثرواتها المعدنية، حاجة لا غنى عنها، فالولايات المتحدة ضاعفت من حاجاتها، وبعض

مناجمها نفد مخزونه في الوقت الذي تطالب فيه الصناعة بمزيد من المعادن، وظروف استخراجها في المناطق الاستوائية، على الرغم من بعد المسافة هي اكثر مردوداً. منذ مدة طويلة، وضع البنتاغون « لائحة بالمخزون الاستراتيجي » وخصص للصناعة الأميركية مناجم لها في دول العالم الثالث. والمعروف ان المصانع الاميركية تستورد ثلث حاجتها من الحديد والرصاص، والنصف من النحاس، وكل حاجتها تقريباً من البوكسيت، من دون ذكر اليورانيوم والمعادن الثمينة والمطلوبة اكثر فأكثر. ولهذا ينبغي على الدول الغنية بالثروة المنجمية في اميركا وافريقيا ان تبقى مهما كان الثمن في المدار الاميركي.

في ظل هذه الاوضاع، ينبغي العمل على زيادة المساعدات الطارئة كطريقة وحيدة لمحاربة الشيوعية في العمق. وقد اوضح كينيدي بأن « عدونا لا يتمثل فيما يقوم به الاتحاد السوفياتي من تجارة ومساعدة، بل في الفقر والاحباط والجمود والخشية من أن النظام التوتاليتاري وحده يستطيع مساعدة المجتمعات الفقيرة والزراعية على النهوض ». كم يشبه هذا الكلام ما كان يردده روستو ! في كل حال، يتفق خبراء معهد ماساتشوست للدراسات التقنية، على وجوب توفير وسائل النهوض الاقتصادي لكل الدول التي تحتاجها وتجعل منها حرة ومستقلة. كما ينبغي أن تترافق المساعدات مع اصلاحات، بحيث يتيح الاثراء السريع للطبقات المتوسطة والفلاحية اقامة انظمة ديمقراطية ليبرالية تعمل على القضاء نهائياً على الخطر الشيوعي. هنا يفترق كينيدي عن سياسة فوستر دالاس : لا ينبغي لتدفق الدولار أن يساعد فقط على قيام جيوش قوية في الدول المصممة على محاربة الشيوعية، بل على تعزيز النهوض الاقتصادي ايضاً. لقد بلور كينيدي، كما فعل خروتشوف، نظرية تضع جانباً مسألة الانتماء الايديولوجي للدول المعنية لاحدى الكتلتين المتصارعتين في العالم.

تبلورت هذه الأفكار بقوة في المؤتمر الأول لدول اميركا اللاتينية : جرى تخصيص ملياري دولار تستثمرها الدولة والقطاع الخاص مناصفة في دول « التحالف من اجل التقدم ». وينبغي لمجموع هذه الأموال، اي ٢٠ مليار دولار، ان تساعد، خلال عشر سنوات، على نهوض الاقتصاد الوطني في تلك الدول. وأنيط بصندوق التنمية الدولي مهمة توزيع هذه الأموال. وتولى كينيدي شخصياً الاجتماع بسفراء دول اميركا اللاتينية، في البيت الأبيض، في آذار، ليعلن أن هذا الجهد المبذول « لا سابقة له » وهو مخصص للعمل الاجتماعي : انشاء المدارس والمستشفيات، بناء المساكن، والمؤسسات وتحسين المردود الزراعي. وقد اضيفت الى هذه البرنامج المدني خطة لمساعدات غذائية عرفت باسم « الغذاء من اجل السلام »، وعرضت خطوطها العريضة في العالم قاطبة بواسطة اذاعة « صوت اميركا ». استكمالاً لهذه المساعدة المجانية التي اتت على مخزون المزارعين الاميركيين، تشكلت « هيئة السلام » باشراف صهر الرئيس سارجنت شريفر، واوفدت ٣٠٠٠ شابّ وشابّة الى دول العالم الثالث لتعليم المحاسبة والتقنيات الحديثة واللغات الاجنبية. هذا العدد المتواضع (سيتضاعف في السنوات المقبلة) كان في الواقع رمزياً، والهدف منه اظهار الشباب الاميركي بمظهر المتحسس لمشكلة الجوع وانه يشارك مجاناً في مكافحة البؤس.

هل سيقرّ الكونغرس هذه السياسة « الكشفية » ؟ لقد اخذ يقلل من الاعتمادات اكثر فاكثر وسنة بعد سنة، حتى الغى ثلثها. وادّعى انه يستبعد من اللائحة المستفيدة منها الدول التي تتعاطف بصورة وقحة مع كاسترو. انها عودة للمساعدات الموجهة والمقررة كسلاح من اسلحة الحرب الباردة. في كانون الثاني ١٩٦٢، اصيب وزير الخارجية، دين راسك، بخيبة كبيرة في المؤتمر الثاني لدول اميركا اللاتينية، حين طلب اقصاء كوبا من منظمة الدول الاميركية، غير أن ١٤ دولة فقط وافقت على الطلب، فيما صوتت ضده كل من البرازيل والارجنتين والمكسيك

والتشيلي، واشترطت قبول الدولارات الاميركية على اساس عدم المس بشعرة واحدة من رأس كاسترو.

سياسة المساعدات الانتقائية

الانقلابات العسكرية الست التي وقعت في دول أميركا اللاتينية، أقلقت كينيدي. فتلك التي وقعت في بحر الكاريبب تشهد على مدى نفوذ كاسترو في تلك المنطقة. وكان كاسترو قد دعا، في شباط ١٩٦٢، جميع الدول للتصدي للاستعمار الاميركي، واعتبر خطة المساعدات المقترحة كحصان طروادة الذي سيفتح الباب واسعاً لدخول الشركات العالمية الى البلدان المعنية. في غواتيمالا، اطاحت ثورة مدبرة بالكولونيل كاستيلو ارماس الذي اوصلته وكالة الاستخبارات المركزية، الى الحكم، وكذلك الحال في الهندوراس. كما وافق كينيدي على قيام حكم جديد في جمهورية الدومينيك، اذ بعد تصفية وكالة الاستخبارات المركزية للرئيس تروجيللو، حلّ محلّه جوان بوش. غير ان الضباط التقدميين خلعوا هذا الأخير ثم دعوا الشعب بعد سنتين، الى الانتفاضة مجدداً. أما في هايتي فاستمر النفوذ الاميركي مع وجود الطاغية دوفاليه الذي اوصله الجيش الى السلطة بعد خلع الرئيس ماغلوار. كان دوفاليه يعمل كطبيب في الريف ويحذر من القروض الأميركية، لأنه يرغب في ممارسة السلطة وحده. بحماية « اعمامه الضباط » الذين تكفلوا له باخضاع الشعب تماماً له. ولم يعترض كينيدي حتى عندما عيّن الديكتاتور نفسه رئيساً مدى الحياة. في نيكاراغوا، استمرت ديكتاتورية سوموزا، بصورة لا تطاق، في الوقت الذي كان اتباع ساندينو يشكلون شبكة مقاومة يدعمها كاسترو. وفي الاكوادور لم يعد للنظام الدستوري من وجود والباب مشرع على كل المغامرات المحتملة؛ مع ذلك لم يحرك كينيدي ساكناً.

كذلك كاد لا يعترض على انقلاب بيونس ايرنس الذي فاجأه. فقد نجحت مجموعة من انصار كاسترو الذين اغواهم سحر غيفارا (الذي

ظهر في العاصمة عام ١٩٦١)، في تأليب قوى اليسار المختلفة واتباع بيرون (ديسكا ميدوس) حولها، وانزلت هزيمة نكراء في نظام فرونديزي. وكان المحامي فرونديزي يمثل امل وزارة الخارجية الأميركية : اذ بعد انهيار نظام بيرون، عام ١٩٥٥، وفرار « بوشو » (هكذا كان يلقب لانه كان يتردد في آخر عهده، الى ابواب مدارس الفتيات وهو يعتمر قبعة لاعب « البايزبول » ويمتطي دراجة نارية). الذي خلفه فرونيزي، ممثلاً البورجوازية الصناعية الجديدة التي كانت ترغب في الافادة من المساعدات الاميركية لتنمية الاستهلاك. وفي النهاية، تحالف فرونديزي مع الشركات النفطية واستدعى مؤسسات اجنبية اخرى (ماتاي مثلاً) لرفع انتاج الذهب الاسود من ٥ الى ١٨ مليون طن سنوياً. وكانت صناعة السيارات قد تدنت الى ١٥٠٠٠٠ سيارة سنوياً (وتقاسم الاميركيون والفرنسيون السوق)، وعمد كبار الملاكين الى منع قيام اصلاحات زراعية، وطالبوا بتدخل الجيش الذي حال دون ذلك، مع ان سياسة توزيع الأراضي كانت تحظى برضى واشنطن. كان فرونديزي من بين الذين رفضوا اقصاء كاسترو عن منظمة الدول الاميركية، غير أن العسكريين ارغموه على قطع العلاقات الدبلوماسية مع هافانا. وكان الحزب المحافظ يفاخر بمدى رضى واشنطن عن سياسته التي تعتمد على هزّ العصا ضد الشيوعيين، فيما كان فرونديزي يمثل تيار الانفتاح على « وكالة كينيدي من اجل التقدم ». في النهاية اطاح به جيش يتألف من ١٥٠٠٠٠ رجل من بينهم ٤٠ جنرالاً و ١٠ اميرالات على الأقل، ويتبع سياسة رجعية — هي سياسة كبار الملاكين — سوف تؤدي، بطريقة غير مباشرة، الى نشر افكار كاسترو في اوساط الفلاحين.

جاءت تطورات الوضع البرازيلي مأساوية ايضاً، اذ استقال الرئيس جانوس كادروس. كان هذا الرجل الصارم حاكماً لمدينة ساوباولو، ويشبه فرونديزي في مسلكه السياسي، اذ كان يرغب في تنظيف اسطبلات اوجياس من الادارة الفاسدة، والطبقة السياسية المتواطئة. وكان

الصحافيون الاميركيون يسخرون منه بالقول انه يشبه هاربو ماركس اكثر مما يشبه كارل ماركس ... كان يخرج من المآدب، وفي جيبه قطعة من الخبز كبيرة، ولم يرتدِ يوماً في الحفلات الرسمية قميصاً نظيفاً. غير أن « ابله ماتّوغروسّو » بحسب اللقب الذي يطلقه عليه خصومه، كانت له في الخارج ردود فعل يسارية، فقد رفض، مثل فرونديزي، ادانة كاسترو، واستقبل لاجئي البرتغال المناوئين لحكم الديكتاتور سالازار. واقام علاقات دبلوماسية مع الدول الشيوعية، الامر الذي اقام واقعد وزارة الخارجية الاميركية. رأت « الواشنطن بوست » انه النقيض لكاسترو وامل الصناعيين الاميركيين : ألم يوافق على خطة كينيدي للتنمية، مع أنه رفض في السابق « استجداء » المساعدات الأميركية ؟ برأي الشيوعي لويس كارلوس بريست، كان واضحاً ان « القوى السياسية الأكثر رجعية في البلاد، وانصار التخلي عن النفط البرازيلي لشركة ستاندارد اويل، واولئك الذين يدعون، باسم محاربة التضخم، الى اصلاح النظام النقدي وفق شروط صندوق النقد الدولي »، كانوا يساندون « هاربو ماركس ». الى ذلك، كان يساند مصارف ساوباولو ولا يجازف بمشاكسة اصحاب الرساميل الاميركية، فقد وافق على قيام معامل فورد وشبكة الاتصالات الهاتفية « وسترن اوفيون » في البرازيل. وعمل على تحديث بلاده باللجوء الى الرساميل الاميركية الخاصة. هل استقال في النهاية للحفاظ على ثروات بلاده الطبيعية ؟ قال : اشعر اني مغلوب على امري. ثمة قوى خفية تقف حالياً في وجهي ». وادّت ضغوطات الجيش والمحافظين الى تركه الحكم.

تغلبت « القوى الخفية » على خلفه غولار، وهو المعاون السابق لفارغاس. وكان الجيش اشترط للاتيان به تعديل النظام الرئاسي لجهة تقوية صلاحيات رئيس الحكومة. وكان القادة الرجعيون في المدرسة الحربية (المعروفة بالبرازيل باسم « السوربون ») قد قاموا بحملة اعتقالات ضد الشيوعيين شملت ٤٠٠ شخصية، من بينهم كوبيتشيك،

والعالم الاجتماعي جوزيه دي كاسترو والمهندس اوسكار نيميير. تميّز انتخاب الماريشال كاستيلو برانكو ببداية عهد جديد من السياسة الاميركية في البرازيل. فالادارة الديمقراطية، بعد مصرع كينيدي، عام ١٩٦٣، اختارت اتباع سياسة منحازة، فتدفق سيل من الدولارات على البرازيل لانتهاجها السياسة الانمائية التي دعت اليها واشنطن. وتلقت ملياري دولار اضافة الى ٤٥٠ مليون في وقت لاحق. وافادت شركة هانا مينينيغ كوربوريشن من عقد امتياز غير محدد لاستخراج الحديد في ميناس جيريه. كان التقنيون الشباب المحيطون بوزير التصميم روبرتو كامبوس، من خريجي معهد ماساتشوست للدراسات التقنية وهارفارد. وجرى التنازل عن ١٦٠ مليار متر مربع (٥ /١ البلاد) لصالح الشركات الخاصة الأجنبية. بعد الآن، ستعتمد وزارة الخارجية الاميركية كما في الأرجنتين، على السلطة العسكرية لاقامة حكومات تكنوقراطية تفرض على الجماهير احترام سياسة صارمة وضخ الرساميل التي تؤمن التصنيع وتحديث المدن. لم يبدِ كينيدي اية ردة فعل تذكر ضد هذه التطورات التي كانت عرضة لهجوم دعائي عنيف من اتباع كاسترو، باستثناء تسهيل وكالة الاستخبارات المركزية لمهمة العسكريين البرازيليين، وعدم تصوّر حلّ ديمقراطي لهذه البلاد. وعندما اطاح الكولونيلات في البيرو، عام ١٩٦٢، بالحكومة الشرعية، اوعز كينيدي بوقف كل مساعدة اقتصادية، وترحيل التقنيين الاميركيين، وقطع العلاقات الدبلوماسية. اشارت عليه التشيلي وسائر الدول الأخرى بالاعتدال. عام ١٩٦٣، ادى انتخاب المهندس بيلوند الى تهدئة الوضع. الى متى سيبقى كذلك ؟

الصواريخ السوفياتية في كوبا

اذا كان انتصار كاسترو قد نشّط في جميع الدول الاستوائية في اميركا حركات اليسار، بالمقابل فان تراجع خروتشوف اتاح للادارة الاميركية استعادة مواقعها ورسم خط سياسي يستوحي الماضي واستخدام المساعدة

المالية والعسكرية لفتح الأبواب امام الرساميل الاميركية. غير أن قضية الصواريخ قضت على « التحالف من أجل التقدم ».

بدا كينيدي حذراً في تعامله مع كاسترو ورفض فرض حصار على كوبا، تلافياً لصدم المشاعر في اميركا اللاتينية. غير أن مناورات البحرية قبالة المياه الكوبية، واستدعاء جنود الاحتياط، وازدياد الطلعات الاستكشافية لطائرات يو ٢ كانت تقلق كاسترو الذي طلب مساعدة موسكو. صفق خروتشوف لتطور الوضع الذي سيتيح له امتحان مدى صلابة هذا « النمر من ورق » ووافق على نصب صواريخ متوسطة المدى في كوبا، من شأنها تهديد الولايات المتحدة. ابلغ كينيدي بالأمر في ١٤ شباط، فالصور التي التقطتها طائرات يو ٢ لم تترك مجالاً للشك.

اتخذ الرئيس كل الاحتياطات الممكنة. ضم اجتماع مجلس الامن القومي. كلاً من ديك راسك، جورج بول، ماكنمارا والجنرال تايلور، مدير وكالة الاستخبارات المركزية ماك كون، وروبيرت كينيدي وزير العدل، اضافة الى دين اتشيسون، وجميعهم ايدوا الرئيس بوجوب عدم الرضوخ. في ٢٢ تشرين الأول، اعلن كينيدي، على شاشة التلفزيون، أنه سيجازف في نزاع بغية اجبار موسكو على التراجع. وتوجّه الاسطول الاميركي الى المحيط الاطلسي لاعتراض شحنات الصواريخ السوفياتية. ويمكن توقع الأسوأ.

تراجع خروتشوف امام « النمر من ورق » « الذي كان يحمل انياباً نووية » : عادت الصواريخ على اعقابها وتمّ تفكيك الصواريخ المنصوبة سابقاً. استقبل كاسترو غاضباً ميكويان الذي حذره من مغبة ما يجري وطلب اليه الموافقة على الاتفاق. فشعر بالمرارة العميقة خصوصاً ان الهيبة الاميركية التي اضعفتها هزيمة خليج الخنازير، استعادت وهجها فجأة في عملية الصواريخ. واخذت كل دولة تقيس محدودية الحماية السوفياتية. وتلاشى تأثير اطلاق السبوتنيك الى الفضاء، واعتبرت

الصواريخ السوفياتية عديمة الفائدة. وعادت الامور الى نقطة البداية، بعد تعرّض كاسترو للعزلة بحيث لم يعد يشكل سوى خطر اقليمي محدود.

كان من الصعب عليه، في دعايته ـــ تصوير ادارة كينيدي كأنها نسخة عن عهد ايزنهاور الرجعي، ولكن بشكل مختلف. كان موقف الرئيس حيال المسألة العرقية قد لقي دعاية عالمية واسعة واعتاد الرأي العام على الاعتقاد بأن « الحدود الجديدة » ستؤدي الى تقدم محسوس في هذا الميدان. لا شك أن كينيدي كان يتمنى أن يحقق تقدماً اوسع، لكنه كان عليه الاخذ بعين الاعتبار موقف الكونغرس. في كانون الثاني ١٩٦١، كان اكثر من ٦٠٪ من الاميركيين يعتقد بوجوب ازالة التمييز العنصري. لقد تعهد الرئيس بذلك، وكانت الاحياء المعزولة في مدن الشمال قد صوتت له. وبادر على الفور الى تأليف لجنة لوضع تصوّرها لهذه المسألة، بانتظار ذلك عمد الى تعيين قضاة وموظفين من العبيد، حتى السفير في فنلندا كان منهم. كان يرمي الى اعطاء القدوة في موضوع القضاء على التمييز العنصري، عن طريق اتخاذ تدابير معينة في الادارة. واقام دعاوٍ عدة لصالح العبيد، وسعى شقيقه روبيرت الى ازالة التمييز العنصري في المراتب العامة والمطارات. مع ذلك، كانت المنظمات السوداء تبدي قلقها لعدم اقرار قانون واضح لا لبس فيه. كانت المدن الجنوبية تلجأ الى حيل مختلفة لاغلاق المدارس في وجه العبيد ومنع ذوي التلامذة من التصويت. وكان يجري اقصاء العبيد عن الوظائف بحجة عدم اهليتهم المهنية. تدخل كينيدي، على شاشة التلفزيون، طالباً الى المواطنين عدم اعتبار الاسود مواطناً من درجة ادنى ومتسائلاً : « كيف يصح ان تدافع الولايات المتحدة عن الحرية في العالم ولا تستطيع الدفاع عنها على ارضها ؟ ». احال على الكونغرس مشروع قانون حول ازالة التمييز العنصري. كانت المعركة قاسية والنتائج غير اكيدة، اذ شكل الجمهوريون والديمقراطيون الجنوبيون اكثرية محافظة تعارض

المشروع. واجريت التعديلات الكثيرة على النص بحيث شوهت المشروع الرئاسي.

كان التلفزيون يبث تحقيقات واسعة عن الاشتباكات بين السود والبيض في ولايات الجنوب. في ايلول ١٩٦٢، منع الطالب الاسود جيمس ميريديت من دخول جامعة ميسيسيبي. فأرغم الحاكم على قبوله وارسلت الشرطة الى الجامعة لحمايته. في مطلع عام ١٩٦٣، نظم مارتن لوثر كينغ تظاهرة ضخمة، في بيرينغهام، معقل التمييز العنصري في الاباما. امر الحاكم باعتقال ٤٠٠ متظاهر حوصروا بواسطة الكلاب البوليسية؛ كما سجن بعض الطلاب. وكانت وسائل الاعلام تتولى تغطية اعمال العنف يومياً. في آب ١٩٦٣ قاد القس لوثر كينغ مسيرة من ٢٠٠٠٠٠ شخص الى واشنطن، بغية التأثير على الكونغرس، واعلن أمام نصب لينكولن التذكاري : حلمت ان اولادي الأربعة سيعيشون يوماً في وطن لا يتميزون فيه عن سواهم على اساس لون جلدتهم بل على اساس طباعهم. تردد كينيدي في البداية (كان يخشى الآثار السلبية على الكونغرس) ثم قرر استقبال مارتن لوثر كينغ لتهنئته. لم يتخلل المسيرة اي حادث، غير أن التصويت لم يسفر عن اية نتيجة. ولم يتسنَّ لكينيدي الوقت اللازم لبلوغ هدفه. ففي ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣ اغتاله في دالاس، لي اوزوالد، وهو ثائر عمل في الاتحاد السوفياتي وتزوج من روسية. وعمّ البكاء الاحياء المعزولة في المدن الجنوبية ...

استنتج الرأي العام العالمي من هذه الأعمال العنفية ان الادارة الديمقراطية في الولايات المتحدة آخذة في التطور باتجاه حقوق الانسان، غير أن هذه المسيرة ما زالت طويلة. عام ١٩٦٤، عاد الرئيس ليندون جونسون الى سياسة جون فوستر دالاس التقليدية في اميركا اللاتينية. غير أن منح المساعدات الاقتصادية بحسب المواقف السياسية المتخذة اضافة الى ارتفاع حدة الاخطار في آسيا، كانا يشيران الى ان الحرب الباردة لم

تنته بعد. وكانت المغامرة المحسوبة التي قام بها كينيدي في وجه خروتشوف اثناء ازمة كوبا، قد ادّت الى استئناف المواجهات العنيفة في مناطق عدة من العالم. كانت الكاريبب وافريقيا السوداء وفيتنام من تلك المناطق الحساسة، غير أن النار قد تشتعل في الشرق الاوسط ايضاً حيث يتواجد الجباران وجهاً لوجه. كان اعصار الاطلسي الجنوبي ينذر بهبوب عواصف اخرى. لكن التقدم السريع الذي حققته الاقتصاديات الليبرالية اخذ يبشر بتوزيعة اكثر تعقيداً : ثمة دول جديدة متوسطة الاهمية على الصعيد السياسي لكنها ذات فعالية كبيرة على الصعيد الاقتصادي أخذت تحتل مكانها تحت شمس اوروبا وآسيا. واذا كان السوفيات والاميركيون لم يتوصلوا الى تحقيق السلام والتنمية، فان شعوباً اخرى كانت تستعد للحلول محلها.

الفصل السابع

كستناء النار

بين اغتيال كينيدي في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣ وانتخاب ريتشارد نيكسون في ٥ تشرين الثاني ١٩٦٨، جرى الغوص أكثر فأكثر في رمال « الدمار المتبادل ». ادركت الولايات المتحدة الاتحاد السوفياتي في سباق الفضاء لا بل تجاوزته، بفضل اعتمادها البرنامج المكثف. ادرك قادة الكرملين عدم جدوى سباق التسلح، وباتوا أكثر تأثراً بموضوعات الحدّ من ترسانة الاسلحة لا بل تدميرها. وتبنوا سياسة البنتاغون القائلة « بالرد التدريجي » والتي تجعل من جميع النزاعات الاقليمية حروباً محتملة.

غدا الطموح السوفياتي جيوستراتيجياً : فالتسلل الى العالم الثالث بات مصدراً جديداً لنزاعات تتوزع على « النقاط الساخنة » في الكرة الأرضية، حيث التكنولوجيات الحديثة آخذة في المواجهة فيما بينها. هذا هي الحال في افريقيا وآسيا والشرق الأوسط. وينبغي على الموازنات العسكرية أن تكفي ليس فقط حاجات الدول الكبرى، بل حاجات زبائنها الذين يخوضون باسمها وبدعم منها، الحروب الاقليمية.

ثمة دول اخرى متوسطة الاهمية، تغامر في التقاط الكستناء من النار، مستفيدة من التقدم التكنولوجي الهائل الذي نجم عن سباق التسلح، في سبيل أن تصبح دولاً جبارة مالياً وصناعياً، بحيث يكون لها بدورها

زبانيتها ومناطق النفوذ. وهكذا عززت السنوات الستون بروز نموذجين من البلدان : بعضها، كفرنسا الديغولية والصين، تطور بسرعة من أجل الانسلاخ عن كتلته، مثيراً بذلك زوابع واعصارات وقعت في اسيا الى حد المواجهات المسلحة. وبعضها الآخر، افاد تماماً من انفجار الكتلتين ليحقق بداية نهضة اقتصادية هائلة تضعها في مصاف الدول المتقدمة. غير أن الدول المغلوبة في الحرب عام ١٩٤٥، كالمانيا واليابان كانت تفتقر الى السيادة الكاملة كي تصبح دولاً غالبة. ولهذا بقيت في الصف الثاني لافتقارها الى موازنة عسكرية مهمة. ولهذا السبب ايضاً كسبت سباق التقدم دون اية عوائق تذكر.

مبدأ « الدمار المتبادل » بحسب ماكنمارا

علل كينيدي النفس بتخفيض الضرائب الفيدرالية وبتحقيق التوازن في الموازنة وميزان المدفوعات معاً في الاتحاد. واضطر للتخلي عن هذه الاهداف من جراء سباق التسلح والبرنامج الفضائي الذي اعده وزير الدفاع ماكنمارا. سعى خروتشوف الى كسب السباق الاقتصادي مع اميركا لجهة جعل الاتحاد السوفياتي بلداً زراعياً مزدهراً تحقق فوائض انتاجه الرفاهية ورغد العيش للطبقات العمالية. فتابع تنفيذ البرنامج الذي اعدته القوى الضاغطة في الصناعات الثقيلة، مضيفاً اليه برنامج الابحاث الفضائية وانتاج الاعتدة المتطورة التي تستلزمها السياسة الدفاعية الجديدة. فضلاً عن ذلك، اضطر لتجهيز سلاح البحرية وانشاء اسطول تجاري كبير بغية الاضطلاع بمهمة النقل البحري عبر البحار، من المحيط الهادئ الى الهندي، ومن الاطلسي حتى القطب الشمالي. وادّى التنافس في العالم الثالث بالجبارين الى تمويل برامج مساعدات ذات اهمية مطردة. وليكسب الاكثر ثراء ! « فسياسة التنافس » تتجاوز الفقراء وصغار البورجوازيين.

في هذه المواجهة التي كانت تتم على كل الصعد ـــ العسكري والمالي والتجاري وحتى الثقافي ـــ بدت الحاجة ملحة إلى حشد كل الطاقات اكثر من اي وقت. ولذلك حرص الكبار كل الحرص على انقياد الدول الدائرة في فلكهم. بعد مغامرة كاسترو الطائشة، عادت الدول الأميركية للتقيد مجدداً بسياسة الجزرة والعصا الغليظة، فيما الولد المزعج الذي ينكره معلمه في المدرسة، يرسل الى الزاوية عقاباً له. وضعت الدول الصغيرة في اوروبا الشرقية تحت وصاية سوفياتية صارمة على الرغم من النوايا الليبرالية التي ابدتها القيادة الجديدة في الكرملين. والضعف لا يأتي الا من الدول المتوسطة الاهمية، والقوية لدرجة التفرد أو تعكير مجرى الامور. وهكذا بدأت اوروبا تتخلص من كينيدي، والصين من خروتشوف. وليس مصادفة أن يكون « المتمردون » هم في الوقت عينه من الذين ينضمون الى « النادي النووي »، كفرنسا عام ١٩٦٠، والصين عام ١٩٦٤. فالدول النووية تتطابق في انتشارها مع تفجر مناطق النفوذ، وسوف تعود الى التكتل في مجموعات ادنى.

لا شك ان اعادة النظر في السياسة الأميركية في عهد كينيدي تعطي صورة عن حجم الرهان القائم : ادرك كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي انهما لن يستطيعا الاعتماد الا على قواهما الذاتية للدفاع في العالم عن المواقع التي تؤمن امنهما. كما أن المنافسة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار هذا العامل الاضافي : اذا كانت العاصمتان اصبحتا على اتصال مستمر عبر الهاتف الاحمر المعدّ لمنع الكارثة النووية، فانهما فقدتا سيطرتهما على المجموعات الادنى وعليها وضع هذا العنصر الجديد في حساب خطة انتشارهما الاستراتيجي.

ينطوي « الدمار المتبادل » بحد ذاته على بذل جهود كبيرة في الابحاث المعمقة بغية البقاء على رأس السباق. وتفترض جدلية الهجوم والرد جهداً مستمراً من الخيال التكنولوجي بغية انجاز صواريخ متعددة

الاتجاهات والمدى، لأن هذه الاستراتيجية تتواصل مع استراتيجية « الرد التدريجي »، التي تبدأ بالأسلحة التقليدية وتنتقل الى الاسلحة النووية التكتيكية ثم الاستراتيجية. ويتخذ القرار بشأنها على ارض المعركة التقليدية من خلال اختراعات تتيح السيطرة على الساحة، تلافياً للانتقال الى درجة اعلى من الردّ. بذلك يتضح معنى ارتفاع موازنة الدفاع الأميركية التي كانت تدور حول مبلغ ٤٠ مليار دولار في بدء ولاية كينيدي (توازي ثلاث مرات قيمة مشروع مارشال لسنة واحدة)، الى ٧٥ مليار دولار في عهد جونسون.

اما برنامج « النازا » الذي يرتبط به كل تقدم في حقل التسلح بالنظر لشمولية ابحاثه العلمية، فليس اقل كلفة. ذلك ان برنامج « ميسيل غاب » الذي كان كينيدي يشكو منه، كان في الاساس برنامج « سبوتنيك غاب ». بعد الحرب، تعاقدت « النازا » مع المهندس الالماني في مركز « بينموند »، ورنرفون براون، لصنع الصواريخ الأولى : هكذا نجح جوبيترث في ٣١ كانون الثاني ١٩٥٨ في اطلاق اكسبلورير أول قمر صناعي اميركي (كان فون براون يعمل على تطوير ف ٢، منذ عام ١٩٥٣). بعد خمسة اشهر، اطلق السوفيات سبوتنيكاً ضخماً يزودهم بالمعلومات لمدة ٢٣ شهراً. عام ١٩٥٩، احتفلت بموسكو بأول مرحلة من السباق الى القمر، مع اطلاق « لونا ٣ » الذي دار دورة كاملة حول القمر، عام ١٩٦٠، عادت الكلبة « لايكا » الى الأرض من جولتها الفضائية، ونقل التلفزيون السوفياتي اخبارها في سهرات طويلة. في السنة التالية، اطلق الأميركيون قمراً صناعياً للتجسس يمكنه بث الصور بالراديو.

وقام يوري غاغارين وشيبارد برحلة في الفضاء في وقت واحد تقريباً (نيسان وايار ١٩٦١). وبدا في حينه ان غزو الفضاء ممكناً، وكذلك استخدام الفضاء لاغراض عسكرية. وهكذا غدت الولايات المتحدة قادرة

على اللحاق بالاتحاد السوفياتي شرط تكثيف برامجها.

كان برنامج « ميسيل غاب » يثير الكثير من القلق. إذ كان الخبراء يقدرون مخزون الصواريخ عابرة القارات بما يتراوح بين ٤٠٠ و ١٠٠٠، اعتباراً من ١٩٦٢، فيما لن تمتلك الولايات المتحدة اكثر من ١٥٠ صاروخاً. غير أن الأميركيين كانوا يعوضون هذا النقص بالاسطول الضخم من الطائرات القاذفة ذات الفعالية الكبيرة. واكتشف الخبراء فيما بعد ان برنامج ميسيل غاب كان من نسج الخيال. مع ذلك صنّع الاميركيون صواريخ جديدة (مينوتمان) تستطيع نقل عبوة نووية قوتها ميغاطون واحد لمسافة ١٠٠٠٠ كلم. وتم تجهيز الغواصات النووية بصواريخ جديدة من طراز بولاريس التي يمكنها ضرب اهداف تبعد ٢٠٠٠ كلم وتحمل عبوة نووية قوتها ٠,٧ ميغاطون. وكان من شأن البرنامج الذي أعده ماكنمارا ان يحقق التفوق الاميركي، مع ٤١ غواصة نووية جهزت كل واحدة منها بـ ١٦ صاروخاً، وتوزعت في بحار العالم كله، لا سيما تحت القبة القطبية الشمالية. كما جرى تصميم مخازن تتسع لألف صاروخ من طراز « مينوتمان ». وثمة اسطول مؤلف من ١٦٠٠ طائرة قاذفة، ومشدود النظر الى زنار ضخم من اجهزة الرادار المحيطة بأميركا. وتحمل تلك الطائرات ٢٢٠٠ قنبلة تبلغ قوة كل منها ميغاطون واحد. وبذلك بلغ مجموع القوة النووية الهائلة حوالي ٣٠٠٠٠ ميغاطون، اي ما يوازي ٣٠ مليار طن من مادة ت.ن.ت الشديدة الانفجار. ولم يسبق لأية دولة في العالم أن توافرت لها مثل هذه الترسانة على الاطلاق. لا شك أن الترسانة السوفياتية كانت اقل، لكنها كانت كافية تماماً لتدمير كل اثر للحياة على القارة الأميركية. تنفس ماكنمارا الصعداء، فالجهد الذي بذله في ميدان التسلح جعل من « الدمار المتبادل » امراً قابلاً للتحقيق تماماً.

« الرد التدريجي » والاسلحة التقليدية

بقي على الولايات ان تتهيأ للمعركة على الأرض وهي تتطلب جهوداً مطردة. وكان ايزنهاور ودالاس قد اهملا الابقاء على افواج كبيرة تحت السلاح، لان نظرية « الرد المكثف » تعفي من الاستعانة بالمشاة. وكانت الادارة تحتفظ بذكرى سيئة عن حرب كوريا. وحديثاً، لم يتم اللجوء الى الجنود المقاتلين سواء في تايوان أو فيتنام او في كوبا. والعملية الوحيدة التي استعين بهؤلاء كانت عملية انزال جنود البحرية في الشرق الأوسط، بناء لطلب لبنان.

على اثر حوادث برلين وفيتنام واوروبا الشرقية، تبين ان القوات التقليدية تتيح اكثر من سواها كسب المعارك على الأرض. فلولا الطائرات الفرنسية، ما كانت اسرائيل تمكنت من الصمود امام الاسلحة التقليدية السوفياتية والتشيكية المسلّمة الى المصريين. ولولا الدبابات، لما أمكن سحق الثورة المجرية، ومدافع جياب الصينية هي التي تغلبت في ديان بيان فو. ولذلك كان على الولايات المتحدة وضع وحدتين تقليدتين في كوريا الجنوبية وخمس اخرى في اوروبا. ولم يبق لها عام ١٩٦٠ سوى سبع فرق احتياطية لمواجهة اي اعتداء كلاسيكي. وهذا قليل جداً، سيما وان كينيدي اكتشف ان اعداد الجيش قد تناقصت فجأة. عام ١٩٦٣، استدعى ماكنمارا على عجل ٥٠٠٠٠٠ جندي. وعلى الولايات المتحدة، كي تبقى القوة العسكرية الاولى في العالم، ان تحرص على انتهاج استراتيجية جديدة لها تراتبيتها في ما خص القوات المسلحة المعنية، ذلك أن موازنة الجيوش تتضخم في كافة بنودها، ولا يمكن قيام تقتير في اي قسم منها.

طرح ماكنمارا، في خطاب القاه في ميشيغان، نظريته حول « الرد التدريجي ». عام ١٩٦٢، لم يكن الاميركيون يتصورون حلاً سوى اشتراك الوطن كله في سبيل ضمان امن العالم. وعلى الموازنة الفيدرالية

ان تتحمل كل الأعباء. ومن غير الوارد تقاسم النفقات مع الدول الاخرى. فالسيادة لا تتجزأ. لكن ثمة تساؤل طرحه كينيدي حول جدوى وضع صواريخ دفاعية طالما أن كل الجهود تنصبّ على الهجوم. فأكّد ماكنمارا ان الاميركيين لن يكونوا البادئين بالهجوم، ولن يضربوا في ردّهم الأولي سوى منصات الاطلاق، ومخازن صواريخ العدو. ومن غير المجدي اطلاق صواريخ غير محددة الاهداف ضد تلك الصواريخ. وتم التوافق حول فكرة ان هذه الصواريخ سوف تقضي على ربع السكان والصناعات الاميركية. اذا كان الرد عديم الفعالية، تنطلق الصواريخ عند ذاك، لضرب المدن، في مرحلة ثانية من الرد. وينبغي اذن الضرب مرتين، بواسطة قوات متفوقة جداً وصواريخ مضادة للقوات، في المرحلة الأولي، ومضادة للصواريخ لاحقاً. وبقدر ما يتمكن العدو من التحقق بدقة ـــ اي بصورة حسابية ومعقولة ـــ من خسائره، فانه سوف يتخلى عن الهجوم. الغى كينيدي ايضاً الاعتمادات المخصصة للطائرات التي تفوق سرعتها الصوت. إذ كان يكفي امتلاك صواريخ نووية عابرة للقارات لاحباط كل هجوم : انه توفير زهيد في برنامج تسلح هو الاضخم منذ عهد روزفلت ...

لم يكن طلب ماكنمارا تعزيز الوسائل التقليدية بصورة فورية، من السذاجة في شيء. فالبنتاغون يحتاج، بلا شك، الى جنود لمواجهة ازمة برلين، انما ايضاً للرد على التهديد الشيوعي في فيتنام. ظن الرئيس أنه اخذ العبر من الحرب الفرنسية في الهند الصينية، اذ ان مواجهة الشيوعيين في ساحة الحرب النفسية، تتطلب انشاء وحدات خاصة تتوسل الطرائق التي لجأ اليها شي غيفارا وماوتسي تونغ. ففي كارولينا الشمالية، في قاعدة فورت براغاد، تلقى مئات الجنود تدريباً خاصاً على الحرب التخريبية. وتعلموا كيفية الاندماج بالسكان، وصولاً الى تغيير آرائهم واثارتهم ضد العدو. وافتتح معسكر ثانٍ في باناما حيث جرى تدريب مفرزة المغاوير، بدءاً من عام ١٩٦٢، على ظروف القتال في فيتنام. قام كينيدي بزيارة

هؤلاء وقلّدهم بنفسه « القبعة الخضراء » التي دخلت التاريخ منذ ذلك الحين. كما جرى انشاء قاعدة اخرى في غواتيمالا لعملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذين سيعملون في فيتنام ولاوس. ومن هناك صدرت ايضاً كل المشاريع الهادفة لاغتيال فيديل كاسترو. ولم يسبق ان جرى صرف الاعتمادات لجهاز « العمل » بهذا القدر من السهولة.

في آسيا، ما زال كينيدي يؤمن « بنظرية الدومينو » التي وضعها جون فوستر دالاس الذي يرى ان سقوط بلد واحد يجر الى سقوط البلدان الأخرى. لم يكن كينيدي ينوي، على غرار ايزنهاور، دفع صينيي فورفوزا لاستعادة القارة، ولكن اهتمامه انصبّ على وقف توسع الصين الشعبية. وايفاد غالبرايت الى الهند ليس غريباً عن هذا الاهتمام. اذ يجب « احتواء » الشيوعية الصينية لأن بكين وموسكو تخوضان المعركة نفسها. ايدت صحيفة التايم، بقرائها البالغ عددهم المليونين، الرئيس كينيدي. لا شك أن لوس، مدير مجموعة تايم ـــ لايف، كان في السابق ركناً من اركان سياسة ايزنهاور لكنه كان يحب كينيدي ويتابع سياسته المتشددة في الشرق الأقصى بعطف واهتمام. وعندما انفجر الصراع الصيني ـــ الهندي، عام ١٩٦٢، لم يتردد الرئيس في مساندة الهند. ذلك أن الحيادي نهرو قد دفعه الصينيون الى الحرب بهدف تصحيح الحدود على خط ماك ماهون الذي رسمه البريطانيون بصورة عشوائية عام ١٩١٤، على أنه الحد بين الهند والتيبت، وقد وافق زوأنلي على هذا الخط في حينه من دون مناقشة. في الناحية الشرقية، كان قطاع وكالة الحدود الشمالية الشرقية يتيح تهديد الباكستان الشرقية وبيرمانيا معاً. في الوسط، طالب الصينيون ببعض مساحات من الأراضي غربي نيبال؛ واخيراً، في لادكاه، كانوا يودّون احتلال اكساي شين، شرقي كشمير. في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٢، تحرك الجيش الصيني على طرفي الحدود، فيما كانت بكين تعرض التفاوض. في الهند، كان الرأي العام يضغط على الحكومة باتجاه الحرب، فيما الجيش غير مهيأ لها.

هاجمت القوات الهندية أعالي تاغلا، شمالي خط ماك ماهون فردّت الصين بهجوم معاكس خاطف، اذ هزم جيش بكين، في بضعة اسابيع، القوات الهندية، واندفع نحو آسام ووادي براهما بوترا. وكتب السفير غالبرايت : « كان يوم ذعر كبير في نيودلهي، ولأول مرة، شهدت انهيار الروح المعنوية لدى الشعب ». كانت الهند الحيادية قد عارضت مراراً سياسة دالاس. لكن، هل كان باستطاعة كينيدي ترك الصينيين يسرحون ويمرحون ؟ كان الرد الوحيد الممكن يقضي بتزويد الهند بأسلحة تقليدية لهذه الحرب الاقليمية. واذا كان هذا النزاع يؤكد في حينه على صوابية وجهات نظر ماكنمارا، فان الصناعة الأميركية نشطت ايضاً في انتاج اسلحة تقليدية فائقة الحداثة.

استنجد نهرو بالحكومة الأميركية. وللحال، توجهت حاملة طائرات تابعة للاسطول السابع الى خليج بنغال، ووجهت الى نيودلهي سرباً من طائرات س ١٣٠. على الرغم من أن الهند قد عقدت قبل بضعة اسابيع، اتفاقاً مع الاتحاد السوفياتي لتزويدها بطائرات مطاردة من طراز ميغ ١٥، فان كينيدي لم يتردد في التدخل لصالح حليف متردد ضد عدو مشترك. ولكم كان هذا التدخل موفقاً، اذ سرعان ما اعلن الصينيون عن استعدادهم للتفاوض. وكما نجح ارسال حاملة طائرات واحدة في تبديل الوضع جذرياً، كذلك شكّل برهاناً ساطعاً على وجوب تعزيز الاسلحة التقليدية.

جرى التفكير في استخدامها ايضاً في لاوس. وقال ايزنهاور لخلفه : « ربما تضطر لخوض الحرب فيها ». كانت واشنطن تساند الجنرال بومي الذي كان يخسر كل معاركه ضد باتيت لاو. وكان الخبراء السوفيات في السفارة التي انتقلت حديثاً الى فيانتيان يزودونه بالسلاح ويملون عليه الخطط. في جينيف، قرر الجباران وقف القتال واستدعاء سوفانا بوما. غير أن التوتر دفع بواشنطن للابقاء على فرقة من ٣٠٠ مستشار تدربوا في غواتيمالا وباناما. وضوعفت الاعتمادات المخصصة للاوس واستخدمت كلها في سبيل المجهود الحربي.

كان الجنرال لانسدال يشغل منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية في فيتنام الجنوبية. وكانت تقاريره تنذر بالخطة، فالخبراء الاميركيون البالغ عددهم ٦٨٥ شخصاً لم ينجحوا في منع التقدم الشيوعي في الريف وحتى داخل سايغون. في نيسان ١٩٦١، قرر كينيدي اعطاء اشارة البدء بمكافحة أعمال المقاومة واوفد الى فيتنام الجنوبية ٤٠٠ شخص من القبعات الخضر، و ١٠٠ مستشار عسكري اضافي. واطلقت فرق كوماندوس من فيتنام الجنوبية إلى فيتنام الشمالية للقيام بعمليات تخريبية. وانكب نائب الرئيس جونسون والاقتصادي روستو على دراسة طرق المساعدة العسكرية والمالية التي ينبغي على الولايات المتحدة اقرارها اذا كانت ترغب في حماية البلاد. كان تايلور قد قدّر، عام ١٩٦١، بنحو ٢٠٠٠٠٠ رجل، عدد جنود الحملة الأميركية الرامية الى الوقوف، كما حصل في كوريا، في وجه العدوان الأحمر. لكنه كان يعتقد بأن تدخل الطائرات ب ٢٦ يكفي لردع الشماليين عن متابعة عملياتهم العدوانية. عشية اغتياله، كان كينيدي « على حافة الهاوية »، وفكر في كل الاحتمالات وعزم على الحرب، آملاً في ان تكون المساعدة الاقتصادية كافية لصمود فيتنام الجنوبية ــ شرط ان يوافق الرئيس ديام على القيام بالاصلاحات الديمقراطية.

في النهاية، كان مصير فيتنام الجنوبية، يرتبط في الواقع، بالرئيس ديام الذي كانت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية تصوره بأبشع الصور، ذلك أن فساد الفريق الحاكم كان فاضحاً، وسخط الضباط الشباب قد يؤدي الى تشجيع قيام نظام يتلاءم مع الطموحات الأميركية ومبادئ وزارة الخارجية. هل شارك احد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية في المؤامرة التي ادّت الى اغتيال رئيس فيتنام الجنوبية وشقيقه ؟ مهما كان الأمر، ايد الرئيس كينيدي الانقلاب وقرر مساعدة الضباط الفيتناميين الذين تسلموا السلطة في الأول من تشرين الثاني ١٩٦٣. كان عدد الاميركيين يفوق ١٦٠٠٠ جندي في اميركا الجنوبية. ولم يكن باستطاعة

البنتاغون تصور سحبهم منها بسهولة. على العكس، كانت السياسة الأميركية تتجه الى تعزيز قواتها، باسم مبدأ « الاحتواء » القديم الذي لم يتغير في هذه المنطقة من العالم منذ عهد ترومان.

كان الجهد الحربي المتوقع كبيراً خصوصاً انه لا ينبغي التراخي في الضغط العسكري الذي تمارسه القوات التقليدية في اوروبا والشرق الاوسط، حيث كشفت الحرب الأخيرة نوايا موسكو الاستعمارية. وكان ارسال التعزيزات الى برلين ضرورياً من جراء تقاعس الاوروبيين الذين فوجئوا بالتهديد السوفياتي. ما دامت واشنطن لا تفتح المظلة النووية، فلن يقف احد في ساحة المعركة في وجه الجيش الأحمر. كيف تستطيع الحكومة الاميركية تمويل « الحربين والنصف » التي يتوقعها ماكنمارا، الأولى في اوروبا، والثانية في الشرق الأقصى، اضافة الى النزاع الصغير في اميركا اللاتينية ؟ لا بد من بذل جهد مالي اضافي، لكن، اين توجد الاموال ؟

كان الركود الاقتصادي قائماً منذ العام ١٩٦٠. وكان رأي الخبراء الديمقراطيين واضحاً : كان على الحكومة ان تنفق عام ١٩٦٢ من ٣ الى ٥ مليارات دولار لتنشيط الانتاج، من دون احداث آثار تضخمية وكان المطلوب ان يتم الانفاق في المجالات العسكرية والمدرسية والاجتماعية على وجه الخصوص. كما جرى التداول بتخفيض الضرائب لزيادة الاستهلاك. اعتبر كينيدي من غير المقبول هبوط الانتاج الصناعي وزيادة البطالة (٥,٧ مليون عاطل عن العمل، في شباط ١٩٦١). وينبغي على الاقتصاد الاميركي ان يحقق الفوائض التي تتيح للعالم الحر ان يدافع عن نفسه، مع بقاء الولايات المتحدة الأولى في العالم. وافق الرئيس على وقوع عجز خفيف في ميزان المدفوعات على الرغم من حرصه على التوازن، وسعيه الى الحفاظ على سعر صرف الدولار مهما كان الثمن. وكان عليه خلال خمس سنوات أن يتجنب الازمة لقاء استنزاف الدولار

الذي من شأنه خلق عجز مزمن في ميزان المدفوعات. في الواقع كان هذا الوضع يعرّض الجهد العسكري والمساعدة المالية لدول العالم الثالث للخطر، الأمر الذي يفيد الشيوعية من غير قصد.

وحده التفاهم مع الدول الأوروبية التي استعادت عافيتها يمكنه أن يحلّ المشكلة المالية للولايات المتحدة. ووجد نفسه يتفاوض مجدداً مع حلفائه، لكنه هذه المرة كان سائلاً : هل تتهرب الدولتان الوحيدتان في شمالي الاطلسي، والتي تعتمد عليهما الولايات المتحدة بصورة تقليدية، من التزاماتهما ؟ لم تبدِ كندا اي اعتراض، اذ كانت معركة الدفاع عن الدولار معركتها ايضاً، بالنظر لتشابك مصالح البلدين وتداخلها. واولها المصالح الاستراتيجية المتمثلة « بشبكة الانذار المبكر » المنشأة قرب القطب في السنوات الخمسين، وثانيها، المعادن التي لا غنى عنها في صناعة الحرب، كاليورانيوم، والكروم والنيكل والنحاس. كيف يمكن للعشرين مليون كندي ان ينسلخوا عن الأميركيين وقد اصبحوا في مستوى معيشي مماثل، و ٧٠٪ من مشتريات كندا و ٦٥٪ من مبيعاتها تتم مع جارتها ؟ حتى ولو كانت بريطانيا ما تزال تستثمر ٤ مليارات دولار في كندا، فان الولايات المتحدة باستثماراتها البالغة ٣٣ ملياراً لا تنفك تمسك بمعظم المؤسسات الكبيرة. ولن تطرح مشاركة كندا في الدفاع عن العالم الحر اية مشكلة. وكذلك مشاركة بريطانيا، حيث « التحالف المميز » ما يزال راسخاً. منذ رحيل تشرشل عام ١٩٥٦، استمر المحافظون في الحكم حيث توالى ايدن ثم ماكميلان، وعملا على رعاية قيام منطقة تجارية حرة لمواجهة السوق الاوروبية المشتركة، التي حققت نتائج هزيلة. كان ماكميلان يؤثر المحيط الواسع على الالتزام بشؤون القارة. هذا التعصب « الاوقيانوسي » دفعه للارتماء في احضان كينيدي.

كينيدي واوروبا : « الهدف الكبير »

العلاقات بين رئيس الحكومة البريطانية والرئيس الأميركي عميقة الجذور. فالرئيس كينيدي يعرف بريطانيا جيداً ويبدي اعجابه بشجاعة الانكليز خلال الحرب. وهو يرى ان الدفاع الاوروبي يجب أن تتوافر له مقومات حقيقية. والوحدة والقوة الاقتصادية اساسيتان في هذا المجال. وفي ذكرى الاستقلال (٤ تموز ١٩٦٢) القى في فيلادلفيا خطاباً كان له صدى في العالم كله، وفيه حدد اهدافه : ينبغي اعتبار اوروبا الموحدة بمثابة شريك لا منافس. وللولايات المتحدة أن تجني فائدتان من ذلك، اذ تتيح هذه الشراكة اولاً توسيح الحدود الجمركية للسوق الأوروبية المشتركة الى ما وراء الاطلسي، وانشاء منطقة حرة تساعد على تنشيط التجارة بين اوروبا والولايات المتحدة. ويسعى كينيدي بذلك الى امتصاص العجز البالغ ٢,٢ مليار دولار في ميزان المدفوعات من خلال تحسين بنود الميزان التجاري. والفائدة الثانية تكمن في ان الشركاء الذين يضطلعون بمهمة الدفاع عن اوروبا والعالم الحر، عليهم المشاركة ايضاً في تمويل هذا الجهد العسكري. وبذلك يخف العبء عن كاهل الموازنة الأميركية، خصوصاً في مجالي الخدمة العسكرية ونفقات القوات التقليدية التي شهدت نقصاً فادحاً في برلين. هذه الشراكة القائمة على المساواة بين اطرافها والتي تنوي بناء اسرة اطلسية حقيقية تقوم على ركنين اساسيين فيها هما اميركا وكندا من جهة، واوروبا البالغ عدد المستهلكين فيها ٢٤٠ مليون نسمة، من جهة اخرى، اثارت تعليقات مختلفة. ينبغي التسليم بأن دخول بريطانيا وشركاءها في منطقة التجارة الحرة الى السوق الاوروبية المشتركة ما يزال بعيد المنال. وليس مؤكداً حصول اتفاق بين ماكميلان والجنرال ديغول في هذا الخصوص.

ثمة مساحة اخرى من الشك تحوم حول الشراكة التجارية المفتوحة على ضفتي الاطلسي. بادر كينيدي الى اصدار قانون عن الكونغرس حول « توسيع التجارة » والذي يجيز للحكومة، خلال خمس سنوات، تخفيض

الرسوم الجمركية الى النصف على المنتجات المتبادلة، وبذلك تعفى ٨٠٪ من هذه المنتجات المصنوعة في أميركا من الرسوم اعفاءً تاماً. أثار هذا القانون بداية جدل حول تلك الرسوم واستمر بعد وفاة الرئيس، لكن هذه المسألة ستثير فيما بعد عوائق كثيرة وجدلاً حاداً.

تناول النقاش حول « الهدف الكبير » نقطة جوهرية تتصل بالمصالح الاستراتيجية. ففرنسا وبريطانيا تمتلكان السلاح النووي، فهل ستنتظمان في صف الدول المحرومة منه؟ وهل ستتناول المساواة في المعاملة مسألة التسلح؟ أثارت صيغة « الترابط » التي طرحها كينيدي، بعض الالتباس. فالاميركيون ينوون الاحتفاظ وحدهم بالسيطرة على السلاح النووي، مع الاستعداد لأشراك بريطانيا، حليفهم المميز، في التقرير. وقال ماكنمارا: « المطلوب اصبع واحد على الزناد ». ولا مجال لقبول القناصين في هذا النادي. ورفض الاميركيون مشروع ديغول حول الاشراف المثلث على السلاح النووي. وتمنى كينيدي ان يضاعف حلف شمالي الاطلسي قواته التقليدية فقط. واقترح تزويد قوة مؤلفة من البلدان الاعضاء في الاطلسي بالصواريخ شرط ان تحمل بطارياتها على السفن الاميركية. رفض الفرنسيون بالطبع، مع سواهم من الدول الاخرى، الاقتراح. واعلن الجنرال ديغول، في مؤتمر صحفي عقده في ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣ انه يرفض ترشيح بريطانيا لعضوية السوق الاوروبية المشتركة. انها ضربة قاضية « للهدف الكبير » لأنه لن يكون للاميركيين في الضفة الأخرى من الاطلسي، أي شريك.

في الواقع، تشاور كينيدي وجهاً لوجه، مع ماكميلان خلال لقائهما في ناسو، في ٢١ كانون الأول ٩٦٢، حيث عرض تزويد بريطانيا بصواريخ بولاريس التي يمكن استخدامها في سلاح الغواصات، وستكون هذه الوحدات جزءاً من قوة ردع « متعددة » الاطراف في حلف الاطلسي. وسيجاز لهذه الوحدات، في حالات استثنائية اطلاق النار

وحدها. وهكذا يجد « التحالف المميز » نفسه معززاً ولكن على حساب بريطانيا التي باتت قوتها الضاربة تخضع لقيادة اميركية عليا. ثم عرض الاقتراح نفسه على الدول الاعضاء في حلف الاطلسي الذين يمكنهم تلقي غواصات مزودة بصواريخ بولاريس وتتولى تشغيلها طواقم متعددة الجنسيات. ودعيت فرنسا الى الدخول في هذا النظام.

رفض ديغول، فهو لا ينوي البتة العمل في اطار اندماج اوروبا مع مجموعة دولية ضعيفة وخاضعة لقيادة اميركية. وفي وجه « الهدف الكبير » عرض التحالف « الواقعي » بين الدول الاوروبية في اطار الكوفيديرالية لا الفيديرالية، حيث تحافظ كل منها على كيانها الخاص واستقلالها التام، وتكون فرنسا والمانيا محور « المجموعة الاوروبية » المقبلة. تفاوض الرئيس الفرنسي مع المستشار اديناور حول اتفاق تعاون جرى توقيعه في ٢٢ كانون الثاني ١٩٦٣ احتفاء بدفن « الهدف الكبير ». تلت ذلك لقاءات بين رؤساء الدولتين وحكومتيها والوزراء المعنيين، بهدف تعزيز التبادل الاقتصادي والثقافي، وكلها تشير الى الخطوط العريضة للخطة الديغولية للنهوض بأوروبا الست.

خاب امل ديغول بماكميلان لاستسلامه للاميركيين في ناسو، فهو كان يودّ اشراك بريطانيا في سياسته الهادفة الى استقلال اوروبي. واعتقد ان ترشيح بريطانيا لعضوية السوق الاوروبية المشتركة لم يكن سوى وسيلة يتسلل من خلالها حصان طروادة الاميركي الى معقل الدول الست. لهذا السبب، كان المؤتمر الصحفي الذي عقده ديغول في ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣ نوعاً من كسر الطوق، ففرنسا لن تقبل بعد اليوم السير في طريق الاندماج، وستكون اوروبا الديغولية انفصالية ولن تقبل بوصاية واشنطن، اي عكس ما يتمناه كينيدي.

ابدى الشركاء الاوروبيون الكثير من الاستغراب لقرار ديغول ابعاد بريطانيا من دون مشورتهم، في حين كانت المانيا وبلجيكا وهولندا

تتوخى فوائد جمة من دخولها السوق. لم يحفل المحور الفرنسي ــ الألماني كثيراً بايطاليا التي لم تشترك في السوق، مع ان اقتصادها شهد انطلاقة زاهرة. اما المانيا فقد اسفت لاستبعاد بريطانيا. وقد عمد البرلمان الالماني في بون الى التقليل من شأن الاتفاق الفرنسي ــ الألماني حين اقرّ مقدمة له يتمنى فيها على جمهورية المانيا الاتحادية البقاء ضمن المجموعة الاطلسية واستقبال بريطانيا واصدقاءها قريباً في السوق المشتركة. على اثر وفاة كينيدي بفترة وجيزة، اوصلت الانتخابات البريطانية الى مجلس العموم غالبية مناهضة لاوروبا. إعتباراً من ذلك الحين، شقت بريطانيا طريقاً لنفسها بمعزل عن الآخرين، ولأجل غير محدد.

اما فرنسا فقد سلكت طريق السباق المنفرد نحو التسلح، من غير توافر امكانات كبيرة. « تنوي فرنسا امتلاك قوتها الدفاعية الذاتية »، على حد ما صرّح به الجنرال ديغول. وهي ترغب بالحصول على « قوة نووية تختص بها وحدها ». « من غير المعقول » تصور اشتراكها في تحالف اطلسي بحسب ما اقترحه كينيدي، مضيفاً ببعض السخرية : في السياسة والاستراتيجية كما في الاقتصاد، يبدو الاحتكار لصاحبه افضل الانظمة الممكنة ». كان يرمي في الواقع الى كسر الاحتكار الاميركي. كما كان الصينيون يسعون، في الوقت عينه الى كسر الاحتكار السوفياتي. ووجدت فرنسا والصين نفسيهما متقاربتين في ذلك. وعام ١٩٦٤، اعترفت باريس بجمهورية بكين.

اشتداد الصراع بين بكين وموسكو

عاني خروتشوف مع حلفائه من الصعوبات ذاتها التي كانت لكينيدي مع شركائه، واولهم ماوتسي تونغ. سبق له أن وافق على اتباع سياسة تقوم على مد يدّ المساعدة الى الصين في ابحاثها النووية وحتى في صنع القنبلة. وكان ماو سافر مرتين الى موسكو للاطمئنان الى هذه النتيجة.

وفي حديث له مع بعض الطلاب في موسكو، في ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٧، اكد ماو « ان قوات الاستعمار لها رأس واحد هو اميركا. ويجب أن يكون لمعسكرنا الاشتراكي رأس واحد ايضاً، وهذا الرأس هو الاتحاد السوفياتي ». لقد جاء الى موسكو ليؤكد على اتفاق البلدين على نقل التكنولوجيا النووية. كان يمثل الصين في الذكرى الأربعين لقيام « ثورة تشرين » واحتفاء بوحدة الاحزاب الشيوعية كافة. وصدر في وكالة « تاس » بلاغ يعلن بأن « الاستعمار الاميركي هو عدو الشعوب في العالم كله ».

أدّى فشل « القفزة الكبرى إلى الامام » وفقاً لما توقعه خروتشوف، الى وضع ماو في موقع ضعيف في الدولة والحزب الصيني. مع ذلك، بقي على رأس الحزب، وجاء استبدال بينغ ديهوا بالماريشال لين بياو في وزارة الدفاع، ليشير الى عزمه على مواجهة كل النزاعات المسلحة ضد اعداء الصين الشعبية. كان عشرات الالوف من الفلاحين يهجرون ارضهم هرباً من الجوع. وكان المسؤولون السياسيون قد سلموا مخزون الحبوب الى الدولة، تاركين الشعب في الفاقة والعوز ــ وقدّر عدد المتوفين بنحو ١٥ مليون نسمة، كحصيلة « القفزة الكبرى الى الامام ». وعابت الصين الشعبية على السوفيات موافقتهم على منح الهند، في ايلول، قرضاً قدره ١,٥ مليار روبل لتحقيق خطتها الخمسية الخامسة. لم يسبق للصين ان افادت من مثل هذا السخاء، مع انها دولة اشتراكية. اثارت اشتباكات الحدود والحملة العسكرية على الهند احتجاج خروتشوف الذي عمد الى تزويد الهند بالاسلحة، رغبة منه في منافسة كينيدي في هذا السوق، لقد خفّ الاميركيون والسوفيات لنجدة اعداء الصين. في حزيران، ابلغت موسكو بكين بأن الاتفاقات النووية هي قيد اعادة النظر : لن يحصل الصينيون على القنبلة. وفي تشرين الثاني، طار خروتشوف الى بكين لانقاذ الوضع، فلقي استقبالاً سيئاً للغاية.

اثار عدم انعقاد قمة جينيف بين خروتشوف وايزنهاور امتعاض زوأنلي. ماذا بقي من التضامن الاشتراكي اذا كان كل معسكر يتفاوض لنفسه فقط ؟ عندما غادر الخبراء السوفيات ارض الصين، عام ١٩٦٠، كانت القطيعة قد وقعت بين البلدين.

تولّى زمام الامور في بكين، فريق آخر، بعد فشل « العاميات الشعبية » والفوضى التي دبت في الريف حيث عاد للظهور بعض اشكال الملكيات الخاصة للارض. سعى دينغ كسياوبينغ ولياو شاوكي وبينغ زين لاقرار « شرعة جديدة للعاميات »، الأمر الذي اثار حفيظة ماو وقال : « اي امبراطور قرر ذلك ؟ ». اوعز دينغ بشراء كميات كبيرة من القمح الاوسترالي والكندي. وفي آذار ١٩٦١، صدر نظام جديد للزراعة يقضي باعطاء الاستقلال الذاتي للفرق العاملة في اطار العاميات الشعبية التي جرى تخفيض اعدادها فيما بعد. في المصانع، اعيد العمل بنظام المكافآت والتلزيم بالقطعة، تشجيعاً للانتاج. نسي الناس « القفزة الكبرى »، حتى ولو جرى التذكير، في الخطابات الرسمية، بالشعارات الماوية.

ادرك خروتشوف انه لا يجوز « بيع جلد الدب قبل قتله »، والتغني بالنصر قبل تحقيقه، وان ماو ما يزال مهيمناً على الجيش ــ بفضل رفيقه القديم لين بياو ــ وعلى الدبلوماسية التي يقودها على هواه ضد خط موسكو. كذلك استمر الفكر الماوي الممثل الوحيد للصين في الخارج، لا سيما في علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي. عندما اتهم الزعيم الالباني انغر هودجا، خروتشوف بخيانة لينين، من جراء مصالحته لتيتو، اتاح انسحاب البحرية السوفياتية من ميناء فالونا ووقف المساعدات عن البانيا، لماو تسي تونغ ان يقدم لها في كانون الثاني ١٩٦١ تأييد بلاده مع أنها تشكو الفقر والبلبلة والانقسام. عندما انعقد المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي في موسكو، في تشرين الأول من السنة نفسها، حضره الصينيون الى

جانب ٢٤ وفداً من اميركا اللاتينية و ٨ وفود من الدول العربية. لم يحتج الصينيون عندما جدّد خروتشوف هجماته على ستالين، لكنهم شاهدوا باسى عملية اخراج الجسد المحنط للديكتاتور من ضريحه في الساحة الحمراء. في ٣١ تشرين الأول، نشرت « صحيفة الشعب » مقالاً يؤكد ان سياسة البانيا الخارجية (لا سياسة الاتحاد السوفياتي) هي التي تنطبق وحدها على المبادئ الماركسية ــ اللينينية. عندما زاد خروتشوف من حدة اتهاماته ضد « العقائديين » في بكين، وهو على اطلاع، بلا شك، على الصراع العنيف القائم بين « الخطين » في الصين، هل كان ينوي الانحياز الى جانب دينغ كسياوبينغ ضد ماو ؟

عام ١٩٦١، وفي السنة التي تلت، بقي ماو تسي تونغ في موقف دفاعي. وتسربت المياه الى « خطه » من كل جانب. عرضت في بكين مسرحية تسخر منه، وفيها يحكم الامبراطور الطاغية بالاعدام على موظف نزيه سمح لنفسه بانتقاده. وهذا الموظف الكبير كان بينغ ديهوا وقد طالب بانصافه. كانت الصحف تنشر مقالات نقدية بحق « العجوز المجنون ». كان بينغ زين وبينغ ديهوا ينسجان خيوط المؤامرة ويهيئان الملفات. وشنا هجومهما، في كانون الثاني ١٩٦٢ خلال مؤتمر حضره ٧٠٠٠ شخص من كبار موظفي الحزب. تحت وطأة اتهامات بينغ زين، اضطر ماو للقيام بنقد ذاتي والاعتراف بعدم كفاءته في ميدان الاقتصاد. عند ذاك، اجتمع الاخصائيون لبرمجة سياسة جديدة تستلهم خطوطها من سياسة خروتشوف. من دعاة هذه النزعة التغييرية، شين ين عضو المكتب السياسي، الذي اقترح اصلاح الادارة، ودينغ زيهوي، الرئيس السابق لقسم العمل الريفي في الحزب. ويقوم التصور الجديد على توزيع الاراضي على الفلاحين واعادة اشرافهم على الانتاج والغاء الحصص الاجبارية. لكنه اغفل الاهتمام بالمناطق التي تعمها المجاعة حيث يسود الاستثمار الفردي للاراضي، وقد دافع دينغ كسياوبينغ عن ذلك باطلاق الشعار التالي : « ليس المهم ان يكون الهر اسود او ابيض، طالما انه يلتقط الفئران ».

هل يتوافر الحظ لهذه « الخروتشوفية » من دون خروتشوف ان تستمر ؟ لم تؤدِ الى اي تقارب بين البلدين من جراء بقاء السياسة الخارجية حاجزاً يفصل بينهما. في موسكو، علم ان ماو يعدّ العدة للاخذ بالثأر، وينبغي الامتناع عن كل مظاهر الابتهاج. في نيسان ١٩٦٢، انفجرت الاشتباكات على طول الحدود البالغة ٧٠٠٠ كلم حيث يتواجه السوفيات والصينيون. وادّى تراجع خروتشوف في كوبا والدعم الذي توافر للهند، الى تفجير الوضع. في آذار ١٩٦٣، تعرض خروتشوف لانتقاد صحيفة الشعب. في ١٥ حزيران، سلّم سفير ماو الى موسكو بصورة رسمية رسالة من ٢٥ بنداً، تمثل نظرية ماو حول معارضته للنزعة التغييرية. وجاء في نص الرسالة: « لا وجود لحزب أعلى ولا لدولة عليا في المعسكر الاشتراكي ». وهذا يعني رفض كل زعامة سوفياتية. وتشكل الرسالة دعوة للاحزاب الشيوعية في العالم قاطبة للثورة ضد خروتشوف اليميني. وكتبت على جدران بكين ان « الاتحاد السوفياتي قد عهد قيادة الدولة الى طبقة جديدة من البورجوازية ». واخذت الصين تهزأ من ردات فعل جارتها. كان ماو قد اعدّ العدة لتفجير اول قنبلة نووية صينيّة ابرزت الاستقلال الحقيقي لبلاده، في تشرين الأول ١٩٦٤.

موطن الضعفِ في الخروتشوفية : ١٩٥٨ ــ ١٩٦٤

ما هو الرأي السائد في موسكو؛ هل يستطيع خروتشوف اعادة بناء سلطانه الذي اصبح مفككاً ؟ في الوقت الذي انفجرت فيه القنبلة الصينية، اعفي خروتشوف من واجباته كأمين عام للجنة المركزية، ومن عضوية مجلس السوفيات الأعلى للجنة المركزية ومن رئاسة مجلس الوزراء، بسبب تقدمه في السن، وتدهور حالته الصحية (١٥ تشرين اول ١٩٦٤).

لم هذه الاقالة ؟ كان سقوطه متوقعاً منذ مدة طويلة. وجاء حصيلة

حالات استياء متراكمة : منذ ١٩٥٨، والخروتشوفية في وضع دفاعي. واضطرت الى مضاعفة حملات التوعية (الذرة، الاراضي البكر) لدفع اسطورة التغيير نحو التقدم. كانت نتائج الحقبة الممتدة بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤، مخيبة للآمال. اذا كانت الصناعة الثقيلة قد تطورت بشكل ملحوظ وكذلك صناعات الاسلحة، فان انتاج السلع التجهيزية لم يكن يسدّ الحاجات، والقروض لا تخضع لأي ضابط من جراء تضخم الاستثمارات بشكل جنوني. وظهر نقص خطير في المواد الاستهلاكية من جراء فشل الزراعة، فالجفاف الحق اضراراً فادحة بمواسم عام ١٩٦٣، وعوامل التعرية الهوائية قضت على « الاراضي البكر »، في كازاخستان. وتكبدت الخزينة مبلغ مليار دولار لشراء ١٢ مليون طن من الحبوب من الخارج، تلافياً للمجاعة. لم يكن الاتحاد السوفياتي افضل حال من الصين، حين كان ماو وخروتشوف منصرفين الى مناظرات عقائدية على مرأى من الشيوعيين الاجانب.

غالباً ما كانت الاصلاحات مرّة وقاسية. ذلك ان لامركزية مجالس ادارة الاقتصاد في المناطق كانت تثير سخط المخططين وتفتح الباب واسعاً امام قيام خلافات بين اصحاب النفوذ المحليين. فالى حرب باشاوات الخطط والبرامج، كانت تضاف حروب المحظيين وولاة المقاطعات، وصولاً الى « الانكشارية » البالغ عددهم ٢٠٠٠٠٠ جندي والذين طردوا من الجيش مع جوكوف، باسم التطور التكنولوجي للحرب النووية، في حين كان الاميركيون يجنّدون مقاتلين جدد لخوض الحروب التقليدية التي كان ماكنمارا يشدد على اهميتها وخصوصاً في اوروبا.

حتى المثقفين انفسهم انضموا الى المعركة، وكان خروتشوف قد حظي، لفترة قصيرة بتعاطف ايليا اهرينبورغ وايفتوشينكو، حين كان يشن حربه ضد ستالين، الامر الذي اثار استياء سوسلوف وكوزلوف، من قدامى الحزب. غير أن خروتشوف ما لبث ان تراجع كيلا يفقد تعاطف

الحزب معه، تاركاً للمحافظين مهمة مهاجمة سولجستين الذي نشر مؤلفه بعنوان : « يوم في حياة ايفان دنيسوفيتش ». ولتهدئة خصومه، لم يتوانَ خروتشوف عن إعادة العمل بالنظام في احد مجالس ادارة الاقتصاد في الاتحاد. اما الاصلاح داخل الحزب، فقد ميّز بين فئتين من المسؤولين في الارياف والصناعات، مما اثار غضب المسؤولين القدامى الذين كانوا ينظرون الى العمال والفلاحين كأنهم البداية والنهاية للنظام العقائدي القائم. كما انضم بريجينف وكوسيغين الى جوقة قدامى الحزب في نقد الاصلاحات المتواصلة التي تطال شخصيات سياسية شريفة خدمت الحزب والدولة بكل جدارة واخلاص.

انصب النقد بوجه خاص على السياسة الخارجية، مع أنها كانت تميل الى التجديد والابداع، فقد كان خبراء معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية التابع لاكاديمية العلوم هم الذين يوجهون تحرك الدبلوماسية الجديدة، ورأى خروتشوف وجوب حلّ الاممية الدولية التي لم تعد تتلاءم مع الوضع الدولي، اذ بات الاتحاد السوفياتي يتمنى التغلغل في البلدان غير الشيوعية، حتى عن طريق اضطهاد الاحزاب الشقيقة عند الاقتضاء. واساس السياسة المنشودة التي يمكن وصفها « بالواقعية » يقوم على فكرة التعايش مع الغرب. وكان التحليل السوفياتي لتلك السياسة يضع كمقدمة منطقية لها ان السيطرة الحديثة على الفضاء والتقدم في حقل الصواريخ من شأنهما ردع الاستعمار الاميركي عن كبح الشيوعية بحيث يمكن الافادة من ذلك لتخفيض النفقات العسكرية الكلاسيكية، بغية المساعدة على بزوغ المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، مع الاستمرار في هزّ العصا بوجه الدول الرأسمالية، خصوصاً في النزاعات الاستعمارية أو الحروب الاقليمية الأمر الذي يتيح تضييق « دائرة الهيمنة الاستعمارية ».

سجلت هذه السياسة نجاحات سريعة في الشرق وافريقيا، وكانت تعد

بمستقبل مشرق. كان يكفي لذلك ممارسة سياسة الترهيب والترغيب مع الغرب، وقد دشّنت زيارة خروتشوف للولايات المتحدة، عام ١٩٥٩، تلك الاستراتيجية الجديدة. غير أنه في حال الفشل، كان انصار الحرب الباردة يضاعفون من وتيرة انتقاداتهم، الامر الذي كان يضطر خروتشوف الاوكراني على تغيير الخطة حتى في خضم المعركة، كما حصل في ازمة طائرة الاستطلاع يو ٢. عندما بات واضحاً، اعتباراً من عام ١٩٦١، ان برنامج « ميسيل غاب » كان خدعة اميركية، اصبحت السياسة السوفياتية اكثر تساهلاً وبدأ خروتشوف يتصور ان القوة النووية وحدها ليست علاجاً سحرياً في حال وقوع ازمة اقليمية. وشرع، على غرار الأميركيين، في انشاء قوات خاصة، وتخصيص مبالغ مهمة لبناء السفن البحرية، كوسيلة وحيدة لنجاح سياسة التغلغل في العالم الثالث. واكتشف خروتشوف، كما فعل كينيدي، ان الدول الاستعمارية لا تستطيع الاستغناء عن الاسلحة التقليدية. عندما كان يوقع، في ٢٥ تموز ١٩٦٣، معاهدة منع التجارب النووية بصورة جزئية، لمس في سياق حديث ثنائي حول التسلح، ما يعزز سعيه اعادة النظر مرة اخرى استراتيجية وسياسة التسلح : لما كانت الاسلحة النووية اصبحت عقيمة، ينبغي أن ينصب التجديد على الاسلحة التي تتيح المواجهات التدريجية، اي تلك التي تدع الباب مفتوحاً امام التهديد والتفاوض.

وحده ماو تجرأ على القول ان على الدول الاشتراكية عدم الخوف من حرب عالمية ثالثة، لأن الصين هي من الاتساع وكثافة السكان بحيث تجد، على الرغم من مئات ملايين الضحايا، ما يكفي من القوة لسحق العدو. كانت الحرب النووية للاميركيين والسوفيات على السواء، شراً مطلقاً، وهذا الخوف الذي كان ينتابهما معاً، كان يدفعهما، في الوقت ذاته الى متابعة الطريق نفسها بأشخاص مختلفين.

١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ : بريجنيف وكوسيغين يحلان محل خروتشوف.

لم يكن ماو تسي تونغ مصدر الازعاج الوحيد لخروتشوف. وكان هذا الأخير يدرك ان « البحّار الكبير » يواجه العاصفة، وانه انزوى في مكتبته، بانتظار ايام افضل لن تأتي. كان التحليل لسوفياتي متشائماً بالنسبة للصين: وحدها العودة إلى الوراء على يد فريق دينغ كسياوبينغ ــ يمكنها ان تنقذ النظام القائم. فالطريق الذي تسلكه الصين باتجاه اشتراكية ريفية كان سراباً، لأن الزراعة تكاد لا تلحق ارتفاع عدد السكان، الأمر الذي يزيد من اتساع السوق الاستهلاكي، سنة بعد اخرى. اين تجد، في ظل هذه الظروف، الاموال اللازمة، من دون مساعدات خارجية، لتنفيذ برامج التصنيع ؟

حضنت الصين البانيا في محنتها. على الرغم مما تعانيه من عوز وفقر. وفتحت ذراعيها ايضاً لرومانيا التي كانت تبتعد عن الكرملين.

وفي اطار « الكوميكون »، طالبت تشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية الاسراع في التخصص الاقتصادي تسهيلاً لرفع الانتاجية وزيادة التبادل في المعسكر الاشتراكي. رفضت رومانيا ان تكون دولة نموذجية في الانتاج الزراعي وزعمت انها في صدد تحقيق خطتها التصنيعية على طريقة ستالين القديمة. عام ١٩٦١، استعاد خروتشوف فكرة التخصص لأن التكامل الاقتصادي للجمهوريات الشعبية في مجموعة واحدة من شأنه تعزيز المركزية وتحاشي محاولات الخروج عن الصف. استغلّ القادة الرومانيون، بصورة خفية، وسيلة الضغط التي كانوا يمتلكونها من جراء الانشقاق الحاصل مع الصين، فتراجع خروتشوف عام ١٩٦٣. غير ان رومانيا التي اشتدت عزيمتها بفعل نجاحها الأول، اعلنت في نيسان ١٩٦٤ (حين كان خروتشوف يواجه معارضة داخلية متنامية)، انها ستمتنع بعد الآن عن حضور اي مؤتمر دولي لا تدعى الّيه الصين، الأمر

الذي شكل استفزازاً لموسكو. استشعر خروتشوف الخطر الداهم : فالانشقاق الروماني قد يقود الى سلسلة من ردود الفعل في اوساط الديمقراطيات الشعبية، اي إلى نوع من جبهة موالية للصين تستخدم كذريعة لاعادة النظر في نظام الهيمنة المركزية التي يمارسها الاتحاد السوفياتي. وقرر الدعوة لاجتماع كل الاحزاب الشيوعية في ١٥ كانون الأول ١٩٦٤، بغية ادانة الانحراف الالباني والروماني والصيني. لكنه اقيل قبل الموعد المضروب للاجتماع.

ما حققه خروتشوف الذي قام بزيارات عديدة، يبدو هزيلاً بنظر منتقديه : بين بلدان العالم الثالث، هناك خمس دول فقط تنتمي الى الاشتراكية، لانها نالت استقلالها السياسي والاقتصادي وحققت الاصلاح الزراعي وعملية التصنيع من دون مساعدة الرأسمال الغربي واقامت نظاماً سياسياً يرتكز على الحزب الواحد. وبدت هذه المعايير تنطبق على كوبا والهند الصينية ومالي وغينيا وغانا، واستثنيت منها الكونغو والجمهورية العربية المتحدة، مع أن هاتين الدولتين افادتا من مساعدات سوفياتية مهمة. ارتدت سياسة خروتشوف طابع المغامرة ولم تساعد على تغلغل اشتراكي حقيقي في افريقيا وآسيا. ومن جراء ازمة الصواريخ في كوبا، والتراجع السوفياتي، اخذت كوريا الشمالية واندونيسيا تتجهان نحو بكين. كان الخطر يهدد وحدة الدول الاشتراكية وكان خروتشوف مسؤولاً عنها.

جرت اقالته من دون وقوع حوادث، اذ سبق له ان نجح على الاقل في تأمين خلافته بشكل سلمي ومن ضمن اصول النظام الشيوعي. ووضع خصومه طريقة مشروعة لا تتسم في الظاهر بمظهر الانقلاب العسكري للوصول الى السلطة. اذ افادوا من مناسبة ذهابه الى الريف لتوقيت ضربتهم : في ١٢ تشرين الأول، دعي مجلس السوفيات الأعلى للانعقاد في غفلة منه، حيث طالب سوسلوف بعزله، ونجح في ذلك. في اليوم

التالي، اقرت اللجنة المركزية اقالته بحضوره، بعد ان عاد على وجه السرعة لكنه اخذ على حين غرة وعجز عن تأليب غالبية الاعضاء لصالحه. كان البديل جاهزاً : عين ليونيد بريجنيف اميناً عاماً للحزب والكسي كوسيغين رئيساً للحكومة. ولم تظهر في موسكو اية بوادر معارضة للتشكيلة الجديدة.

بالنسبة للمعارضين، لا شيء تغيّر. اذ ان بريجنيف وكوسيغين كانا محازبين محنكين ولن يقدما على رفع قبضة الحزب الحديدية عن البلاد.

جاء انفجار الحكم السوفياتي متزامناً مع تفكك الامبراطورية الاميركية في اوروبا. اهم المنشقين عن الكتلتين، فرنسا والصين، لم يكن امامهما مصير واحد. كان ماو يستعد لاطلاق سياسته مجدداً من خلال ما عرف « بالثورة الثقافية ». اما فرنسا الديغولية فقد استسلمت، بالتأكيد، لنشوة الاستقلال، وكذلك للازدهار الكبير الذي شهدته، اسوة بالغرب كله في الستينات. توافرت لها امكانات تحقيق ما كانت دول اخرى تتمناه لنفسها سراً، اي الاستقلال المنفتح على دول العالم الثالث.

وعلى الصعيد الداخلي، بقيت مؤسسة السوق الاوروبية المشتركة تنتظر تحولات جيرانها نحو مزيد من مظاهر الاستقلال. كانت التجربة الفرنسية تجسد، بلا منازع، ما سيكون عليه ترقي اوروبا ـــ وفي طليعتها المانيا ـــ الى مصاف قوة جبارة عالمية. والغرابة ان الدور الذي كان يجب أن يؤول الى الصين، انيط باليابان في الشرق الأقصى.

الثورة الثقافية في الصين

ليس لأن امبراطورية الشمس المشرقة قد تملكتها نوبة مفاجئة من النزعة الاستقلالية على الطريقة الديغولية، بل لأن الفراغ في آسيا شرّع ابواب التمدد امامها. ذلك أن الصين، بدلاً من مواصلة ما بدأه دينغ كسياوبينغ من تنظيم شؤونها الداخلية، راحت تخوض سلسلة جديدة من

العنف منذ ان استأنف الرئيس ماو ممارسة سلطته، واخذ يعاكس اسياد الكرملين الجدد الذين كانوا يتابعون سياسة الانفتاح في الخارج التي دشنها خروتشوف. وبدّل اتجاهه نحو اليسار طارحاً نفسه امام الرأي العام الشيوعي كأنه الوريث الوحيد للفكر الثوري للينين. وليست الثورة الثقافية سوى الكفاح الذي قام به ماو للقبض مجدداً على زمام السلطة، مستخدماً شعارات تحرّك الجماهير، لا سيما الشباب. وقد تمخضت عن حماس ثوري جديد لاخراج البلاد من التخلف ورأى ان على الطاقة الشعبية ان تستجيب لكل التحديات باسلوب اشمل واقوى من ارادة ستالين وخططه. وعلى « الاحمر » ان يتقدم على « الخبير »، على كل الصعد. ودعا بلسان لين بياو الذي عينه وزيراً للدفاع : « لنمشِ بخطوات واسعة الى الامام، حاملين البيرق الاحمر خفاقاً على طريق الحزب وفي الخط الفكري والعسكري الذي رسمه ماو تسي تونغ ». عام ١٩٦٠، أسس ميليشيات شعبية اخضعها لحملة تنشئة عقائدية عرفت بحملة « الثلاث ثمانيات » (توجيه سياسي، اسلوب قاس وشاق في العمل، سياسة مرنة ترتكز على « الميزات الثمانية » في الوحدة والشدة والجدية والحيوية. وعلى الاولويات الأربعة (اولوية العنصر البشري على السلاح، والفكر الناشط على الثقافة الكتبية، والعمل السياسي على ما عداه من المهمات الأخرى، وأولوية العمل الايديولوجي). وجرى تكليف عناصر النخبة في هذه الميليشيات بمهمة القيام بدور الشرطة في المناطق والارشاد السياسي داخل المصانع ودعوة الشباب للانخراط في وحدات نظامية. ابتداء من عام ١٩٦٦، غدت الثورة الثقافية على اهبة الانطلاق، بعد تهيئة قواتها الخاصة.

رغب ماو في استئناف المدّ الثوري في الارياف بالاعتماد على طبقة الفلاحين « المتوسطة والصغيرة » ضد القوى المحلية التي تتأثر بتوجيهات دينغ كسياوبينغ التغييرية. عام ١٩٦٤، نجح هذا الاخير في اختراق بعض الهيئات من صغار ومتوسطي الطبقة الفلاحية حيث انشأ داخلها خلايا

تخضع للجان الحزب الذي يسيطر عليه. واعلن، في كتابه الذي نشر عام ١٩٦٥ بعنوان « البنود الثلاث والعشرون » عن نيته « تطهير اولئك الذين يمسكون زمام السلطة في الحزب وانحرفوا في طريق الرأسمالية، وبعضهم ممن يحتل المراتب العالية قد بدّل من طبيعته الحقيقية. واضاف ماو : « في حال عدم الوثوق بالميليشيات، يجب لتسلم السلطة، تزويد الفلاحين الفقراء بالسلاح ». وسوف تنطلق الحركة الثورية من الأرياف، وليس من صفوف المثقفين الذين تلصق بهم تهمة التغيير وتحوم الشبهات حولهم منذ عملية القمع المعروفة باسم « المئة زهرة ». وجرى وصف الجيش بأنه « مصدر العقيدة الصحيحة والقابض الشرعي على زمام السلطة العامة بدلاً من الحزب المنهار »[1] انشئت شبكة سياسية في البلاد تتألف من العسكريين خصوصاً، وهذه الشبكة لها « دوائرها التي حلّت محلّ المراجع الحزبية، وتولّت شؤون الدعاية الثورية ووضع اللوائح اللازمة بالموظفين المشبوهين ».

اطلق ماو ثورته في تشرين الثاني ١٩٦٥، من شنغهاي (وليس من بكين الخاضعة للسلطات الرسمية). في مطلع ١٩٦٦، ادّى القضاء على قائد اركان الجيش ليو ريكينغ واستبداله بمساعده يونغ شانغو الى السيطرة على الوضع في بكين. اصيب ليو شاوكي ودينغ كسياوبينغ بالعجز وتركا ماو يجهز على الحزب. تطلبت السيطرة على المناطق ثلاث سنوات من الجهود المضنية والدموية، ومساندة ارهابية من الحرس الأحمر. عمت الفوضى الصين كلها. وقام الحرس الأحمر بعمليات تصفية فظيعة واثاروا ضدهم كراهية ضباط الجيش بتوزيعهم السلاح على الناس ـــ افاد بعض قادة الحزب في المناطق النائية، مثل وانغ انماو في كسينيجانغ من وقوع الثورة، كي يقضي على خصومه، ويحكم كسيد حرب. تدخّل زو أنلي، المخلص الى ماو، بنفسه في بكين لاعادة العمال الى عملهم، لأن الفوضى

(١) سيمون لاي : ثياب الرئيس ماو الجديدة، باريس، منشورات ليبوفيسي، عام ١٩٨٧.

حولت المصانع الى ساحات عامة، وكذلك الجامعات حيث فرض الحرس الاحمر على الاساتذة « تصويبات » مذلّة عدة. وشنت حملات عنيفة ضد ليو شاوكي، « خروتشوف الصين »، او ضد زودي وهو عجوز في الواحدة والثمانين من عمره، تولى الدفاع عن بينغ ديهوا. خشي ماو من حدة الفتن والاضرابات، واعلن وجوب انشاء « اتحاد مثلث » لتنظيم الثورة، قوامه الحرس الاحمر الذين يوصفون « بالمتمردين الثوريين » (ومن دونهم لا شيء يتحرك)، والجيش الذي يعتمد عليه للحفاظ على النظام في المناطق التي يجتاحها التطهير الوحشي، « والموظفون الذين اعيد تأهيلهم »، وينبغي اخذهم بعين الاعتبار. وهكذا، ظهر دينغ كسياوبينغ على المسرح مجدداً، عام ١٩٦٧، الى جانب زوأنلي، لتهدئة الوضع. واوعز هذا الأخير الى الحرس الأحمر بوجوب العودة الى مواقعهم.

من الصعب تهدئة العاصفة بعد هبوبها : ففي المدينة العمالية شيندو، هناك ٢٠ الف عامل في مصانع السيارات مضربون. وفي دوهان، على النهر الأزرق حيث كان يستحم ماو، يخوض الجنرال شين زايدو، القتال مع « مليون بطل » من الميليشيات العمالية ضد الحرس الماوي. اوفد ماو وانغ لي لفرض هدنة، فهزم وانغ وأسر. واضطّر زوأنلي للانتقال الى هناك للافراج عنه. وجرى تسيير الزوارق المسلحة في النهر وانزل المظليون للسيطرة على الوضع وتجريد المتمردين من اسلحتهم. ماذا فعل ماو ؟ بدلاً من اعتقال الجنرال المتمرد اكتفى بعزله من مركزه وارسله الى بكين لمتابعة « دورة دراسية في فكر ماو ». وهي تحفل بموضوعات حول عبادة الشخصية لم يسبق لها مثيل في العالم الشيوعي. اعتبر وانغ لي مسؤولاً عن الاضطرابات التي وقعت. واظهرت اقالته ان ماو يرغب، بعد الآن، في استخدام الجيش لتهدئة الثورة، باعتباره القوة الوحيدة المتوافرة. إعتباراً من نهاية ١٩٦٧، تبدّلت الاحوال وتغلّب « التحالف العسكري — البيروقراطي » على « جماعة الثورة الثقافية »، واصبح الماريشال لين بياو

الرجل القوي في بكين وكذلك زوأنلي، حامل لواء التوافق والمصالحة. هل يمكن لهذا الأخير أن يوافق، عندما كانت الصين بحاجة ملحة للموظفين لتجنب الفوضى، على أن تتحول جامعتا بكين وشنغهاي الى « عاميات ٧ ايار » التي الغت الامتحانات ووزعت الشهادات على اسس سياسية بحتة ؟ مع ذلك، استمرت هذه الحركة، الى ما لا نهاية خلال عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩، واضعفت القوى الحية في البلاد. وهكذا بدت الثورة الثقافية للمراقبين كما لزوأنلي ودينغ كسياوبينغ، تبديداً لا حدّ له للطاقات الحيّة في البلاد.

مع ذلك لم يتخلَّ ماو عن ثورته، على الرغم من قناعته بوجوب التوقف لفترة، وتزويد هذه الحركة بالمؤسسات اللازمة من خلال تطهير الحزب ومواصلة الهجوم على « الخروتشوفية » والمجموعات الصينية التي تستلهمها. واعتمد على « التحالف العسكري ـــ البيروقراطي » لزوأنلي ولين بياو لاعادة النظام والامن في المناطق والأقاليم بواسطة « اللجان الثورية » التي يسيطر عليها العسكريون. وبدت احاطة الجيش بالشباب مهمة اساسية، اذ اتاحت قمع الاضطرابات اليسارية وتهيئة البلاد للمواجهة مع الاتحاد السوفياتي، وهو احتمال ينظر اليه المسؤولون في البلاد بكثير من الجدّية.

عسكرة السلطة في الصين

اظهرت اقالة يانغ شانغو، السند الرئيسي للثورة الثقافية في بدايتها، عن نية ماو الامساك بالجيش من جديد. كان يانغ من محاسيب لين بياو، وأدى سقوطه الى اثارة البهجة في نفوس القادة العسكريين في المناطق، حيث سبق لبعضهم، مثل شين زايدو، ان تجرأ على اسر الموفدين الشخصيين لماو. فالرئيس يعتمد على هؤلاء الرجال الحازمين للحفاظ على النظام في المصانع والمدن وهو يودّ اشراكهم في السلطة. وحلّ

هوانغ يونغشانغ محل يانغ شانغو في رئاسة الأركان في بكين وحظي باعجاب اسياد المناطق والاقاليم، الامر الذي اتاح لماو ان يوازن به نفوذ الماريشال داخل الجيش. وبغية الأخذ بعين الاعتبار كل الاتجاهات، سعى ماو، في المؤتمر التاسع للحزب، الى تمثيل لين بياو بثلاثة مندوبين، وكذلك ضباط المناطق ومقاتلي الفرقة الرابعة في الجبهة، فضلاً عن مندوبين عن الفرقة الرابعة الجديدة التي انشأها ماو للحد من نفوذ الأولى. وبلغ عدد ممثلي الجيش داخل المكتب السياسي ١٣ مندوباً من اصل ٢٥. وهذا يشير الى المدى الذي يعتمد فيه ماو على هؤلاء (بعد ان شتت شمل الفريق « التقنوقراطي » الموالي لزوأنلي)، للاضطلاع بمهمات الثورة الجديدة وكذلك لترؤس حركة توحيد البلاد وتهيئة النفوس استعداداً للصراع الذي اخذ يذر قرنه على الحدود السوفياتية. عام ١٩٦٨، جرت تعبئة ٦٠٠٠٠٠ رجل اضافي، معظمهم من صفوف الطلاب، لمواجهة الخطر المثلث المتمثل في حرب فيتنام، واعادة تسليح تايوان والعدائية المتنامية لدى الاتحاد السوفياتي. في ظل هذه الظروف، لا عجب من أن يقدم الرئيس ماو على اغداق الرعاية والاهتمام بكبار الضباط. فهو بحاجة اليهم لتثبيت خطه السياسي الجديد في البلاد، ولا سيما لنفح الروح الوطنية من جديد في نفوس المجندين الشباب من اجل الدفاع عن البلاد. وهنا تقنع خطاب الثورة الثقافية خلف كلام آخر يحرّض الجماهير ضد الاجانب الذين يتآمرون ضد الصين : فانتشرت في الارياف الشعارات المعادية ضد التقنوقراطيين اصدقاء اميركا، وضد المعجبين بخروتشوف، وجرى الحد من تواجد الحرس على اللائحة الرسمية المؤلفة من ١٤ عضواً في اللجنة المصغّرة التي تدير شؤون البلاد. اذا كان المشاغب شين بودا بقي يحتل المركز الرابع، فان زوجة ماو جيانغ كينغ كانت في مرتبة ادنى. وكان نصف المجموعة يتألف من العسكريين.

منذ احداث ١٩٦٢، والمسؤولون الصينيون على حذر : فالسوفيات

كانوا يشجعون انتفاضة الاقليات القومية وفتحوا لهم الحدود للجوء الى الاتحاد السوفياتي. ومنذ عام ١٩٦٤، والمحادثات الجارية تسعى لتذليل العقبات والحصول على ما يسميه الصينيون تعديل « الاتفاقات غير المتكافئة » التي تقتطع من الصين كل الاراضي الواقعة شمالي نهر امور، شرقي اوسوري. لا شك ان دبلوماسية زوأنلي لن تدعي استعادة تلك الاراضي بل تطمح فقط الى احترام حدود الانهر وبحث نقاط الخلاف. ورأت الصين مثلاً ان جزيرة زينباو المهجورة تخضع بلا منازع لسيادتها. وبدت متيقظة للغزوات التي يشنّها السوفيات على اراضي كسينجيانغ الشاسعة حيث انشأت صناعتها النووية. ضمّت التظاهرات المناوئة للسوفيات والتي عمت حينذاك كل انحاء البلاد، ٤٠٠ مليون نسمة. اغتبط ماو لهذه الانتفاضة الجماعية التي تعكس مدى الثقة بقادة الجيش. فاستغل ذلك لمطالبة العمال والفلاحين ببذل المزيد من الجهد في العمل، والمساهمة في الدفاع عن البلاد. وجرى تحرير الموظفين اللازمين للانتاج باعداد كبيرة، وعيّن بصورة رسمية ٢٧٩ عسكرياً من اصل ١٥١٢ مندوباً للحزب في المؤتمر التاسع. وتم الحرص، بكل قة، على تمثيل كل اسلحة الجيش والطيران والبحرية وكذلك مختلف قطاعات الجيش البري وقادة المناطق. اذ ينبغي دمج الملاكات العسكرية مع الهيئات الرسمية. وعندما تكررت حوادث الحدود خلال تموز وآب في كسينجيانغ، جرى تنظيم حملة منسقة « لمواجهة الحرب والمجاعة » بغية تسويغ الاجراءات الجديدة من التقشف وتخزين المواد الغذائية لكل منطقة من المناطق، وزيادة الانتاج من خلال التوسع في استصلاح الاراضي الزراعية.

في الأول من تشرين الأول، في الذكرى السنوية لاعلان قيام الجمهورية الشعبية، انصبّت الخطابات الرسمية على مهاجمة « الاستعمار الاميركي والاستعمار الاشتراكي السوفياتي » : عام ١٩٦٩، كانت الصين تعتقد باحتمال وقوع الحرب، وحتى بالحرب النووية. وتساوى المعتدي السوفياتي، من حيث التنديد، بالاميركي. كما جرى التشهير بتعزيز

القواعد السوفياتية في مونغوليا على انها دليل على نية عدوانية. ولم تعد تؤخذ معارضة الحرس الأحمر « وجماعة الثورة الثقافية » بعين الاعتبار. وارسل النظام الماوي الى حقول الأرز ١٥ مليوناً من الشباب لاعادة « تنشئتهم » على ايدي الفلاحين. وجعلت عزلة البلاد من مسألة الدفاع الوطني مسألة ملحّة. لم يسبق لعبادة شخص ماو، الذي اخذ يجمع في ساحة بكين الكبرى الوف المتظاهرين، ان كانت بهذه الحدة، ولا تعلّق الشعب به اكثر وضوحاً. واضطر المعارضون المثقفون الى الصمت. وسكت انصار انفتاح البلاد على التيارات الاقتصادية الاجنبية. واولئك الذين بدأوا ينادون بوجوب التقرب من الولايات المتحدة، مثل زوأنلي، ما زالوا عاجزين عن فرض خططهم، فيما كان لين بياو ينظّم حملة ضخمة للعسكرين على جبهتي الصين المحاربة : الجبهة الغربية والجبهة الاسيوية. في مثل هذه الاجواء من الحرب الوطنية، سعى الماريشال الى استعادة نفحة « القفزة الكبرى الى الامام » غير أن قراءة الكتابات التي غطت جدران بكين اظهرت ان الشيطان لم يعد اميركياً. فجبينه مجعّد وقسماته قاسية وحاجباه غليظان مثل ليونيد بريجنيف.

الرئيس جونسون يخوض الحرب في فيتنام

لا يقل النزاع الصيني الداخلي، بالنسبة لموسكو، اهمية عن التهديد السوفياتي، بالنسبة لبكين. وخلال السنوات الخمس الماضية، تعادل الجباران الاحمران. غير أن الشيطان الاميركي عاد مجدداً يتعرض للحريق، عبر رسومه، في الساحات العامة في المدن الشيوعية الاسيوية، بسبب المشاركة الاميركية المتزايدة في الدفاع عن فيتنام الجنوبية. اعتلى ليندون ب. جونسون سدة الرئاسة عام ١٩٦٣، وهو عصامي من تكساس، صنع نفسه بنفسه، يقرأ كتاب التوراة، ويحب عائلته، ويعتقد « بالقوة التي تأتي من الأرض ». إنه يميني، لكنه يبقى في أعماقه جنوبياً. طويل القامة (١,٩٠ متراً)، ويشبه في مشيته رجال الكاوبوي، ويتألق في المجتمع.

بالقصص الخليعة التي يرويها، كما ينسخ شعار الرئاسة على ازرار قميصه. عانى من اول خيبة له عندما استقال اهم مساعديه، الاستاذ الجامعي ايريك غولدمان في ايلول ١٩٦٦، احتجاجاً على العدوانية التي تتميز بها السياسة الخارجية الأميركية، خصوصاً في فيتنام. وكان دين راسك وماكنمارا قد اقنعا جونسون، دون كبير عناء، ان على الولايات المتحدة طي صفحة خلافاتها الداخلية، من أجل الانصراف الى مواجهة الخطر الشيوعي الذي يتهددها اكثر من أي وقت مضى .. فأصدر القانون الليبرالي حول الحقوق المدنية والذي اتاح التقدم خطوات حثيثة على طريق دمج الزنوج في المجتمع الاميركي، الامر الذي انعكس ايجاباً على حملته الانتخابية حيث اعيد انتخابه في تشرين الثاني ١٩٦٤ ضد باري غولدواتر ونال ٦١٪ من الاصوات و ٩٠٪ من اصوات العبيد. منذ ذلك الوقت، اخذ يعدّ العدة للحرب، ومنحه الكونغرس الوسائل اللازمة لمواجهتها من خلال اقرار موازنات عسكرية تزداد ارقامها مرة بعد اخرى. فارتفع عجز الموازنة من ١,٦ مليار دولار، عام ١٩٦٥، الى ٨,٧ مليار، عام ١٩٦٧، ثم الى ٢٥,٢ مليار عام ١٩٦٨. كما شكا ميزان المدفوعات من عجز فاضح. غير أن ارتفاع معدل السيولة أتاح تعويض هذا الخلل، من خلال ضخ المزيد من العملة النقدية في التداول، بحيث اصبحت تغطية الدولار بالذهب، مسألة وهمية. وكان الخبراء قد توقّعوا انفاق مبلغ ١٠ مليارات دولار، في حال اندلاع الحرب في فيتنام.

في الواقع، كلفت الحرب ضعفي هذا المبلغ. فضلاً عن شؤون الدفاع عن فيتنام، كان على الأميركيين مواجهة تنامي الحركات الشيوعية في بحر الكاريبب، بتشجيع من موسكو التي ايّدت قرارات الحرب التي اتخذتها احزاب دول اميركا اللاتينية، المجتمعة، عام ١٩٦٤ في هافانا، واثر موافقة الاتحاد السوفياتي على اغداق مساعداته لدعم النضال المسلح. واضطّر الاميركيون للرد اولاً على تحدي كاسترو الذي قطع المياه عن قاعدتهم البحرية في غوانتانامو، فارسلوا الناقلات الضخمة الى تلك

القاعدة لتزويد العسكريين بالمياه، وعمدوا الى طرد الوف الكوبيين المستخدمين في البحرية. ووقعت فتنة في باناما حيث الشعور الوطني على اشده، وتسببت في مقتل ٢٠ شخصاً واصابة ٣٠٠ بجروح، حين اطلق جيش الاحتلال الاميركي النار على الثوار. وقد لاقى جونسون الكثير من العناء لاعادة العلاقات المتوتّرة الى سابق عهدها. في سان دومينغو، لم ينجح دونالد ريد كابرال الذي اوصله العسكريون الى الحكم بعد خلع جوان بوش، في السيطرة على الازمة الاقتصادية. وسعى بعض الضباط الى استبداله ببوش. عند ذاك اخذ سفير الولايات المتحدة يساند كابرال. امام خطر اندلاع حرب اهليه، اعلن جونسون عن رد عسكري، استناداً الى صور الاقمار الاصطناعية. فارسل حملة مؤلفة من الكتيبة ٨٢ المجوقلة وهي من خيرة المقاتلين الذين لم يجدوا صعوبة في اعادة الامور الى نصابها، وفي « منع استيلاء الشيوعيين على الحكم، واجلاء الرعايا الاميركيين عن سان دومينغو ». واقام الاميركيون حكومة بالاغوير، وهي المرة الأولى التي ينتهكون فيها صراحة مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لاحدى دول اميركا اللاتينية.

هل سيتدخلون في فيتنام ؟ اشار خبراء وكالة الاستخبارات المركزية الى عدم الاستقرار السياسي للنظام القائم حيث التيارات السياسية تتنازع فيما بينها ضمن تشكيلات تبلغ مائة وخمسين تكتلاً سياسياً. تعاقبت الحكومات العسكرية حتى عام ١٩٦٧، حين فرض الاميركيون دستوراً ديمقراطياً، كان نغوين فان تيو رئيساً للدولة يعاونه نغوين كاوكي، وقد طالب بمزيد من المساعدات العسكرية. فأعلن جونسون خلال حملته الانتخابية : « لا نية لدينا لارسال جنود اميركيين مسافة ستة عشر الف كلم بعيداً عن ديارهم ليقوموا بما يتوجب على الاسيويين القيام به لحماية انفسهم ». هل سيفي بوعده ؟ لا شك أن « الكاوبوي » لن يكون غاضباً اذا كان الرئيس الوحيد الذي ينجح في دحر الشيوعية في آسيا، بعد التجارب الاميركية الفاشلة في الصين وكوبا. وكان السفير كابوت لودج

قد حذّره من ان تقديرات ماكنمارا حول جيش فيتنام الجنوبية هي في غاية التفاؤل. وكان وزير الدفاع قد قام بنفسه برحلة الى سايغون ليلحظ بعينيه مدى قدرة فيتنام الجنوبية على المقاومة. وعاد قلقاً للغاية : ٤٠٪ من الأراضي تقع تحت سيطرة الفيتكونغ وسط استياء عام لدى السكان. تساءل جونسون : لماذا لا يصار الى قصف فيتنام الشمالية مجدداً ؟ فردّ عليه ماكنمارا بأن هذه الغارات الانتقامية شكلت الحجة الأقوى للدعاية التي يبثها الفيتكونغ في الحرب النفسية المستمرة التي يخوضونها في فيتنام الجنوبية. وينبغي تصوّر طرائق اخرى اكثر لطافة ورقة.

لم يكن موضوع التدخل الاميركي وارداً بعد. واقتصرت العمليات على بعض أعمال التخريب التي قام بها مقاتلون من فيتنام الجنوبية، شمالي الخط ١٧ على حدود الدولتين، كما تم ارسال سفن حربية الى خليج تونكين، مزودة بنظام استكشاف لمراقبة تحركات العدو. ولم يبلّغ الكونغرس عن هذه التدابير. وكان الشيوخ يجهلون تماماً مضمون الخطة ٣٤ أ المشمولة بالسر العسكري. وعندما عين الجنرال الاسطوري ويستمورلاند في فيتنام، افاق الصحافيون مشدوهين، اذ ان هذا الجنرال كان من ابرز خريجي « وست بوينت »، وقد لمع نجمه في اوتاه بيتش، في النورماندي، إبّان الانزال الاميركي عام ١٩٤٤. كان في حينه على رأس فرقة المظليين، بعد ان تولى ادارة المدرسة الحربية الشهيرة. فالولايات المتحدة ترسل الى فيتنام افضل محارب لديها.

ازدادات الحوادث والاشتباكات من جراء الخطة ٣٤ أ. وتعرضت السفن الأميركية لنيران فيتنام الشمالية. لكن ما هي هذه الحرب التي لا تتجرأ على النطق باسمها ؟ اتخذ جونسون قرار استئناف قصف فيتنام الشمالية، وكان، في هذه المناسبة، قد حصل من الكونغرس، في ٧ آب ١٩٦٤، على قرار يجيز له « اتخاذ كافة الاجراءات الضرورية لصدّ كل هجوم مسلّح ضد قوات الولايات المتحدة ومنع كل اعتداء لاحق ».

وهكذا حصل على توقيع على بياض، فيما دل استطلاع للرأي بأن ٧١٪ من الاميركيين يؤيدونه. وبذلك اطلقت يد جونسون لشن حرب الهند الصينية الثانية.

معارضة الحرب الفيتنامية في الولايات المتحدة

اغتبط اليابانيون لاحتمال فورة ازدهار اقتصادي مماثلة لتلك التي تزامنت مع حرب كوريا. هل حان قطاف موسم « الورقة الخضراء » (الدولار) ؟ غير أن الايام تغيرت، اذ لم تعد المسألة تتعلق بحرب صليبية في سبيل الحرية. فحرب الهند الصينية بدت للعالم وحتى في واشنطن « حرباً قذرة » خفيّة، سرية ومخجلة، وقد وضعت الولايات المتحدة في ما يشبه العزلة الدولية، كما لو ان الدول، حتى الغربية منها، كانت ترفض اقامة علاقات مع الشقيق الأكبر الذي يحمل جرثومة مرض معدٍ.

لكن جونسون حاذر تجاوز صلاحيات « رئاسته المطلقة » عندما ضاعف الفيتكونغ، عام ١٩٦٤، من عملياتهم : قصف سايغون بمدفعية الهاون واعتداءات ليلة عيد الميلاد. لعلّه كان يخشى ردات فعل بريجنيف الذي اعتلى سدة الحكم منذ فترة قصيرة، والصينيين الذين باتوا يمتلكون الآن القنبلة الذرية. ما العمل ؟ ظهر الرأي العام العالمي منذ البداية شديد الاستياء من عملية القصف الشامل التي قررها جونسون رداً على الغارات العديدة التي شنها فيتناميو الشمال على الجنوب (١٣ نيسان ١٩٦٥) ونددت الصحافة الأميركية باستخدام الارهاب. في باريس، حذر ديغول السفير بول بقوله : ليس للاميركيين اي حظ بكسب هذه الحرب. في الأول من نيسان، قرر جونسون ارسال كتيبتين من البحرية الى قاعدة دانانغ. لقد قضي الأمر.

رفض السوفيات والصينيون معاً الانضمام الى خطة جونسون القاضية

بتقديم المساعدة المالية لفيتنام في اطار مشروع مماثل لخطّة مارشال يشمل المنطقة كلها. تحت ضغط الصحافة الاميركية، اوقف جونسون عمليات القصف. هل ستتفاوض فيتنام ؟ لقد افادت من فترة الهدوء كي تقوم فرق الكوماندوس بتدمير الطائرات بالقنابل اليدوية في قاعدة وانانغ. كل شيء يجري كما لو أن موسكو و /أو بكين تدفعان بهانوي للقيام بتلك الهجمات مخافة أن تظهر هذه أو تلك بمظهر المتراجع فيما لو نصحتا هانوي بالاعتدال. ادى تنافس العاصمتين الحمراوين الى مزايدات في حقل المساعدات المعنوية والمادية. وكان الأميركيون يدفعون الثمن : بعد استشارة ويستمورلاند، اعتبر ماكنمارا ان القوات الأميركية (٧٥٠٠٠ رجل) غير كافية وطلب زيادتها الى ٢٠٠٠٠٠. في ٢٨ تموز، ظن جونسون ان بامكانه مصالحة الرأي العام باعلانه على التلفزيون عن توجّه قوة مؤلفة من ٥٠٠٠٠ جندي للمعركة، وتضم « فرقة الخيالة الأولى ». وهي من افضل الفرق المجوقلة في البلاد. غير ان هذا النبأ استقبل ببرودة كبيرة. في الواقع كانت الحرب تلقى اعتراضات ثلاثة. اولها من الشيوخ الذين اخذوا يصغون بكثير من الاهتمام الى احاديث زملائهم، وخصوصاً الى مايك مانسفيلد، وممثل ولاية ازكانساس، وليم فولبرايت. وكان الهمس يدور في مجلس الشيوخ ان وكالة الاستخبارات المركزية تتمتع في سايغون بصلاحيات واسعة، وانها جرّت الرئيس الى الحرب. كان فولبرايت زعيم الاكثرية الديمقراطية التي يفترض بها دعم البيت الأبيض، ومعارضته توجب على جونسون الاعتماد عاجلاً أو آجلاً على مجلس الشيوخ بكامله.

الرفض الثاني جاء من الطلاب الشباب الذين تطالهم الاجراءات العسكرية التي وضعها ماكنمارا بشأن التحاقهم بالجندية في فيتنام. كانت اعدادهم قد تضخمت في الجامعات بسبب موجة الازدهار السريع والثراء الذي اصاب الطبقات المتوسطة. وباتوا يتأثرون بشعارات « اليسار الجديد » الذي لا تستهويه حروب العصابات السياسية ويحتقر

الماركسية، لكنه يقترح نمط حياة جديدة، تقوم على انقاض « نمط الحياة الاميركية » التي عاشها المحاربون القدماء خلال الحقبة الممتدة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥. اعتباراً من خريف عام ١٩٦٤، اخذ « طلاب المجتمع الديمقراطي » يتظاهرون في بيركلي، في كاليفورنيا. فكانوا طليعة الحركات التي انتشرت عام ١٩٦٥ وهدفت الى مناهضة الحرب. من اللافتات التي يمكن قراءتها في ذلك الحين : ل.ب.جونسون، ما عدد الجنود الذين تسببت بموتهم اليوم ؟ في بيركلي، معقل الحركات الطالبية، تحوّل الرئيس الى اضحوكة على السنة الخطباء؛ كذلك تعرّض لهجمات العبيد، وهو الذي يعتبر بحق واضع اول قانون ليبرالي عن الحقوق المدنية. في مطلع عام ١٩٦٥، وبعد اغتيال مالكوم اكس، احد زعماء الحركة الزنجية (ربما على يد المسلمين الزنوج الذين وجدوه مغالياً في اعتداله) حصدت الفتنة ٣٤ قتيلاً في واط، احدى ضواحي لوس انجلوس. من جراء اعتقال احد السود الذي كان يقود سيارته بسرعة، وتهديده الشرطي الذي كان يحرر محضراً بالمخالفة. القي اربعة آلاف شخص في السجن، وتحركت قوة من الحرس الوطني للمحافظة على الأمن. غير أن العنف استؤنف على اشده في نهاية السنة، عندما اطلق الشاب ستوكلي كارميكايل شعار « القوة السوداء » وعمّ العالم كله.

كان هاريمان يشغل منصب سفير الولايات المتحدة في موسكو في عهد ستالين، فدعا، مع جورج بول، وكابوت لودج الى اجراء مفاوضات مع فيتنام. قرر الرئيس شرح موقفه للدول المناهضة « للحرب القذرة »، فأوفد بعثة مؤلفة من نائب الرئيس هامفري الذي جال على الهند والفيليبين، ومن هاريمان الذي توجه الى اوروبا الشرقية ومصر واوستراليا واليابان؛ وارتور غولدبرغ الذي انتقل الى روما وباريس ولندن. غير أن البعثة فشلت في تحقيق هدفها وهو تأليب الرأي العام العالمي لصالح الولايات المتحدة. وعادت اخبار القصف المدفعي تهدر عبر موجات الاذاعة في العالم، اعتباراً من ٣١ كانون الثاني ١٩٦٦. ارتفعت حدة

الاحتجاجات، وابدى نصف اعضاء مجلس الشيوخ استياءهم من استمرار الحرب، واقترح روبرت كينيدي، شقيق الرئيس السابق، التفاوض مع الشيوعيين، وتزايدت عمليات رفض الخدمة العسكرية والفرار من الجندية في اوساط الطلاب الذين كانوا يلجأون الى كندا والسويد. واندلعت الاضطرابات مجدداً في احياء العبيد عام ١٩٦٦، في مدن شيكاغو، وكليفلاند وسان فرانسيسكو.

طالب ماكنمارا بحشد ٤٠٠,٠٠٠ جندي، من دون توفير اية ضمانة لكسب المعركة. فانتقل ٤٦٠٠٠٠ رجل عبر المحيط واستؤنفت المعارك على اشدّها، من دون احراز اية نتيجة، كانت الصحافة تندد بأعمال القصف بقنابل النابالم المحرقة، والاغتصاب التي يقوم بها الجنود في القرى، وقتل المدنيين والاسرى. تلافياً لقيام الصحافة بكشف اهوال الحرب، نظمت السفارة، بدءاً من عام ١٩٦٥، اجتماعات اعلامية يومية، في سايغون (واطلق عليها « حماقات الساعة الخامسة ») حيث كان يقوم احد الضباط بتزويد الحضور بالمعلومات الرسمية : كان من المتعذر التثبت من نتائج الغارات الجوية على الأرض. بالمقابل، نجح الصحافيون في اللحاق بالوحدات المقاتلة في ساحة المعركة وشاهدوا عمليات تعذيب الفلاحين. نبّه شارل موهر صحيفة « التايم » بان الحرب الحقيقية لم تكن بحسب الصورة التي ترسم في واشنطن. لم يصدّقه احد، وجرى استبداله في سايغون بماك كولوس، احد جنود البحرية السابقين وهو مقرب من ويستمور لاند. وعندما اسرّ اليه هذا الأخير بأنه يحتاج الى ٦٠٠٠٠٠ رجل لكسب الحرب، كتب ماك كولوش الى صحيفته مقالات تتصف بالتشاؤم والموضوعية والنزاهة، لكنها لم تنشر : كان جونسون يشرف شخصياً على معنويات الصحافة وعلى طبخ الاخبار في مجلة تايم ماغازين، كما في معظم الصحف.

الى متى يمكن اخفاء الحقيقة ؟ حضر مدير « التايم » شخصياً الى سايغون. لم يكن اوتو فيوربرينغر يريد رؤية اي شيء وطرد المراسل النبيل ماك لولوش. غير ان مدير الصحيفة. دونوفان، بدأ يلمس عام ١٩٦٦، تحوّل الرأي العام ومجلس الشيوخ. في مجلة « لايف ». كان مديرها « غرافس » ينشر كل اسبوع لائحة القتلى، ثم رسوم الشبان القتلى والموتى الذين اغفلت اسماؤهم على هوياتهم. يقول هالبرستام : « كان تأثير ذلك عارماً. فالميسورون يذهبون الى الجامعات وينالون الاعفاء من الجندية، فيما الفقراء والريفيون والعبيد واصحاب الياقات الزرق يذهبون الى الحرب ». كان مراسل التلفزيون والتر كرونكيت، يستهجن في البداية، سماع الصحافيين الشبان في الصحافة المكتوبة وهم يهاجمون الضباط اثناء الاستراحة، غير أنه لم يلبث ان اخذ يبث تحقيقات هؤلاء الشبان العاملين على الأرض، مما دعا لتسمية محطة سي.بي.أس « محطة الارسال الشيوعية ». ثمة مؤشر آخر عن التغيير، تمثل باستقالة ماك جورج بوندي، وجورج بول وبيل مويرز من الحكومة، عام ١٩٦٦. لم تعد اميركا موحدة الرأي حول الحرب، ويخشى ان يتغلب فريق الحمائم على فريق الصقور. حاول جونسون التفاوض بكل الوسائل لكنه فشل. وبدأ يحدّ من ارسال التعزيزات، واصمّ اذنيه عندما تحدث ويستمورلاند عن وجوب تجنيد ٦٠٠٠٠٠ رجل. ودفعته تظاهرات السود العنيفة، والمسيرة نحو البنتاغون الى مزيد من الحذر. حتى ماكنمارا نفسه استقال في نهاية ١٩٦٧. عندما شن الفيتكونغ هجومهم على تيت الذي اتاح لهم تهديد قاعدة كي ـــ سان، ومدينة هوي المقدسة، والوصول الى ابواب سايغون، اضطّر جونسون للردّ على انتقادات السلطات الدينية في البلاد التي اتهمته « بقتل الاسرى، وتعذيب المدنيين، وخطف الرهائن وتهجير السكان. واضاف رجال الكنيسة : ان مبادئ محكمة نوريمبرغ تدين اليوم سلوكنا ». استبدل ويستمورلاند بأبرامز، لكن الحرب استمرت.

واعلن غرونكيت، من محطة سي.بي.اس، ولأول مرة، بلهجته الصادقة المألوفة، « ان الحرب تميل الى الأسوأ وينبغي العمل على فك الارتباط ». غير أن جونسون هو الذي فك ارتباطه بالرئاسة معلناً عن نيته عدم ترشيح نفسه لولاية ثانية، تاركاً لخليفته الجمهوري نيكسون ارثاً ثقيلاً لحرب ما تزال تثير استهجان العالم كله.

من غير الصعب فهم الاحباط الذي اصيب به جونسون، فقد بات مستحيلاً على اميركا شن حرب اقليمية ضد الشيوعيين دون اثارة الرأي العام ضدها. لم يخش ايزنهاور استخدام طائرات ب ٢٦ لقصف الارياف الكورية بالنابالم من دون ان يثير ذلك استياء احد. في فيتنام، كان بعض صغار الضباط في الجيش الأميركي يزود الصحافيين بالمعلومات ويجيز لهم الاطلاع على ما يجري على الارض، لأنه يودّ اعطاء الرأي العام الأميركي صورة صحيحة عن تلك الحرب القذرة. فلم يعد احد يؤمن بضرورة قيام حرب صليبية ضد الشيوعيين.

كانت الوحدة في المعسكر الشيوعي، لا ثغرة فيها. فموسكو التي تأمل اجراء مفاوضات حول نزع السلاح مع واشنطن، لا تستطيع التخلّف عن مساندة حليفها الفيتنامي لئلا تتحوّل هانوي نحو بكين. اما ماو، فكان يندد بالحرب الاستعمارية في الهند الصينية، واعداً بتقديم مساعدات سخية لمقاتلي جياب. كما كانت الاحزاب الشيوعية في العالم كله تحثّ موسكو على التدخل، ومنها احزاب اميركا اللاتينية، حيث كان الحزبان اللذان يقف وراءهما كاسترو وتشي غيفارا الأكثر عنفاً ونشاطاً. اتهمت تلك الاحزاب موسكو، في المؤتمر الثالث والعشرين، عام ١٩٦٦، بأنها « لم تجازف بما فيه الكفاية في سبيل فيتنام ». ودعا غيفارا الى خلق « اثنين وثلاثة دول فيتنامية، من أجل شلّ قدرات الولايات المتحدة ». في الجانب الشيوعي، ساد الشعور، اذاً، بوجود حرب صليبية توحّد بين الاشقاء المتخاصمين. فكان الصينيون يندّدون باستمرار بجبن السوفيات

ويدعون الأحزاب الشقيقة لادانة موسكو التي ما تزال تمتنع عن تزويد فيتنام بصواريخ ارض ــ بحر التي تتيح مهاجمة الاسطول السابع وحاملات طائراته. لكن المعسكر الصيني اضطر بعدئذ لالتزام الصمت بفعل الثورة الثقافية. وترافق الانقلاب العسكري في اندونيسيا، مع حملة قمع وحشية ضد الحزب الشيوعي الموالي للصين ورأى اتباع ماو الجدد ان لا وجود للثوار الحقيقيين في العالم، فالكوبيون والكوريون والفيتناميون انفسهم هم تغييريون من ضمن النظرة الخروتشوفية الغريبة عن الفكر اللينيني. وحدها بكين موئل الشيوعية الحقيقية.

تشددت حكومة هانوي في موقفها ولم توافق على التفاوض حتى عام ١٩٦٨، وتركت المفاوضات تجرجر لسنوات عدة، لأنها كانت تنوي الحصول على انسحاب الجيش الأميركي. ومرّد هذا التصلب الى المساعدات المستمرة التي تغدقها موسكو على هانوي، في الوقت الذي تشهد فيه الحدود الصينية ــ السوفياتية خطر اندلاع القتال حولها. فالمشكلات الدولية تحوّل اهتمام الاتحاد السوفياتي عن كل تحرك في الشرق الأقصى، في الوقت الذي تشل حرب فيتنام التحرك الأميركي في غير مكان من العالم. وحين وقع الفراغ في المحيط الهادئ، سارع اليابانيون الى الغوص فيه.

اصبحت اليابان حرة منذ ٢٨ نيسان ١٩٥٢، غير أن العفاريت القديمة عادت الى الظهور من جديد. كانت أعمال العنف، في البداية، من فعل الطلاب اليساريين الذين تجمعوا تحت لواء « الرابطة اليابانية للمنظمات الطلابية ». في ذلك الحين، كانت الوحدات الخاصة بقمع الشغب والمزودة بالهراوات الطويلة تتولى تفرقة التظاهرات، غير أن حرب كوريا عززت من شأن التيار الماركسي الذي كان يدعي قيادة الشعب الى النور، كما كان من نتائجها ايضاً ان اعادت الى السلطة كبار الموظفين الذين عزلهم ماك ارثور، فعمد هؤلاء الى ابعاد يوشيدا العجوز، وتأسيس الحزب

« الديمقراطي » الجديد، كما تحدثوا عن تعديل الدستور. تسلّم هاتو ياما وكيشي نوبوسوك دفة الحكم بدعم من اوساط رجال الاعمال، بعد ان كانا يتوليان شؤون الاقتصاد الى جانب توجو. عاد كيشي من رحلة دراسية في المانيا ليرشح نفسه للانتخابات العامة حيث حقق فوزاً ساحقاً. وهكذا عادت الطبقة السياسية القديمة لتصبح ديمقراطية وتتسلم مقدرات البلاد من جديد، بعد حرب كوريا. فهل ستعدّ العدة للاخذ بالثأر ؟

اليابان تستفيد من الحرب

شهدت اليابان فترة ازدهار باهرة اطلق عليها « فورة هاتو ياما » واصبحت عضواً في الامم المتحدة في كانون الأول ١٩٥٦. ونشط النظام الرأسمالي، واخذت وكالات السفر تدعو الاميركيين « للمجيء الى اليابان على بواخر « ميتسوي »، التي بنتها مصانع ميتسوي، وعلى السفر بقطارات ميتسوي، وعلى التبضع من متاجر ميتسوي ». وبدأت وزارة التجارة الدولية والصناغة بعرض المنتجات الصناعية، ووضع خطة خمسية لتطوير صناعة الفولاذ التي اتاحت انشاء صناعة فولاذية « على ضفاف المياه »، ذات مردود انتاجي عالٍ ، وبناء السفن وفق التقنيات الاميركية القائمة على صناعة القوالب الكبيرة ولحمها آلياً. تعددت وجوه الاستعانة بالتقنيات الأجنبية، في صناعات النسيج الاصطناعي والسيارات. غير أن اليابان التي استعادت بعض مواقعها، ما زالت في بداية نموّها، على الرغم من « فورة الازدهار الكوري » التي اتاحت للصناعات الجديدة أن تنمو، وتوفّر للعائلات « ثلاثة كنوز » ثمينة هي التلفاز والغسالة والبراد. وفي عام ١٩٥٣، جرى اول بث تلفزيوني لشركة ن.ش.ك.، فكانت ضربة البداية لانتشار صناعة الالكترونيات التي شهدت تقدماً مذهلاً اعتباراً من ١٩٦٦.

لم تكن اليابان تمتلك الى الآن امكانات التمايز عن السياسة الاميركية.

مع ذلك، كانت تحلم بالحصول عليها : فقد عمدت الى بناء « قوتها الامنية » (لا جيش ولا شرطة) بناء على طلب البنتاغون، وشرعت في استئناف صناعة العتاد الحربي. وطرح على بساط البحث مصير القواعد الأميركية المتوافرة في الارخبيل باعداد كبيرة، اثر التظاهرات التي نظمها اليسار احتجاجاً على الاضرار الناجمة عنها. وجاء التحرك الاكثر عنفاً في آذار ١٩٥٤ ضد تجربة القنبلة النووية الاميركية في جزيرة بيكين، والتي ادّت الى مقتل الصياد اكيشي. فقامت « حركة السلام » بجمع ٢٠ مليون توقيع احتجاجاً على هذا الأمر. غير أن اليابان لا تملك من وسائل الضغط على السياسة العسكرية الأميركية سوى المطالبة باسترداد جزر كوريل من الاتحاد السوفياتي. وقد عانى رئيس الحكومة كيشي، الذي تسلم الحكم في العام ١٩٥٧، من الضغوط الشديدة التي مارسها اليسار، لا سيما بعد انشاء « مجلس الشعب » بغية محاربة مشروع معاهدة التحالف الجديدة التي أعدتها الولايات المتحدة. وارتدت التظاهرات طابع العنف والوحشية، وطلب كيشي الغاء زيارة ايزنهاور، عام ١٩٦٠، علماً بأن شروط المعاهدة كانت ملائمة لليابان (التي لم يعد يقع على عاتقها مساعدة الولايات المتحدة في النزاعات القائمة خارج اراضيها، فيما يأخذ الأميركيون على عاتقهم اعباء نفقات قواعدهم ويمتنعون عن التدخل في الشؤون الداخلية لليابان). وقف ١٥٠٠٠ متظاهر في البرلمان يهتفون : « لتسقط المعاهدة ». اخلت الشرطة القاعة افساحاً في المجال لاجراء التصويت عليها، لكن الاضرابات المتكررة وما تبعها من أعمال قمعية قامت بها الشرطة وادت الى مقتل الطالبة ميشيكو في ١٥ حزيران دفعت بكيشي للاستقالة في ٢٣ حزيران. واستمرت الاجواء ملبدة بالعنف، لدرجة ان طالباً من اليمين المتطرف اقدم على اغتيال الزعيم الاشتراكي اسانوما وجهاً لوجه امام التلفزيون ...

ساهم الفراغ في المحيط الهادئ والمصاعب الاميركية، في ازدهار اليابان بدءاً من ١٩٦٢. وغدت اليابان، في ظل ايكيدا، وجهود وزارة

التجارة الدولية والصناعة، بلداً مصدراً، ونجحت خطتها الرامية الى مضاعفة الدخل الوطني، وتجاوز معدل النمو في الستينات نسبة ١٢٪. وبين ١٩٥٥ و ١٩٧٠، ازداد الناتج القومي غير الصافي ثمانية اضعاف. وحققت اليابان تقدماً يوازي بسرعته ضعفي ما حققته فرنسا، وثلاثة اضعاف المانيا أو الولايات المتحدة. وعندما استقبلت اليابان دول العالم قاطبة في دورة الألعاب الاولمبية في طوكيو، عام ١٩٦٤، كانت حققت انتصارها. علاوة على ذلك، نجحت في تحرير مبادلاتها مع الخارج بنسبة ٩٢٪، الأمر الذي أتاح لها الافادة من الصورة الزاهية التي تكونت عنها لدى صندوق النقد الدولي. غير أن الادارة الاميركية مارست ضغوطاً هائلة عليها لازالة الحواجز الجمركية القائمة.

في الواقع، ظلّ اليابانيون يعتمدون سياسة الحماية ونجحوا، عبر تدابير شتى، في منع استيراد السلع الاجنبية. فتطورت الصناعة، في البداية، لتسد حاجات ١٠٠ مليون مستهلك كان مستواهم المعيشي يرتفع متزامناً مع القدرة على الادخار : عام ١٩٦٠، لم تكن الصادرات تمثل اكثر من ١١٪ من الناتج القومي غير الصافي، وكانت الشركات التجارية، « الشوشا »، تسعى مع وزارة التجارة الدولية والصناعية، الى فتح اسواق جديدة. انفتحت تلك الاسواق عندما تخصصت الصناعة في بعض المنتجات التي يشتد عليها الطلب العالمي : عند ذاك، اصبحت هوندا اول منتج للدراجات النارية، وفوجي لآلات التصوير الشمسي. بالمقابل، جرى التخلي عن صناعة الطيران والنسيج والمعلوماتية لصالح الالكترونيات المتطورة. اما المبدعون فقد حالفهم النجاح، فالميكانيكي الشاب هوندا شواشيرو غدا معبود الجماهير، والمثال الذي يحتذى، وكذلك الفيزيائيان ايبوكا وموريتا اللذين اخترعا آلة التسجيل لشركة سوني التي تأسست فيما بعد. تزامن غزو الاسواق الخارجية مع غياب الاميركيين نسبياً عن اسواق المحيط الهادئ، بسبب انشغالهم في حرب فيتنام.

كسبت اليابان رهانها، اذ استعادت موقعها كقوة اقتصادية كبرى، وتغلبت بسهولة على المحنة التي تسبب بها كينيدي ــ الذي اقدم على تهديد الين تحاشياً لسقوط الدولار. ومدت وزارة التجارة الدولية والصناعة يد المساعدة لصناعة الفولاذ في طور تمركزها، وكذلك الى جميع المصدّرين الذين عانوا من المضاربات المالية العالمية. اقام اليابانيون في المدن وعملوا في الانتاج الصناعي الذي بدأ التلوث الناجم عنه يطرح مشكلات خطيرة. اما ولادة الحزب اليميني المتطرف، « كومي »، الذي ينتمي في جذوره الى طائفة سوكا جاكاي البوذية، فلم تشكل مصدر قلق لرئيس الوزراء ساتو. واعتباراً من عام ١٩٦٥، استأنفت الصناعة نشاطها وتجاوز الناتج القومي غير الصافي المستوى الذي حققه الاوروبيون. وعام ١٩٦٨، اصبحت اليابان الدولة العظمى الثالثة، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وادّت حرب فيتنام الى زيادة الطلب الاميركي على السلع، الأمر الذي ضاعف من تشغيل الصناعة. واعتباراً من عام ١٩٦٥، بات الميزان التجاري مع الولايات المتحدة فائضاً، مع ان اليابان ما تزال دولة مصدرة بدرجة ادنى من الدول الاوروبية. خلال العصر الذهبي في الستينات، كانت الطبقة المتوسطة تدخر الاموال وتستثمرها، في ظل نظام ضرائبي لم يتجاوز ٢٦٪ من الناتج القومي غير الصافي (مقابل ٣٨٪ في فرنسا). وعقدت اتفاقيات عدة مع سيول، وادّت الى تدفق مئات الالوف من الكوريين الذين راحوا يعملوا في المهن الاكثر مشقة، فيما انطلقت المؤسسات اليابانية تستثمر اموالها على نطاق واسع في سيول، الامر الذي عجّل في النهوض الاقتصادي لهذا البلد الذي وقّع مع طوكيو اتفاق تعاون، عام ١٩٦٥. اعتبر ساتو نفسه من القوة بحيث يستطيع، في تلك السنة، المطالبة باسترداد جزيرة اوكيناوا، وهي قاعدة لوجيستية للاميركيين في حربهم مع فيتنام. بدأ الحوار مع واشنطن عام ١٩٦٧، واستمر لخمس سنوات، عادت الجزيرة في نهايتها الى اليابان. لم تكتفِ حكومة طوكيو بعدم مساعدة الولايات المتحدة في الحرب وحسب، بل افادت من

تورّطها فيها لتطلب اليها الانسحاب من تلك الجزيرة. وثمة مكسب آخر تحقق لها من اتفاقات عدم انتشار الاسلحة النووية والمعقودة في تموز ١٩٦٨ بناء لطلب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. فاذا تقيدت بها، اسوة بالاطراف الاخرى التي لم تمتلك بعد القنبلة النووية، لجهة « عدم صنع الاسلحة النووية او امتلاكها او ادخالها الى البلاد »، فانها ستحصل على مكسب معنوي ذي شأن : فهي لم تعد الدولة الوحيدة، مع المانيا، التي يشملها الحظر النووي. ولن تعاني بعد اليوم من التمييز في هذا الميدان وستنضم الى الدول التي لم تستثمر طاقاتها في التسلح النووي. واغتبطت للدعوة التي وجهت اليها للتخلي عن الذرة، في حين أنها لا تتمتع بحسب الدستور الذي أعده ماك ارثور، بحق امتلاك هذا السلاح. حين ستنهض الولايات المتحدة من تورطها الدامي والباهظ الثمن في فيتنام، ستجد امامها، في المحيط الهادئ، امبراطورية الشمس وقد استعادت بناء ذاتها بصورة رائعة.

توجّه المانيا نحو الشرق

في اوروبا، كانت المانيا الاسرع في النهوض. ففي ظل رعاية الدكتور اديناور والحماية الاميركية، حققت اول اعجوبة اقتصادية في القارة الاوروبية. وفي اجواء الهدوء السياسي وتعاقب الحزبين الرئيسيين على الحكم، انصرفت المانيا الى اعادة بناء صناعتها التي اتاحت لها ان تعود دولة مصدّرة كبرى. وهي مدينة في هذا النهوض السريع للمساعدة الاميركية التي راهنت، في البداية على نهضة المانيا بغية حماية اوروبا من الشيوعية، ولجو الوفاق الذي ساد عهد خروتشوف، اذ استطاعت الدبلوماسية الألمانية الشروع في انتهاج سياسة وفاقية مع موسكو، سرعان ما اثارت امتعاض وزارة الخارجية الأميركية. ذلك أن دالاس قد سعى الى اعادة بناء المانيا الغربية بغية ربطها بصورة وثيقة بالغرب، فاذا بنظرات بون

الى موسكو تثير غيرة واشنطن، كما اثارت ديسدمونا غيرة عطيل. وهي ستسأل اديناور كما فعل عطيل في مسرحية شكسبير : « هل صليتِ الليلة على نية خلاص الغرب ؟ » كان اديناور اول مسؤول الماني يركب الطائرة الى موسكو في محاولة تطبيع العلاقات بين البلدين. وقد تبعه آخرون، مدشنين نمطاً من المحادثات الثنائية التي ستشكل نقطة الضعف في حلقة التضامن الاطلسي.

اكتسبت هذه الزيارة اهمية خاصة لأن زعيم الحزب الديمقراطي المسيحي كان يحوز الغالبية المطلقة في البرلمان، وكذلك خلفاؤه في الحزب حتى عام ١٩٦٩. وقد اوعز لمحازبيه بوجوب محاربة الشيوعية. وبقي شعار « الالتصاق بالغرب » لفترة طويلة كلمة السر في السياسة الالمانية. وقد نجح الحزب الديمقراطي المسيحي في الحصول على توافق اجتماعي حول سياسة اعادة الاعمار التي انتهجها، بفضل تعاون النقابات العمالية، وتأييد ارباب العمل في كولونيا ومجموعة اكسيل سبرينغر الصحفية التي تصدر المطبوعة الشعبية « بيلدزيتونغ ». وتضم النقابات العمالية ثلث اليد العاملة المأجورة، وقد وافقت الأقوى بينها على الالتزام بالقاعدة التالية : على المنتسبين الى النقابة ان يحصلوا في كل مؤسسة على غالبية ثلاثة أرباع الأصوات وعلى موافقة ادارة النقابة قبل اعلان الاضراب. وقد ضمن هذا البند الاستقرار الاجتماعي لمدة طويلة.

من اجل « الالتصاق بالغرب »، وفقاً لرغبات جون فوستر دالاس، تلقى اديناور تأييد الكنيسة الكاثوليكية (٥٠٪ من الالمان). وغالباً ما ادّت مناهضة النازية الى تعزيز الايمان في صفوف الاسرة. وإذا كان الاشتراكيون مع البروتستانت، والحزب الديمقراطي المسيحي مع الكاثوليك فان الانتماء إلى الكنيسة يشكّل نوعاً من ضمان المواطنية. ووفقاً للتقليد، المتبع، تدوّن الديانة على سجل الهوية، وتتولى الدولة تأمين حاجات تلك الكنائس. وتلعب الكنيسة دوراً كبيراً في التعليم وتدعو

ناخبي الحزب الديمقراطي المسيحي للتصويت « اوروبياً » وضد الشيوعية. وظلّ الحزب الاشتراكي ماركسي النهج حتى عام ١٩٥٧، حين غدا اكثر اعتدالاً، بعد اقراره في « باد غوسبرغ » برنامجاً من شأنه استقطاب الطبقات المتوسطة؛ كما دعا الى مشاطرة رئيس بلدية برلين، ويلي براندت حرصه على القيم الوطنية ودفاعه عنها، بالرغم من الاتهام الموجه اليه بأنه هاجر الى النروج اثناء الحرب. في كل حال، خفف الحزب الاشتراكي في الستينات من لهجته ضد الشيوعية وراح يغازل الحزب الليبرالي الذي كان متحالفاً حتى ذلك الحين مع الحزب الديمقراطي المسيحي، والذي يكن العداء للكنائس والنقابات، ويضم في صفوفه الطبقة البورجوازية في المدن، كما يسعى رئيسه والتر شيل الى تسوية مع موسكو. وتشكل نسبة الاصوات التي يتمتع بها الليبراليون والبالغة ٥٪ رصيداً ثميناً للحزب الاشتراكي في مسيرته نحو السلطة. والمفارقة ان الحزب الديمقراطي المسيحي قد انتهى هو ايضاً الى البحث عن تطبيع علاقاته مع الشرق، تجنباً لانتقادات خصومه.

كان هذا التوجه الجديد ما يزال في الخمسينات والستينات قيد التجهيز والاعداد : اذ ان ٤٠٪ من الاستثمارات في المانيا هي اميركية، والتجارة الالمانية في معظمها تتوجه الى اميركا، حيث يشهد الميزان التجاري فائضاً مستمراً (في حين ان التوازن في الموازنة العامة يشكو الهشاشة من جراء ارتفاع كلفة البنية الفيدرالية ووفرة الادارات الحكومية). غير ان السياسة الاقتصادية ــ الاجتماعية التي اتبعها الدكتور ايرهارد، وزير المال، ادت إلى ارتفاع كبير في معدل النمو بفضل مضاعفة الانتاج اربع مرات بين عام ١٩٥٠ و ١٩٦٩. كانت المانيا تنتج بمعدل مرتين أكثر من فرنسا، وارتفعت الى المرتبة الرابعة بين الدول، بعد « الجبارين » واليابان. لقد عرفت، مثل اليابان، كيف تنوّع انتاجها، وتتراجع على جبهة الفولاذ والفحم الحجري، وتطوّر صناعات السيارات والكيميائيات. وتبسط امبراطورية سيمنس واي.ج. للصناعات الميكانيكية

والكهربائية على العالم الغربي كله. تخلت عن الاقتصاد القائم على الفحم واتجهت نحو الطاقة النفطية، وهي تطمح للتزود اكثر فأكثر منها من اوروبا الشرقية. لكونها اقل كلفة بفضل الانابيب التي تستعد المجموعات الصناعية الأربعة الكبرى ــ الروهر، مانيسمان، تيسين وكراب ــ لانشائها من الفولاذ. كما ان ايجاد سوق زراعية في اوروبا الشرقية يجنبها الشراء من الغرب، خصوصاً من فرنسا، باعتبار ان قيمة هذه المشتروات تشكل ٢٠٪ من الميزان التجاري. لكل هذه الاسباب، لم تكن سياسة الوفاق مع موسكو لتغري سوى الاشتراكيين الديمقراطيين. كذلك انضم اليها الليبراليون في الحزب الديمقراطي الحر. فمتى دور الحزب الديمقراطي المسيحي ؟

حتى عام ١٩٦٣، ابقى اديناور على تحالفه مع الغرب. واعتباراً من عام ١٩٥٥، صاغ « مبدأ هولستاين » الذي ينص على قطع العلاقات الدبلوماسية مع كل دولة تعترف بالمانيا الشرقية (لم تدخل الدولتان الالمانيتان الى الامم المتحدة الا في العام ١٩٧٣)، مع استمرار تفاوضه مع موسكو. كان اديناور من وجهاء كولونيا، وتسلّم زعامة الحزب الديمقراطي المسيحي في سن السبعين من عمره. وسبق له ان اثار شكوك جهاز الجيستاتو حول وطنيته، كما تعرض اثناء الاحتلال لمضايقات جنرال انكليزي اعتبره غير كفوء لادارة شؤون مدينته، في حين أنه شغل منصب رئيس بلدية كولونيا منذ ١٩١٧ وحتى ١٩٣٣، قبل أن يطرده النازيون منها. لكن وطنية هذا الرجل لم تطالها ابواق النقد بالرغم من الاتهام الموجه اليه بأنه جعل من المانيا « قزماً سياسياً » يسير في ركاب الجبار الاميركي. برأيه، لا يجب على المانيا أن تكون الولاية الواحدة والخمسين من الولايات المتحدة ». واذا كان اختار بون، عاصمة لالمانيا (لأنه كان يقضي فيها عطلة نهاية الاسبوع، على حد ما يقول خصومه)، فليس لأنه يفضل « واشنطن على برلين ». كان اديناور دبلوماسياً بارعاً ويمارس الصلاحيات الواسعة الممنوحة له بوصفه مستشاراً، لكنه كان

يعتقد ان المانيا لن تستعيد مكانتها كدولة عظمى، الا اذا ابرزت قوتها ضمن تشكيلة متكاملة وتحت حماية اميركا. وبذلك يمكن، ذات يوم ازاحة الستار الحديدي وملاقاة الاشقاء في المانيا الشرقية، بتحريرهم بالقوة عند الاقتضاء، من الوصاية الشيوعية. لهذا السبب، شجع اديناور اعادة تسليح بلاده وزودها بالاسلحة الاميركية دون سواها ــ مجازفاً بحياة الطيارين الالمان حين قرر اختيار المطاردات الاميركية من طراز ستار فيترز، وقد شبهت، لخطرها، « بالنعوش الطائرة ».

عندما اعتزل الحكم، في الرابعة والثمانين من عمره (عام ١٩٦٣) خلفه ايرهارد الذي لم يجد بديلاً من سياسته. بعد ايرهارد اصبح كورت جورج كيسينجر مستشاراً عام ١٩٦٦، على الرغم من ماضيه في النظام النازي (ست سنوات بعد عودة كيشي، معاون توجو في اليابان، الى الحكم). من خلال تشكيله « الائتلاف الكبير » مع الاشتراكيين حيث استبعد الليبراليون عنه. اما ويلي براندت المناهض للنازية فقد تولى حقيبة الشؤون الخارجية حيث انتهج سياسة المانية موالية لاوروبا الشرقية، وفقاً لما توقعه الجنرال ديغول.

فرنسا الديغولية، دولة نووية

شهدت فرنسا ازدهاراً كبيراً بفضل خطة مونيه ودعم مشروع مارشال. واتاحت سياسة الاستثمارات المتبعة في حقول التجهيز حصد ارباح عشر سنوات من التوظيف. اعادت اول خطة للتجهيز والتحديث عام (١٩٤٧ ــ ١٩٥٣) تكوين آلة الانتاج التي تجاوزت، اعتباراً من عام ١٩٤٨، بنسبة ٢٠٪ مستويات ما قبل الحرب على الرغم من الاضرابات. بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٢، لم يتدنَ معدل النمو السنوي عن ٥٪، فيما عززت الخطة الثانية عام (١٩٥٤ ــ ١٩٥٧) صناعات التجهيز، وتطوير مصانع التحويل والسلع الاستهلاكية. كذلك تضمنت الخطط

اللاحقة اهتماماً خاصاً بالاسكان وتطوير المناطق. اعتباراً من عام ١٩٦٣، وضع فاليري جيسكار ديستان، وزير المالية في حكومة جورج بومبيدو، خطة تهدف الى متابعة « التوسع ضمن الاستقرار الاقتصادي »، وايجاد التوازن في موازنة الدولة والتمويل الذاتي للمؤسسات واشراك الادخار الخاص في الاستثمار، و « تحرير » بعض القطاعات. تطابقت هذه السياسة مع توصيات صندوق النقد الدولي ورمت الى حماية الفرنك ضد مخاطر التضخم الناجم عن النمو، من دون ان يشكل ذلك عائقاً في وجه توسّع صناعات مميزة حققت فرنسا فيها تفوقاً مرموقاً وهي الذرة والفضاء وصناعة الطيران والسيارة. وهكذا حاز ديغول على مجموعة صناعية في عز توسعها. واستطاع كذلك الافادة من اولى النتائج التي حققتها مفوضية الطاقة النووية التي سبق له ان انشأها غداة الحرب العالمية الثانية.

سارت فرنسا على خطى بريطانيا، ولكن باستقلالية تامة، وعملت على تطوير صناعتها النووية بسرعة. وكانت خطط التجهيز التي اعدتها مؤسسة كهرباء فرنسا، قد ضاعفت من موارد الطاقة الكهربائية بفضل انشاء السدود في الجبال. كما جرى التطلّع الى انتاج الكهرباء من الطاقة النووية. وكان الانكليز، بعد الاميركيين، قد اطلقوا، في الخمسينات برامج بناء مفاعلات نووية. وقد اشترى الايطاليون واليابانيون منها عام ١٩٥٨. وكان صانعو المفاعلات النووية الاميركيون الذين موّلوا بناء الغواصات، يسعون الى تثمير ابحاثهم عن طريق تجهيز اوروبا والعالم كله : المانيا والهند وبلجيكا. غير أن شركتي جنرال الكتريك وويستنكهاوس شكلتا مجموعة ضاغطة بات بوسعها، اعتباراً من عام ١٩٦٥، ان تعرض في الاسواق مفاعلات باسعار ادنى، مستخدمة طريقة انشطار اليورانيوم، والتي كانت الولايات المتحدة وحدها قادرة على انجازها. وكانت تتوقع، بهذه الوسيلة، عام ١٩٧١، تزويد الاميركيين بمعدل ١٠٪ من استهلاكهم للكهرباء. وكانت المانيا واسبانيا والهند واليابان تتنافس على التزود بهذه المفاعلات التي كانت تستطيع الولايات المتحدة التحكم باسعارها على

هواها. وكانت فرنسا قد انشأت في ماركول ثم في شينون مولدات تعمل باليورانيوم الطبيعي. اما الاميركيون فقد باتوا يمتلكون المصادر الرئيسية لهذا المعدن الثمين وحظّروا على الكنديين والبريطانيين اعادة بيع اليورانيوم لاغراض عسكرية. وشهد السوق النووي ازدهاراً مذهلاً وغدا احدى الاوراق الرئيسية التي يمتلكها الاميركيون لاحكام سيطرتهم الاقتصادية.

في ظل هذه الأوضاع، بات تحقيق البرنامج العسكري الذي اقرته حكومة غي موليه الاشتراكية في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٦، اكثر صعوبة واغُلى كلفة لفرنسا. وكان عليها ان تتوقع ليس فقط حرمانها من مساعدة واشنطن في هذا المجال، بل مناوأتها لها ايضاً. فهي عندما تصبح قوة نووية، سوف تعكر ليس فقط صفو الاجواء داخل الحلف الاطلسي، وستفتح الباب أمام احتمال مطالبة الدول الاخرى معاملتها بالمثل، بل ستنافسها في انتاج وبيع المفاعلات النووية ايضاً. وقد استتبع رفض الولايات المتحدة لاقتراح ديغول القاضي بتشكيل هيئة مثلثة للاشراف على شؤون الذرة في اطار حلف الاطلسي، رفضاً آخر تمثل بعدم بيع فرنسا مادة اليورانيوم ٢٣٥ اللازمة لغواصتها قيد الانشاء. عند ذاك، ابلغ ديغول منظمة حلف الاطلسي، في آذار ١٩٥٩، ان البحرية الفرنسية ستبقى في المتوسط تحت امرة القيادة الوطنية اثناء الحرب، الامر الذي شكل خطوة اولى نحو الانسحاب من حلف الاطلسي.

في ايار، اجاز الكونغرس بيع فرنسا نصف كمية اليورانيوم التي طلبتها. في غضون ذلك، اقام الاميركيون في دول حلف الاطلسي « شحنات ذرية » تعمل بنظام المفتاح المزدوج. رفض ديغول الدخول في هذه اللعبة وحدد في ٣ تشرين الثاني ١٩٦٠، مفهومه للسياسة الدفاعية المستقلة التي تضمنت انشاء « قوة ضاربة » ذرية. في ١٣ شباط ١٩٦٠، جرى تفجير اول قنبلة فرنسية في ريغان، في الصحراء، ثم تبعتها تفجيرات اخرى، وهي تفجيرات تحت الأرض في هوغار حتى العام ١٩٦٥، وفي جزر

غامبيه في المحيط الهادئ. وكانت حكومة دوبريه قد اقرت قانون برنامج لصناعة الاسلحة والطائرات الاسرع من الصوت من طراز ميراج ٤، وصواريخ وغواصات يتوقع انجازها عام ١٩٧٠. كما بوشر بانشاء مصنع للانشطار النظيري الذي ينتج اليورانيوم ٢٣٥، في بيارلات قرب ماركول. وقد انجز بناؤه عام ١٩٦٧، بكلفة مرتفعة بلغت ٥ مليارات فرنك. وحدها فرنسا، بين الدول الاوروبية الست، استطاعت امتلاك الوسائل التي اتاحت لها التخلص من نظام الدفاع الاميركي الجماعي. وقد استخلص النتائج المناسبة من ذلك في ٧ آذار ١٩٦٦ عندما أعلن قراره بطلب انسحاب القوات الاميركية المتمركزة في فرنسا. وبذلك تخلى ديغول عن القيادة المتكاملة للحلف الاطلسي، مع الابقاء على تحالفه مع اميركا. وفيما اخلى الاميركيون قواعدهم قبل عام ١٩٦٧، بقي الجنود الفرنسيون متمركزين في المانيا، بموجب اتفاق خاص، وبامرة قيادة وطنية. هذا التغيير في السياسة الدفاعية لا يعني البتة انسحاباً من السوق الاوروبية المشتركة حيث يتوجب على فرنسا دعم مصالحها الزراعية بقوة.

شكّل الانسحاب من الحلف الاطلسي مقدمة لمنعطف دبلوماسي خطير. فلم تردّ اميركا على الفور، لانشغالها بحرب فيتنام.

في غضون ذلك، كانت اوروبا منقسمة الى ثلاثة محاور : بريطانيا الأمينة الى « تحالفها المميز » والشريك السياسي الحقيقي الوحيد لواشنطن، وفرنسا الديغولية المتهمة بانحرافها الحيادي، والمانيا ويلي براندت، وهي القوة الاقتصادية الاولى في القارة الأوروبية، والمنافسة للاميركيين في عدة مجالات صناعية فضلاً عن تحوّل نظرها باطراد نحو اوروبا الشرقية.

« الحياد » الديغولي وحرب الايام الستة.

كانت للروح الاستقلالية الفرنسية نتائج دولية فورية، كما لو أن ديغول قد اضطلع بمهمة ارباك اللعبة الاميركية في كل مكان من العالم : بعد ثلاثة اشهر من اعترافه بالصين الشيوعية، لقي في المكسيك، في آذار ١٩٦٤، استقبالاً حافلاً اثار امتعاض وزير الخارجية الاميركي دين راسك. في نيسان، اثارت تصريحات المندوب الفرنسي في مجلس منظمة جنوبي شرقي آسيا حول تحييد فيتنام الجنوبية، سخط البنتاغون. كما ادى رفض انشاء القوة المتعددة الاطراف في اوروبا الى القاء البلبلة في صفوف شركاء اميركا الاوروبيين، لدرجة ان المشروع اهمل عام ١٩٦٥، امام اعتراضات الالمان والايطاليين. وفي مؤتمره الصحفي في ٢٣ تموز ١٩٦٤، صرح ديغول : « ان انقسام العالم الى معسكرين بزعامة كل من واشنطن وموسكو، لم يعد يتطابق تماماً مع الواقع الدولي الراهن ». في تموز ١٩٦٦، ارتجت جدران القارة بالهتافات اثناء زيارته للعاصمة السوفياتية، حين اعلن : « عاش مجلس السوفيات في موسكو ». ذلك ان بداية التعاون الاقتصادي والفضائي والعلمي بين فرنسا والاتحاد السوفياتي قد اقلقت واشنطن التي تساءلت عما اذا كانت جميع الدول الاوروبية لن توقع كذلك اتفاقيات ثنائية مماثلة. وادّى الاعلان عن اكتشاف حقول هامة من الغاز والنفط في الاتحاد السوفياتي، الى اثارة شهية هواة الطاقة باسعار متدنية سيما وان ازمة جديدة بدأت تسفر عن وجهها في الشرق الأوسط.

عندما ادان الجنرال ديغول، في ٣١ آب ١٩٦٦، في بنوم بنه، التورط العسكري الاميركي في فيتنام، جرى التساؤل عمّا اذا كان سيتخذ موقفاً من النزاع العربي الاسرائيلي. حتى ذلك الحين، كانت سياسة فرنسا اكثر انحيازاً لاسرائيل، وشهدت فترات من النجاح والفشل، والكثير من التردد، لحرصها على مداراة الرأي العام العربي. عندما شنت اسرائيل الحرب،

صباح ٥ حزيران ١٩٦٧، اعتبرها ديغول بمثابة المعتدي، ولم يتردد عن إعلان ذلك في وقت لاحق.

يندرج هذا التصدع في الموقف السياسي الفرنسي التقليدي، في اطار نظرة شاملة : فالجنرال يقف في وجه الاميركيين الذين يساندون اسرائيل ويحلم بقيام تحالف بين العالم العربي ومجموعة المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا حيث ابقت فرنسا على بعض القواعد الاستراتيجية فيها. وترتكز هذه السياسة العالمية على دول في معظمها اسلامية، فالجزائر التي توافق على اجراء التجارب الفرنسية في الصحراء، وتونس التي تشرف على الممر الاستراتيجي في بيزرت بين شطري البحر المتوسط، وسوريا ولبنان حيث عانى ديغول من السياسة البريطانية ابان الحرب، ويحلم باعادة وصل ما انقطع من العلاقات الفرنسية. غير ان اسرائيل تعرقل تحقيق هذا الهدف الكبير. عند ذاك، اطلق ديغول لعنته بوجه الصهيونية، وضد « شعب من النخبة، متسلّط وكثير الاعتداد بنفسه ».

في الواقع بدت حرب الايام الستة نتيجة سياسة انتقامية لعبد الناصر الذي تسلّح بصداقاته العديدة في الامم المتحدة (التي بلغ اعضاؤها، منذ ١٩٥٧، ٨١ دولة، بينها ٤١ كانت مستعمرات سابقة). وطلب من الامين العام يوثانت سحب قوات الامم المتحدة، القبعات الزرق، التي كانت تضمن للاسرائيليين حرية الملاحة في خليج العقبة. وبعد فترة وجيزة، منعت سفنه البواخر الاسرائيلية من عبور القنال، فارضاً الحصار عليها. فتوقفت التجارة الاسرائيلية. في الوقت ذاته، تزايدت العمليات العسكرية على الحدود، واسقط الطيران الاسرائيلي ست طائرات سورية من طراز ميغ ١٥، على ضفاف بحيرة طبريا. عند ذاك، وقفت موسكو الى جانب سوريا، واتهمت اسرائيل بتعقيد الوضع مع دمشق. عبثاً طالب رئيس الوزراء الاسرائيلي اشكول، السفير السوفياتي بملاحظة الحشود العسكرية على الحدود السورية، فرفض هذا الأخير تصديقه. وراحت الدول العربية تعدّ عدة الحرب.

تسلّم عبد الناصر المهمّة، ونجحت الدبلوماسية المصرية في اثارة موجة من التأييد والحماس في اوساط الدول العربية حول « الريّس » ونظيره السوري. وساد الاعتقاد في العالم العربي في احتمال التغلب على اسرائيل بفضل التأييد السوفياتي وانشغال الاميركيين عن شؤون هذه المنطقة في حربهم في فيتنام. وتلقى عبد الناصر مزيداً من الاسلحة والخبراء السوفيات. جال ايبا ايبان، وزير الخارجية الاسرائيلية، على العواصم الغربية للحصول على المساعدة. من دون جدوى. وعلم في ٣٠ ايار، ان الملك حسين الذي كان يعتبر موالياً للاميركيين، قد وضع « جيشه العربي » بامرة القيادة المصرية. عرض العراقيون ارسال وحدة عسكرية فيما اكدت دوَل المغرب دعمها لمصر وسوريا. اتخذت الدعاية العربية طابعاً عدوانياً، الى جانب الخطب الداعية للحرب في المساجد، والاناشيد العسكرية في الاذاعات. عندما شكّل اشكول حكومة اتحاد وطني تضم بطل الحرب السابق موشي دايان في وزارة الدفاع، وكذلك ممثلين عن اليمين مناحيم بيغن، ويوسف سابير، بات واضحاً ان الحرب وشيكة.

انطلق سباق التسلح في المنطقة اثر توقيع عبد الناصر والاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٥ اتفاقاً لتزويد مصر بالاسلحة. واظهرت الاحصاءات ان الميزان لغير صالح اسرائيل التي لم تكن تمتلك سوى ٢٩٠ طائرة مقابل ٤٣١ لمصر و ٧٨ لسوريا و ١٥٠ للعراق و ١٨ للاردن. فيما خص الدبابات، كان الاختلال فاضحاً : ٨٠٠ دبابة لاسرائيل مقابل ٢٤٠٠ للعرب. ولن يكون لاسرائيل اي حظ بتحقيق النصر فيما لو تركت جيوش العدو تكمل انتشارها. ولم يبقَ لها سوى اتباع خطة « الاخوة كورياس »، اي استباق الضربة وشن الهجوم المباغت على الجبهات الثلاث ودحر الجيوش العدوة الواحدة بعد الاخرى. في ستة ايام، انتهى كل شيء. جرى تدمير الطائرات العربية في قواعدها، واستولت دبابات دايان على صحراء سيناء، اثر معركة كبرى على الطراز القديم. كما

احتلت قطاعي غزة وشرم الشيخ. في ٩ حزيران، بلغ عدد الاسرى المصريين ١٢٠٠٠ رجل. وطرد الجيش الاردني من القدس بعد معارك شرسة في شوارعها. وجرى احتلال الضفة الغربية من نهر الاردن في ٧ حزيران مساء. بقيت سوريا التي تمسك بقوة بهضبة الجولان، وقد تمت السيطرة عليها في ٩ و ١٠ حزيران بعد معارك دامية. ودخل جيش الدفاع الاسرائيلي منطقة القنيطرة، على بعد ٦٠ كلم من بيروت.

عام ١٩٦٧، لقيت اخبار هذه الانتصارات اصداء سيئة في الامم المتحدة والعواصم الدولية. طالب مجلس الامن بوقف النار الذي دخل حيز التنفيذ على الجبهات الثلاث. اما الاميركيون الذين ساعدوا اسرائيل بشكل محدود على الصعيد العسكري، فقد تدخلوا في المعركة الدبلوماسية في وجه المشروع السوفياتي الداعي للانسحاب من الأراضي المحتلة. كما ان ديغول ــ الذي سبق له ان فرض حظراً على تسليم الاسلحة التي سبق لاسرائيل ان طلبتها ودفعت ثمنها ــ منع تصدير قطع الغيار واتهم الدولة العبرية بشنها حرباً عدوانية. ادّى فشل المناورة السوفياتية الى بقاء اسرائيل في مواقعها، والى نزوح ٢٠٠٠٠٠ فلسطيني اضافي للاقامة في المخيمات الاردنية والمصرية. بدل ان ينفرط التضامن العربي، اذا به يقوى ويشتد في قمة الخرطوم التي انعقدت في آب. فقد ادى النصر الاسرائيلي الجديد الى بروز حركة المقاومة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. الى جانب مشكلة اللاجئين، سيكون للعرب، بعد الآن، سبب آخر للظهور باستمرار على المسرح الدبلوماسي، من خلال اشتداد العمليات الهجومية على الحدود، وتنامي الارهاب الدولي. مرة اخرى اثبت الجباران أنهما، اذا كانا مجبرين على خوض الحروب الاقليمية، فلا يعرفان كيف يجدان الحلول لها. وبات واضحاً منذ الآن ان ثنائية حكم العالم قد سقطت، اذ لم يعد ممكناً رصد تحرك الدول في العالم، ولا الحلم بالسيطرة الشاملة عليها بواسطة السلاح النووي، والمستقبل يتجه الى حالة من تفكك المجموعات الكبرى.

١٩٦٨

ادّى انهيار الثنائية السوفياتية ــ الأميركية الى تفجر سلسلة من الأزمات في العالم، انطلاقاً من بؤر ملتهبة أثارت الشكوك لدى الطرفين. فقد عمت الفتنة الاوساط الطالبية في بركلي ثم انتقلت عبر المحيط الهادئ الى اليابان، ثم استخدمت النموذج الصيني لتشمل الشرق الاوسط في عباءة عربية باسم القيم الاسلامية الديمقراطية. في اوروبا، شهدت كل العواصم الكبرى حركات تمرد من دون بلوغ حالة الثورة التي تجعل آلة الدولة في حال عجز عن مواجهتها لفترة قصيرة. هذه الحركة الغامضة والعنيفة معاً انطوت هنا وهناك على نوع من التواطؤ غير المتوقع والعرضي، لكنها كانت عاملاً مسانداً للحركة الكاستروية في اميركا اللاتينية.

هل كان لهذه الحركة من العصيان والتمرد وجه ايجابي ؟ في الواقع، لم تهدد هذه الحركة النمو الاقتصادي في الغرب الذي استأنف مسيرته « المظفّرة »، كما لم يلحق بالدول الاشتراكية الكثير من الضرر من جراء تعرضها لعملية القمع الدامي في ربيع براغ، وشح المياه في الانهر الصيفية الكبرى الراكدة في المجاري التي رسمتها لها الماوية. وترافقت، في ظل تشنجات الحرب في فيتنام، مع تراجع محسوس لاميركا التي عانت، لأول مرة منذ عام ١٩٤٥، من فوضى مالية عارمة. غير ان غزو القمر، عام

١٩٦٩، والسلسلة المتوالية من برامج ابولو، أتاح لها تقدماً تكنولوجياً سريعاً كان من شأنه طرح العلوم نفسها على بساط البحث. واشار العالم الكيميائي ايليا بريغوجين الى ان « الكون ليس وحدة سكونية بل نظاماً يتطور باستمرار ». وقد نجم عن اكتشاف التكنولوجيات الجديدة بوتيرة متسارعة، خلل في التوازن العالمي من جراء تزايد تخلف الدول الفقيرة عن الاكثر غنى. واضحى السباق نحو التقدم ضرورة ملحة تفسّر الاعصارات التي هبت خلال عام ١٩٦٨، حاملة تباشير الازمنة الجديدة القادمة. وجاءت ازمة النفط عام ١٩٧٣، لتزيد من وتيرة التغيرات المرتقبة.

التقدم التكنولوجي الاميركي

لم يسبق ان بلغت اميركا هذا المستوى من الغنى الذي حققته عام ١٩٦٨، ففي عزّ حرب فيتنام حين كانت الموازنة الفيدرالية تشكو من عجز فادح، كان نظام الانتاج والترسمل يحقق نجاحاً باهراً، وجاء انتخاب ريتشارد نيكسون، في تشرين الثاني، بعد فاصل زمني طال مدة ولايتي كينيدي وجونسون، ليشير الى ان القابضين على زمام الامور في الحزب الجمهوري ينوون حث الرئيس الجديد على الاهتمام بضبط الايقاعات السياسية والاجتماعية على ساعة الزمن الجديد واعادة ترتيب شؤون البيت الداخلية.

وكان الامتلاك السياسي والمالي « للفورة » النووية قد اتاح تخطيطاً واسعاً لتجهيز البلاد بالطاقة النووية وتزويد بقية العالم بالمفاعلات والوقود النووية بدون منافسة تذكر، كما ترافق مع سيطرة واسعة لمبيعات الاسلحة التي بلغت قيمتها من ٤ الى ٦ مليارات دولار في السنة، وحسومات للدول المستوردة وصلت نسبتها الى ٥٠٪ وزّعت بشكل مساعدات عليها. وجاء انتشار الشركات النفطية الكبيرة ليرفع من ارباحها باستمرار.

ولم تكن السياسة التي اتبعها بعض الدول الاوروبية (المكتب الفرنسي للابحاث النفطية وما يماثله في ايطاليا) لتقلق الاميركيين الذين كانوا يبحثون عن مناطق انتاج اقل كلفة، ويقفلون على الآبار الهامشية القائمة في ارضهم ويضاعفون حجم المبيعات عارضين في الاسواق كميات ضخمة من الفيول المترسب الثقيل. وقد حلّ هذا النوع من الفيول، بسبب سعره المتدني، محل الفحم شيئاً فشيئاً في محطات التوليد الكهربائية. خلال عشر سنوات، تضاعف استهلاك المجموعة الاوروبية مرتين، وزوّد النفط اليابان بنسبة ٧٠٪ من طاقتها. ووجدت الدول المستوردة ــ وفي طليعتها الولايات المتحدة ــ من مصلحتها تزويد الصناعة بطاقة اقل كلفة، بحيث ارتفعت ارباح الشركات التي كانت تراهن على الكميات المسلّمة في زيادة تلك الأرباح. اما الحظر النفطي الذي اعلنته الدول العربية، عام ١٩٦٧، فلم تنجم عنه آثار طويلة الامد، وبقيت السيطرة الاميركية على النفط في الشرق الأوسط كما في فنزويلا، بين أيدي شركاتها.

كذلك احكمت الولايات المتحدة سيطرتها على انتاج الادوات الآلية والسيارات والمحركات. فجهزت الاساطيل الجوية في العالم كله بطائرات « جيت » من شركة « بوينغ ». والجنرال موتورز التي تستخدم ٧٣٠٠٠٠ موظفاً اعلنت عن ارباح توازي مجموع مبيعات شركة اوروبية ضخمة مثل « رينو » التي تعد ٥٠٠٠٠ مستخدماً. تلك هي عظمة اميركا !

تحقق المنعطف التكنولوجي بفضل الذرة والفضاء اللذين يتغذيان من « المادة السنجابية » والابداع. وقد تبين ان « الذهب السنجابي » ذو مردود اكبر حين يجب تصميم الادمغة الالكترونيكية الضخمة لبرمجة اطلاق برنامج ابولو. منذ عام ١٩٥٠، تضاعفت سرعة احتساب هذه الآلات عشر مرات، كل عشر سنين. وبلغت كلفة ارسال الانسان الى

القمر (تموز ١٩٦٩) ٣٠ مليار دولار. وحشدت « النازا » طاقات ٢٠٠٠٠ مؤسسة واشترطت عليها خلق ابتكارات جديدة في حقول « علم التوجيه » و « التسيير الآلي » وجمع المعلومات باستخدام التقنيات اللاسلكية والمعلوماتية. حتى عام ١٩٧٠، لم تكن السيطرة الاميركية في صناعة الاتصالات تلقى اية منافسة. وساعدت الاقمار الاصطناعية على مضاعفة القدرة على نقل الاتصالات الهاتفية بشكل خارق. واعتباراً من عام ١٩٥٥ عمّ سوق الترانزيستور العالم كله. كذلك انتشر شبه الموصل في الاسواق لدرجة ان الانتاج الاميركي بلغ عام ١٩٦٥ ٦٠٠ مليون وحدة. واتاحت براءة « الحلقة المتكاملة » لشركة تكساس انسترومانت صنع ٦٠٠٠٠٠ نموذج، عام ١٩٧١. وتم انتاج الجهاز المصغّر للناظمة الآلية بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠، وامنت الولايات المتحدة نسبة ٥٥٪ من الانتاج العالمي لعام ١٩٧٠. واجتاحت العالم آلة التسجيل بالكاسيت التي اخترعت حديثاً وكذلك البولارويد. كما انشأت شركة اي.تي.اند تي. اول محطة الكترونية عام ١٩٦٥. وعام ١٩٦٠، اطلق « ايكورا » القمر الصناعي للاتصالات الذي مهّد الطريق امام « تلستار » « وسنكوم » وسواه من « انتلسات ». كذلك أمّن ايرلي بيرد الخدمة التجارية بواسطة القمر الصناعي. وانتجت شركة أي.بي.ام.، عام ١٩٦٤، ثالث جيل من الادمغة الكترونية مستخدمة الحلقات المتكاملة. ويوجد في اميركا الشمالية اكثر من ٣٠٠ مليون جهاز راديو، ويمتلك كل اميركي من اصل اثنين جهازاً تلفزيونياً. وفي عام ١٩٦٢، وضعت النازا في المدار الخارجي « تلستار ١ » الذي اتاح نقل الصور الاميركية الى اوروبا. واستمرت هيمنة الولايات المتحدة في مجالات الاتصالات اللاسلكية الفضائية، ساحقة وشاملة.

ما كانت هذه القدرة التكنولوجية ممكنة لولا التراكم الضخم للرساميل الاميركية. منذ أن استخدمت المجموعات الصناعية الكبرى صيغة « التكتل » القانونية التي اتاحت تجنّب التشريعات التي تحظّر صيغة

التكتلات الاحتكارية (التراست)، وعمدت الى توظيف رساميلها في الصناعات الجديدة. من جهة اخرى، ساعد انشاء الشركات المتعددة الجنسيات على التوظيف في الفروع القائمة في بلدان تتميز بتدني كلفة اليد العاملة والاعباء الضرائبية. وهكذا انتشرت شركات بون دي نيمور وفورد وأي.بي.ام في العالم، وانشأت لها فروعاً تجارية تتدفق من خلالها المنتجات الاميركية الى البلدان المستوردة. واصبحت هذه الشركات المتعددة قوة سياسية في الخارج وشهدت نمواً كبيراً بلغ ضعفي النمو الذي عرفته الشركات العاملة في الولايات المتحدة نفسها. ففي حين كانت تلك الشركات الاميركية تعد عام ١٩٥٠، ٥٠ فرعاً في العالم، بلغ تعدادها، عام ١٩٦٧ حوالي ٣٠٠، وما زال في ازدياد مطرد. تمكّن الاميركيون، بفضل هذه الشركات الضخمة من السيطرة على نصف الانتاج الصناعي الاوروبي والذي يرتبط بالتالي ارتباطاً وثيقاً بالوضع الاقتصادي فيما وراء الاطلسي. اثرت توظيفات الرأسمال الاميركي ارباحاً بلغت ١٢ مليار دولار، عام ١٩٧٠، واكثر من ٨٠ مليار في السنوات الخمس اللاحقة. وازداد الربح الصافي للشركات الكبرى الخمسين بمعدل ١٢٪ في السنة. ولم تتسبب الحركة النقابية المعتدلة، التي تخضع لقانون تافت ــ هارتلي الصادر عام ١٩٤٧، باية ارباكات تذكر، للانتاج. فالارتفاع المستمر للاجور ولمستوى المعيشة والحفاظ على احتياطي واسع من العاطلين عن العمل، ساعدا على توفير استقرار اجتماعي ساهم احداث الوظائف الجديدة كل سنة في ترسيخه : فالنازا وحدها تستخدم ٢٣٠٠٠٠ باحث وتقني، فضلاً عن صناعة الالكترونيات التي كانت تستحدث الوظائف الجديدة باستمرار. وفي العالم كله، يجري البحث عن « الذهب السنجابي » (الأدمغة) واستيرادها باسعار مرتفعة. والولايات المتحدة هي الاولى بين الدول التي تستقطب الادمغة في العالم.

٣٠ مليار دولار كلفة الرحلة الى القمر، و ٥ مليار متوسط المساعدات المقدمة للعالم الثالث و ٢٥٠ مليار لموازنة الدفاع : والبلاد

تتساءل : ما الفائدة من الوصول الى حافة الافلاس في سبيل البقاء بكل الوسائل في كل مكان ودائماً في الطليعة ؟

« الاسوَد الجميل »

بدأت الاضطرابات، في بيركلي، في حرم الجامعة، اعتباراً من عام ١٩٦٤، من دون مضاعفات سياسية، وكانت نتيجة خيبة امل في اوساط الطلبة المتحدرين في معظمهم من الطبقات المتوسطة الجديدة، طبقات الازدهار والفورة الاقتصادية. وعبّرت خيبة الامل عن نفسها برفض النموذج الابوي والترقي الاجتماعي والمهني، واحتقار الرفاهية والفعالية والحيوية، والنهاية السعيدة لافلام هوليود وحفلات الرقص في عطلة نهاية الاسبوع. وحلّت محل كل ذلك الرغبة بالسير على القدمين وركوب الدراجة وارتداء اللباس البسيط، كالجينز وتي ـــ شيرت، فيما ريح المحيط الهادئ يلاعب الشعر الطويل المتهدل على الوجه والكتفين ... الى رفض المحرمات الدينية والاجتماعية، والمناداة ليس فقط بالمساواة بين الجنسين، بل بمشروعية الشذوذ الجنسي والاجهاض وحبوب منع الحمل والحرية التامة في كافة الميادين. واستلهم البحث عن فضائل اللاعنف تقنيات الاعتصام ومسيرات الاحتجاجات التي ابتكرها العبيد لتحدي قوات الشرطة. ضاق المسؤولون في الجامعات ذرعاً بما يجري، فتركوا الفوضى تنظم نفسها وهي لم تتجاوز في تلك السنة حدود الساحل الغربي، الاقرب الى فيتنام.

في السنوات اللاحقة، ادى تسارع وتيرة المجهود الحربي الى توجيه التظاهرات في اتجاهين : الاحتجاج السلمي والتضامن مع انتفاضة الزنوج. وادّى رفض قبول الزنوج في جامعات الجنوب الى تفعيل الحركة الطالبية واعطائها شيئاً فشيئاً هدفاً واضحاً : الدفاع عن حقوق الانسان. واخذت المواضيع الرئيسية التي طرحها « اليسار الجديد » على نحو غامض،

تتبلور بوضوح في اطار « رابطة » الطلاب من اجل مجتمع ديمقراطي ».

مهما كانت عليه الاضطرابات العرقية من عنف، فانها لم تكن مماثلة لما جرى من اضطرابات عامة شملت الجامعات في الغرب، ثم كافة الجامعات في الولايات المتحدة اعتباراً من عام ١٩٦٧. كان هناك اكثر من ٤٠٠٠٠٠ رجل، بينهم نسبة مهمة من الزنوج، يقاتلون في فيتنام. وجاء اغتيال مارتن لوثر كينغ ليضع النار في البارود، بعد سلسلة طويلة من أعمال العنف (واتس، عام ١٩٦٥ : ٣٤ قتيلاً؛ كليفلاند وشيكاغو، عام ١٩٦٦؛ نيويورك، عام ١٩٦٧: ٨٠ قتيلاً و٧٠٠٠ جريح) التي أكدت ان حركة الزنوج قد تخلت عن الاعتصامات والمسيرات الصامتة لتلجأ الى مواجهة السلطة وتتحداها. اما انصار اللاعنف المتمثلين بلوثر كينغ، والذين كانوا يطالبون بالاندماج بالمجتمع، فقد أخلوا الساحة للارهابيين والحالمين الذين اعتنقوا الاسلام احياناً مثل الملاكم الشهير كاسيوس كلاي الذي اصبح اسمه محمد علي. كان هؤلاء المسلمون الزنوج ينتمون الى « جوامع الاسلام » الاولى التي بنيت خلال الحرب العالمية الاولى في شيكاغو. وكانت هذه الجوامع، عام ١٩٦٨، موجودة في كل ولاية من اصل اثنتين، وكان زعيم الاسلام السود، نجل قس معمداني جيورجي ويدعى اليجاه محمد، ويجتذب المهتدين الجدد من بين المسيحيين بعد اخضاعهم لشعائر دينية معينة، وكان الاخوة يبدلون اسمهم ويتعارفون من خلال اسمهم الاول الذي اضيف اليه حرف X الذي يعني « العبد السابق ».

نشر « الفهود السود » الذعر والارهاب في حي « هارلم » او في « واتس »، وهو حي الزنوج في لوس انجلوس، كما في واشنطن أو شيكاغو. وتعلموا في « جامعة الاسلام » ان « الاسود جميل »، وان المغني بول روبسون سوف ينضم في جنّة الحوريات السود، الى جيمس براون، ملك « موسيقى الروح » وبيتل جون لينون الذي لاحقته كاميرات

التلفزيون فاعتكف مع زوجته طيلة اسبوع كامل في غرفة في احد الفنادق، احتجاجاً على اعمال القمع ضد الزنوج. منذ ذلك الحين دخل التنديد بالتمييز العنصري في اغاني استعراض « شوبيز » والالعاب البهلوانية.

كما دخل ايضاً في عمليات التحدي والاستفزاز : ذلك ان « الفهود السود » انشأوا فرقاً قتالية تدربت على حرب العصابات في المدن، على يد الجيش السري « ثمار الاسلام ». فمجموعة « الماو الماو » (التي اتخذت اسمها من ثوار كينيا في الخمسينات) تأثرت بالزنجي ستوكلي كارنيكايل ووضعت يدها على الاذاعة التي قدمها لها كاسترو واخذت تدعو إلى الثورة. وأحدثت تشويشاً وبلبلة في واشنطن حين طالبت الكنائس وكنيس اليهود بالمال تعويضاً عن سنوات الاستعباد. كما حوّلت مقر « لجنة تنسيق حركات اللاعنف بين الطلاب » الى مركز تعبئة للارهابيين والمحرضين الذين راحوا يتظاهرون امام البيت الابيض منادين بأن القتلى الزنوج في حرب فيتنام كانوا بنسبة واحد على ثلاثة بينما نسبة البيض الاميركيين هي واحد على تسعة فقط. فلماذا لا يرفعون راية كاسترو اوهوشي منه ؟ لا يهدف « الفهود السود » الى الاندماج في الحياة الاميركية بل الى رفضها والى الانفصال عن البلاد. ترددت اصداء هذه الاحداث عام ١٩٦٨ في الجامعات التي كانت تضم مئات الالوف من الطلاب بحيث بدا طلابها كأنهم مواطنون في « جمهورية سوداء ». صحيح ان الطلاب السود، في معظمهم كانوا يشجبون تجاوزات مجموعة « الماو الماو »، لكنهم كانوا يحلمون بالحصول على نسبة ١١٪ من الوظائف في الادارات الحكومية والاعمال والجامعات والجيش والهيئات السياسية : انهم يريدون مكانهم تحت شمس الازدهار الاقتصادي القائم.

بعد موت مارتن لوثر كينغ، سيطر الفهود السود على واشنطن :

فانتشرت عصابات منظمة في الشوارع القريبة من البيت الابيض ونهبت احياءها واضاءت الحرائق ليل المدينة. نظم الجيش والحرس الوطني دوريات بالسلاح والدروع، وسقط ٣٠ قتيلاً واعتقل ٢٠٠٠٠. فرافق حشد من ١٠٠٠٠٠ شخص نعوش الضحايا التي وضعت على عربة تجرها الخيول الى المقبرة. وضم الموكب كلاً من روكفلر وهامفري وروبرت كينيدي، وحرص التلفزيون على التقاط صورهم، كما التقط مشاهد احتلال الطلاب لحوالي مئة كلية جامعية، في جامعة كولومبيا التي استبدل اسمها بجامعة مالكولم اكس، زار سكان نيويورك مبانيها القرميدية الجميلة المشيدة فوق حي هارلم. وشاهدوا على جدرانها الملصقات الاباحية والكتابات التي تصف رئيس الجامعة، غرايسون كيرك، بأنه « ليس افضل من النازيين ». وكادت الجامعة التي سبق لايزنهاور ان كان رئيسها الأعلى، ان تتعرض لحركة رافضة تستهدف اساتذتها ومسؤوليها.

لم تتعرض الدولة الفيديرالية للخطر في اية لحظة، وتدخلت على الفور ومن دون مساومات في الجامعات واعتقلت حاملي اليافطات والخطباء. كانت المقاومة ضعيفة ولم تنشط اية حركة تضامن مع الطلاب المعتقلين للتظاهر في المدن الكبرى. هل كانت عملية القمع شديدة ؟ يقول جورج كينان، صاحب نظرية « الاحتواء » في عام ١٩٤٨ : هناك بالاحرى رفق شديد باولئك الذين ارتكبوا أعمال الحرائق والنهب والقتل واطلاق النار على الشرطة ورجال الاطفاء [...] والكلام عن وحشية رجال الشرطة ازاء مثل هذه الاستفزازات يبدو لي سخيفاً أو غير معقول ». كان كينان يعبّر بذلك عن رأي ملايين الاميركيين من الطبقات المتوسطة وكذلك عن رأي الاوساط العمالية التي أغضبها ما ارتكبته من أعمال العنف حفنة من الشبان الميسورين المتعاطفين مع اصدقائهم الزنوج. وسوف يرفض الزنوج في كل حال المساعدة التي ستقدمها لهم لاحقاً هذه المجموعة وستتهم الطلاب بممارسة الاعتدال ومحاولة احتوائهم. والحركة الطالبية

لعام ١٩٦٨ حافلة بطروحاتها وافكارها. وهي لن تؤدي الى قيام اي تحالف فعلي مع الزنوج او مع العمال.

احتلال جامعة السوربون

فجّر الإعصار الاميركي في اليابان ثورة « زنكاغورين »، وهي رابطة تضم طلاباً رافضين، وبقيت هادئة طيلة سنوات الازدهار لكنها نشطت خلال حرب فيتنام اعتباراً من كانون الثاني ١٩٦٨ عندما رست حاملة الطائرات النووية انترابرايز في ميناء ساسيبو، بالقرب من ناكازاكا، في طريقها الى خليج تونكين. فتدفق الالوف من قراء « تشي » غيفارا، وماركوز وماو تسي تونغ في الشوارع معتمرين الخوذ وفي ايديهم العصي. تدخلت الشرطة بقوة، غير ان حركة الشغب انتشرت في الجامعات على غرار ما حصل في بيركلي ونيويورك. وتعرّض رئيس الوزراء ساتو الذين كان يتفاوض مع الاميركين حول اوكيناوا، للشتم اكثر مما رجم شيطان نيكسون نفسه وامتدح هوشي منه. وتعرض بعض الطلاب ومدراء الكليات للاحتجاز والاذلال والضرب احياناً. وكما في الولايات المتحدة لم يضرب العمال ولم يتظاهروا واعتبروا انفسهم غير معنيين بالتحرك القائم. عندما خلط الطلاب الحابل بالنابل في جامعة توداي في طوكيو، عرض التلفزيون مشاهد مذهلة عن المقاومة المستميتة التي ابداها حوالى ٦٠٠ طالب طيلة عشر ساعات في وجه جيش من الشرطة. لم يتدخل احد في اللعبة، غير أن التلفزيون كان، بعد بضعة اشهر، على موعد مع الكاتب ميشيما (وهو اب لولدين ويمارس الشذوذ الجنسي) وقد انتحر في « بث مباشر » على التلفزيون، مرتدياً بزة للجيش السابق وعلى جبينه رباط رجال الكاميكاز (الطيارون الانتحاريون في الحرب). وقال قبل ان يموت : « لم تشهد اليابان مثل هذا الازدهار من قبل، غير أن الأمة فقدت روحها ».

تأثّر ثوار الحي اللاتيني في باريس ايضاً بحرب فيتنام. كان التلفزيون يعرض كل مساء مشاهد اجتماعات الوفدين الاميركي والفيتنامي التي استمرت شهوراً طويلة في فندق ماجستيك المعزول خلف اسلاك الشرطة من دون التوصل الى نتيجة. كما في اليابان اخذ بعض المجموعات بسحر ثورة الحرس الثوري الماوي الذي ظهرت رسومهم وحدهم في العالم، مع شي غيفارا (بعد انضمامه عام ١٩٦٧ الى عصابات المقاومة البوليفية، قتل في ٨ تشرين الأول ١٩٦٧) على اللوحات الاعلانية (البوسترز) والتي ـــ شيرت الثورية، الى جانب الكونغولي باتريس لومومبا، الذي سقط ضحية الشركات الاميركية التي موّلت ثورة كاتانغا. وتناولت وسائل الاعلام باسهاب جهود الحكومة الفرنسية لتحرير ريجيس لوبريه الذي ادانته محكمة عسكرية بوليفية بالسجن لمدة ثلاثين عاماً. من بكين الى لاباز، المعركة ذاتها لم تتغير ...

هذا الايمان المستعر بالاساطير الثورية ادى الى ما يشبه الثورة التي تجاوزت حدود الجامعات لتنقلب الى حركة فتنة في باريس ثم في ستراسبورغ وليون وغرينوبل وتولوز وفي كل المدن الجامعية. والمفارقة ان هذه الثورة ضد مجتمع الاستهلاك، مجتمع المال والملذات قد لقيت قبولاً في اوساط الشبيبة الكاثوليكية التي تأثرت بتوجهات البابا يوحنا الثالث والعشرين ومن بعده بولس السادس ومقررات المجمع الفاتيكاني الثاني. لا شك ان الباباوات والاساقفة لم يدعوا الى الثورة على الاطلاق، لكن التنديد بالفقر والسعي الى التضامن مع الانسان واحترام شخصه، وهي كلها موضوعات مسيحية جرى تفعيل مضامينها مجدداً، اصبحت من المسائل التي جذبت اهتمام هؤلاء الشباب. فالفساد في فيتنام الجنوبية التي اسهبت الصحافة في سرد وقائعه، والشجاعة والتقشف الذي ابداه مقاتلو فيتنام الشمالية، سحرا ايضاً اولئك المسيحيين الذين علموا كذلك ان الفيتكونغ هو تجمع غير شيوعي، وتعددي ويحترم الكنائس. وجاءت ادانة الحروب والاستعمار لتقضي على البقية الباقية : حتى الشبيبة

الكاثوليكية أو البروتستانية، كانت تتحسس طروحات الثورة وتتعاطف مع موضوعاتها. هل قرأوا رسالة « البابا يوحنا الطيب » و « على الأرض السلام » ؟ في الواقع، كانت تساؤلات المجمع حول مشروعية العمل الجماعي للقضاء على البؤس ودور الاساقفة في اميركا اللاتينية (الذين اجتمعوا في ميديلين في كولومبيا عام ١٩٦٨) تتطابق في الظاهر مع الحرص العميق للبابا بولس السادس الذي غادر روما لحضور جلسة الامم المتحدة والقاء رسالته الاجتماعية « تقدم الشعوب » عام (١٩٦٧). كانت تساؤلات المجمع ما تزال حاضرة في اذهان تلك المجموعات من الشبان الذين راحوا يصيحون هزءاً امام البرلمان البورجوازي ويضجّون ويلقون صيحات الاستهجان في وجه اساتذتهم « المثقفين المتنفذين ». هؤلاء المتظاهرون كانوا ايضاً اولئك الذين صفّقوا في جامعة نانتير للخطيب الشاب في الحزب الشيوعي بيار جوكان الذي حاول احتواء الحركة الطالبية الرافضة وربطها بالتحرك العمالي.

اذا كان الطلاب يأملون في ربط حركتهم بالمطالب العمالية، فان قادة الاتحاد العام للعمل والاتحاد العمالي لم يرغبوا في توريط العمال في معركة تنزع الى المغامرة، على حد ما كانوا يصفونها. وكان المشرفون على « النظام » والاحزاب يستقبلون باستياء ظاهر هؤلاء « المبشرين » القادمين لالقاء المحاضرات عن فكر ماركوز على ابواب النقابات العمالية. مع ذلك، كانت مسألة التقاء الحركة المطلبية (التي يدعمها الحزب الشيوعي وما تبقى من الاحزاب اليسارية الاخرى) مع الاضطرابات التي قادها الطلاب، تطرح مشكلة امام السلطة السياسية : هل تستطيع الديغولية الظهور بمظهر القوة القمعية والرجعية في وجه طلاب جامعيين كان آباؤهم في الغالب يتعرفون اليهم على المتاريس، معتمرين خوذة الدراجات النارية على رؤوسهم ؟ بعد التراشق بالرصاص في شارع ايسلي في مدينة الجزائر، في ٢٦ آذار ١٩٦٢، والذي بقي في ذاكرة « الاقدام السود »

الذين عادوا الى فرنسا، هل كان ينبغي اسقاط القتلى مجدداً في ساحة السوربون او في شارع غي ــ لوساك ؟

التلفزيون الذي اسكته المضربون، والوقود الذي فقد من المحطات، والتحقيقات الصحافية المقلقة لمحطة « اوروبا الاولى » عن شوارع الحي اللاتيني، والمتاريس واحراق السيارات والشعارات التي كان يطلقها مقاتلو السوربون ــ « كونوا عاقلين واطلبوا المستحيل ! »، والتظاهرة الحاشدة يوم ١٣ ايار حيث سار الطلاب الى جانب العمال المضربين، كل ذلك اثار الذعر في قلوب المدرسين والمسؤولين. كان رئيسا الجمهورية والحكومة غائبين عن فرنسا عندما نضجت الثورة وانفجرت فيها (عاد بومبيدو من افغانستان في ١٢ ايار وديغول من رومانيا حيث قام بزيارة الى تشاوشيسكو في ١٨ منه). كان كل شيء يدل على شغور السلطة وذعرها مما يجري، مع ان قوات الامن لم تتساهل مع الحركة والسيطرة عليها ممكنة. كان بومبيدو اول من فاوض النقابات في غرينيل، فيما كان ديغول يعلن فور عودته : « نعم للاصلاح، ولا للفوضى ». ناقشت النقابات، في الاساس، مضمون الاتفاقات. وبعد مسيرة ضمت مئات الالوف من الاشخاص في شوارع باريس، طالب الاتحاد العام للعمل بحكومة « شعبية ». غاب ديغول عن الانظار في ٢٩ منه. لا احد يدري مكان وجوده. لقد توجه الى بادن ــ بادن لاستكشاف معنويات القوات الفرنسية في المانيا.

جاء رد الجنرال فور عودته الى فرنسا عبر موجات الاذاعة، في ٣٠ ايار حين أعلن عن استمراره في منصبه، وحلّ مجلس النواب وإجراء انتخابات عامة. « انها انتخابات الخيانة »، اطلق الطلاب، الذين شعروا بالهزيمة. في اليوم ذاته، تدفقت الجموع البشرية من انصار ديغول في تظاهرة عارمة في شارع الشانزليزيه، وسار في المقدمة مالرو ودوبريه. انتهى الخوف الكبير وانحسرت الاضطرابات لتنحصر في الجامعات

وبعض المصانع. غير أنها لم تهدأ مع صدور قانون الاستقلال المالي والاداري الذي أعده الوزير ادغار فور، في الخريف، بل على العكس فتح الباب امام حقبة طويلة من الفوضى. في الانتخابات العامة التي جرت في نهاية حزيران، نال الديغوليون الغالبية المطلقة، في مجلس اعطي له ان يختار بين الاصلاح والتخلف.

كانت فرنسا البلد الاوروبي الوحيد حيث تزامنت الثورة الطالبية بصورة عفوية مع اضراب عام. في البندقية (ايطاليا) كانت تباع مؤلفات ماركوز في ساحة سان مارك المزينة بالاعلام الحمر، غير ان النظام لم يتعرض للخطر. الاضطرابات في المانيا كانت اشد حيث واجه رودي دوتشكي مع مجموعاته الثائرة، قوات الشرطة التي استخدمت تباعاً خراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع. أما دول الشمال فكانت هادئة، فيما شهدت دول اميركا اللاتينية اشد انواع الثورات دموية لأن الحركة المناوئة لأميركا اطلقت لنفسها العنان في الجامعات من المكسيك حتى البرازيل.

واجه رجال المقاومة الشيوعيين في أميركا اللاتينية قمعاً وحشياً. ففي ايلول، عشية افتتاح دورة الالعاب الاولمبية في المكسيك، سال الدم غزيراً في ساحة « الثقافات الثلاث ». امام جمهور قدم من كافة انحاء العالم، وامام عدسات التلفزيون الذي كان يبث برامجه مباشرة عبر الاقمار الصناعية، رفع بعض الرياضيين الاميركيين السود، من حاملي الميداليات الذهبية في الركض مسافة ٢٠٠ م قبضاتهم تحية للجماهير، ورفضوا الاستماع للنشيد الوطني للولايات المتحدة.

الرئيس نيكسون يختار كيسينجر

لا تبدو اميركا قلقة في الظاهر من ثورة الشباب في جامعاتها. فهي تنتظر الانتخابات الرئاسية. وقد حزن ريتشارد نيكسون، منافس المرشح

الديمقراطي هامفري، لاغتيال روبرت كينيدي (قتل في ٦ حزيران ١٩٦٨، على يد الفلسطيني سرحان بشارة سرحان، المصاب باختلال عقلي)، ورثى لغوص مفاوضات باريس في الرمال. عرض التلفزيون صور قرية ماي لاي حيث قتلت فرقة الملازم كولي ٢٠٠ شخص بينهم نساء واطفال. وعم الحزن الشديد البلاد كلها. لا احد يأمل اكثر من نيكسون اخراج الولايات المتحدة من هذه الورطة المخزية.

في غضون ذلك، غاب عن الاسماع الخطاب السياسي التقليدي حول محاربة الشيوعية؛ وبات الهم الكبير لدى الاميركيين، منصباً على العودة الى ذواتهم واستعادة قواهم المعنوية. قال جونسون (الذي لم يرشح نفسه لولاية ثانية، فيما كانت تحاصره التظاهرات المستمرة في البيت الابيض) : لدى الاميركيين الكثير من الشجاعة والجدّية وحب النظام والميل الى البذل والعطاء ». وامسى التراجع حتمياً. « اميركا اولاً ! » والمهمات الملحّة التي لا تحتمل التريث تقضي باستعادة الجيش من فيتنام، واعادة الهدوء والنظام الى الجامعات، ودمج الزنوج في المجتمع، وانقاذ الدولار من خطر العجز في كل الموازين. فالناخب لا يقبل رؤية المثال الاميركي تهدده خيبات الأمل المتتالية، ويرفضه الشباب، ويسخر منه الارهابيون. وثمة اجماع واسع على وجوب الامساك بالوضع من جديد.

استغل نيكسون هذا الوضع، كما فعل قبله ديغول في فرنسا وساتو في اليابان. فهو خير طبيب لاميركا المريضة التي يودّ ان يعيد اليها الوان الحياة الزاهية. كان نيكسون في الخمسين من عمره اهيف القامة مثل كينيدي لكنه اكثر شعبية منه، ويتحدر من الطبقة المتوسطة، وكان والده صاحبياً[1]، فيما حصل هو على منحة دراسية في جامعة كارولينا الشمالية. وغدا محامياً لامعاً وبدأ حياته السياسية في الحزب الجمهوري في

(١) الصاحبية شيعة بروتستانتية تدعو الى السلام والبساطة وحب البشر (ي.ض.)

كارولينا. عرف الكثير من خيبات الأمل بحيث يصعب مقارنته بكينيدي. فقد فشل عام ١٩٦٠ و ١٩٦٦ كمرشح لحاكمية ولاية كاليفورنيا. غير ان الحظ عاد وابتسم له عام ١٩٦٨، فكأن فوزه كان انتقاماً لاميركا التي كانت تعاني في حينه من الذل والمهانة.

لكن هذا الفوز لم يكن باهراً اذ ان جو الحملة الانتخابية كان قاسياً ومتوتراً. ففي اجتماع الحزب في شيكاغو لتسمية هامفري نظم اليساريون تظاهرات خلال الصيف، وعرضوا في الشوارع خنزيراً يرمز الى المرشح. اما رئيس بلدية المدينة، ريشارد ديلاي الذي سبق له خلال الاضطرابات السابقة ان اعطى الاوامر للشرطة « بقتل مفتعلي الحرائق وقمع مرتكبي اعمال النهب »، فقد طلب تعزيزات امنية واحاط قاعة الاجتماع بالاسلاك الشائكة. ووقعت أعمال شغب اثناء انعقاد المؤتمر الذي ادان بعض مندوبيه اجهزة الشرطة واصفاً اياها بالجستاتو. وفي المؤتمر الجمهوري، افاد نيكسون من تردد الملياردير نيلسون روكفلر ــ الذي كان لتوه قد طلّق زوجته ليقترن بفتاة شابة، الأمر الذي اثر على شعبيته ــ ولمرشح كاليفورني آخر هو الممثل السابق رونالد ريغان الذي كان ضعيف الشعبية من جراء خطاباته اليمينية المتطرفة. وثمة مرشح ثالث، هو الجنوبي والاس الذي كان ينافس نيكسون. غير أن الماكينة الانتخابية الضخمة ــ التي ضمت المحامي جون ميتشيل « والالمانيان » هالدمان وارليخمان وامين الصندوق موريس ستانز الذي جمع له تبرعات بلغت قيمتها ٢٨ مليون دولار ــ فضلاً عن دعم ايزنهاور له، كل ذلك ادى الى فوز المرشح الجمهوري الذي وجد نفسه امام اكثرية ديمقراطية في قلب الكونغرس.

كان لظهوره على التلفزيون تأثير لا بأس به على الناخبين، ولكنه دون ما كان عليه كينيدي. وكان مستشاره شكسبير قد تعاقد مع ايلز وهو مخرج لبرنامج منوعات، كي يؤمن له ظهوره على الشاشة الصغيرة. فاخترع ايلز منه رجلاً جديداً (باستخدامه، بدلاً من البث المباشر، تقنية

التصوير المسبق، بالخفية عن الصحافيين). فلم يظهر نيكسون كمن يخرج من لوحة اعلانية، كان يتحرك في بذلته الزرقاء « بحرية بين الشعب، مزارعاً مشرق الوجه، او سائق سيارة عمومية، او اسود البشرة قليلاً كالزنوج الاميركيين، او بائعاً لمواد التنظيف المنزلي كالصورة التي تبرزها وسائل الاعلان على شاشة التلفزيون ». وهكذا نقلت شبكة سي.بي.اس صورة نيكسون كما استعادتها من ماضيه وواقعه، وهي الصورة التي اعجبت الجمهور، ولم يكتشف الحيلة احد.

كان نيكسون يخشى الصحف الصادرة في الشمال الشرقي من البلاد حيث يتربع على عرشها مثقفو جامعة هارفارد. فسارع المرشح الجمهوري، بغية التغلب عليهم، الى وضع احد خريجي هارفارد الى جانبه، وقد اوصاه به روكفلر. لم يكن « رأس بيضة » يدّعي الثقافة والعلم، بل يهودياً قدم من اوروبا في زمن النازية، يتمتع بالحيوية والنشاط ويمتلك قدرات فكرية كبيرة واشتهر بابحاثه العلمية حول ماترنيخ والاستراتيجية النووية، كما كان يحظى باحترام اوساط جامعة جورجتاون حيث يجري تداول الافكار الجديدة والتعليق عليها في الصالونات وفي اوساط الحزبين الرئيسيين في البلاد. كان هنري كيسينجر يضع نيكسون الى جانبه، ويحميه في الوقت عينه، من صحافيي الواشنطن بوست، والنيويورك تايمز ومن الحلقات الفكرية في الجامعات، وكلهم يكنون العداء لحرب فيتنام. حظي كيسينجر بدعم نيلسون روكفلر الذي كان يعتبر ليبرالياً في اوساط الحزب الجمهوري، ونجح في شق طريقه الى وزارة الخارجية، حاملاً لقب مستشار للمسائل الامنية والذي كان يعطيه حق ترؤس مجلس الامن القومي، وهو الهيئة المكلفة باعداد سياسة الرئيس في وزارة الخارجية التي تسلم حقيبتها صديق شخصي لنيكسون هو المحامي وليم روجرز. اما الوزراء القادمون في معظمهم من الغرب، فقد كانوا يتحدرون من الطبقة المتوسطة، ولا طموح لهم سوى خدمة سيدهم (البوسّ). كان كيسينجر، مؤلف كتاب « الاسلحة النووية

والامن الخارجي » يتميز عمّن كانت الصحف الكبرى تسميهم « الوزراء الرديئون ». كانت « صدمة العام ١٩٦٨ » قد قادت اميركا الى وضع مصيرها بيد رجال جدد لا صلة لهم بمصارف بوسطن وبصحف نيويورك، ولا ارتباط لهم « بالقوى العسكرية ـــ الصناعية » في البنتاغون. ولم يكن وزير الدفاع اختصاصياً في الادمغة الالكترونية الضخمة مثل ماكنمارا، بل كان برلمانياً شريفاً، اذ اعتاد ملفين ليرد على تمحيص الموازنات العسكرية في مجلس الممثلين (النواب) الاميركي، وكان من حسن طالع الحزب الجمهوري انه استطاع ان يظن ان بهؤلاء الرجال سوف يمسك بالبلاد من جديد ويعيد لها مجدها الغابر.

ردة فعل المناوئين لاحداث عام ١٩٦٨

هل تركت احداث العام ١٩٦٨ آثاراً اكثر وضوحاً في الدول الصناعية في اوروبا الغربية واليابان ؟ لم يكن بالامكان اكتشاف هذا التغيير على الفور. ففي فرنسا، جرى ابعاد الوجوه غير المرغوب فيها التي دعمت او كما قيل حرضت على ثورة الشباب الفرنسي، عن شاشات التلفزيون. وتم الغاء ما اطلق عليه « نتاج الشباب »، لا سيما النتاج التلفزيوني لألان سيدوي واندره هاريس ومارسيل اوفيل الذين سبق لهم ان عرضوا، اعتباراً من آذار، مقابلة مع رودي دوتشكي واليساريين الالمان. كما طال التطهير القاسي حتى العاملين في برامج المنوعات امثال غي لوكس والمعلقين الرياضيين كوديرك وشابات. وتعرّضت مؤسسة الراديو والتلفزيون الفرنسي او.ر.ث.ف. للعقوبة من جراء الاضراب الطويل الذي أعلنته. وسعت السلطات الرسمية الى وضع اليد مجدداً على الجامعات من خلال اعطائها استقلالاً مالياً وادارياً شكلياً. فيما استمرت المعاهد الكبرى غير المعنية بهذا التنظيم الجديد في استقطاب النخبة وتخريج « كبار الموظفين » دون ان تتعرض لاي احراج.

بالمقابل، ادّى خروج الجنرال ديغول من الحكم، في ٢١ نيسان

١٩٦٩، اثر تصويت سلبي للفرنسيين على مشروع اقره مجلس الشيوخ حول اللامركزية والاصلاح وعرض على الاستفتاء، الى مجيء جورج بومبيدو محله. بدا رحيل ديغول وانتخاب رئيس وزرائه السابق كأنهما نتيجة لأزمة عام ١٩٦٨. سارع بومبيدو الذي كان يميني الصورة، الى استدعاء رئيس بلدية بوردو جاك شابان دالماس الى رئاسة الوزارة في ماتينيون. فعمل رئيس الحكومة الجديد مع مستشاريه سيمون نورا وجاك ديلور وهو مسيحي ونقابي يساري، على تعزيز قيام « مجتمع جديد ». واول ما فعله هو اطلاق حرية العمل في التلفزيون من خلال خلق تنافس بين القناتين اللتين تمتعت مديريتا الاخبار فيهما بالاستقلالية وبات ممكناً الحديث عن الاضرابات في نشرة اخبار التلفزيون من دون التعرّض لمقص الرقابة. هل يمكن اعتبار ابعاد كيسينجر في المانيا عام ١٩٦٩، واستبداله بالاشتراكي ــ الديمقراطي، ذي الماضي المعادي للنازية، ويلي براندت، كأنه نتيجة قلق الرأي العام ايضاً بعد الثورة الطالبية ؟ كيف يمكن لبلد تنافس صادراته صادرات الولايات المتحدة، ويرتفع الناتج القومي غير الصافي فيه بصورة مطردة، ان يتأثر بهذه الحدة بمسائل تتصل بالبؤس والظلم وعدم المساواة بين المواطنين ؟ لكن الثورة الطالبية اكدت بغضها الشديد لمجتمع المال والمصارف والمؤسسات الصناعية، ومعاداتها لاعادة تسليح اوروبا علاوة عن الحرب في فيتنام. توجه ويلي براندت، عام ١٩٧٠، الى المانيا الشرقية للاجتماع بنظيره الشيوعي ويلي ستوف، وركع امام ضريح شهداء معتقل فرصوفيا. غير أن هذا الانفتاح الجريء تزامن في الداخل مع سياسة اجتماعية وجامعية محافظة. لا تغيير كذلك في ايطاليا حيث تعاقب الديمقراطيون المسيحيون على الحكم، فحلّ جيوفاني ليوني محل الدومورو، في ٢٤ حزيران، قبل ان يتخلى عن الحكم لماريانو رومور. فالتبدل الحكومي لم يتخطَ المألوف في هذه الديمقراطية البرلمانية حيث يحظى الحزب الديمقراطي المسيحي ــ وهو الأول في ايطاليا ــ بدعم الفاتيكان، وتأييد ١,٥ مليون من المناضلين

المخلصين. قرر الشيوعيون الايطاليون ادانة سياسة القبضة الحديدية للاتحاد السوفياتي في اوروبا، لكنهم استبعدوا من صفوفهم اليساريين من تكتل « مانيفستو ». وكانت الثورة الصناعية في شمالي البلاد حيث شكلت شركات رأسمالية ضخمة، قد اتاحت، في الستينات، بلوغ معدلات نمو زادت عن ٦٪. وكانت الطبقة العمالية المتمركزة في مثلث مدن جنوى ــ ميلانو وتورينو، تعمل في مؤسسات تابعة للدولة في قطاعات النفط والصناعات الثقيلة والخفيفة ــ وتعتبر شركات الفيات واوليفتي وبيريللي وسنيا فيسكوزا وموتّا ومونتيكاتيني من اضخم الشركات في العالم. على غرار اليابان، طوّرت ايطاليا صناعة الفولاذ على ضفاف المياه، مما اتاح لها انشاء المصانع في الجنوب في باري وتارانت ونابولي. غير أن تدني مستوى المعيشة في الجنوب والمشكلات الزراعية في سهل بو وفي توسكانا، والتفاوت الفاضح في الموارد الطبيعية بقي من دون تصحيح ومعالجة، لأن المداخيل المتأتية عن المهاجرين الايطاليين ومن السياحة كانت تتيح اعادة التوازن الى ميزان المدفوعات. ويجري الحديث عن « الاعجوبة الايطالية » في بلد شوهت بعض معالمه المنشآت السياحية الضخمة والمجمعات الصناعية القائمة على الشاطئ، وزعزعت اركانه نزاعات اجتماعية حادة، وقضت على آماله سياسة محافظة نزعت الى تشجيع الصناعة وحدها على حساب القطاعات الأخرى. وبرزت في عام ١٩٧٠ « الالوية الحمراء » التي اسسها العالم الاجتماعيريناتو كورسيو (البالغ من العمر ٢٥ سنة) وزوجته مارغريت كاغول، والتي تورطت في الارهاب على غرار الالماني بادر (المعتقل منذ عام ١٩٦٨) ورفاقه ..

في اميركا اللاتينية، كان الغليان الطالبي في الجامعات نتيجة لا سبباً لتنامي حركات المقاومة. لكنه ساهم في تطور الانظمة السياسية نحو مزيد من النزعة المحافظة. ففي التشيلي، دفع الخوف من احتمال فوز الاشتراكيين في الانتخابات العامة، باليسار واليمين على السواء الى ممالقة

الجيش. وفي الاورغواي التي تعاني من سوء تصريف الحبوب ومنتجاتها الحيوانية، بدأ « التوباموروس » في تحدي الدولة التي اخذت تعذب سجناءها. كما لوحظ تعزيز الانظمة العسكرية التي كانت اختفت عملياً منذ عام ١٩٦٥. ومن الارجنتين مروراً بالاوروغواي الى البرازيل، وقعت انقلابات اطاحت بمعظم الانظمة وعسْكَرَتْها، ولكن باتجاهات واشكال متنوعة : في البرازيل، كان عسكريو « السوربون » يوالون الاميركيين ويهيمن عليهم المحاربون القدماء في الحملة العسكرية الايطالية، ويميلون مثل زملائهم في الارجنتين الى تعزيز الصناعة وبالتالي يضمرون العداء للروح الرفضية القائمة في الجامعات. واذا كان جنرالات البرازيل قد تخلصوا، عام ١٩٦٤ من الديماغوجي جوا غولارت، فمن اجل اقامة نظام تقنوقراطي ليبرالي. ولم يلبث « النادي العسكري » ان اسّس حزبه الخاص لتأكيد هيمنته السياسية والتغلغل في الوزارات. عام ١٩٦٨، نال الرئيس صلاحيات مطلقة للقضاء على المعارضة وتشجيع الاقتصاد الليبرالي وترك الباب مشرعاً امام الاستثمارات الاميركية. غير أن الجنرال ميديشي قضى، عام ١٩٧٠، على الديمقراطية الليبرالية وادخل بلاده في « طور التصنيع الموجه ».

كان هذا النموذج الخاص من « التأميم » غير متبع في الدول الاخرى. في البيرو، وقع انقلاب عسكري عام ١٩٦٨، وتبعه آخر، على يد الجنرال الفريدو اوفاندو، في بوليفيا عام (١٩٦٩)، كما اطاحت « حكومة الحزب الوطني » بالحكم القائم في باناما عام (١٩٦٨)، وكذلك فعل الضباط في الهاندوراس عام (١٩٧٢)، غير ان انقلاب البيرو كان من طراز مختلف اذ انكر الرأسمالية وادّعى تحقيق الاصلاح الزراعي وتأميم الشركات الأجنبية، أو دمجها بالقوة في البنيات الوطنية. فكان، بهذا المعنى، ينشد المثال الاستقلالي التقليدي في القارة الاميركية وتلقى تأييد فيديل كاسترو. في الواقع، تدبرت حكومة البيرو امرها مع الشركات الأجنبية التي حصلت على امتيازات جديدة. في بوليفيا، طرد الجنرال

اوفاندو من السلطة شريكه باريانتوس الذي نظم الحملة ضد رجال المقاومة حيث قتل « شي » غيفارا. ثم تعرّض اوفاندو نفسه للاطاحة على يد توريس الذي لم يلبث بدوره ان سقط ضحية انقلاب عسكري عام ۱۹۷۱، ادّى الى عودة اليمين الى السلطة. ونجت بوليفيا من الاشتراكية حيث كانت تدفعها اليها حفنة من الضباط المنحرفين. في باناما، لم يتصوّر نظام « الحرس الوطني » للحظة واحدة وجوب استئصال النظام الرأسمالي من البلاد، على الرغم من ان الجنرال توريجوس طلب الى الاميركيين اخلاء قاعدتهم في ريو هاتو. واذا كان غازل كوبا ودعم رجال المقاومة في نيكاراغوا، الا أنه جعل من بلاده سويسرا ثانية، ونعيماً ضرائبياً تجتذب مصارفه الرساميل الاجنبية. في الاكوادور، تعرضت الحكومة « الثورية الوطنية، والاشتراكية ــ الانسانية »، برئاسة الجنرال رودريغيز لارا الذي تبوأ الحكم عام ۱۹۷۲، لانقلاب عسكري دبرته حفنة من الضباط اليمينيين، عندما هدّد مصالح شركات اميركا الشمالية الراغبة في استغلال « الفورة » النفطية الى اقصى الحدود.

وتجدر الملاحظة الى ان الاوساط اليسارية قد رأت في هذه الثورات ان « الاستعمار يستعيد انفاسه »، وانها مجرد حيلة بارعة للبنتاغون لتقريب الضباط (الذين تدربوا في الولايات المتحدة وتزودوا بالسلاح منها) من الشعوب التي اصيبت بعدوى الثورة الكوبية. وهكذا تم تحقيق برنامج كينيدي المعروف « بالتحالف من اجل التقدم » والرامي الى عسكرة الانظمة السياسية وتنشيطها.

ربيع براغ

اذا كانت « صدمة العام ۱۹٦۸ » لم تقض في الظاهر مضاجع الغرب، فان الدول الاشتراكية والحركة الشيوعية الدولية قد تأثرت باحداث اوروبا الشرقية، التي طرحت على بساط البحث، مرة جديدة، زعامة موسكو

للثورة العالمية : اعتباراً من عام ١٩٦٣، استأنفت الحياة الفكرية نشاطها في براغ، في ظل حكومة الستاليني السابق نوفوتني. وفي مؤتمر الكتّاب المنعقد عام ١٩٦٧، اطلقت نداءات من اجل الحرية والديمقراطية التي كانت تتمتع بها البلاد قبل الاجتياح الهتلري. ووجد نوفوتني نفسه محرجاً في قمع هذه الحركة، سيما وان اتجاهاً ليبرالياً برز بقوة داخل اللجنة المركزية : وكان الكسندر دوبتشيك امين سر اللجنة يقود حركة المعارضة. كانت انتقاداته تعرّض المصالح السوفياتية للخطر، لأنه كان يطالب بوجوب عكس المبادلات التجارية. ذلك أن تشيكوسلوفاكيا التي كانت تنتج الاسلحة والمحركات ـــ الادوات، وجدت من مصلحتها تنشيط صادراتها، على ان تستوّرد من الغرب السلع التي لا تستطيع انتاجها ولا يمكن لاوروبا الشرقية تزويدها بها. علاوة على ذلك، كان الاقتصادي اوتاسيك يوصي بانشاء « سوق للزبائن » في البلاد يتيح قيام تنافس فعلي بين المؤسسات. انضم العمال والمستهلكون وفئات اخرى من الشعب الى صفوف المثقفين في المطالبة باطلاق الحريات. حل دوبتشيك محل نوفوتني في رئاسة الحزب فيما كان الجنرال سفوبودا يتبوأ سدة رئاسة الجمهورية. نصّ « برنامج عمل الحزب » الذي نشر في نيسان ١٩٦٨، عن قيام التعددية الديمقراطية وحرية الاعلام، وكذلك عن ارساء دولة القانون وفتح الحدود. كانت المبارزة التشيكوسلوفاكية مختلفة عن النزعة الانفصالية لدى تشاوشيسكو، الذي كان ينوي تحرير رومانيا من وصاية موسكو من دون التخلي للحظة واحدة عن انتهاج سياسة القمع في الداخل. أما في براغ، فان الرفض قد انطلق من داخل الحزب ليس ضد العلاقات مع موسكو بل ضد الشيوعية نفسها. وبذلك انضم ربيع براغ على طريقته الى اعصار العام ١٩٦٨ الذي كان يطوّف في العالم.

كانت الحركة سهلة العدوى. ساند تيتو دوبتشيك، مواجهاً بذلك غضب بريجنيف الشديد. وتظاهر جامعيون وكتّاب وطلبة بولونيون تأييداً

لربيع براغ. اما غومولكا الذي لم يستطع تحمل هذه التظاهرات، فقد امر الشرطة بدخول حرم الجامعات في فرصوفيا. في موسكو، كان بريجنيف يحظى بدعم القوى العسكرية ــ الصناعية، فيما أكّد سوسلوف وجوب « اعطاء الاولوية لتعزيز حاجات الدفاع ». لا شك أن افكاره كانت تتجه نحو الحدود الصينية، ويتابع تحرك العسكريين الذين سبق لهم، في آذار ١٩٦٧، اثر وفاة الماريشال مالينوفسكي، ان فرضوا ترشيح ماريشال آخر هو غريتشكو ضد اوستينوف (الذي يحظى بدعم «اللوبي النووي » وغالبيته من المدنيين).

كان بريجنيف قد نجا، في شبابه، من عمليات التطهير الكبرى في الثلاثينات، ليصبح امين السر الأول لمنطقة دنيبروينروفسك الصناعية وبعد اقامة قصيرة في مولدافيا، عيّنه ستالين، عام ١٩٥٢ امين سر اللجنة المركزية. بعد موت الديكتاتور، ابعد الى كازاخستان، ثم عاد الى موسكو ليدخل عام ١٩٥٧ إلى المكتب السياسي. وحين ترأس مجلس السوفيات الأعلى، استطاع، بصفته امين سر اللجنة المركزية، تكوين زبائنية واسعة من خلال ادارته لكبار موظفي الحزب. وحين اصبح الامين العام للحزب، بعد ممارسة سياسية طويلة الامد لم يكن ينوي تعريضها للخطر بسبب ربيع براغ. كان هذا العجوز الخرف، صاحب الاهداب الكثيفة الذي يهوى الصيد والسيارات الفخمة، يعرف ان الحكم الشيوعي لا يستطيع تحمّل الانشقاق، ذلك أن ساعة التشدد قد فرضها الخطر الصيني الذي كان يحشد الجيوش على الجبهة.

اتخذ القرار، اذاً، مع الماريشال غريتشكو، بالتدخل في براغ بغية سحق الهرطقة القائمة. كان الحلّ الامثل يقضي، كما جرى في بودابست، عام ١٩٥٦، بتعيين فريق من الشيوعيين الموالين وإقالة دوبتشيك. غير ان التذرع بخطر مزعوم مصدره « هواة الاخذ بالثأر في بون » أوجب ارسال قوات من حلف فرصوفيا الى العاصمة التشيكية، حيث التقى

الجنود الالمان الشرقيون والبولونيون والبلغاريون؛ وكم كان تأثر سكان براغ كبيراً عندما شاهدوا، في ٢٠ آب، دبابات المانية في شوارع العاصمة. اعتقل دوبتشيك في اللجنة المركزية، في ٢١ آب. اوعز بريجنيف بتسريع العملية فيما كان الشيوعيون التشيكيون يقاومون الضغوط. رفض سفوبودا الموافقة على تصفية المجموعة المنشقّة في الحزب، واعلنت اللجنة المركزية تضامنها مع دوبتشيك، ولم تذعن وسائل الاعلام للتعليمات المعطاة لها. وقرر مؤتمر الحزب المنعقد في احد المصانع التصلب في المواجهة. غير أن بريجنيف كان في موقع القوة ويستطيع التفاوض.

وافق الاتحاد السوفياتي بموجب اتفاقات موسكو (٢٧ آب) على ابقاء الفريق المعين في الحكم شرط ان يعتدل، اما مراحل اجلاء قوات الغزو، فكانت مرتبطة بمدى التزام التشيكوسلوفاكيين بخط موسكو. واضطروا للقبول بعودة الرقابة واغلاق الحدود والتخلي عن مشاريع اطلاق الحرية الاقتصادية. واضطر دوبتشيك للاذعان. وعبّر الشعب عن عدم موافقته بممارسة المقاومة السلبية.

لم يستسلم الشعب البتة، واستشاط غيظاً في السنة التالية عندما تغلب الفريق الوطني للعبة الهوكي على الجليد على الفريق السوفياتي، فقامت التظاهرات المعادية للمحتل. فسعى غريتشكو الذي كان تولّى زمام الامور بنفسه، الى اقناع الجنرال سفوبودا باستبدال دوبتشيك بهوزاك، في رئاسة الحزب (نيسان ١٩٦٩). واقفلت الحدود واستتب النظام في براغ.

احتجت الاحزاب الشيوعية الرومانية والايطالية وحتى الفرنسية من دون جدوى. واعتاد التشيكوسلوفاكيون، بانتظار قدوم ازمنة افضل، ان يضعوا الزهور في ساحة براغ في المكان الذي احرق فيه الطالب يان بالاتش نفسه. في موسكو نفسها، كانت السلطة تتصلب ضد المنشقّين. اعتباراً من عام ١٩٦٥ ـــ ١٩٦٦، اعتقل الكاتبان اندره سينيافسكي

ويولي دانيان وحكم عليهما بالاشغال الشاقة. احتج العديد من اتحاد الكتّاب والمثقفين مطالبين بالافراج عن المتهمين، مثل غينزبورج وسواه من المؤلفين الرافضين. واختفت مجلة « وقائع الاحداث الجارية » التي كانت توزع تحت المعاطف، وتشير الى الانتهاكات المرتكبة ضد الحرية، وسجن محروروها. بوشسر في البداية في سجن المعارضين في مستشفيات الامراض العقلية، ومن بينهم الجنرال غريغورينفو عام ١٩٦٩، وليونيد بليوتش، عام ١٩٧٢. غير ان الحركة الديمقراطية استمرت على زخمها سراً، على الرغم من القمع، مع روي وجوريس مدفيديف واندره ساخاروف والكسندر سولجنتسين. الذين بدأو بابراز معركتهم في الخارج واكتشف الغربيون امكانية النضال في سبيل احترام حقوق الانسان في الاتحاد السوفياتي، من خلال تعبئة الرأي العام العالمي بواسطة محطات التلفزيون. كان ابراز حقوق الانسان بفضل وسائل الاعلام من اهم منجزات العام ١٩٦٨. فالاخبار كانت تصل الى الجماهير المهيأة لتلقي رسائل الحرية.

تفكير كيسينجر

ادرك هنري كيسينجر تماماً أهمية اللجوء الى الرأي العام الدولي للضغط على السوفيات. وسبق له ان شغل منصب المدير لاحدى الحلقات الدراسية في هارفارد حول المسائل الدولية، حيث كان يحضرها العديد من الاجانب (والذين سوف يلتقي بهم في شتى انحاء العالم وهم يشغلون المناصب الرفيعة)، وقد اعرب عن تصوّره للمرحلة التي أعقبت عام ١٩٦٨، بشيء من التشاؤم : كان يدرك بوضوح أهمية استخدام التمييز العرقي والدفاع عن حقوق الانسان بفضل وسائل الاعلام، باعتباره معتاداً عليها. تحولت مطالب طلاب بيركلي سلاحاً سياسياً سوف يستخدمه في مفاوضاته مع موسكو. وكان تصوّر ايضاً الخروج من حرب فيتنام، من خلال استخراج العبرة من المعارك السابقة بان النصر مستحيل

في اي مكانٍ وان الحروب لن تحقق بعد اليوم اي نصر. والنصر الحقيقي في الشرق الأقصى كما في الشرق الأوسط فيما بعد سيكون في انهاء الحرب. كان اذاً من انصار المفاوضات الدائمة، وهو موقف يلقى تأييد واستحسان زملائه في الجامعات وفي اوساط المعلقين السياسيين في صحف واشنطن ونيويورك. وسوف يقوم كيسينجر، في مؤتمراته الصحافية بشرح مساعيه السلمية خطوة خطوة من خلال اطلاع الجمهور على ماهيتها. انها دبلوماسية ماتيرنيخ السرية التي تستخدم الرأي العام لاحباط الحملات المناوئة وتشجيع التطورات الضرورية. كان يودّ إفهام العسكريين، ان من الضروري، اذا كان قصف فيتنام الشمالية سيستأنف، الّا تصاب اية قرية بالقنابل. ينبغي أن تكون الحرب، بعد الآن، اعلامية وعدم اظهار الرعب على الشاشة الصغيرة على الاطلاق. وقد ادرك العالم كله انه اذا كان الاميركيون يتابعون عملياتهم العسكرية، فمن اجل فرض التفاوض مع الشيوعيين حول السلام، الأمر الذي كانوا يرفضونه بشدة. وعلى الحكم الجديد احتواء روح عام ١٩٦٨ المناهضة للحروب العدوانية وبرمجتها، اذ بات من غير الوارد الوقوع في المفاجأة. وعلى وزارة الخارجية ان تثبت بالحجة انها تدافع عن السلام في كل مكان.

كانت معركة نزع السلاح الورقة الرئيسية في هذه المرحلة الجديدة. وكانت المباحثات سهلة مع السوفيات لانصراف تفكيرهم إلى الصراع الصيني، فضلاً عن ان صورتهم في الخارج قد اصابها التراجع، من جراء احداث براغ. والسير بالمفاوضات على مستوى القمة من اجل تخفيض السلاح النووي من شأنه ارضاء المثقفين اليساريين. في هذه الاجواء، ادرك يهود نيويورك ان التدخل الاميركي في النزاع الجديد المتوقع في الشرق الأوسط امر غير وارد على الاطلاق.

الادغال الفيتنامية المحروقة والقرى المدمرة، والفتاة الصغيرة المحروقة بالنابالم وهي تبكي على حافة الجسر، كلها صور ماثلة في الذاكرة وتدفع

باتجاه استحالة استخدام الطيران ضد السكان المدنيين وعدم اللجوء الى العمليات الانتقامية بصورة نهائية. مهما كان النظام السياسي القائم، فهذا لا يسوغ ابادة شعوب بريئة. وينبغي الاخذ بعين الاعتبار موضوعات وقف التجارب النووية، والحملة التي تشتد في اوروبا الشمالية ــ الغربية وفي اليابان مطالبة بتدمير مخزونات الاسلحة، فضلاً عن موضوع البيئة الذي تناولته الحركات المنبثقة من ثورة عام ١٩٦٨، اذ لم يعد يحق للدول الصناعية تدمير الطبيعة أو تعريض صحة الشعوب للخطر. والحملات من اجل مياه نظيفة كانت ما تزال في اول الطريق ــ وكذلك من اجل « نقل » الصناعات الاميركية الى بلدان لا يقع فيها التلوث تحت الانظار ... وكانت اليابان قد بدأت بتنفيذ برامج نقل التكنولوجيا الحديثة. وهذه المغامرة مرشحة للتقليد.

بين الكلمات المتداولة عام ١٩٦٨، لم ينسَ كيسينجر كلمات المسؤولية والتشاور والمشاركة، التي تخدم اهداف الحكم الجديد. ولذلك لجأ الرئيس مراراً الى وسائل الاعلام واستخدام استطلاعات الرأي كأدوات سياسية بحجة اشراك الشعب في قراراته. واذا كانت غالبية الشيوخ في الكونغرس من الديمقراطيين، فانها سوف تتيح امكانية العمل بموجب التقليد الذي شاع في عهد روزفلت وقضى بوجوب اطلاع الجمهور على مسيرة الحكم، وسوف يتجاوب الرئيس على قدر كبير مع هذه الرغبة، متخطياً بذلك ممثلي الشعب. والمفارقة، ان الحوار مع الرأي العام كان يعزز من النزعة المتحكمة « بالرئاسة » لممارسة الحكم الفعلي من خلال الاستخفاف بالمعارضة البرلمانية وحتى بحرب المتاريس التقليدية التي تشنها دوائر وزارة الخارجية. وكان لا بد لكيسينجر من تصحيح الخلل من خلال تعزيز السرية وحصر سلطة التقرير في جهة محددة، بغية تحصين موقع الرئيس ازاء العديد من الموظفين الذين قد يعاكسونه الرأي.

اما فيما خص التشاور الاجتماعي، فان رئيس مجلس الامن القومي ترك

للحكومات الاوروبية الاهتمام بمدّ الجسور في ميداني العمل والجامعة بين القوى المتعارضة. ولم يكن في نية الحزب الجمهوري الذهاب بعيداً في هذا المضمار. غير أنه يمكن في كل حال اخذ العبر من احداث عام ١٩٦٨ فيما خص العلاقات مع سائر الحركات المطلبية للزنوج، من أجل ترقية الملوّنين الى اعلى الدرجات في الجيش والادارة وتشجيع انتخابهم في المناصب السياسية. فيما بعد، عرض التلفزيون المسلسل الشهير، الجذور (روتس)، الذي يروي مآسي العبيد السود في الجنوب، فيما راحت الافلام البوليسية التلفزيونية تستخدم بصورة منتظمة المحقق الاسود الى جانب المحقق الابيض. وغدا حملة الاعلام في الاستعراضات العسكرية من السود على الدوام، وجرى الحرص على التوازن في الترقيات وعلى استمرار الاتصالات بين الادارة والحركات الرئيسية عند الزنوج.

كان كيسينجر، مؤلف اطروحة الدكتوراه حول مؤتمر فيينا، كثير الاعجاب بفكر مترنيخ وكاستلريغ ويرى ان الواقعية يجب أن تحل محل الروح الصليبية. وكان لا يؤمن كثيراً، مثل الجنرال ديغول، بالمؤسسات الدولية للحفاظ على السلام في العالم. واذا كان ينوي تعزيز وحدة اوروبا، فمن اجل تخفيف الاعباء عن موازنة الدفاع الاميركية وتحقيق بعض الوفر لانفاقه على القوات المتمركزة في المانيا. كانت حركة عام ١٩٦٨ قد هددت الامبراطوريات والدول بخطر الزوال. وكان كيسينجر يكره روح التسلّط والبيروقراطية في آن. وكان يحلم ان يكون رسول السلام في العالم، وان تكون طائرته الخاصة، في الوقت ذاته، مكتبه ومركز اتصالاته وغرفة نومه. غير ان نهاية الامبراطوريات ــ وكان يميل شخصياً الى انهاء السيطرة العسكرية الاميركية في العالم ــ لا تعني البتة التخلي عن ممارسة الولايات المتحدة لدورها العسكري ــ الاقتصادي الذي يشكّل مصدر تقدم وغنى للجميع. كان ليبرالياً ويعتقد بأن على الافكار ان تنتقل كالبضائع، الأمر الذي يساعد على تحقيق الانفراج الحقيقي، الذي يرتكز بدوره على تفوق العقل والعلم والتقنية وحسب.

وبلوغ التقدم من شأنه الافساح بالمجال لدفع المصالح الاميركية في العالم الى الامام من خلال ثورة العلم في حقل الناظمات الآلية وانتاج السلع. هذا العقل العملي الجديد كان اكثر تحرراً مما يظن، لأنه كان يتيح توسيع المعارف وممارسة الاختيار مع الأخذ بعين الاعتبار كل المتغيرات. كان كيسينجر من قراء كانط ويستمتع بتسلمه السلطة في اقوى دولة في العالم، في مستهل الربع الأخير من القرن العشرين.

حجة كانط هي دائماً الافضل

هل كان نيكسون، ابن سمّان كاليفورنيا، الذي كان يرأس اجتماعات المكتب البيضاوي في البيت الأبيض، في مستوى فكر فيلسوفنا السياسي ؟ كان كيسينجر شديد الاعجاب ببسمارك، ويميل الى دفع نيكسون لاجراء مفاوضات دولية تكسبه حجماً تاريخياً. وكان رسول السلام يتطلع الى هدفين : اعادة تسليح اميركا من خلال تخفيف مخزون الاسلحة القديمة العهد بغية تحقيق تقدمها التكنولوجي بحيث يصبح تدخلها العسكري مصدر خوف، من دون ان تكون مضطرة لاقامة قواعد عسكرية لها في كل انحاء العالم. وهذا النمط من اعادة التسليح ليس هدفاً بحد ذاته، اذ ينبغي أن يخدم الهدف الكوني لسياسة مبنية كما في زمن كاستلريغ على توازن السلطات.

تبرز الى الاذهان لعبة مزدوجة، فالمعطى الاقتصادي لم يكن يترك على الساحة سوى ثلاث قوى عظمى هي اميركا واوروبا الغربية واليابان. في الحرب الاقتصادية التي بدأ هؤلاء خوضها، على اميركا بذل جهودها لتحقيق الغلبة من خلال توفير القدرات المالية. ولا بدّ لذلك من اقناع الاوروبيين واليابانيين بأن عليهم تحمل أعباء الدفاع عن انفسهم، لأن واشنطن لم تعد مستعدة على الدفع. وبذلك يمكن توفير مبالغ طائلة تستخدم في تحقيق التقدم الذي يضمن تفوقاً عسكرياً فعلياً. وهذا كان

يفترض باميركا ان تتولى دعم اعادة تسليح المانيا واليابان اللتين كانتا تستفيدان بصورة مشبوهة من العقوبة المزدوجة لعام ١٩٤٥، للتبرؤ من اي التزام عسكري جدّي. وكان على اوروبا واليابان أن تدركا ان الحماية العسكرية الاميركية لم تعد مجانية بعد اليوم.

كانت الظروف العالمية ملائمة لرسم معالم توازن جديد : بعد تحقيق التفوق الاميركي في المثلث الصناعي، يمكن رسم مثلث آخر، سياسي هذه المرة مع موسكو وبكين. وعلى الولايات المتحدة توفير الدعم المؤقت، للاضعف ضد الاقوى، اي لبكين ضد موسكو، انما مع المحافظة على العلاقات الوثيقة على قدر المستطاع مع الاعداء الاكثر خطراً. والعلاقات الوثيقة كالوثاق المشدود، لأن السوفيات الذين فقدوا الاعتبار الدولي من جراء سياستهم القمعية، قد يلجأون لتحرير نظامهم عبر انتهاج سياسة تقوم على الترهيب والترغيب. لم يكن كيسينجر يجهل ان الحاجات الغذائية للبلدان الشرقية ورغبتها في الانفتاح على التكنولوجيات الحديثة كانت تدفعها للتعجيل في الحوار. كان يستطيع استغلال هذه الاستعدادات لديها كي يضمن قيام توازن مبني على موازاة القوى المتصارعة في الكتلة الشيوعية السابقة مع « التحالف المقدس » الجديد للدول الحرة. وبهذه اللعبة يستعيد الاميركيون نفوذهم وتفوقهم الدبلوماسي في آن معاً.

كان كيسينجر يدرك أنه لا يستطيع الاعتماد، في المعركة التي يخوضها، لا على دعم الكونغرس ولا على مساعدة ادارة فضفاضة تتجاذبها التيارات المختلفة، ولا على مساندة الصحافة التي خاب املها بنيكسون لموقفه المراوغ أو المتبرم أو العدائي منها. كان عليه الاعتماد على نفسه فقط. ولن يقف في وجهه ما يثبط همته، لاقتناعه الراسخ بأنه يمسك بالفرصة التاريخية المتاحة للمهاجر اليهودي الصغير القادم من بافييرا، كي يعيد رسم خريطة العالم وفقاً للمنطق العملي للامور.

هذا الشغف وهذه القناعة وجّها افعاله على الدوام، منذ ان بدأ يمارس وظيفته التي امتدت حتى عام ١٩٧٦، ثماني سنوات لتغيير التاريخ من دون الانحراف عن طريقه.

في فيلم « الفارس الهادئ » الذي صوّر بعد عام ١٩٦٨، يجسّد جاك نيكولسون دور محامٍ في مقتبل العمر، يختار الرحيل والتخلي عن حياته المنتظمة السابقة ـــ، بهدف التخلص من الممنوعات والاخذ بما تقدمه الحياة والصدفة له. لم يكن كيسينجر شاباً مغامراً أعمى، يتكل في مسيرته على النجوم ويسلّم زمام اموره، معصوب العينين، الى آلهة « الهيبيين » : فهو يتابع سيره، بدلاً من أن « يأخذ » الطريق، لكنه يدرك، منذ ان حبس مئات الملايين من المشاهدين انفاسهم امام شاشة التلفزيون، في اول هبوط على القمر، ان العالم واحد، وانه يوجد، كما في عهد ماتيرنيخ، محفل دولي يحترم الاخلاق وحقوق الانسان وتطلق عليه تسمية الاسرة الدولية. وتجد هذه الاخلاق مكاناً لها في معسكر القوى السياسية المتصارعة. وفي هذا الكون « الواحد » لا مجال للمفاوضات الجزئية، فمسائل فيتنام والشرق الاوسط والاقصى، وبرلين ونزع السلاح وزنوج اميركا ويهود الاتحاد السوفياتي، مترابطة فيما بينها. والسياسة القائمة على الربط بين هذه المسائل تقضي بالتفاوض على جميع المشكلات الكونية المطروحة، مع الاخذ بعين الاعتبار بأن كل تنازل هنا يقابله تنازل هناك. ذلك ان كيسينجر لا ينهج في السياسة الدولية نهج ويلسون. عندما ارتفع صوت نيكسون مؤكداً « ان عهد المفاوضات قد بدأ »، كان يريد القول فقط ان القوة لا تقود الى النصر، كما الاخلاق لا تعني الفضيلة. وكاد يعكس عبارات القول المأثور لروشفوكو بأن « الحقيقة لا تحمل الاذى بقدر ما تحمل مظاهرها الخير في طياتها. فاذا استخدمنا مظاهر الخير من دون التعرض للجوهر، يمكننا التأثير في مظاهر الشر. وكيسنجر في تشاؤمه لا يميل الى « الفلسفة البيرونية » التي تدعي ان كل حقيقة احتمالية، وهو لا يؤمن لا بالحقيقة ولا بالفضيلة؛ والى كونه ينزع الى

التشكيك في جوهر الاخلاق المثلى، يرى أن اللجوء الى اشكال تلك الاخلاق يكفي وحده لتقدم المفاوضات من خلال استخدام الرأي العام.

ضمن هذا المفهوم لن يجد رسول السلام الراحة لأنه لا يؤمن بالامن الجماعي، وقد مضى الزمن الذي كانت تطمح فيه الولايات المتحدة لممارسة دور الشرطي في العالم. لكن لا شيء يمنعها من أن تستلهم بهذه السياسة المتجددة مصالحها المادية والمعنوية التي يمكن استبدالها بالمال؛ فالولايات المتحدة تحمل التوراة بيد، والآلة الحاسبة بيد إخرى. وقد دفع كيسينجر هذا المبدأ الى حده الاقصى، لدرجة مبادلة تحرير اليهود السوفيات ببضعة اطنان من القمح.

الحرب عند البنتاغون، حرب ونصف

لهذه السياسة وجهان، الأول معلن، ويفترض شرحاً مستمراً لسياسة الحكم أمام وسائل الاعلام بهدف تبريرها والاعلان عنها، والآخر سرّي، ويفترض المرور بقنوات غير مألوفة وغير حكومية؛ وقد جرى انشاء « شبكة اتصال مباشر بين غرفة العمليات في البيت الأبيض والخارج من دون المرور بوزارة الخارجية » (هنري كيسينجر). وتم الاهتداء الى وسطاء مميّزين وجرى تدريبهم وتكليفهم بالمفاوضات. وقد يكونون من السفراء، مثل دوبرينين، أو خبراء اجانب مثل الفرنسي جان سانتيني الذي استعين به مراراً « لمقاربة » هوشي منه، أو حتى عملاء جهاز ك.ج.ب. مثل بوريس سيدوف. يستشهد كيسينجر بكتاب كانط « السلام الدائم » ويقول : « عندما تمتلك الدول وسائل ابادة عشرات الملايين من البشر، في بضع ساعات، يصبح السلام ضرورة اخلاقية ». وكل شيء مباح لبلوغه.

كانت بدايات الرحلة في مجملها غير مشجعة، وقد رافق نيكسون في جولته الاوروبية، عام ١٩٦٩، ثماني مئة شخص. هل كان ينوي حماية

مؤخرته وجانبيه قبل الغوص في مفاوضات حول فيتنام ؟ علم كيسينجر ان ديغول لن يوافق على دخول بريطانيا العظمى السوق المشتركة الا بشرط تخلّيها عن « التحالف المميز » مع الولايات المتحدة، وان ويلسون العمالي يتطلع نحو موسكو، بعد ماكميلان الذي لم يتردد في الوقوف الى جانب السوفيات معتمراً قلنسوة من فرو الاستراغان. كما لاحظ موقف ويلي براندت المراوغ ازاء السوفيات. اثناء زيارة نيكسون لروما، نظم الشيوعيون اعمال شغب اثناء التظاهرات المعادية للحلف الاطلسي. كذلك كان الايطاليون يودون مصالحة اوروبا الشرقية ويأملون في انهاء حرب فيتنام، مما يحرم الشيوعيين لديهم كل موضوعات دعايتهم، اما ديغول، فكان يعتقد أن الاتحاد السوفياتي والشيوعية امران مختلفان. واذا لم تسارع الولايات المتحدة الى مفاوضة موسكو، فان الدول الاوروبية ستسبقها وبشكل فوضوي الى ذلك.

سارع كيسينجر الى انشاء « شبكة » اتصال مع السفير السوفياتي في واشنطن، دوبرينين. كان اول من اهتم بقيام مثل هذا التقارب الذي كان يعتقد أنه سيكون مفتاح السلام في فيتنام. كان الاتحاد السوفياتي يتولى تسليح قوات جياب ويمتلك وسائل ضغط على هوشي منه. وكانت الضرورة، الملحة تقضي بالتفاهم مع الاتحاد السوفياتي بعد ان اصبح مخزونه من الاسلحة يضم ٦٥٦ بولاريس و ٥٤ صاروخ تيتان ولكن كيسينجر لم يكن ينوي، مثل السوفيات فصل مسألة نزع السلاح عن مجمل المفاوضات. وقال لهم : « يأمل الرئيس معالجة مسألة السلام في كل ابعادها وليس من الزاوية العسكرية وحدها ». وعلى الاستراتيجية الدبلوماسية ان تكون « جغراسية »، على حد قوله.

كانت هذه الاستراتيجية محكومة، بالطبع، بهاجس تحييد الاسلحة الذرية وابطال مفعولها : وحده الاتفاق على الحد منها يتيح اقامة علاقات تجارية. كان القانون الأميركي يمنع، الى الآن، اعتبار دول اوروبا الشرقية

من بين الدول الاكثر رعاية في حقل الاستيراد (باستثناء بولونيا ويوغوسلافيا). منحت بضعة رخص للاستيراد، لكنها بقيت محدودة بحسب قانون مراقبة التصدير لعام ١٩٤٩ الذي يوجب تنظيم بيان بالصادرات الاستراتيجية المحظرة. وكان الشيوخ الثلاثة والتر موندال، وادمون موسكي ووليم فولبرايت قد بدأوا، بدعم من صحيفة نيويورك تايمز، يشكلون فريقاً ضاغطاً يدّعي بأن « الحد من التبادل التجاري يضرّ باقتصاد الولايات المتحدة وليس باقتصاد الدول الشرقية ». كما كان مزارعو الغرب وشركة بيبسي كولا (بادارة كندال الذي دعم بقوة حملة نيكسون الانتخابية) يدفعون باتجاه تحرير المبادلات التجارية. غير أن كيسينجر كان ينوي ايضاً استخدام هذا السلاح لفرض تسوية شاملة يكون اول بند فيها الحد من الاسلحة.

اصطدمت تلك التسوية بأول عقبة لها من جراء وجود صواريخ مضادة للصواريخ، منذ عهد حكم الرئيس جونسون، فضلاً عن صواريخ سبارتان وسبرينت القادرة على مهاجمة الصواريخ المعادية. وكان هذا البرنامج (وضع في الاساس للدفاع عن المدن، لكنه استبدل عام ١٩٦٩ ببرنامج « الحماية الذاتية » حيث تتولى الصواريخ المضادة حماية الصواريخ العابرة للقارات). واضطر السوفيات عندئذٍ للتعجيل في تطوير سلاحهم المضاد للصواريخ « غالوش ». واذا احتفظت اميركا بصواريخها الباليستية (المضادة للصواريخ) فكل اتفاق يصبح متعذراً، لأن لا شيء يحول دون اسراع الاتحاد السوفياتي في انجاز برنامجه من تلك الاسلحة.

كانت بداية التقارب الصيني ــ الاميركي تعطي ثقلاً لكيسينجر في مفاوضاته. فهو يعلم ان العلاقات بين الدولتين الشيوعيتين تزداد خطورة. اعتباراً من ١٩٦٦، نقلت وحدات الصدم المجهزة تجهيزاً جيداً من اوروبا الى الحدود الصينية، وعقدت معاهدة مع مونغوليا تتيح للاتحاد السوفياتي استخدام هذا البلد كقاعدة عسكرية. وارتفعت القوات على

الحدود من ١٢ فرقة الى ٤٠ فرقة، عام ١٩٦٩. وكانت الاشتباكات في اوسوري تفسح في المجال بانتظام لقيام دعاية واسعة في التلفزيون السوفياتي ولكشف الاعمال الوحشية التي يرتكبها الصينيون ضد الاسرى. واتخذت، في كازاخستان، تدابير لحماية المدنيين فيما كان الصينيون يحفرون الملاجئ المضادة للاشعاعات النووية. وكان ريتشارد هيلمز مدير وكالة الاستخبارات المركزية، قد نبّه كيسينجر، الى ان موسكو راقبت اقمارها الصناعية الاوروبية قبل اعدادها للغارة على المنشآت النووية الصينية في لوب نور في سينكيانغ. فالظروف باتت جد ملائمة للقيام بمفاوضات مزدوجة.

كانت عملية مقارنة الاسلحة، بادئ ذي بدء ترتدي طابع الزيف والغش. فالولايات المتحدة سبق لها، عام ١٩٦٠، ان اوقفت انتاج الصواريخ المضادة للصواريخ وكانت طائراتها القاذفة الضخمة من طراز ب ٥٢ والبالغ عددها ٤٠٠ طائرة، تكفي لشن هجوم يستهدف اراضي العدو. لكنها ضاعفت القدرة الهجومية للصواريخ القائمة بتزويدها برؤوس اضافية (وهي عبارة عن صواريخ متعددة الرؤوس توجّه بصورة مستقلة فيما بينها). وكانت اكثر خفّة ودقّة وفعالية من الصواريخ السوفياتية الثقيلة. وكانت بالتالي كل مقارنة للكميات المتوافرة لدى الطرفين، خادعة وزائفة. كما وافق نيكسون، تحت ضغط مجلس الشيوخ، على اقتطاع مبلغ ٥ مليارات دولار من موازنة الدفاع، لكنه لم يتخلّ البتة عن تحسين نوعية الصواريخ؛ فالطائرة القاذفة من طراز ب ١، والصاروخ المعدّ لتجهيز الغواصة تريدانت، وام اكس، الصاروخ العابر للقارات، كانت كلها في الصناديق. فاذا جرى التخلي عن الدفاع عن البلاد بواسطة الصواريخ المضادة، فمن اجل ردع السوفيات عن ضرب النظام الدفاعي الاميركي اولاً وتدميره. والتناقض كان واضحاً للعيان : تحاشياً للحرب، كان يجب تعريض المدن من دون دفاع لضربات العدو. كان مبدأ « التدمير الاكيد » ينطوي على « الاستراتيجية الاقل انسانية »، على حد

ما يقول كيسينجر اذ كان من الافضل حماية قواعد الصواريخ على حماية المدن.

من بين الموضوعات المدرجة في المفاوضات الشاملة، لم يسقط السوفيات من حساباتهم الأسلحة التي تتلقاها اوروبا من منظمة حلف الاطلسي. كان من الضروري تزويد اوروبا بالاسلحة التكتيكية التي تجنب الاستخدام الفوري للاسلحة الاستراتيجية. غير أن هذه النظرية لم تكن ترضي الدول التي تكره تكديس الاسلحة النووية حتى الخفيفة منها على ارضها. كانت تطلب حماية الولايات المتحدة بشرط عدم التعرض لضربات العدو. وكان بامكان السوفيات اللعب على هذه التناقضات.

كان كيسينجر يعتبر ان بلاده لا تمتلك القدرات اللازمة للاضطلاع بمبدأ ماكنمارا حول « الحربين والنصف ». كان كيسينجر يرى ان اقدام كل الدول الشيوعية على شن هجوم متزامن في وقت واحد، امر بعيد الاحتمال، ولذلك كان يقترح تصوّر قيام « حرب ونصف » فقط (اما في اوروبا، واما في آسيا وليس في كليهما معاً)، وتخليص البنتاغون من « هاجسه حول الشيوعية المتراصّة ككتلة واحدة ». والبرهان على امكانية تخفيض القوة الاستراتيجية الاميركية ينبع من توقيع اتفاق سريع مع الصين. وفي هذا السياق، كان « مبدأ نيكسون » يضمن للحلفاء حماية الدرع النووي الاميركي، غير أنه كان يوضح بشكل قاطع ان الولايات المتحدة لن تشارك في اية حال في الحروب الاهلية. فالدعم للدول التي يعتدى عليها يفترض ان تتولى مهمة حماية نفسها بنفسها.

نيكسون وفيتنام

كان يفترض بمجمل الاجراءات العسكرية التي اقترحتها الادارة الجديدة، ان تلقى ترحيب الرأي العام، الذي كان يأمل انطواء اميركا على ذاتها، والمجموعة الدولية التي استهوتها فكرة نزع السلاح والمفاوضات

بين الشرق والغرب. لكن حرب فيتنام بدت كأنها تقف حائلاً دون احراز اي تقدم، فضلاً عن المبالغة في تقدير مدى تأثير موسكو على هانوي. فالفيتناميون الشماليون كانوا مصممين على متابعة الحرب حتى النصر التام واحتلال الجنوب بعد انسحاب القوات الاميركية منه. وكان على كيسينجر تقدير اهمية هذا التصلب ثم مواجهته.

كان عدد الضحايا الاميركيين البالغ ٣١٠٠٠ يقف حائلاً دون اعتماد حلّ الانسحاب من فيتنام. وكان استئناف الهجمات الشيوعية وتكثيف عمليات التسلل والاعتداء على فيتنام الجنوبية يفرض على الجنرال ابرامز تعديل خطته، لجهة قيام الجيش بحماية المدن. كان نيكسون يأنف، لاسباب سياسية، استئناف قصف الشمال، لكنه اضطر لذلك بعد ازدياد قواعد الفيتكونغ على الحدود الكمبودية حيث تقوم مجموعات « بودوا » بالتسلل الى فيتنام الجنوبية. وقرر الجنرال ابرامز ضرب تلك القواعد واطلاق الطائرات ب ٥٢ لمهاجمة كمبوديا، البلد المحايد. وفي ١٨ آذار ١٩٦٩، تعرضت القاعدة الفيتنامية ٢٥٣ لغارة اميركية من دون اصابة جاموس واحد، على حد ما اكده الامير سيهانوك. فقد تسربت تفاصيل مقررات مجلس الامن القومي الى صحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست، وغضب نيكسون وقرر وضع ١٣ موظفاً و ٤ صحفيين قيد المراقبة.

لم تحرز مفاوضات باريس تقدماً يذكر، على الرغم من استبدال هاريمان بكابوت لودج. واثر اتصال نيكسون بهوشي منه، طالب هذا الأخير بالانسحاب الكامل للقوات الاميركية كشرط مسبق لاية مفاوضات. وللخروج من المأزق واثباتاً للرأي العام انه الوحيد الذي يسعى الى السلام، اقترح نيكسون، في ١٤ ايار، روزنامة انسحاب متبادل للجيوش ووقفاً للنار، واجراء انتخابات عامة في فيتنام. غير أن هذا العرض العلني والأول من نوعه للسلام بقي من دون نتائج تذكر. كما قرر

نيكسون سحب ٢٥٠٠٠ جندي من طرف واحد ضارباً عرض الحائط باحتجاجات ابرامز والرئيس تيو. واعلن عن عودة ١٠٠٠٠٠ رجل الى بلادهم قبل عيد الميلاد. وهذا يعني عودة حوالي ٦٠٠٠٠ جندي الى كوريا الجنوبية وتايلايند واليابان والفيليبين، تدليلاً على ان « مبدأ نيكسون » ليس « صدمة اعلامية » بحتة. في الوقت الذي كان رجال الفضاء الاميركيون يحققون هبوطهم على سطح القمر، كان كيسينجر يلتقي سراً كوان تيو السفير الفيتنامي في باريس، في احد فنادق شارع ريفولي في العاصمة الفرنسية، حيث عرض عليه رحيل حكومة تيو من دون ان تخسر ماء الوجه. بعد بضعة ايام، استؤنف الهجوم الشيوعي، فردّ الاميركيون بعملية « فخ البط » التي تضمنت تلغيم الموانئ وتدمير اهداف معينة. وتحاشياً لصدم الرأي العام، اشترط كيسينجر على ابرامز تجنب المدنيين بصورة مطلقة.

غير ان كيسينجر لم يهدئ من غضب انصار « السلام الآن »، اذ وقف بعض اعضاء ملجس الشيوخ يخطب في مئة الف شخص تجمعوا في بوسطن، في ١٥ تشرين الأول، يوم « ذكرى فيتنام » (اكثر من مليون متظاهر في كل البلاد)، كما التقت هيئات نسائية في تورونتو ثلاثة ممثلين للفيتكونغ. وقام الطلاب بحرق العلم الاميركي ورفع علم فيتنام. بعد وفاة هوشي منه (ايلول ١٩٦٩)، قدّم روبرت كينيدي حكومة فيتنام الجنوبية على انها مسؤولة عن استمرار الحرب وطلب التخلي عن سياسة التحالف مع نظام تيو. وكتب ٧٩ معهداً وجامعة رسائل الى نيكسون مطالبين بالسلام الفوري غير المشروط. وخصصت التايمز ونيوزويك صفحات عدة للتظاهرات التي كان يشارك فيها عدد من النواب. وفي الجامعات، قامت حملات استنكار واسعة ضد الابادة الجماعية. وكانت مسألة استمرار الحرب قد اثارت في لندن وباريس والمانيا الغربية وايطاليا عودة الحركات الطلابية الى الظهور، وكذلك التظاهرات الاكثر حدة. فعاد العنف عام ١٩٦٩ الى جامعة نانتير. وفي برلين وروما، كانت

الاضطرابات اشد ممّا كانت عليه في السنة المنصرمة. وكانت كلمة السر فيها انهاء الحرب في فيتنام. وفي رسالة جوابية، وجّهها كيسينجر الى نيكسون حول معنى هذه الانتفاضات الطالبية، كتب يقول : « انكم تشاركونهم القناعة بان الليبرالية الجديدة (التي يطلق عليها عبارة نيوديل) ينبغي اعادة النظر بها في العمق وان دور اميركا في العالم يقتضي ان يكون متوازناً ومحدوداً. هل هذا يعني الانسحاب العسكري ؟ ثمة اكثر من ذلك، اذ ساد الشعور بأن الشيوعية اصبحت من الماضي ولم تعد تثير الخشية. واضاف كيسينجر : « انتم في الواقع، بصدد تحريك الامور في الداخل والخارج، بقدر ما يودّ هؤلاء الطلاب تحريكها بأنفسهم ». كان نيكسون ينتهج سياسة ما بعد عام ١٩٦٨ القائمة على عدم التورط العسكري و ــ في الظاهر على الاقل ــ احترام حقوق الانسان. وختم ناظر الخارجية الاميركية بالقول : « من الخطأ مهاجمة هذه المجموعة [الطلاب] وجهاً لوجه ».

فيما كان الرئيس مضطراً لمواصلة الحرب، سعى الى تأليب الرأي العام من خلال الظهور على التلفزيون في ٣ تشرين الثاني. وطلب الى « الاكثرية الصامتة » (التي يدرك وجودها من استطلاعات الرأي)، « الاتحاد من اجل السلام، وضد الهزيمة ايضاً ». ٧٧٪ من الاميركيين ايدته. ووجد ان الطريقة لا بأس بها وعاد في ٢٠ نيسان ليظهر على الشاشة الصغيرة شارحاً سياسته من جديد، ومتجاوزاً الكونغرس المناوئ له، ومعلناً عودة مزيد من الجنود من فيتنام؛ ثم ظهر من جديد في ٣٠ منه كأنه رجل السلام مبرراً العملية المنوي تنفيذها في كمبوديا. غير أن ٤٤٨ معهداً وجامعة اعلنت بعدئذ الاضراب وطوّق المتظاهرون البيت الابيض. وفي معهد كانط، في اوهايو، قتلت الشرطة شابين وفتاتين. وفي معهد جاكسون في الميسيسيبي، قتل زنجيان. فلم يتردد نيكسون من التوجه ليلاً الى نصب لينكولن حيث يعتصم الطلبة. استمع حوالي الثلاثين منهم الى خطابه حول السلام، فيما عمال البناء في نيويورك، راحوا

يهاجمون المتظاهرين بالعصي. وفي ذكرى الاستقلال (٤ تموز) انشد ٢٥٠٠٠٠ متظاهر النشيد الاميركي في شوارع واشنطن. نجح نيكسون، مثل الديغوليين عام ١٩٦٨، في حشد انصاره. غير أن عروضه للسلام المتكررة لم تلق آذاناً صاغية. فعلى الرغم من نصائح موسكو (وربما بكين ايضاً)، اصرّ نظام هانوي على القتال حتى النصر التام الذي لا يعني فقط انسحاب القوات الاميركية من فيتنام، بل قيام جمهورية شعبية على مجمل الاراضي الفيتنامية وكذلك في كمبوديا ولاوس.

الهيجان الفلسطيني

لا يجوز ان يبدو السلام، في اي حال، كأنه نوع من الاستسلام حتى ولو ضاعف كيسينجر من تنازلاته في الفترات التي كانت تخف فيها حدة القتال. وبات الحفاظ على نظام تيو و « فتمنة » القوات المسلحة في فيتنام الجنوبية الخط السياسي الجديد للتصدي لمطالب الشيوعيين، وبدأ البحث عن حلّ يشبه الحل المعتمد في كوريا.

وهذا الخط في السياسة الاميركية يتخذ له وجهين في غير مكان من العالم : من جهة، هناك تظاهر بتقديم تنازلات محددة، ومن جهة اخرى، يصار الى الابقاء عملياً على سياسة القوة عينها. هكذا كان الحال مع اليابان التي طالبت بجزيرة اوكيناوا وحظيت بدعم اليساريين والاشتراكيين، وبدا في الظاهر انها ارتضت رسمياً باعادة الجزيرة اليها عام ١٩٧٢. واحتلّ هذا الخبر عناوين الصفحة الأولى في الصحف ومقدمة الاخبار في التلفزيون. غير أنه جرى اغفال الاشارة الى ان العسكريين الاميركيين قد احتفظوا بحق تخزين الاسلحة الذرية في قواعد يحتفظون بها « لحالات الضرورة » التي يعود لهم وحدهم تقديرها.

كيف يمكن تأييد « مبدأ نيكسون »، في كل مكان من العالم فيما الاخطار تتفاقم ؟ ففي الشرق الأوسط، توسعت اسرائيل خارج حدودها،

وهي ترفض اعادة الاراضي المحتلة، فيما عمليات التخريب والارهاب تتضاعف؛ ففي شباط، احصي ٢٣٤ قتيلاً في صفوف الجيش و ٤٧ بين المدنيين. قصفت اسرائيل قواعد الفدائيين في الاردن وقامت بغارة على مطار بيروت. عمد الفلسطينيون الى تسليح اللاجئين في بيروت والاردن، وازاء عجز مصر، اصبح هؤلاء الفلسطينيون العدو العربي الرئيسي في وجه الدولة العبرية. ورفضت غولدا مائير التي خلفت ليفي اشكول في رئاسة الحكومة، مشروع روجرز ـــ سيسكو المتعلق بالانسحاب من الاراضي المحتلة مقابل ضمان عربي لحدودها ما قبل عام ١٩٦٧، مع اجراء بعض التعديلات عليها. اوقف نيكسون، في آذار ١٩٧٠، شحن طائرات الفانتوم اليها. فيما كان السوفيات والفرنسيون يدعمون الدول العربية؛ هل كانت اسرائيل على وشك خسارة حليفها الوحيد الذي يزوّدها بالاسلحة ؟ قامت غولدا مائير بزيارة واشنطن ونجحت في الوصول الى ترتيب الامور لجهة اعادة شحن الاسلحة. وجرى توقيع وقف اطلاق النار مع مصر. وتعرض الملك حسين لهجوم مزدوج شنّه اللاجئون الفلسطينيون والسوريون معاً، لكنه صمد بمساعدة الولايات المتحدة التي وجهت تحذيراً لموسكو بعدم التدخل. وبدا نيكسون انه لا يدافع، بأي شكل من الاشكال عن حقوق الانسان في الشرق الأوسط لصالح الفلسطينيين.

غير ان هؤلاء الفلسطينيين ظهروا بقوة على مسرح الاحداث لأن الوضع السياسي في المنطقة بقي من دون حلّ. لم يكن عبد الناصر في السابق مستعجلاً لمعالجة المشكلة الفلسطينية. عام ١٩٦٣، وافق فقط على الاعتراف « بالكيان » الفلسطيني وعيّن احمد الشقيري رئيساً لمنظمة تحرير فلسطين، وسط استياء سوريا التي احتجت على هيمنة القاهرة على هذه المسألة. كما تولّد حينذاك لدى المملكة السعودية التي كانت تموّل حركة فتح، الشعور بالحذر ازاء منظمة تحرير فلسطين، اسوة بالسوريين. كانت الالوية الفلسطينية الثلاث المتمركزة في سوريا والعراق ومصر تخضع للدول المضيفة، كما كان الصندوق الفلسطيني يتغذى من الاموال

التي يقتطعها العرب من تصدير النفط. كان الفلسطينيون يشددون على القول بأن معركتهم لا تقتصر على تحرير الضفة الغربية للاردن انما يودون استعادة اراضيهم كلها. إعتباراً من عام ١٩٦٥، نشأت منظمات فلسطينية خارج منظمة التحرير الفلسطينية. فقامت سوريا التي كانت تحلم باحتلال مركز مصر كزعيمة للعالم العربي، بتمويل « الصاعقة » وتجهيزها بالسلاح السوفياتي. وكانت الدول التي تتلقى مساعدات سوفياتية تنتهج بالتالي سياسة موحدة تقضي بتقديم المساعدة للفلسطينيين ضد القرار ٢٤٢ الصادر عن منظمة الامم المتحدة في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٧ والذي نص على الانسحاب من الأراضي المحتلة، إنما اكتفى بالمطالبة بايجاد حلّ عادل لمصير اللاجئين من دون اعتبارهم بمثابة شعب له حق المطالبة بتقرير مصيره. وكانت حركات المقاومة الفلسطينية المتواجدة في مصر قد عارضت بشدة القرار ٢٤٢ وانتقدت عبد الناصر لموافقته على مشروع روجرز وتوقيع وقف النار مع اسرائيل. وكان « الريس » قد نجح قبل وفاته (٢٨ ايلول ١٩٧٠) في إعادة الامور الى مجاريها بين ملك الاردن وياسر عرفات. كما كان تدخل السوريين الى جانب الفلسطينين في الاردن قد اثار ردة فعل اميركية وتحذيراً لموسكو التي حشدت في شرقي البحر المتوسط اسطولاً كبيراً قوامه نحو ٥٠ سفينة لمواجهة الاسطول السادس الاميركي.

هل كان السوفيات الذين اوقفوا حليفهم السوري عن التدخل في الاردن، يستطيعون دفع المطالب الفلسطينية الى الامام من دون المخاطرة في تفجير حرب جديدة، في حين لم تكن مصر وسوريا مستعدتان لها ؟ ادّت الموجة الثانية من النزوح الفلسطيني عام ١٩٦٧ الى توسيع القاعدة الشعبية للحركات الفلسطينية. واقام العدد الاكبر منهم في الاردن، لكن لبنان وسوريا ضما ايضاً عدداً كبيراً، فيما ٤٠٪ منهم على الاقل استمروا في العيش في فلسطين في ظل الهيمنة الاسرائيلية اما في الاراضي الاسرائيلية قبل عام ١٩٦٧، واما في الضفة الغربية وقطاع غزة. هذه الكتلة

البشرية المؤلفة في ثلثيها من فلاحين لا ارض لهم، يمكن تعبئتها بسهولة لكونها تتمركز في مخيمات بائسة اقامتها لهم الدول المضيفة. من هي الجهة التي كانت تسيطر على حركة المقاومة ؟ هل هم لاجئو قطاع غزة الذين تدربوا على العمل الفدائي ضد اسرائيل في الخمسينات ؟ كان عرفات وابو جهاد ويوسف النجار قد تلقوا علومهم في الجامعات المصرية قبل ان يصبحوا قادة فتح، وهناك كان تأثير الاخوان المسلمين هو الاشد في الاوساط « البورجوازيه » في القاهرة. صحيح ان فتح كان لها في الكويت نواة صلبة. كما كان لها في سوريا قاعدة اشتراكية غير ان قادتها آثروا التمركز في بيروت بصورة رئيسية، كي يظلوا على مقربة من « ابناء النكبة » « وشعب المخيمات ». وهناك فصائل اخرى كانت تتنافس فيما بينها ولاء اللاجئين : فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لجورج حبش انبثقت من مجموعة طلاب في الجامعة الاميركية في بيروت ورفعت الشعار التالي : « وحدة تحرير، ثأر ». وحين لجأت الجبهة الشعبية الى القاهرة، انفصلت عنها « الجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين » وهي اكثر ميلاً الى اليسار، ويرأسها نايف حواتمه. اما عبد الناصر فقد وقع اختياره على فتح وعرفات. ففي عام ١٩٦٨، قدّمه الى السفير السوفياتي، ثم سعى لتزويده لاحقاً بالاسلحة من موسكو. وقد تجاهل الاميركيون الحركة الفلسطينية، اذ اعتبروا ان الفدائيين، كرجال العصابات في اميركا اللاتينية، ينتمون الى تلك الحركات المسلحة التي يساندها الشيوعيون من اجل مناهضة السياسة الاميركية. وينبغي بالتالي مواجهتها بالازدراء.

بروز وجهين جديدين : عرفات والبندي

تسلل الفلسطينيون الى قلب النظام القائم وسعوا الى استمالته لصالح قضيتهم. اذا كان نفوذ ماو تسي تونغ اقل حدة على المقاتلين من « شي » غيفارا، فان الوقت لم يكن متاحاً للفلسطينيين، كما في الصين، للتريث

بانتظار نضوج الوضع الثوري وراحوا يدعون للنضال الفوري الذي من شأنه وحده تحقيق النصر. وقد طمح هذا النضال، بعد سقوط القومية العربية، عام ١٩٦٧، الى قيام الحركة « الفلسطينية » بديلاً لها باعتبار أنه يتعذر انتظار تحقيق الوحدة العربية من اجل تحرير فلسطين. لا بل العكس من ذلك، فان نصر الفلسطينيين سوف يجعل تحقيق الوحدة ممكناً. كان الشعور الوطني يرتكز بمجمله على حلم العودة الى الارض المفقودة. وقد تولى المقاتلون مهمة الوقوف على رأس الحركة القومية العربية الجديدة. وكان عرفات يرفع، بهذا الموقف، راية « الوطنية الشعبية » في وجه الدول « البورجوازية » المسؤولة عن هزيمة عام ١٩٦٧. وجرى تنظيم « اتحادات » في المنفى (من النساء والطلاب واساتذة الجامعات) تتيح اقامة مؤسسات تمثيلية. وفي بعض الدول المضيفة، كبيروت الغربية، قامت امكنة معزولة لها ادارتها الخاصة ومدارسها ومستشفياتها. بعد عام ١٩٦٩ ساند النظام الليبي الجديد برئاسة القذافي، الحركة الفلسطينية ضد الدول التي كانت ترفع بصورة تقليدية راية العروبة. وكان القذافي التي سارعت فرنسا الى تزويده بطائرات داسو، يمتلك وسائل التدخل، اذ اعتباراً من مطلع الستينات صار النفط الليبي يباع في الاسواق العالمية، بفضل استثمارات الثري الكبير هامر، الذي كان على علاقة جيدة بالكرملين وبست شركات اميركية اخرى كانت تستخرج الذهب الليبي الاسود. كان القذافي يحرّض المقاومة الفلسطينية على القيام بعمليات عسكرية ويطالبها بنتائج ملموسة ويدفعها الى مقاطعة مصر التي تبدو بنظره معتدلة. غير أن الوجود الفدائي في الضفة الغربية للاردن انتهى الى الفشل، اذ ان اسرائيل استعادت زمام الامور من جراء السياسة القمعية المتشددة التي مارستها.

غير ان هذا العجز النسبي لم يمنع عرفات من بناء وحدة الحركة عبر لمسات متتالية : عام ١٩٧٠، ارتفع عدد المقاتلين الفلسطينيين الى ١٠٠٠٠ وحققوا في معركة الكرامة اول انتصار لهم ضد اسرائيل. وجرى

تشكيل اول مجلس عسكري للثورة في اطار منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت منظمة فتح قد حددت، عام ١٩٦٩ برنامجها الذي يتضمن اقامة نظام ديمقراطي يضم اليهود ايضاً. وعرضت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين قيام « دولة ديمقراطية يتعايش فيها اليهود والفلسطينيون دون تمييز ». وادت الاشتباكات الدامية بين الفدائيين والجيش الاردني، في ايلول ١٩٧٠، الى ازالة الخلافات المتعددة بين فصائل المقاومة، والى تشكيل قيادة موحدة. وتألفت امانة سر مهمتها الاشراف على اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية من الممثلين الستة لحركات المقاومة. وبذلك اصبح عرفات رئيساً لمنظمة عسكرية مركزية تركت لسائر الحركات الاخرى استقلاليتها في التحرك وقبلت في صفوفها المجموعات الارهابية « كايلول الاسود » والشبيبة القومية الغربية ». هذا الدعم السوفياتي للمقاومة الفلسطينية اعطى الشيوعيين في هذه المنطقة من العالم نفوذاً وتأثيراً كبيرين باعتبار ان فصائل منظمة التحرير الفلسطينية شكلت فيها رأس الحربة في المعارك المقبلة. ففي الوقت الذي كان فيه النفوذ المصري الى انحسار، تشكلت هناك كتلة من الدول التي تدعمها الدبلوماسية السوفياتية بدءاً من الجزائر وليبيا ووصولاً الى سوريا حيث كانت طلبات الاسلحة التشيكية والروسية ترد تباعاً. واذا كان الاميركيون قد رفضوا اخذ الواقع الفلسطيني بعين الاعتبار، فان هذا الواقع دخل، من جراء ولائه لموسكو، في صلب المواجهة القائمة بين الدولتين العظميين في منطقة الشرق الأوسط، حيث كانت سياسة عدم الانحياز التي نادى بها نيكسون قد تجاوزها الزمن. وحقوق الانسان لم يحن زمنها بعد، اذ ان الساعة كانت لحقوق الشعوب ضمن اطار الصراع الاسرائيلي ــ الفلسطيني. وثمة خطة جديدة سوف تبتكرها مخيلة البروفسور كيسينجر الخصبة.

كان ناظر الخارجية الاميركية منشغلاً ايضاً بمسألة التشيلي. ذلك ان هذا البلد قد انعطف في طريق الاشتراكية بعد وصول سلفادور الليندي

بالطرق الديمقراطية السلمية الى الحكم. كيف يمكن التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ما ومنعها من تأميم مناجم النحاس التي تملكها شركات اميركية ــ شمالية ؟ انتخب الليندي رئيساً للجمهورية بنسبة ٣٦,٢٪ من الاصوات، في ٤ ايلول ١٩٧٠، ومعه نشأ ثاني نظام شيوعي، بحسب رأي واشنطن، في اميركا اللاتينية، من دون مساندة موسكو. وكانت الولايات المتحدة قد ساندت الرئيس الديمقراطي ــ المسيحي ادوار فراي، منذ ١٩٦٢، وبذلت لصالحه ثلاثة ملايين دولار. وسبق له في العام السابق ان ألغى زيارة لروكفلر كان ينوي القيام بها لسانتياغو تحاشياً للتظاهرات اليسارية وفاوض الاميركيين على اعادة شراء حصة كبيرة من مناجم النحاس في البلاد. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية قد توقعت فوز اليسار الثوري، وتوقفت الولايات المتحدة عن تقديم اية مساعدة رسمية لبلد تعتبره غير موثوق به، مثيرة بذلك استياء عميقاً في الاوساط الصناعية والمالية. كما ألغت المساعدات العسكرية ومبيعات الاسلحة، الامر الذي أتاح لأليندي كسب بعض الانصار من ضباط الجيش. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تنوي اعداد انقلاب عسكري غير أن هذا المشروع لم يلقَ اي دعم يذكر من جانب العسكريين.

شكّل الليندي حكومة من ١٥ وزيراً من بينهم شيوعيون يتولّون حقائب الشؤون الاقتصادية والاجتماعية. ولم تعطَ اية ضمانة للاستثمارات الخاصة، واصبحت قاعدة نزع الملكية من دون تعويض هي السائدة، كما اقيمت العلاقات الدبلوماسية مع كوبا. ولم يتأخر فيديل كاسترو في القيام بزيارة التشيلي التي تقيم نصباً لتشي غيفارا. لم تتدخل الولايات المتحدة بشكل مباشر. واتخذت ادارة نيكسون كل الاجراءات اللازمة لخنق التشيلي اقتصادياً ومالياً.

ولم يكن ممكناً، عام ١٩٧٠، تصور ارسال حملة عسكرية ولو مموهة ضد نظام حكم قام بطريقة الانتخاب. فالاموال التي دفعت الى

فراي والدسائس التي حاكتها وكالة الاستخبارات المركزية عززت من شأن الدعاية الكاستروية في اميركا اللاتينية. وبدت الولايات المتحدة عاجزة بصورة مؤقتة عن الحركة، كما سبق « لمبدأ نيكسون » ان شلّ تحركها في الشرق الاوسط.

وكان خصومها قد ادركوا ايضاً اهمية وسائل الاعلام في السياسة الدولية. وها هي منظمة « ايلول الاسود الفلسطينية التي احبطها الردّ الاسرائيلي على غارات الفدائيين في الضفة الغربية، تعتمد وسائل مبتكرة لصدم الرأي العام العالمي ولفت الانظار الى القضية الفلسطينية. فانخرطت في نشاط ارهابي ما لبث ان امتدت شبكاته الى المانيا وايطاليا واليابان بفضل الدعم الليبي الذي كانت له فيها فروع ومعسكرات تدريب. تم اختطاف عدة طائرات خلال خريف ١٩٧٠، كما جرى تفجير طائرة بوينغ ٧٤٧ تابعة لشركة بان ام الاميركية في مطار القاهرة، بعد الافراج عن ركابها. كما حوّل الفدائيون ركاب طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة لشركة تي.واي.اي. واخرى دي سي ٨ تابعة للخطوط السويسرية وكذلك لطائرة بريطانية الى رهائن. ولم يفرج عن المسافرين الا مقابل تحرير ارهابيين فلسطينيين معتقلين في السجون الغربية. استأثر هذا الطراز من النشاط باهتمام وسائل الاعلام التي تستهويها هذه الاحداث المثيرة والمفاوضات غير المعلنة. فساهمت في توفير دعاية كبيرة لحركة المقاومة. وما عمّت القضية الفلسطينية ان اصبحت معروفة في العالم كله، على الرغم من اللعنات والتشنيعات التي لحقت بها من جراء ما ارتكبته من عمليات ارهابية.

دخول الصين الشيوعية الى الامم المتحدة

كادت الحرب ان تقع عندما تدخل السوريون في النزاع الاردني — الفلسطيني، فسارعت اربع خافرات وغواصتان اميركيتان الى شرقي المتوسط، فيما وضعت الكتيبة ٨٢ المجوقلة قيد التأهب. وارسلت حاملة

للطائرات نحو السواحل الاسرائيلية سعياً وراء المعلومات عن الاهداف السورية المحتملة. فالاميركيون لا يجهلون ان السوفيات قد اقاموا على ضفاف قناة السويس صواريخ حديثة للغاية. وقررت واشنطن تزويد اسرائيل بـ ٢٥ طائرة فانتوم ف ٤ و ١٠٠ قاذفة سكايهوك أ ٤ ووحدة من الدبابات، اذ كانت ترتاب بالقذافي الذي يمتلك ١٠٠ طائرة ميراج من ان يحوّل طائراته الى مصر حيث يقودها عدد من الطيارين السوفيات. وقدّر كيسينجر عدد الخبراء السوفيات « العاملين في الجيش المصري بما يناهز ١٠٠٠٠ شخص. وكان الروس قد زودوا مصر بما لا يقل عن ثلاثة اسراب من طائرات ميغ ٢١ الحديثة الصنع، وبثلاث بطاريات من صواريخ سام ٣. وكانت التعزيزات في المساعدات التي اوعز بها كوسيغين تنبئ بتدخل وشيك. فهل سيستمر كيسينجر في تطبيق مبدأ عدم التدخل ؟

والتدخل يتطلب منه الاستعانة بقوات الاحتياط المتمركزة في اوروبا. ويتعين بالتالي على الاوروبيين الاضطلاع بمهمات الدفاع عن انفسهم بوسائلهم الخاصة، الامر الذي كان يشكل مطلباً كبيراً. فلا جورج بومبيدو (الذي واجه لتوّه عاصفة من الاحتجاج في شيكاغو بسبب بيع طائرات الميراج الى ليبيا) ولا ويلي براندت، كانا على استعداد للموافقة على زيادة الاعباء الضرائبية لتأمين حاجات الدفاع عن اوروبا بدلاً من الاميركيين. عندما اجتمع وزراء الخارجية والدفاع لدول حلف الاطلسي، في واشنطن، للاحتفال في الذكرى العشرين لانشاء المنظمة الاطلسية، لم يظهروا على عجلة من أمرهم لتحمّل اعباء إعادة تسلّح تقليدي لبلدانهم — وتقدر هذه العملية بنحو ١٢ مليار دولار في السنة، فيما خص الحصة الاميركية وحدها — ٦٠٠٠٠ جندي اميركي غادروا اوروبا حتى الآن، فاضطر المعنيون اعداد العدّة اللازمة للدفاع عن انفسهم في مهلة ٩٠ يوماً فقط.

كان اهتمام الاوروبيين ينصبّ على اجتذاب بريطانيا ومستعمراتها

السابقة الى السوق الاوروبية المشتركة بغية تكوين سوق واسع من المستهلكين. ذلك ان اوروبا تمتلك ما يوازي ضعفي الاحتياط الاميركي من الذهب وتسيطر على نصف التجارة العالمية من دون ان تتحمل اية أعباء عسكرية. استاء نيكسون من هذا الموقف غير المسؤول وقرر رفع الضرائب الاميركية على المستوردات بنسبة ١٠٪. وادرك كيسينجر حينذاك ان على اميركا ان تمتلك الوسائل اللازمة لتطبيق سياستها القاضية بالضرب على وتر العلاقات مع سائر الدول الصناعية وعلى الاخص على وتر الجانب المالي منها. وبدا نيكسون عازماً على التشدد في سياسته عندما اتخذ قراراً حول عدم امكانية تحويل الدولار الى ذهب (اتخذ القرار في آب ودخل حيز التنفيذ في كانون الأول ١٩٧١). كيف يمكن بعد ذلك ايجاد الموارد اللازمة لمواصلة الحرب الفيتنامية ؟

والسبيل الوحيد للخروج من المستنقع الصيني يكمن في فرض الحلّ على حكومة هانوي عبر موسكو. وكان على كيسينجر ان يسرّع محادثاته مع بكين بغية الوصول بطريقة غير مباشرة الى قدر اكبر من التورط السوفياتي. وقام الجنرال فرنون والترز الملحق العسكري في السفارة الاميركية في باريس، باتصالات سرية في فرصوفيا. وبدا زو أنلي ايجابياً، في حين كان لين بياو يوشك على خسارة موقعه السياسي في بكين، ومعه تسقط نظريته حول احتمال قيام نزاع مع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة معاً. وقد تغلب التيار الذي يقوده زوأنلي حين تحالف القادة العسكريون في المناطق وكبار موظفي الحزب المدنيين واجبروا الماريشال على الهرب. وفي ١٣ ايلول ١٩٧١، تحطمت طائرته في مونغوليا فيما كان يحاول اللجوء الى الاتحاد السوفياتي. وادّت التصفيات التي اصابت انصاره الى خلو الساحة من اية عوائق في وجه الخط الجديد. وعزل لين بياو من الحزب، بعد وفاته، لكونه « سعى لتحقيق مطامع شخصية، ومتآمراً ودجالاً وجاحداً وخائناً ». افاد كيسينجر من هذه الانتفاضة الداخلية، واعلن ماو ترحيبه بالرئيس نيكسون في الصين. وكان لتبادل

الفرق الوطنية لكرة الطاولة تأثيره الايجابي في ترطيب الاجواء. واجرى كيسينجر اتصالاً بواسطة الباكستان، بزوأنلي الذي استقبله في بكين. واعلن نيكسون رسمياً خبر لقائه بماو عبر شبكة ن.بي.سي، في ١٥ تموز ١٩٧١، اذ كان ينبغي اعطاء هذا التقارب اكبر قدر من الدعاية بهدف التأثير على موسكو. في الامم المتحدة، قام التانزانيون « برقصة حربية قصيرة » وتعانق الجزائريون، فيما دخلت الصين الشعبية الى الأمم المتحدة في ٢٥ تشرين الأول. وعبّر ممثّل الولايات المتحدة في الامم المتحدة جورج بوش، ووزير خارجيتها رورجرز، عن اسفهما « لاقصاء تايوان ». وبذلك تكون المرحلة الأولى من المفاوضات المثلثة الاطراف قد حققت نجاحها.

تبقى المرحلة الثانية: أظهر السوفيات ردة فعل لامبالية إزاء الانفتاح الاميركي على بكين. وقام براندت بزيارة فرصوفيا حيث اعترف بخط اودير ــ نايس. اما البولونيون فقد عبّروا عن استيائهم لتردي الاوضاع الاقتصادية بالمقارنة مع الغرب : ٥٠٪ من انتاجهم الصناعي لا يباع، فيما سوء المحاصيل الزراعية والبطالة تزيد من مصاعب الحياة لدى الطبقة العمالية الاكثر بؤساً في اوروبا الشرقية. كما كانت الدبابات تتدخل باستمرار لقمع الاضطرابات في غدانسك وسوبوت وستيتين. وحلّ غيريك محل غومولكا في رئاسة الحزب. بالنسبة لكيسينجر، ثمة علاقة اكيدة بين زيارة براندت والحركة البولونية : « حين شجع السوفيات المانيا على انتهاج سياسة اكثر قومية، كان لا بدّ من ظهور تيارات مماثلة في المانيا الشرقية ». بعدما صفق البولونيون لويلي براندت الذي اعترف ضمناً بحدودهم الغربية ها هم لا يرغبون في دفع ثمن اغلى للحم الذي يبتاعونه لدى الجزار.

زيارة نيكسون للصين

لم يكن غيريك المسؤول الجديد الوحيد الذي عينته موسكو في اوروبا الشرقية؛ فقد استبدلت اولبريخت بايريك هونيكر. وكانت الفرصة سانحة لعقد اتفاق حول برلين بشأن توطيد الامن وتحسين ورفع مستوى المعيشة في المانيا الغربية بفضل تعزيز العلاقات معها. هذه الخطوة المتواضعة، تلتها خطوة اخرى تمثلت بعقد اتفاق آخر تولّى نيكسون التطبيل له والاعلان عنه عبر التلفزيون في ٢٠ ايار. فقد وقّع السوفيات معاهدة الحدّ من الاسلحة « الاستراتيجية » (السالت)، في فيينا، في حين لم تحرز المحادثات السابقة في هلسنكي تقدماً يذكر. وكان للنزاع الصيني والتقارب بين واشنطن وبكين اثره في هذا التبدل. وقد وافق الاميركيون على تخفيض ترسانتهم العسكرية، فيما تعهد السوفيات، من جهتهم، عدم زيادة مخزونهم من الصواريخ الحديثة من طراز س س ٩. وبدت « قمة » نيكسون ـــ بريجنيف ممكنة، في ظل هذه الظروف. وبذلك تكون الزاوية الثانية من المثلث أصبحت قاتمة.

غير أن كل نزاع ينشأ في العالم قد يقضي على توازن « القمم الثلاث »، اذ كاد كيسينجر ان يلامس الفشل عندما قرر الرئيس الباكستاني، يحيى، وهو صديق للاميركيين والصينيين، ان يقمع ثورة انفجرت في باكستان الشرقية. فخشيت الهند التي تتزود بالسلاح من موسكو، من اقدام الباكستانيين على قتل البنغاليين فضلاً عن لجوء الملايين الفارين اليها. وكانت انديرا غاندي تتولى الحكم منذ عام ١٩٦٦، حيث يشاركها الشيوعيون وحزب المؤتمر. فأقدمت على تأميم المصارف واستعانت بالخبراء العسكريين السوفيات، متسلحة بدعم موسكو قبل مهاجمة الباكستان الشرقية (كانون الأول). اضطر الاميركيون لارسال الاسطول الثامن الى خليج بنغال، اذ كان المثلث الذي سعى كيسينجر لبنائه على وشك الانهيار.

عرضت كل شبكات التلفزيون في العالم مشاهد المذابح الدائرة في

دولة بنغلادش المقبلة. واوضح كيسينجر : « بات صمتنا دليلاً اضافياً على فقدان الاحساس الخلقي عند حكومتنا ». اعلنت واشنطن حظر شحن الاسلحة الى حليفتها باكستان، فيما كانت الهند تتلقى من موسكو الكثير منها. واصطدمت « واقعية » السياسة الدولية بالحساسية القائمة ازاء حقوق الانسان والتي تغلبت في النهاية على ما عداها. كانت صحيفة « نيويورك تايمز » تراقب باهتمام سفن الشحن الباكستانية الراسية في مرفأ نيويورك، وهي على استعداد لفضح اي انتهاك للحظر القائم، فيما كان الاتحاد السوفياتي يؤيد ويساند حرب العصابات المسلحة التي تشنها الهند في شطري الباكستان. اما الاميركيون فقد وزعوا ١٠٠ مليون دولار كمساعدة لـ ٢,٨ مليون من الباكستانيين الشرقيين اللاجئين الى الهند.

غير ان كيسينجر كان يستشفّ الخطر الداهم : اذا اقدمت الولايات المتحدة على الضغط على الباكستان، كما يطالب حزب المؤتمر والصحافة، باسم حقوق الانسان، فانها ستطلق يدي انديرا غاندي حرة، وتثير، بلا شك، ردة فعل صينية. والحلّ الوحيد يكمن في فرض استقلال باكستان الشرقية.

بقي مجلس الامن يمارس الصمت الفاضح. ولم يكن الهنود الباكستانيون يرغبون في كشف الفظائع المرتكبة في الهجوم والردّ عليه. كانت الصين والولايات المتحدة وكذلك الاتحاد السوفياتي مغيّبون من قبل حلفائهم عما يجري. وعندما طرحت المسألة في مجلس الامن، امتنعت فرنسا وبريطانيا عن التصويت، فيما مارس الاتحاد السوفياتي حق النقض.

وحاول نيكسون القيام بمسعى مع بريجينيف لتليين موقفه، في الوقت الذي كانت انديرا غاندي توافق على استقلال بنغلادش. وحذّر نيكسون نظيره الى انه لن يسمح بقيام عدوان هندي جديد ضد باكستان الغربية. للمرة الأولى، اثبت « الهاتف الاحمر » جدواه، حيث فرضت موسكو وقف المعارك. كما حصلت واشنطن من الرئيس يحيى، على موافقته على انسحاب غير مشروط لقواته من باكستان الشرقية وعلى استقلال بنغلادش.

بعد هذا الامتحان الذي اثار غضب الصحافة الاميركية ضد نيكسون، عاد كيسينجر لمراجعة سياسته. فسعى الى الربط بين مشاكل الهند وحرب فيتنام. وتحقيقاً للسلام في فيتنام، وهو الهدف الأول لدبلوماسيته، كان لا بدّ من المرور مجدداً في بكين لبلوغ موسكو. لا وقت لديه ليضيّعه سدى؛ فالحرب في فيتنام تغوص في الرمل. وقد انتهى الهجوم الذي شنته قوات فيتنام الجنوبية، عبر اللاوس، الى فشل ذريع واثار استهجان الصحافة. وعرض التلفزيون مشاهد لجنود من فيتنام الجنوبية معلّقين في الطائرات المروحية التي اجلتهم. اثارت هذه العملية البائسة ضد مطار هوشي منه، تظاهرات واسعة في واشنطن والى عمليات اعتداء في نيويورك ارتكبتها منظمة « الفهود السود ». فانفجرت قنبلة في غرفة الملابس في مبنى الكابيتول. ونظم انصار السلام اضرابات عن الطعام. في حزيران ١٩٣١، نشرت نيويورك تايمز وثائق سرية مصدرها البنتاغون عن التورط الاميركي في فيتنام. فمنع نيكسون نشرها، لكن المحكمة العليا نقضت هذا المنع. ونشرت دار « بانتام بوك » هذه الوثائق تحت عنوان : « أوراق من البنتاغون ». وقد اظهرت هذه الأوراق ان كينيدي وجونسون قد خدعا الكونغرس والرأي العام، بغية التخلص من اي قيد لخوض حرب فيتنام.

لم يكن كيسينجر ينوي البتة التخلي عن تيو، الكاثوليكي والمناهض للشيوعية والذي اعيد انتخابه بنسبة ٩٤٪ من الاصوات، مقابل الحصول على السلام. وكان نيكسون قد ردّ على نشر « اوراق من البنتاغون » بكشف مضمون محادثاته غير المثمرة مع الفيتناميين الذين كانوا يصرون على استقالة حكومة فيتنام الجنوبية المنتخبة بصورة ديمقراطة. وكان يحسب بذلك أنه سيجتذب الرأي العام الى جانبه، قبل زيارته المقبلة الى بكين.

كانت زيارة الصين نصراً اعلامياً باهراً، اذ محت « مصافحة »

نيكسون لزوأنلي الاهانة التي الحقها دالاس بالمسؤول الصيني من جراء رفضه القاء التحية عليه. واستقبل ماو الوفد الاميركي في المدينة الامبراطورية، « وعلى شفتيه ابتسامة واثقة وساخِرة معاً ». لم تتناول المحادثات موضوعات محددة، انما جرى تبادل الاماني والآراء. وعرض التلفزيون المعالم الصينية السياحية وابرزها « الحائط الكبير » الذي قال عنه نيكسون انه « جدار هائل ». وشاهد الرئيس الاميركي عرضاً لرقص الباليه الثورية، واقيم على شرفه العديد من الولائم بحضور زوأنلي.

اكّد زوأنلي لكيسينجر ان الصين لن تتدخل في فيتنام، فيما وافق نظيره الاميركي على اعتبار الصين « واحدة »، متخلياً بذلك عن تايوان. بعد مضي اربعة اسابيع على هذا اللقاء التاريخي، شن الفيتكونغ هجوماً مزدوجاً عبر كمبوديا والمنطقة المجردة من السلاح : واخترق ١٠٠٠٠٠ رجل الحدود بحماية المدافع والصواريخ والدبابات السوفياتية باتجاه الجنوب. لم يعد للاميركيين هناك سوى ٦٠٠٠ جندي واعتبر جياب انهم سيسقطون لقمة سائغة بين يديه. غير أن الهجوم توقف بفعل القصف الكثيف لطائرات ب ٥٢، والالغام المنصوبة في الموانئ والمقاومة غير المتوقعة للجيش الجنوبي. ولم يستطع بريجينيف ـــ الذي وافق على استقبال كيسينجر ـــ ان يستمع الى العسكريين الفيتناميين.

السلام في فيتنام ؟

في كل مرحلة من مراحل التدخل الاميركي، كان نيكسون يظهر على التلفزيون شارحاً معنى تحركه ضد « الخارجين الدوليين على القانون ». في الكونغرس، كان السيناتور ماك غوفيرن يرعد ويزبد : « لا يجوز لنا بعد اليوم ترك الرئيس يتصرف على هواه في الهند الصينية ». وكشفت نيويورك تايمز « لعبة البوكر البائسة » مطالبة الكونغرس عدم اقرار الموازنة العسكرية. مع ذلك، جاءت استطلاعات الرأي تؤيد نيكسون. واي نجاح لزيارته الى موسكو قد يعيد اليه مجدداً البريق والنفوذ.

في قصر القياصرة في موسكو، لاحظ نيكسون تحفظ محدثيه ثم عدائيتهم الشديدة عندما جرى الحديث عن فيتنام. كانت معاهدة « السالت » قد وقعت. واعتباراً من ايار ١٩٧٢ ولمدة خمس سنوات، يصبح الجباران متعادلين من الناحية النووية : ٢٠٠ قاعدة صواريخ لكل من الجبارين، تنصب حول العاصمة ومناطق اطلاق الصواريخ الهجومية. وينبغي الابقاء على المساواة في عدد هذه الصواريخ، ويمكن للسوفيات صنع ٣٠٠ صاروخ بحر — ارض اضافي تحقيقاً للتوازن مع الاميركيين. وابدى السوفيات ارتياحهم مع ان انتاج الصواريخ المتعددة الرؤوس النووية لم يتوقف، وقد حقق الاميركيون في هذا المضمار تقدماً واضحاً. عقب ذلك، ابدى الكونغرس ارتياحه لسياسة نيكسون واقرّ له ٥ مليارات اضافية. وسبق للرئيس الاميركي ان تعهّد منح الاتحاد السوفياتي ربع المحاصيل من القمح، الامر الذي اثار تقدير المنتجين الزراعيين. كما لحظ تخفيض التعرفات الجمركية ورصد الاعتمادات المالية اللازمة للسلع التجهيزية. توقف قصف فيتنام الشمالية خلال الزيارة التي كان يزمع بودغورني القيام بها الى هانوي. وقد بدا كيسينجر بادي الانشراح للتحرك الجديد الذي تقوم به موسكو، اذ استأنف قادة هانوي المفاوضات، فيما باتوا يتجهون اكثر فأكثر للاخذ بفكرة التخلي عن نظام تيو، مما قد يساعد على بت المسألة بسرعة. كذلك كانت السماء تشهد انقشاعاً فوق منطقة الشرق الأوسط.

في تموز، علم ان السادات الذي خلف عبد الناصر، قد طالب برحيل المستشارين السوفيات من مصر (ويبلغ عددهم ١٥٠٠٠) وبذلك دفعت موسكو في مكان آخر من المسرح العالمي ثمن اعتدالها. فالمحادثات بين غروميكو وكيسينجر اثارت ارتياح المفاوض الاميركي. والسوفيات لا يرغبون في قيام ازمة جديدة حتى ولو ادى ذلك الى تراجع نفوذهم في منطقة الشرق الأوسط، ولذلك جرى تفكيك الصواريخ المنصوبة حول قناة السويس.

تابع الرأي العام الاميركي تحرك نيكسون، الذي ترشح لولاية ثانية ضد الديمقراطي ماك غوفيرن الذي كان يدعو للسلام الفوري في فيتنام والعفو عن الجنود الفارين والغاء التجنيد. اثناء الحملة الانتخابية، توجّه الجنرال هايغ مستشار الرئيس، الى سايغون لاستطلاع نوايا تيو. بدوره حاول كيسينجر اقناع الزعيم الفيتنامي بوجوب ترك الرئاسة. ودلّ فوز نيكسون بالرئاسة في ٧ تشرين الثاني ١٩٧٢ وبنسبة ٦٠٪ من الاصوات، ان الاكثرية تمنحه ثقتها للخروج من المأزق. وفيما كانت المحادثات تراوح مكانها، استؤنف القصف بعنف. واثار سقوط عشرات الآلاف من الضحايا عاصفة من الاحتجاج في الولايات المتحدة وفي العالم كله. ففي فترة عيد الميلاد، ارتفعت زنة القنابل التي تساقطت إلى ما يزيد عن ٣٦٠٠٠ طن. وشبّهت الحكومة السويدية الفريق الجمهوري الحاكم بالنازية. في ٢٦ كانون الأول، استأنفت هانوي المفاوضات، فيما نقل هايغ رسالة الى تيو يدعوه فيها نيكسون بشكل فظ إلى قبول السلام، واخيراً، تمّ، في ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٣، التوقيع على السلام. وتشكلت لجنة دولية قامت بالتدخل الفوري والاشراف على وقف النار. وسوف يصار الى الافراج عن الاسرى خلال ٦٠ يوماً، فيما ينسحب الجيش الاميركي من فيتنام الجنوبية التي تعترف لها فيتنام الشمالية بحق تقرير المصير في اطار دولة واحدة تحكم الاثنين معاً. وتبقى الاراضي التي احتلتها قوات الفيتكونغ في عهدتها.

قدر عدد الضحايا في فيتنام الشمالية بنحو مليون شخص، مقابل ٢٠٠٠٠٠ في الجنوبية. فيما خسر الاميركيون ٥٥٠٠٠ قتيل و ٣٠٠,٠٠٠ جريح، فضلاً عن ٧٠٠٠ فار من الجندية لجأوا الى السويد او كندا. تخلى الجمهوريون عن حلفائهم في الحرب الباردة، وسحبوا قواتهم من تايوان وخفضوا من عددها في كوريا الجنوبية، وطلقوا سياسة ايزنهاور وفوستر دالاس. ووقع تيو، مثل سائر الوطنيين التايوانيين، ضحية التفاهم مع الشرق الذي اتاح انهاء تلك الحرب المضنية. وفاخر نيكسون

بأنه نجح في الوصول الى « سلام مشرّف ». لكن هل كان يحمل هذا السلام الضمانة لاستقلال فيتنام الجنوبية ؟ كان كل شيء يسير كما لو ان ابقاء هذا البلد في الفلك الاميركي، — وقد شكل موضوع حرب طويلة ودامية — لم يعد يدخل بعد الآن في حسابات مجلس الأمن القومي. فالصراع الصيني — السوفياتي، الذي ادرك كيسينجر عمقه، قضى بصورة نهائية على الايديولوجية الصليبية. والدبلوماسية الواقعية « للمثلث » كانت تكفي لضمان الامن، اذ ستتيح تسوية النزاعات الاقليمية، كما سيثبت ذلك التغيّر المفاجئ للرئيس المصري السادات.

بقي القول ان الخروج من الحرب قد قلّص من المصداقية المعنوية للفريق الحاكم الذي سيواجه عما قريب الحملة الصحافية حول فضيحة ووترغيت. وكانت الجماهير الاميركية الرافضة قد رصّت صفوفها طيلة اربع سنوات ضد سياسة القوة التي مارسها نيكسون. « فالحرب القذرة »، حتى بعد السلام، تركت شيئاً من رائحة الكبريت. حتى كيسينجر نفسه، الذي كان يدعي قلب مبادئ الرفض لصالحه من اجل الافادة منها في العلاقات الدولية، اضطر للاغراق في اشد انواع الواقعية صفاقة. ولم يبق شيء، في اميركا عام ١٩٧٣، مما كان يؤمل من الاخلاقيات السياسية المعلنة عام ١٩٦٨؛ وكان للشبيبة الجامعية ما يدفعها للشعور بالمرارة والخيبة.

انخرطت تلك الشبيبة في سوق العمل فكان عليها، اسوة بسائر الاميركيين، ان تدفع الثمن : ٣٦٠ مليار دولار صرفت في حرب فيتنام، فضلاً عن موازنة عسكرية يثقلها التحدي التكنولوجي السوفياتي واعباء الدفاع المستمر عن أوروبا. لملء هذه الهوة، ومنح البلاد القدرة على مواصلة سياسة حضورها في العالم، قرر نيكسون، في ١٢ شباط ١٩٧٣، تخفيض قيمة الدولار، للمرة الثانية. بعد بضعة اشهر، اي في ١٧ تشرين الأول، اعلنت الدول العربية الحظر على نفطها. وسيفتح هذان القراران صفحة جديدة في تاريخ العالم.

حرب النجوم

تقديم

هل كان تخفيض قيمة الدولار، مرتين، في عامي ١٩٧١ و١٩٧٣، نذيراً بنهاية العالم ؟ لا شك أن تقهقر اميركا بات واضحاً. فالاتفاق الموقع عام ١٩٧٢ حول فيتنام ادّى بعد ثلاث سنوات الى اسقاط الطائرات المروحية في خليج سايغون. وشكّل رحيل الاميركيين من آسيا هزيمة اشد خزياً من مغادرة الصين من قبل.

لقد جرى التنكر لجميع الحلفاء في الحرب الصليبية التي شنت ضد الشيوعية : شيانغ كاي شيك مات في العزلة، وسقط تيو ضحية على مذبح السلام، واذا كان النظام الكوري الجنوبي ما يزال قائماً، فانه مدين في نجاته الى الاستثمارات الخارجية التي ادت الى ازدهار واسع لم تتوقعه البلاد. في المحيط الهادئ، خسر الاميركيون ماء الوجه، حتى أن دول الجنوب بسكانها البيض ناصبتهم العداء من جراء سياستهم النووية. وشهدت العلاقات الودية مع اليابان برودة واضحة بفعل الفظاظة التي مارسها الاميركيون في تعاملهم التجاري.

اين هي الولايات المتحدة من سياسة كيسينجر المثلثة الاضلاع، في ميزان الربح والخسارة ؟ ابرزت معاهدات « السالت » التقدم الهائل الذي احرزته الابحاث السوفياتية في ميداني الذرة والفضاء. حتى ولو كانت شعوب الاتحاد السوفياتي تشكو من واقعها لجهة استبدادية النظام القائم

والنقص في المواد الغذائية، فان المسؤولين يمسكون بكل الجبهات بدءاً من السلاح النووي وانتهاء بالتقليدي. حتى ان الاسطول الحربي السوفياتي ظهر في المتوسط والمحيط الهندي. اما الاميركيون، فانهم يتجهون من جراء « مبدأ نيكسون »، الى تخفيض التزاماتهم الدولية. وقد جرت بالفعل، مناقشة مسألة وجودهم في اوروبا في قلب منظمة حلف الاطلسي، داخل الكونغرس في الوقت الذي كان السوفيات يضاعفون من انتاج السلاح ويتوسعون في انشاء القواعد العسكرية وفي تجهيز الجيوش الاجنبية وتسليحها ويعقدون التحالفات العسكرية ويطورون اسطولهم الحربي. وبقدر ما تقتّر الولايات المتحدة في بيع السلاح (مثل طائرات الفانتوم لاسرائيل)، بقدر ما جعل الاتحاد السوفياتي من صناعة الدفاع احد العناصر الحاسمة في توغله في كافة القارات، بما فيها اميركا اللاتينية. وهو يستعد للتدخل بقوة، في منطقة المحيط الهندي، بعد قيام النزاع الهندي ــ الباكستاني. وقد يعوّض عن تراجعه في مصر باحراز تقدم في سوريا وربما في العراق. اما ايران الشاه فهي القوة الوحيدة في الشرق الاوسط التي تستطيع الولايات المتحدة الاتكال عليها بجدية. فيما تبدو المملكة العربية السعودية سريعة التأثر بمزايدات الليبيين والفلسطينيين والجزائريين بحيث انها لا تطمح الى الابقاء على التوازن في المنطقة بأي ثمن. وتسعى الدبلوماسية السوفياتية للتسلل الى منطقة الشرق الأوسط مستفيدة من الفرص المتاحة لها من جراء ما احدثه بروز منظمتي التحرير الفلسطينية وفتح من بلبلة في صفوف الانظمة التقليدية. اما الاميركيون، حماة اسرائيل، فلم يكن لهم أي تأثير على التجمع العربي الناشئ حديثاً.

لا شك ان فشل سياسة كينيدي في اميركا اللاتينية قد شهد استثناءات عدة : فقد نجحت فينزويلا والبرازيل وكذلك الارجنتين بدرجة اقل، في الدخول في سوق التبادل الدولي عارضة المنتجات الصناعية والنفط وامكانات التوظيف والاستثمار في العديد من القطاعات الناجحة. غير أن التحريض الكوبي ما زال قائماً في بحر الكاراييب والجمهوريات الاندّية،

مع ما رافقه من مفاجأة سارة لم تتوقعها موسكو، بانتقال التشيلي الى المعسكر الاشتراكي، وساد الشعور في واشنطن بفعل الاضطرابات في باناما وسلفادور ونيكاراغوا، ان الشيوعية ما تزال على ابوابها وان لا شيء قد تم لوقف تقدمها، حتى ولو نجح كيسينجر في ردع السوفيات عن اقامة قاعدة لغواصاتهم النووية في كوبا، قبالة ساحل فلوريدا. واظهرت مسألة مرفأ سيانغواغوس ان موسكو لم تتخلَّ البتة، بعد ازمة الصواريخ في عهد كينيدي، عن السعي لامتلاك الوسائل الناجعة لنقل الحرب الى ارض العدو.

خلال عقد كامل من الزمن، بدا الاميركيون ميالين للتراجع الى الوراء، والى تقسيم العالم بين « القوى » الجديدة، وارتضوا ان تحتل اوروبا واليابان مكانهما في المحافل الدولية، لا بل كانوا يتوسلون اليهما مشاركتهم في تحمل هذا العبء. والرأي العام الذي اثارت فيه حرب فيتنام شعوراً بالذنب، بدا انه تخلى عن اسطورة اميركا العظيمة، محررة الشعوب. لذا، مارست الليونة في الازمات الاقليمية، وتابعت المفاوضات حول نزع السلاح، وحرصت على استعادة مصداقيتها المعنوية ورصيدها المادي والمالي. وشهد الدولار ادنى مستوى له في سوق القطع، لكنه بقي محافظاً على اهميته بفضل التداول الواسع به، على الرغم من عمليات تزويره في هونغ كونغ وكندا والدول العربية. وادّى دخول العالم في عصر « المال » الى جمود في الانتاج ونقص في رؤوس الاموال في العالم الثالث والى ندرة في الاموال التي تدنى توظيفها، وفاق تصدير المصارف على المصانع، ووجدت الدول التي تفتقر الى الصناعة، في تجارة السلاح والمخدرات تعويضاً مأساوياً حين لم تتوافر لها الافادة من ضرع الارض الثالث، اي النفط. وفي هذه الحالة، لم تحقق تلك الدول على الصعيد الاقتصادي فوائد كبيرة على الاقل في الشرق الأوسط، حيث استخدمت الاموال النفطية في تغذية الحرب.

حين فرض الاميركيون نظامهم النقدي على العالم كله، نجحوا في

الوقت نفسه في امتلاك الوسائل التي تتيح لهم استعادة مواقعهم، اذ لم يتوقفوا على الاطلاق عن الابحاث التكنولوجية، وظلوا اسياد اكبر المناجم واغناها اي منجم « الذهب السنجابي؛ حيث تجمعت الادمغة في مراكز الأبحاث العلمية بغية تأمين التقدم السريع الذي يفرضه السباق الذي تتطلبه حرب النجوم التي تفرض حماية الاقمار الصناعية « والمحطات الفضائية » بالصواريخ العسكرية. وعام ١٩٨٣، رأى النور مبدأ جديد ينص على « الضمان المتبادل للبقاء » والذي عبّر عنه النصر التكنولوجي في حرب الخليج بعد ثماني سنوات، وعودة الولايات المتحدة لاحتلال المكانة الاولى في العالم، مع ما رافق ذلك من انهيار الدول المعادية والمهانة النسبية التي لحقت بالدول المنافسة. غير أن هذا الصعود الجديد الهائل لا يخفي عدم رضى العالم الثالث ولا تضحية العالم الرابع.

الفصل التاسع

المهانة

كانت اميركا تتخبط في ازمة عارمة، عندما برز الثري الاعلامي تاناكا، على التلفزيون يصاحبه « شاميسان » الغيتار الياباني)، وراح يعظّم من شأن ملحمة « ناتيوا بوشي » ويعيد رسم معالم الارخبيل، ويقولبها في سبيل غزو سلمي وصناعي ومالي للعالم. قام « نظام تاناكا » واعطى السياسة مهمة خدمة النمو في كل المجالات، وتوفير الوسائل اللازمة لكسب الحرب الاقتصادية التي تفتك بالعالم منذ تخفيض قيمة « الملك » دولار ومضاعفة اسعار النفط. خلفاؤه كانوا رجالاً من طينته، اذ ان سيد اليابان ليس الشعب، بل حلقة مقرري الشأن الاقتصادي. فالديمقراطية تركت نفسها تغتصب بطيبة خاطر، سيما وان السيد يتقن تجميل الاشكال ويعرف كيف يرضي الشعب.

بدت اميركا، منارة الديمقراطية، كأنها لن تعيش على المهانة التي الحقها بها الحكم الرئاسي. وكان هذا الحكم قد عمل باستمرار، منذ عهد روزفلت، على تدعيم شأنه، بغية مواجهة التحدي الصناعي لدرجة التحول الى ما يشبه « الامبراطورية »، وتمتع، مع مجلس الامن القومي وبضعة هيئات اخرى بسلطات سرية ومنظمة وفعالة في وجه الكونغرس المؤلف من المجموعات الضاغطة، والجهاز الاداري المتضخم الخاضع للتحزبات السياسية. وجاءت فضيحة ووترغيت لترمي ارضاً بالضربة القاضية، السلطة

الرئاسية لصالح مجلس الشيوخ. وبدت الديمقراطية في انتصارها وضعفها، كأنها بحاجة، كي تعيش وتبقى، الى القضاء على الحكم.

في اوروبا، كانت الديمقراطية افضل حالاً بالقدر الذي كانت تجيز فيه تعاقب الاحزاب في السلطة. فالاشتراكيون والعماليون خلفوا المحافظين او المسيحيين الديمقراطيين في بريطانيا والمانيا، عام ١٩٧٥. في فرنسا حلّ اليمين الليبرالي برئاسة جيسكار ديستانغ، محل اليمين الديغولي عام ١٩٧٤. وثمة دولة اخرى شهدت سلسلة من الازمات السياسية، وهي ايطاليا التي لم تتوصل الى تغيير الفريق الحاكم من الديمقراطيين المسيحيين. أما اسبانيا والبرتغال اللتان تعيشان في ظل نظام فاشيستي، فتنتظران بفارغ الصبر ساعة الخلاص : هذه السنوات من وجود كيسينجر في موقع السلطة اعوام (١٩٧٣ ــ ١٩٧٦)، كانت سنوات الانكفاء بالنسبة للولايات المتحدة.

اعوام ١٩٧١ و ١٩٧٣ : التخفيض المزدوج لقيمة الدولار

لعلّ الصدمتين اللتين شكلهما انخفاض سعر الدولار كانتا اشد اثراً على العالم في السبعينات، من الصدمتين اللتين مثّلهما حظر النفط. وسبق لديغول، عام ١٩٦٥، ان ندد بالنظام النقدي العالمي الذي كان يتخذ من الدولار او الذهب او بدرجة اقل من الليرة السترلينية، مقياساً في المبادلات الدولية. عام ١٩٤٥، كان كل ذهب العالم يتكدس في المصارف الاميركية، وقد موّل مشتريات الاعتدة الحربية التي كانت تدفع اثمانها نقداً، أو الديون التي كان يستخدم فيها الذهب رهناً وضمانة لها. بعد عشرين سنة، خرج الذهب من الولايات المتحدة تسديداً للمشتريات التي قامت بها والمبادلات التي ضمنتها. وانخفض المخزون الفيدرالي من ٢٨ مليار دولار عام ١٩٥٧، الى ١٤ عام ١٩٦٨. ولم يكن بوسع

المصارف الاميركية مبادلة الاوراق النقدية بالذهب اذا ما تقدم حاملوها الى الصناديق طالبين خصم قيمتها ذهباً. وقد ادى العجز المتراكم في الموازنة منذ عهد كينيدي، الى اصدار العملة الورقية التي كانت تتيح مواصلة الاستثمار العام.

انكر ديغول على الدولار ان يبقى في ظل هذه الأوضاع، عملة سائدة. فالدول الاوروبية كانت تملك، مجتمعة، ما يساوي ثروة الولايات المتحدة من الذهب وبعض عملاتها كان اقوى من الدولار. وكانت تلك الدول تساوي بين الدولار والذهب فيما خص دفع ارصدة العجز في الميزان التجاري أو المدفوعات مع الولايات المتحدة. وكان يمكن بالتالي للولايات المتحدة ان تسد عجزها بسهولة من خلال اصدار كميات اضافية من الدولار وكانت بهذه الطريقة تستدين بصورة مجانية. واعلن ديغول في مؤتمر صحافي : « هذه السهولة الممنوحة للولايات المتحدة من طرف واحد، تساهم في تمويه الفكرة القائلة بأن الدولار هو عملة محايدة ودولية في التبادل الاقتصادي فيما هو في الواقع وسيلة استقراض مختصة بدولة معينة ». فضلاً عن ذلك، سارعت المصارف الفرنسية الى استبدال الدولار بالذهب، الامر الذي ادى الى تخفيض قيمة العملة الاميركية. غير أن فرنسا لا تستطيع وحدها الاستمرار طويلاً في هذه الحرب، اذ كانت ازمة الثقة التي نشبت عام ١٩٦٨ كافية لزعزعة الفرنك الذي كاد ان يتعرض للانخفاض في تشرين الثاني من السنة ذاتها، الا أنه لم يصمد على سعره في النهاية ابعد من ايلول عام ١٩٦٩. مع ذلك، كان تحليل الجنرال ديغول في محله، اذ اشار الى هشاشة العملة الاميركية وغياب الاصلاحات الجذرية التي تتيح وحدها الابقاء على نظام الذهب قاعدة للتبادل.

تأسس هذا النظام عام ١٩٤٤، في مؤتمر بريتون وودز، واستخدم في صندوق النقد الدولي (حيث تتمتع الولايات المتحدة بحق النقض

وبـ ٢٠٪ من الحصص)، كي يتيح لكل دولة اللجوء الى الاستقراض من الدول الاخرى، وتأمين الدفاع عن عملتها. وكان للدولار، منذ تخفيض قيمته عام ١٩٣٤، سعر صرف ثابت يساوي ٣٥ دولار للاونصة. وقد جرى توظيفه بالفائدة في سندات الخزينة الأميركية، وغدا العملة المضمونة والمرغوبة بامتياز في العالم. مقابل ما يناهز ٤٠ مليار دولار دفعتها اميركا عبر مشروع مارشال، خلال خمس عشرة سنة، باشكال مختلفة، نجحت بفضل عملتها، في تحقيق الاشراف غير المباشر على الاقتصاد في العالم، على حد تعبير بروديل. كانت تستطيع اميركا ان تجيز لنفسها تمويل العجز في ميزانها التجاري، في الاحوال العادية، عن طريق سلسلة من اصدارات الدولار التي كانت تمثل حجم السيولة اللازمة للتجارة الدولية. وكان مخزون الذهب يفوق كمية الدولارات المتداولة بين بلد وآخر خارج الولايات المتحدة. بعد عام ١٩٦٥، تجاوز حجم هذه الدولارات الخارجية قيمة مدخرات الذهب في الخزينة الاميركية الكائنة في « فورت كندكس ». وبدا واضحاً ان النظام يتسبب بالتضخم وان الاميركيين يستخدمونه للحصول على قروض تخولهم شراء الحصص في المؤسسات الاجنبية او تمويل نشاط الدولة. وهكذا كانت الدولارات التي تخرج من البلاد تستخدم لضمان اصدار عملات اخرى، والتضخم يتحّول الى كرة من الثلج. واذا كان العجز الاميركي ما يزال معتدلاً عام ١٩٥٨ ــ ٣ مليارات دولار ــ فانه بلغ حدود ٢٢ مليار، عام ١٩٧١. وارتفعت الاسعار بنسبة ٢٢٪ خلال عشر سنوات، الأمر الذي كان يؤكد استمرار حركة التضخم.

ظلّ كونالي، وزير الدولة لشؤون الخزينة، من اشد انصار « الوضع الراهن »، وكان يرى في كل تغيير خطراً يهدد قدرات الولايات المتحدة المالية. وكان يطوف اوروبا مقترحاً اعادة تخمين سعر المارك او الفلوران لان المارك لن يخفض على الاطلاق. لكن في آب ١٩٧١، كانت

الهجمات على الدولار شديدة في الاسواق العالمية لدرجة ان نيكسون قرر تجميد الاسعار، وحتى انه لم يتداول في الامر، مع مدير صندوق النقد الدولي قبل اتخاذ القرار. خلال ٩٠ يوماً، ترافق هذا الاجراء مع مراقبة الاسعار والاجور وهو تدبير يناقض مبدأ الليبرالية تماماً. ولم يعد الدولار قابلاً للتحويل.

جاءت ردة فعل بقية العملاء فورية، اذ اخذت في التأرجح. الأمر الذي استدعى بالحاح، في ٢٠ كانون الأول، تخفيض الدولار بنسبة ٨٪. اما سعر صرف الفرنك والليرة السترلينية فلم يطرأ عليه اي تعديل، فيما جرى رفع سعر المارك بنسبة ٤,٦٪، والين بنسبة ٧,٧٪. كان بومبيدو وهيث يجدان كسباً فعلياً من ذلك باعتبار انهما يحصلان على كمية اكبر من الدولارات مقابل الكمية نفسها من الفرنكات. أما برلين وطوكيو، فقد تعرضتا للعقوبة. ذلك ان اميركا اخذت تستخدم سلاح المال الذي تستأثر به لوحدها، لفرض اعباء اضافية ـــ مؤقتة ـــ على الانظمة الصناعية التي كانت تثير قلقها وحذرها. مع ذلك، لم تصمد جبهة الدولار اذ جرى تخفيضه مجدداً في كانون الثاني بنسبة ١٠٪ من دون تثبيت سعر صرفه. واستتبع ضعف العملة الاميركية الفوضى العالمية والبلبلة في اسواق العملات الاخرى.

كان الاميركيون يستخدمون هذا الاختلال بمهارة : فقد احتفظوا بامكانية اصدار كميات هائلة من الدولار، حتى ولو كانت قيمته مخفّضة، لمواصلة التوظيف في الخارج ولا سيما لانشاء الشركات المتعددة الجنسيات التي كانت تتيح لهم « منع تمركز » المؤسسات والرساميل. وشكّلت كتلة « الاورودولار » (وهي تسمية الدولار الخارجي سواء كان اوروبياً أو عربياً أو يابانياً) التي جرى اصدارها خلال خمس سنوات، اعصاراً من الرساميل العائمة والهائمة، والمستعدة للاستثمار لاجل قصير في اية عملية مضاربة، مسرّعة بذلك التضخم في العالم.

ووافق نادي الدول العشرة الأكثر تقدماً على الصعيد الصناعي على انشاء « حقوق طبع عملات خاصة » على الرغم من المعارضة الفرنسية. وكانت ادوات الدفع هذه التي اصدرها صندوق النقد العالمي، محررة بالدولار وموضوعة بتصرف الدول الاعضاء. وهكذا تم وضع ١٠ مليارات من هذه العملة الجديدة قيد التداول بين اعوام ١٩٧٠ و ١٩٧٢، الامر الذي اتاح حجب ضعف الدولار وسحب الذهب من التداول. وعندما يتوقف البحث عن الذهب، يبقى الدولار العملة الوحيدة المستعملة في التبادل والمرجع الوحيد لسائر العملات الاخرى. وكان تخفيض العملات يقضي على جهود الدول الاوروبية التي اجمعت فيما بينها على خلق جهاز يمنع اي تبدل في سعر العملات فيما بينها بنسبة تتجاوز ٢,٥٪. غير ان تقلب كتلة الدولار بشكل لا يمكن السيطرة عليه كان يحدّ من فعالية هذا الجهاز. وكان يمكن لهذه الحالة غير المستقرة ان تستخدم، من سنة الى اخرى، لسد العجز في ميزان المدفوعات الاميركية. بصورة مصطنعة وعلى حساب سائر العملات الاخرى. وكان الاقتراض وسيلة اخرى مربحة لانها لا تمنع تسديد الدين مجدداً بدولار منخفض ايضاً. وبلغت ديون الدولة الفيديرالية ارقاماً خيالية لدرجة ان ربع موارد الموازنة كان يذهب لتسديد فوائد تلك الديون. وعما قريب ستبلغ ديون العالم الثالث ما يساوي نصف ديون الولايات المتحدة — وكانت واشنطن قد نجحت، بفضل تفوقها العالمي، في امتلاك الوسائل التي تكفل لها التقدم التكنولوجي والمحافظة على المكانة الاولى في العالم.

صدمة النفط الاولى

لم يكن باستطاعة اية دولة في العالم عدم التأثر بنتائج تخفيض الدولار لأن معظم المبادلات التجارية في الدول الاوروبية او اليابان كانت تجري مع الولايات المتحدة. فالتجارة مع الدول الشرقية لم تتعدَّ نسبة ٨٪ من المبادلات العالمية في احسن الاحوال. اما الاميركيون الذي تسببوا

بالتضخم العالمي، فقد كانوا يرفضونه في اقتصادهم الداخلي، ويجهدون، من خلال تخفيض اعباء الدولة، لاعادة عجز الموازنة الى مستوى مقبول. وكان النواب شديدي اليقظة في هذا المضمار، ويتبعون تعليمات الاختصاصيين الاقتصاديين البارزين في شيكاغو. ولم تتوان الدول الاوروبية واليابان، بدورها عن اجراء رقابة على الاسعار والاجور، وهو ما دعي في فرنسا « بخطة التقشف »، أو « التبريد ». واحتلت مسألة الدفاع عن النقد المكانة الاولى من اهتمام الحكومات، حتى ولو كانت لقاء ضعف النشاط الاقتصادي وانتشار البطالة. كانت تقبل بهذه المخاطرة — وان لم يكن لها والحق يقال، اي خيار فيها — كي تفسح في المجال للاقتصاد ان يتكيف، من خلال زيادة الانتاج، مع الاوضاع الجديدة للسوق.

وهكذا، كانت المجموعات الصناعية المتقدمة الثلاثة (الولايات المتحدة واوروبا واليابان) تخوض حرب منافسة شرسة فيما بينها، للسيطرة على الاسواق من خلال الجودة العالية لمنتجاتها (بفضل الاختراعات والابحاث التكنولوجية) والمردود الصناعي المرتفع، وهذا يعني الضغط على الاجور والاعباء الاجتماعية. وبعد فورة « السنوات الثلاثين » البيضاء، جاء الزمن الرديء من سني الازمة، التي زاد من حدتها وقوع الحظر النفطي الاول. ويعود سبب هذا الارتفاع في اسعار النفط الذي حصل للمرة الاولى في ١٧ تشرين الاول ١٩٧٣، الى انخفاض سعر الدولار الذي دفع بالدول المنتجة الى تعديل الاسعار، لأن الكميات المعروضة كانت تقابلها، من جراء انخفاض الدولار، مبالغ اقل. وتجدر الاشارة الى ان رفع الاسعار لم يبحث مع الشركات النفطية الكبرى، بل قررته الحكومات المنتجة للنفط وحدها.

ادّى هذا الوضع السائد، عام ١٩٧٠، الى اضطراب في السوق، عندما اغلقت انابيب التابيلاين التي تجرّ النفط السعودي الخام الى ساحل

المتوسط، بسبب النزاع الاردني ــ السوري. فاصبحت ليبيا المصدر العالمي الرئيسي، لغياب النفط عن ساحل المتوسط الشرقي. وقام « الضباط الوحدويون الاحرار » بقيادة القذافي بالاستيلاء على السلطة في طرابلس الغرب، ودخلوا في محادثات مع الاشتراكيين في الجزائر، الذين سبق لهم ان ابسوا شركة سوناترا (وهي شركة وطنية للتنقيب عن الهيدروكاربور وانتاجه ونقله وتحويله وتسويقه) وهي مؤسسة حكومية تهدف الى تأميم آبار الصحراء (وقد تم عام ١٩٧٠). ويستطيع الطرفان معاً فرض تخفيض الانتاج وتحديد الاسعار من جانب واحد. سارعت فينزويلا الى السير على خطى هذه الحركة، وطالبت الشركات الاميركية دفع جعالات بنسبة ٦٠٪ بدلاً من ٥٠٪. واقرت حكومة كاراكاس قانوناً يجيز لها تحديد اسعار البترول. وفي اطار منظمة الدول المنتجة للنفط (اوبيب)، طالبت ليبيا بزيادات مهمة. في طهران، اعلنت دول الخليج الفارسي عن اول رفع للاسعار في شباط ١٩٧١. وفي طرابلس الغرب، اعلنت الجزائر وليبيا، وكذلك المملكة العربية السعودية (بسبب التابيلاين) والعراق عن رفع الاسعار بنسبة مماثلة، من دون ان تتحرك الحكومة الاميركية. فانعكس ذلك على الفور على المستهلك الاميركي والاوروبي، وانطوت تلك الحقبة الطويلة التي شهدت توافر الطاقة بأسعار رخيصة.

اكتشفت الدول المنتجة انها قادرة على التأثير في مجرى الاسعار تبعاً للازمات السياسية. واختبرت مدى مقاومة الدول الغربية والشركات وتحققت من ردة الفعل المحايدة للخارجية الأميركية. بعد اربع سنوات من عهد الرئيس جونسون، حيث كان المنتجون في تكساس يحظون بحماية ممثلهم السابق في مجلس الشيوخ، بدأ عهد نيكسون اقل حزماً، فالرئيس الجمهوري القادم من كاليفورنيا، كان على العكس، يحبذ اطلاق حرية التموين بالطاقة من اي مصدر كان. وقد يدفع ارتفاع الاسعار بالمنتجين المحليين الى اعادة تنشيط قطاع النفط وتشغيل الآبار،

وبالشركات الانكليزية الى التنقيب في بحر الشمال. فضلاً عن ذلك، كان نيكسون ينظر بارتياح الى رفع اسعار النفط العربي، لكونه يساعد على نهضة الدول العربية وبالتالي على استقرارها السياسي. وعبثاً نبحث في مذكرات كيسينجر، على اية ادانة لرفع اسعار النفط.

وكانت الزيادة الشديدة في الطلب الغربي على النفط قد اتاحت تحسين موقع الدول المنتجة. بين اعوام ١٩٧٠ و ١٩٧٣، ارتفع هذا الطلب بنسبة الثلث، وبلغ اكثر من ٢٧ مليون برميل في اليوم. ولم يكن باستطاعة انتاج بحر الشمال ولا الآبار التي اكتشفت مؤخراً في الاسكا تلبية الطلب. وقد ازداد الانتاج السعودي بنسبة الضعف، فيما ارتفع انتاج العراق وليبيا والجزائر. وفي كانون الثاني ١٩٧٣، حذرت الكويت من ان الدول العربية سوف تلجأ، في حال وقوع ازمة سياسية في الشرق الأوسط، الى سلاح النفط. وهكذا بدت اول زيادة لاسعار النفط في ١٧ تشرين الأول ١٩٧٣ (٧٠٪) كأنها رد سياسي للدول العربية على الهجوم الذي شنته اسرائيل في ٦ تشرين الثاني. وكانت ادارة نيكسون قد ردّت على التحذير الكويتي بالقول ان السياسة الاميركية في الشرق الأوسط لا ترتبط بالنفط العربي وانها ترفض الرضوخ لهذا الابتزاز. ويعود السبب في ذلك الى ان المصالح الاميركية لم تعتبر نفسها مهدّدة بأي ارتفاع حتى ولو كان شديداً لاسعار النفط. ذلك ان ارتفاع اسعار الطاقة من شأنه اعاقة منافسيها الاوروبيين واليابانيين.

استجابت الحرب الاسرائيلية في ٦ تشرين الأول، مثل الحرب السابقة، لضرورات استراتيجية محددة : في الواقع، كانت الغيوم السوداء تتلبد، منذ عام ١٩٦٧، فوق حدود سوريا ومصر. وبات واضحاً ان هذين البلدين كانا يستعدان لحرب ثأرية. وقد جعل العتاد العسكري الحديث السوفياتي الصنع من المواجهة المحتملة أمراً خطراً سيما وان السياسة الاميركية ابدت معارضتها للحرب، فوقعت اسرائيل ضحية عدم تزاوج

القوى : من جهة، كان السوفيات يقفون بقوة الى جانب خصومهم، ومن جهة اخرى، كان الاصدقاء الاميركيون يتحللون من التزاماتهم. وقد وجد هذا الاختلال مصدره في حرب الغفران التي شكّلت الذريعة للصدمة النفطية الاولى.

تشرين الأول ١٩٧٣ : حرب الغفران

تكثفت المساعدة السوفياتية منذ حزيران ١٩٦٧ (تاريخ قطع العلاقات الدبلوماسية بين موسكو وتل ابيب) باتجاه سوريا البعثية ومصر. ولم يمنع وصول حافظ الأسد الى السلطة (الذي كان يؤيد في الاساس فتح الحوار مع الولايات المتحدة)، ولا حلول السادات محل عبد الناصر، من مواصلة السوفيات مساعداتهم العسكرية. كما شكلت زيارة عرفات لموسكو دليلاً كافياً على ان بريجنيف يأخذ بعين الاعتبار المطالب الفلسطينية. وعندما اقدم السادات، في ايار ١٩٧١، على ابعاد الوزراء الموالين لموسكو، سارع بودغورني لزيارة القاهرة من اجل توقيع معاهدة تعاون معها لمدة ١٥ سنة. وبدت المساعدات العسكرية والاقتصادية مضمونة لمدة طويلة. مع ذلك، طرد « الريس » الجديد، عام ١٩٧٢، المستشارين السوفيات، واتهم موسكو بتزويد بلاده بسلاح قديم لا يتيح لجيشه خوض الحرب بشكل ملائم. عند ذاك، اقدم كوسيغين على توقيع اتفاق تعاون مع بغداد لمدة ١٥ سنة. اما حافظ الاسد الذي كان يضم الشيوعيين الى حكومته، فكان شديد الحرص على الاسراع في تسليح جيشه لمواجهة اي نزاع محتمل. وهكذا بدا ان سوريا والعراق يسعيان للحلول محل مصر. ويمكن تفسير تورط العراق في هذا النزاع الى حزم اللواء احمد حسن البكر الذي استولى على السلطة من خلال تصفية الضباط المناوئين لحزب البعث. كما اقصى كل المعارضين وقضى على كل المؤامرات التي حيكت ضده. وامم شركة نفط العراق عام ١٩٧٢، واصبح حليف موسكو.

اذا كان السادات قد ابتعد عن ولي نعمته السوفياتي، فانه لم يجد لدى الاميركيين الدعم الذي كان يأمله. فالاوضاع الصعبة في مصر، والاضطرابات الطلابية، وانشقاق المسيحيين الاقباط، فضلاً عن الاضرابات والتظاهرات، لم تتح له التخلي عن ورقة الوحدة العربية واستعادة الاراضي المحتلة التي كانت اسرائيل قد وضعت لها برنامجاً استيطانياً واسعاً. اذ اقامت مستوطنات محمية عسكرياً في وادي الاردن ومرتفعات الجولان، ومحيط القدس، ومنطقة رفح، شمالي ــ شرقي سيناء. وتولى حزب العمل الاسرائيلي ادراج المشروع الاستيطاني في برنامجه الانتخابي والدفاع عنه، ولم يجرؤ أحد على التصدي له. لم تتوقف الاشتباكات العسكرية منذ عام ١٩٦٧. ودمّر الطيران الاسرائيلي، عام ١٩٦٩، بطاريات الصواريخ من طراز سام ٢ على طول القنال. كما جرى الاستيلاء على محطة الرادار السوفياتية في راس الشارب وتم تفكيكها ونقلها الى اسرائيل. وانشئ على القنال خط دفاعي حصين عرف باسم خط بارليف، بغية الحدّ من الاعتداءات. اما الاسرائيليون الذين لا يسعهم سوى الاتكال على قواتهم الذاتية، فقد هاجموا طائرات الميغ ١٥ ولم يأخذوا على محمل الجد التهديدات العسكرية التي اطلقها السادات والذي خفض موازنته الحربية بنسبة الثلث. وفيما كان الرئيس المصري يتهم الاميركيين بتفشيل عروض السلام مع اسرائيل، كان يتهيأ في الوقت عينه للحرب في ظل اشد الظروف سوءاً.

في ٦ تشرين الأول، احتشدت الجيوش المصرية والسورية على الحدود. هل كان على اسرائيل شن الهجوم؟ عارضت غولدا مئير القيام بغارة وقائية. ونبّه كيسينجر السوفيات الى ما يجري. غير أن الوقت كان قد فات، اذ كانت الدبابات السورية قد وصلت الى هضبة الجولان، في اليوم العاشر من شهر رمضان. وبدلاً من الاحتفال « بيوم كيبور » (يوم الغفران)، استدعي الاحتياطيون الاسرائيليون على عجل. اما السادات فلم يلجأ الى الخداع والتمويه، اذ اجتاز ٦٠٠٠٠ جندي مصري قناة

السويس، تسبقهم الف دبابة، واخترقوا خط بارليف الذي اشتهر بأنه غير قابل للاختراق. على الجبهة الشمالية قاوم الاسرائيليون بمعدل واحد ضد ٢٠ جندياً. اذ تقدمت ٨٠٠ دبابة يتبعها ٤٠٠٠٠ جندي من المشاة، وبعضهم يحمل الصاروخ الروسي من طراز « ساغر » الذي يستطيع احراق الدبابات. تدخلت طائرات الفانتوم الاسرائيلية في المعركة، لكنها سرعان ما عادت الى قواعدها، لأن الصواريخ الجديدة المضادة للطائرات والسوفياتية الصنع من طراز سام ٦ اسقطت عدداً كبيراً منها. لاول مرة، لم يكن التفوق في العتاد الحربي لصالح اسرائيل.

انشأ المصريون رأس جسر بعد القنال، وبقي نصف مرتفعات الجولان بين ايدي السوريين. كانت الخسائر فادحة، والذخيرة على وشك النفاذ لدى الطرفين. طلبت غولدا مئير مساعدة الاميركيين وتزويدها بالسرعة القصوى بصواريخ مضادة للطائرات ذات الرأس المتتبع (سايدويندر) تحت طائلة خسارة الحرب. فالعتاد السوفياتي المتطور قد خلق اختلالاً في التوازن ... والشجاعة في القتال لا تكفي لكسب الحرب. وللحال اقلعت طائرة جمبوجيت محشوة بالعتاد المطلوب. وجرى شحن كميات اخرى من الصواريخ من احدى القواعد البحرية في فيرجينيا على طائرات العال التجارية التي لم تحمل علامات مميزة. في اليوم الخامس للحرب، اقيم جسر جوي مزدوج : ٢٠ الف طن من السلاح السوفياتي مقابل ٢٥ الف طن من العتاد الاميركي. كان الجباران يخوضان الحرب بواسطة دولتين صغيرتين ويختبران قيمة التجهيزات المتطورة التي توصلا اليها.

لم تلبث اسرائيل، بفضل السلاح الاميركي، ان استعادت الامساك بالوضع : في الجبهة الشمالية، استعادت الاراضي التي خسرتها، وتراجع الجنود المغربيون والاردنيون والعراقيون في الجولان. واشتدت المجابهة على هضبة جبل حرمون. وفي ٢٣ تشرين الأول، اصبحت دمشق على مرمى المدفعية الاسرائيلية.

على الجبهة المصرية، قرر مظليو الجنرال اريال شارون اختراق جبهة القنال بين جيشين مصريين، من اجل تدمير منصات اطلاق الصواريخ السوفياتية. عند ذاك، يصبح باستطاعة طائرات الفانتوم الاغارة دون خطر. في ١٩ تشرين الأول، اجتازت ثلاث فرق القنال، ناقلة الحرب الى داخل مصر.

عند ذاك، تدخل السوفيات، وقد فوجئوا بتراجع الجيوش المصرية، طالبين وقف النار. ايّد الاميركيون قرار مجلس الأمن التابع للامم المتحدة والذي طالب بفتح مفاوضات مباشرة. غير ان المعارك استمرت من جراء رفض الاسرائيليين التوقف عن تطويق الجيش المصري بقيادة عبد المنعم الواسل. وهكذا، في ٢٤ تشرين الأول، وقع ٢٤٠٠٠ رجل في الفخ الاسرائيلي، على الرغم من احتجاجات مجلس الامن الذي طلب مرة ثانية وقف النار وارسال قوة من الامم المتحدة للفصل بين الطرفين. اما كيسينجر الذي اتاح الفرصة لاسرائيل كي تنتصر، فكان يرغب في تجنب انزال مهانة جديدة بالعرب وفرض على اسرائيل تزويد المقاتلين المحاصرين بالماء والغذاء. في ٢٨ تشرين الأول، بدأت المحادثات في « الكيلومتر ١٠١ » على طريق السويس ــ القاهرة، وجرى توقيع اتفاق في ١١ تشرين الثاني ما لبث ان أعيد النظر به اثر وقوع بعض الاشتباكات. وفي جنيف، في ٢١ كانون الأول، اجتمع المصريون والاسرائيليون، في غياب السوريين والفلسطينيين، لمناقشة مسألة السلام، تحت مظلّة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، من دون التوصل الى اية نتائج ملموسة.

تولى كيسينجر تفكيك عقد الازمة من خلال مبادرة دبلوماسية مزدوجة مع القاهرة ودمشق. وقام لبضعة ايام بدور الوسيط بين هذين البلدين واسرائيل. وتوصل بنتيجة هذه الجولة « المكوكية » المضنية الى توافق السادات وغولدا مئير، في ١١ كانون الثاني ١٩٧٤، على انسحاب

الاسرائيليين مسافة ٢٠ كلم خلف مضيقي ميتلا وجدي، للافساح في المجال للقبعات الزرق احتلال مساحة فاصلة بين الطرفين. كما نجح كيسينجر في حمل الرئيس السوري على الافراج عن الاسرى الاسرائيليين مقابل اعادة الاراضي السورية التي احتلت مؤخراً. وهكذا انتهت الحرب الاسرائيلية ـــ العربية الرابعة. وكانت الدول المنتجة للنفط قد قررت، في ١٧ تشرين الأول، حظر شحن النفط الى الولايات المتحدة وهولندا، وكذلك تخفيض الانتاج الاجمالي بنسبة ٥٪ كل شهر. لقد اتاحت الحرب لدول الخليج والمتوسط الشرقي رفع الاسعار التي كان يحلمون بها منذ فترة طويلة.

فضيحة ووترغيت

ثمة فاصل زمني بين الصدمتين النفطيتين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٩ مدته خمس سنوات كانت حافلة بالاضطرابات العميقة في اقتصاديات الغرب، وباعادة تحديد القوى في اطار التجاذب والاستقطاب في منطقتي الشرق الادنى والاوسط. لم يجنِ الاميركيون اية فائدة مباشرة من المفاوضات التي قادها كيسينجر، اذ لم تؤدِ، في الواقع، الا الى اعادة الوضع الى ما كان عليه في السابق، تاركة اسرائيل وجهاً لوجه امام اعدائها. وزاد الاميركيون اكثر فأكثر من تبعيتهم ازاء منظمة الدول المنتجة للنفط (اوبيب)، ولا سيما الدول العربية، اذ بلغت مستورداتهم، عام ١٩٧٠، نسبة ٢٠٪ من الاستهلاك، و٣٥٪، عام ١٩٧٥، و ٤٦٪ بعد ذلك بعامين، عشية الصدمة النفطية الثانية. واعتقدوا انهم قد يفيدون بشكل مزدوج من الازمة، بفضل « البترودولار » المتدفق الى خزائن المصارف، واعادة تشغيل آبارهم والى ازدهار قطاع البتروكيميائيات. لقد اصبحوا، في الواقع، المصدر الرئيسي للسلاح لكل من ايران والمملكة السعودية اللتين سارعتا، بعد تدفق الدولار، الى توقيع اتفاقيات ضخمة للتزود بالسلاح. وبذلك ساهموا في إعادة تسليح هذه المنطقة وضاعفوا، كما فعل

السوفيات، من احتمالات الحرب التي كان يدّعي كيسينجر استبعادها بالمفاوضات.

اتيح للاميركيين من خلال تصدير السلاح ان يستعيدوا شيئاً فشيئاً ما خسروه من نفوذ من جراء التأميم التدريجي لشركات النفط. كان واضحاً، عام ١٩٧٣، ان الدول العربية المنتجة للنفط كانت تمتلك وسائل تحديد سعر النفط الذي يلائمها على الدول المستهلكة، وتمييز تلك التي تعلن وقوفها الى جانب القضية العربية.

وبقدر ما كانت الدول العربية قادرة على استبدال المساعدة العسكرية الاميركية بمساعدات سوفياتية او اوروبية، بقدر ما فرضت على « الزعامة » الاميركية في المنطقة، التراجع في مواقفها.

في الوقت الذي كان كيسينجر يقوم بجولاته المكوكية في سبيل السلام، كان نيكسون في وضع لا يتيح له الافادة من مآثر تلك الدبلوماسية، اذ كانت فضيحة ووترغيت قد شارفت على نهايتها. ففي عام ١٩٧٢، اكتشف بعض مراسلي صحيفة واشنطن بوست، في تقارير شرطة واشنطن ان مكاتب لجنة الحزب الديمقراطي قد تعرضت للسطو في ١٧ حزيران ١٩٧٢. وكان الفاعلون من الكوبيين المناهضين لكاسترو اضافة الى احد العاملين في « لجنة اعادة انتخاب الرئيس ». وقد قبضوا بدل « اتعابهم » بموجب حوالات مصرفية سحبت في احد مصارف ميامي. ومن موضوع الى آخر، تبين ان نيكسون متورط في هذه القضية.

هل كان مذنباً ؟ في كل حال، طار صواب الرئيس واختار انكار الحادثة. هل كان ينوي الحصول على معلومات عن توجهات الحزب الديمقراطي المنافس قبل انعقاد مؤتمره السنوي ؟ كانت كاترين غراهام مديرة الواشنطن بوست من اشد المناوئين لنيكسون فأطلقت يد الصحافيين كارل برنستاين وروبيرت وودوارد في الاستقصاء وكشف

الخفايا. فأثبتا ان الفاعلين قد قبضوا الاموال مقابل الصمت وان بعض الاوراق الثبوتية قد اتلف في البيت الابيض او القي في نهر « بوتوماك ». دخلت نيويورك تايمز الحلبة وتبعتها صحف اخرى. والتزم التلفزيون حتى ذلك الحين الصمت. واستمر نيكسون على موقفه لجهة انكاره، وهذه المرة امام الشاشة الصغيرة، وكلف مساعده دين ان يعدّ ملفاً عن القضية. ولم يلبث ان ظهر شريكان جديدان في العملية، اطلقت عليهما تسمية « عاملي الرصاص » واودعا السجن، وهما فنيان في تركيب اجهزة التنصت. تولى القاضي سيريكا — وهو ابن مهاجر من صقلية — الاشراف على التحقيق. وعندما كشف سيريكا اتهامات احد الفاعلين، ماكورد بان المتهمين عمدوا الى تزوير الحقائق مقابل قبض بعض الأموال، تشكلت لجنة من مجلس الشيوخ.

في ربيع ١٩٧٣، قرر نيكسون تكليف بعض المعاونين واعلن على التلفزيون في ٢٩ نيسان انزال « العقاب العادل بالفاعلين ». فاستقال هالدمان واهرليخمان ودين والمدعي العام كليندينست. وعين قاض متشدد لمتابعة التحقيق بصفة مدعٍ عام، هو ارشيبالد كوكس. اما لجنة مجلس الشيوخ فقد انجزت عملاً ضخماً اذ انتهت خلال اربعة عشر شهراً من استجواب موظفي البيت الأبيض. وكشف احدهم بأن احاديث الرئيس كانت تسجل على شرائط ممغنطة، فأنذر بتسليم هذه الوثائق، وعندما وافق على ذلك، لوحظ أنه تمّ محو مقاطع مهمة منها. واشتد الخناق حول عنق الرئيس.

في ١٠ تشرين الأول، في عزّ حرب الغفران، علم ان نائب الرئيس سبيرو اغنيو قد استقال، بعد اتهامه بالفساد. لم يجرؤ نيكسون على استخدام « سلطاته التنفيذية »، وفقاً للعرف السائد الذي يتيح للرئيس عدم استجابة طلب السلطتين التشريعية والقضائية متذرعاً بالمصلحة العامة العليا. واضطر لتسليم الشرائط المسجلة، وسعى الى اقصاء المدّعي العام

كوكس الذي اظهر شجاعة فائقة في التحقيق. فيما رفض المدعي العام ريتشارد سون الاذعان واستقال. عند ذاك، الغى نيكسون وظيفة المدعي العام ونقل مهماتها الى وزارة العدل: فتلقّى التلفزيون ٤٥٠٠٠٠ رسالة احتجاج، تشبّه نيكسون بهتلر. وثارت ثائرة الصحافة. واعلنت كل الصحف ووسائل الاعلام وقوفها ضد الرئيس مطالبة باستقالته. غير أن اجراءات كف يده تستوجب تصويت مجلس الشيوخ باكثرية الثلثين، ومجلس الممثلين بالاغلبية البسيطة. وادرك نيكسون ان مجلس الشيوخ قد يدينه، وعليه ان يعمل بسرعة.

تراجع الرئيس عن موقفه واعاد العمل بمنصب المدعي العام وعيّن فيه جاورسكي، الذي كان يشغل منصب رئيس رابطة المحامين الاميركيين. كما تقلد السيناتور ساكسبي منصب المدعي العام. في تلك المعمعة التي كانت تهز البلاد، دافع نيكسون عن نفسه بشجاعة. وسعى الى استمالة النواب واحداً واحداً في عملية أطلق عليها « الصراحة »، وظهر على التلفزيون نافياً عن نفسه اي استغلال لمنصبه الرئاسي. وافق المحامي الشهير في بوسطن، جايمس سان كلير الدفاع عنه. ونشر نيكسون « الكتاب الازرق » الذي تضمن النص المنقح للشرائط المسجلة. غير أن الدعوات للاستقالة تضاعفت في الوقت الذي كان يقوم فيه الرئيس برفقة كيسينجر في جولة طويلة في الشرق الاوسط. وعندما عاد الى الولايات المتحدة، كان عليه أن يخضع للمحاكمة أمام المحكمة العليا. واصدرت اللجنة القضائية عند ذاك قرارها الداعي لكف يده. هل سيخوض نيكسون المعركة حتى النهاية ؟. عندما استقال اخيراً في ٩ آب ١٩٧٤، ترددت بعض الاصوات في الشارع منادية : « الرئيس الى السجن »، بدلاً من ذاك الهتاف التقليدي « يحيا الرئيس ». لم تتعرض الرئاسة في الولايات المتحدة، لهذا القدر من المهانة في تاريخها، حتى ولو فرشت الأرض، بالسجاد الاحمر وعليه النجمة الاميركية وصولاً الى الطائرة المروحية التي اقلته في زيارته الأخيرة الى كاليفورنيا.

الانحسار الاميركي والانتعاش الاوروبي

استبدّ شبح نيكسون بليالي خلفه جيرالد فورد، الآتي بقامته الرياضية كلاعب كرة القدم، من ميتشيغان. وعرف عنه نبل الاخلاق والتدين وبرودة الاعصاب وقد سعى اثر وصوله الى البيت الأبيض الى اصدار عفو عن نيكسون الذي كان يمكن ان يتعرض لملاحقة القضاء « لعرقلته سير العدالة »؛ وبعد تردد طويل حزم فورد امره بالعفو عنه لاسباب تتصل بالمحبة المسيحية، وتخلصاً من الكوابيس التي كانت تستبدّ به، مما اثار في البلاد عاصفة من الاحتجاج. لدرجة هبوط شعبيته في استطلاعات الرأي من ٧١ الى ٤٩٪. وشكلت انتخابات ١٩٧٤ كارثة بالنسبة للحزب الجمهوري حيث سيطر الديمقراطيون على الغالبية في المجلسين. فهل يستطع الجمهوريون الاستمرار بالحكم، على الرغم من الدعم الذي يلقونه من نلسون روكفلر الذي حرص على اشغال منصب نائب الرئيس ؟

فجأة تفاقم الوضع الاقتصادي لدرجة تأكيد ما يشاع في الخارج عن « الانحسار الاميركي »، اذا لم تتم السيطرة على التضخم الذي بلغ ١٢٪ في السنة. وقد استدعى الرئيس ٨٠٠ اقتصادي من شيكاغو لبحث الوضع الاقتصادي، فجاءت اجوبتهم متناقضة. واتفق غالبرايت وميلتون فريدمان على وجوب اعتماد المعالجة على جرعات متعددة، وعلى اقرار برنامج اطلق عليه تسمية « وين » التي تعني « التخلص من التضخم فوراً ». وتضمن البرنامج فرض ضرائب اضافية لتخفيف السيولة النقدية، وعصر نفقات الموازنة، والسعي لاعادة التوازن الى ميزان المدفوعات فضلاً عن العديد من الاماني والمطالب التي لا تخدع احداً من المراقبين الاجانب الذين وجدوا ان الازمة الاميركية باتت امراً لا يقبل الجدل. وينبغي انتظار عام ١٩٧٤ كي نشهد مجدداً اندفاعة اقتصادية خجولة، حين اعتقد الاميركيون انهم سيفيدون من انخفاض سعر الدولار وارتفاع سعر النفط لتجاوز منافسيهم. ومن المؤكد انهم كانوا اول ضحايا الازمة العالمية التي تسببت بها الازمة النقدية وزيادة اسعار الطاقة.

لم يعد نموذج التقدم الاميركي يستهوي الاوروبيين. ذلك ان معدلات الاجور الفعلية المدفوعة في اميركا، عام ١٩٧٤، حلت في المرتبة العاشرة في العالم، وفقاً للمؤشر ١٦٦ على ١٠٠ لعام ١٩٥٠. وحلّت المانيا الفدرالية في الطليعة حيث بلغ ٣٦٤، وتلتها ايطاليا وفرنسا. حتى بريطانيا كانت توزع اجوراً ارفع. ويعود سبب تدني معدلات الاجور الفعلية الاميركية الى ارتفاع الاسعار الناجم عن التضخم الذي بلغ مستوى اعلى من الدول الاوروبية. والقيت مسؤولية التخبط الاقتصادي الذي قام بعد عام ١٩٧٣، على كاهل ارتفاع اسعار الطاقة. فالموارد الجديدة في القارة الاميركية لم تتح بعد اجراء المفاضلة بين مصادر الطاقة. وقد اثبت الاقتصاديون الاوروبيون[1] ان مركز الولايات المتحدة في الانتاج العالمي يبقى في الطليعة، بصورة اكيدة، غير أن هبوطه بما يوازي اكثر من ٥٠ مليار دولار قد نجم عن الازمة، وادّى بالتالي الى كشف عيوب النظام. واشار تحليل معدل النمو منذ عام ١٩٤٥، على مدى فترة طويلة، الى انه بلغ متوسطاً سنوياً قدره ٣٪ وهو ادنى مرة ونصف المرة عن المتوسط السنوي لاوروبا الغربية. فيما بلغ معدل النمو الياباني ١٠٪. وازداد معدل الانتاجية، بين اعوام ١٩٦٣ و ١٩٧٤، بنسبة ٧٤٪ وبلغ في المانيا الفيديرالية ٨٢٪، وفي فرنسا ١٠٠٪، وفي اليابان ١٩٨٪. ما سبب هذا التخلف ؟ انه يتصل بقدم عهد الآلات والنقص في التوظيفات : ٨٥٪ من الآلات والمعدات المستخدمة عام ١٩٧٦، لها من العمر اكثر من عشر سنوات، وحصة الرأسمال في الناتج الوطني غير الصافي هي ادنى منها في الدول الصناعية الكبرى كافة.

على الرغم من ان الدول الاوروبية واليابان قد اصابتها الصدمة النفطية في الصميم، فانها قاومتها بشكل سريع وحاسم. فقد ادى انخفاض

---

(١) مجلة « فاير »، الانحسار الاميركي : انحطاط الولايات المتحدة ام تجددها. منشورات سوي، عام ١٩٨٠.

شحنات النفط وهبوط انتاج الفولاذ الى وقوع المانيا الغربية ـــ التي كانت ترتكز صناعتها اكثر فأكثر على النفط ـــ في حال تبعية شديدة ازاء الدول العربية. خلال حرب الغفران، رفضت حكومة المانيا الغربية اجازة استخدام الطائرات الاميركية لقواعدها اثناء الجسر الجوي الذي اقيم مع اسرائيل، الأمر الذي دلّ على حجم القلق الذي شعر به المسؤولون الاقتصاديون الذين كانوا على استعداد لمواجهة ازمة دبلوماسية مع اميركا مقابل عدم خسارة المصادر التي كانوا يتزودون بالطاقة منها.

في الواقع، كان الانتاج الصناعي في المانيا قد عاد الى وضعه السابق قبل الازمة، وشهد تطوراً كبيراً في ميدان الصناعات الميكانيكية، والكهربائية والكيميائية. وحافظت جمهورية المانيا الفيديرالية حتى ١٩٧٦، على نموها بحدود ٤,٥٪ ـــ كانت تنتج ضعفي ما تنتجه فرنسا ـــ فيما كانت تواصل ايطاليا « اعجوبتها » الاقتصادية. غير ان خيار النفط كطاقة رئيسية (كانت تحتل المركز العالمي الرابع في قدرتها على التكرير) جعلها على قدر من الهشاشة يوازي ما اصاب المانيا ازاء ارتفاع اسعار الطاقة الذي اثار تضخماً شديداً وادى الى ضرب الليرالايطالي وزيادة ديون الدولة وارتفاع محسوس في معدل البطالة. مع ذلك، كانت الصناعات التي تتمتع بقيمة مضافة عالية، مثل السيارات والادوات الكهربائية المنزلية، والبصريات والنسيج الاصطناعي، تتيح للبلاد الافادة من النهوض الاقتصادي الاوروبي، على الرغم مما تعانيه من ضائقة مالية.

كانت فرنسا تحتل المركز العالمي الثاني في صناعة معدات التنقيب لا سيما تحت الماء، وزادت الازمة من متانة موقعها في هذا القطاع. كما افادت مجموعة الصناعات النووية من انطلاقة ضخمة حققها البرنامج الذي وضعته شركة كهرباء فرنسا لبناء مفاعلات نووية في مختلف انحاء البلاد. وتعززت اوضاع صناعات الاسلحة بفعل الطلبات الخارجية، حتى

أن صادراتها احتلت المركز الثالث في العالم. وقد جعل تحديث مجمل القطاع الصناعي (وكذلك الزراعة التي تحتل مبيعاتها في الخارج المركز الثاني) من مسألة عودة الاستثمارات العامة والخاصة الى هذا القطاع امراً لا غنى عنه، إلا أنه لم يؤدِ الى اية حالة تضخمية. وحدها العودة الى اقتصاد السوق والمنافسة الحقيقية كانت تتيح الامل بالنهوض الاقتصادي الذي كان من شأنه رفع معدلات البطالة بسرعة، و « تنقية » الجسم الصناعي والغاء المؤسسات الاكثر ضعفاً فيه. كانت فرنسا تضم، عام ١٩٧٤، ٤٩٧٧١١ عاطلاً عن العمل وارتفع هذا العدد الى ٨٣٩٧١٥، في ايلول ١٩٧٥، واثارت الانطلاقة القوية التي قامت في خريف ١٩٧٥، شعوراً بأن السياسة الجديدة سوف تكون مثمرة، مع ان فرنسا كانت، مثل المانيا وايطاليا، ترتبط بالشرق الاوسط بشكل وثيق، فيما خص تزودها بالطاقة النفطية.

اخيراً، كانت بريطانيا العظمى قد دخلت، في الأول من كانون الثاني ١٩٧٣ السوق الاوروبية المشتركة، في عهد حكومة هيت. وكان انخفاض سعر الليرة الاسترلينية بالنسبة للدولار، والازمة الاجتماعية في صفوف عمال مناجم الفحم الحجري، قد اعادا المحافظين الى السلطة، فعمد هؤلاء الى فتح المفاوضات مجدداً حول موقع بريطانيا داخل السوق الاوروبية، ونجحوا في تحقيق بعض المكاسب فيما خص الزراعة. كما ضاعفوا من الاستثمارات الانتاجية، وحققت اعمال التنقيب عن النفط في بحر الشمال، نتائج مذهلة من شأنها البلوغ بالبلاد الى مرحلة الاكتفاء الذاتي على صعيد الطاقة، عام ١٩٨٢ (وان كانت ما تزال تستخرج بكلفة مرتفعة). وهذا ما اتاح لبريطانيا اعتماد لهجة شبه استقلالية، ليس فقط مع شركائها الاوروبيين، بل مع اميركا ايضاً.

السحر الاسباني والاستقلالية الاوروبية

تصدت الدول الاوروبية لمسألة ارتفاع كلفة الطاقة بزيادة انتاجية صناعاتها، وتطوير صادراتها ذات القيمة المضافة المرتفعة، مستفيدة من اتساع السوق الاوروبية التي باتت تشمل بريطانيا وايرلندا ايضاً. كما حققت الرأسمالية الاوروبية توسعاً جديداً بانفتاحها على اسبانيا والبرتغال. ولم ينتظر الاميركيون موت فرانكو وسقوط كايتانو اللذين بقيا على قيد الحياة وفي الحكم بعد سقوط اوروبا الفاشية، لمساعدة هذين البلدين على النهوض والانطلاقة الاقتصادية. وقد منحت اسبانيا قسماً من المساعدات في اطار مشروع مارشال، مقابل القواعد العسكرية للطائرات القاذفة الاستراتيجية والغواصات النووية. بوفاة فرنكو عام ١٩٧٥، قام في البلاد نظام ملكي ليبرالي اجاز العودة الى الديمقراطية. وكانت الرساميل الاوروبية والكندية قد حققت مشاركة مهمة في المناجم والمصانع الاسبانية التي كانت تقاطع الدول الاوروبية بعد الحرب لاسباب سياسية. مع ذلك، أتاح لها التدفق السكاني بعض الاثراء (من جراء هجرة حوالي مليون عامل الى اوروبا وقدوم ملايين السواح من وراء البيرينيه)، كما ساعد تطوير انتاج الطاقة (الكهرباء التي تولّدها المياه وتكرير النفط) على انشاء صناعة متقدمة للسيارات والتي كانت تنتج، عام ١٩٧٠، نحو ٥٠٠٠٠٠ سيارة (تضاعف هذا الرقم بعد خمس سنوات) وبناء السفن (١,٥ مليون طن، عام ١٩٧٥). ولما نجحت اسبانيا في تحقيق انطلاقتها الاقتصادية، اخذت تتطلع للدخول في النادي الاوروبي.

كانت البرتغال اقل تقدماً من اسبانيا، على الرغم من السياسة المالية السليمة التي انتهجها سالازار، وكانت لها انعكاساتها الاجتماعية، اذ تبع العمال البرتغاليون الاسبان على طريق الهجرة في الستينات، او انخرطوا في الجيش الذي كان يتولى مهمة الحفاظ على مواقع البلاد الاستعمارية في انغولا وموزامبيك. وقد اقدم الضباط العائدون من المستعمرات على اقالة

رئيس الحكومة كايتانو من منصبه الذي شغله منذ مرض سالازار، عام ١٩٦٨. وقد ادت « ثورة القرنفل » التي اطلقتها حركة النقباء وعرفت عام ١٩٧٤، بحركة القوات المسلحة، الى ترسيخ الديمقراطية في البلاد وفتح الحدود، واجتذاب الرساميل الاوروبية بعد عودة الهدوء اليها.

كانت الشركات الفرنسية والالمانية والايطالية تبدي اهتماماً كبيراً بهذا السوق الاسباني، وكذلك بتطوير اليونان وتركيا. وكان الاتراك واليونانيون يجدون صعوبة في العيش معاً في جزيرة قبرص ولم تنجح الوساطة الاميركية في إيجاد حلٍّ يرضي الطرفين. وفي ١٢ تموز ١٩٧٤، استولى الحرس الوطني باشراف بعض الضباط اليونانيين، على السلطة. فسارع الاتراك الى انزال قواتهم في الشطر الشرقي من الجزيرة. كان الاميركيون يساندون الحكومة الليبرالية برئاسة كارامنليس، لكن اليونانيين كانوا يتهمون كيسينجر بمساعدة الاتراك. وتعرضت القواعد الاميركية للخطر، فتمّ اخلاؤها. وأدّى حظر شحن الأسلحة الى تركيا الى طرح مسألة التحالف العسكري بين انقرة وواشنطن على بساط البحث. كان البلدان المتخاصمان يتفقان حول نقطة واحدة تتمثل بمناهضة « اليانكية »، الامر الذي دفعهما لتشريع الأبواب واسعة امام الرساميل الاوروبية التي اخذت تستثمر مناجم الكروم والالومينيوم (بيشيناي في اليونان) وتنشئ المصانع.

لماذا لم تنضم اليونان إلى السوق الأوروبية المشتركة ؟ ثمة مساحة اقتصادية كانت تبرز للوجود بوضوح بعد ازمة عام ١٩٧٣، كما لو ان اوروبا الصناعية كان عليها تنظيم شؤونها اولاً. وكان كيسينجر قد خاض تجربة مرّة لدى مجيئه عام ١٩٧٣ للمشاركة في احتفالات « سنة اوروبا ».

عيّن كيسينجر رئيساً لمجلس الامن القومي واحتفظ بحقيبة وزارة الخارجية، فاضطلع عملياً بمهام السياسة الخارجية للولايات المتحدة، من

جراء انشغال نيكسون بفضيحة ووترغيت. وعندما القى خطابه المتلفز متعهداً فيه وضع « شرعة جديدة للاطلسي »، ندد وزير الخارجية الفرنسية، ميشال جوبير بهذا « البيان المتهوّر » مضيفاً أن « اوروبا ستبقى امينة لرسالتها الاقليمية البحتة، فيما ينتظم العالم حول الجبار الاميركي كما كانت الامبراطورية الصينية تحيط نفسها بسبعة اقمار تدور حولها ».
سعت الدول الأوروبية، عندئذٍ، للتفاوض وحدها، وبصورة ثنائية لعقد اتفاقات اساسية بشأن الطاقة مع الدول المعنية، رافضة كل تدخل اميركي.
في اوروبا، اصيب كيسينجر بخيبة امل وبما يشبه الصدمة من قبل حكومة جورج بومبيدو. ذلك ان اوروبا التسعة (مع بريطانيا وايرلندا والدانمارك) وضعت حداً للهيمنة الاميركية على اقتصاد القارة. حتى الحماية العسكرية بدت غير اكيدة، مع الانفراج الدولي والتعادل في السلاح النووي. وبدا الاوروبيون، اكثر من اي وقت مضى، بغير حاجة « للدرع النووي ». مع أنه يمكن للصواريخ السوفياتية ان تصوّب نحوهم؛ غير أن شعوراً بالارتياح كان يسود العواصم الاوروبية لبقاء القوات الاميركية فيها، خلافاً للمشروع الذي تقدم به، عام ١٩٧١، السيناتور مانسفيلد والذي كان يقضي بإعادة نصف القوات الاميركية على الأقل الى بلادها، غير ان ادارة نيكسون رفضت ذلك المشروع. من هنا كانت اعادة النظر بالاتفاقات المعقودة مسألة اساسية، ولم تكن الدول الاوروبية قادرة على رسم اية سياسة دفاعية، لكونها لا تستطيع تحمّل نفقات جيش تقليدي؛ وحدها فرنسا كانت قادرة، عند الاقتضاء على السير في هذا المشروع.

كانت المآخذ الاميركية ضد الدول الأوروبية، متعددة، عام ١٩٧٣. كانت التهمة توجّه الى فرنسا وبريطانيا وحتى لبلجيكا باقامة علاقات اقتصادية مميزة مع مستعمراتها السابقة وتوثيق روابط خاصة فيما بينها ومع دول حوض البحر المتوسط، بغية الاحتفاظ بالمساحة الاوروبية لها وحدها. وابدت وسائل الاعلام الاوروبية عدائيتها لسياسة نيكسون في

الهند الصينية منددة بشدة « بعملية الميلاد » التي استهدفت بالقصف السكان المدنيين. ولم يكن الالمان اقل تنديداً من الفرنسيين بالاستعمار الاميركي، وكانوا يحلمون، مع براندت ووزيره ايغون باهر بانقلاب دبلوماسي عبر الانفتاح على الشرق الذي يتيح الاستغناء عن كل جهد دفاعي. وكان باهر، من انصار تخفيض القوات التقليدية بدلاً من زيادتها، كما كان يعارض اجراء مفاوضات شاملة مع الشرق، معتبراً ان لكل دولة اوروبية مصالح خاصة عليها الدفاع عنها، خصوصاً على صعيد المعادلات الاقتصادية. من هنا، لم تلقَ مبادرة كيسينجر التجاوب المطلوب. ولم يسفر لقاء نيكسون وبومبيدو في ايرلندا عن اية نتيجة عملية، وكذلك زيارة براندت لواشنطن. وقد اعلن نيكسون : « اذا لم ننتهز هذه الفرصة، فاننا سنشهد هجمة باتجاه موسكو، وكل دولة في الغرب سوف تتفاوض وتعقد اتفاقات معها [...] وينبغي التوصل الى تصور اساسي يحرّكنا جميعاً. وإلا فان حكام الكرملين سيفترسوننا واحداً بعد آخر ». لم يلقَ هذا الكلام اي صدى لأن الدول الاوروبية الرئيسية التي هزّتها الازمة في الاعماق، كانت تتوقع الاعاجيب من استئناف التجارة مع الشرق ومن وصول النفط السوفياتي الى اوروبا.

الأول من ايار ١٩٧٥ : مهانة سايغون

اذا كانت الولايات المتحدة قد حصدت الفشل في « سنة اوروبا »، فانها تعرضت لأقسى انواع المهانة في آسيا. كان كيسينجر قد ظن أنه وضع حداً للحرب في فيتنام حين سحب جنوده منها. وهو لم يصنع السلام الا بين الاميركيين، فيما استمرت الحرب بين الفيتناميين. واثناء رحلته الى سايغون، في شباط ١٩٧٣، ازداد المفاوض الاميركي قناعة بأن المواقع التي يسيطر عليها تيو باتت ضعيفة، اذ استولى الشيوعيون على لاوس وكمبوديا؛ فقد احتل « الخمير » الحمر، وهم ثوار اشداء، قسماً من كمبوديا بحيث بات خارج سلطة حكومة « لون نول ». وكان سيها

نوك الذي لجأ الى الصين يساند « الخمير » الحمر. في لاوس، لم تستطع حكومة سوفانا فوما « المحايدة » منع ٦٠٠٠٠ رجل من قوات فيتنام الشمالية من السيطرة على محيط مطار هوشي منه، فيما كانت قوة شيوعية اخرى قوامها ٦٠٠٠ مسلح تحتشد في الشمال الشرقي بقيادة باتت لاو. وبلغ عدد الاسرى السياسيين ٣٠٠٠٠ نسمة في معسكرات التأهيل، فيما كان الأمير تحت رقابة الشرطة ولا يخرج من قصره. وسقطت لاوس تحت السيطرة الشيوعية. اما كمبوديا الواقعة تحت سيطرة الخمير الحمر الموالين للصين من جهة، وتحت نفوذ الفيتناميين الشماليين الذين تسلحهم موسكو، من جهة اخرى. فانها لم تقرر اختياره المعسكر الذي ستنضم اليه.

اما فيتنام الجنوبية، فكانت واقعة تحت تأثير نظام فام فان دونغ رئيس حكومة فيتنام الشمالية الذي كان يسرّب الرجال والعتاد خلافاً للاتفاقات المعقودة حديثاً. اكثر من ٢٠٠ دبابة عبرت لاوس باتجاه الجنوب. وفيما حظر الكونغرس الاميركي اية عملية في الهند الصينية، لم تستطع فيتنام الجنوبية سوى الدفاع عن نفسها بقواتها الذاتية. وحدها الصين تستطيع انقاذ كمبوديا ولاوس من السيطرة الفيتنامية، اذ كانت تبني طريقاً استراتيجية وتزود الخمير الحمر بالسلاح. وكان تسلل ٣٠٠٠٠ مقاتل شيوعي الى فيتنام الجنوبية ينذر بوقوع هجوم وشيك لا يملك الاميركيون اية وسيلة للتصدي له. في مطلع عام ١٩٧٥، اطلق الخمير الحمر جنودهم الشبان الذين كانوا يرفعون بيارق حمراء كبيرة. فاندفع هؤلاء يروّعون السكان ويطاردونهم، ويقضون بوحشية لا مثيل لها على كل القوات المناوئة للشيوعية. وجرى تجميع الاسرى في المعسكرات حيث كانوا يعملون تحت اشراف الجيش. كان الكمبوديون قد فقدوا كل تنظيم اجتماعي وتلاحم عائلي وحتى ممارسة الشعائر الدينية. وتمّ القضاء على البورجوازية والفلاحين المناوئين للشيوعية. وكانت حصيلة هذه الثورة الشيوعية الأخيرة اكثر من ثلاثة ملايين قتيل، وهي اشبه بابادة شعب

بكامله من أجل بسط سلطة زعماء الحزب المطلقة على البلاد. ولم يوافق الكونغرس الاميركي على استئناف القصف وكذلك على تقديم اية مساعدة عسكرية. وعندما سقطت بنوم بينه، خيم الصمت الرهيب على كل البلاد ...

غادر آخر الجنود الاميركيين فيتنام الجنوبية في نهاية آذار ١٩٧٤. وابقى الاميركيون على قوتهم البحرية في خليج تونكين، وكان بوسعهم التدخل عبر تايلاند او غوام، غير أن الكونغرس منع اي تدخل، رافضاً سماع اي حديث عن فيتنام. استؤنفت الحرب، من دون ان يتوصل كيسينجر الى اقناع الدوق تو، في باريس، بعقد اتفاق حول وقف النار. لم يعد للاميركيين اي حق بالكلام حول المأساة التي يجري الاعداد لها على قدم وساق. حتى أنه جرى اقرار قانون بشأن « صلاحيات الحرب »، في تشرين الثاني، يلزم الرئيس بابلاغ الكونغرس، خلال ثمانٍ واربعين ساعة عن ارسال الجنود الى الخارج، وباعادتهم الى البلاد في مهلة ستين يوماً. عندما شنت فيتنام الشمالية سلسلة من الهجمات، في مطلع عام ١٩٧٥، لم تبدِ واشنطن اية ردة فعل. كان جيش فيتنام الجنوبية في وضع معنوي منهار لدرجة أنه ترك الشيوعيين يسيطرون عملياً ومن دون قتال على المرتفعات في البلاد. ولماذا لا يواصلون الزحف حتى سايغون ؟ فالاجاصة باتت يانعة.

أوعز تيو لقواته بالانسحاب باتجاه الجنوب. وشكل الانسحاب هزيمة نكراء، اذ انتظم المدنيون في صفوف طويلة تضم الاطفال والمسنين والمواشي تحت قصف مدفعية جياب. توسل الرئيس فورد الى الكونغرس اقرار مساعدة انسانية، فرفض، كما لم تفلح نداءات السفير غراهام مارتن بوجوب انقاذ شرف الولايات المتحدة في سايغون، في تغيير موقفه. ولم تنفع استقالة تيو في تهدئة فيتنام الشمالية كما اقيل خلفه تران فون هونغ. اما دونغ فان مينه الذي ارتضت به هانوي، فقد وقّع استسلاماً غير

مشروط لقوات فيتنام الجنوبية. وفي الاول من ايار، ابدل جنود جياب اسم المدينة التي كانت ترتفع فيها الاعلام الحمر، بتسمية « مدينة هوشي منه ». وتم اجلاء آخر الاميركيين في جوّ من الفوضى التي التقط التلفزيون صوراً عنها وبثت في انحاء العالم عن رمي الطائرات المروحية في البحر. وبات متعذراً بعد الآن اغفال مسألة ان اميركا قد خسرت الحرب لاول مرة في تاريخها.

شاهد اليابانيون هذه الصور ايضاً على التلفزيون. وقد تقربوا من بكين لعقد اتفاقات معها. هل كان يدور في خلدهم ان الاميركيين قد خسروا آسيا نهائياً وانه ثمة فراغ ينبغي ملؤه ؟ كان رئيس الوزراء تاناكا قد زار بكين، عام ١٩٧٢. وكان الجانب الصيني قد ابدى رغبته بالتفاهم مع طوكيو اذ كان واضحاً ان ذوأنلي يهدف من هذا التقارب استكمال احكام الطوق حول السوفيات في آسيا. وكانت القواعد البحرية التي حصلت عليها موسكو في فيتنام تقلقه، اذ كانت تجيز للبحرية الرسو في عرض البحر قبالة الساحل الصيني، والنزول باتجاه المحيط الهندي. كما كان امتلاك جزر كوريل التي كانت لليابان في السابق، يتيح للسفن السوفياتية الخروج من دون عائق من الموانئ العسكرية في تلك المنطقة البحرية.

كيف لموسكو ألّا تفطن للتقارب الصيني ــ الياباني، فيما جزيرة كوناشيري، حيث يخفق العلم الأحمر منذ عام ١٩٤٥، مطوقة في احد خلجان اوكادو ؟ وكانت هذه الجزيرة مع ايتوروفو، تقف حجرة عثرة في طريق المفاوضات بين البلدين. وعندما اخذ التقارب بين الصين واليابان يشق طريقه، عام ١٩٧٨، راحت الحاميات السوفياتية تتردد الى تلك الجزيرتين. وتدريجياً تسببت الدوريات البحرية بمضايقة الصينيين، كما شكلت الطلعات الجوية الاستكشافية تهديداً لهم. هل اعتقد اليابانيون ان عليهم مواصلة سعيهم لغزو السوق الصيني ؟

لم تثبط ازمة عام ١٩٧٣ من عزيمتهم بقدر ما فعله تخفيض الدولار عام ١٩٧١. كان المصرف المركزي الياباني يمتلك اكثر من نصف موجوداته بالدولار (٦,٢ مليار دولار، في حزيران ١٩٧٢). وعندما علم، بعد شهرين، ان الدولار لم يعد قابلاً للتحويل الى ذهب، راح ينتظر ساعة تخفيض سعره. وازداد الدين الاميركي بين عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٦ بمعدل اربعة اضعاف. وسوف يتضاعف سوق « الاورودولار » (الذي كانت اليابان تمتلك كمية كبيرة منه) عشر مرات خلال عشر سنين. وبين الدول (وعددها ١١٤) التي اضطرت لتحديد موقع عملتها بالنسبة للدولار، كانت اليابان الاكثر تضرراً. ذلك ان ميزان مدفوعاتها الذي كان يشكو فائضاً، منذ سنوات عدة، قدره ٥,٨ مليار دولار، تعرّض لضربة قاصمة منذ تخفيض قيمة العملة الاميركية.

تردد اليابانيون في اعادة النظر في سعر الين، اذ ان نجاحهم قد وضعهم في طليعة المتضررين الدوليين من العجز الأميركي. وقد وزّعوا فوائد ذاك النجاح بشكل زيادات في الاجور الامر الذي كان من شأنه التسبب في التضخم. وفي حال اعادة النظر في سعر الين، فانهم سوف يطلقون حركة تضخمية ويقعون في الحلقة الجهنمية. وكيف يمكنهم المجازفة باغضاب الجمهور الاميركي وهو الزبون الاكبر للصناعيين اليابانيين ؟ وكانت قضية النسيج الاصطناعي موضوع اهتمام نيكسون الشخصي وشكلت سابقة مؤلمة، وقد جاء غزو السوق الاميركي بالاجهزة التلفزيونية « صنع اليابان »، ليضيف قضية جديدة الى ملف القضايا المتنازع عليها بين البلدين.

اخيراً قرر المسؤولون اليابانيون صرف النظر عن الموضوع، اليس المهم ان تستمر مبيعاتهم ؟ لكن تخفيض الدولار اجبر المصارف اليابانية على اعادة النظر في قيمة الين بصورة فعلية، واضطرت بورصة طوكيو الى الوقوف الى جانبها. فادرك المسؤولون أنّ عافية البلاد لا ترتبط فقط

بقدرتها على تحسين انتاجها وعلى البيع بسعر ادنى، بل بقوتها النقدية الضاربة ضد الدولار في الاسواق العالمية كلها بما فيها الوول ستريت وبات التقدم الاقتصادي بعد الآن خاضعاً للاخطار النقدية التي تستطيع ان تلغي بضربة واحدة او بشحطة قلم عقداً زمنياً كاملاً من الجهد والابداع. انها تجربة حافلة بالامثولات والعبر : لن يستطيع « صانعو » السياسة الاقتصادية في اليابان المخاطرة في اتخاذ موقف معين، اذا كانوا يرغبون في املاء الفراغ الذي خلّفته المهانة الاميركية في سايغون، في المحيط الهادئ.

اليابانيون يشنون الحرب مجدداً.

كان سخط المنتجين على قدر خيبتهم : فالاسطورة الاميركية بددت كل حذر طيلة السنوات العشرين الاعجوبة. وساد الاعتقاد بأن ثروات تلك البلاد لن تنضب، وان التوسع لن يتوقف وان « الورقة الخضراء » لن تسقط. وتبين ايضاً ان مضاعفة الاجور في خمس سنوات قد ادخلت اليابان في عداد الدول ذات القوة الشرائية العالية، وشكلت بالتالي آفة تضخمية كبيرة، وأن لا مكان تحت الشمس لبلاد سعيدة حتى ولو كانت في غاية القوة والازدهار، وعليها، كي تعيش وتبقى، ان ترضى بالحرمان وان تكون القدوة على هذا الصعيد. فاذا كان الاولون لا يرغبون في ان يكونوا الاخيرين، فعليهم ان يرتضوا بجائزة التفوق التي منحت لهم !

في البداية، تصلّب اليابانيون في موقفهم. ألم يعطِ نيكسون المثل السيئ باقدامه عام ١٩٧٢، على تخفيض معدّل الفائدة الرسمية، لاسباب انتخابية ؟ تضاعفت المشتريات الاميركية من اليابان، وتجاوز فائض ميزان المدفوعات الياباني ٩ مليارات دولار. واعلن تاناكا الذي سيصبح رئيساً للوزراء (من ٧ تموز ١٩٧٢ الى ٩ ايلول ١٩٧٤)، عن وضع خطة تهدف الى اعادة تنظيم الجزيرة اليابانية حيث يتوسع في تفصيل حلمه

الرامي الى تنقية الطبيعة واستئصال التلوث وتوسيع التجمع السكني الضخم الذي يشمل طوكيو واوساكا. وادت المضاربة على الاراضي العقارية الى تحويل ١٥٠٠٠ مليار من العملة الوطنية عن التوظيف الصناعي، والى تسريع وتيرة التضخم من جراء ارتفاع الطلب على مواد البناء. فضلاً عن ذلك، كشف الجفاف الذي وقع عام ١٩٧٣، للاميركيين انهم يمتلكون سلاحاً رهيباً اذا باعوا الصويا الى اليابانيين بسعر باهظ.

تستورد اليابان ٨٠٪ من الطاقة في شكل هيدروكاربور، ولم تكن الصدمة النفطية في اساس المصاعب التي تعانيها، لكنها ضاعفتها عشر مرات. فقد كان معظم النفط مستورداً من الشرق الأوسط، واعتقد المسؤولون اليابانيون ان عليهم الاكثار من التصريحات المؤيدة للعرب، كما فعل الالمان والفرنسيون، والمطالبة بالانسحاب من الاراضي التي تحتلها اسرائيل، مقابل الحصول من المملكة العربية السعودية والعراق وايران على رفع الحظر النفطي المعلن عام ١٩٧٣. وجال موفدو حكومة طوكيو على العواصم العربية عارضين منحهم مساعدات مالية ضخمة. ولما كانت الاتفاقات الثنائية لا تنص سوى على نسبة ١٢٪ من المشتريات، فقد عمدت الشركات النفطية الكبرى والشركات التجارية اليابانية الى المضاربة الشرسة، مستخدمة عنصر النقص المزعوم في الطاقة لتحقيق ارباح ضخمة. حاولت الحكومة تنظيم التقنين، لكنها لم تتوصل الى فرضه على الصناعات الكبيرة. وارتفعت الاسعار بنسبة ٢٥٪ والاجور ٣٠٪، الامر الذي اوجب رفع معدل الحسم الى ٩٪ والاكتفاء بمراقبة الاسعار كما فعل نيكسون في الولايات المتحدة. كما اتجه المسؤولون الى الحد من التبذير في المواد الاولية والى الانكباب على موضوع النقص الحاصل في الادمغة. فقد دفعت اليابان ثمن قصر نظرها وعدم تبصرها، اذ خصصت من المال للابحاث العلمية اقل مما فعلته معظم الدول الصناعية، واقل مرتين مما فعلت الولايات المتحدة؛ وقد آن الاوان لاعادة الامور الى مسارها الصحيح.

كان تاناكا رئيس الوزراء الجديد، يتحدر من اسرة فلاحية ميسورة، ويعتقد بجدوى الرحلات لحلّ الأزمة الداخلية. وقد انفتح على الصين التي آثر رجال الاعمال اليابانيين، في كانون الثاني ١٩٧٤، اختيارها بدلاً من سيبيريا، منطلقاً لاعمالهم. وكان سراب النفط في ساكالين والغاز في باكوتس والحديد في ألدان قد استهوى المستثمرين طويلاً، لكن الصينيين عرضوا امامهم سوقاً توازي قيمة ٦٠٠ مليون دولار في السنة. فكيف لهم ان يترددوا ؟ دعا تاناكا بلاده لتوقيع الاتفاق التجاري لعام ١٩٧٨. وكان هذا الالتزام يفترض خياراً محدداً، اذ اشترط المسؤولون في بكين قطع العلاقة مع منافسهم السوفياتي.

حقق تاناكا نجاحاً آخر بعقده اتفاقات مثمرة مع كوريا الجنوبية والدول العربية، بغية تجنب اية مفاجأة جديدة مماثلة لما حصل عام ١٩٧٣. واقدم الوزير ناكازون على استثمار مبلغ ضخم قدره مليار دولار في العراق وعزّز مواقعه النفطية في ايران. واذا كان تاناكا قد تعرّض لهتافات الطلاب المعادية في كافة دول جنوبي — شرقي آسيا (حيث تمقت النخبة المثقفة من الشباب غطرسة رجال الاعمال اليابانيين وتتهم الشركات الدولية بممارسة الاستعمار الاقتصادي)، فان التجارة مع تلك الدول كانت في تقدم مطرد، اذ اصبحت اليابان الشريك الأول مع اندونيسيا وماليزيا وسينغافورة وبيرمانيا وتايلاندا. وتعرضت مكانة الولايات المتحدة للخطر.

غير ان تاناكا انتهى في السجن، اذ اقيل من منصبه عام ١٩٧٤ بسبب فضيحة انتخابية واتهم بقبض اكراميات من الشركة الاميركية للطيران لوكهيد التي كانت تعتمد اسلوب الرشوة لبيع طائراتها. مع ذلك، اعيد انتخاب تاناكا مرة أخرى في دائرة نيجاتا، بعد الإفراج عنه بكفالة مالية، وذلك بفضل الزبائنية الرائجة في « الديمقراطية » اليابانية.

اما خلفه، ميكي، الذي اطلق عليه « السيد النظيف »، فقد تابع سياسة

التوسع والانفتاح ذاتها. الطريق شاقة وطويلة، اذ ان الصناعة فقدت لتوها مليون عامل، والمؤسسات الكبرى وجدت صعوبة بالغة في الابقاء على سياسة « الاستخدام مدى الحياة ». عام ١٩٧٤، تراجع الناتج القومي غير الصافي لاول مرة، وتكاثرت حالات الافلاس؛ واذا كانت الاجور قد ارتفعت ايضاً، عام ١٩٧٥، بنسبة ١٣٪، فان ذلك قد تم على حساب الاستقرار النقدي. وحققت الارباح هبوطاً شديداً، وشكا ميزان المدفوعات عجزاً، بدءاً من عام ١٩٧٣. هل خسرت الولايات المتحدة منافسها الأول بفضل ازمة الدولار والنفط ؟

في الواقع، استعادت اليابان مواقعها في البداية على حساب الشركات النفطية السابقة، وتعاملت بقسوة مع الشركات الكبرى التي قامت بالمضاربة على حسابها، وانتهجت سياسة الشراء المباشر للنفط من دولة الى دولة، مع ايران والعراق وخصوصاً مع المملكة العربية السعودية (حرصاً منها على تنويع المصادر)؛ وفيما ازدادت طلباتها من اندونيسيا، كانت الصناعة التي عملت على تجنب التبذير في استخدام الطاقة، تخفض من حاجاتها بشكل محسوس.

كانت الورقة الثانية التي امتلكتها اليابان والحقت الاذى المباشر بالشركات الاميركية، تتمثل بنمو الصادرات. حتى الآن، كانت الانطلاقة الاقتصادية تتوجه بصورة رئيسية الى السوق المحلي، ولم تكن الصادرات تتجاوز نسبة ١١٪ من الناتج القومي غير الصافي. فكانت المبيعات الى الخارج دون المبيعات الفرنسية والالمانية. بعد الآن انطلقت اليابان الى غزو اسواق الدول الصناعية التي كانت تمتلك وحدها القدرة على الشراء، كاوروبا واميركا خصوصاً. فشهد انتاج السيارات نمواً كبيراً : عام ١٩٧٦، تجاوزت صادرات السيارات من طراز نيسان وتويوتا بنسبة ٤٠٪ الصادرات الالمانية و ٧٠٪ الفرنسية. واصبحت الشركات اليابانية المصدّر الاول للولايات المتحدة. واتاح تنظيم الانتاج (الاستعانة بالعديد

من المتعاملين الثانويين، تدريب دقيق للمستخدمين واسقاط الاوقات الضائعة والسعي لتحقيق الحد الاقصى من الانتاجية) التوصل الى اسعار كلفة ادنى من مستوى الاسعار الاميركية بنسبة الثلث. ولم يتردد اليابانيون، في سبيل الاستثمار في مجالات مستقبلية، في بيع اقسام كاملة من صناعتهم، بأسعار متدنية (كالالومنيوم وصناعة السفن)، وفي اعادة تنظيم مصانع الفولاذ لجهة تخفيض قدراتها بشكل كبير. هذه السرعة في التكيّف الصناعي، من دون وقوع صدامات أو اضرابات، اوقعت الاميركيين في ذهول. وتناولت الخيارات الجديدة في القطاعات المعدة للمنافسة وفي حقول الاستثمار والابحاث عدداً محدوداً جداً من المنتجات المعدة للتصدير. عام ١٩٨٠، فاقت الاعتمادات المخصصة للابحاث، ما انفقته المانيا لهذا الغرض. كان النهوض الياباني مدهشاً، وطرائقه فيها من الفاعلية والابتكار بحيث ادّى في المستقبل، الى حرب لا هوادة فيها مع الدول الصناعية الاخرى، وفي طليعتها الولايات المتحدة. وبات واضحاً ان ازمة النفط والدولار التي تفاقمت بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣ لم تصب اليابان باعاقة دائمة، بل جعلت منها بلداً منافساً لم يسبق له ان كان على مثل هذا الجانب من الخطورة.

ارتفاع حمّى التسلّح الاميركي ــ السوفياتي في الشرق الأوسط

اثار الخيار الذي اتخذته اليابان بالتوجه نحو الصين تساؤلات كيسينجر : هل يمكن الابقاء على مثلث واشنطن ــ بكين ــ موسكو في حال قيام ازمة ما ؟ وهل يؤدي تخفيض حدة التوتر على الحدود الصينية ــ السوفياتية الى قيام حوار مع موسكو، من دون تعريض العلاقات الناشئة حديثاً مع بكين للخطر ؟ الا يخشى ان تؤدي سياسة التوازن العالمي التي يفاخر بها خليفة مترنيخ الجديد الى الحاق المهانة بالولايات المتحدة في منطقة الشرق الاوسط حيث تتباهى انها اعادت السلام اليه ؟ وهل يمكنها التصدي لموجة الاستعمار الروسي الجديدة في

اوروبا، في الوقت الذي يتطلع فيه الشركاء الاوروبيون الى علاقات مثمرة ومتكافئة مع الشرق ؟ عام ١٩٧٣، دفعت كل من موسكو والبنتاغون بكميات وافرة من السلاح الى منطقة الشرق الأوسط، بمناسبة حرب الغفران. تلافياً للمواجهة، ارسل مجلس الامن القومي الاسطول السادس ليكون على مقربة من النقاط الساخنة، فأبحرت احدى حاملات طائراته من اليونان فيما غادرت الاخرى اسبانيا لتلتقيا بالقرب من قبرص. اما الاسطول السوفياتي الذي لم يكن يحتوي حينذاك الا على حاملات مروحيات، فقد حط رحاله في الموانئ المصرية. كانت اسرائيل قد خسرت في وقت قصير، وبفعل السلاح السوفياتي، ٥٠٠ دبابة (منها ٤٠٠ على الجبهة المصرية)، و ٤٩ طائرة، منها ١٤ فانتوم المتطورة جداً. وكان يخشى ان يصبح التدخل الاميركي المباشر ضرورياً فيما لو استمرت الخسائر على تلك الوتيرة. وعلم في ١١ تشرين الأول، ان ثلاث فرق مجوقلة من الجيش الأحمر كانت تقف على اهبة الاستعداد للذهاب الى مصر والعراق. وفي ١٢ منه، كانت حاملة طائرات ثالثة في طريقها الى المتوسط. واستمر التدهور : حشد السوفيات ١٤٠ طائرة ثقيلة في الجسر الجوي الذي اقيم مع منطقة الشرق الأوسط. وعلم بعد ذلك، انه جرى استنفار سبع فرق مجوقلة (وليس ثلاث)، فضلاً عن اسطول اميركي صغير للنقل، وطائرات لوكهيد ١٤١ ستارليترز المحملة بدبابات ث ٦٠، والطائرات الضخمة ذات الاربع محركات نفاثة من طراز ث ٥ أ كالاكسي، القادرة على نقل ١٠٠ طن من الاعتدة الى مسافة ٦٠٠٠ كلم بسرعة ١٠٠٠ كلم في الساعة. كان اسطول المحيط الهندي يتزود بالوقود من ايران التي رفضت دخول الطائرات السوفياتية في اجوائها. فكانت الحليف الحقيقي الوحيد لواشنطن في تلك المسألة. وعندما تزودت اسرائيل بالاسلحة المتطورة (صواريخ ذات رؤوس متتبعة، دمّر جيش الدفاع الاسرائيلي ـــ كما ذكرنا آنفاً) ٢٥٠ دبابة مصرية. وقد انجزت الناقلات الضخمة (طائرات ث ٥أ، ث ١٣٠، و ث ١٤١) ما

يقارب ٢٠ شحنة في اليوم اي ما يساوي ٢٠ طن من الاسلحة في الساعة. وجرى تعزيز الجسر الجوي رداً على شحنات السفن السوفياتية الراسية في البحر الاسود والمحملة بالاسلحة المتطورة. وقد سعى الاميركيون لتزويد اسرائيل بما يفوق حاجتها من العتاد بنسبة الربع.

كان يخشى ما لا تحمد عقباه، يومي ٢٤ و ٢٥ منه. فقد اشارت وكالة الاستخبارات المركزية الى وجود قوات المانية ــ شرقية تستعد للاقلاع الى الشرق الاوسط وان حوالي ١٠٠ سفينة سوفياتية ترسو في عرض الاسكندرية. وثمة ثماني طائرات انطونوف ٢٢ لنقل الجنود على اهبة الاستعداد للانطلاق من بودابست. وللحال جرى استنفار ثلاث حاملات طائرات وكذلك الفرقة المجوقلة ٨٢. اجتاز الاسطول مضيق جبل طارق باتجاه الاسكندرية. وكان بريجينيف قد اعلن عند ذاك انه على استعداد للتعاون. وصاغ كلماته بشكل يوحي بأن الاميركيين اخذوا يشاطرونه رغبته في السلام، بحيث بدت المفاوضات قريبة المنال. لا شك أن قرقعة الاسلحة الاميركية هي التي منعت السوفيات من تقديم المساعدة العسكرية لحلفائهم. كما يمكن القول ان التدخل السوفياتي وخطر اندلاع حرب كبرى قد منعا اسرائيل من تحويل انتصارها الى مهانة للعرب، كما حدث عام ١٩٥٦.

اشار حضور الاسطول السوفياتي القادم من سيباستوبول الى شرقي المتوسط الى ارادة حضور سياسي وعسكري دائم في هذه المنطقة من العالم. وكان ابراز هذه القوة على هذا النحو يدل على أن موسكو اصبحت تمتلك قوة تدخل سريع موازية للوحدات الاميركية. كانت السفن البحرية المصنوعة في الخمسينات، ما تزال تعمل وهي تحمل طائرات مروحية مهاجمة وصواريخ ارض ــ جو. كان الاوروبيون يشاهدون العرض بصفة متفرجين. وقد حاذروا الوقوف الى اي جانب، بغية عدم حرمان انفسهم من مصادر النفط. هل حقق الاميركيون اي مكسب من تورطهم في الحرب ؟

لا شك ان السادات قد اطمأن الى حصوله على مساعدة مالية وعسكرية محسوسة كي يواصل تملّصه من النفوذ السوفياتي والتقرب من ناظر الخارجية الاميركية الذي كان يسعى لجرّه الى مفاوضات سلام مع اسرائيل. وقد تأكد هذا الاتجاه بفعل زيارة نيكسون للقاهرة عام ١٩٧٤، والغاء مصر، عام ١٩٧٦، للمعاهدة الموقعة مع الاتحاد السوفياتي الذي سعى للتحالف مع جمهورية سوريا العلمانية الديمقراطية برئاسة الاسد الذي كان ما يزال يمارس لعبة مزدوجة حتى عام ١٩٧٥. وعندما وقع السادات مع اسرائيل اتفاق فك الارتباط في سيناء، اتجه الاسد من جديد الى موسكو، لحاجته للمساعدة السوفياتية من أجل التدخل في لبنان وتثبيت دوره كحامٍ للفلسطينيين من « جبهة الرفض ». ساند الاتحاد السوفياتي هذه السياسة التي كانت تدفع باتجاه مصالحة البعثيين في سوريا والعراق والى تشكيل جبهة تدعمها سوريا والجزائر واليمن الجنوبية الشيوعية. وكادت هذه « الجبهة » ان تؤدي الى تصدع التفاهم الهش الذي قام بين مصر والعربية السعودية عام ١٩٧٣ عندما وقف السعوديون في طليعة الداعين الى حظر النفط. ويمكن التساؤل عما اذا كانت موسكو حاولت زعزعة اركان الحكم الملكي الوهّابي في الرياض. في المرة الأولى، عام ١٩٥٨، نجح الناصريون، بدعم لا ريب فيه من الكرملين، في ازاحة الملك سعود عن العرش واستبداله بفيصل الذي جعل النظام دستورياً انما ابقاه غير علماني. وكان الشيوعيون العرب والناصريون العاملون في اليمن، قد حاكوا، عام ١٩٦٦، الفتن في الرياض ومكة، بهدف اقامة نظام جمهوري على انقاض الملكية فقمع فيصل الفتنة بقسوة وشنق المعارضين بالمئات. واعلن نفسه حامياً للقضية الفلسطينية، متقرباً بذلك من عبد الناصر. واتاح له حظر النفط عام ١٩٧٣ احتضان حركة العروبة مجدداً، الامر الذي ارضى كيسينجر.

اغتيل الملك عام ١٩٧٥. كانت جريمة قبلية. ولم يكن لموسكو اي دور ظاهر فيها. مع ذلك، كان ضباط الطيران والعاملون الاجانب في

قطاع النفط يلعبون باستمرار دوراً محركاً للفتن، من دون ان يعرف بالضبط من اية جهة كانت تأتيهم كلمات السر. جهد الملك خالد الى اقامة توازن في حكومته بين الامراء في العائلة المالكة. كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار في آن مناهضة عبد العزيز للصهيونية، وميل الامير فهد للصناعة الاميركية. كان من الواضح ان لوزارة الخارجية الاميركية دوراً تلعبه في بلد استقبل نيكسون بحفاوة بالغة. وكان النفوذ السوفياتي يقف عند عتبة التعصب الديني. فالاخوان المسلمون يحاربون الشيوعية في العراق والوهابيون يرفضونها في بلادهم. ولم يبقَ لديها سوىَ الاعتماد على « جبهة » الدول التقدمية « والديمقراطية » التي لم يكن يجمع بين قادتها العسكريين سوى كرههم لاسرائيل. كانت تلك السياسة باهظة الثمن لموسكو، فقد انفق الكرملين، في عام ١٩٧١ وحدها. بين ١٣ و ٢١ مليون دولار، في الوقت الذي كان فيه معدل النمو في الاتحاد السوفياتي يتدنى بصورة مقلقة.

الاستعمار السوفياتي في آسيا، والاميركي في التشيلي

تم استيعاب الهجمة السوفياتية في هذا الجزء من العالم، من دون التوصل الى القضاء عليها البتة. كما أن عدم ايجاد تسوية للقضية الفلسطينية كان ينذر بأيام صعبة مقبلة. والاموال المخصصة للاستعمار في ما وراء البحار تضاعفت مرتين خلال عشر سنوات. وفيما شهدت حقبة وجود كيسينجر في الخارجية اعوام (١٩٦٨ ــ ١٩٧٦) مزيداً من التدخل السوفياتي في العالم، عمدت الادارة الاميركية، على العكس، الى تخفيض تورطها في المناطق الساخنة من الكرة الارضية.

كان التغلغل السوفياتي في منطقة المحيط الهندي يتمثل في السعي الحثيث للحصول على قواعد بحرية؛ ذلك ان البحرية السوفياتية كانت فقدت امكانية الرسو في الموانئ المصرية، فيما الموانئ السورية لم تكن

آمنة. بالمقابل، ثمة معاهدة تحالف موقعة عام ١٩٧٥ مع فيتنام (التي اصبحت عضواً في الكوميكون) اتاحت لهذا البلد السيطرة على لاوس وعلى القسم الأكبر من كمبوديا التي ينازعها فيها « الخمير » الحمر الذين تساندهم بكين. كان وجود الاسطول السوفياتي في المحيط الهادئ وتقدمه نحو المحيط الهندي يدخلان في استراتيجية العسكريين في الكرملين الهادفة الى تطويق الصين. وكان بريجنيف قد دعا كيسينجر الى رحلة صيد الى دارته في زافيدوفو، عام ١٩٧٣ واسرّ له، خلال مطاردة الخنازير البرية، ان « تعزيز القوة العسكرية الصينية يشكل تهديداً للسلام في العالم » وان الصينيين « ماكرون، متغطرسون، وعديمو الحس الانساني ». وكان يشدد على وجوب تدمير خط الجبهة التي كان يراها مرتسمة امامه بين بكين وطوكيو وواشنطن. عام ١٩٧٤، انشأ الاتحاد السوفياتي خطاً حديدياً استراتيجياً يربط بين بيكال وأمور، وطوّر في الشرق الاقصى قواعده في سوفيتيسكايا وجازفان وبيتروبافلوسك. وجرت مناورات ضخمة، في نيسان ١٩٧٥، في شمالي وغربي المحيط الهادئ، كان اليابانيون يسارعون الى تأمين الدفاع عن كوريل. ثم رصد غواصات تحمل صواريخ من طراز س س ن ٨ قادرة على اصابة السواحل الاميركية، فيما اخذت حاملة الطائرات مينسك ترسو في بحر الصين. كما اتخذت القاذفات الجديدة من طراز توبوليف ٢٢ م القادرة على العمل على مسافة ٣٠٠٠ كلم، مواقعها على مدارج الطيران. عام ١٩٧٩، دخلت القواعد البحرية الجديدة حيز العمل في فيتنام وكام ران ودانانج، من اجل السيطرة على الصين من الخلف وامتلاك موطئ قدم ملائم باتجاه المحيط الهندي. في غضون ذلك، كان الكونغرس يخفض النفقات العسكرية الاميركية بما يعادل ٤٠ مليار دولار، فيما دعا السيناتور جاكسون الى « اتخاذ موقف حذر من قضايا الدفاع ». ولاقت الادارة مشقة كبرى في اقرار برامج الابحاث حول الغواصة « تريدانت » والصواريخ ام اكس، والصواريخ المعترضة والقاذفات ب ١ التي كان

ينبغي ان تحلّ محل القاذفات القديمة ب ٥٢. والطائرة الاغلى ثمناً في العالم لن ترى النور في السبعينات.

في هذا الوقت، كانت الجرثومة السوفياتية تفتك في افريقيا، فقد تحولت الجمهورية الديمقراطية الجديدة في الصومال برئاسة الجنرال سياد بري الى حليف لموسكو التي جهزت الجيش والشرطة وانشأت، عام ١٩٧٣، في باربرا قاعدة عسكرية ضخمة لاساطيلها. فكانت تستطيع من هناك، مراقبة الحبشة حيث كان نظام الامبراطور العجوز هيلاسيلاسي في طور النزاع (توفي عام ١٩٧٥). كما كان الاتحاد السوفياتي يحوك الدسائس في اليمن الجنوبية، مؤكداً اهدافه الاستراتيجية للسيطرة على منفذ البحر الاحمر.

أتاحت مساعدة العسكريين الكوبيين، للشيوعيين فرصة الفوز في الصراعات الداخلية التي اعقبت رحيل البرتغاليين من انغولا وموزامبيق. وكان العتاد الحربي السوفياتي قد امّن النصر في انغولا لاوغوستينو نيتو الذي توفي بعد فترة وجيزة، في ايلول ١٩٧٩، من دون ان يعم السلام في البلاد. وكانت الحروب القبلية تترافق مع تحرك رجال العصابات المناوئين للشيوعية التابعين لجوناس ساميمبي الذين يتلقون مساعدة من وكالة الاستخبارات الاميركية. في الموزامبيق، فاز سامورا ماشيل في ظروف مماثلة وكان عليه الاستعانة بالكوبيين باستمرار لحماية حكمه ضد رجال العصابات المناوئة. كما كانت موسكو تحرك، احياناً، بواسطة « المتطوعين » الكوبيين، الاضطرابات التي كانت تندلع فجأة في السودان وكينيا والتشاد (حيث كان القذافي، خلال فترة تحالفه مع الكرملين يعمل على زيادة شدة الخلاف)، كما في الدول المجاورة لاتحاد جنوبي افريقيا، مثل ناميبي وزيمبابوي. عام ١٩٧٨، قرر الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان التدخل من اجل انقاذ المدنيين في كولويزي، بعد ان وقعوا ضحايا اجتياح شابا (كاتانغا) من قبل العصاة الذين يدعمهم الكوبيون.

لا شك أن التدخل السوفياتي نجح في زعزعة افريقيا السوداء التي تحررت لتوها من الاستعمار، من دون ان تتدخل الولايات المتحدة لوقف التحرك السوفياتي.

كان للاميرال غورتشوف مفهوم خاص للانفراج الدولي. لكن اذا كان صحيحاً ان اساطيله في آسيا تبدو موجهة ضد الصين وان نشاط الكوبيين في افريقيا لا يهدد مباشرة امن الولايات المتحدة، فان هؤلاء الكوبيين قد قلبوا الوضع في التشيلي رأساً على عقب، حيث كانت المعارضة تولت بمساعدة سرية من وكالة الاستخبارات المركزية، اضعاف نظام الليندي. وكان وزير الخزينة كونالي قد اتخذ سلسلة من الاجراءات الاقتصادية والمالية التي ادت الى عزل البلاد. وامتنعت الحكومة الاميركية عن تقديم اية مساعدة لبلد اقدم على مصادرة املاك اميركية من دون دفع تعويضات ملائمة. وبعد قطع المساعدات ووقف استيراد « السلع الحساسة »، كانت واشنطن تنتظر انفجار الوضع، مبقية على المساعدات الممنوحة للقوات المسلحة ومحافظة على الاتصالات القائمة مع الضباط وصفوف الضباط المتخرجين من المعاهد الاميركية المتخصصة في مكافحة الشغب وأعمال العصابات.

كان الليندي يردد : « القوة هي الشرعية ». وقد جهد لتحقيق اصلاح زراعي وعدم تجاوز اليسار الموالي لتشي غيفارا برنامج التأميمات، كما تقرب من العسكريين الموالين للشرعية، والذين كانوا يعارضون قيام انقلابات عسكرية يمينية. وهكذا احبط الجنرال براتس الموالي للرئيس الليندي مناورات الشركات الاميركية ووكالة الاستخبارات الاميركية. وكان كيسينجر ووزارة الخارجية يتوقعان من الحزب الديمقراطي ــ المسيحي برئاسة ادواردو فراي الذي كان يحظى بعطفهما، استعادة السلطة. لكنهما لم يتوقعا، على ما يبدو، صدام العسكريين فيما بينهم ولا ترفيع بينو شيه الى رتبة جنرال وعزل براتس ولا الهجوم على رئاسة الجمهورية الذي انتهى بموت الليندي.

كان قيام النظام العسكري في التشيلي شديد الوطأة، اذ تناول التطهير الجيش اولاً، فاعتقل ثمانية جنرالات واميرالان، وتعرض الجنرال باشيليه للتعذيب في السجن واعدم ٢٠٠٠ ضابط آخر. وطفت جثث اولئك الذين اعدموا بالرصاص في مياه مابوشو. وتم جمع المعارضين السياسيين في ملعب سانتياغو الوطني، تمهيداً لبرمجة القضاء عليهم. وقدر عدد ضحايا هذا الارهاب الوحشي بـ ٥٠٠٠٠، وعدد المعتقلين في سجون الشرطة السياسية للنظام الجديد (دينا) بنحو ٩٠٠٠٠. وجرى حلّ الحزب الديمقراطي — المسيحي مع سائر الأحزاب الاخرى. واقام الاقتصاديون التشيليون من اتباع ميلتون فريديمان و « شيكاغو بويز » نظام المبادرة الحرة : فتح الحدود أمام تدفق الرساميل والبضائع والغاء التأميمات في القطاع العام (ما عدا مناجم النحاس) واصلاح زراعي معاكس. ازدهرت الصادرات وتراجع التضخم المالي لكن الصناعة تراجعت بشكل سريع جداً وتعرضت الغابات للقطع والتصدير. وتعرّض سكان الاكواخ حيث كان يكتظ العاطلون عن العمل للجوع. غير أن واشنطن وجدت ان العروس في غاية الجمال. وطالب السيناتور كينيدي مجلس الشيوخ بالغاء كل مساعدة عسكرية للتشيلي، « ما لم يبلغ الرئيس الكونغرس بأن التشيلي تبذل جهوداً كبيرة في الحفاظ على حقوق الانسان ». في غضون ذلك، كان بينوشيه يزدري بسياسة كيسينجر الجديدة : الم يكن باستطاعة رفاق الحرية، في اميركا اللاتينية، تجنيب الشعوب مرارة تجربة الانظمة الفاشية المتأخرة التي أعيد طليها بالوان مدرسة « شيكاغو بويز » ؟

الامساك باميركا اللاتينية بقبضة من حديد

من المؤسف ان التشيلي لم تكن حالة وحيدة. ففي الاوروغواي المسالمة التي كانت في السابق جمهورية « سويسرية » ذات وجه اطلسي، استوطن العنف. وتعرّض هذا البلد المصدّر للحوم والاصواف الى اوروبا

الى هزة اقتصادية من جراء اعادة تنظيم الاسواق العالمية ــ فالسياسة الاجتماعية التي اتبعتها الحكومات المؤلفة من وجهاء الملاكين ادت الى الافقار العام وتفاقم التضخم النقدي في نهاية الستينات. وكان كبار الملاكين، كما في التشيلي، يدعون للحفاظ على الاقتصاد الحر حرصاً على مواقعهم، عاملين على القضاء على التضخم بانتهاج سياسة تثبيت الاسعار التي ادت الى الافقار العام. وهكذا انتشرت معارضة التوباماروس في البلاد، وهي حركة ضمت الطلاب والفلاحين وكانت شديدة العنف بقدر القمع الوحشي الذي تعرضت له. حافظت الحكومة الشرعية برئاسة بوردا بري على النظام بفضل الجيش والشرطة. وادت ازمة ١٩٧١ ايضاً الى تفاقم بؤس الناس العاديين، وزيادة نشاط التوباماروس واشتداد القمع الحكومي له. وقامت حركة مضادة للتوباماروس راحت تلاحق المقاتلين دون هوادة، وتضرب سكان المناطق المتمردة؛ وباتت معاملة المساجين في غاية السوء وعمّ التعذيب كافة السجون. عام ١٩٧٢، تدخل الجيش ضد السلطة المدنية الحاكمة وقضى تدريجياً على كل المؤسسات واقام مكانها نظاماً ارهابياً. وتم عزل بوردابري في ١٢ حزيران ١٩٧٦، وتأجيل الانتخابات لاجل غير مسمى؛ وارتقى المحامي اباريسيو منديز، ذو الشخصية الساحرة والغريبة الاطوار معاً، سدة الحكم، واتهم الحزب الديمقراطي الاميركي « بالتمرد » في بلاده. كان السجناء السياسيون يعدّون بالآلاف، ولا يفرج عن المعتقلين الا مقابل فدية باهظة او يعدمون من دون محاكمة؛ وانتشرت الوشاية بين السكان فيما تولى العسكريون شؤون التعليم. كانت الاوروغواي فيما مضى دولة تحتذى وقد تحولت الى نموذج لا يشرّف مجموعة الدول في اميركا الجنوبية.

تواصلت حالة الذل اللاحقة بالولايات المتحدة عبر قيام انظمة اخرى، كانت تهدد كل يوم حقوق الانسان، فيما لم تنجح وزارة الخارجية الاميركية في مراقبتها واخضاعها؛ ففي الارجنتين، ادت الاجراءات التقشفية التي اتخذها فرونديزي الى ثورة استغلها العسكريون في البداية،

ثم بيرون الذي كان عاد الى البلاد عام ١٩٧٣، وسط موجة عارمة من التأييد. بعد وفاته، عام ١٩٧٤، خلفته زوجته الثانية، ايزابيل، التي اوكلت حقيبة الاقتصاد الى جوزيه جيلبارد. فجهد هذا الأخير لمحاربة الازمة العامة من خلال اجبار كبار الملاكين على تجميد اسعار اللحوم، وانتهاج سياسة ضرائبية جديدة والطلب الى المونتونيروس (النموذج الارجنتيني عن التوباماروس) تهدئة النقابات لفترة محددة. غير أن الارهاب في صفوف اليمين واليسار ادّى الى العديد من الاغتيالات. فسقط الوزير السابق في حكومة الليندي، الجنرال براتس الذي لجأ الى بيونس ايريس تحت ضربات اليمين المتطرف. وقضى التحالف الارجنتيني المناوئ للشيوعية ــ وهو تنظيم سري ــ على ٨٠ مناضلاً من اتباع بيرون. وعم الرعب كافة انحاء البلاد ولجأ العديد من الارجنتينيين الى الخارج. تجاوز التضخم نسبة ٤٠٠٪. واستولت مجموعة من الضباط على السلطة وبرز منها الجنرال فيديلا، عام ١٩٧٦، الذي الغى الحريات الديمقراطية، واعلن الاحكام العرفية وابطل حق الاضراب وانشأ المحاكم العسكرية، وحكم البلاد بالقوة وقضى على كل خصومه السياسيين. وتعرّض المنفيون للمطاردة في الخارج، والمونتونيروس لقطع الرأس. وتولت السلطة العسكرية قمع النقابات العمالية والشبيبة التي اتهمت « بالانحراف الهدام ». وخفّض وزير الاقتصاد مارتينيز دي هوز من الاستهلاك، وشرّع الحدود، الأمر الذي ادّى الى ركود اقتصادي شديد. حتى ان معامل بناء السيارات الاجنبية وجدت نفسها في ضائقة. واسفرت معالجة الازمة على الصعيد النقدي، الى كارثة مدمرة.

هل كان النظام البرازيلي مماثلاً لتلك الديكتاتوريات الفاشية ؟ اقام الجنرال جيزيل الذي ارتقى الحكم عام ١٩٧٤، نظاماً ليبرالياً ومناهضاً للديمقراطية في آن، ورمى معارضيه في السجن في ظروف لا انسانية اثارت احتجاج رجال الدين. وتوقف عسكريو « السوربون » عن لعب دور « مهدّئ » لينصرفوا الى محاربة الكاسترويية التي كانت تستخدم

كذريعة لقمع كل الفئات المعارضة ــ من الطلاب والعمال والفلاحين ــ حيث كان لا بدّ للسياسة الاقتصادية الليبرالية، لا سيما في فترة الازمات الحادة، من ان تثير نقمتهم. تأثرت البلاد على وجه الخصوص بالصدمتين النقدية والنفطية، من جراء ارتباطها شبه الكامل بالرأسمال الاجنبي. فالركود ومحاربة التضخم ينطويان على معاناة اجتماعية قاسية لم يحاول النظام الليبرالي معالجتها. كانت الثورة امراً لا مفر منه. وجرى تفشيلها بمنتهى الشدة. فاز الحزب الرسمي (ارنيا) في الانتخابات البلدية عام ١٩٧٦، باساليب ملتوية. وتم تأليف « جهاز الإعلام الوطني » الذي شكّل ما يشبه وزارة غير منظورة، يرأسها العسكريون، ومهمتها الابلاغ والوشاية عما يقع حتى في القرى الصغيرة. وكان مجلس الامن القومي الذي انشئ عام ١٩٦٨، يضم واحداً وعشرين عضواً حول « الرئيس جيزيل » الذي عيّن من بينهم. وكان يجري احباط الاضرابات وتفرقة التظاهرات، واعتقال المسؤولين السياسيين وتعذيبهم. رداً على ذلك، انشأت الكنيسة « اللجنة الرعوية للارض » وتولت تنظيم حركة نقابية ريفية للاحتجاج على النظام الذي كان يترك مناطق بكاملها تموت جوعاً، مثل نورديست، ولا يقف في وجه ابادة القبائل الهندية كما حصل لدى شق الطريق عبر غابات الامازون والتنقيب عن المعادن فيها. ترأس راعي ابرشية ريسيف، الاسقف دون هيلدير كامارا تلك الحركة التي اخذت تندد « بالظروف ما دون الانسانية » التي كان يعيشها الفقراء من ضحايا النظام الليبرالي الهمجي. واتهم المؤتمر الاسقفي الرئيس جيزيل بابقاء الشعب البرازيلي في اجواء « الظلم واللاستقرار ».

كان رجال الكنيسة في البرازيل، يستطيعون الاحتجاج على الاقل. اما في غير مكان، كالكاراييب والدول الاندية، فلم يكن للظلم حدود، وكانت مطاردة رجال المقاومة تنشر الموت في القرى. في البيرو، وقع انقلاب عسكري يميني ادّى الى قيام ديكتاتورية عسكرية بدءاً من عام ١٩٦٨. وادت الاضطرابات والتظاهرات التي قامت ضد سياسة التقشف

التي دعا لانتهاجها صندوق النقد الدولي، الى اثارة الفتن والى قمع دموي اسفر عام ١٩٧٥، عن وصول ديكتاتور جديد الى السلطة هو الجنرال موراليس بيرموديز. كان الصندوق الدولي يربط منح القروض بانتهاج سياسة اقتصادية واجتماعية لا تضخمية. وكان الاستاذ الجامعي غوزمان قد اسس « الطريق المنير » الذي كان من شأنه « فتح طريق الثورة امام الشعب ». فحشد حوله الانصار في منطقة « اياكوشو » الفقيرة، واعلن « المسيرة الطويلة » على الطريقة الماوية، تمهيداً « لاقتحام المدن ». بعد فترة قصيرة، تأسست في كولومبيا الحركة الثورية م ١٩ التي ادت الى اعلان الاحكام العرفية في البلاد. في بوليفيا، تابع الجنرال هوغو بانزر حربه ضد رجال المقاومة. حتى في المكسيك الديمقراطية، القائمة على ابواب الولايات المتحدة، اضطر الرئيس ايشفيريا لاستخدام القوة كي يفرض على البلاد اقتطاع مبالغ كبيرة من القدرة الشرائية بحجة محاربة التضخم. على الرغم من أنه نجح في انماء الانتاج الزراعي وتطوير الخدمات الاجتماعية، فان ارتفاع الاسعار (٢٠٪ في السنة) والديون (٢٠ مليار دولار) وتخفيض قيمة الدولار لمرتين، جعلت البلاد في وضع هش ازاء التوصيات التي قدمها صندوق النقد الدولي. فاضطر ايشفيريا الى قمع اضرابات وتظاهرات الطلاب بشدة. لكنه ابقى البلاد، على الاقل، بمنأى عن النظام الفاشي، وتميز عن الولايات المتحدة بانتهاج سياسة خارجية مستقلة لدرجة أنه أعلن، عام ١٩٧٤، عن « استعداده لاقامة حوار جديد » مع كيسينجر، والانضمام، عام ١٩٧٥، الى مجموعة البلدان البالغ عددها ٢١ دولة، في اطار « منظمة الدول الاميركية » التي قررت اعادة العلاقات مع كوبا.

ثمة تراجع جديد للخارجية الاميركية، ذلك أن نظام كاسترو بدا مصدراً للثورة الماركسية ـــ اللينينية، اكثر من اي يوم مضى. وقد اتاحت عملية « كارلوتا » حشد الوف الجنود بغية ارسالهم الى افريقيا. واقام كاسترو، منذ مدة طويلة، نظام الحزب الواحد، واستقدم الخبراء

السوفيات : وهناك « الوية العمل » في الارياف، و « جبهة الصناعة » في المصانع، اللتان تضمنان تأطيراً واسعاً للسكان بمساعدة الشرطة السياسية والعسكريون يتواجدون في كل القرى وعلى استعداد لتوقيف المشبوهين. واي مخالفة في الرأي تقود الى السجن، ولم يفرج عن الكاتب باديلا الا بعد ممارسة مذلة للنقد الذاتي. كم يبلغ عدد المعتقلين ؟ عام ١٩٧٥، مارس النظام مزيداً من التشدد وفرض « العمل التطوعي » في الريف والمدينة. فبنت مجموعات من المتطوعين مدينة جديدة هي « الامار ». وكانت تسهر لجان الدفاع عن الثورة (كوادراس) في احياء المدن، على تنظيم الحملات السياسية، وضمان الامن، والكشف عمن يشتبه بفتوره الثوري او بالعمالة لوكالة الاستخبارات الاميركية. اذا كانت الاوضاع الصحية والتعليمية قد حققت تقدماً، فان التصنيع والزراعة قد شهدا فشلاً ذريعاً، وكادت كوبا تختنق لو ان الاتحاد السوفياتي لم يشترِ انتاجها البالغ ٨ ملايين طن من السكر باسعار فاقت السعر العالمي بكثير.

واصلت الثورة الكوبية، اذاً، تحدّيها للبنتاغون، على ابواب فلوريدا وعلى دعم رجال العصابات في غواتيمالا ونيكاراغوا. في السلفادور، ادى انتخاب ملكة جمال الكون الى حدوث فتنة، واضطر اصحاب الرولز الى الهرب، حين اطلق الجيش النار على الجياع الذين كانوا يتظاهرون.

« القوة الزراعية » الاميركية وحقوق الانسان في الاتحاد السوفياتي

لا شك أن كيسينجر شعر بالندم لانتشار الانظمة الاستبدادية، نتيجة تأثير الصدمة النقدية والنفطية خلال الاعوام ١٩٧١ ــ ١٩٧٤. ففي التشيلي كان يفضل وصول فراي الى الحكم، غير أن الملاكين العقاريين ووجهاء البلاد فرضوا بينوشيه. كما فشل ايضاً في الارجنتين والاوروغواي وحتى في البرازيل حيث الطغمة العسكرية تكيّف مسلكها مع جغرافية الثروات القديمة التي تبدّلها الروافد الخارجية والترسبات الحديثة. لقد خضع كيسينجر للتغييرات الطارئة اكثر مما تسبب بها. لم تتوافر لديه

وسائل التحرك ضد الانظمة. او ضد الطغاة غير المرغوب بهم. وساد الاعتقاد طويلاً في واشنطن ان اي شخص آخر كان افضل من كاسترو. وهكذا اثارت تلك المواقف شجب واستنكار اوساط المدافعين عن حقوق الانسان في العالم.

في كل حال، كان باستطاعة ناظر الخارجية الاميركية الدفاع عن هذه الحقوق في الاتحاد السوفياتي، من خلال مطالبة السوفيات بحرية هجرة اليهود من البلاد متى رغبوا في ذلك. حتى أنه لجأ الى المقايضة لبلوغ اهدافه، بعد ان تحقق من حاجة محاوريه الملحة الى المساعدة الزراعية.

لاحظ كيسينجر، اثناء زيارة نيكسون لموسكو، عام ١٩٧٢، ان بريجنيف يتقدم سائر اعضاء الترويكا الآخرين. كان الامين العام للحزب يحمل سبعة اوسمة من رتبة لينين، وثلاثة من رتبة « بطل » الاتحاد السوفياتي، وعلى ميدالية كارل ماركس الذهبية، وعلى جائزة لينين للسلام والأدب. كما اصبح، بموجب اجماع سياسي لا جدال فيه، الأول بين « الشيوخ الخرفين » (بلغ متوسط الأعمار بين اعضاء المكتب السياسي في حينه ٧١ سنة). وهو يوشك ان يصدر دستوراً جديداً (عام ١٩٧٧)، وهو يستغل اللجنة المركزية لتعيين ممثلين اوفياء له في المناطق والادارات. ففي المقاطعات التابعة لامانة اللجنة المركزية وعددها ٢٥ مقاطعة، عين ٥٠٠ موظفاً كبيراً للاشراف على اجهزة الحزب. كان الدستور يشدد على دور الحزب، لكن بريجنيف كان يتطلع الى اشراك المواطنين في ادارة الشؤون العامة، بفضل تأسيس هيئات تعمل على تعزيز « الرقابة الشعبية » للحياة الاجتماعية. وضمت « لجنة رقابة الشعب » جيشاً حقيقياً من المتطوعين، وكانت مهمتها تقضي « بتعزيز روح الحزب »، خصوصاً في منتصف السبعينات حين فرض فشل السياسة الاقتصادية العودة الى « العمل التطوعي ».

عام ١٩٧٥، لاحظ جميع الخبراء مزيداً من تشنج النظام، الذي ظهر

جلياً حيال التشدد في قمع الحركات المنشقّة. بدءاً من مطلع عام ١٩٧٣، والصدمة النفطية التي لم تلحق بالاتحاد السوفياتي اي سوء لكونه اكتشف في سيبيريا حقولاً نفطية مهمة، اعطيت الاولوية للصناعة الثقيلة والزراعة والدفاع وتنمية سيبيريا على حساب الخطة المغايرة التي اعدها كوسيغين. ولوحظ بعد ذلك تباطؤ شديد في معدل النمو والاستثمار وهبوط في الانتاجية وانخفاض محسوس في المحاصيل. ويمكن الحديث عن « تصدع » شديد نجم عن شدة النزوح الى المدن وحرمان الريف من اليد العاملة. فقد ارتفع عدد سكان المدن من ٤٩٪ الى ٦٦٪ في فترة ٢٠ سنة، الامر الذي فرض على الدولة اعباء ثقيلة في حقل البناء والتجهيز. وادى تدني معدل الخصوبة بنسبة سبع نقاط بين الاعوام ١٩٦٠ و ١٩٧٠، الى انخفاض الاحتياطي السكاني (باستثناء المناطق الاسلامية التي ارتفع عدد سكانها من ٢٢,٥ مليونان عام ١٩٥٩، الى ٤٢، عام ١٩٧٩). وبدا بالتالي ان نمو القوى العاملة غير كافٍ، ولاول مرة يحتاج الاتحاد السوفياتي لليد العاملة. ضاعف بريجنيف الاستثمارات المخصصة للزراعة، غير أن تعاقب سوء المحاصيل (في عام ١٩٦٩ و ١٩٧٢ و ١٩٧٤ و ١٩٧٥) ومشكلات التوزيع، اوجدا نقصاً مقلقاً في الحبوب لا يمكن لمحاصيل الأرض الزراعية البكر ان تسدّه بشكل سريع. وبذلت الجهود لزيادة الانتاجية وتلافي تبديل المحاصيل اثناء التخزين والنقل، وتحسين الوضع المادي (رفع الاسعار الزراعية ودفع الاجور شهرياً) والمعنوي للمزارع الكولخوزي الذي منح جواز سفر للتنقل داخل الاتحاد السوفياتي. لكن ينبغي انتظار عام ١٩٧٧ حتى تقوم السلطة بتحرير الملكيات الزراعية الصغيرة التي تنتج وحدها ربع المحاصيل السوفياتية. اما انشاء المصانع الزراعية ــ الغذائية في مكان الانتاج، فكان يتم ببطء شديد، وقد ادرك كيسينجر في السنوات ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥ ان الاتحاد السوفياتي يعاني من نقص فادح في السلع الغذائية.

كانت أميركا تشكو فائضاً وتخمة لدرجة توزيع ٢٠٪ من مخزونها بشكل مساعدات مجانية للبلدان المهددة بالجوع (الغذاء للسلام). وينتظر المنتجون المثقلون بالديون كل سنة بفارغ صبر تصفية مخازنهم. وتنتج الولايات المتحدة نصف كميات القمح المعدة للتسويق في العالم، وربع كمية الارز، وكل كمية الصويا. كانت هذه « القوة الزراعية » تمنح كيسينجر قوة ضاربة تتيح له التفاوض سنوياً، على كمية تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ مليون طن من القمح لتصديرها الى الاتحاد السوفياتي. وثمة مفارقة غريبة، هي ان الليبراليين الاميركيين الداعين لتعزيز المبادلات التجارية مع الاتحاد السوفياتي، بدّلوا موقفهم وحرّضوا الدبلوماسية الاميركية على فرض شروط الزامية على السوفيات. وكان اللوبي التجاري يدعم موقفه بكل الحجج التي تؤدي الى استئناف التبادل التجاري كالقول بأن النظام الشيوعي لن يحول، في المدى الطويل، دون ارساء العلاقات التجارية. فاذا لم تأخذ الولايات المتحدة المبادرة في هذا المضمار، فان الاوروبيين والكنديين والاوستراليين سيتولون تلك المهمة. وكان السوفيات قد قاموا بشراء محصول عام ١٩٧٢ مباشرة من المنتجين، مستغلين الثغرات القائمة في التنظيم الفيدرالي.

عام ١٩٧٣، اقتنع كيسينجر بالحجج التي قدمتها مجموعة ضاغطة اخرى واقترحت بموجبها ربط صادرات القمح بتعديل القواعد السوفياتية المتبعة بخصوص الهجرة. وافقت موسكو على اجراء الصفقة وغادر الاتحاد السوفياتي في تلك السنة ٣٥٠٠٠ يهودي (مقابل ٤٠٠ نسمة عام ١٩٦٨). وللحدّ من تلك الحركة، فرض فيما بعد « رسم الخروج »، وهو ضريبة تستوفيها الدولة لتغطية نفقات التعليم التي تكبدتها في سبيل المهاجرين، لكنها عادت والغتها اثر قيام حملة صحافية اميركية.

في الولايات المتحدة، ادرك الليبراليون ان سلاح القمح يمكنه أن يكون ماضياً، فعادوا الى شهره بمساعدة الحزب الجمهوري المحافظ. وتقدم

السيناتور جاكسون بمشروع قانون يخضع فيه توقيع اي اتفاق تجاري مع الاتحاد السوفياتي الى تحرير الهجرة من اية شروط. كان الرأي العام، في ذلك الحين، مرهف الحس ازاء عملية القمع التي تعرض لها سولجينستين والمؤرخ امالريك والعالم الفيزيائي ساخاروف. وقد كتب هذا الأخير الى الكونغرس مؤيداً مشروع قانون جاكسون. وانضمت الاوساط اليهودية ومجموعة من ممثلي الحزبين الى جانب جاكسون. وتجندت الصحافة للدفاع عن حقوق الانسان في الاتحاد السوفياتي. وانتهى جاكسون الى اشتراط هجرة ١٠٠,٠٠٠ شخص في السنة بناء لطلب كيسينجر. وطرح السوفيات رقم ٤٥٠٠٠ شخص، معللين ذلك بالقول أنهم لا يرغبون « اتخاذ موقف من شأنه إجبار المواطنين السوفيات على الهجرة ارضاء لالتزام اخلاقي ازاء الولايات المتحدة ». تمّ اقرار مشروع القانون حول التجارة بحسب التعديل الذي ادخله جاكسون عليه. وجاءت نتائجه مخيبة للآمال، اذ لم يستطع الهجرة، عام ١٩٧٥ سوى ١٣٢٠٠ شخصاً. غير أن مجموعة « المزارعين » الضاغطة كانت على جانب من الفعالية الموازية لما كان عليه الليبراليون، اذ اضطرت الولايات المتحدة الى الاخذ بعين الاعتبار في مفاوضتها، مزاحمة القمح الكندي والاوروبي والارجنتيني والاوسترالي لها. لكن مسألة الدفاع عن حقوق الانسان لم تسفر عن نتائج ملموسة.

التبادل بين الشرق والغرب من أجل تصنيع الاتحاد السوفياتي

تمثلت الصفقة الكبرى بفتح الاسواق السوفياتية امام السلع التجهيزية. هل كان يتعين على الولايات المتحدة أن تخسر هذه الصفقة حيث كان الكرملين يمسك بأوراق اللعبة اذ كان باستطاعته أن يستورد ايضاً من اوروبا واليابان الآلات اللازمة لتطوير اسلحته وتقدم صناعته ؟ حتى في ميدان صناعة الاغذية الزراعية، لا يمكن للتغيير الا أن يأتي من الغرب. بين الاعوام ١٩٧٢ و ١٩٧٦، تضاعفت مستوردات الآلات والمعدات اربع

مرات. وكان بريجنيف يعتقد بامكانية الاستغناء عن اصلاح جذري للنظام وعلاقات الانتاج التي جمدت تطورها البنيات والمجموعات البشرية المعنية، مقابل ارهاق البلاد بالديون. وحده الاستيراد الكثيف للمعدات الاجنبية يتيح زيادة الانتاجية وسدّ الحاجات بالتكنولوجيا المتطورة اللازمة لمصانع انتاج الاسلحة.

بين الاعوام ١٩٦٦ و ١٩٧٥، شهدت المبادلات الاقتصادية توسعاً كبيراً، ولم تشارك الولايات المتحدة فيها بصورة ناشطة وشاملة الا في العام ١٩٧٥، على الرغم من التحفظات الواردة في قانون جاكسون. حتى ذلك العام، كانت تمتنع عن تسليم عدد كبير من السلع المحددة، اذ لم تكن ترغب في بيع « الحبل الذي تشنق به »، على حد تعبير لينين. وكان « مصرف الاستيراد والتصدير » الذي يموّل المبادلات قد تلقى التوجيهات بوجوب عدم عقد اية صفقة اذا لم تكن « متوافقة مع المصلحة الوطنية ».

اما الاوروبيون فلم تكن لديهم مثل هذه الشكوك، بعد الازمة المزدوجة في عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣. وقد بدأوا، اعتباراً من عام ١٩٦٥، في اعادة العلاقات مع الشرق ثم ضاعفوا من وتيرة استثماراتهم، كما عقد بعض الدول اتفاقيات ثنائية لمدة خمس سنوات، فعقدت فرنسا، عام ١٩٧١، اتفاقاً للتعاون مدته عشر سنوات اضافة الى اتفاقية خمسية في العام ١٩٧٥. وقد حلّ هذا النمط من التعامل، تدريجياً محل التعامل التجاري التقليدي وتشكلت لجان مختلطة لمتابعة تطوره؛ وكانت الشركات الفرنسية والالمانية تمنح الاجازات وتزود الاتحاد السوفياتي بمصانع جاهزة، وتوقع معاهدات لتسليم انابيب الفولاذ، مثلاً مقابل الحصول على كميات ضخمة من الغاز. وكانت المانيا الفيديرالية والنمسا وايطاليا تتبع النهج الفرنسي واحياناً تسبقه في هذا النوع من التبادل. كما تم عقد اتفاقات للانتاج المشترك والتخصص، لا سيما في صناعة

السيارات، اتاحت للصناعيين الغربيين انتاج سلعهم وسياراتهم في كافة البلدان الشرقية. وثمة شركات اخرى شاركت مع المؤسسات الصناعية الحكومية. وكانت المجموعات الصناعية الكبرى الوطنية او المتعددة الجنسيات في طليعة من قاد هذه المبادلات. هل سيبقى الاميركيون بمعزل عن هذه الحركة للرساميل والبضائع ؟ لا شك أن وفرة الغاز والنفط لدى السوفيات كانت تمنح موسكو ورقة تبادلية على درجة من الأهمية توازي القمح الاميركي. وكانت العواصم الاوروبية التي تقلقها مشكلة النفط اخذت تتجه بانظارها تدريجياً نحو الشرق، وفي طليعتها بون وباريس.

كان اصحاب الرساميل الاميركيون يتدبرون شؤونهم غير عابئين بالانظمة المرعبة ويتوسعون في أعمالهم بصورة افرادية. مثاله ان ليفي ستراوس الشهير في سان فرنسيسكو عقد اتفاقاً مع المجر لانتاج الجينز بموجب اجازة، فيما تولّت الشركة الأميركية تسويق ٦٠٪ من الانتاج. ولم يكن بوسع الحكومة الاميركية معارضة هذه الانطلاقة الفردية، كما افتتحت موسكو خطاً نفطياً تشيكياً نحو اوروبا الشمالية و « خط الصداقة رقم ٢ » من حقول سيبيريا باتجاه اوروبا الغربية. وكان مشروع انبوب نقل الغاز « نجمة الشمال » قد انشئ ايضاً لنقل غاز اورانغو في سيبيريا الغربية (٢٠٠٠ كلم من الانابيب) الى احد مرافئ سيبيريا حيث يصدّر منها نحو اليابان والولايات المتحدة. غير أن العقد لم يوقّع اذ اعترض الكونغرس عليه، عام ١٩٧٣، وحدها اوروبا افادت من الطاقة مقابل صادراتها الى الاتحاد السوفياتي.

قامت الشركات الاميركية الكبرى، اذاً، بالمهمة الموكولة الى الدولة، غير ان شركة فورد التي انشأت فروع لها في كل انحاء اوروبا، تريثت، باعتبار ان مشروعها الذي أعدته عام ١٩٧٠ لبناء مجمع صناعي ضخم ينتج ١٥٠٠٠٠ آلية ثقيلة و ٢٥٠٠٠٠ محرك ديزل في السنة، قد فشل،

مع ان مصرف شايزمنهاتن وافق على التمويل، ذلك أن حرب فيتنام اثارت اعتراض البنتاغون الذي لا يرغب بمقاتلة وحدات الفيتكونغ المجهزة بشاحنات فورد.

ادى تكرار هذا الفشل الى ارباك الصناعيين الذين موّلوا حملة نيكسون. وقد اضطر الرئيس الى انشاء لجنة التجارة بين الشرق والغرب برئاسة جورج شولتز. وحرص كيسينجر على اقصاء وزير الدفاع عنها، اذ كان يرغب في تعويضَ التأخر الاميركي. استقل كيندال رئيس شركة بيبسي الكولا، الطائرة الى موسكو لتنظيم مبيعاتها في مختلف إنحاء الاتحاد السوفياتي. وفي السنة نفسها، عمدت شركة هيوليت باكارد (التي كان يشغل رئيسها السابق منصب مساعد وزير الدفاع) الى عقد اتفاق مدته خمس سنوات لبيع مصانع معدات المقاييس وتجهيزات الكترونية وناظمات آلية. عند ذاك، فتحت الثغرة في الجدار، اذ باعت شركة روكويل انترناشيونال (صواريخ وقاذفات وقنابل يدوية) اجهزة عازلة معدّة للمفاعلات النووية، كما وقعت داو كيميكال اتفاقاً مماثلاً طويل الامد. وجالت بعثة خبراء سوفيات في الولايات المتحدة للاطلاع على الاجهزة التقنية المتطورة وخصوصاً الرادار. وعقد اتفاق مع آي.تي.تي. وهي شركة للاتصالات اللاسلكية متعددة الجنسيات تولت تجهيز المطارات السوفياتية بوسائل الحجز والاتصال. وكان نيلسون روكفلر، قد قام قبل عشر سنوات برحلة الى موسكو لعقد اتفاقات نفطية. وهكذا كان الاميركيون يتقدمون خطوة خطوة. لكن ذلك لم يمنعهم من التخلف عن الركب بالنسبة لمنافسيهم الاوروبيين، من جراء العوائق التشريعية والاعباء العسكرية التي تتطلبها مكافحة الشيوعية. من هنا يمكن فهم استعجال كيسينجر لازالة العقبات القائمة، غير ان الكونغرس كان يقف له بالمرصاد للحد من جهوده ودفعها أكثر فأكثر بإتجاه ربط مفاوضاته مع السوفيات بحقوق الانسان التي أصبحت الموضوع الاساسي لدى السيناتور جاكسون.

نزع السلاح النووي : معاهدات سالت

بقي على كيسينجر ان يتفاوض حول الاتفاق الاهم والمتعلق بالحد من الاسلحة الاستراتيجية. في ذلك الحوار الذي لم ينقطع مع موسكو، بقيت للمشكلات العالقة حصتها في المفاوضات، غير أن الرأي العام العالمي ــ وليس الاميركي وحده ــ كان يتابع بشغف كبير جهود نزع السلاح التي كان وزير الخارجية الاميركية يعطيها الاولوية على ما عداها. وقد كتب في هذا الصدد : « تكمن المفارقة في القوة العسكرية المعاصرة في ان تزايد قوات الدولة قد قلص من تلك العلاقة التقليدية التي كانت قائمة بين القوة والسياسة ». وفي الوقت الذي تمنح فيه الديمقراطيات الغربية الكلام في وسائل الاعلام الى اولئك الذين يفضلون ان يكونوا « حمراً بدلاً من ان يكونوا امواتاً » فان الولايات المتحدة تستطيع تنمية قوتها الى ما لا نهاية، اقله على حساب المرونة السياسية. هذه الرغبة في الاعتدال التي برزت بقوة في هلسنكي، عام ١٩٦٨، لاقت دعم الرأي العام والصحافة والكونغرس الى درجة ان هذا الاخير اخذ يساوم في مسألة الصواريخ المعترضة التي تستجيب للمعطيات التقنية الحديثة. وعندما نجح السوفيات، بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ في صنع اربعة اصناف جديدة من الصواريخ الاكثر تطوراً منها، اغتاظ كيسينجر للتخلف الاميركي. لكن الانفراج الذي ساد السنوات الممتدة بين الاعوام ١٩٧٢ و ١٩٧٥ والتضخم السريع في المبادلات التجارية (ازدادت قيمتها ٨ اضعاف بين الاعوام ١٩٧١ و ١٩٧٦) لم يؤديا الى اغفال معاهدة سالت التي عقدت عام ١٩٧٢ لمدة خمس سنوات، وان فرنسا والصين لم توقعا تلك المعاهدة حول عدم انتشار الاسلحة الذرية. اذا كانت معاهدة سالت قد استقبلت بحفاوة بالغة، فانها لم تكن في الحقيقة سوى خطوة اولى، لانها كانت تعدّد الصواريخ وليس العبوات المتفجرة، وكان يمكن مضاعفة تلك الحشوات الذرية في الصاروخ الواحد.

دفعت زيارة نيكسون الى موسكو باتجاه عقد سلسلة من اتفاقات

التعاون بين البلدين في الميادين المتنوعة. وانتقل بريجنيف الى الولايات المتحدة في حزيران ١٩٧٣، وكذلك فعل فورد الى فلاديفوستوك في تشرين الثاني ١٩٧٤. هل سيجري توقيع معاهدة خمسية جديدة (سالت ٢) ؟ كان كلا الجانبين يرغبان في اخذ كافة انواع الاسلحة الجديدة بعين الاعتبار، لكن السوفيات رفضوا ادخال قاذفاتهم الجديدة من طراز « باكفاير » في المعاهدة، وكذلك فعل الاميركيون بشأن صواريخهم المعترضة. فراوحت معاهدة سالت مكانها. بالمقابل وقع الاوروبيون، عام ١٩٧٥، مع الولايات المتحدة وكندا اتفاقات هلسنكي التي كانت تعترف بالوضع القائم في اوروبا الشرقية وتلزم كافة الدول باحترام حقوق الانسان. ما كانت قيمة هذا الاعلان للنوايا في الوقت الذي كان المنشقون السوفيات يتعرضون للاضطهاد ويتهيأ السوفيات لنصب صواريخ جديدة متوسطة المدى ــ س س ٢٠ ــ الموجهة نحو اوروبا الغربية ؟ شكك الكثيرون في جدوى الانفراج القائم، فيما كانت موسكو تواجه مع شيليبين الرئيس السابق لجهاز ك. ج. ب. معارضة شديدة له. فهل ادّى انفتاح كيسينجر على الاتحاد السوفياتي الى وقف التعبئة الاميركية ضده ؟

بعد نجاح برنامج ابولو، راوحت رحلات الفضاء الاميركية مكانها، من جراء المصاعب التي واجهها برنامج « سكايلاب » الفضائي، اذ لاقى كونراد وواينز وكيروين الكثير من المشقة في رحلتهم في حزيران ١٩٧٣. وفي ايلول، تعرض سكايلاب ٣ للعديد من الحوادث واضطر رواد الفضاء في رحلة سكايلاب ٤ الى قطع اقامتهم في الفضاء من جراء النقص في الغذاء لديهم. وتخلفت مشاريع المكوك الفضائي عن اللحاق برحلات سيوز وساليوز التي تضاعفت باطراد. حتى ولو كان الفشل والحوادث على قدر مواز لدى السوفيات عما هو عليه الوضع لدى الاميركيين، فقد كان واضحاً ان التفوق الاميركي، حتى في مجال الفضاء بات على المحك. وقد نجح السوفيات في السبعينات، في وضع برنامج للمحطات المدارية، فتورطوا فيما سيطلق عليه فيما بعد « حرب النجوم ».

تكبد الجباران الكثير من التضحيات والحرمان في سباقهما نحو غزو الفضاء والسلاح النووي وبقيا وحدهما يخوضان غماره. على الرغم من ان اليابان واوروبا، قد عززتا من قدراتهما الصناعية، ومن ان الصين استمرت في اثارة الذعر في قلب الاتحاد السوفياتي، فقد بدا ان الثنائي العسكري ــ الصناعي ما يزال يسيطر على العالم. لقد ادت الجهود التي بذلها كيسينجر في سبيل توازن القوى، مع ما رافقها من عدائية لدى الكونغرس والرأي العام ازاء كل تدخل سياسي خارجي، الى ترك الساحة حرة امام السوفيات في المحيطات والمواجهة الاكثر احتمالاً في منطقة حساسة كالشرق الأوسط. وقد عززت دبلوماسية السلام، في الاجمال، من شأن الاستعمار بدلاً من الحد منه.

العثرات الاسلامية

تزامنت الصدمة النفطية الثانية، عام ١٩٧٩، مع قيام ثورة في عمق العالم الاسلامي الذي تشهد شعوبه معدل ولادات مرتفعة وتشكل، من المحيط الاطلسي حتى الصين، قوة لا يستهان بها تتجه من الغرب نحو الشرق، مع بعض النقاط البارزة في شمالي ــ جنوبي افريقيا، وجنوبي ــ شمالي اوروبا الاسيوية. كما أدت الهجرات الاقتصادية الى تسريع عملية انتشار كتلة بشرية ضخمة قوامها ٥٨٨ مليون نسمة في كل القارات الخمس. حتى اميركا نفسها، من الشمال الى الجنوب، تعدّ حالياً اكثر من ٥,٥ مليون مسلم، وفي اوروبا، لا أقل من عشرة ملايين، حيث تقيم نسبة الربع منهم في فرنسا، من دون احتساب الاتراك البالغ عددهم ٤٤ مليون نسمة.

تحوّل الانقسام التقليدي في الاسلام بين السنّة والشيعة الى عامل تفجيري بين القوى السياسية المتنازعة في الشرقين الادنى والاوسط، وفي المحيط الهندي. واذا كان عدد الشيعة يفوق ٧٨ مليوناً، فان ذلك لا يخفف من خطرهم، لانهم يقيمون في المناطق الساخنة حيث الثروة النفطية تلهب الخصومات. سواء في ايران والعراق، أو في باكستان وافغانستان، او لبنان، والهند أيضاً. وحين راح هؤلاء المتشددون يعطون للايمان ديناميكية جامحة قلبوا اوضاع اللعبة رأساً على عقب، واستبدلوا

القومية التقليدية باسلام الثأر والانتقام الذي حوّل الغرب الى شيطان (وليس اسرائيل وحدها) واعتبره غلاة الجهاد المقدس العدو الاول.

عام ١٩٧٩، قامت عثرة اسلامية مزدوجة، حين غادر الشاه ايران، في كانون الثاني، واجتاحت القوات السوفياتية افغانستان في كانون الأول منه. وطرح نظام حكم آيات الله في ايران على بساط البحث التوازن الذي اقامه كيسينجر في الشرق الأوسط. وسدد النزاع الافغاني ضربة شديدة للتوسع السوفياتي في المنطقة. وواجه الاستعماران الاميركي والسوفياتي، في السنة نفسها، ثورة دينية خاضتها جماهير غفيرة من الشعوب الفقيرة والمتزمتة والتي تمتلك رغبة جامحة في تغيير الاسلام نفسه لتضعه وجهاً لوجه مع الشياطين التي تضطهده.

مسلمو الاتحاد السوفياتي وثورة ايران

لم يتوقع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الزلزال الذي اهتزّت له ايران. فالاشارة التي صدرت عن طهران كانت مختلفة في طبيعتها عن كلمات السر السابقة التي كانت تقتبس عن الغرب لغته وايديولوجيته. كانت الاحزاب الشقيقة في الشرق بعدد وافر، وتتحدث في اليمن كما في مصر، وفي سوريا كما في باكستان باللغة الماركسية ــ اللينينية التي لم تكن تترك للايمان فسحة واسعة في خطابها السياسي. كان المسلمون في الاتحاد السوفياتي يلقون تسامحاً دينياً بعد ان تعرضوا للاضطهاد لفترة طويلة. وكان يستحيل عليهم الانصراف الى التبشير الديني، واذا كانت الجوامع قد اعيد فتحها، فانها تعرضت للرقابة الشديدة : كان بريجنيف ينظر بحذر الى الجماهير المسلمة.

في عهد ستالين، وقف رجال المقاومة « باسماتشي » (عراة الاقدام) في وجه الجيش الأحمر، طيلة عشر سنوات، في اسيا الوسطى. وفرّ العديد من المسلمين الى الصين وافغانيستان وايران، هرباً من الطاغية الذي حوّل

الجوامع الى اندية للرقص او مراكز اجتماعية، وتعرض معظم المثقفين المسلمين في جمهورية كازاك للابعاد او الاعدام، قبل عام ١٩٣٩. وكانت الجمعيات الدينية الصوفية تعيش في الخفاء حتى عام ١٩٤١ حين اخذت سياسة موسكو تأخذ بالاعتبار القوى الدينية في الحرب التي كانت تشنها ضد الفاشية. عند ذاك استطاع المسلمون الاحتفال بعيد المولد النبوي او عودة الربيع (النيروز). عام ١٩٤٤، عاد ستالين مجدداً الى شن حملة الاضطهاد ضد الشعوب المتهمة بالتعاون مع المانيا، فيما أعاد خروتشوف فتح الجوامع، ووافق على منح بعض المنافع الى الاوزباكيين، وهم اكبر مجموعة مسلمة في الاتحاد السوفياتي (١٥ مليون نسمة)، مع الكازاك (٧ مليون) والازيري في القوقاز (٦ مليون) والطاجيك (٣ مليون) والتركمان، والكيرجيس والبشكير، اي ما يبلغ مجموعهم بالاجمال، ٥٠ مليون مسلم، وقد اعتبرت ديانتهم بمثابة « مسألة خاصة ». كيف لا يصار الى اخذ تلك الشعوب بعين الاعتبار وهي التي تقيم في مناطق القطن والنفط ؟ لقد سبق لبريجينيف ان بدأ تشكيل شبكة من الانصار في كازاخستان وعمد الى رفع شأن جماعات الكازاك والاوزباكيين على الصعيد السياسي. وقد اثرت مجموعات واسعة من الاوزباكيين من تهريب البضائع والسوق السوداء وكانت السلطة تغض الطرف عن هذه الممارسات. هل كان ينوي بريجينيف تحقيق اندماج المسلمين في المجتمع السوفياتي من خلال اشراكهم في النظام الصناعي (كان يشجع انشاء المصانع في مناطق اقامة الاوزباكيين والكازاك)، من خلال غض الطرف عن نشاطاتهم التجارية المحظّرة ؟ كان على الاصولية القادمة من ايران ان تهدم هذا الامل في فترة قصيرة من الزمن.

بالمقابل، كان كيسينجر يعتبر شاه ايران بمثابة الحليف المميز للولايات المتحدة، ويغتبط لتطور هذا البلد ـــ وهو الاكبر من حيث عدد السكان في الشرق الأوسط بعد مصر التي يبلغ عدد سكانها ٤١ مليوناً. كان رجال الدين الايرانيون يقفون عاجزين ازاء تصنيع بلادهم التي غدت

قوة عسكرية يتكل عليها البنتاغون لفرض الامن والنظام في المنطقة، اذ كانت ايران تشكل حاجزاً منيعاً في وجه النزعة التوسعية السوفياتية باتجاه الجنوب، ونقطة مراقبة للجار العراقي الذي كان يتلقى السلاح من موسكو.

منذ رحيل البريطانيين عن المنطقة، عام ١٩٧١، لم يستطع الاميركيون ملء الفراغ من خلال اقامة نقاط ارتكاز عسكرية، لان مبدأ نيكسون كان يتعارض مع هذا الانتشار. وكانوا بالتالي يتكلمون عن حليفهم الايراني بصورة مطلقة. وسبق لكيسينجر ان اقنع البنتاغون بوجوب اجازة بيع الشاه طائرات مقاتلة من طراز ف ١٤ و ف ١٥. وكان العاهل الايراني قد استخدم ثروته النفطية لتزويد اسرائيل بالنفط خلال الازمة، ومواصلة تصنيع بلاده وبناء جيش قوي وحديث يقوم بمراقبة الحدود السوفياتية ومضيق هرمز حيث تمر نسبة ٤٠٪ من المستوردات النفطية للبلدان الصناعية. وكانت القوات البحرية والجوية تقوم باستمرار بمهمة الرقابة من أجل تأمين حرية التجارة.

كان الشاه محمد رضا بهلوي يؤيد مشروع والده، مؤسس السلالة البهلوية، فيما خص بناء مجتمع علماني حديث في ايران وتطوير البلاد على الصعيدين العسكري والصناعي. وتحقيقاً لهذا الهدف، قرر عام ١٩٧٢ تسريع النهوض الاقتصادي في البلاد ووضع حقول النفط تحت رقابته الكاملة. وفرض على الشركات استثمار بعض ارباحها في البلاد. وكان الانتاج قد تضاعف خمس مرات خلال ثماني سنوات، وقفزت الايرادات، بفضل ارتفاع الاسعار، من ٢,٤ الى ٢٢ مليار دولار بين الاعوام ١٩٧٢ و ١٩٧٦. وكان الشاه يأمل في تحويل ايران الى « يابان جديدة » واجتذاب الرساميل الاجنبية لتنمية الصناعة وعمران المدن. وشهدت طهران نزوحاً ريفياً كثيفاً اليها من جراء الاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٨ والذي لم يعد يكفي لسد حاجات ابناء الريف حيث ترتفع نسبة

الولادات بشكل ملحوظ. وادّى انتشار التعليم الى نشوء طبقة من النقاد المثقفين الذين تحولوا بعد حين الى فئات معارضة تشكو من التخلي عن القيم الوطنية والدينية. وشجع ازدهار التجارة والاعمال على نشوء بورجوازية ثرية ومتوسطة ذات مستوى معيشي مرتفع بالمقارنة مع مستوى الفلاحين والعمال. ولم يكن باستطاعة الحزب الشيوعي المنحل ان يوجّه السخط الجماهيري في قنوات مطلبية شعبية كما كانت الحركة النقابية تخضع لرقابة الشرطة السياسية ــ السافاك، التي اشتهرت ممارساتها و « طاولاتها الساخنة » في العالم كله. ولم يستطع الجيش الايراني الاكثر عدداً وتجهيزاً في المنطقة من تأمين الحماية للشاه الذي اخذ يواجه، اعتباراً من ١٩٧٨، اعمال شغب وفتنة واسعة في تبريز.

تحولت الجوامع الى مراكز محصّنة للمقاومة لكونها الوحيدة التي لا تخضع لممارسات السافاك. وكان الطلاب ورجال الدين الذين وجدوا في التغريب تحقيراً للقيم الوطنية والدينية، والمؤمنون المتحدرون من الريف الذين كانوا يؤلفون في المدن فئة بروليتارية متأهبة للثورة، ومناضلو الاحزاب المحظرة، يخرجون بعد الصلاة، الى الشوارع، جنباً الى جنب، للتظاهر والمطالبة بعودة الزعيم ألديني المنفي الى فرنسا، آية الله الخميني، الى البلاد. بعد اقامة طويلة في العراق، نفي هذا الزعيم الكبير الى نوفل لوشاتو بالقرب من باريس. وفي مركز اقامته الجديد، كانت المعارضة تعدّ العدة للثورة بالتعاون مع احد قادة السافاك. وفي محاولة لتجريد المعارضة من سلاحها، وتحاشياً لاندلاع حرب اهلية في البلاد، عهد الشاه برئاسة الحكومة إلى شهبور بختيار الذي سبق أن ألقي في السجن. فاستؤنفت اعمال الشغب على اشدها وقرر العاهل الايراني مغادرة البلاد في ١٦ كانون الثاني ١٩٧٦. وللحال عاد آية الله الى طهران وسط تظاهرات شعبية عارمة. لم يكن يمارس اية سلطة دستورية (لم يكن رئيساً للجمهورية أو للحكومة، ولم تكن للمجلس النيابي المنتخب بالاقتراع المباشر اية سلطة عليه). لكنه احاط نفسه « بالمولاه » (رجال

الدين الشيعة)، واشرف على حملة تطهير وحشية وقع ضحيتها ما بين ٤٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ محكوم بالاعدام من بينهم رئيس الحكومة السابق هويدا. ما ان وصل الى الحكم، حتى دعا الخميني لثورة اخلاقية ودينية عنيفة. ففرض التشادور على النساء اللواتي اضطررن للعودة الى وضعهن الاجتماعي التقليدي (في حين سبق للشاه ان قرر المساواة بين الجنسين)، ومارس على الاحزاب ارهاباً سياسياً فعلياً، بما فيها الحزب الشيوعي، وحشد الشبان في فرق مسلّحة للدفاع عن الثورة الاسلامية واوعز بالتظاهرات المعادية للغرب في طهران؛ وهوجمت السفارة الاميركية في ٤ تشرين الثاني ١٩٧٩، ووقع موظفوها رهائن. انها الحرب المعلنة ضد الغرب.

الحرب الصينية ــ الفيتنامية والعثرة الافغانية

كان بريجينيف واثقاً من نفسه، حين اندلعت ثورة وطنية في كابول وخلع الملك واستولى رئيس الجمهورية محمد داود على الحكم بفضل الضباط الموالين للسوفيات. اما طهران فكانت تخشى قيام افغانيستان بضم بعض المناطق الواقعة على حدودها مع باكستان حيث يسهل تحريك جماعات الباشتون والبالوتش. هل كان الاتحاد السوفياتي يسعى، بهبوطه نحو الجنوب، لتطويق باكستان الموالية للصين والوصول الى المحيط الهندي ؟

شكّل النزاع الصيني ــ الفيتنامي إخطاراً جدياً للاتحاد السوفياتي، اذ لم يكن الصينيون يحتملون النزعة التوسعية السوفياتية. وكانت حكومة هانوي الدائرة في فلك الكرملين، قد عملت على استقطاب دولتي لاوس وكمبوديا الى مدارها فارضة عليهما معاهدات صداقة، بعد القضاء على « الخمير الحمر ». ولم تكن هذه العملية ممكنة لولا توقيع اتفاق بين هانوي وموسكو في ٣ تشرين الثاني ١٩٧٨ يماثل الاتفاق المعقود بين

الاتحاد السوفياتي والهند عام ١٩٧١. رداً على ذلك، اجتاحت القوات الصينية فيتنام، في ١٧ شباط ١٩٧٩.

هدفت هذه العملية العسكرية الى توجيه تحذير الى موسكو من خلال ارهاب حليفتها. هل كان الجيش الصيني قادراً على ذلك ؟ في ٦ تشرين الأول ١٩٧٦، بعد وفاة ماوتسي تونغ بفترة وجيزة، أعد الجنرالات « انقلاباً » ضد « اليسار الموحّد ». وتألفت « كتلة عسكرية — بيروقراطية » تضم الموظفين واعضاء الحزب الناقمين على الثورة الثقافية وعلى قيادات الاركان في بكين والمناطق، ونجحت في الاستيلاء على السلطة بفضل مساندة رئس الشرطة السرية هيوا غوفينغ. واقدم الماريشال لي جيانينغ والجنرال وانغ دونكسينغ على اعتقال زعماء اليسار، وفي طليعتهم زوجة ماو — جيانغ كينغ. لم تتحرك الميليشيات العمالية فيما تولت وحدات الجيش في نانكين اخماد ثورة المعارضة في شانغاي. وعيّن هيوا غوفينغ رئيساً للجنة المركزية للحزب.

قام الجيش، خلال اشهر طوّيلة من فصل الشتاء، باعادة النظام في المناطق الصناعية والارياف، مستخدماً القمع الدموي الشديد. وبعد اعادة الاعتبار الى دينغ كسياوبينغ، عيّن في المركز الثالث في اللجنة المركزية بعد الجنرال والماريشال. واعلن عن اختتام الثورة الثقافية بصورة رسمية، وجرت تصفية زعمائها ومحاكمتهم واعدامهم. واتجهت الصين نحو استقدام التقنيات الحديثة من الغرب، ونحو « اعادة نظر جذرية » في الزراعة والصناعة. ولم يلبث دينغ ان تنكّر لماو واساليبه واضعاً بذلك هيوا غوفينغ الذي كان ما يزال « ماوياً »، في موقف حرج.

بادر دينغ الى التحالف مع المثقفين الليبراليين والشباب الذين سارعوا الى تغطية جدران ساحة تيانامان بالكتابات التي تطالب بالحريات وفي طليعتها الديمقراطية. واطلق جينسينغ على الديمقراطية تسمية « التحديث الخامس » ونادى مع رفاقه الطلبة بادخالها في صلب برنامج الحزب.

وتحولت بكين الى مسرح لتظاهرات متوالية تطالب بحقوق الانسان والحريات عند ذلك قرر العسكريون اجتياح فيتنام. لقد بدأت الحرب في اسوأ الظروف.

كان الجيش الصيني الذي ابلى البلاء الحسن في كوريا، يشعر انه قادر على انجاح هذا « الهجوم المضاد الدفاعي » الذي جرى الاعداد له بدقة. كان يانغ ديزي، القائد السابق لفرقة « المتطوعين » يتولى القيادة، بعد كسو شيو. وحشدت بكين في هذه الحملة اكثر من ٣٠٠٠٠٠ رجل و ١٠٠٠ دبابة وعدداً مماثلاً من الطائرات والمدافع. اما هانوي، فلم تكن تستطيع تعبئة اكثر من ١٥٠٠٠٠ رجل، بسبب انشغال جزء من جيوشها في لاوس وكمبوديا. غير أن التقدم الصيني كان بطيئاً والطرقات ضيقة ولانكسون مليئة بالانفاق. وكان الصينيون يستخدمون الماشية المحلية لتفجير الالغام، الامر الذي اثار سخط القرويين. ونجحوا في القضاء على كتيبة « الفهود الطائرة »، مما استتبع هزيمة فيتنام. وعمد جنود يانغ ديزي الى تدمير التحصينات الحدودية الفيتنامية قبل انسحابهم بانتظام. كان الجيش الصيني يودّ ان يثبت فقط انه يمتلك القدرة التامة على الاستيلاء على دلتا تونكين. في بكين، ابرز دينغ كسياوبينغ الخسائر التي اصيب بها الجيش من اجل معاقبة العسكريين وطرد هيوا غوفينغ من السلطة. وانتصرت الصين الجديدة إلا أن رسول « حائط الديمقراطية »، واي جينسينغ كان في السجن.

ادت الضربة العنيفة التي سددتها بكين لفيتنام، في الوقت الذي كان دينغ يقوم فيه برحلة مظفرة الى الولايات المتحدة واليابان، الى وقوف بريجنيف حذراً ازاء كل تحرك صيني في المحيط الهندي. وسبق له ان شجع تواجد الكوبيين في اليمن الجنوبية لحماية مرفأ عدن وزوّد الجيش اليمني بالسلاح. كما سعى الى تركيز بعض النقاط العسكرية في الحبشة، على ابواب مصر (التي اخذت توجّه انظارها نحو واشنطن) بغية تأمين

قاعدة صلبة في البحر الأحمر. بعد اقالة نيغوس، عام ١٩٧٤، اقام الضابط هايلا ماريام مينجيستو نظاماً ديكتاتورياً شيوعياً في اديس ابابا. فوقف الصوماليون المسلمون واوغادين واريتريا ضد هذا النظام. اما السوفيات الذين طردوا من قاعدة بربارا في الصومال، فقد ساندوا مينجيستو ضد الثوار. وهكذا وقع هذا البلد الذي يعد ٣٠ مليون نسمة في احضان بريجينف الذي لم يكن بوسعه التراجع في افغانيستان كيلا يخسر ماء الوجه في منطقة المحيط الهندي.

في كابول، تناوبت موسكو وبكين على استقطاب المجموعات الشيوعية والتلاعب بها. واستولى احد زعمائها، تاراك، على الحكم في نيسان ١٩٧٨، لكنه اغتيل بعد حين واستبدل بامين. غير أن هذا الأخير لم يحظَ برضى بريجينيف الذي تدخل بقواته، في ٢٧ كانون ١٩٧٩ لاقالته واستبداله بمرشح « التضامن البروليتاري » بابراك كارمال، وهو رجل فاقد الشخصية ولاجئ في براغ. فاشتدت المقاومة ضده في المناطق الجبلية بدعم سري من باكستان التي لم تكن ترغب في قيام نزاع معلن مع الاتحاد السوفياتي. اما الولايات المتحدة فكانت منشغلة في قضية ايران ولم تتدخل. وقد جهز الرئيس كارتر الذي خلف فورد عام ١٩٧٦، حملة عسكرية لتحرير رهائن السفارة، لكنها حصدت الفوضى والفشل.

جاءت الاعتراضات الدولية، في اعقاب غزو افغانيستان، فاترة ونادرة. غير أن المقاومة الشرسة وغير المتوقعة التي شنها الثوار منعت بريجينيف من انجاح عمليته الصاعقة. واضطر بعدئذ لارسال التعزيزات وانشاء تحصينات في السهل. جعلت الحرب من الاتحاد السوفياتي بلداً هشاً وابرزت مواطن ضعفه. واضطر السوفيات بفعل العمليات العسكرية التي امتدت لفترة طويلة، الى تمديد حقبة الاحتلال الذي انتهى الى اثارة معارضة المحافل الدولية. لقد سدد الشيعة الجبليون، بأسلحتهم المرتجلة، ضربة عنيفة غير متوقعة اوقفت توسّع ثاني قوة عظمى في الكون. والحرج

الذي اصاب الجيش الاحمر يلتقي مع المهانة التي لحقت برجال البحرية الاميركيين في صحراء ايران.

عام ١٩٧٩ : الصدمة النفطية الثانية

افاد الجباران من الصدمة النفطية الثانية ولم يعملا على منع ارتفاع الاسعار. لقد اغتبطت الولايات المتحدة لرؤية اوروبا واليابان، منافسيها الصناعيين اللدودين يتخبطان في ازمة جديدة للطاقة، لن يلبثا ان يحصدا منها عواقب وخيمة على صعيد التبادل الاقتصادي. وقد ادى الانخفاض الشديد في انتاج النفط الايراني، في اعقاب الثورة الاسلامية، الى نقص ملحوظ في الطاقة، عام ١٩٧٩ الأمر الذي استتبع ارتفاعاً فورياً في الاسعار، فارتفع سعر البرميل من ١٣ الى ٣٥ دولاراً، حتى أنه بلغ ٤٢ دولاراً في الجزائر. بالمقارنة مع عام ١٩٧٣، كان على البلدان الغربية واليابان ان تدفع ثمن الطاقة سعراً مضاعفاً قدره احدى عشرة مرة !

والمفارقة ان الازمة ادت الى قلب الاوضاع السياسية في اوروبا والى وصول اغلبية جديدة الى الحكم بغية اتخاذ تدابير فورية تتغلب على الأزمة الاقتصادية. ففي فرنسا، فاز فاليري جيسكار ديستان على الديغولي جاك شابان دالماس ثم على الاشتراكي فرانسوا ميتران. وبعد انقضاء سنتين على حكومة جاك شيراك الديغولي، كلف الرئيس الجديد، الاقتصادي ريمون بار تطبيق الاجراءات الطارئة. غير أن وجود معارضة نقابية وسياسية قوية، كان يحول دون اتخاذ حلول على الطريقة اليابانية. فاستوطنت الازمة في القطاعات الاكثر تضرراً لكونها اقل مردوداً، كالمناجم وصناعة الفولاذ وبناء السفن والكيمياء. بالمقابل، تابع قطاع الزراعة الغذائية تقدمه السريع واستقطب استثمارات مهمة وكذلك القطاع النووي والفضائي الذي كان يفيد من مساعدة الدولة والمؤسسات العامة. أما صناعة الطائرات والسيارات والاسلحة فقد صمدت بقدر ما استطاعت ساعية الى تكثيف الجهود في سبيل مزيد من المبيعات الى

الخارج. واتاح ارتفاع الحسومات على الاجور تمويل مساعدة العاطلين عن العمل الذين ازدادت معدلاتهم بنسبة مقلقة. ولاقت هذه التضحيات نجاحاً باهراً على صعيد بعث النشاط الاقتصادي. فالموازنة والميزان التجاري وقعا في عجز طفيف، اما التضخم فقد بقي ضمن حدود مقبولة. بعد فوز اليمين في الانتخابات العامة لعام ١٩٧٨، حرّر ريمون بار بعض الاسعار. وزالت بعض المؤسسات ذات التجهيزات القديمة من الوجود (بوساك، مانوفرانس). لكن، على انقاض صناعة النسيج والفحم الحجري، برزت في بعض المناطق مؤسسات للانشاءات الميكانيكية، او الكهربائية او الالكترونية. وبفضل التبادل مع الشرق ودول العالم الثالث بات الميزان التجاري عام ١٩٧٥ فائضاً. مع ذلك، ادت المساعدات الممنوحة لصناعات الفولاذ والكيمياء الثقيلة، والاعانات الاجتماعية والزراعية الى تثقيل كاهل الموازنة بالديون، فيما تولت الفاتورة النفطية القضاء على ما تبقى : على الرغم من الجهود التي بذلت لزيادة الانتاجية، وانماء الصادرات فان فرنسا شهدت عام ١٩٨٠، مزيداً من العجز والخسارة.

هل يستطيع فوز اليسار الاشتراكي (المتحالف مع الشيوعيين) في ايار ١٩٨١ ان يغير اتجاه المسيرة ؟ في الواقع، كان اليسار ينوي اطلاق الاستثمارات العامة وتنمية الطلب الداخلي بفضل زيادة الاجور والمساعدات الاجتماعية. فجرى توظيف ٥٥٠٠٠ مستخدم جديد، وتحسين مستوى المساعدات الممنوحة للعاطلين عن العمل والعائلات والمتقاعدين. واتاح تخفيض ساعات العمل وسن التقاعد تجنب زيادة البطالة بسرعة مماثلة لما هو عليه الوضع في بريطانيا والولايات المتحدة. وتحقيقاً للتجديد، كان الرهان منصباً على المؤسسات العامة، فجرى تأميم كافة المصارف تقريباً، الامر الذي اعطى الدولة سلطة رقابة على شؤون التسليف. واصبحت خمس شركات اساسية تابعة للقطاع العام في قطاعات الكيمياء والالكترونيات، والمعدات الكهربائية؛ كما غدت الدولة

تملك غالبية الاسهم في مجموعات داسو وماترا التي تصنع الطائرات والسلاح. هل كان لهذه السياسة ان تنجح على الرغم من مقتضيات السوق القاسية، خصوصاً بعد الصدمة النفطية الثانية ؟ اعتباراً من عام ١٩٨٢، تدنت معدلات النمو والاستثمار، وبلغ عجز التجارة الخارجية حجم الكارثة اذ ارتفع الرقم الى ٥٩ ملياراً، ذلك ان الحدود المفتوحة افسحت في المجال للمنافسين الاجانب غزو السوق الفرنسي، مستفيدين من موجة الاستهلاك القائمة. اقدمت حكومة موروا على تخفيض الفرنك ثلاث مرات بين تشرين الأول ١٩٨١ وآذار ١٩٨٣. اذ كان ينبغي تجميد الاسعار والاجور منعاً لوقوع الكارثة.

في المانيا وبريطانيا، وقع التغيير السياسي ايضاً. اذ بعد ويلسون وكالاهان (من حزب العمال)، جاءت عام ١٩٧٩ مارغريت تاتشر (من حزب المحافظين)، وكانت شديدة الحرص على اعطاء الليبرالية حظها في المنافسة. لقد عهدت بريطانيا لفريق يميني امر الخروج من الأزمة، في حين كانت فرنسا تضع ثقتها في اليسار. كان برنامج المحافظين يقضي بالتركيز على وقف التأميم الذي واجهت الحكومة صعوبة في تطبيقه. وقد نجحت رئيسة الوزراء في المعركة التي خاضتها ضد النقابات، حيث قضت على قدرتها على الوقوف في وجه تنفيذ برنامجها. وكان لموقفها الوطني في المفاوضات الاوروبية الزراعية وضد الارجنتين في حرب جزر الفوكلاند (مالوين)، في نيسان ١٩٨٢، وقعاً جيداً لدى الناخبين اليمينيين الذين اغتبطوا لانخفاض معدل الضرائب والحملة الناجحة ضد التضخم. لقد نجحت « المرأة الحديدية» في تثبيت سعر العملة وكذلك الموازنة العامة، بفضل السياسة الاجتماعية القاسية التي انتهجتها وارتفاع عدد العاطلين عن العمل (٣ ملايين)، في الوقت الذي كان فيه تقدم الصناعة يتيح اقامة التوازن المطلوب في الميزان التجاري. كما ساعدت الرساميل الموظفة في الخارج واستخراج النفط في بحر الشمال مع اعادة تنشيط مناجم الفحم على تجاوز الصدمة النفطية الثانية على نحو ملائم.

اما تراجع القطاعات غير المنتجة (كالفولاذ والنسيج)، فقد عوضه حسن ادارة الصناعات الكيميائية التي سارعت الى التمركز والتوحّد، فيما حققت صناعات المعدات والالكترونيات والآليات نتائج حيدة. غير أن البطالة في اوساط الشباب والعنف السائد في المدن والبؤس الذي يصيب حوالي مليون نسمة من « الملونين » القادمين من جامايكا او الباكستان، والارهاب الذي مارسه الكاثوليك، كل ذلك شكل ارباكاً لمارغريت تاتشر. وما تزال محطات التلفزيون الاوروبية تحفظ ذكرى مؤلمة للاضراب عن الطعام الذي اعلنه عشرة سجناء ايرلنديين في مايز وتوفوا على اثره، مع النائب المنتخب في مجلس العموم، من دون ان يرف جفن للمرأة الحديدية.

لم يوفر التغيير السياسي الذي اعقب الصدمة النفطية الثانية، المانيا التي، على غرار بريطانيا، صوتت في العام ١٩٨٢، الى اليمين. وحكم هلموت كول، مستنداً الى غالبية ليبرالية تمحورت حول الحزبين الديمقراطي المسيحي والاشتراكي المسيحي، ولم تختلف سياسته عما سعى اليه اسلافه الا لماماً. فقد جرى تعزيز تمركز المجموعات المالية بغية زيادة الانتاجية، وذلك خلال مرحلتي الازمة، فيما حاربت الدولة الموجة التضخمية بيد حازمة. فضلاً عن ذلك لا يميل الاشتراكيون الالمان الى سياسة التأميم، باعتبار أن التوظيف في الابحاث العلمية قائم على قدم وساق في القطاع الخاص. وقد أعدوا نظاماً تدريبياً لم يؤدِ إلى نتائج مرضية في مجال مكافحة البطالة (اكثر من ٨٪ من القوى العاملة)، بعد استدعاء العمال الأجانب في البلاد (٢,٣ مليون عامل مهاجر، بعضهم من الاتراك والاسبان والبرتغاليين). واذا كانت ادارة كول لم تنتهِ مع الفضائح السياسية (اضطر براندت للاستقالة، عام ١٩٧٤، اثر اكتشاف الجاسوس الالماني الشرقي غونتر غيوم في محيطه)، فانها لم تجدد النهج السياسي الذي اتبعه هلموت شميدت، وقد لاقت سياستها ترحيباً واسعاً لدى الرأي العام في حقل مكافحة الارهاب دون هوادة. فقد جرى القضاء

على عصابة بادر بعد سلسلة من العمليات الارهابية، من بينها اغتيال المدعي العام الذي كان يتولى مكافحة الارهاب في كارلسروة. (خاض الايطاليون المعركة ذاتها، بعد اغتيال زعيم الحزب الديمقراطي المسيحي الدومورو، عام ١٩٧٨، على يد الالوية الحمراء).

لم تؤدِ الصدمتان النفطيتان الى زعزعة النظام في الغرب، وانما الى بعض التصحيحات التي لم تمس جوهر السياسة المتبعة لمواجهة الازمة باستثناء الفاصل القصير من الاشتراكية في فرنسا والتي لم تستمر بعد عام ١٩٨٣. اتبعت اوروبا طوعاً وكراهية، تعاليم مدرسة شيكاغو وحاربت التضخم وارتضت البطالة وارتفاع المعيشة وسعت الى احتواء المطالب الاجتماعية لجهة رفع الاجور، وكافحت المغامرات الارهابية بشدة. وكانت الأزمة النفطية قد اضطرت المؤسسات الى مزيد من التجمع وارتفاع في معدلات الانتاجية، الامر الذي اتاح للبريطانيين والالمان والفرنسيين والايطاليين غزو اسواق خارجية جديدة. كما أعطى انفتاح بلدان اوروبا الشرقية، خلال الأزمتين، لتلك البلدان دفعة من الاوكسيجين. غير أن اوروبا كانت منشغلة في همومها الاقتصادية بحيث انصرفت عن الدبلوماسية الا فيما خص حاجتها من الطاقة النفطية، متساوية في ذلك مع الدول العربية التي سعت تدريجياً الى تسييس استراتيجيتها في حقلي الانتاج والتبادل.

نتائج الصدمة النفطية في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي

ادّى قرار المملكة العربية السعودية بالحد من انتاجها، في مطلع العام ١٩٧٩، مع الهبوط المفاجئ للانتاج الايراني، الى الازمة النفطية الثانية. هل استطاع الاميركيون والسوفيات الافادة من الارباك الذي وقع فيه منافسوهم الاوروبيون واليابانيون ؟ في الواقع، اضطر هؤلاء الى الحد من نشاطهم تحت وطأة الأزمة والى توفير كميات ضخمة من الطاقة. لا شك

أن الشركات الاميركية حققت ارباحاً كبيرة من ارتفاع الاسعار وتضاعفت مداخيل ٢٥ شركة كبرى من بينها، مرتين خلال ثلاث سنوات. غير أن الاوروبيين الذين كانوا يدفعون فاتورة اعلى من جراء ارتفاع الدولار، عقدوا مع الدول المنتجة اتفاقات من دولة لدولة، وقام بالتفاوض حولها المسؤولون السياسيون انفسهم في غالب الأحيان. وهبطت حصة الشركات الكبرى في الانتاج من ٧٠٪ عما كانت عليه عام ١٩٧٠، الى ٢٠٪ بعد عشر سنوات. فيما حلّت الشركات الوطنية للدول المنتجة محلها بنسبة ٩٦٪ لعام ١٩٨٤ !

سعت الشركات النفطية، اذاً، للبحث عن مصادر اخرى. فالصين وبريطانيا عرضتا نفطهما وكذلك عادت المكسيك الى السوق العالمية بفضل ارتفاع الاسعار، مما استوجب استثمارات ضخمة. خصوصاً في شركات اوف شور، بغية استخراج حقول آسيا واميركا الجنوبية وافريقيا. ولما كانت الشركات الكبرى قد وظفت اموالها في الابحاث بعد الصدمة النفطية الاولى، فقد وجدت نفسها تواجه هبوطاً سريعاً للاسعار، بعد عام ١٩٧٦، من جراء استئناف الانتاج وهبوط الاستهلاك في الدول الصناعية، الامر الذي كان يعرض ارباحها للخطر في سنوات « الصدمة ».

لم تكن الشركات الاميركية بمنأى عن ارتفاع الاسعار، واقدمت ادارة كارتر على توظيف ١٠٠٠٠ مستخدم جديد (من اصل ٢,٧ مليون موظف فيدرالي) بغية امتلاك الوسائل الناجعة لاقتراح الاجراءات الفعالة : كانت هذه المعركة، بالنسبة للرئيس الديمقراطي كارتر توازي « على الصعيد المعنوي، الحرب »، وتستجيب لاماني انصار البيئة في اوساط « اليسار الجديد » في الجامعات، الذي صوّت في العام ١٩٧٦، ضد المرشح الجمهوري جيرالد فورد. كان كارتر حاكماً لجيورجيا وممثلاً لمصالح الجنوب الزراعية، ولما تولى الرئاسة، كانت غالبية الكونغرس من الديمقراطيين. ولذلك بقي بمنأى عن ضغوط « التجمع العسكري — الصناعي » في كاليفورنيا، ودافع، في مسألة الطاقة، عن المستهلكين وعن

اصحاب المؤسسات الصناعية الصغيرة والمتوسطة الذين ارهقهم ارتفاع تعرفة الكهرباء. كانت الولايات المتحدة تشاطر اوروبا همومها في هذه المسألة، ففي حين كانت بريطانيا تعيد تنشيط مناجم الفحم لديها وفرنسا تواصل تجهيز البلاد بالطاقة النووية، كانت الولايات المتحدة تسعى لاستثمار ثرواتها على افضل وجه، واولها تحاشي تبذير الطاقة الصناعية والمنزلية. ذلك ان ارتفاع سعر الفيول كان يرهق كاهل العائلات التي اخذت تشتري سيارات يابانية والمانية ذات استهلاك متدنٍ من المحروقات. فالازمة افادت المنافسين، من هذه الزاوية. واعتبر كارتر أنه ينبغي تخفيض المستوردات النفطية التي تضاعفت اربع مرات في العام ١٩٧٧ (لا سيما من الشرق الاوسط). ولما كان النفط لا يشكل سوى ٤٧٪ من الطاقة المستهلكة في الولايات المتحدة (١٩٪ للفحم الحجري، و ٢٠٪ للغاز و ٤٪ للطاقة النووية)، فانه ينبغي تأكيد هذا الاتجاه واستهلاك كميات ادنى من النفط. فالاوروبيون يرتبطون بنسبة ٦٣٪ بهذا المصدر من الطاقة واليابانيون بنسبة ٧٦٪. وتقرر في الولايات المتحدة رفع انتاج الفحم من ٤٢٠ مليون طن الى ٦٠٠ مليون. أما لجهة زيادة الانتاج الوطني من النفط، فكان الحذر واجباً، اذ كان بالامكان استغلال حقول سانتا باربارا في كاليفورنيا، لو لم يصبح الرأي العام حساساً ازاء المواضيع المتصلة بالدفاع عن البيئة، خصوصاً بعد الحادث الذي وقع في خليج المكسيك وادى الى بقعة نفطية عائمة. مذ ذاك اصبحت الشركات تخضع للمراقبة ولمقتضيات محددة من المعايير الامنية في التنقيب والبحث عن النفط.

اما فيما خص انتاج الطاقة النووية، فقد اعيد النظر به في اعقاب كارثة مفاعل « ثري مايل ايسلاند ». واذا كان امكن تجنب ذوبان المفاعل، إلا أنه جرى تصور إمكانية اخلاء سريع لحوالي مليون نسمة وتساءلت لجنة الامن النووي بقلق عن كيفية ضمان محيط ٦٦ مفاعلاً عاملاً خصوصاً تلك الكائنة في منطقة نيويورك. واجتاح الرعب النووي كافة المدن،

معيداً الى الواجهة البحث عن الطاقة الشمسية. ومثل هذا القلق اثار نقاشات اعلامية غزيرة في المانيا وايطاليا (بعد كارثة سيفيسو الكيميائية) وفي فرنسا، وفي اليابان حيث التلوث الصناعي بلغ اوجه.

اما السوفيات، فلم تكن الهموم البيئوية قد ساورتهم بعد ولم يكن عليهم مواجهة رأي عام معادٍ لبرنامجهم النووي والنفطي. كما شكلت صادرات الغاز والمحروقات مصدر دخل مهم عزز من شأنه ارتفاع الاسعار العالمية. لم يكن الاتحاد السوفياتي مصدر الطاقة للدول الشرقية وحدها، بل للغرب ايضاً من جراء تدني حركة التجارة في الخليج الفارسي. في كل حال، لم يجنِ الاتحاد السوفياتي اكثر من ١٥٪ من الارباح من جراء ارتفاع الاسعار لأن سعر النفط السوفياتي لم يتضاعف سوى اربع مرات في العام ١٩٧٩. ولم يستفد الاتحاد السوفياتي من الازمة الجديدة لعام ١٩٧٩، بالقدر الذي كان يتوقعه، لأن انخفاض الأسعار العالمية الذي أعقب الصدمة النفطية أدى الى بطء التعامل الجاري الذي ازداد ايضاً بفعل الازمة الاقتصادية. مع ذلك، اتاح بناء انابيب الغاز بين اورينبورغ والاورال، بدءاً من عام ١٩٧٢، للدول الغربية للتزود بالغاز مقابل تصديرها المنتجات الصناعية. اما الولايات المتحدة فلم تكن تجني من العملية اي مكسب، اذ ان استيراد الآلات شهد ركوداً بصورة عامة، بعد ارتفاع الاسعار بين الاعوام ١٩٧٠ ــ ١٩٧٥، ولم تحقق الشركات الاميركية سوى حصة طفيفة من هذه الصفقة، بلغت، عام ١٩٨٠، ٢٨٧ مليون دولار، مقابل ١,٥ مليار لالمانيا الاتحادية، و ٨٤٤ مليون لليابان، و ٦٥٢ مليون لفرنسا، و ٥٠٠ لايطاليا. لم يتح تفاقم الازمة الداخلية للاتحاد السوفياتي الافادة الكاملة من الفرصتين المؤاتيتين اللتين توافرتا له عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٩، مع أنه يمتلك اكبر احتياطي عالمي من الطاقة. ذلك أن الاولوية المعطاة للصناعتين الفضائية والنووية وبطء البرامج العسكرية لم يساعدا على الاستثمار في الأبحاث النفطية بحسب

الامكانات المتاحة. وكان بعد المصادر السيبيرية يشكّل عبئاً اضافياً جرى تصور امكانية وضعه على كاهل المستثمرين الأجانب.

افادة اليابان من الارباكات الاميركية في المحيط الهادئ

ترافق تراجع الولايات المتحدة في الشرق الأقصى، بعد اخلاء سايغون عام ١٩٧٥، مع خسارة هيبتها في المحيط الهادئ. بعد نيكسون، سعى كارتر الى تسريع وتيرة الانسحاب، فانخفض عدد الجيوش العاملة من ٢٦٨٧٠٠٠ الى ٢٠٢٤٠٠٠ كما تدنى غدد الجنود في آسيا ايضاً. وكان كارتر يرغب في سحب آخر فرقة في كوريا واخلاء تايلاند بصورة كاملة. وجرى تخفيض وحدات الاسطول السابع الى النصف، من ٤٢٧ ال ٢٢٠ وحدة. واخذت الولايات المتحدة التي كانت قادرة، في عهد ماكنمارا، ان تشن « حربين ونصف الحرب » في العالم، في آن واحد، تهتم بصورة حصرية باوروبا، حيث كان بريجينيف ينادي بالانفراج فيما اخذ يحشد قواته المدرعة ويوجه صواريخه من طراز س.س. ٢٠ باتجاهها. في المحيط الهادئ، لم تهدد الأزمة المواقع اليابانية، اذ التفت البلاد حول القيم التي تؤمن بها ورفضت الاستسلام امام الازمة الجديدة التي كانت تهددها.

وجدت اليابان في التحدي المطروح امامها حافزاً مزدوجاً للانطلاق، لجهة توسيع مجالها الاقتصادي في المحيط الهادئ من جراء الفراغ الذي احدثه انسحاب الجبار الاميركي، ولجهة اعادة نشر صناعاتها الثقيلة وتركيزها في بلدان اخرى. والفائدة من ذلك اكيدة اذ يصار الى توظيف الرساميل في مؤسسات ذات مردود جيد، وتكون فيها مستويات الاجور ادنى من الاجور التي تدفع في اليابان. كما تساهم الاوقات المهدورة في نقل المواد الاولية في تخفيض اسعار المبيع. بذلك وجدت صناعات الكيمياء والفولاذ وبناء السفن ملجأً لها في كوريا وسينغافورة وماليزيا.

وفي اندونيسيا، فتح الرئيس سوهارتو الابواب واسعة امام الاستثمارات الاجنبية، فسارع اليها اليابانيون المتعطشون الى النفط. واعتباراً من عام ١٩٧٥، تجاوزت كلفة الشحن البحري التجاري في المحيط الهادئ كلفة الشحن في الاطلسي. فسلك ثلث الاستثمارات، بعد صدمة عام ١٩٧٩، طريق الدول الاسيوية، والثلث الثاني طريق الولايات المتحدة، والباقي اتجه نحو اميركا اللاتينية واوستراليا حيث شارك اليابانيون في كافة القطاعات المنجمية؛ وعام ١٩٨٣، استقبلت الولايات المتحدة واندونيسيا ٤٠٪ من التوظيفات اليابانية. جاءت النتيجة فورية : ما يوازي نصف المبادلات الاندونيسية تمّ مع اليابان.

وثمة جانب آخر لم يكن متوقعاً، اذ اعطى اليابانيون الاولوية، على الصعيد الصناعي، « لصناعات المعرفة »، فأقاموا المراكز التقنية وشجعوا الابحاث. وهكذا اكتشفوا مواد بناء جديدة كالسيراميك او الياف الكربون. وسيطروا ايضاً، اعتباراً من عام ١٩٧٨، على صناعة الذاكرات المتطورة (١٦ ك) التي غزت الاسواق في اميركا الشمالية بدءاً من عام ١٩٨٠. وقد باشروا باعداد البرنامج العائد لمنظومة ٦٤ ك والذي اثار حسد الباحثين الاميركيين في كاليفورنيا. كما امتلك اليابانيون، عام ١٩٨٠، المرآب الآلي (روبو) الاكثر تطوراً في العالم. كما هيمنوا على سوق « شبه الموصل » واشتروا صناعات الاتصالات التي تعاني المصاعب، مثل فايرتشايلد. فمن افاد اكثر من الصدمة النفطية ؟

تجاوز اليابانيون مسألة الحرب الصناعية التجارية ليتربعوا على القمة بفضل قوتهم المالية التي توافرت لهم من الفوائض المتنامية في ميزانهم التجاري. وقد ارتفعت ارصدة بنك اليابان المركزي من ١١ مليار دولار، عام ١٩٨٠، الى ٧٤ مليار، عام ١٩٨٤. واشترى اليابانيون بالآلاف سندات الخزينة الاميركية وامسكوا بثلث القروض الدولية. واحتلت طوكيو المكانة المالية الاولى في العالم، وهي تتداول بمبلغ ١٤٠ مليار دولار.

ساعدت مكانة المصالح اليابانية في المحيط الهادئ على تحقيق النهضة الاقتصادية للدول الصناعية التي دعيت : « التنانين الاربعة » وهي كوريا الجنوبية وهونغ كونغ، وتايوان وسينغافورة. وقد تفوقت « عصابة الاربعة »، في سباق التصنيع، على ماليزيا واندونيسيا وتايلاند. وقد حققت كوريا، في ظل ديكتاتورية الجنرال بارك، استقلالها الذاتي بفضل الاصلاح الزراعي وافادتها من القروض والاستثمارات الاميركية لاستكمال نهضتها في صناعة النسيج والاسمنت والاسمدة، قبل انشاء مصانع الفولاذ والسيارات وبناء السفن. واتجهت الاستثمارات اليابانية بعد ازمة عام ١٩٧٩، نحو الصناعات الثقيلة، والالكترونيات التي تتطلب يداً عاملة وفيرة ورخيصة الثمن. واذا كانت حصة التجارة والرساميل الاميركية بقيت ثابتة، فان المشاركة اليابانية في المؤسسات الكورية بلغت شأناً كبيراً. في تايوان، عاني الاميركيون من نتائج تقربهم من بكين، لكنهم بقوا يحتلون المكانة الأولى في مضمار الاستثمار المالي، وحلّت اليابان في المركز الثاني وانشأت صناعات ذات تقنيات عالية، كما نقل التايوانيون الى تايلاند المصانع التي تتطلب يداً عاملة وفيرة. اما الرساميل المستثمرة فتعود في معظمها الى الاثرياء الصينيين المقيمين في الخارج (الدياسبورا) او في هونغ كونغ. وكانت سينغافورة المدينة قد انفصلت عام ١٩٦٥ عن ماليزيا، لتستقبل اكثر من ٧٠٠٠ شركة اجنبية. احتلت اليابان المركز التجاري الأول وارتضى التجار والمصرفيون في سينغافورة مساهمة اليابان في الاقتصاد، على الرغم من ذكريات الاحتلال الياباني المؤلمة في الحرب العالمية الثانية. وثمة دول اخرى اقل اغراء من سينغافورة اثارت انتباه المستثمرين اليابانيين، على الرغم من احوالها الاقتصادية المتردية.

سعت الصناعات اليابانية بعد عام ١٩٧٩، الى الانتشار وعدم التمركز في بلد واحد، ووجدت في تايلاند (٥٣ مليون نسمة) البلد المفضل لديها حتى اصبحت المستثمر الأول فيها في حقل صناعتي الالكترونيات

والنسيج. كما استرعى القصدير والكاوتشوك في ماليزيا انتباه المسؤولين في طوكيو، ولكن بدرجة أقل من جراء وفرة اليد العاملة فيها والتي تتيح انشاء صناعة الكترونية قابلة للتصدير. وهكذا اصبحت اليابان الشريك التجاري الاول. واستأثرت بحصة الاسد في اندونيسيا حيث كان « نظام سوهارتو الجديد » يقدم للسكان البالغ عددهم ١٧٥ مليوناً (ومعظمهم من المسلمين) امكانات صناعية ساعدت الاعجوبة النفطية على تحقيقها في هذا البلد الذي يحتل المركز العالمي العاشر في حقل انتاج الهيدروكاربور. واتاح التطور الكبير للشركات التجارية اليابانية في جنوبي ــ شرقي آسيا، للبلاد ان تعيد رسم خطوط محور شمالي ــ جنوبي على حساب المصالح الاميركية. فالمشكلة الايرانية لم تفقد الولايات المتحدة البريق الذي كان لها في الشرق الأوسط فقط، بل زادت من حدة المنافسة اليابانية لها في المحيط الهادئ الذي هجره الاميركيون، بعد الازمة التي اثارتها الثورة الاسلامية في اسواق النفط والرساميل في العالم.

عودة الولايات المتحدة الى البحر الاحمر

كان الرئيس كارتر بروتستانتياً متديناً، ويحرص على اعادة السمعة الاخلاقية للبيت الابيض، وعلى مصداقية الولايات المتحدة في الدفاع عن حقوق الانسان، في الخارج، وقد ادرك خطر احتمال وقوع اعتداء جديد لا يمكن التنبؤ بتطوراته، في منطقة المحيط الهندي. وكان الفشل الذي اسفرت عنه مغامرة تحرير الرهائن في طهران قد دفعت « بمزارع الفستق في اتلانتا » (وهو لقب الرئيس كارتر) الى انشاء قوة تدخل تتيح للولايات المتحدة درء مخاطر الاعتداءات عليها من دون ان تصبح مثار سخرية. ان تقوم الجمهورية الاسلامية بتحدي الحق الدولي لدرجة الاحتفاظ بموظفي سفارة الدولة العظمى في العالم كرهائن لديها، من الامور التي ادت الى وضع استراتيجية جديدة : لا يمكن استخدام القوة

الرادعة الا ضد الدول التي تستخدم الاساليب نفسها. غير أن الاصوليين رفضوا الاصغاء الى هذا التهديد الشيطاني.

استتبعت المشكلة الايرانية اعادة نظر شاملة في الجغراسية الاميركية في هذه المنطقة البعيدة عن شواطئ المحيطين الهادئ والهندي وعن موانئهما العسكرية. أهملت الولايات المتحدة ملء الفراغ الذي احدثه انسحاب البحرية البريطانية من الخليج الفارسي في اعقاب القرار الذي اتخذته حكومة لندن عام ١٩٧٠. ذلك ان الكونغرس قد حظر عليها وضع قوات بحرية باعداد كبيرة في القاعدة الوحيدة العاملة في المنطقة وهي قاعدة دياغوغارسيا الواقعة في قلب المحيط الهندي بين خط الاستواء ومدار الجدي. وكان لا بدّ بالتالي من انشاء قوة بخرية وجوية كبيرة واقامة قاعدة للطائرات الضخمة القادرة على نقل كميات كبيرة من الاعتدة واعداد كبيرة من الرجال الى منطقة القتال. كان كارتر يرى ان تكون هذه القوة متحركة، ومدرّبة تدريباً جيداً، ومكوّنة من وحدات اعتادت التدخل السريع وتوجيه ضربات حاسمة في وقت قصير. وهكذا تشكلت « قوة التدخل السريع » المنصوص عنها في موازنة عام ١٩٨١. وقد تم الاتفاق على تعزيزها بصورة فورية، في الحالات الخطرة، بوحدات تابعة للاسطولين السادس أو السابع. ولم تكن البحريه السوفياتية الوحيدة التي اضطرت للرسو في موانئ المحيط الهندي او التجول في الخليج الفارسي أو البحر الأحمر.

في الواقع، كان البنتاغون يعي مدى الموجة العارمة التي تسعى الاصولية الاسلامية الى دفعها باتجاه الغرب وحتى المتوسط. كانت اعداد الشيعة كبيرة في العراق، ويمكن للدعاية التي يبثها رجال الدين الايرانيون ان تصلهم، في الوقت الذي كانوا على خلاف خفي مع الحكم البعثي الواقع في ايدي السنّة في بغداد. ماذا ستكون ردّة فعل السوفيات اذا ما نجحت ايران في زعزعة بلاد ما بين النهرين ؟ كان يخشى استمرار نشاط

الاصوليين في لبنان لمدة طويلة وكذلك في صفوف الفلسطينيين حيث يسهل عليهم التعصب لقضيتهم. فالجماهير البائسة في مخيمات اللاجئين، كانت، تشكل، في الواقع، الهدف المفضل للعقيدة الجديدة، كما الفئات الجائعة في المدن، حيث الفقر يمثل فضيلة وشجاعة ورفضاً للظلم والفساد والكفر والغزو التكنولوجي الذي يقوم به الغرب.

درءاً لخطر هذه الموجة العارمة، كان باستطاعة الاميركيين الحريصين باستمرار على امن حليفهم الاسرائيلي، الاتكال على مصر. وقام كيسينجر « بالخطوات الصغيرة » الاولى، لافساح المجال للسادات للحفاظ على هيبته من جراء ما لحق بها عقب هزيمته في حرب الغفران. واذا كانت مفاوضات السلام لم تحرز تقدماً يذكر، لا في القاهرة ولا في جينيف، فان الامل بالوصول الى المصالحة لم يخب بعد. ففي ايار ١٩٧٧، تبدلت الاكثرية النيابية في اسرائيل، وحلّ تحالف اليمين بقيادة مناحيم بيغن محل حزب العمل. وقد تمسكت الحكومة الجديدة بالدفاع عن المستوطنات الزراعية القائمة في الجنوب في مضيق رفح. وكان بيغن حريصاً على الحفاظ على الضفة الغربية للاردن اكثر من سيناء واستطاع التعاطي مع مصر اكثر مما فعله مع سوريا او الاردن. لا شك أن السادات كان يعتقد ان بلاده المكتظة بالسكان، والتي تشكو الفقر وليس لها ان تنتظر سوى المن والسلوى من بلاد النفط، عليها ان تتحاشى خوض الحرب مع اسرائيل. هل كان يستشعر، اعتباراً من عام ١٩٧٧، ان موجة التزمت الديني تستعد لاجتياح الشرق الادنى ؟ جرت اتصالات في المغرب بين عدد من المستشارين المصريين والاسرائيليين. وقام السادات، بعد بيغن، بزيارة الى تشاوشيسكو الذي لعب، في بوخارست، دور الوسيط. اخيراً، انتهى « الريس » الى التصريح : « اني مستعد للذهاب الى آخر الدنيا، حتى الى الكنيست في القدس للحصول على السلام والحفاظ على حياة الجندي المصري ».

بلغ حماس الاسرائيليين حد الجنون عندما جال السادات في شوارع القدس في ١٩ تشرين الأول. مع ذلك لم يتراجع قيد انملة واحدة عن الطرح العربي الداعي الى الاعتراف بالواقع القومي الاسرائيلي مقابل الحصول على تحرير الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وعلى حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني. وتحركت الولايات المتحدة لتدفع الامور الى الامام، فاجتمع كارتر والسادات في اسوان وانتقل بيغن الى واشنطن، في الوقت الذي اخذ فيه الارهابيون الفلسطينيون التابعون لمنظمة ايلول الاسود والمتمركزون في جنوبي لبنان يشنّون هجماتهم على حدود اسرائيل. وفي كامب دافيد، نجح كارتر في مصالحة السادات وبيغن. وفي ١٧ ايلول ١٩٧٨، تم توقيع معاهدة السلام بين اسرائيل ومصر بضمانة الشريك الاميركي. وبدأت خطة « تهويد » قطاع غزة والضفة الغربية. وانتخب السكان بحرية هيئة مستقلة لادارة شؤون الاراضي المحتلة. واعترف بيغن « بالمطالب العادلة » للفلسطينيين. وستتولى الشرطة المحلية فرض النظام. وعلى الفور تمت اعادة صحراء سيناء الى مصر. وعندما جرى توقيع معاهدة السلام، بصورة نهائية في ٢٦ آذار ١٩٧٩، شعرت اسرائيل انها حققت نصراً معنوياً، اذ انتزعت اعتراف احدى الدول العربية الكبرى بها، على الرغم من أن الفلسطينيين كانوا يرفضون الاقرار بحقها في الوجود.

ميدانياً، تضاعفت الحوادث، وارتسمت خطوط المواجهة في العواصم العربية. واذا كانت تونس والرباط تساندان السادات، فان الرياض التزمت الصمت، وضمت « جبهة الرفض » كلاً من ليبيا والعراق واليمن الجنوبية وسوريا والجزائر، وكلها تتزود بالسلاح السوفياتي. وخاضت ضد « الاستعمار » معركة سياسية ارتدت طابعاً دينياً، لدى عدد من اعضاء منظمة فتح الفلسطينية، لكنها بقيت على العموم علمانية في جوهرها. ساندت هذه الدول حركة المقاومة الفلسطينية ووضعت في تصرفها قواعد

للتدريب على العمل الفدائي والارهابي الذي تضاعفت عملياته في المنطقة وفي مختلف انحاء الغرب، خلال السبعينات، وصولاً لاغتيال عدد من اعضاء الفريق الاسرائيلي المشارك في الالعاب الاولمبية في ميونيخ، في ايلول ١٩٧٢. وثمة ضربات اخرى ينبغي وضعها في خانة العمل الهادف الى فك ارتباط الدول الاوروبية من الموقف الاميركي الداعم لاسرائيل. ولجأت العواصم العربية الى سلاح آخر في الاتجاه نفسه، اذ استخدم رؤساء الدول العربية الايرادات النفطية الضخمة التي تدفقت عليهم بعد عام ١٩٧٩، في شراء الاسلحة من الدول الغربية التي ارتضت عدم اتخاذ موقف بجانب اسرائيل في النزاع القائم وعدم تزويدها بالسلاح. وبذلك تحولت طلبات الاسلحة هذه وسيلة ضغط اخرى.

بعد التزود بالسلاح، ساعد لبنان وسوريا وليبيا والعراق الفلسطينيين وساندوا مباشرة بعض فصائل المقاومة الفلسطينية. لم يتدخل رجال الدين الايرانيين، باعتبار ان الفلسطينيين ليسوا بمجملهم، من الشيعة. لكن سرعان ما ادت اشتباكات الحدود مع العراقيين، الى مواجهة عسكرية بين الجمهورية الاسلامية والجمهورية البعثية في العراق. كيف سيكون موقف الدول العربية من هذا النزاع ؟

حرب العراق وايران

هذه الحرب لا تعني تطاحناً على مناطق خالية وفقيرة وشبه صحراوية كالحدود الصينية ــ الهندية التي تكتسب اهمية استراتيجية ليس إلا. ذلك ان « شط العرب » يصل على مدى ٢٠٤ كلم، نهر دجلة والفرات في الشمال، وهو الشريان الحيوي للعراق (بلاد ما بين النهرين القديمة) بالخليج الفارسي في الجنوب. وهو الممر الوحيد للعراق الى البحر. على الضفاف الشرقية تقوم ٩٠٪ من المنشآت النفطية العراقية. وعلى الضفة الغربية، تشكل حقول النفط ٥٠٪ من انتاج البلاد. وقد يلهب عود ثقاب

واحد النار في احدى اغنى المناطق في العالم. والاشتباكات بين الجارين قائمة باستمرار على الحدود. وقد جرى توقيع تسوية في الجزائر عام ١٩٧٥، قضت بقسمة مياه النهر من اجل مراقبة الملاحة فيه وتم تثبيت تلك التسوية بعد ثلاث سنوات في معاهدة بغداد. ونصت احكام هذه المعاهدة على ان يتملك كل بلد ضفته الامر الذي اثار حفيظة حكام بغداد واعلنوا ان سكان الشط هم من العرب وليسوا من الفرس. وكانت ايران الشاه التي وقعت ذلك الاتفاق قد اصبحت حامية لحركة مرور النفط العالمي، بفضل اسطولها الحربي.

نقض الايرانيون الثوريون، عام ١٩٧٩، اتفاقات الجزائر وطالبوا بالاراضي الآهلة بالشيعة والواقعة الى الغرب — وحرضوا اتباعهم على الثورة وساندوا داخل العراق حزب « داوا » السري. وقرر العراق بالتالي وبذلك « خوض الحرب لاسترجاع سيادته على أراضٍ يملكها بموجب اتفاقات الجزائر ». كما طالب باعادة جزر طابا وابو موسى التي تشرف على مضيق هرمز، والتي تولى الشاه حمايتها عام ١٩٧١. كان الموقف الدولي لحكومة بغداد متيناً وتلقى الدعم المشروع من الدول العربية والامم المتحدة. كما كانت الدول الغربية في غاية الاغتباط لدعم العراق، لخشيتها، مع الولايات المتحدة، من تفاقم موجة الاصولية الدينية المعادية للغرب، في المنطقة. اما السوفيات الذين يزودون العراق بالسلاح، فالتزموا الترقب لعدم رغبتهم في تعريض امن حدودهم مع ايران للاهتزاز. لا شك ان الاتحاد السوفياتي هو المزود الاول بالسلاح لعراق صدام حسين، وسيكون المستفيد الاول من العملية، اذا انتصر العراق على ايران، الحليف المفضل للولايات المتحدة في عهد الشاه، واصبح صدام حسين الرجل القوي في المنطقة.

وضعت الحرب، اذاً، وجهاً لوجه، بلدين مسلمين، منتجين للنفط ويمتلكان امكانات حشد الجيوش الجرارة. في البداية، كانت الكفة تميل

لصالح ايران الثورة، التي افادت من السلاح المتوافر بكثرة منذ عهد الشاه. صحيح ان الضباط قد تعرضوا لحملة تطهير وتصفية، ــ حين لم يهاجروا ــ ويخشى على قطع الغيار من النفاذ وكذلك الذخيرة، لكن الرئيس كارتر لم يكن مهتماً لمدّ يد العون لبلد ما يزال يحتفظ بموظفي سفارته كرهائن. غير أن الحمى الثورية التي عصفت برجال الدين كان من شأنها تعويض النقص الحاصل في التنظيم العسكري : عندما هاجم العراق ايران في عزّ ثورتها القومية، كان كمن « يعرض النصر على إيران » على حد ما كتب دومينيك مويزي، كما ضاعف كثيراً من نفوذ الثورة الاسلامية في العالم.

تبين، على الفور، ان هذه الحرب تشكل من حيث الوسائل المستخدمة وانعكاساتها الدبلوماسية والاقتصادية، اهم نزاع اقليمي منذ عام ١٩٤٥. وكان هدف ايران يتجاوز المسألة القومية، اذ رمى الى القضاء على نظام حكم كافر، يستغل الجماهير الشيعية، ويصادق الغرب ويسعى زعيمه، صدام حسين، الى الحلول محل الشاه في دوره كشرطي للخليج. كان قلب النظام البعثي يشكل بالنسبة لآيات الله الايرانيين ضرورة مطلقة : فالحرب ستكون شاملة ولن تهدأ مع استخدام العراق للاسلحة الاكثر تدميراً، والكيميائية على وجه الخصوص. وايران تريد انتصاراً يكون على قدر التزامها الشامل. اما العراق، فيدرك تماماً أنه اذا صمد لدرجة منع ايران من تحقيق نصر واضح عليه، فيكون قد حقق تفوقاً سياسياً حاسماً.

اتاح التفوق العراقي في المدفعية والطيران، القضاء على الهجمات الليلية للمتطوعين الايرانيين. انضمت دول الخليج الى المعسكر العراقي ووفرت له التمويل، وكذلك فعل فرنسا والاتحاد السوفياتي، فاشترى صدام، في بداية الحرب، من الاسلحة ضعفي ما اشترى خصمه، متوقعاً وقف تزويده بالذخيرة وقطع الغيار. واتاح له النفط انفاق ١٥ مليار دولار مقابل ١٢ مليار لخصمه، اي ما مجموعه ٢٥ مليار دولار ذهبت طعماً

للحديد والنار. والأدهى في هذه الحرب ان كتائب « حراس الثورة » ــ باسداران ــ وجلّهم من الشبان، قد اندفعوا للقتال ضد المواقع الدفاعية العراقية المجهزة بافضل الاسلحة، مستشهدين في سبيل القضية المقدسة التي يدعو لها آيات الله.

اذا كان صدام حسين قد خاض الحرب، فلأنه بالغ في تقدير التفوق التقني لجيشه، ولم يقدر الانتفاضة الوطنية الايرانية حق قدرها. تسلم صدام الحكم عام ١٩٧٩، بعد ان كان لفترة طويلة الرجل القوي في عهد المشير حسن البكر. وحصر في شخصه مناصب رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة والامين العام لحزب البعث وقائد القوات المسلحة « والمشير الاكبر »، ورأى ان الساعة قد ازفت ليدخل التاريخ. فاعتقل ٢٢ شخصية من كبار اعضاء الحزب واعدمهم، من بينهم نائب رئيس مجلس الوزراء عدنان حسين الذي اتهم بتنظيم مؤامرة ضده في بغداد لصالح النظام السوري. في الواقع، تخلص « المشير الاكبر » الجديد بهذه الطريقة من خصومه المعتدلين الذين لم يكونوا يرغبون في خوض المغامرات السياسية. استند صدام على أنصار متحدرين، مثله، من منطقة تكريت، وعلى ولاء ضباط الجيش من الموصل، لا سيما الطيارين الذين اغدق عليهم نعمه، ليشن حربه الصليبية ضد الفرس. واغرق « الرئيس المناضل » البلاد بصور كبيرة، حيث يظهر مرتدياً بزة الماريشال ويخفي خلف شاربيه الغليظين، كستالين، ابتسامة عريضة. انها حقاً عبادة الشخصية التي تبرزه في الشرق كأنه عبد الناصر الجديد. كان صدام حذراً ودبلوماسياً ويعرف كيف يدافع عن القضية العربية في وجه الفرس، خصوصاً في الرياض، حيث بدا انه حصل على موافقة الامراء السعوديين الضمنية، قبل بضعة ايام من دخوله الحرب. وحرص على التحدث مع الغرب بلغة العروبة، وتحاشى كل تحريض ضد اسرائيل واعتنى بصورته كمسلم محافظ يخوض حرباً قومية بدافع وطني.

فضلاً عن ذلك، افاد صدام من انقياد الشيعة العراقيين له، فتوقفوا عن كل مقاومة بعد بدء العمليات، عندما توالت عمليات القمع الشديدة، عام ١٩٨٠، اثر محاولة الاعتداء الفاشلة التي استهدفت الوزير طارق عزيز. وأدى شنق آية الله باقر الصدر، واعدام معظم وجوه المعارضة الفكرية والدينية في كربلاء والنجف، وطرد اكثر من مايتي الف شيعي في بداية الحرب الى ايران، الى تهدئة كل دعاية مؤيدة للخميني في المناطق المضطربة. كذلك الاكراد المناوئون للاصوليين، اوقفوا لفترة وجيزة معارضتهم وسعوا للتفاوض مع صدام. من كان يتهمه في الغرب أنه عمل على تصفية المعارضة بالوسائل الوحشية؟ كان كارتر يحلم باعادة العلاقات مع احد اكثر الانظمة الديكتاتورية دموية. بعد سقوط نظام الشاه، كانت وزارة الخارجية تعتقد انها وجدت في صدام حسين، « شرطياً » بديلاً، في منطقة الخليج.

٦ حزيران : الهجوم الاسرائيلي في لبنان

اذا كانت الولايات المتحدة تسعى الى اعادة السلام في شرقي المنطقة فلأن الشرق الأدنى كان يفيد من المصاعب التي يواجهها الشرق الأوسط، للدخول مجدداً في حلقة من الاعاصير والغرائز المميتة، حيث بدا ان السلام المصري ـــ الاسرائيلي يعمل للابقاء عليها. انشغلت الولايات المتحدة في المشكلة الايرانية، واهملت لبنان الذي تعرّض لزعزعة استقراره على ايدي اللاجئين الفلسطينيين وجيرانه. في الواقع وجدت منظمة التحرير الفلسطينية نفسها متضررة من نزاع ادّى الى وضع قضيتها في المرتبة الثانية. وكان الفلسطينيون يرغبون في الابقاء على الاضواء مسلطة على نضالهم لاسترجاع حقوقهم، مهما كان الثمن. ولم يكن الايرانيون مستائين لقيام بقعة مضطربة في مؤخرة اعدائهم العراقيين، الأمر الذي يضعف مواقع صدام حسين العروبية. أما ان ينتفض « شعب المخيمات » البائس في آن معاً ضد الخيانة المصرية واللامبالاة العراقية،

فكان يبدو للخميني مسألة واعدة بامور كثيرة. ذلك ان تورط صدام يحرر خصمه، الرئيس السوري الذي كان يستطيع دعم اتباعه من الفلسطينيين في لبنان الذي كانوا يقومون بمناوشات متواصلة على الحدود الاسرائيلية.

لم يكن اليمين الاسرائيلي يطيق هذه الاعتداءات ويحرص على الدفاع بعناد عن الاراضي المحتلّة. ولم يكن حزب هاروت بقيادة مناحيم بيغن يخفي نزعته التوسعية مستفيداً من دعم مجموعات الجاليات الدينية المتطرفة والمقيمة في يهودا والسامرة. وكان الحزب الوطني الديني يدعم كتلة « غوش ايمونيم بقيادة رئيسها الروحي الحاخام زفي يودا كوك المناوئ « لهستيريا السلام » المصرية، ولم يكن يرغب في اقتسام « ارض الحدود » مع احد. وكان المحازبون الشباب على قلة عددهم، يعتبرون العرب بمثابة غرباء، وتدعمهم في ذلك مجموعة ضاغطة مكوّنة من المستوطنين الجدد المناوئين لكل انسحاب من الاراضي المحتلة. وثمة مجموعة من حزب العمال تدعم « الحمائم » الذين يناضلون ضمن حركة « من اجل السلام الآن » التي اطلقها فريق من الضباط وانضم اليهم الليبراليون والمثقفون. كانت هذه « الصهيونية العاقلة » تتطلع الى حلول لمشكلة الضفة الغربية، بدءاً من فرضية « الخيار الاردني » الذي يرفضه الاردنيون باي ثمن وقد اقدموا على طرد المقاتلين الفلسطينيين من ارضهم، وصولاً الى فرضية الدولة الفلسطينية المستقلة التي كان يخشى ان تصبح وكراً للارهاب اشد خطراً من لبنان.

كان اليمين الحكومي قد خاض، مع بيغن ووزير الدفاع اريل شارون حرب سلام الجليل التي كانت بالفعل بداية الحرب الاسرائيلية ــ العربية السادسة. وكان الهدف منها طرد الفلسطينيين المسلحين من جنوبي لبنان في عملية صاعقة تقضي على قواعد اطلاق الصواريخ والمدافع السوفياتية الصنع في معسكرات الفدائيين. كما رمت تلك الحرب الى وضع المستوطنات في الجليل الغربي بمنأى عن اطلاق النار.

كانت سوريا الدولة الوحيدة التي تستطيع مواجهة العملية، بعد السلام مع مصر وتحييد العراق. لكن « عندما يقول شارون بجنوبي لبنان، فهو يعني بيروت وعندما يقول ببيروت، فهو يفكر في الضفة الغربية » (برنافي). في الواقع، هناك ما يدعو للاعتقاد بأن رئيس الوزراء الاسرائيلي كان عرضة لطغيان وزير الدفاع عليه والذي وجد ان الفرصة مؤاتية لتسوية المشكلات الامنية بصورة حاسمة. والهدف اذاً هو طرد الفلسطينيين من كل لبنان وعقد اتفاق واضح مع قائد الميليشيات المسيحية الذي سينتخب عما قريب رئيساً للجمهورية، بشير الجميل، حيث تواجد الارهابيين في بلده المسالم (وهو الذي كان يطلق عليه قبل عشر سنوات سويسرا الشرق) يزعجه بشدة. وكانت هذه الخطة تفترض القضاء التام على الجيش السوري، فيما لو تدخّل.

كان شارون يرى في عرفات هتلر جديداً لا يحلم الا بالقضاء على اليهود. وينبغي، تدمير آخر قاعدة لجيشه من الفدائيين بصورة نهائية. حصل شارون، على دفعات متتالية، على الامكانات اللازمة لتحقيق خطته التي اخفاها بعناية عن الحكومة عندما اطلق العملية العسكرية. بدأ الاجتياح في ٦ حزيران ١٩٨٢ (تحت ذريعة اغتيال سفير اسرائيل في لندن على يد الفلسطيني ابو نضال) بهجوم سريع وعنيف شنه الجيش الاسرائيلي في الجنوب اللبناني. فوجئ الفلسطينيون بالهجوم وانسحبوا على الفور الى قواعدهم في منطقة بيروت. ونظف الجيش الاسرائيلي طريق بيروت ـــ الشام التي كانت تحت سيطرة الجيش السوري. في ٩ حزيران، بدا ان العملية العسكرية على الحدود قد انتهت، فهاجم شارون الجيش السوري في وادي البقاع، فتدخل الاميركيون عند ذاك للمطالبة بوقف النار، لان السوريين لم يعد باستطاعتهم الصمود. في الجهة الغربية، وصل الاسرائيليون الى ابواب بيروت، واستولوا على مرفأي صيدا وصور في الجنوب. وتعرضت الصواريخ السورية السوفياتية الصنع للتدمير

بالقصف الجوي. كانت العاصمة محاصرة وجرى الاتصال بالميليشيات المسيحية التابعة لبشير الجميل في ١٤ حزيران.

رفضت « الجبهة اللبنانية » التورط اكثر بعد السيطرة على بيروت الغربية، وتردد الرئيس المسيحي بشير الجميل، بصورة مفاجئة، في القتال الى جانب الجيش الاسرائيلي في الشطر المسلم من بيروت. كان مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية يتوقعون اذن، اقتحام غربي العاصمة. قصفت الطائرات والمدفعية الثقيلة طيلة احد عشر يوماً العاصمة اللبنانية التي تحولت الى ركام. لم يجرؤ الاميركيون التصدي للحصار، فيما احتج السوفيات من دون تدخل، اما السوريون فقد توقفوا عن شن اي هجوم. جرى انتخاب بشير الجميل في آب على رأس الدولة اللبنانية. هل سينجح شارون ؟ بدأت المفاوضات حول انسحاب القوات الفلسطينية بحيث انعقد الأمل بنهاية سريعة للمأساة.

غير أن الجميّل تعرّض للاغتيال في ١٤ ايلول قبل تسلّم مهماته. فدخل الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية. كان الرأي العام الدولي يضاعف من احتجاجاته دون جدوى. تظاهرت المعارضة الاسرائيلية بقوة ضد الحرب. عند ذاك أقدمت ميليشيات ايلي حبيقة الكتائبية ـــ المتحالفة مع اسرائيل، على قتل المدنيين الفلسطينيين العزّل في مخيمي صبرا وشاتيلا. فتظاهر الاسرائيليون مجدداً في تل ابيب، وتجمّع اربعماية الف شخص في ساحة ملوك اسرائيل من اجل ابداء استيائهم ومعارضتهم « للحرب القذرة ». واستقال بعض الضباط، فيما رفض جنود في الاحتياط الالتحاق بوحداتهم. لم يعد للحكومة من مخرج سوى التفاوض على رحيل جيشها من لبنان، مقابل ضمانات لا يقدر الرئيس الجديد امين الجميل، شقيق الرئيس السابق، على تأمينها. واضطر شارون تحت ضغط الرأي العام الاسرائيلي للانسحاب قبل أن يستتب السلام. وعملت جبهة الانقاذ الوطني التي شكلها السوريون الذين عادوا بقوة، الى البلاد، على اسقاط

الاتفاق اللبناني ــ الاسرائيلي. في ايلول ١٩٨٣، سحبت اسرائيل قواتها من جانب واحد من الشوف وضواحي بيروت، فاحتلّ اللبنانيون والسوريون على الفور المنطقة التي اخليت. عند ذاك، برزت في بيروت المدمرة، حركة شيعية لم يسبق ان تعرضت لها قوات الجميل حتى ذلك الحين. ونشط المقاتلون الشيعة وشنوا سلسلة من الهجمات ضد قوات البحرية الاميركية الذين جاءوا لضمان الامن في المدينة. كما هاجموا مقر القيادة الاسرائيلية في صور وقتلوا الفرقة الفرنسية التابعة للقوات المتعددة الجنسيات. وانتهت اسرائيل الى ملاقاة عدو جديد وشرس في شوارع بيروت، هو حزب الله، حيث اتباعه متزمتون على مثال اخوانهم المقاتلين الايرانيين الذين عملوا فجأة على ادخال الاسلام في حرب العرب.

الاستعمار السوفياتي في المحيط الهندي

قوّم الاسرائيليون والعراقيون والسوفيات خصمهم الاصولي الجديد بمدى قدرته على خوض حرب طويلة الامد. في عملية سلام الجليل، نجح شارون تماماً في القضاء على الجيش السوري النظامي. لكنه سقط في اوحال حرب عصابات صغيرة لا علاقة لها البتة بالحروب السابقة في المنطقة. كان الاميركيون والسوفيات في حيرة وتردد. فموسكو تأنف دعم نظام الخميني الذي انتهى الى ضرب حزب توده الشيوعي والقى اعضاءه في السجن، وانشأ على حدود الاتحاد السوفياتي اذاعات اصولية موجهة الى المسلمين السوفيات، ودعم رجال المقاومة الافغان الذين اذاقوا الامرّين للمجندين الشباب في الجيش الأحمر وحيث الخدمة العسكرية في افغانستان كانت لهم بمثابة الاستشهاد. هل ساندت الصين الثوار الافغان ؟ من المؤكد انها زودت الخميني بالسلاح اعتباراً من بدء الحرب ضد العراق، في حين كانت موسكو تستأنف شحن الاسلحة الى بغداد. كيف كان بريجينف يأمل السيطرة على بلاد واسعة تبلغ مساحتها ٦٥٠٠٠٠ كلم٢ ويسكنها ١٩ مليون نسمة. كان على حرب العصابات

في افغانيستان ان تمتد طويلاً من دون ان يتمكن بريجينيف من رؤية نهايتها ومثل حربٍ العراق وايران (سبع سنوات)، ومثل حالة انعدام الامن والقتال بين الفئات المتناحرة في لبنان. كانت المشكلة الافغانية نذير انتهاء سياسة الاستعمار التي انتهجتها موسكو في المحيط الهندي.

كان الرأي العام الدولي قد تحرك، اخيراً، للمطالبة بالتوسط في لبنان. واخذ يحتج بشدة ضد دخول الجيش الأحمر الى افغانيستان. وشكّل هذا الاعتداء، بالنسبة للغربيين، تطوراً جديداً في سياسة التوسع السوفياتي باتجاه الجنوب، الا اذا كان يشكل بنظر بعض المراقبين نقطة ضعف للكرملين المحاصر باتباع الصينيين، والمهدد في عقر داره، باحتمال تحرك المسلمين. عندما تعهد الرئيس الشيوعي بابراك كارمال للافغانيين « باحترام مبادئ التاريخ المقدسة »، كان يحرّك قوة مقاومة تستلهم « الثورة » الايرانية في مسيرتها، في بلد يكثر فيه الشيعة.

اعلن كارتر حظر تسليم الحبوب والآلات التقنية المتطورة الى الاتحاد السوفياتي. وتوقفت المفاوضات حول معاهدة سالت ٢. وقام وزير الدفاع الاميركي بزيارة الى دينغ كسياوبينغ تدليلاً للمسافة التي تبعده عن موسكو، وللسعي مجدداً الى نيل تأييد الصينيين. وكان هؤلاء يوجهون دعايتهم ضد « الاعتداء السوفياتي الوحشي »، على « الاحزاب الشقيقة » الواقعة تحت النفوذ الصيني في آسيا. وكان حق النقض السوفياتي يحول دون تدخل مجلس الامن الدولي، كما كان الصحافيون الغربيون يجهدون للتملص من الرقابة العسكرية الساهرة لنقل المعلومات عن رجال المقاومة الافغان الذين كانوا يتلقون المساعدة من باكستان. لكن كارتر اعلن عن تعزيزات عسكرية في المنطقة واوفد الى باكستان مستشاره بريزنسكي لتأكيد دعم الولايات المتحدة لها. كان السوفيات يستخدمون سلاحهم الاكثر تطوراً لاخماد الاضطرابات لكن المروحيات الثقيلة المدرعة والدبابات كانت توفر الامن في المدن وطرق المواصلات فقط. واعلن

بريجنيف الى بابراك كارمال حين استقبله بحفاوة بالغة في موسكو في تشرين الأول ١٩٨٠ ان « الوقت يعمل لصالح افغانيستان الثورة ». وتوفي بريجنيف في ١٠ تشرين الثاني ١٩٨٢، من دون التوصل الى فرض حل عسكري في افغانيستان. وجاءت وفاته نذير نهاية الاستعمار السوفياتي في البحار الدافئة.

مع ذلك، عزز بريجنيف مواقعه في اليمن الجنوبية. وجاء هذا التمركز ثمرة جهد طويل. فالعربية السعودية ليست دولة عربية عادية، فالوهابيون يؤلفون سلالة سنية نقشت سيف الجهاد المقدس على علم بلادها الاخضر، وليست الوحدة بين الدول العربية من اهدافها، انما ترمي الى نشر الاسلام في الامة. يحيط الملك فهد نفسه بحرس ملكي يسهر على خدمته، ويتجند في جيشه الباكستانيون الشيعة، لانه يحذر من نزعات بعض امراء المملكة الذين كادوا ان يجرّوا الجيش الى جانب السوريين والعراقيين الموالين للسوفيات. ويكنّ الوهابيون عداء شديداً للشيوعية، وكان بوسعهم التحالف مع الولايات المتحدة للوقوف في وجه التوسع السوفياتي، شرط القدرة على قلب السياسة الاميركية تجاه اسرائيل، ذلك ان النضال ضد الدولة اليهودية من أهم الامور التي تستهوي قادة المملكة. هل كان باستطاعة الرياض التفاهم مع طهران ؟ كانت الاهانة التي لحقت باميركا في عهد كارتر تحول دون اللجوء الى واشنطن على الفور. وكان الامراء قد اقنعوا الملك بتعزيز الجيش وتعبئة مزيد من المجندين الباكستانيين. وكانت القدرات المالية الضخمة الناجمة عن البترودولار تتيح شراء احدث المعدات العسكرية الاميركية؛ وخلال العام ١٩٧٧، اجريت صفقات تزيد قيمتها عن ١٠ مليارات دولار، ووجد الامير عبد الرحمن شقيق الملك فهد انه يستطيع اعلان الجهاد المقدس. وهذا الموقف الثابت المعادي للصهيونية اتاح للسوفيات التسلل داخل اللعبة الخليجية. وكانوا يحلمون بالحلول محل النفوذ الاميركي في الرياض.

غير أن الاستراتيجية السوفياتية ظلت تدور في المحيط الخارجي،

بالنظر للنزعة المعادية للشيوعية لدى الامراء. وكانوا يتهمون القذافي بالعمل على قلب التوازن القائم في شبه الجزيرة، لدرجة زعزعة استقرار الدول الاكثر غنى فيها. وليس من باب الصدفة ان يكون القذافي ـــ وهو الماهر في زرع القلاقل ـــ قد وقف الى جانب الخميني اعتباراً من عام ١٩٨٠، وتخلّى عن العراق. وقطعت الرياض علاقاتها الدبلوماسية مع طرابلس وسفهت العقيد الليبي بالقول : ان من يجلب الفرقة بين الاخوة يعمل ضد مصالح الامة ومشيئة الرسول. كما ندّد علماء الدين « بخادم الشيطان » وطالبوا بطرده من الجامعة العربية. ألم يسبق للقذافي ان سخر من تعاليم القرآن وطالب بعدم المشاركة في الحج الى مكة ؟ غير أن اجتياح اسرائيل للبنان ادّى الى مصالحة البلدين، لكنّ عداء الرياض لطهران بقي شديداً، اذ كانت تتهم آية الله الخميني باثارة النعرات الدينية والقلاقل السياسية في الامارات العربية. جرى اعتقال استاذ جامعي في الكويت يقوم بتشكيل خلايا سرية للمقاومة الشيعية. كما نقلت بواخر لبنانية سلاحاً ومنشورات وصحفاً تحريضية الى الموانئ السعودية. كما روي، ان بعض مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية قد ارسلوا على جناح السرعة الى الرياض لضرب العائلة المالكة. فالتواطؤ بين الفلسطينيين والايرانيين كان أكيداً لدى الرياض. وفي الكويت، ثمة مقيم شيعي واحد من اصل ثلاثة. وبوسع آية الله ان ينقل الاضطرابات والقلاقل الى تلك الامارة الغنية. في سلطنة عُمان، قام تمرد في اقليم ظفار، كما تحرك الشيعة في البحرين متأثرين بالدعاية الايرانية التي تدعو الى المساواة في المجتمع. وساد المملكة السعودية شعور بالتضامن مع الامارات المهددة وشجبت مكائد طهران بشدة.

درءاً للاخطار، عزمت الدول العربية في الخليج على اقامة حلف سياسي فيما بينها، غير أن التنافس بين العراق والكويت حال دون تحقيقه. وادى التراجع الاميركي الى دفع الرياض باتجاه نهج سياسة اكثر حزماً، وانشأت معسكرات للمراقبة على حدود العراق والكويت للحفاظ على

السلام، كما اجرت اتصالات بدمشق وبغداد معاً. وجهدت السياسة السعودية للمحافظة على السلام باي ثمن بين الدول العربية، ضد النفوذ الايراني الهدام، وبالطبع ضد التوسع السوفياتي خصوصاً في اليمن.

ازداد تمركز الجنود الكوبيين في عدن، فيما اصبحت القوات المسلحة السوفياتية على مقربة من السعودية، من جراء حرب افغانيستان. وكان الملك السعودي قد انفق لتوه مبلغ ٥٠٠ مليون دولار لانشاء طريق تمتد بين عمان ومسقط وسلالا، وهي طريق استراتيجية لمنع اي انزال بحري. فانتقل سكان اليمن الجنوبية البالغ عددهم مليوني نسمة الى جانب المعسكر السوفياتي.

عندما اختار الكرملين الحبشة ضد الصومال، متعرضاً بذلك لخسارة قاعدته في باربارا، سحب وحداته من عدن، وهي من اهم المرافئ في المنطقة، وقد سبق للبريطانيين ان جهزوا فيها مطاراً حديثاً، يتيح للطيران السوفياتي انزال قاذفاته فيها ومراقبة القاعدة الاميركية في دياغو غارسيا والغواصات النووية الراسية باستمرار. وهناك مرفأ جديد في نيشتون ومطار جديد في الجيزة يفضح نية السوفيات بطول اقامتهم في اليمن. ويجري الحديث، منذ الآن، عن « قناة باناما » لكثرة مرور البواخر التي ترفع العَلَم السوفياتي بين بحر عمان والبحر الاحمر. وعبرت الاسلحة الموجهة الى الحبشة، بطريق مرفأ عدن، في السنتين ١٩٧٧ و ١٩٧٨. وتم القضاء على جيش تحرير اوغادين : وهكذا اقام الكوبيون والمستشارون الخبراء قواعد سياسية على غرار ما جرى في اليمن الجنوبية. وتولى الحزب الاشتراكي اليمني ضبط الامن والنظام في البلاد بمساعدة الميليشيات والشرطة التي قام بتدريبها رجال أتوا من موسكو والدول الشرقية، وتمركزت قوة مسلحة من ٣٠٠٠٠ رجل، مجهزة بالطائرات التي يقودها طيارون كوبيون، في المناطق العسكرية. وجرى تدريب بعض الانصار في المخيمات لخوض حرب العصابات على ارض عُمان. ومُنح الارهاب

الدولي ــ الماني، ياباني وحتى ايرلندي ــ مساعدة لوجيستية مهمة. وتحولت اليمن الجنوبية مركزاً جغراسياً لزعزعة استقرار الغرب. وتسلح السوفيات بوسيلة حرب هامة، اذ ضمنوا ولاء النظام اليمني الذي ايّد تكراراً سياستهم في افغانيستان. فهل كانوا يمتلكون وسائل التسلل الى شبه الجزيرة العربية ؟

المحور اليمني ــ السوري

كان التقارب بين الكويت والاتحاد السوفياتي مفاجئاً وهو احدى نتائج الحرب بين العراق وايران. ففي غياب اية مساعدة اميركية، بدأت اسرة الصباح توجّه انظارها نحو موسكو، للحصول على السلاح اسوة بالعراق. وكانت البواخر السوفياتية التي تنقل الصواريخ لصدام حسين تتوقف في موانئ الكويت. هل ستقف الدول المحافظة في الخليج والمناوئة للخمينية الى جانب الدول العربية المتطرفة التي تتلقى السلاح من الاتحاد السوفياتي ؟

تتلقى سوريا المتورطة في النزاع اللبناني، طائرات التوبوليف والصواريخ، منذ زمن بعيد. وقد سعى رئيسها حافظ الأسد باستمرار الى اقامة توازن بين الجبارين الاستعماريين. لكن، بعد التقارب الاسرائيلي ــ المصري الذي رعته واشنطن، اصبحت دمشق محور « جبهة الرفض » بمباركة موسكو. عند ذاك، اتسعت حركة اندفاع دول الخليج باتجاه الاتحاد السوفياتي : فالمملكة السعودية كانت حاضرة في قمة بغداد وايدت الادانة الصادرة عنها بحق السادات. وافادت الدبلوماسية السوفياتية من هذه المناسبة لمصالحة الشقيقين المتخاصمين، البعث الثوري والبعث العراقي. وتشكلت جبهة موحدة معادية للاميركيين في المنطقة ــ وهو الهدف الاكبر لموسكو ــ كان يخشى وقوع الانفجار فيما لو استأنفت الدول العربية سياستها العدوانية ضد اسرائيل، فلا يبقى من سند للعراق في حربه ضد ايران، سوى الاتحاد السوفياتي.

لا شك ان السوفيات ادركوا الخطر الداهم ورفضوا تزويد سوريا بالاسلحة المتطورة (مقاتلات ميغ ٢٧ ودبابات ت ٧٢) التي كانت اتاحت انطلاقة الحرب ضد اسرائيل. عام ١٩٧٩، خلقت الثورة الدموية في العراق توتراً مع دمشق : اتهم صدام حسين الرئيس الاسد بالتآمر ضده. في الواقع، كان حكم هذا الأخير يهتز في سوريا تحت وطأة الاضطرابات التي يقوم بها الاخوان المسلمون، الذين يتهمون الرئيس بأنه يمثل الاقلية العلوية وليس الجماهير العربية. فدفعت هذه المصاعب بالاسد للتوجه الى موسكو التي اكدت تحالفها معه، في تشرين الأول ١٩٧٩، قبل بضعة اسابيع من غزو افغانيستان.

كان يخشى أن تؤدي هذه العملية الى ابتعاد الدول الاسلامية عن بريجنيف وهو الذي جهد للتقرب منها. وكانت الجمعية العمومية للامم المتحدة قد ادانت للتو بغالبية ١٠٤ اصوات مقابل ١٨ صوتاً الغزو السوفياتي (وهي العملية الاولى التي يقوم بها الجيش السوفياتي في احدى دول العالم الثالث).

صوتت المملكة السعودية ودول الخليج ومصر الى جانب القرار، فيما امتنعت سوريا وليبيا والجزائر، تحاشياً لازعاج السوفيات. وبذلك انفرط عقد الوحدة بين العرب من جديد. وسعت قمة دمشق في كانون الثاني ١٩٨٠ لكسر الطوق الاسلامي الذي اشتد حول موسكو، ورفض الاسد المشاركة في اجتماع منظمة الدول الاسلامية الذي دعت اليه الرياض في باكستان.

بعد ذلك، صارت المملكة العربية السعودية تصنف في خانة الدول المعادية للاتحاد السوفياتي، حيث وقفت ضد سوريا الموالية لموسكو. وقام الكرملين بتعزيز تحالفه معها، على الرغم من قلق السوفيات من تطور النزاع العراقي ـــ الايراني الذي يخشى ان يؤدي الى زعزعة استقرار الدول العربية. غير أن بريجنيف ابدى ارتياحه لبقاء ليبيا في عضوية جبهة الرفض،

على الرغم من تعاطفها مع الاصولية الشعبية والثورية، لأن الشرق الأوسط قد عاد فجأة الى واجهة الأحداث مع حرب لبنان التي تنطوي على فائدة مزدوجة لموسكو : الاولى انها تنسي الرأي العام مسألة افغانيستان، والثانية انها تضع المسألة العربية مجدداً في اطارها السياسي حيث يصبح النفوذ السوفياتي ممكناً من جديد ويتيح الالتفاف حول المشكلتين الاسلاميتين القائمتين.

غير أن السياسة الاميركية عادت تدخلية من جديد، مع انتخاب ريغان لرئاسة الجمهورية، عام ١٩٨٠، وسعت لتوسيع محور السلام القائم بين القاهرة وتل ابيب ليشمل الاردن. اما السوفيات فليسوا احرار التصرف في دعم حليفهم السوري بالقدر ذاته من الفعالية، ولا يستطيعون التدخل بوضوح كما فعلوا عام ١٩٧٣، من دون احتمال التعرض لهجوم اميركي معاكس، في الوقت الذي يتورطون فيه في افغانيستان ويواجهون تحركاً أصولياً على حدودهم الايرانية غايته ضم المناطق التي يقطنها المسلمون.

الى ذلك، استمر الدعم السوفياتي لسوريا قائماً حتى ولو ساند الاسد الثورة الايرانية، بشكل كلامي، كما فعل القذافي. وقد اعلن بريجنيف، في الوقت ذاته، في تبليسي، في ايار ١٩٨١، انه ينبغي ايجاد حل سلمي للازمة، وان كل مواجهة تنطوي على مخاطر كبيرة. بالمقابل، شنت موسكو حملة واسعة ضد جهود السلام التي يقوم بها المبعوث الاميركي فيليب حبيب والذي يأمل تجديد رحلات كيسينجر المكوكية لالقاء سوريا في احضان الغرب. كان الاسد حريصاً على الافادة من الدعم المالي الكثيف الذي توفره المملكة السعودية، فلم يصمّ اذنيه عن لغة الانفتاح هذه، سيما وان موسكو تتردد في تسليم سوريا العتاد العسكري الحديث. ألم يعمد الاسد الى نشر صواريخ ارض ــ جو على الحدود الاسرائيلية مع لبنان من دون استشارة الكرملين. في تشرين الأول ١٩٨٠، شن الايرانيون هجوماً واسعاً على العراق، وحطموا دفاعاته واستعادوا

الاراضي التي خسروها، مخلفين عدداً باهظاً من الضحايا البشرية في صفوفهم في ساحة المعركة. استبد القلق بالدول الخليجية من جراء هذا التقدم الاصولي واتجهوا بانظارهم الى واشنطن، الأمر الذي وفّر الذريعة لموسكو لتوثيق علاقاتها مع دمشق.

ويبدو ان عملية سلام الجليل التي قادت الجيش الاسرائيلي حتى مشارف بيروت شجعت على هذا التقارب. غير أن واشنطن تدخلت على الفور، ووصل اسطولها السادس الى السواحل اللبنانية. اما السوفيات، فليس لهم ان يتدخلوا في نزاع خارجي، وفقاً لمعاهدة التعاون مع سوريا، اذا كانت القوات السورية تقاتل خارج اراضيها. وقد اثار تردد السوفيات ومماطلتهم حفيظة الاسد، الذي لم ينجح في اجتذاب الدول العربية الاخرى الى جانبه. كأن بريجنيف مريضاً ومنشغلاً في معالجة قضية افغانيستان والازمة الاقتصادية وتحرك نقابة التضامن البولونية؛ لكن شحنات الاسلحة استؤنفت باتجاه دمشق، بعد ان قام الاسرائيليون في لبنان، بتدمير اكثر من ٨٠ مقاتلة من صنع سوفياتي. مرة اخرى، خسر السوريون وعليهم اعادة بناء قواتهم بصورة ملحة.

تحرك الخبراء السوفيات على اعلى المستويات وقام الماريشال اوستينوف باجراء التحقيق بنفسه. ففي ساحة المعركة في لبنان، تقع تبعة الهزيمة على العتاد السوفياتي، اكثر مما تقع على الجيش السوري. والاتحاد السوفياتي لا يستطيع خسارة ماء الوجه طويلاً، والقبول بثبوت البرهان حول تفوق العتاد الاميركي في منطقة تقع تحت رحمة تجار السلاح. عند ذلك، قررت موسكو، تزويد سوريا بالدبابات من طراز ٦٢ و ت ٧٢ التي طلبها الاسد منذ فترة طويلة، اضافة الى طائرات الميغ ٢٧ التي لا تضاهى، وكذلك صواريخ سام ٥، التي يتولى الخبراء السوفيات تشغيلها لوجودها في منطقة حمص ودمّر ويمكنها ضرب اسرائيل في اراضيها.

عندما غاب بريجنيف، تابع خلفه اندروبوف تزويد سوريا بالسلاح. ولا مجال للموافقة على خطة ريغان القاضية بانسحاب مزدوج للاسرائيليين والسوريين من لبنان. كذلك رفضت الدول العربية المجتمعة في فاس-تلك الخطة. وكان على موسكو ان تسهر على استمرار التفاهم بين الفلسطيني عرفات الذي تدعمه، والرئيس الاسد الذي يدّعي لعب دور الزعامة في الحركة الفلسطينية. رفض السوريون الانسحاب من لبنان، الامر الذي ادّى لفشل المشروع الاميركي. ودلّ الاعتداء الذي دبرته الاجهزة السورية المختصة ضد مقر قيادتي القوات الاميركية والفرنسية في بيروت، على رغبة السوريين واللبنانيين التقدميين والفلسطينيين في الحصول على انسحاب القوات « الاجنبية ». وشكّل رحيل الفرنسيين والاميركيين عام ١٩٨٣ نصراً لمحور موسكو — دمشق. فمنذ اغتيال الرئيس المصري انور السادات في تشرين الأول ١٩٨١، كان الرئيس الاسد وحلفاؤه الموسكوبيون يأملون في عودة هذا البلد الى حضن العروبة : وهكذا جرى تفشيل السياسة الاميركية في لبنان. وقد اتاح احياء العروبة في هذه الواجهة المتوسطية من العالم العربي، للسوفيات ان يزيلوا بصورة جزئية الآثار السيئة التي خلفتها المشكلة الافغانية. ولم تساعد « عودة » ريغان الى المنطقة، على استعادة مواقع ثابتة، بعد الصدمة التي تعرضت لها أميركا مع الأصولية الايرانية. مع ذلك ينبغي الا يؤدي النجاح السوفياتي الى حجب الحادث الفريد التالي : لقد اكتشف الخميني بشخص بريجنيف شيطاناً آخر.

الحدث الجديد في الاسلام الايراني

لا شك أن قيام دولة اسلامية بمؤسساتها ومبادئها، من الامور التي لا تستطيعها كل الدول في الشرق الادنى. التي يتعين عليها بصورة عامة الاعتماد على اقليات دينية قوية والاخذ بنموذج النظام الغربي العلماني، من اجل الافساح في المجال لمختلف الطوائف ان تعيش في سلام داخل

حدودها. وتضم مصر وكذلك لبنان على وجه الخصوص، مجموعات مسيحية كبيرة. وليست سوريا افضل حالاً من العراق الذي تتمزق وحدته بين السنة والشيعة. بالمقابل، يتيح الانسجام النسبي في ايران، خدمة الاهداف التي يتطلع اليها الخميني ويقترن الجانب الاجتماعي والشعبي في ثورته مع الرسالة الدينية المنطوية على مغزى المساواة، فيجعلها مقبولة على نطاق واسع في « الشوارع العربية » القائمة في المدن الغربية. وعلى حسني مبارك الذي خلف السادات على رأس الدولة المصرية، ان يحسب من الآن فصاعداً حساباً لتعصب الاخوان المسلمين (قتلة السادات)، وان يخشى تأثير الاصولية على ملايين الفقراء الذين تكتظ بهم شوارع القاهرة. واذا بات يميل الى مصالحة موسكو ويتمنى اعادة العلاقات الدبلوماسية معها وعاد يستقبل الفنيين والاساتذة السوفيات، فإنه يفعل ذلك يقيناً كي لا يقطع علاقاته بالعروبة، وهي القوة الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه الاصولية. لا شك أنه باقٍ على تحالفه مع اميركا لكنه يرفض منح ريغان حق بناء قاعدة بحرية بالقرب من الاسكندرية وانشاء معسكر لقوة التدخل السريع والذي ينوي البنتاغون اقامته بين القاهرة واسوان. وهو يعلم أن باستطاعته الاتكال على دعم لندن وباريس للتصدي للضغوط الاميركية، باعتبار ان هاتين العاصمتين لا تكرهان فكرة لعب دور لهما في المنطقة. فالعودة إلى الاعتدال والحنين الى الحياد الايجابي الذي كان ينادي به عبد الناصر، يستأثران بمزاج « الريس » الجديد، الذي يرى في اللعبة السياسية التقليدية الاستعراض الوحيد ضد الموجة العارمة الزاحفة من الشرق.

يخافه السوفيات بقدر ما يخافهم، فقد شجعوا في بدايات عهده، الثورة الايرانية، موضحين للاحزاب الشيوعية الشقيقة ان لايران وضعاً سوسيولوجياً خاصاً وان الجماهير الثائرة بحاجة للدين لتعزيز تلاحمها قبل أن تتحرر من معتقداتها القديمة، وتبني، فيما بعد، صرح الاشتراكية. في هذا الاطار، كان الحزب الشيوعي توده الذي شارك في الاستيلاء على

السلطة وعلى اجراء التطهير، الوحيد بين الأحزاب غير المحظرة. مع ذلك فقد الكثير من نفوذه في تلك التظاهرات الجماهيرية التي كانت تتيح للنظام فرض قراراته وحيث لم يكن للشيوعيين سوى حصة ضئيلة. غير أنه كان يمارس بعض السحر على الاكراد في شمالي البلاد. وكان محازبوه ينتمون الى المناطق الحدودية كالتركمان والبالوتشي، الأمر الذي كان يقلق المسؤولين. بالفعل كان الاكراد يطالبون بالحكم الذاتي ولا يخفون تعاطفهم مع موسكو كما كانوا يحظون بدعمها. وكانت الاذاعات السرية القائمة في عهد الشاه تبث برامجها بالفارسية والازرية، كما كانت كادرات توده تتدرب في المعسكرات السوفياتية في افغانيستان. ولم تكن الشرطة السرية لآية الله تجهل كل هذه الدسائس الماكرة. حتى ولو وصفت البرافدا الخميني « بزعيم المعارضة السياسية ــ الدينية »، فان كوسيغين وجّه الى رئيس الوزراء بازركان تحذيراً يذكّره فيه بالصداقة التي يفترض ان تجمع بين البلدين، مشدداً على مبادئ المساواة وحسن الجوار واحترام السيادة الوطنية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. والاتحاد السوفياتي مستعد للامتناع عن كل تدخل في شؤون ايران، اذا ما توقفت اذاعاتها عن بث الدعوة الى الثورة الدينية على الاراضي السوفياتية.

عندما عزز آية الله الخميني الحكم الاسلامي في الدولة الجديدة، كان يعمل على اقصاء الاحزاب التقليدية، لضيقه من حزب توده. وكان يقال له ان لجاناً ثورية تنظم المقاومة في المصانع محرّضة على الاضرابات والصراعات العنيفة. لم يكن في نيته بعد قطع العلاقة مع موسكو، اذ كان يجهد الى عزل توده ومنعه من الاذى. بعد غزو افغانيستان، سقطت شكوكه. وعلى الفور، وجه رئيس الوزراء بازركان تحذيراً الى الاتحاد السوفياتي بأن عليه « اعادة النظر في سياسته بالاتجاه الذي يأمله الشعب الافغاني ». واتهم احد الوزراء موسكو باقامة قاعدة تدخل لرجال العصابات على الأراضي الافغانية ضد إيران. كان الاتهام ينصب على الكرملين لمساندته الحركة الكردية الانفصالية ولتشجيعه إقامة

كازاخستان مستقلة، باعتبارها تشكل حاجزاً يحمي الدولة السوفياتية ضد الاصولية. عند ذاك اتخذ آية الله موقفاً يتهم بموجبه موسكو بالتدخل في الشؤون الداخلية الايرانية.

لم يكن يجد اي خير في تبرير سياسته أمام جماهير المتظاهرين : كان اخوانهم الذين يقاتلون العراقيين يقتلون بالقنابل والقذائف والرصاص السوفياتي. كان زعيم الثورة يشترط وقوف الجبارين على الحياد من دون جدوى. فالقوات السوفياتية متمركزة على الحدود الايرانية ويتلقى البالوتشي تدريباً خاصاً في افغانيستان. كان هذا التهديد امراً لا يطاق، واتخذت لهجة الخميني طابع الشتيمة للتنديد علانية « بالشيطان الثاني ».

استبد القلق بالمحازبين الشيوعيين من قبل ان يتعرض الحزب للحلّ، واتهم عدد منهم بالتجسس واعدموا. عام ١٩٨٣، اتخذت الحملة المعادية للسوفيات طابع الحرب الصليبية : منع حزب توده وتعرّض الشيوعيون للاعتقال الجماعي، وطالب الخميني « بالقضاء على الاشخاص الذين ينكرون الله ».

لم يصدر عن موسكو اي احتجاج. وسبق لها تكراراً ان تركت الدول العربية تقضي على الاحزاب الشيوعية الوطنية، من دون ان تعترض، كأن الجغراسية لا علاقة لها بالايديولوجيا. وقد جهدت للابقاء على العلاقات الى حد التمني للعودة الى تبادلها. وبقيت طهران على موقفها لا تلين، ولم تتخلَّ عن لهجة القدح والشتيمة؛ ولم تشعر بالحاجة الى مراعاة الحليف الرئيسي لعدوها الذي تخوض ضده حرباً شاملة.

عام ١٩٨٣، كانت الحرب العراقية ـــ الايرانية ابعد من ان تنتهي وآثارها التدميرية ظاهرة. فالمساعدة التي يمنحها الاميركيون للثوار الافغان في ازدياد مطرد، الامر الذي ادى الى بعض التقارب بين طهران وواشنطن والى التباعد بين الثورة الاسلامية وموسكو. فالايرانيون لا خيار لديهم ولا سلاح ولا ممولين. وهم لا يخوضون حرباً يمكن لصفارة الامم المتحدة

ان توقفها. حتى انهم قبلوا التزود بالسلاح الاسرائيلي، كما يؤكد على ذلك بني صدر واريل شارون، وايدوا الهجوم الاسرائيلي على المفاعل النووي العراقي في تموز الواقع في ضواحي بغداد. ضاعفت اذاعة طهران من احاديثها الموجهة الى الدول العربية لتحريض شعوبها على التحرر من الانظمة الملكية ـــ النفطية في الخليج التي تدعم العراق على الصعيد المالي. كما ضاعف الارهابيون، من العمليات التي يقومون بها كل سنة، من اجل شجب النزعة الرجعية لامراء الاسلام الذين يناوئون الجماهير المسلمة ويحرصون من خلال فهمهم للدين على الحفاظ على الحكم الجائر في بلادهم.

كان الاميركيون وحلفاؤهم الاسرائيليون يتساءلون في النهاية عما اذا كان قيام الثورة الايرانية لن يشكل الفرصة لانتهاج سياسة جديدة في منطقة الخليج، ثم في الشرق الادنى، ضد تحالف الدول الراديكالية، اي ضد دول الجبهة العربية التي ترعاها موسكو. ويبدو ان الاميركيين والسوفيات قد وجدوا معاً، في لحظة مخادعة، دواء ناجعاً للمأزق الذي يعانون منه، بالانفتاح نحو البلد الاكثر انغلاقاً، والاكثر تزمتاً، والاكثر عداوة للغرب، حيث الثورة فيه اثارت في العالم العربي، عام ١٩٨٣، بركاناً حقيقياً ونجمت عنها آثار جمة ونتائج لا تحصى. ادى الوضع في افغانيستان الى ارباك عجائز المكتب السياسي السوفياتي الذين استشعروا بداية ارتداد الموجة السوفياتية في الجنوب والتراجع في اوروبا والفوضى على حدودهم. وشعر الجمهوريون في البيت الابيض بعجزهم في لبنان، وقوّموا تسارع موجة العنف والتعصب في هذا البلد الممزق والمشرذم. هل كان هذا العجز المزدوج يعد بقيام نظام مختلف ؟ عام ١٩٨٣، جرى توزيع اوراق جديدة في اللعبة النووية، كان من شأنها الغاء كل المزايدات والانطلاق مجدداً في لعبة يشارك فيها العالم كله.

العالم المقلوب

اعطى رئيس الولايات المتحدة، رونالد ريغان، ضربة الابتداء في « حرب النجوم »، في ٢٣ آذار ١٩٨٣، امام عدسات شبكات التلفزة ن.بي.سي.، وسي.بي.اس. و اي.بي.سي. وكان الاعتقاد قد ترسخ مع ماكنمارا، ان حماية المدن والناس هي مفهوم لاغٍ في الحسابات النووية. « فالتدمير المتبادل المضمون » هو قمة السلامة والامن »، اذ كان يكفي، للحماية، ان توهم العدو بامتلاك الوسائل التي تتيح توجيه ضربة قوية، كيلا يحاول القيام بأية مجازفة. وها هي صورة « النجم » تتغير على الشاشة الزجاجية لآلة الفلوس : واذا بريغان، باسماً، يخرج النجوم من جيبه ويلقيها هباء في الهواء. فالخلاص سيأتي من الكواكب التي تتيح تدمير صواريخ العدو. « والخلاص المتبادل المضمون » يقع في اطار « المبادرة الاستراتيجية الجديدة.». لقد رمى ريغان على الاتحاد السوفياتي فقاعة الكترونية تمنعه من اطلاق النار. لم تعد الحماية تقتصر على مواقع الصواريخ وحدها بل تعدتها الى المدن والناس : انه العالم بالمقلوب.

هل تخلصنا من الحرب ؟ اطلاقاً، فالاسلحة الكلاسيكية، حتى الاكثر شراً ـــ البيولوجية والكيميائية ـــ ازدهرت مجدداً. ودخلت الموازنات العسكرية مع صانعي الاسلحة في مسيرة جديدة حشدت لها مبالغ مالية ضخمة في بعض مناطق الكرة الارضية، بعد الصدمة النفطية الثانية. كما

برزت مجدداً الأهوال المنسية منذ القرون الوسطى، كالسيدا أو الطاعون الحديث، والجوع الذي جعله النظام المالي يمتد من البرازيل الى الساحل، ومن بنغلادش الى التيبت. كل شيء يجري كما لو ان الدول، في اوج قوتها وقدرتها التدميرية، لا تستطيع شيئاً لانقاذ ثلث العالم من الموت. ان تعبئة الموارد والامكانات الفكرية من اجل حرب النجوم تجتذب كل الاموال المتوافرة، لكنها تبقى عاجزة عن السيطرة على اربعة اشكال فظة لتكديس الاموال وهي : تجارة السلاح والمضاربة المالية والنفطية وتجارة المخدرات.

برنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة » والاقتصاد الاميركي

في الولايات المتحدة، كانت التعبئة على اشدها، بعد فوز ريغان وافول شمس كارتر الباهتة. وبدا ان الجهود منصبة لتوجيه الاستثمارات في برنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة » حيث اكد الخبراء انه سيكون ذا فائدة جمة للابحاث، والصناعات المتطورة التي سوف تتلقى على الفور عقوداً تبلغ موازنتها ٢٦ مليار دولار لمدة خمس سنوات (خفضت لاحقاً الى ١٥ مليار). انعشت هذه الموازنة جهود البحث في الجامعات الاميركية، لا سيما في ستانفورد الواقعة على المحيط الهادئ. من وجهة النظر هذه، كان يمكن تقديم ذلك البرنامج كأنه وسيلة انعاش اقتصادي في وقت الازمة.

مع ذلك، لا شيء ممكناً في هذا المضمار من دون حافز قوي يدفع الى الامام : منذ عشر سنين والانتاجية لا تتعدى نسبتها ٢٪ في السنة، كما ترافق الانحسار الاقتصادي الناجم عن الصدمتين النفطيتين، مع تضخم ثابت. بالرغم من ان الولايات المتحدة ما تزال تضطلع بمهمة انتاج خمس ما ينتجه العالم، فانها انتقلت من طور الهيمنة الاقتصادية الى طور التفوق. وهي مدينة بذلك الى مثابرة المؤسسات الكبرى ونشاط الشركات المتعددة الجنسيات. واكتشف الاقتصاديون، في حقل التلوث

المالي في تلك الفترة، افعى الجمود الاقتصادي الذي كان رأسها التضخم وذيلها الانحسار والركود. وكان العجز المزدوج في المالية العامة والتجارة الخارجية وحشاً آخر يقض مضجع ريغان. كيف له ان ينام، وثمة ٢٢١ مليار دولار من العجز في الموازنة (عام ١٩٨٦) و١٦٠ مليار من الربح الفائت من التصدير ؟ بقي التقدم في حقل الانتاجية شبه معدوم في الثمانينات واخذت اعداد الطبقة المتوسطة بالتراجع والذوبان تحت شمس الفقر والحرمان. وكانت التقديرات تشير، عام ١٩٩٠، الى ان ٣٥ مليوناً (من اصل ٢٤٨) من الاميركيين لا يستفيدون من اية ضمانات اجتماعية.

كانت المؤسسات تعاني صعوبة في ايجاد المال اللازم لتحديث ذاتها : فالعائلات لم تكن تمتنع عن شراء السيارات والمساكن والادوات المنزلية، بل على العكس. رغبة منها في بيع المستهلكين الجدد ــ من طلاب العام ١٩٦٨ الذين أصبحوا اليوم في سوق العمل وأرباب أسر ــ كانت المؤسسات التجارية توافق على منحهم تسليفات طويلة الامد، الامر الذي كان يؤدي الى تدني الادخار الذي هبط الى ٣٪ من الدخل المتوافر. وبذلك انفق ربع مداخيل الأسرة في التسليف : بعض المصارف اقفل ابوابه واختفت صناديق الادخار، فيما عززت المؤسسات الكبرى من قوتها، مؤلفة مجموعات ضاغطة ذات شأن.

كان جبابرة الصناعة يحاربون الغزو الخارجي، خطوة خطوة، فكانت « ايستمان كوداك » تبيع آلات تصوير مستندات من صنع « كانون » اليابانية، و « رانك كسيروكس فرنسا » تصدّر الى الولايات المتحدة، فيما تخلت « غوديير » الى « ميشلان » عن مركزها الاول في ميدان صناعة الدواليب وقامت شركات السيارات الثلاث الكبرى بصنع سيارات صغيرة (جنرال موتورز وفورد وكرايزلر)، للوقوف في وجه موضة الفولسفاكن والرينو. وقضت الضرورة بتخفيض الاستهلاك بغية الاستثمار في التجهيز

واللحاق بالركب تعويضاً للتأخير. وثمة خيار آخر وضع الصناعات القديمة ــ كالنسيج والمطاط والكيمياء والحديد التي اضطرت للزوال والتراجع ــ وجهاً لوجه مع الصناعات الواعدة بارباح عالية ــ كالالكترونيكيات والمعادن والتكرير ــ واستطاعت هذه الاخيرة اتباع نهج المنتجين الفرديين حيث يبقى ميتسوبيتشي الياباني النموذج الأمثل لهم. وكان يفترض ببرنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة » الذي أعلن عنه ريغان بالتطبيل والتزمير، ان يعيد الامور الى وضعها السابق.

هل هي مسؤولية الدولة في ذلك ؟ لم يكن ريغان يعتقد ذلك. وكان خبراؤه يرغبون على العكس، في تحرير التطور المطلوب من القيود. فالثورة ضد « تدخل الدولة المفرط » شكلت لازمة في احاديث ريغان، والدواء الناجع لمعالجة الوضع الاقتصادي يتلخص بالآتي: الغاء التنظيم والاحكام المرعية وتخفيف الضرائب، والمحافظة على « نظام العرض » العزيز على قلب ميلتون فريدمان ومفكري شيكاغو، اعتماد سياسة ضرائبية بغية تقديم مساعدة غير مباشرة للمؤسسات على حساب اليد العاملة التي كان عليها دفع ثمن التضخم، تأمين الاستقرار النقدي عبر تدخل الاحتياطي الفيدرالي، القبول بارتفاع معدلات الفائدة، في بعض الاوقات حتى ١٨٪.

هل كانت العودة ممكنة على الصعيد الميداني ؟ لا شك ان مرونة النسيج الصناعي وليونته كانت تتيح الامل بتكيف الصناعة مع متطلبات المنافسة العالمية. فالولايات عرفت كيف تستغل تفوقها الهائل في الزراعة لتجعل منه وسيلة ضغط فعالة. واذا كانت الاراضي الزراعية المحروثة قد تدنت مساحاتها (من ١٥٠ مليون هكتار الى ١٢٠ مليون بين الاعوام ١٩٥٠ و ١٩٨٥) واذا كان الفلاحون قد تضاءل عددهم الى ٢,٥ مليون شخص، فان الصناعات الغذائية ــ الزراعية وهي الاقوى في العالم، تستخدم ٢٨ مليون نسمة في التصنيع والادارة وتستفيد من مساعدات

مهمة من الدولة. وقد اتاحت هذه المساعدات انشاء بنيات تحتية وتخزين المنتجات وحماية الاسواق لا سيما في مجال التشريع الصحي الذي يمنع ادخال المنتجات المنافسة الى السوق الاميركي. واذا كان سوق المواد الغذائية قد شهد ازدهاراً كبيراً في السبعينات (لتلبية الطلب المتزايد لبلدان اوروبا الشرقية) واذا كانت الافلاسات قد تضاعفت، منذ ذلك الحين، فان تكيّف قطاع القطن (الذي شهد انحطاطاً من جراء انهيار الصناعات النسيجية) والتبغ، قد ترافق مع النجاح الكبير الذي عرفته قطاعات الحليب والدواجن والفاكهة في شمالي ـــ شرقي البلاد وفي منطقة البحيرات الكبرى، وهي مدينة بقدرتها على التجدد الى التمركز الرأسمالي الذي قامت به. وساهم قطاع الخدمات (اكثر من ثلاثة ارباع القوى العاملة) في جعل الزراعة اكثر تكيفاً مع السوق وفي حمايتها من المنافسة.

غير أن الولايات المتحدة التي ازداد ارتباطها اكثر فأكثر بالاستيراد سواء في حقل الطاقة او في ميادين المنتجات المنجمية، اخذت تشكو هبوطاً ملموساً في انتاجها الصناعي حين وصل ريغان الى الحكم عام ١٩٨١. وبدا برنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة » غير ذي فعالية، في العديد من القطاعات؛ فصناعة النسيج في ماساشوست اخذت في الاضمحلال تدريجياً، وانتاج الصلب هبط من ١٣٢ الى ٧٢ مليون طن، بين الاعوام ١٩٧٤ و ١٩٨٦، مع الغاء ٣٠٠٠٠٠ وظيفة، ولم يعد قادراً على استعادة مجده الغابر. وحدها صناعة الفولاذ القوية نجحت في تحديث ذاتها من خلال تنويع نشاطاتها واغلاق بعض الافران العاملة بحرارة عالية، ولم يبق سوى ٤٠٠٠ عامل، في وادي مونونغاهيلا، من اصل ٨٠٠٠٠ عامل. فالانهيار الذي وقع بين الاعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٢ قد حوّل الاراضي الصناعية الى مزيد من الاراضي البور.

لم يكن حظ سائر الصناعات التقليدية الاخرى افضل من سواها،

فاحتلت اليابان المركز الأول في الالكترونيات المعدّة للجمهور الواسع، وتضاءلت حصة السوق الاميركي في صناعة الالومنيوم والمحركات الزراعية بصورة كبيرة. وكذلك حال منتجي اجهزة التلفزيون والمسجلات، والذين انضم اليهم، عام ١٩٨٥، منتجو السلع القديمة في كاليفورنيا. كيف ستتمكن هذه الصناعة المنكوبة من التجاوب مع التحدي « الريغاني » ؟

الانبعاث الاقتصادي في الولايات المتحدة

ثمة ركائز مهمة ما تزال قائمة ويمكن لطلبات الدولة أن تحركها. اذ بعد الازمة، استؤنفت الاستثمارات حتى بلغت عام ١٩٨٨ رقماً قياسياً قدره ٩٠ مليار دولار. وكان التجمع الصناعي ــ العسكري المستفيد الاول منها. وتوافرت للقطاعات الرفيعة المستوى امكانات تسريع أبحاثها وتطوير اختراعاتها. وانتقلت الصناعات الحديثة الى كاليفورنيا واريزونا وتكساس وكولورادو في كارولينا الشمالية. وفي سياتل، شهدت شركة بوينغ ازدهاراً كبيراً، اذ هيمنت بنسبة ٥٥٪ على سوق طائرات « جيت » الدولية منذ تصنيع طائرة ٧٠٧، الامر الذي حقق لها رقم مبيعات عالٍ واتاح لها استخدام ١٥٠٠٠٠ عامل. اما الشركة التي صممت طائرات ب ٥٢، فقد انتجت « الاواكس » التي تحمل اجهزة اتصالات ملائمة « لحرب النجوم ». وجاءت طائرة ب ٢ ثمرة جهود مكاتبها الهندسية. اما شركة البوينغ العسكرية فقد انتجت صواريخ موجهة من الالياف بحيث رغبت جيوش العالم كله في شرائها. كما انتج قسم المروحيات طائرة من طراز ف ٢٢ اوسبري، وهي من الاسلحة المتطورة التي تستخدمها قوة التدخل العاملة في المحيط الهندي. وقامت شركتا بوينغ الكترونيك وارغوسيستم بتصميم وانتاج اجهزة المراقبة والاتصال الالكترونية. عام ١٩٩٠، زودت المصانع ووزارة الدفاع بـ ٩٠٠٠ طائرة نقل كبيرة، بيع معظمها في الخارج. وقلق بعض البسطاء من عقد اتفاق

مع اليابانيين لاغراق السوق العالمي بطائرات تحمل ٣٠٠ راكباً من طراز ٧٦٧ اكس، غير ان الشركة بقيت المستفيدة الرئيسية من الصفقة. وازدادت عقود النازا بقدر ما تضاعفت الطلبات على المنتجات الصناعية الأميركية.

ساد شعور الارتياح في اوساط المؤسسات الصناعية في كاليفورنيا من جراء زيادة النفقات العسكرية، فطالبت تلك المؤسسات مشاركة الدولة لبضع سنوات. فهي معنية بصورة مباشرة ببرنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة ». وقامت المؤسسات المختصة بانشاء المرائب الصناعية بالقرب من الجامعات المرموقة حيث تحتل هارفارد المركز الأول بينها، كما اقامت الشركات الكبرى مراكز ابحاث وانتاج في ماساشوستس حيث تتوافر الادمغة العلمية. ذلك ان نجاح برنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة » لا بدّ له ان يمرّ عبر انتاج الاجهزة الالكترونية.

اثبت الاميركيون تفوقهم في هذا المضمار، على الرغم من تعقب اليابانيين لهم وبدرجة ادنى الاسيويين والاوروبيين. فاجتاحوا الاسواق بالناظمات الآلية الضخمة وقطع الغيار، واتاحت العقود الطويلة الامد الموقعة مع وزارة الدفاع على تصميم الناظمة الآلية الاستراتيجية، فيما كانت اليابان تعمل على « الجيل الخامس ». فالناظمات الضخمة لا تمثل سوى جزء من ١٩٠ مليار دولار هي حصة الولايات المتحدة من مبيعاتها لعام ١٩٩٠. فالناظمات الصغيرة التي اخذ حجمها في التضاؤل حتى اصبحت فردية وقابلة للنقل، اتاحت لشركتي ابيل وكومباك وسواهما من البقاء الى جانب شركة اي.بي.ام الضخمة. وقد فتح التصميم الهندسي الجديد الذي يعتمد على الناظمة الآلية اسواقاً جديدة لا حدود لها. اوصى البنتاغون على معظم هذه الاجهزة الضخمة، ليس من شركة اي.بي.ام (التي تؤمّن ٦٠٪ من انتاج الناظمات الضخمة)، بل من « كراي ريزريش ». اذا كان اليابانيون قد سيطروا على سوق الاسطوانات

والطابعات وشبه الموصلات، فان الاميركيين ما زالوا متفوقين في حقل اعداد البرامج، في الوقت الذي تغرق أي.بي.ام. العالم بمنتجاتها من « السوفت واير ».

وفّرت هذه الخطوة المتقدمة لادارة ريغان امكانات النجاح في خطته. فجرى تخصيص مزيد من الاعتمادات للابحاث، واعدّ برنامج لسنوات عدة توزعت اعتماداته البالغة ١٣٥,٠٠ مليار دولار على الابحاث والتطوير، اي ما يساوي ثلث النفقات العالمية في هذا الميدان. وحشدت الولايات المتحدة ١,٣ مليون باحث ومهندس، مساهمة بنسبة ٢,٨٪ من الناتج الداخلي غير الصافي لتحقيق هذا الهدف الاساسي، اي بنسبة اعلى من المانيا واليابان معاً. وخصص للبرنامج العسكري ثلث هذه الموازنة الضخمة. ونالت الصناعة نسبة ٧٥٪ من تلك الاعتمادات، و ١٥٪ للجامعات. وساهمت الدولة الفيديرالية باكثر من نصف هذه الاموال والشركات الخاصة بنسبة ٤٧٪ فقط (مقابل ٧٠٪ في اليابان). لا شك أن الشركات الكبرى تخصص موازنات ضخمة للابحاث، غير أن العبء الاكبر يتحمله المكلف الاميركي. ومن الضروري ان يتولى فريق سياسي تسويق هذا البرنامج لدى الجماهير تحقيقاً لنجاحه وهذا الدور سيلعبه ريغان.

تضاعفت موازنة الأبحاث العسكرية مرتين، في « حرب النجوم »، سواء فيما خص الابحاث الاساسية التي قامت بها الجامعات، أو « عقود التطور » الموقعة مع بوينغ، واي.تي.تي، وأي.بي.ام أو سواها من شركات المعلوماتية، والاتصالات اللاسلكية، والمعدات الحديثة والبصريات. وبلغت الاستثمارات الاجمالية ٣٨ مليار دولار وبلغ برنامج النازا للابحاث ٥,٨ مليار دولار.

اتاح الناتج الوطني غير الصافي الأول في العالم (٥٢٣٤ مليار دولار لعام ١٩٨٩) هذا التطور الهائل في حقل الابحاث التي لم تتم على

حساب القطاعات الاقتصادية، بل على العكس في سبيل دفعها وتوجيهها نحو الصناعات ذات التقنيات المتطورة. بقي الدولار في المرتبة الأولى على الرغم من أنه لم يكن موضع ثقة كاملة من جراء تقلباته المفاجئة التي كانت تؤدي الى خلل يسيء الى شركات الولايات المتحدة. حرصت ادارة ريغان على اعطاء الأولوية المطلقة لبرنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة »، من دون الاهتمام بالجانب المالي الدولي. ولما كانت نسبة ٥٠٪ من التجارة الدولية تتم بالدولار وكذلك ٤٠٪ من القروض العالمية، فان فارق نقطة واحدة في قيمة الدولار يمكن أن يكون له نتائج وخيمة على الفاتورة الخارجية للدول الاخرى. ففرنسا، مثلاً وجدت فجأة عجزها يتزايد بمبلغ ٦٠ مليار، عام ١٩٩٠، من جراء ذلك، فيما ازداد الرصيد الاميركي بالقدر نفسه. والحال انه، بين الاعوام ١٩٨٠ و ١٩٩٠، تراوح تقلب الدولار بين ٦ و ١٠ فرنكات، الامر الذي يعطي فكرة عن مدى عدم التكافؤ بين الولايات المتحدة وشركائها.

الحق ان المسؤولين الاميركيين حرصوا على الاخذ بعين الاعتبار حاجة المستثمرين الاجانب الى النقد بالدولار من اجل اجتذاب الرساميل المتوافرة. اذا كانت الشركات المتعددة الجنسيات (٦ من اصل الشركات العشر الكبرى العالمية هي اميركية) اجتذبت الى الخارج ٢٣٠ مليار دولار، عام ١٩٨٥ (بنسبة ٧٥٪ الى الدول المتقدمة) فهي انجزت ٧٧٪ من الصادرات و ٥٤٪ من الواردات الاميركية، وحققت لصالحها ولصالح الدولة الفيديرالية ايضاً فوائض لصالح الميزان التجاري. كما أتاحت المرونة التي تمتعت بها هذه الشركات أن تندمج مع شركات أخرى داخل الحدود، وكذلك في اوروبا، من اجل السيطرة على المنافسين حتى في اليابان حيث كانت تندمج بشركات غير متوقعة.

سيطرت الشركات المتعددة الجنسيات على المبادلات النفطية والاغذية (مع كوكا كولا وبيبسي كولا)، والتقنيات الجديدة، وشبه

الموصلات والاتصالات اللاسلكية والناظمات الآلية والمعدات الجديدة وعلى شبكات المطاعم التي تعم اوروبا (ماكدونالد)، والاعلان وشبكات الفنادق. لقد كانت الاعلان الواضح للوجود الاميركي في الخارج.

كان ثمن هذه الخطوة المتقدمة التي اتاحت الازدهار الاقتصادي وتمويل الابحاث، باهظاً : ادى التراجع المالي الاميركي لصالح اليابان الى تنشيط المؤسسات الاجنبية العاملة في البلاد واعطت الانطباع بأن البلاد معروضة للبيع. فقد اجازت الليبرالية الريغانية لشركة طومسون الفرنسية ان تشتري ارسي اي وسوني وكولومبيا او ميشلان واونيرويال، تاركة مجموعات كاملة من الصناعة التقليدية، اثارت هذه العملية قدْراً كبيراً من الذهول لدرجة ان الحكومة اضطرت عام ١٩٨٥، الى اقرار تعديلات في القانون تجيز لها اخطار شركائها الاجانب بفتح اسواقها امام الصادرات الاميركية تحت طائلة المعاملة بالمثل. في الحقيقة، وظف الاميركيون في اوروبا وحدها ١٥ مليار دولار، عام ١٩٨٢ لشراء بعض الشركات. وقد رأى ريغان، لاسباب تتصل بالامن القومي، منع بيع اية شركة اميركية، كما حصل عام ١٩٨٩، بشأن شركة الطيران « نورث وست ». غير ان حركة المد والجزر في التجارة والمال في العالم المتطور لم تمتص العجز الاميركي، لكنها بالاحرى لم تؤدِ الى انقطاع تدفق الرساميل. وكانت تقلبات الدولار تسهّل اجتذاب الكتل النقدية التي كانت ضرورية لتنفيذ برنامج « المبادرة المتبادلة المضمونة ».

سيطرة التكنولوجيا الاميركية

امتلك رئيس الولايات المتحدة بين ١٩٨٠ و ١٩٩٠ شبكة اتصالات واسعة لشرح فكرته وتوضيح برنامجه. واذا كان الحكم في البيت الابيض، في عهدي فورد وكارتر قد شهد كسوفاً قصيراً من جراء فضيحة ووترغيت، فقد استعاد لمعانه البراق مع ريغان.

لا جدال حول تفوّق الولايات المتحدة في العالم، في حقل الاتصالات : وتتأكد زعامتها ايضاً في السيطرة على شبكات الاعلام والسينما وصنع ومبيع تجهيزاتها والتصميم والانتاج الاعلامي والسينمائي. « فالموجة الحرة للاعلام » اعطت اكثر من اي وقت مضى، تفوقاً للنظام الاميركي القادر على ادخال مواضيعه الهامة الى كل مكان من العالم الحر. كانت الاتصالات اللاسلكية الاستراتيجية موجودة منذ عهد كينيدي وشكلت شبكة ذات فعالية كبرى. واتاح « نظام الاتصالات القومي » للرئيس الحصول على الاتصالات مع العالم كله بصورة فورية مهما كانت الظروف. وسعت وكالة الاعلام الاميركي الى بث مجموعة من الاخبار من جانب واحد الى الخارج، وكانت هذه الاخبار تخدم المصالح الخاصة والاستراتيجية الاميركية.

تأكدت السيطرة على الاقمار الاصطناعية اعتباراً من الستينات، ضامنة للولايات المتحدة المركز الأول في حقل الاتصالات اللاسلكية الفضائية. اطلقت تلك الاقمار خلال ٢٤ عملية ناجحة، بين الاعوام ١٩٨١ و١٩٨٦، انشئت « مؤسسة الاتصالات الفضائية » (كومسات) عام ١٩٦٣، وضمت اربع صناعات رئيسية من بينها (اي.تي.تي.)، وافادت من القروض التي وفرها لها سلاح الجو الاميركي، لتصميم برنامج اطلاق الاقمار الاصطناعية الذي افاد منه اكثر من ٥٠٪ من مستخدميه الاميركيين. ٩٢٪ من الطلبات الموجهة الى تلك المؤسسة صدرت عن الشركات الاميركية. وباعت الشركات المتخصصة في التلفزيون الملون الى المانيا شهادة اختراع نظام ن.ت.س.ث. (الذي اصبح نظام بال) الذي غزا معظم شبكات التلفزيون العالمية (ما عدا فرنسا التي تستخدم نظام سيكام). ونشرت الاذاعات في كل مكان البرامج التي كانت تبثها محطات صوت اميركا. واجتاحت الافلام والمسلسلات المنتجة في الولايات المتحدة، الشاشات الصغيرة والكبيرة في العالم قاطبة، ناشرة

النموذج الثقافي الاميركي، والدعايات الناجحة، بفضل وكالات الاعلان العالمية للدعاية الاميركية.

بدا فشل اطلاق المكوك شالنجر، عام ١٩٨٦ انه نهاية توسع من جانب واحد، في الوقت الذي كان الاوروبيون (برنامج اريان) يسعون لخوض حرب تنافسية. اما « انترسبوتنيك » الذي اطلقه السوفيات، عام ١٩٧١، فقد اتاح قياس مدى التخلف الذي لحق بدول اوروبا الشرقية في حقل الاتصالات، اذ بلغت تجارتهم ٠,٣٪ مما حققه الاميركيون. اذا كانت تلك الانظمة في الدول الشرقية لم تشكل منافسة جدّية، بالمقابل، قامت انظمة خاصة لتأمين حاجات مجموعات خاصة. وهكذا اطلقت اي.بي.ام. القمر الاصطناعي « بوزنس سيستم ». وسعت مؤسسات اقليمية الى اختراق الاحتكار الاميركي مثل : اوتيلسات في اوروبا، وارابسات في الشرق الأوسط؛ وجاءت النتائج مشجعة اكثر من نتائج محاولة البث التلفزيوني المباشر عبر القمر الاصطناعي. وعانت فرنسا الخيبات مع التلفزيون الفرنسي القناتين الأولى والثانية، اذ ان القمر الفرنسي الالماني « ت. في سات » والبريطاني استرا لم يحظيا بجمهور واسع من المشاهدين. وفيما خص سوق المعدات السمعية ــ البصرية، فقد انتقل بصورة واسعة الى ايدي اليابانيين لأن نصف الاجهزة الملونة المباعة في العالم كانت من انتاج الشركات اليابانية. غير أن صناعة البرامج الاميركية كانت تغطي، عام ١٩٨٠، ثلث السوق العالمي، حيث شكّل ما تشتريه اوروبا من انتاج اميركي ٤٠٪ من التجارة العالمية للسلع السمعية ــ البصرية، وادى انتقال التلفزيون الفرنسي الى القطاع الخاص الى بروز هذه الظاهرة. وكان اليابانيون يتطلعون، في نهاية الثمانيات الى شراء الاستوديوهات والشركات السينمائية الاميركية من اجل الحصول على حصة في صناعة البرامج لا سيما تلك التي تحقق ارباحاً لارتباطها بالايرادات الاعلانية.

خلال ولاية ريغان المزدوجة (من الاعوام ١٩٨١ الى ١٩٨٨)، لم يتعرض التفوق الاميركي في حقل الاعلام لاي تهديد، واجتاحت مواضيعه السائدة العالم كله، سيما وان تأثير الصورة والخطاب المتلفز اصبح في اميركا حاسماً وشاملاً وغير مباشر. وبات من المتعذر عملياً التخلص من تأثير النظرة الأميركية إلى الحياة الاجتماعية والتي تعبّر عنها ألوف المسلسلات والافلام والالعاب التلفزيونية القائمة على الاعلان الدعائي، ومواجهة طغيان الصور التي ترعاها الغسّالات، وتجار التبغ والمشروبات الصحية. وغدا شرب الكوكا كولا طبيعياً مثل تدخين « التبغ الاشقر » — بعد زوال التبغ الاسمر من اذهان الاوروبيين الذين غمرتهم صور النجوم وهم يدخنون السجائر ذات الفيلتر — لم يسبق « لطريقة الحياة الأميركية » ان كان لها مثل هذه القوة للتسلل الى قلب المجتمع الجديد وتناولت المسلسلات الجديدة المترجمة الى كافة لغات العالم مواضيع متنوعة مثل معاداة العرقية التي سعت الى اعادة الاعتبار (لاحقاً) للقبائل الهندية المنقرضة، وظاهرة « الشباب »، ومحاربة العنف والمخدرات، والدفاع عن حقوق الانسان.

والطريف ان اميركا عادت تستلهم مع رئيسها الجديد، مواضيع ذات صلة بالعقيدة الفيتنامية والتسلح الخلقي الذي يصوّره مسلسل « رامبو »، فضلاً عن المواضيع المستوحاة من الشرق الاقصى حيث تذكرت الولايات المتحدة انها كانت قوة عظمى على ضفاف المحيط الهادئ.

بات متعذراً بصورة تدريجية توجيه الرسائل السياسية. فالصورة ازالت السياسة من اذهان الاميركيين. وتفوقت وسائل الاعلام السمعية — البصرية بقوة على ما عداها. خلافاً للصحف اليابانية، لم تعد تتجاوز كبرى الصحف المليون نسخة الا فيما ندر. وحدها صحيفة « وول ستريت تايمز » بلغت المليوني نسخة. والبقية تراوحت اعدادها بين ٧٠٠٠٠٠ والمليون. اما « التايم » و « نيوزويك » فكانتا تحتلان على

الرغم من طبعتهما الانيقة، المرتبة الثالثة عشرة، بين المجلات؛ وكانت محطات الاذاعة البالغ عددها ١١٠٠٠ تصل الى اسماع ٩٨٪ من الاسر، وتزودت الاكثرية الساحقة من السيارات باجهزة الراديو، فيما كانت اجهزة التلفزيون البالغ عددها ٩٠ مليوناً والموصولة بمعدل سبع ساعات في اليوم، تبث الانباء المجتزأة : لو كان نصف الاميركيين قد تلقّى، منذ ١٩٨٠، كل الانباء، عبر التلفزيون، بفضل شبكات سي.بي.اس، وان.بي.سي. وأي.بي.سي.، لكان عليه الاكتفاء بثلاث وعشرين دقيقة من الاخبار كل يوم، اي ما يعادل صفحة صغيرة من الجريدة. وقد علق مذيع الاخبار في شبكة سي.بي.اس، في حينه، عن الانباء المتلفزة بالقول انها « تنزلق نحو السطحية بشكل مأساوي ». وتلازمت البدايات المشجعة لشبكة التلفزيون الاخبارية سي.ان.ان. مع غياب وسائل الاعلام الكبرى. فكانت ديانا سوير، نجمة جريدة التلفزيون في شبكة سي.بي.اس. تجري بصوتها الناعم وضحكتها النقية، مقابلات سريعة وتنقل اخباراً قصيرة شكلت مع « البوب كورن » الغذاء الصباحي لعامّة الاميركيين. كان ريغان، وكذلك نيكسون يتحدث مباشرة الى الشعب الاميركي، حول المسائل الكبرى، معتمداً على موهبته كممثل من الدرجة الثانية، ويبدو انه كان ناجحاً في ذلك في واشنطن اكثر مما كان عليه في استوديوهات شركة وارنر.

رونالد ريغان : اميركي عادي

وصل « زورو » السياسة الاميركية الى السلطة في اعقاب حملة صاخبة. وقد شكل وصول هذا الممثل السابق بهذا الشكل الى السدة الرئاسية، مفاجأة كبرى. ورأى بعضهم في هذه الظاهرة تأثيراً حاسماً لوسائل الاعلام على السياسة، فيما لاحظ البعض الآخر نقصاً في المرشحين الاقوياء الخارجين من اسطبلات السياسة، الامر الذي اضطر صانعي القرار للاكتفاء بصورة الابطال الاعلاميين، محتفظين لانفسهم

بمسؤولية الخيارات الحقيقية. كما في اليابان، لم يكن العالم السياسي حينذاك سوى الانعكاس والوجه المرئي لتنظيم السلطات الذي يرتكز على تراتبية صناعية ومالية وعسكرية. وقد عززت حملة عام ١٩٨٨ التي خيبت الآمال، تلك الفرضية، اذ ابرزت المعركة السياسية فجأة كأنها مسرح خال حيث يلعب دور المأساة ممثلون من الكرتون. وان المقارنة بين مذكرات كيسينجر او نيكسون وتلك التي نشرها كارتر بالفرنسية مؤخراً، فيها الكثير من العبر على هذا الصعيد.

هذا لا يعني ان رئيس الثمانينات اخفق في الاضطلاع بمهمته. فالرئيس ريغان كان ينتمي مثل نيكسون الى فئة العصاميين القادمين من غربي البلاد. وهو يتحدر من اصل انكليزي واسكتلندي، ورأى النور في مدينة تامبيكو الصغيرة من مقاطعة ايلينوا؛ كان والده مستخدماً في متجر كبير فربّاه في جو من الفقر واحترام الدين والميل الى الطبيعة (كان كاثوليكياً وزوجته بروتستانتية). وارتاد رونالد في صغره كنيسة والدته. لعب كرة القدم واتقن السباحة. وادخلته والدته الى جامعة اوريكا الصغيرة، جنوبي ــ شرقي ديكسون والتي تنتمي الى طائفة « تلامذة المسيح » البروتستانتية. درس الاقتصاد، لكنه تفوق في مباريات كرة القدم الاميركية، الامر الذي اتاح له الافادة من منحة مخصصة للرياضيين. كانت والدته تعمل حينذاك خياطة، ووالده يدير متجراً للاحذية. بدأ ريغان حياته معلقاً رياضياً في احدى محطات الاذاعة في دافينبورت. كان والده في ذلك الحين، يصوّت لروزفلت واصبح موظفاً صغيراً فيما بقي ريغان يعمل خاملاً في الاذاعة. فجأة قرر الذهاب الى كاليفورنيا حيث سحرته استوديوهات السينما. حظي بلعب دور معلن في الاذاعة، في فيلم من الدرجة الثانية. ناضل بعد ذلك في نقابة « ممثلي الشاشة »، وقام بتمثيل سلسلة من الافلام. اما الدور الذي يفاخر به، في فيلم « كينغ رو »، فكان لعاشق خائف وقع ضحية طبيب جراح بتر له رجليه لانه اغوى ابنته. وسبق له ان خاض حرباً مرفهة في جهاز الاستخبارات التابع لسلاح الجو،

في لوس انجلوس. وبرزت صورة ريغان كرجل يحسن التصرف، خفيف الظل، وقد اتخذه احد الجنرالات مساعداً له. دخل الاستوديو، عام ١٩٤٥، وبحوزته ما يكفي من المال لشراء اول مزرعة لتربية الخيل، في وادي سان فرنسيسكو. الم يكن يتوق للعب دور « الكاوبوي » ؟ ها هو ريغان فارساً بعد ان كان لاعب كرة.

بدأ حياته السياسية مقاوماً للاضرابات ومحرضاً على مناوأة الشيوعية، وتابع التمثيل حيث لعب اكثر من ٥٠ فيلماً، في ادوار الرياضيين. ورعاة البقر (الوسترن). تزوج من نانسي الذي التقى بها على الحلبة، قبل ان يصبح نجماً لاحدى المسلسلات التلفزيونية. واستخدمت شركة جنرال الكتريك شخصيته الشعبية وعينته ملحقاً صحفياً لديها. تولى في كاليفورنيا حملات الديمقراطيين الانتخابية، وقيّض له ان يهزم نيكسون، عام ١٩٥٠. وصوت للجمهوريين لاول مرة منتخباً ايزنهاور، ورفض بعد ثماني سنوات تأييد كينيدي. وعندما حاول نيكسون، من دون جدوى، الوصول الى منصب حاكم كاليفورنيا، عام ١٩٦٢، انتسب ريغان الى الحزب الديمقراطي. وبدأ حياته السياسية الطويلة. كان عليه الانتظار، لأن نجم كينيدي كان يلمع في سماء الديمقراطيين. ولفت ريغان الانظار اليه، بفضل خطاباته الفعالة التي القاها، عام ١٩٦٠، في التلفزيون لمصلحة غولدواتر، ثم فاز، عام ١٩٦٦ في اول معركة سياسية حين انتخب حاكماً لولاية كاليفورنيا.

تميّز، اثر انتخابه بسعيه الدؤوب الى تخفيف النفقات الادارية، وبتساهله العرقي، لكنه واجه بحزم الاضطرابات الطلابية والتظاهرات، من دون ان يبدو شديد العنف في التصدي لها. وخاض معركة قاسية مع مراجع الحزب من اجل تسمية نيكسون ضد روكفلر. عام ١٩٧٦، ترشح ضد فورد في المؤتمر الجمهوري. وساعدته لهجته المتشددة على التفاف العديد من المناصرين حوله، لكن فورد تفوّق عليه، فكانت تلك هزيمته

الاولى. اما الثانية فلم تكن بعيدة، اذ اضطره انتخاب كارتر للعودة الى الاستوديوهات الاذاعية حيث تمكن من توجيه النقد الى ادارة وجد انها تنتهج الانهزامية في الخارج والتبذير في الداخل.

في ١٣ تشرين الاول ١٩٧٩، اعلن في فندق هيلتون، في نيويورك عزمه على ترشيح نفسه. واخذ يضاعف من الاجتماعات في البلاد، متحدياً خصمه الجمهوري جورج بوش. وفاز في الانتخابات الاولية في نيوهامشاير، وبدأت صورته تبرز على شاشة تلفزيونات العالم بفعل خطاباته المتشددة. كان يبدو حينذاك منافساً ضئيل الحظ، يمثّل الحلم الاميركي بالثأر من المهانة التي لحقت بالبلاد من جراء حرب فيتنام. وكان يسحر الجمهور بالحديث عن الاساءة التي لحقت بالبلاد من جراء مشكلة الرهائن في ايران. وعندما كان يتحدث عن ان القوات المسلحة هبطت الى مستوى خطير، وان نصف السفن الحربية لا تستطيع الابحار من جراء النقص في البحّارة او في قطع الغيار، وان الطائرات لا تستطيع التحليق للأسباب ذاتها، فإنه كان يخطب في رأي عام محافظ مقتنع مسبقاً بما يقول له. عندما اعلن على التلفزيون، بابتسامته المشرقة، ان اجمل سني اميركا لم تأتِ بعد، كان يستعيد اسطورة « الحلم الاميركي » الذي عجز كارتر عن استحضارها. كان سلفه ينعته « بالعنصري، والمنادي بالحرب »، لكنه لم يكن يبالي، اذ كان يلقى دعم اولئك الذين كانوا يعتقدون بأن التسلح بات ضرورة ملحة.

زيادة التسلح في عهد ريغان

لا شك انه لم ينجح في السنوات الثلاث الاولى من رئاسته، في ازالة آثار الازمة، مع ان محاربة التضخم والبطالة وارتفاع معدلات الفائدة، كانت كلها اولى الاهداف التي سعى لتحقيقها. ذلك ان تخفيض الضرائب الذي وعد به ناخبيه، لم يكن يتلاءم مع السياسية المالية التي

يدعمها مستشاروه. ولم يكن يستطيع الاتكال على الكونغرس للدفاع عنه، لأن غالبية مجلس الممثلين من الديمقراطيين. وتحقيقاً لبرنامجه المتعلق بخفض الضرائب، ظهر الرئيس على التلفزيون في محاولة لامتصاص النقمة.

لم ينجح في اعادة التوازن الى الميزان التجاري، اذ تواصل غزو السيارات اليابانية للبلاد، وتعالت شكوى مصدري التبغ الاميركي. كانت اليابان تفتح لهم حدودها بصورة مبدئية، لكنها كانت تفرض اللغة الانكليزية في الاعلانات الدعائية، الأمر الذي جعلها عديمة التأثير. على الرغم من المنافسة، ظل يدعم مبدأ حرية التجارة في ظل دعوة الديمقراطيين لاتخاذ مزيد من اجراءات الحماية. مع ذلك، نجح في اقناع اليابانيين بالموافقة على الحد بأنفسهم من تصدير السيارات تحت طائلة اتخاذ اجراءات ثأرية. عام ١٩٨١، لاحظ ان خفض الضرائب ومحاربة التضخم لن يكون لهما تأثير يذكر على الموازنة، وان توفير اربع مليارات دولار لن تستطيع تعويض انخفاض الايرادات، من جراء الركود الاقتصادي القائم. ازداد العجز، بدلاً من ان ينخفض، حتى بلغ قمة ٢٠٠ مليار دولار والانتخابات المقبلة لعام ١٩٨٤ مرشحة لان تكون سيئة.

كذلك لم تحقق محاربة الشيوعية النتائج المرجوة، اذ كان بريجنيف يواصل دسائسه الاستعمارية، ليس فقط في المحيط الهندي، بل حتى في اميركا نفسها. والحكومة الماركسية في نيكاراغوا كانت تزود ثوار السالفادور بالاسلحة السوفياتية المستوردة من كوبا. وفي انغولا، استولى الكوبيون على السلطة، فيما كانت موسكو تقيم قواعدها في الحبشة؛ كتب ريغان رسالتين الى بريجنيف للاحتجاج « ضد سعي حثيث يثير القلق للتفوق العسكري »، وللتأكيد على ان كل بلد له الحق باختيار « مؤسساته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ». وفي محاولة لفتح الحوار، رفع الحظر عن الحبوب الذي فرضه كارتر اثر غزو افغانيستان،

الأمر الذي اثار استياء المزارعين. غير أن الردّ البارد لبريجنيف اقنعه بأن العودة الى التسلح يمكنها وحدها دفع السوفيات الى استئناف المحادثات.

هل اميركا قادرة بعد على الايفاء بالتزاماتها العالمية ؟ اثار تزويد المملكة العربية السعودية بطائرات اواكس، استياء الطائفة اليهودية في نيويورك، لكن ارسال الاسطول السادس الى عرض السواحل الليبية، بغية تخويف القذافي وردعه عن مساعدة الارهاب، كان علامة حازمة تأكدت باختبار قوة حقيقي. كان الليبيون المزودون بالسلاح السوفياتي، يهددون السودان والتشاد. واسقطوا طائرتين اميركيتين تابعتين لحاملة الطائرات نيميتس. فقامت طائرات من طراز ف ١٤ بالاخذ بالثأر على الفور. وكان ريغان قد وافق على ارتداء بزة مضادة للرصاص عندما حذرته وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.إي.) بوجود مشاريع ارهابية ليبية تستهدفه. وبدا ان اغتيال السادات كان يؤكد هذا التشاؤم. فهل كان رؤساء الدول في العالم تحت رحمة « العقيد المجنون » ؟

وجّه ريغان، عبر القمر الاصطناعي، الى الرأي العام العالمي، خطاباً حول ضرورة العودة الى مفاوضات السلام. فهل اصغى اليه احد ؟ كان يعتبر ان نزع السلاح يرتبط بالعودة الفورية الى التسلح على كافة الجبهات. وعَرض على اوروبا صواريخ معترضة وبيرشينغ ٢، في وجه الصواريخ س.س. ٢٠ التي يوجهها الاتحاد السوفياتي نحوها. واستعجل انتاج الطائرة المقاتلة من طراز ب ١ التي اوقف كارتر صنعها، وكذلك الطائرة الخفية القادرة على التسلل عبر اجهزة الرادار السوفياتية. واضاف انه من الضروري « بناء اسطول من السفن والطائرات والاقمار الاصطناعية » من اجل « التفاوض من موقع القوة وليس الضعف ». لهذا الغرض، اضطلعت وكالة الاستخبارات المركزية بمهماته في اميركا اللاتينية، حيث اعدّ بيل كازي برنامجاً سرياً لمساندة القوى المناهضة للساندينية ومحاولة الحد من تدفق السلاح الذي ترسله كوبا الى

نيكاراغوا والسالفادور. وشكّل انصار كازي « نواة الكونتراس، المقاتلين في سبيل الحرية في نيكاراغوا ».

كان الشيوعيون يشكلون خطراً لا سيما في الفيليبين، حيث يواجه الرئيس ماركوس تهمة اغتيال الديمقراطي بينيو اكينو. واكّد الكاردينال سين، اسقف مانيلا ان على الديكتاتور الرحيل، وان الفساد المستشري لا يخدم سوى قضية رجال العصابات الشيوعية. اعتقد ريغان في البداية، ان نظام ماركوس قادر وحده على توفير حماية فعالة للجزر ضد التخريب ويتيح للاميركيين الابقاء على قاعدتهم في سوبيك باي وعلى مطار كلارك، وكلاهما من اقوى القواعد في العالم. طلب ريغان الذي كان يستشعر خطر مأساة سياسية، الى الشيوخ بالانتقال في بعثة الى الفيليبين. فنقلوا عنها وجود قوة ثورية تدعى « السلطة للشعب » تتهيأ لشن الحرب الاهلية وانهم اقنعوا ماركوس باجراء انتخابات فورية. وكانت كورازون اكينو ارملة الزعيم الراحل المرشحة الخصم في تلك الانتخابات.

كلف ريغان، مبعوثه الخاص فيليب حبيب، التفاوض حول السلام في مانيلا، حيث وصل الطرفان الى حافة الحرب الاهلية، بعد الانتخابات المزروة. وانضم بعض الجنرالات الى حزب كوري اكينو، ورغب ماركوس في استخدام الدبابات. في خلية الازمة في البيت الابيض، كان مصير ماركوس مطروحاً على البحث : جورج شولتز الذي حلّ محل هايغ على رأس وزارة الخارجية، ومستشار الامن جون بوينت ديكستر، بيل كازي رئيس السي آي اي، جميعهم خفضوا ابهامهم، اشارة الى وجوب رحيل ماركوس. اما ريغان، الذي تذكّر المعاملة التي لقيها شاه ايران، وتيو وعدد من حلفاء الولايات المتحدة، فقد وجد العزاء لكونه وفرّ لماركوس منفى رائعاً في جزر هاواي. كما اطمأن الى ان كوري اكينو مصممة تماماً على « محاربة الثوار ». وبذلك يكون النظام الموالي لاميركا مستمراً في الفيليبين، ولم يلحق به سوى تبدّل في الاشخاص.

لم يكن موقع الولايات المتحدة من القوة الكافية بحيث تستطيع فرض السلام في الشرق الأوسط، اثناء الازمة اللبنانية، وقد قاسى نفوذ ريغان من ذلك، حين اصبحت قوات البحرية الاميركية، هدفاً للنار في شوارع بيروت. كما ان بوارج الحرب العالمية الثانية التي ارسلت على عجل من قاعدتها في سان فرانسيسكو، فتحت النار على السواحل اللبنانية من دون نتيجة ــ واتصل به هاتفياً والد احد البحارة القتلى يقول : « هل نحن في بيروت لسبب يستوجب موت ابني ؟ » عند ذاك، كانت شعبيته في ادنى درجة، ومحضه الكونغرس تأييده بازدراء واضح. لكنه قال : « ثمة في بلادنا شعور انعزالي عميق ». هل سيكون ريغان اللبناني، كما كارتر الايراني، رمزاً جديداً للمهانة ؟

هل يكفي تسديد ضربة في جزيرة غرناطة، على بعد ١٥٠ كلم الى الشمال من فينزويلا، والمهددة بخطر تآمر اتباع كاسترو، ان ينسي الرأي العام، ٢٤١ قتيلاً من البحارة الاميركيين في بيروت ؟ اتهم الشيوخ ريغان بأنه ينوي ان يجعل من جزيرة جوز الطيب « فيتنام جديدة ». كيف يمكن اعادة تسليح بلد لا يحتمل اصغر حملة عسكرية ضد اصغر دولة في الكاراييب ؟ عبثاً دافع الرئيس عن وجهة نظره بأن « الاتحاد السوفياتي وكوبا قد موّلا الماركسيين في غرناطة في اطار خطة تهدف الى نقل الشيوعية الى المنطقة، ولم يشأ احد الاعتقاد بأنه كينيدي الجديد لقضية صواريخ سوفياتية اخرى.

كان عليه، من اجل خوض المعركة ضد اورتيغا في نيكاراغوا، ان يستخدم طرقاً ملتوية، وتنظيم الكونتراس سراً وتسليحهم بوسائل غير شريفة. هدد شولتز بالاستقالة مرات عدة، بسبب تحركات كازي السرية، وابدى الكونغرس معارضته عندما بلغه خبر دعم الكونتراس. ودافع ريغان بالقول، ان المساعدة المقدمة الى رجال المقاومة ضد الشيوعيين في السلفادور بدأت منذ عهد كارتر. وارتفعت اصوات عدة تندد، باسم

حقوق الانسان، بفظائع الحرب الاهلية في نيكاراغوا. اتهم ريغان بأنه يساند مجموعة فاشية تستخدم الاساليب الارهابية. عبثاً رد الرئيس بأن « اعراض مرض اصاب البلاد اثر حرب فيتنام » وقد وقع الشيوخ والصحافيون ضحية حملة تضليل يقودها الساندينيون وانصار السلفادور. وقد نظم دانيا اورتيغا رحلات للصحافيين والنواب الاميركيين الراغبين في الاطلاع ميدانياً على تقدم الديمقراطية في تلك البلاد. استاء الرأي العام السياسي من العملية الاميركية. لكن حياة الكونتراس كانت « عزيزة » على قلب الرئيس الذي شاء ان يثبت، امام ناخبيه، عن حزم في معركته ضد الشيوعية. وعانى الكثير من غياب اي دعم اعلامي له في تلك العمليات خارج الحدود، اذ بقي الاميركيون مقتنعين، على الرغم من اتساع رقعة الارهاب في الشرق، وحرب العصابات الشيوعية في الكارايبب، بأن على وزارة الدفاع والرئاسة ان تحترما مبادئ عدم التدخل، والدفاع عن حقوق الانسان. كيف سيقبل الاميركيون مبدأ اعادة التسليح ؟

السياسة الدفاعية الجديدة

عرض الرئيس مبدأ « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » على التلفزيون بنجاح كبير، على أنها وسيلة حديثة لمحو « التدمير المتبادل المضمون »، وقال : « هذه الفكرة لا تبدو لي انها تتيح النوم الهانئ. انها تشبه رجلين من الغرب الاميركي يقفان وجهاً لوجه، في حانة، ويحمل كل منهما سلاحه الموجه الى رأس الآخر ». كانت « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » عبارة عن نظام دفاعي يحمي المدنيين ويتيح التفاوض مع السوفيات على قواعد اخرى. واعلن ريغان أنه يعارض مفاوضات سالت ٢ لانها لا تتيح تخفيض مخزون الصواريخ الهجومية السوفياتية اكثر من سالت ١. وكان هذا المخزون قد ازداد بالفعل كثيراً. واكد ريغان، ويده على قلبه، انه لا يحتمل ان تتسبب نظرية استراتيجية بموت ١٥٠ مليون « نفس اميركية ». لا يمكن أن تقوم « لعبة بايزبول » ذرية. وهو لا يرغب في مغازلة

« المحرقة النووية ». في الخلاصة القى خطاباً سلمياً لتبرير اعادة التسلح.

ان استخدام الوسائل الدفاعية الناشطة لازالة الوسائل الرادعة يفترض اعداد برنامج مهم لانتاج الصواريخ المضادة للصواريخ حيث ينبغي ان تكون فعاليتها تامة. والتسلح النووي يجد مبرره الاخلاقي في انه يتيح انقاذ الحياة. وقد قوّم الجنرال ابراهامسون الذي عيّن، عام ١٩٨٤، على رأس هذا البرنامج، حدود هذا التسلح بالقول : كيف يمكن تصور ان برنامج الحماية قادر تماماً على الحلول محل الاسلحة الهجومية ؟ في الواقع، يسعى برنامج « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » الى تعزيز سباق التسلح، ووظيفته هي الدفاع بالافضلية عن المواقع والقواعد البحرية والاهداف العسكرية للحفاظ على امكانية الرد. احتج الاوروبيون بشدة، على رأسهم الالمان والفرنسيون، ضد برنامج ينظم محاربة الصواريخ البعيدة المدى وليس مثلاً محاربة الصواريخ س س ٢٠. وكانوا يخشون ان يؤدي برنامج « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » الى تعزيز التسلح الكلاسيكي ومشتقاته من السلاح الكيميائي والبيولوجي، في اوروبا، وان تكون المظلة النووية الاميركية ذكرى نظرية لماضٍ رحل.

حققت الاندفاعة الريغانية نتيجة ملموسة تمثلت في رفع موازنة الدفاع (على الرغم من معارضة العديد من اعضاء مجلس الشيوخ، لكن انضمام الديمقراطيين الجنوبيين الى الغالبية الجمهورية انقذ المشروع) من ١٥٠ الى ٣٠٠ مليار دولار، في عشر سنوات. لم يكن الجهد المبذول منصباً على حرب النجوم وحدها، بل انطوى على اعادة تحديد شاملة للمعركة من خلال اكتشاف سلسلة من الاسلحة الجديدة المتطورة والباهظة الثمن، كالاسلحة « الذكية » المنتجة بفضل تصغير الاجهزة الالكترونية بحيث امكن توجيه القذائف نحو اهدافها المحددة. الى ذلك، ثمة اجهزة بصرية في غاية الحساسية تعمل بواسطة الرادار او اللايزر او الاشعة دون البنفسجية، وتتيح المراقبة بواسطة الاقمار الاصطناعية

والتصويب من مسافات بعيدة. والصاروخ الجديد من طراز ام اكس الذي عمل كارتر على تعجيل صنعه بدأ انتاجه بمعدل ٥٠ صاروخاً اعتباراً من عام ١٩٨٠، وكان هذا الصاروخ الباهظ الكلفة مجهزاً بعشرة رؤوس مستقلة وموجهة نحو الهدف الذي يمكن ان تخطئه بمنسافة لا تتعدى ١٢٠ متراً، بعد مسار طوله ١١٠٠٠ كلم دون توقف. اما « الشوكة الثلاثية د ٥ » (رمز نبتون اله البحر) التي تطلق من الغواصات، فكانت تتميز بذات المواصفات العالية. والرؤوس تمتلك دقة في اصابة الاهداف ولا يتجاوز هامش الخطأ فيها بضعة امتاز، وهناك اهداف متحركة يمكن تدميرها على بعد ٣٠٠ كلم قبل وصولها الى ساحة المعركة.

بناء عليه، اصبحت الحرب التقليدية متعذرة، وشجاعة الرجال وذكاء المخططين من دون جدوى. فالناظمات الآلية تتولى توجيه الاوامر وتشرف على التحرك في آن؛ وانتشار الاسلحة الذكية جعل الحرب النووية عديمة الجدوى، الا اذا اصيب دماغ العدو في لحظة اندلاع النزاع بحيث يصبح كل ردّ متعذراً. وحده برنامج « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » يستطيع منع تشغيل منصات الاطلاق لدى العدو. لا شك ان اية مقاربة تقليدية بوسائل متطورة ترتكز على القوة المتنامية للقذائف غير النووية وعلى توجيهها، يمكنها ابعاد شبح الحرب النووية عن ساحة المعركة وجعل الحرب التقليدية بحلتها الجديدة ممكنة.

تلقت المجموعة العسكرية ــ الصناعية، اذاً، الوسائل التي تتيح لها ليس فقط انتاج الصواريخ المضادة والاقمار الصناعية المعدة عسكرياً لحرب النجوم، بل تطوير الاسلحة « الذكية ». وكان هذا الاختصاص اميركياً محضاً، اذ بين المؤسسات العالمية العشرة الأولى، كانت لثمانٍ منها مراكز في اميركا، وارقام مبيعات تجاوزت ٨ مليارات دولار، لكل من ماك دونيل ــ دوغلاس، او لوكهيد او جنرال ديناميكز. على الرغم من اقدام الكونغرس، عام ١٩٨٥ على اقرار قانون غرام رودمان الذي

فرض على الرئيس الحد من النفقات الفيديرالية، وتخفيض نفقات الدفاع الى النصف، فقد ظلت ميزانية الدفاع تشكل حتى عام ١٩٨٨ ٢٥٪ من مصاريف الدولة. واحتفظت اميركا بشبكة قواعدها الرئيسية في العالم، من القطب الجنوبي الى كوريا، ومن الكاريبب حتى الفيليبين.

اما ريغان فقد اعلن عالياً الخطوط العريضة لمبدأ تدخل الدولة الجديد، في وجه « زمرة الثياب المرقطة » في وزارة الدفاع، ومجلس الشيوخ وصحافة واشنطن: ان الولايات المتحدة على استعداد لمساعدة « كل الذين يرغبون في النضال من اجل حريتهم ضد الشيوعية، اينما كانوا ». كما اخذ يفاخر بمحاربته لمبدأ « الجمود النووي » الذي اثار تظاهرات عديدة في الولايات المتحدة واوروبا الغربية وسعى في الكونغرس للابقاء على الطائرة القاذفة ب ١ والصاروخ ام اكس. وفيما ابدى ارتياحه لانخفاض معدل تدخين الماريجوانا من ٥٠ الى ١٦٪ في صفوف جنود ١٨ كتيبة عاملة في الجيش الأميركي، وان معدل الانخراط في الجيش في ارتفاع ملحوظ، اعرب علانية عن دهشته للخلل في السلاح التقليدي لصالح الاتحاد السوفياتي الذي اخذ يخصص في موازنته العسكرية من الاعتمادات اكثر من اي وقت مضى.

كانت موسكو تتفوق بنسبة الثلث مما تمتلكه من الصواريخ العابرة للقارات، ولديها ٦٠ غواصة مجهزة بصواريخ موجهة انتجت منذ ١٥ سنة، في حين ان الولايات المتحدة لم تنتج غواصة واحدة، طيلة هذه المدة. فضلاً عن ذلك، ثمة مئتا طائرة قاذفة من طراز « باكفاير »، قادرة على القيام بمهمات استراتيجية بعيدة المدى وبسرعة كبيرة، فيما لم يكن الاميركيون قادرين على مواجهتها بغير طائراتهم من طراز ب ٥٢ « القديمة قدم طياريها ». وبنى السوفيات اكثر من ٦٠٠ موقع عسكري لحماية الصواريخ المتوسطة المدى. وقدرت المهلة اللازمة بما لا يقل عن خمس سنوات لانتاج ما يوازي او يفوق هذه المجموعة من الاسلحة

السوفياتية. بدأت ورشة انتاج الاسلحة الحديثة التي سوف تجعل من اميركا دولة مخيفة الجانب، في عهد ريغان، بعد ان كان كارتر قد باشر بها وواجهت معارضة شديدة من قبل انصار السلام والليبراليين ولا سيما معارضة باتي، ابنة الرئيس التي كانت تناضل في سبيل الحد من التسلح النووي.

عام ١٩٨٢ : عودة الحرب الباردة

اكد الرئيس الاميركي عدم جدوى سياسته حول التسلح اذا لم تفضِ الى مفاوضات جديدة حول نزع السلاح مع الاتحاد السوفياتي. وبوفاة بريجنيف عام ١٩٨٢، بدت هذه المفاوضات قريبة المنال. فهل سيكون اندروبوف، الرئيس السابق لجهاز ك.ج.ب، اكثر انفتاحاً من سلفه، صياد الخنازير البرية.

لا شيء كان يدلّ على ان امين سر اللجنة المركزية الذي تبوأ السدة الاولى سوف يغيّر سياسة سلفه. وقد اكتفى بضبط شؤون الادارة بعد موجة الفساد والمحاباة التي استشرت في البلاد. اذ ان ابنة بريجنيف، غالينا قد تورطت في « فضيحة الالماس »، على نحو اساء الى هيبة الحكم بقدر ما اساءت اليه القصة الشهيرة التالية التي انتشرت في كل انحاء البلاد الروسية : زوّج عضو المكتب السياسي رومانوف، ابنته، مستعيراً ادوات المائدة من قصر الامبراطورة كاترين الثانية. والتجاوزات العديدة لصهر بريجنيف يوري شوربانوف الذي عين وزيراً للداخلية، كانت ترسّخ لدى الجمهور القناعة بأن جماعة « النوما نكلاتورا » كانت وراء النقص في السلع الغذائية بغية الافادة من السوق السوداء. وكان من غير الجائز لاندروبوف التشدد في فرض النظام في امكنة العمل قبل تنقية الادارة والحزب، الامر الذي انجزه عبر اجراء رقابة على كافة المستويات، واستبدال العديد من المسؤولين. غير أن السياسة السوفياتية بحد ذاتها لم تتبدل، وبقي الفريق العسكري ــ الصناعي محتفظاً بكافة صلاحياته.

بقيت الاولوية التي كان يعطيها بريجنيف للامن الاوروبي من دون تغيير. اذ كان يعتقد ان زيادة التسلح في اوروبا هي السبيل الوحيد للابقاء على الجمهوريات الشعبية ضمن حلف فارصوفيا، في الوقت الذي كان الاتحاد السوفياتي يجازف بتوريط جيشه في افغانيستان. وقد عززت احداث بولونيا هذا الشعور لديه ـــ كما كانت الصواريخ من طراز س س ٢٠ ورقة رابحة في اية مفاوضات شاملة محتملة. ولما كان الاميركيون يسلحون الثوار الافغان اكثر فأكثر، كان من الملائم مهاجمتهم في الجانب الاضعف من دفاعهم، اي في اوروبا حيث يواجه حلف الاطلسي صعوبات شتى ويفتقر الى تأييد الرأي الالماني الغربي المناهض للحرب والخدمة العسكرية. وهمس غروميكو، الذي ما يزال يحتفظ بحقيبة وزارة الخارجية في اذن اندروبوف بوجوب انتهاج سياسة الحزم. فلم يقدّم اي تنازل يذكر في مسألة الصواريخ س س ٢٠ التي كانت تقض مضاجع الاوروبيين. وادى اسقاط الطيران السوفياتي، في الاول من ايلول ١٩٨٣، لطائرة بوينغ كورية جنوبية الى اثارة وسائل الاعلام الاميركية ضد النظام السوفياتي لدرجة ان اندروبوف اعلن، في معرض حديثه عن « التحريض المتطور »، عن نيته تعزيز شبكة الصواريخ. ولم تتم العودة الى العلاقات الطبيعية، في عهد خلفه تشيرنينكو، الا بعد اعادة انتخاب ريغان لولاية ثانية عام ١٩٨٤. واستبدل « الماريشال » اوستينوف (وكان مدنياً)، بوزير عسكري في وزارة الدفاع، كما لو ان الجيش التقليدي كان يشترط عودة التوازن بين السلاحين التقليدي والنووي. في الواقع شهدت تلك الحقبة اشتداد ازمة الانتاج الزراعي والصناعي في الاتحاد السوفياتي لدرجة باتت تؤثر في قدرة البلاد على الاستمرار في سياسة التوسع الاستعماري والعسكري.

ثمة في مذكرات ريغان، جملة من الاشارات الدالّة على ان البيت الابيض كان مطلعاً على الخطوط العريضة لهذا التطور وان التصلب الذي ابداه الرئيس ناجم عن القناعة بأن الانهيار الاقتصادي لدى الخصم بات

وشيكاً. وقد دفعه ذلك الى مزيد من التمسك بموقفه لصالح برنامج « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » والتسلح. واعلن لرابطة القساوسة الانجيليين التي جاءت تستوضحه حول هذا الموضوع بأن « الجمود النووي اليوم سوف يوفّر على السوفيات بذل جهود عسكرية ضخمة. ويحول دون تحديث انظمتنا الدفاعية ». وفي ٢٣ آذار ١٩٨٣،القى خطابه على كافة اقنية التلفزيون حول الامن القومي، داعياً العلماء لايجاد الحلول للمشكلات التكنولوجية التي يطرحها برنامج الدفاع الاستراتيجي. لكن الخطاب كان كضربة السيف في الماء، اذ اشارت استطلاعات الرأي ان الرئيس لم يقنع الاميركيين ببذل جهد عسكري جديد، في الوقت الذي تعاني الموازنة من عجز متفاقم. وعلق ريغان بمرارة : « مهاجمة الدعاية المناهضة للسياسة الدفاعية افقدني بعض النقاط ».

مع ذلك، لم ييأس، وشن هجوماً معاكساً في الكونغرس، بعد اسقاط طائرة البوينغ الكورية بواسطة الميغ. وشاهد في كامب دافيد شريطاً سجلته الـ ب.ب.ث. هذا الفيلم، بعنوان : « اليوم التالي »، وقد انفق على انتاجه ٧ ملايين دولار وحظي اطلاقه في السينما بدعاية واسعة، يصور تدمير مدينة لورنس في تكساس بواسطة صاروخ نووي سوفياتي. « انه فيلم في غاية الفعالية »، علّق ريغان، آسفاً لأن المخرج لم ينجح في بيع اية دعاية عن هذا الفيلم. كيف له ان يفعل خلاف ذلك ؟ فالرعب لا يتوزع في علب مسحوق الغسيل الا اذا كان خيالياً وغير مؤذٍ.

عند ذاك اعطى الرئيس الضوء الاخضر لاستعجال الابحاث حول مشروع الدفاع الاستراتيجي. وطالبت مجالس النواب في المانيا وبريطانيا وايطاليا بصواريخ برشينغ ٢ وتوماهوك. و « الجمود النووي » اصبح ذكرى اليمة لدى ريغان، مشيراً الى ان « اميركا عادت الى سابق عهدها »، معتقداً ان الفرصة اصبحت مؤاتية لفتح باب مفاوضات السلام من جديد. استمرت الحملة الاعلامية، وتحدث جورج شولتز شخصياً

الى محطة « اي.بي.سي نيوز »، بعد عرض فيلم « اليوم التالي ». فردّ السوفيات بشن حملة اعلامية في اوروبا ضد نشر الصواريخ الاميركية. وانضم انصار البيئة في المانيا والدانمارك والنروج الى تأييد هذه الحملة. وفي ١٦ آذار ١٩٨٤، امتطى ريغان حصانه والقى خطاباً حول السلام بالقوة؛ بثته كل محطات التلفزيون الاوروبية، استمر تشيرنينكو في معارضته اقامة النظام الدفاعي الاميركي وضاعف من عدد منصات اطلاق الصواريخ س س ٢٠. وقررت موسكو مقاطعة الالعاب الاولمبية في لوس انجلوس، رداً على سحب الفريق الاميركي من موسكو، عام ١٩٨٠، والذي قرره كارتر في اعقاب غزو افغانيستان. ووصلت الامور الى الدرك الادنى، حتى ان السوفيات تجرأوا على مطالبة ريغان بوقف برنامج الدفاع الاستراتيجي. فردّ على الفور بأن « هذا البرنامج ليس سلعة للمقايضة ». والجانب الامني الذي يوفره على درجة عالية من الاهمية كي يطرحه في سوق المساومة.

بدت كل المخارج مسدودة حين ذاع، في واشنطن نبأ وفاة تشيرنينكو في ١٠ آذار ١٩٨٥. ولم يكن ريغان يعرف خليفته غورباتشيف. وقال لزوجته : « كيف يريدون مني ان اؤسس مع الروس اذا لم يكفوا عن صفق الباب في وجهي ».

عام ١٩٨٥ : غورباتشيف في الحكم

بعد تجديد انتخابه عام ١٩٨٥، لم يكن لريغان ما يدعوه للقول بأن غورباتشيف لن يكون « عنيداً كالآخرين ». فها هو يسارع من جديد الى تقديم الدعم المالي والعسكري السوفياتي الى الساندينيين في نيكاراغوا، كما يحتج، مثل سلفه، على نصب صواريخ بيرشينغ في اوروبا، ويعتبر مشروع الدفاع الاستراتيجي خطوة خطيرة على صعيد السلام حتى في مرحلته الحالية. لكنه وافق على عقد لقاء في جينيف. هل كانت لدى

ريغان فكرة صحيحة عن التغيير الجاري في الاتحاد السوفياتي ؟ ماذا كان يعرف بالضبط عن غورباتشيف ؟

اشارت كل المعلومات التي زودته بها وكالة الاستخبارات المركزية عنه انه ينتمي الى جهاز الحزب ويشبه النموذج السوفياتي، الا أنه اكثر شباباً من الآخرين. وكان مثل ريغان، ويتحدر من جنوبي السهل الروسي (بريفولنوي)؛ ولد في قرية كبيرة قوازقية تبعد ١٦٠ كلم عن مدينة ستافروبول. كان جدّه رئيس الكولخوز، ونال ميدالية الشجاعة في معركة دنيبير. لا اثر للتعامل مع العدو، خلال الحرب، في اسرة غورباتشيف. بدأ الشاب عمله في الكولخوز، في الثالثة عشرة من عمره، وساند والده الذي كان يرغب في مساعدة ستالين على كسب معركة المواسم. وهو فخور بوسام العلم الاحمر للعمل الذي يحمله الى جانب الميدالية التي كانت خير معين له، وهو الفلاح الشاب، للدخول الى كلية الحقوق في موسكو. وسرعان ما انتسب الى مكتب الشبيبة الشيوعية في الجامعة حيث بدأ، في ظل عهد ستالين مسيرته السياسية الفعلية — في الوقت الذي كان فيه ريغان يناضل في نقابة ممثلي كاليفورنيا المناهضة للشيوعية. خلال حقبة القضاء على الستالينية، حاذر الشاب لفت انتباه رفاقه في موسكو الى مشاركته في حركة الاحتجاج. ربما كان يميل الى المطالبة بانتخابات « حرة ونزيهة » شرط ان يكون المرشحون من الشيوعيين. كانت رايساتيراتينكو، التي تزوجها يومئذ، تتحدر من اسرة عامل في سكة الحديد، تتمسك بأهداف الحزب كثيراً. بعد انهاء دروسه، لم يكن لغورباتشيف ان يطمح لمنصب في العاصمة، لكونه من غير ابناء النظام. وقبل اشغال وظيفة في منطقته، في اتحاد الشبيبة الشيوعية في ستافروبول. وسرعان ما اصبح امين السر الاول لهذا الاتحاد وعضو قيادة الحزب في المدينة. على الرغم من عدم تشيّعه لستالين، رفض استبدال اسم ستالينغراد. إنه شيوعي يحب وطنه ويرغب في ان يتقدم النظام بفعالية اكثر وبدرجة من الايمان توازي ما كان عليه ايمان الجدود.

تناولت رايسا في اطروحتها لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، شؤون المزارع الجماعية، فشغف غورباتشيف بامور الزراعة، مستعيداً حماسه في ايام صباه في الكولخوز. وتوجه الى الكرملين، موفداً، عام ١٩٦١، الى المؤتمر الثاني والعشرين للحزب، عندما امر خروتشوف في نقل رفات ستالين ليلاً من ضريحه في الساحة الحمراء. لم يكن من اولئك الذين رجموا خروتشوف بعد فشله، مستهجناً « روح المغامرة والرعونة لديه ». واذا كان وجد سياسته طوباوية، الا انه عمل على انشاء مزرعة كبيرة للدولة في منطقته وتعرّف على اخصائي في الزراعة، فيودور كولاكوف، الذي عاد الى موسكو بعد تعيين بريجنيف في منصب مدير الزراعة في اللجنة المركزية. لم يكن بريجنيف يرغب في تعيين غورباتشيف السكرتير الاول لاتحاد الشبيبة الشيوعية، لانه كان ما يزال شاباً لكنه اصبح عام ١٩٧٠ السكرتير الاول للجنة الاقليمية للحزب. ارتقى درجات الهرم درجة بعد اخرى، وما لبث ان دخل اللجنة المركزية. وبذلك توافرت له الامكانات لتطوير برنامج للتمويل الذاتي في الانتاج الزراعي والصناعي، والى ادخال نشاطات جديدة اليه كتربية الدواجن التي اطلع على اساليبها في احدى المجلات الاميركية. توصّل هذا الاداري الناجح في حينه الى انتاج ٧٠٠٠ طن من لحوم الفروج والدجاج الرومي في مزرعته الاختبارية. وانشأ متجراً كبيراً وحديثاً وضاعف انتاج الصوف، مثبتاً لغورباتشيف امكانية تربية الغنم في المنطقة واعادة تبوير الارض سنة بعد اخرى خلافاً للافكار السائدة في موسكو. تلقى عام ١٩٧٩ وسام ثورة اوكتوبر لنجاحه في حملته الزراعية. كانت المحاصيل الزراعية في ذلك الحين احدى المشاكل الاكثر تعقيداً في الاتحاد، وقد اتاح نجاح غورباتشيف في منطقته لحاميه كولاكوف ان يفاخر به في موسكو. من سهّل له فيما بعد اختراق الحواجز وبلوغ اعلى المراتب ؟ لا احد يعلم بالضبط، ربما كان كولاكوف او سوسلوف او اندروبوف الذي كان غورباتشوف يشاطره حرصه على تنقية الحكم من المحسوبية والفساد.

وذاع صيت غورباتشيف في الحقل الزراعي، اثر الخطاب المدروس حول الزراعة والذي القاه امام اللجنة المركزية في حزيران ١٩٧٨. كان يمسك بيده احدى اهم مقاليد السلطة.

لا شك ان كفاءته، اكثر من دسائسه، هي التي رفعته فجأة، بعد وفاة كولاكوف، الى خلافته في اللجنة المركزية، بناء لتوصية اندروبوف الذي رقّاه الى رئاسة لجنة الشؤون الخارجية، عندما انتخب سكرتيراً عاماً. اصبح الآن في باطنة الحكم : عضو في المكتب السياسي، ومقرب من اندروبوف. ولدى وفاته، برع في الدعوة لانتخاب آخر شيوخ المكتب السياسي، كوستانتين تشيرنينكو، الى السدة الأولى، باعتباره « رفيق النضال الامين » لاندروبوف، في حين انه كان بامكانه ان يترشح بنفسه لهذا النصب. شكره تشيرنينكو على هذا الموقف، واتاح له فرصة الشهرة كمفاوض دولي عندما اوفده لتمثيل الاتحاد السوفياتي في لندن، في كانون الأول ١٩٨٤. بعد بضعة شهور دقت ساعة النضال مجدداً، بوفاة تشيرنينكو. كان خصمه غريشين في السبعين من عمره. تناول غروميكو العجوز الكلام في المكتب السياسي، « بعاطفة غير مألوفة لديه »، ليؤكد ان السكرتير العام الجديد يجب أن يكون شاباً وقادراً على « نقل الاتحاد السوفياتي الى عتبة القرن الواحد والعشرين ». كما تدخل قائد جهاز الـ ك.ج.ب. تشيبريكوف لصالحه. واختار الحزب الرفيق غورباتشيف الشاب الطيب الذي يوحي بالثقة للخارج ويستطيع بالتأكيد معالجة مشكلة الاتحاد الاولى وهي مشكلة الانتاج الزراعي. وقال عنه غروميكو : « لهذا الرجل ابتسامة مشرقة، كما له ايضاً اسنان فولاذية ». وينبغي الوثوق بهذا الشاب الذي كان يتحدث دوماً عن « وجوب اتخاذ خطوات حثيثة »، وعن « المنعطف » الذي سيؤدي الى دخول الجيل الجديد ابواب الكرملين.

المحاولة الاصلاحية لغورباتشيف

هل استطاع ريغان تقويم حجم التغيير ؟ بعد اقصاء غروميكو، تولى على الفور، ابن جيورجيا المرح شيفارنادزه، الشؤون الخارجية. وكذلك غراموف ومورااكوفسكي وتيخونوف، وثلاثتهم من معاوني غورباتشيف في ستافروبول، كلفوا بمناصب رئيسية، فضلاً عن فرولوف من براغ الذي حلّ في الامانة العامة للحزب، مما ينبئ بتغيير في العمق. وقد سارع غورباتشيف شخصياً الى تقديمهم الى التلفزيون، مدشناً بذلك اسلوباً اعلامياً في الحكم تمارسه الولايات المتحدة منذ عهد كينيدي. غير أن الاختصاصيين في الشؤون السوفياتية في جامعتي كولومبيا او هازفارد استمروا، بلا شك، في النظر الى الاتحاد السوفياتي وتجربة خروتشوف على انها شكل معدّل للخروتشوفية، وتعبير عن الجهود الاصلاحية التي تبذلها اقلية حاكمة من موظفي الحزب (ولا ينوي هؤلاء قلب معادلة الحكم ولا الحد من سيطرة الحزب على المؤسسات « المدنية »، قيد انملة). ومن يطّلع على علاقاته مع غورباتشيف في الاشهر الاولى، يتبين له ان ريغان كان ما يزال يعتبر الاتحاد السوفياتي كأنه مجموعة من الشعوب على درجات متفاوتة من التطور وتخضع لطغيان حفنة بيروقراطية عمياء تكاد لا تتجدد، ولا يعير شأناً لجهود المنشقين في المطالبة بمزيد من الحرية. وينظر الى غورباتشيف على أنه شيوعي من نفس الطينة التي جبل بها اسلافه العجائز.

كان ريغان يجهل ـــ مثل الاختصاصيين الاميركيين في الشؤون السوفياتية، وقد اصبحوا محض اختصاصيين في شؤون الكرملين ـــ ان غلياناً عميقاً لا يعبّر عنه في اعمدة البرافدا، انما كان يجتاح البلاد ويتصل بمواضيع كان غورباتشيف يتوسع في شرحها على التلفزيون وتدور حول الغلاسنوست (الشفافية) والبيريسترويكا (اعادة البناء). وفقاً لما كتبه نيكور ويرث، « فوجئ الاختصاصيون في الشؤون السوفياتية بظهور حركة اصلاحية يقف غورباتشيف وراءها ». ولم يكن هذا الأخير يجهل

الازمة العميقة التي كانت تهدد بقلب الاوضاع في البلاد. ولم تكن محاولته في « اعادة البناء » عملية اصلاحية مثل سواها، اذ كانت تستبق مطلب التغيير الذي تنادي به الجماهير السوفياتية الرافضة للتفسخ والانحلال، كما عبّر عن هذا المطلب بعض « الحلقات الرافضة »، واطلعت مراجع الحزب على مضامينه. ويشهد تقرير نوفوسيبيرسك على ذلك بالقول ان فريقاً من المسؤولين الاقليميين قد بحث في الطرائق الممكنة لازالة العوائق التي تحاصر النظام وتحول دون انطلاقة مسيرته. ووجد ان التسيير الذاتي للمؤسسات يشكل ضرورة ملحة، اذ ينبغي ادارة هذه المؤسسات بحيث يغطّي الانتاج نفقات الكلفة وبحيث لا تضطر موسكو الى تقديم المساعدات الى تلك التي تعاني من مصاعب. ويتعين على العمال الاضطلاع بمسؤولية تسيير العمل في المصانع والمعامل. في الزراعة، ينبغي تشجيع الخدمات والنشاطات المتكاملة، ونهوض قطاع خاص، كما يمكن لبعض المؤسسات التفاوض مباشرة مع الخارج وحتى قبول الاستثمارات الخارجية. ويتوخى هذا الفريق ان تؤدي هذه الحقيقة الاقتصادية الى قيام سوق داخلي تنافسي والى الوصول الى « اقتصاد السوق » الذي لا تزيّفه البيروقراطية. واذا ما ترافقت عملية « اعادة البناء » هذه مع تحرير الحياة السياسية والرأي العام، فإنها تقضي على الستالينية واللينينية. فهل يمكن لواشنطن الا تلحظ هذا التحوّل ؟

ظلّ الحذر الكبير مخيماً على اجواء وزارة الخارجية الاميركية التي كانت تجهل المسؤولين الجدد. بالنسبة لريغان، « كان شيفارنادزه مواطناً من الاتحاد السوفياتي لا نعرف الكثير عنه ». اما جورج شولتز الذي التقى به في فنلندا، فقد اتصل بالرئيس ليقول له بأنه يجده « اقل عدائية، واكثر ذكاء من غروميكو ». ولم يلقِ تبادل الرسائل بين ريغان وغورباتشيف مزيداً من الاضواء على التوجه الجديد للسياسة السوفياتية، اذ استمر غورباتشيف في الاحتجاج ضد برنامج الدفاع الاستراتيجي مؤكداً انه « لن يحل مشكلة انتشار السلاح النووي، بل سيزيدها تفاقماً ». وعندما

طالب بانهاء التجارب النووية » وتجميد ترسانة الاسلحة الذرية »، مع « منع تطوير نماذج جديدة من الاسلحة »، لم يستطع ان يوضح لريغان ان الاتحاد السوفياتي قد وصل الى حافة الانهيار ولم يعد يمتلك امكانات الاستمرار. دافع وينبرغر عن وجهة نظر البنتاغون والمجموعة العسكرية ـ الصناعية، مؤكداً أن الباحثين والمهندسين على وشك انتاج صواريخ معترضة وأن على السوفيات بالتالي عدم الوقوف في وجه هذه الجهود المبذولة. اما ريغان، فقد أشار في مذكراته اليومية، بتاريخ ١١ ايلول ١٩٨٥، الى خلاف جورج شولتز مع وزير الدفاع الذي « سيعرقل الأمور ويحول دون تسوية اية مشكلة مع السوفيات. ولن استطيع ضمان ذلك » لكنه يضيف : « لن اتنازل عن برنامج الدفاع الاستراتيجي مقابل عرض سوفياتي بتخفيض السلاح ». واعرب عن موافقته على خفض الترسانة النووية بنسبة ٥٠٪ شرط عدم ربط ذلك بالانجازات التي ستتحقق مستقبلاً. تباحث مع غورباتشيف كأن شيئاً لا يجري في الاتحاد السوفياتي، وكأن البلاد تستطيع الاستمرار الى ما لا نهاية في سباق التسلح، وكأن بوسعها تجاوز الولايات المتحدة.

في الواقع، بدا خبراء موسكو كأنهم يتطلعون الى وضع انظمة مضادة للاقمار الاصطناعية، في محاولة للتصدي لبرنامج الدفاع الاستراتيجي او لانتاج صواريخ هجومية اكثر دقة وعدداً ـ كما كان بوسعهم استخدام الخدعة. عام ١٩٨٧، اظهر تشغيل الصاروخ الثقيل، « الطاقة » القادر على نقل طن من المتفجرات ان الاتحاد السوفياتي ما يزال يحافظ على كل قوته التكنولوجية وان هذا النجاح يتناقض، بالنسبة لريغان ـ مع فشل المكوك الفضائي. واخذ السوفيات في انتاج الصواريخ المضادة أ س أ، فيما ظهرت صواريخ س س ٢٤ و ٢٥ على شاشات المراقبة الاميركية لتدل على عدم تخليهم عن انتاج الاسلحة الاستراتيجية.

كذلك واصل الاتحاد السوفياتي الحرب في افغانيستان. عام ١٩٨٢، اسست الاحزاب الاصولية السبعة للمقاومة « الاتحاد الاسلامي

للمجاهدين الافغان. وتجاوزت النصرة الدينية في المنطقة الحدود لتمتد عبر الدعاية الصوفية حتى القوقاز..وهناك افغاني واحد من الشيعة من اصل خمسة، غير أن بقية المسلمين يميلون بقوة الى هذه الحركة الأصولية المماثلة لحركة الاخوان المسلمين في مصر. والمقاومة هي حرب دينية، وسكّان المدن يصرخون ليلاً على سطوح المنازل : « الله أكبر ! الموت للروس ! » واقتضى ارسال طائرات مروحية على علو منخفض لاسكاتهم. لا شك أن موسكو تنوي وضع حد للمعارك في أقرب وقت، لكنها تريد ايضاً تحقيق النصر، بعد ان ارتفع عدد الجنود من ٤٠٠٠٠ في المرحلة الأولى للتدخل، الى ١٠٠٠٠٠ ثم الى ٢٠٠٠٠٠، الى جانب الوحدات اللوجيستية. كما شاركت الدبابات والمقاتلات والمروحيات المهاجمة في المعارك. اما زعماء المقاومة الشباب، كاحمد شاه مسعود وعبد الحق، فلا ينوون الاستسلام. ويمتلكون مدافع غير مرتدة، وقاذفات صواريخ مضادة للدروع وبضعة صواريخ ارض ـــ جو سوفياتية، زودتهم بها ايران. كما يستطيعون الاعتماد على مساعدة اميركية وعربية باشكال مختلفة، قدرها ٥٠٠ مليون دولار. غير أن ريغان لم يدفع الامور الى الاسوأ، وابلغ غورباتشيف انه يعترف بالمصالح الخاصة السوفياتية في المنطقة، شرط ان ينسحب الجيش من الاقاليم الافغانية. عام ١٩٨٦، حلّ كارمال محل نجيب الله على رأس الحزب الشيوعي الافغاني. بعد فترة وجيزة انسحبت ست فرق سوفياتية من الجبهة. غير أن غورباتشيف لم يوقف العمليات حول كابول طالما لم يتم التوصل الى حلٍ يقبله كل الاطراف. وقد تم الاتفاق على سحب الجيوش السوفياتية، بصورة مبدئية في القمة التي انعقدت في جينيف، في ١٥ نيسان ١٩٨٨، واعقبت ذلك اعادة نصف القوات العسكرية الى ديارها، غير أن هذه العودة لم تستكمل بصورة فعلية الا في عام ١٩٨٩. لقد ناضل السوفيات اذاً، حتى النهاية، واذا كانوا اضطروا لمغادرة افغانيستان، فليس بسبب هزيمة عسكرية، بل لأنهم لم يتوصلوا الى تسوية سلمية فيها.

نزعة غورباتشيف الاستعمارية

استمرت النزعة النضالية لدى السوفيات على اشدها في العالم كله، فلم يتخلوا البتة، بعد عام ١٩٨٥ عن مطامعهم في المحيط الهندي. وتتبعوا عن كثب الحرب الاهلية المستمرة منذ ١٩٨٦ في اليمن الجنوبية، واقاموا بكر العطاس في الحكم مكان ناصر محمد الذي فرّ الى اليمن الشمالية حيث وضعت المملكة العربية السعودية بتصرفه ٢٠٠٠٠ رجل من اجل استعادة اليمن الجنوبية. شرح ليغاتشيف معاون غورباتشيف، للمكتب السياسي مصلحة الاتحاد السوفياتي في الاحتفاظ بحقول النفط المكتشفة في منطقة شوبا والتي تحتوي كمية مليار برميل. وجرى توقيع اتفاق لتكريرها مع عدن.

صمد غورباتشيف في الخليج وواصل دعمه المالي والعسكري لحكومة الحبشة التي لم تنجح في السيطرة على العصابات الايرتيرية. اما الكوبيون الذين يقاتلون الى جانب الحكومة الماركسية ــ اللينينية في اديس ابابا، فهم يتلقون السلاح والعتاد بصورة منتظمة في المعسكرات التي تقيمها موسكو التي لا تملك امكانات ارسال المؤن الغذائية للسكان الجياع. ولم تتوصل المساعدات الانسانية التي كان يرسلها الغرب الى تجنب وفاة ٣٠٠٠٠٠ شخص جوعاً بين الاعوام ١٩٨٢ و ١٩٨٥، من جراء تحويل تلك المساعدات عن طريقها. وسعى الشيوعيون الى تهجير ٦٠٠٠٠٠ اسرة من الجبال من اجل شن هجمات معاكسة فشلت في تحقيق اهدافها.

لم يدفع استمرار الحرب الطويلة بين العراق وايران، بالكرملين الى الانكفاء، لا بل مضى غورباتشيف في متابعة سياسة اسلافه بكل ضراوة. كانت الولايات المتحدة في موقع ضعيف في هذه المنطقة، بعد ان خسرت ماء الوجه في لبنان، فافادت الدبلوماسية السوفياتية من ذلك لتأمين مصالحها. وتكثفت المبادلات مع الكويت فعقدت صفقة صواريخ

ارض ــ ارض وارض ــ جو بقيمة ٣٢٠ مليون دولار. كما اوفد الكرملين سفيره الى سلطنة عمان، عام ١٩٨٦ وفتحت العربية السعودية مرافئها امام الشاحنات السوفياتية التي نقلت الى العراق الصواريخ س س ٢١. بالمقابل، كثفت الرياض شحناتها النفطية الى الاتحاد السوفياتي وتوسطت القاهرة لتسهيل استئناف العلاقات مع موسكو. وبدا ان هدف السياسة السوفياتية قد تغيّر، اذ بدلاً من تأمين مواقع استراتيجية، سعت موسكو الى تنظيم مقايضة واسعة من الاسلحة الحديثة مقابل النفط. فهل تحوّل الكرملين، مع شيفارنادزه، من مستعمر الى تاجر ؟

يعود هذا العطف العربي الى الدعم الذي وفّره السوفيات للعراق، مع حرصه على ابداء التحفظات على روح المغامرة لدى صدام حسين الذي عمل من جهته على تنويع مصادر سلاحه. فقد عقد اتفاقات مع فرنسا في الحقلين النووي والعسكري، ومع ايطاليا والمانيا وبريطانيا والبرازيل، حتى ريغان زوّده بطائرات البوينغ. في كانون الثاني ١٩٨٣، عرضت فرنسا تزويده بطائرات سوبرايتندار المجهزة بصواريخ ايكزوسيت، مقابل مضاعفة مستورداتها من النفط ثلاث مرات. في غضون ذلك، قررت موسكو وضع طائرات ميغ ٢٣ وميغ ٢٥ ودبابات من طراز ت ٧٢ بتصرف العراق، اذ كان غورباتشيف يعلم ان الايرانيين يعدون، عام ١٩٨٦، لهجمات جديدة بأعداد من الجنود تفوق اربع مرات ما كانت عليه من قبل. وكان هؤلاء يخرجون من الخنادق ويقتحمون المواقع العراقية جاهدين لاحتلال البصرة. وقد صمد صدام بفضل طيرانه المتطور ومدفعيته المخبأة تحت الأرض ــ واستتبع قصف المدن الايرانية، بدءاً من عام ١٩٨٥، اطلاق صواريخ سكودب باتجاه العراق. اما الغارات العراقية على جزيرة خرج وهي موقع نفطي رئيسي لايران، فقد حققت نتائج ملموسة، غير أن طهران كانت قد اشترت صواريخ صينية بعيدة المدى، وخدعاً من صنع ايطالي تخفف من فعالية قصف المدرعات والمطارات.

وهكذا كانت الحرب تطول والاعداء يندفعون الى الموت من دون احتمال التوصل الى حلّ. عام ١٩٨٦، رفضت ايران مقترحات السلام التي تقدم بها العراق، واندفعت في عمليات عسكرية لا جدوى منها ضد كربلاء. ارسل الغربيون اساطيلهم الى الخليج الفارسي لتأمين سلامة الناقلات النفطية. وفي مكة، تسبّب « حجاج » ايرانيون بمواجهات عنيفة، احتجاجاً على مساعدة الدولة العربية للعراق. واثار استخدام صدام حسين للاسلحة الكيماوية، للقضاء على المقاومة الكردية، سخط الرأي العام الدولي، غير أن المزودين الرئيسيين للسلاح ومن بينهم الاتحاد السوفياتي استمروا في شحنه للعراق، باعتبار ان ايران تتلقى سلاحاً سوفياتياً عبر سوريا الحليفة لكل من طهران وموسكو معاً.

لا يمكن تفسير الموقف الغريب الذي اتخذه حافظ الاسد، بتحالفه مع المتشددين المسلمين من اليمنيين والليبيين، فقط بل ايضاً بعدائه الشديد لصدام حسين الذي يتهمه بمساندة الاكراد والاخوان المسلمين في سوريا. وقد القته كراهيته لصدام في احضان آيات الله الايرانيين. وهكذا نشأ محور دمشق ــ طهران القائم على تسلّم طهران الاسلحة السوفياتية والمنتجات الصيدلية من دمشق، مقابل كميات ضخمة من النفط. وقد غضّ السوفيات الطرف عن هذه التجارة التي تناقض الدعم الذي يمنحونه لصدام.

كان الارهاب الايراني يستخدم قواعد سورية وسلاحاً سوفياتيّاً لضرب اهداف غربية. وكان الاميركيون قد اعتقدوا، في ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٣، انهم اصبحوا بمنأى عن الارهاب حين وافقوا على تسليم ايران قطع غيار وحتى اسلحة جديدة مقابل الافراج عن رهائن سفارتهم. غير أن مقر قيادة البحرية في بيروت تعرّض للتفجير، الامر الذي تسبب بمقتل ٢٣٩ جندياً اميركياً. كما قاسى الفرنسيون وهم من كبار مزودي العراق بالسلاح، من هجوم ارهابي مماثل، اذ تعرض مبنى دراكار في بيروت، في

اليوم نفسه، لعملية اعتداء قضت على ٥٨ عسكرياً من الفرقة التابعة للقوة المتعددة الجنسيات. ووقع اعتداء جديد ضد الفرنسيين في ٢١ كانون الأول. وكانت فرنسا قد استدعت مواطنيها المقيمين في ايران، عام ١٩٨١، في أعقاب صدور حكم الادانة بحق انيس نقاش زعيم المجموعة الايرانية التي حاولت، عام ١٩٨٠، اغتيال رئيس الوزراء السابق في عهد الشاه، شهبور بختيار في باريس. كما سبق خطف طائرة بوينغ تابعة للخطوط الفرنسية، عام ١٩٨٥، واحتجاز اربعة فرنسيين خلال آذار وايار ١٩٨٥، واغتيال احدهم ميشال سورا. كان الايرانيون يطالبون بالافراج عن مجموعة بختيار، ولا سيما عن نقاش، وكذلك بدفع قيمة قرض قدره ٥ مليار دولار سبق للشاه ان وافق على عقده مع فرنسا. وجرت مفاوضات صعبة، في ظل ظروف الانتخابات الفرنسية لعام ١٩٨٨، اسفرت عن الافراج عن الرهائن الفرنسيين وعن بعض السجناء الذين طالبت بهم طهران. غير أن العلاقات الفرنسية ــ الايرانية لم تتحسن فعلاً، بسبب شحنات الاسلحة التي كانت فرنسا مستمرة في توفيرها للعراق. اما الحرب التي اوقعت في مجملها اكثر من مليون ضحية، فلم تنتهِ الا عام ١٩٨٨، وسط ارتياح ريغان وغورباتشيف معاً.

لكن لا هذا ولا ذاك خرجا سالمين من النزاع : فالاميركيون استمروا في عجزهم عن حل مشكلة لبنان، ولم يكن للسوفيات اية سيطرة على حليفهم السوري. وكان عرفات قد اجلى مقاتليه عن بيروت، عام ١٩٨٢، غير أن الفلسطينيين من مختلف الفصائل اخذوا يتقاتلون فيما بينهم. فطردوا جميعاً من البقاع وطرابلس، عام ١٩٨٣. فهل سيعود السلام الى لبنان، بعد رحيل الاسرائيليين في ايلول ؟

استؤنفت الحرب الأهلية، في الجبل، بين الدروز والميليشيات المارونية. وغادرت القوات الغربية لبنان البائس، عام ١٩٨٤، وسيطرت ميليشيات حركة امل الشيعية على بيروت الغربية. ووقعت اشتباكات عامة

بين الشيعة والدروز والسنة، بين حزب الله وامل، بين فلسطينيين ومسيحيين، فعمّت الفوضى الدامية سائر انحاء البلاد. عند ذاك، ظن السوريون بأن بوسعهم التدخل من دون ان يردعهم غورباتشيف. هل كانوا يعتقدون ان مبادرتهم من شأنها اعادة السلام ؟ في حزيران، اغتيل رئيس الحكومة رشيد كرامي، وبدا السوريون عاجزين عن الفصل بين الاخوة المتخاصمين : امل وحزب الله. عام ١٩٨٨، انتهت ولاية امين الجميل، فتقاسمت حكومة الجنرال المسيحي ميشال عون (قائد الجيش) وحكومة سليم الحص المسلم السلطة في البلاد. وفي آذار ١٩٨٩، شن الجنرال عون « حرب التحرير » ضد السوريين الذين كانوا يسعون الى اخضاع الجانب المسيحي، رافضاً الاعتراف برئيس الجمهورية الجديد، رينه معوض الذي انتخبه النواب. غير أن السوريين، بعد اغتيال معوض، فرضوا بقوة السلاح، انتخاب الياس الهراوي رئيساً للجمهورية، بموجب اتفاقات الطائف.

اشتعال الكارابيب:

لم يعد ريغان يمتلك وسائل التدخل في لبنان بعدما انتهت ولايته عام ١٩٨٨. لم يعمل على حماية اسرائيل ضد الفلسطينيين الذين خاضوا في الضفة الغربية ثورة الحجارة (الانتفاضة) ضد استيطان الاسرائيليين للأرض. وكانت عملية القمع قد اوقعت، حتى عام ١٩٨٧ ٦٠٠ قتيل. كانت لدى رئيس الولايات المتحدة مشاغل اخرى، اذ ان أعمال المقاومة الشيوعية كانت تتخذ في اميركا الوسطى احجاماً مقلقة. منذ عام ١٩٨٠، اعلنت الاحكام العرفية في السلفادور حيث اغتيل الاسقف روميرو، في ٢٤ آذار، على يد قاتل محترف ينتمي الى اليمين المتطرف. واثناء التشييع، في ٣٠ منه، قام وزير الدفاع باطلاق النار الذي اوقع ٤٠ قتيلاً و ٤٠٠ جريح. وجرى وقف الهجوم الشيوعي في آخر لحظة. بعد مضي سنة واحدة، اشتد ساعد رجال الكونتراس في نيكاراغوا وشنوا عمليات

انتقامية في منتهى الوحشية في الارياف. عام ١٩٨٢، اعلنت حالة الطوارئ في غواتيمالا، وانتشر الجيش في البلاد لمنع الثوار من التزود بالمؤن من القرى الهندية. عام ١٩٨٤، وضعت البحرية الأميركية الالغام في موانئ نيكاراغوا، ضاربة بالقانون الدولي عرض الحائط، الأمر الذي اتاح للساندينيين كسب الانتخابات في تشرين الثاني. وتضمنت حكومتهم اربعة كهنة حيث اقدم البابا يوحنا بولس الثاني على اعفائهم من صفتهم الكهنوتية، لعدم موافقته على « لاهوت التحرير ». واضطر المستشارون الكوبيون الى مغادرة البلاد، غير أن تجميد مشتريات الاسلحة من موسكو، الذي اعلن عنه في شباط ١٩٨٥، الغي في حزيران، لأن الكونغرس اقرّ، بناء لطلب ريغان، « مساعدة مدنية » لرجال الكونتراس. في الاول من ايار، اعلنت الولايات المتحدة الحظر على البلاد. فنشبت معركة داخل الكونغرس، في ربيع ١٩٨٦، اذ رفض الشيوخ المساعدة الجديدة للكونتراس والتي اقترحها ريغان. في ٢٦ تشرين الثاني، انفجرت فضيحة « ايران غيت ». هل سيرغم ريغان، بعد نيكسون، على الاستقالة ؟ كشفت الصحافة ان تسليح الكونتراس قد جرى تمويله من الارباح الناتجة عن مبيع اسلحة الى ايران.

هل كان رجال العصابات يتزودون بالسلاح بامر من ريغان ؟ لم يكن بوسع الاميركيين الوقوف في وجه دانيال اورتيغا الذي انتخب في تشرين الثاني ١٩٨٤، بنسبة ٦٧٪ من الاصوات، فالشعب قد اختار لمنصب الرئاسة واحداً من القادة السبعة للثورة. فضلاً عن ذلك، كان اورتيغا يدعم « جبهة التحرير الوطنية » في السلفادور. وبذلك قامت دولة ثانية موالية لكاسترو، على مقربة من قناة باناما. فسعت الولايات المتحدة على الفور الى خنق النظام الساندينيي كما فعلت سابقاً مع كوبا. وحين وقع النظام الساندينيي في ضيق شديد، لجأ الى التماس المساعدة السوفياتية. ولم يشأ غورباتشيف تقليصها. وبلغت حصيلة الاستثمارات السوفياتية اكثر من ملياري دولار بين الاعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٨. اما الاميركيون الذين كانوا

يوزعون في حينه؛ مبلغاً سنوياً بخساً قدره ٢٠٠ مليون دولار على مختلف الانظمة الموالية في المنطقة، فقد اخذوا فجأة، يساعدون بالسلاح الدول التي كانوا بحاجة الى دعمها في حربها ضد الشيوعية. وهكذا تلقت الهندوراس حيث كان يتدرب رجال الكونتراس، والسلفادور، القسم الاكبر من المساعدات التي بلغت ١,٤ مليار دولار، عام ١٩٨٥، و ٩٠٠ مليون، عام ١٩٨٩.

كان ريغان متورطاً شخصياً في مشكلة الكونتراس. كان يعتقد ان « كينيدي قد اقترف خطأ كبيراً بالتخلي عن المقاتلين الكوبيين، اثناء محاولة الهجوم على خليج الخنازير ». وكان يؤكد « ان نيكاراغوا تشكل الدولة الثانية ــ بعد كوبا ــ التي تدور في فلك الاتحاد السوفياتي »، على القارة الاميركية. كما أنه عمل على تسليح رجال الكونتراس الذين يساندون نظام نابوليون دوارتي المنتخب بصورة ديمقراطية في السلفادور. وهكذا تم انقاذ هذا البلد بفضل مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية. كان القمع على اشده، على الرغم من ادانة الصحافة الاميركية له باسم حقوق الانسان، فيما اتهم ريغان الصحافة بممارسة التضليل الاعلامي. الم تكن ثمة مذابح واعمال تعذيب الا في سجون الانظمة اليمينية ؟

كان تيب اونيل يقود الحملة داخل الكونغرس، باسم الحزب الديمقراطي. واثبتت لجنة التحقيق بأنه يجب معاقبة وكالة الاستخبارات المركزية على ممارساتها غير المشروعة. فوافق ريغان، اذ كان « كازي قد ذهب بعيداً اكثر من اللزوم في ممارساته ». استمر التحقيق، لكن كازي توفي في الوقت المناسب من جراء اصابته بسرطان في الدماغ. اما اوليفر نورث الذي يعمل لحساب مجلس الامن القومي، فكان ضابطاً سابقاً في البحرية، خاض الحرب في فيتنام. اتهم في الصحافة بأنه تولى تنظيم تجارة السلاح. تركه الرئيس يتعرض للاتهام والادانة : « كنت اعرفه قليلاً بصورة شخصية ونادراً ما التقيته في البيت الأبيض ». كان

يعمل لدى ماك فارلين وبويندكستر، في وظيفة « ثانوية ». لم تسفر فضيحة ايران غيت عن اية نتيجة، لافتقارها الى الاثباتات الدامغة.

برر ريغان نفسه لجهة تعاطيه مع الايرانيين مؤكداً انه حظر دائماً وكالة الاستخبارات المركزية من ممارسة طرائق مباشرة للقضاء على العدو. وامتنع في لبنان عن مهاجمة المواقع التي يحتجز فيها الرهائن الاميركيون لدى حزب الله. عام ١٩٨٥، وقع رئيس فرع وكالة الاستخبارات المركزية، في بيروت، وليم باكلي، شخصياً، بين ايدي الارهابيين، مع الاب لورانس مارتن جينكو. كما اسر في ايار مدير الجامعة الاميركية، جاكوبسون واوضح ريغان بنفسه انه جرى تبادل الرهائن، وفقاً لمشيئة حزب الله، مقابل بعض السجناء الشيعة في اسرائيل. وليس كل الرهائن، اذ بقي سبعة اسرى في لبنان. واعلن الرئيس أنه كان على اتصال ببعض « الايرانيين المعتدلين » الذي كان يتوق لتحرير بلده من نظام آية الله. جرى الافراج عن آخر الرهائن، الواحد بعد الآخر مقابل تزويد اسرائيل لايران بصواريخ مضادة للدروع من طراز تاو.

غير ان وليم باكلي لقي مصرعه عندما شن الاسرائيليون غارة جوية على مقر عرفات في تونس، واختطف الفلسطينيون سفينة الركاب الايطالية اشيل لورو، وعلى متنها حوالي ٥٠ راكباً اميركياً. فاوعز ريغان بالتحضير لعملية، فيما انتقل الخاطفون الى القاهرة، فسلّمهم مبارك الى منظمة التحرير الفلسطينية، رافضاً تسليمهم بصفة مجرمين الى اميركا. واعترض الطيران الحربي الاميركي البوينغ المصرية وعلى متنها الخاطفون واجبرها على الهبوط في صقلية. رفض بتينو كراكسي رئيس الحكومة الايطالية، بدوره تسليم الخاطفين، واستقال باد ماكفرلاين، مستشار الامن القومي، حلّ محله بوبندويكستر الذي تولى ادارة العملية. كان ماكفرلاين يؤيد بيع السلاح لايران من اجل وقف الارهاب الذي اوقع لتوه ضحايا جديدة في مطاري روما وفيينا. هل ادت الغارة الجوية التي قامت بها البحرية

الاميركية ضد القذافي الى تليين جانب الارهابيين ؟ عام ١٩٨٦، رفضت فرنسا وايطاليا تحليق طائرات ف ١١١ فوق اراضيها، والتي كادت ان تقتل العقيد القذافي. رداً على العملية، اغتيل كيلبورن ورهينتان بريطانيتان. ولم يتوصل ماكفرلاين الذي توجه الى ايران للتفاوض، الى الافراج عن الرهائن الاربعة المتبقين. واستقال جورج شولتز، احتجاجاً على هذه المساومات. وعندما تم الافراج عن الرهائن، شنت الصحافة حملتها ضد فضيحة ايران غيت. اكّد ريغان انه لم يتعامل مع آية الله، بل مع اصدقاء للاسرائيليين، وبذلك تملّص من المأزق واستقال بويندیكستير لتورطه في بيع الاسلحة للكونتراس، وادين نورث. وهكذا استطاع الرئيس الوقوف لاخذ الصورة التذكارية امام الدجاجة الرومية الضخمة (٥٨ ليبرة) التي قدمت اليه بمناسبة « يوم الشكر »، فقد نجح في احباط خصومه.

الانسحاب السوفياتي

ادى الاتفاق مع ايران الى تهدئة الارهاب فأفادت من ذلك الدبلوماسية الاميركية التي باتت الوحيدة التي اعادت اتصالها مع الدولة الاكثر نزوعاً لتقويض الاوضاع في الشرق. بقي القذافي الذي يتلقى الاسلحة السوفياتية ومنظمة التحرير الفلسطينية التي تنشط في كل اتجاه. والصعوبات التي واجهت غورباتشيف في إعادة السلام الى افغانيستان دفعت به الى فتح باب التفاوض : فهو يستطيع تهدئة الوضع في اميركا الوسطى وشرقي البحر المتوسط، اذا وافقت الولايات المتحدة على منع تسليم الاسلحة الى باكستان. وتبقى المفاوضات الذرية الرهان الحقيقي في لقاءات القمة في جينيف وريكجانيك وواشنطن.

ينطوي برنامج الدفاع الاستراتيجي، بالنسبة لغورباتشيف، على اجراء ابحاث حول اسلحة جديدة، تجعل من الولايات المتحدة قادرة على تجاوز بلاده باشواط بعيدة. وثمة اهداف بعيدة المدى سواء في الفضاء او على الارض يمكن ضربها بصورة اكيدة. والمراكز الحيوية في الاتحاد

السوفياتي، ووسائل المراقبة والاتصال قد تتعرض للتعطيل الفوري. عرض ريغان تبادل الاسرار العلمية لطمأنة خصمه واقناعه بأن برنامج الدفاع الاستراتيجي لا ينطوي على استراتيجية هجومية. غير أن غورباتشيف شكك في اخلاصه. غير أن الاميركي يعرف انه يستطيع الانتظار، فالاقتصاد السوفياتي ينهار بسرعة، ولم تحصد البيريسترويكا سوى الفشل. ونجاحها الوحيد كان في تحرير الاعلام الذي اتاح لمواطني الاتحاد الاطلاع على حجم الكارثة.

ما إن صدر قانون ٣٠ حزيران ١٩٨٧ حول ادارة المؤسسات حتى حولته البيروقراطية الجاثمة في الوزارات المركزية لصالحها، رافضة التخلي عن امتيازاتها في ادارة الشأن الاقتصادي. وطالما بقي تحديد الاسعار من صلاحية اجهزة الدولة، فلا امكانية لاقامة نظام اقتصاد حر وستبقى مشاكل التموين قائمة، في حين تبقى المؤسسات خاضعة لمورّدين لا تختارهم. عمت الفوضى الاسواق، وكان على السوفيات الاختيار بين اسعار متاجر الدولة واسعار القطاع التعاوني الذي عمل غورباتشيف على تطويره، واسعار السوق الحرة حيث ينشط ارباب العمل الجدد في المؤسسات الخاصة، وأخيراً بين اسعار السوق السوداء. والى « العمال المستقلين » البالغ عددهم ٥٠٠٠٠٠ شخص، الذين يحاولون فتح حوانيت صغيرة أو متاجر ومعامل في المدن، ثمة ٦٠٠٠٠٠ عاطل عن العمل تدنت مداخيلهم، بعد صرفهم من العمل في القطاعات التي جرت اعادة « تنظيمها » وينتظرون الحاقهم بوظائف اخرى. في الريف، ازدهرت الملكية الخاصة الصغيرة التي تحررت من هيمنة التعاونية الجماعية، واخذت تغذي بصادراتها السوق الموازي. اما الزراعة فبقيت تحت رحمة السياسة الكولخوزية وتخضع لمعايير الادارة المحلية التي تحدد خطط الانتاج وتسليم المحاصيل الى متاجر الدولة. وقد كتب ريغان في هذا الصدد : « نتلقى مزيداً من المعلومات حول انهيار الاقتصاد السوفياتي ».

هل تعوض الاصلاحات السياسية الفوضى العارمة التي اصابت الجماهير

في المدن والارياف ؟ ادى تغيير الوجوه السياسية (٨٥٪ في اللجنة المركزية و ٥٠٪ في المناطق) الى تجديد شباب الفرق العاملة، من دون توفير الفرص لمزيد من الديمقراطية. فالمتسلطون المحليون والمتاجرون بالنفوذ حافظوا على زبانيتهم، ولم تطلهم سلطة موسكو الاصلاحية. اما الانتخابات العامة التي جرت في كانون الثاني ١٩٨٧، فقد اعطت للتعددية حصتها، ولكنها لم تستطع تقديم مرشحين غير مقبولين من الحزب. واتاحت « الشفافية » « تحرير الكلام » ونشر مؤلفات اشهر المنشقّين، وتوجيه الاتهام للستالينية في أبشع وجوهه. كما أجيز للسينما ان تتخذ من معسكرات الاعتقال (الغولاك) هدفاً لها، وللتلفزيون ان يحقق في كارثة مفاعل تشيرنوبيل. وعرض فيلم « المنطقة المحظرة » امام الجمهور امتيازات « النومانكلاتورا » بتفاصيلها الدقيقة. واستطاعت المناطق الواقعة في أطراف بلاد البلطيق واوكرانيا والقوقاز، التعبير عن رغبتها في التحرر، من دون ان يؤدي ذلك الى تليين وصاية موسكو عليها، لأن غورباتشيف بقي سيد الحزب والجيش وجهاز الـ ك.ج.ب. وهذا الأخير يشكل امبراطورية ضخمة تضم ٤٠٠٠٠٠ ضابط وقد انتقل للتو الى البناء الواقع في ياسينيغو والمؤلف من احد عشر طابقاً، فيما تضم فروع الاستخبارات في الخارج (ب د ج) ما لا يقل عن ١٢٠٠٠ عميل، لمراقبة المراسلين في العالم كله. وكان العميل المنشقّ رونالد وليم بيلتون قد سرّب اسرار مجلس الامن القومي، منذ عام ١٩٨٠، الى السوفيات واتاحت المعلومات التي تلقتها الصناعة السوفياتية بناء طائرات مماثلة للاواكس، وناظمات آلية جديدة وطائرات قاذفة. كما جرى نقل تصاميم الادمغة الالكترونية الاميركية واليابانية. وعندما اطلع ريغان على مكائد الـ ك.ج.ب.، استخلص منها ان التخلف التكنولوجي لدى السوفيات سيزداد وان عليه انتهاج الحزم في المفاوضات معهم.

وهكذا تحقق بسهولة، عام ١٩٨٧، سحب الصواريخ السوفياتية س س ٢٠ من اوروبا وتدميرها، مقابل ازالة الصواريخ بيرشينغ. وبعد

كارثة تشيرنوبيل (٢٦ نيسان ١٩٨٦) التي ادت الى اجلاء فوري لقرابة ١٠٠٠٠٠ نسمة عن المنطقة المنكوبة، كان غورباتشيف بحاجة الى نجاح دولي لتهدئة الرأي العام. كان مستعداً لقبول حلول اميركية معقولة، من دون ان يغفل، في كل حال، الخطر الذي كانت تشكله حرب النجوم على نظامه الدفاعي. اما ريغان، الذي تحصن ببرنامج الدفاع الاستراتيجي، فكان مستعداً، من جانبه، لتحطيم صواريخه المعترضة، لاقتناعه بأنها اصبحت تنتمي الى ماضي الاستراتيجية النووية. بعد بضعة شهور على اتفاق واشنطن الذي نصّ على تفكيك شبكة الاسلحة النووية المتوسطة المدى في اوروبا، عقد اتفاق آخر اتاح ازالة ١٧٥٢ صاروخاً سوفياتياً و ٨٦٩ اميركياً، في مهلة ثلاث سنوات. غير ان عملية نزع السلاح هذه لم تعرّض حرب النجوم لأي خطر، وكان ريغان يؤكد ان متابعة الولايات المتحدة لبرنامج السلام هذا من شأنه ذات يوم، افادة العالم كله.

تحقق الانفراج العسكري على كافة الجبهات : بعد الانسحاب السوفياتي من افغانيستان، بدأ الكوبيون مغادرة انغولا، وانخفض عدد الجيوش السوفياتية على الحدود الصينية. وتوقفت شحنات الاسلحة الى نيكاراغوا وانسحب الفيتناميون من كمبوديا. وكان ريغان يدندن اغنية « اميركا الجميلة » في طريق العودة الى مزرعته. حتى ولو لم تتوافر للبنتاغون امكانات خوض حرب النجوم، فان سلوك الأبحاث والصناعة لهذا الطريق كان كافياً لاقناع العالم كله بأن الولايات المتحدة، على الرغم من ضعفها المالي، قد غدت الدولة الاولى في العالم. أما فيتنام ووترغيت فقد اصبحتا في عالم النسيان. والاميركيون الذين انتخبوا الجمهوري جورج بوش في ٨ تشرين الثاني ١٩٨٨، بنسبة ٥٤٪ من الاصوات، عبروا بهذا الاختيار انهم ينظرون بايجابية الى عودة بلادهم على مسرح العالم. والصحيح ايضاً ان نصف الناخبين قد امتنعوا عن التصويت.

الفصل الثاني عشر

الجدار والخليج

تميزت الاعوام ١٩٨٨ ـــ ١٩٩١ بمفاجأة مزدوجة جاءت طلائعها، في الحقيقة، عبر اشارات عدة منها، انهيار جدار برلين في نهاية العام ١٩٨٩، وهو رمز عودة الحرية الى اوروبا الشرقية. لم يعرف الاتحاد السوفياتي أو لم يشأ، في عز الازمة، الابقاء على الدول التي تدور في فلكه، في منظومة حلف فارصوفيا. ومن « الثورات » التي اثّرت في الديمقراطيات الشعبية ووضعت الحزب الشيوعي خارج اللعبة، ثمة واحدة كانت لها نتائج جيوسياسية فورية وهي انضمام المانيا الديمقراطية الى المانيا الاتحادية لتشكلا معاً، في قلب اوروبا، المانيا موحدة تضم حوالي ٨٠ مليون نسمة وتعمل بذلك على محو آثار بوتسدام[1].

والمفاجأة الثانية هو تورط الجبار الاميركي الجديد في حرب الخليج بشكل كثيف وحاسم. وكان انسحاب القوات البحرية من بيروت قد افقد ريغان ماء الوجه، في هذا الجزء من العالم حيث كانت النزاعات توقع المزيد من الضحايا. بين لبنان الشهيد وايران المغلقة، اقتصرت مساحة الحرية على الاردن الحائر، ومصر التي عادت تتطلع الى موسكو من جديد. أما التدخل العسكري الأميركي ضد العراق وهو اقوى دولة في الخليج وكان

(١) اشارة الى المؤتمر الذي انعقد فيها عام ١٩٤٥ وضم ترومان وستالين وتشرشل ومهّد لتقسيم المانيا (المترجم).

يوشك ان يمتلك السلاح الذري، فيشير الى رغبة الجبار الاميركي ـــ وهو الوحيد الباقي بعد الحرب الاولى ـــ في اعادة السلام الدائم الى هذه المنطقة المضطربة.

أكثر من ذلك، عبّر التزام الأمم المتحدة وانبعاث « الائتلاف الدولي » عن الامل في معالجة المشكلات بصورة جماعية، تحت مظلة القس بوش وبركة الله ومساعدة العناية الالهية، وفي تدشين عصر جديد بات ممكناً في اعقاب انهيار الاشتراكية. ويرى المراقبون ان استمرارية النظام الصيني مؤقتة، وان انهيار الشيوعية، على الرغم من الانتفاضات المحتملة، امر نهائي، وان البقعة الحمراء في الكاريبب لم تعد تثير المخاوف. وبدا الحلم الذي رآه روزفلت عام ١٩٤٥ حول بناء العالم وفقاً للحكمة (حكمة الاخلاقيين وحكمة التجار) كأنه قابل للتحقيق اكثر من اي يوم مضى. ولا ينقص « الائتلاف الدولي » كي يشكّل جزءاً من العالم الثالث نفسه سوى بضع مليارات نسمة من المحتاجين والفقراء والاميين.

من أوروبا الستة الى أوروبا الاثنتي عشرة

ادى سحب الصواريخ الاميركية والسوفياتية من اوروبا الى تحييد هذه القارة. واثارت الانجازات التي حققتها اوروبا الغربية الموحدة دهشة الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي، لاقتناعها بأن علاقاتها مع موسكو قد منعتها من الافادة من بحبوحة وغنى ثلاثين دولة شهدت ازدهاراً واسعاً. وجاءت ظروف المانيا الخاصة التي تقسمت عشوائياً، لتضعها في النقطة الحساسة من ديناميكية التغيير. وبدا انهيار الجدار كأنه تجسيد للحلم الديغولي باستعادة اوروبا وحدتها من « الاطلسي حتى الاورال ».

حملت برلين عار وصاية الدول الاربع المحتلة وذكرى حصار عام ١٩٤٨، واقامة الجدار في ١٣ آب ١٩٦١. وكانت جمهورية المانيا

الفيديرالية قد ولدت في عام ١٩٤٩، في اعقاب ازمة برلين، رداً من الغرب على التحدي الستاليني. فكأنها ولدت لتجسد « معنى الحرية على حساب كيان الدولة ». وكانت المانيا الفيديرالية تؤكد على ان الالمان الشرقيين سيعودون اليها حالما يصبحون احراراً. وعندما وقع المستشار براندت اتفاقيتي موسكو وفرصوفيا، عام ١٩٧٠، وافق على عدم المس بالحدود في اودير ـــ نايس مع بولونيا، وعلى القبول بوجود الدولة الالمانية الأخرى، مردداً في الوقت ذاته بأنه ينبغي الاعتراف بكل الماني قادم من المانيا الشرقية على أنه مواطن يتمتع بكامل الحقوق في المانيا الغربية التي فتحت ابوابها لاستقبال الهاربين اليها من الشرقية.

في الحقيقة، لم يكن مهاجرو المانيا الشرقية الذين يجازفون بحياتهم لاجتياز الجدار، كالاولاد العائدين الى كنف العائلة فقط، بل ضيوف المجموعة الاوروبية التي لم تكن تعترف لالمانيا الفيديرالية بالسيادة الكاملة على ارضها. هل كانت تتمنى ذلك ؟ يشير تحليل ارقام التجارة الخارجية الى ان صادرات عام ١٩٨٩ قد حطمت كل الارقام القياسية بفضل التجارة القائمة مع دول المجموعة الاوروبية. وتضم اوروبا الاثني عشر في صفوفها ليس فقط انكلترا أو الدانمارك وايرلندا بل اليونان واسبانيا والبرتغال ايضاً. والالماني الذي ينتقل الى الغرب يصبح بحكم ذلك شريكاً للفرنسيين والايطاليين والبرتغاليين.

منذ بداية عهد السوق المشتركة (في الاول من كانون الثاني ١٩٥٩) تضاعفت المبادلات الاوروبية ست مرات خلال عشر سنوات. وعام ١٩٧٠، كانت كل دولة عضو في السوق تمارس نصف تجارتها مع سائر الاعضاء، واحرزت اوروبا نجاحاً باهراً، وتوصلت فرنسا الى تحرير المنتجات الصناعية وكذلك المحاصيل الزراعية، والى اقصاء بريطانيا مرتين متتاليتين عن عضوية السوق، والى انشاء اول مجموعة اقتصادية تقتصر على الدول الست التالية : فرنسا ودول البينيلوكس وايطاليا

والمانيا. وادت « الاعاجيب » الفرنسية والايطالية، والتقدم الزراعي للعديد من المناطق الفرنسية (كمنطقتي بريطانيا والبروفانس) وتدفق السواح المستمر، الى تحديث الاقتصاد الاوروبي.

طال التحديث الذهنيات ايضاً. فقد اثارت قضية بودابست عام ١٩٥٦، تراجع الشيوعية الايديولوجية في الاوساط الفكرية الفرنسية والايطالية، مع أنها كانت شديدة الالتصاق بالستالينية. كما ادى القمع في المانيا الشرقية، في الخمسينات، الى ما لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية تحلم به بعد سنوات الحرب، من تراجع للشيوعية من حيث هي ايديولوجيا مسيطرة. ثم ان التظاهرات التي جرت عام ١٩٦٨ عملت على التقارب بين شبيبة الدول الست لجهة قيام احتجاج واسع في وجه المجتمع التجاري والبولشفية الستالينية.

وكانت تلك الاحتجاجات تقوم في وجه اسياد الكرملين واتباعهم الاوروبيين. وفي السبعينات، ساد الاعتقاد بأن « الشيوعية الاوروبية » التي قاد الايطاليون لواء بعثها ورعايتها على اساس ليبرالية ووطنية، سوف تقضي على مقولة ديكتاتورية البروليتاريا وتنفي صراع الطبقات الى متحف التاريخ الاجتماعي. واوحى الاسبان والايطاليون (بدرجة اقل من الفرنسيين، مع بيار جوكان) بأن الشيوعية المناهضة لقيام اوروبا الموحدة، قد تكون احدى القوى التي ترتكز اليها الحكومات اليسارية. في فرنسا، حيث حقق فرانسوا ميتران فوز اليسار في انتخابات عام ١٩٨١، لم يستطع الشيوعيون البقاء في الحكومة، الى ما بعد عام ١٩٨٤، حين مارست الاشتراكية بقيادة لوران فابيوس، نهجاً سياسياً مناهضاً لتدخل الدولة في الانتاج، وهو نهج اخذت به جميع الدول الاوروبية على اختلاف لونها السياسي. ولم يؤدِ فوز اليمين عام ١٩٨٦ الى تعديل هذا التوجه الاقتصادي الذي بقي سائداً لدى اعادة انتخاب فرانسوا ميتران عام ١٩٨٨. وكان واضحاً ان تعاقب اليمين واليسار في

اطار مؤسسات الجمهورية الخامسة يفترض اقرار الاشتراكيين بانتمائهم الى « المجموعة الدولية » الليبرالية للاطلسي. اما الشيوعيون الذين رفضوا هذا الالتزام، فقد سقطت نسبة ناخبيهم الى ما دون ١٠٪ وتحوّلوا الى قوة انتخابية هامشية.

ثمة تطور سياسي معاكس قاد الدول المتوسطية التي كانت توشك الدخول في المجموعة الاوروبية، ففي اليونان، دبّر الكولونيلات في قبرص انقلاباً عسكرياً ضد رئيس الجمهورية، الاسقف مكاريوس، واثار نزول القوات التركية في الجزيرة، معارضة شعبية واسعة في اليونان ضد العسكر الذين لم يتمكنوا من حماية المصالح الوطنية في قبرص. واضطر النظام العسكري الى الرحيل، وعادت الديمقراطية وتسلم الحكم الليبرالي كوتستانتين كارامنليس، ومن بعده اليسار. في البرتغال، اتاحت « ثورة القرنفل »، عام ١٩٧٤، للزعيم الستاليني الغارو كونهال دخول الحكومة. غير أن فوز ماريو سواريز في الانتخابات، عام ١٩٧٥، حمل الاشتراكيين الى السلطة بعد عام من الاضطرابات المتواصلة. وادى انتخاب الجنرال يانيس رئيساً للجمهورية في حزيران ١٩٧٦ الى عودة الهدوء والنظام، بعد فشل محاولة انقلاب يساري. اما اسبانيا بعد فرانكو، فقد تخلصت من الشيوعيين الذين لم يحصلوا في اول انتخابات جرت في البلاد، في حزيران ١٩٧٧، سوى على ٩,٢٤٪ من الاصوات، وكانوا بقيادة سانتياغو كاريللو الذي عارض الكرملين في قضية براغ. وكان الملك خوان كارلوس الاول قد كلف برئاسة الحكومة في ٣ تموز ١٩٧٦، ادولفو سواريز الذي كان يتلهف لادخال بلاده الى السوق الاوروبية والافادة من تدفق الرساميل الاوروبية. وكانت القوى السياسية القائمة في معظم الدول الاوروبية على نوعين في غاية التقارب : ليبرالية يمينية تحدوها قناعة راسخة بوجوب توفير سلامة المجتمعات، واشتراكية الدولة وهي معتدلة في ليبراليتها الاقتصادية وتحرص على الانفتاح على النظام الاوروبي والاطلسي. وبذلك يكون الفارق الديغولي قد امّحى.

وافق جورج بومبيدو وويلي براندت على مبدأ انضمام بريطانيا الى المجموعة الاوروبية. غير أن المفاوضات امتدت طويلاً، لان حزب العمال بزعامة هارولد ويلسون كان يشترط بنوداً خاصة.

وكان ادوار هيت شرع في هذه المفاوضات، عندما اقرّ الاستفتاء الذي اجري عام ١٩٧٥، على دخولها الى السوق الاوروبية المشتركة، شرط عدم المساس بالعلاقات المميزة مع الولايات المتحدة ودول الكومنولث.

وفي فرنسا، ايّد استفتاء آخر سياسة جورج بومبيدو الاوروبية، وتلت انكلترا كل من ايرلندا والدانمارك (ما عدا النروج)، وارتفع عدد الاعضاء من ستة الى تسعة، ثم الى عشرة بعد انضمام اليونان عام ١٩٨١، واخيرا الى اثني عشرة مع اسبانيا والبرتغال، عام ١٩٨٦.

اوروبا: قوة اقتصادية عالمية

شكلت دول المجموعة الاوروبية قوة اقتصادية ضخمة لدرجة ان الولايات المتحدة، التي لعبت في البداية دور العراب والوصي لاوروبا وجدت نفسها منزعجة من التقدم المستمر لقارة تحررت بفضلها من معوقات عسكرية ثقيلة، فضلاً عن تخلصها منذ بداية الستينات من الاعباء الاستعمارية. كانت اوروبا الحرة ناشطة بقدر ما تحررت في فترة وجيزة من مهماتها التاريخية، واخذت تشهد ازدهاراً متناغماً لا يشوبه تنافس بين دولها، في كل اسواق العالم، لا سيما في المجال الاميركي؛ وكان الرؤساء الاميركيون المتعاقبون يتذمرون من تلك الحكومات الاوروبية التي كانت تناور بشكل غير منتظم مع موسكو وبكين وفي الشرقين الادنى والاوسط. واذا كان « الاوروبيون » قد اصبحوا اكثر تأثراً بمواضيع مشتركة، ويتشاطرون ايديولوجية حقوق الانسان، والدفاع عن البيئة، ونزع السلاح والقوانين الاجتماعية، فان المؤسسات كانت متخلفة عن اللحاق بهذا التطور. وكان هيلموت شميدت وجيسكار ديستانغ قد

نجحا في انشاء مجلس اوروبي ذي اهداف سياسية ويختلف عن مجلس الوزراء الذي تنازعته الخلافات في اللجان المتخصصة حين اخذ « الاختصاصيون في الشؤون الاوروبية » يتباحثون في حصص الحليب والتنظيمات الصناعية.

لقي هذا المجلس دعم الحكومات، ولعب دوراً مفيداً على صعيد التخطيط والتنسيق، وعام ١٩٧٩، انشئ نظام نقدي اوروبي، سعياً لضبط السياسات الوطنية ازاء « صدمات » الدولار والنفط.

قام المجلس بمبادرة اخرى تمثلت بانتخاب البرلمان الاوروبي بالاقتراع المباشر بحسب النظام الانتخابي لكل دولة عضو في المجموعة، مع حصص من النواب بحسب عدد سكان تلك الدول. هكذا نالت كل من المانيا وايطاليا وفرنسا وبريطانيا ٨١ مقعداً (و ٢٥ لهولندا، و ٢٤ لبلجيكا و ١٦ للدانمارك و ١٥ لايرلندا و ٦ للوكسمبورج). وجرت الانتخابات مرتين، الأولى عام ١٩٧٩، والاخرى ١٩٨٤، وحظيت بتغطية واسعة من وسائل الاعلام المحلية. اما المؤسسات المشتركة الأخرى (عدا عن البرلمان الذي اتخذ مركزاً له في ستراسبورغ، فيما يجتمع المجلس في بروكسيل) فلم تشهد تطوراً كبيراً، على الرغم من ان محكمة العدل قد حظيت باهتمام متزايد لدى الدول.

غير ان التقدم الحاسم لم يكن ممكناً من دون اعتماد عملة مشتركة وسياسة دفاعية يتفق عليها الجميع. انكبّ جاك ديلور الذي عين، عام ١٩٨٥، على رأس اللجنة الاوروبية على انجاز هذه المهمة بكل حماس، ووضع نصب عينيه « السوق الكبرى » وفتح الحدود التي رأت النور في مطلع العام ١٩٩٣، عندما تحرر انتقال السلع والناس والرساميل في انحاء اوروبا من كل قيد. وشاء ديلور اخراج المؤسسات من المعمعة الزراعية التي تتخبط فيها ولم يكتفِ بتحقيق جواز السفر الاوروبي وحده. فقد نجح، في المرحلة الاولى في انماء التعاون الاقتصادي بين الاعضاء،

وجرى اعتماد كتاب ابيض يتضمن ثلاثماية توصية وتحولت ٦٠٪ من التوصيات الى قوانين. عام ١٩٩٠، اقرت حرية انتقال الرساميل. وفيما كان البرلينيون يحطمون الجدار، في ٩ كانون الأول ١٩٨٩، كان المجلس الأوروبي في استراسبورغ، يعلن عن نيته في تحقيق الوحدة النقدية. وكانت المجموعة الاوروبية قد اقرت، منذ حزيران ١٩٨٥، « المادة الوحيدة » التي اجازت اعتماد حكم « الاكثرية » في التصويت والغت قاعدة « الاجماع ». ولن تستطيع اية دولة وحدها بعد الآن معارضة سياسة تعتمدها اكثرية الدول الاخرى. وعندما فرض جاك ديلور على الاعضاء وجوب دفع مساهمة مالية من اجل مساعدة المناطق المحرومة، قامت عاصفة من الاحتجاج ساهمت الارادة الالمانية الطيبة على تهدئتها.

طالب العديد من المناطق بالحفاظ على هويته ضمن هذه المجموعة الواسعة، رافضاً تعرضه للضياع والانسحاق تحت المحدلة الاوروبية. وكان بعض الدول يعاني من قيام فتن محلية مزمنة. واذا كان ابناء منطقة بريطانيا وكورسيكا لم يتوصلوا الى زعزعة الوحدة الفرنسية (على الرغم من تفاقم الارهاب في جزيرة بوتي)، فان البريطانيين والاسبان كانوا يناضلون منذ مدة طويلة ضد النزعات الانفصالية لدى الايرلنديين الكاثوليك والباسك. وكانت منظمة « ايتا العسكرية » قد ضاعفت من عملياتها في اسبانيا بغية نيل استقلال بلاد الباسك ــ وكانت المفاوضات التي قامت بها الحكومة قد توقفت في نيسان ١٩٨٩. وبعد اضرابات مأساوية عن الطعام، في العام ١٩٨٠، استمر النزاع في ايرلندا، على الرغم من توقيع اتفاق في تشرين الثاني ١٩٨٠ بين لندن ودوبلين، ينص على انشاء لجنة حكومية عليا مع امانة سر دائمة ذات صفة استشارية. وتكشفت مناطق اخرى غير مستقرة خارج المجموعة الاوروبية، كيوغوسلافيا حيث كوسوفو القائم في اقليم صربيا والذي يتمتع بالحكم الذاتي وغالبية سكانه من الالبانيين، ويطمح للخروج على تشريعات الدولة. كما قامت دولة تركية من طرف واحد في الجزء المحتل من

جزيرة قبرص منذرة بوقوع الاضطرابات في المستقبل. غير أن هذه المشكلات الاقليمية لم تكن تثير الاهتمام في براغ وفرصوفيا وحتى في برلين. فالدول الشرقية كانت ترغب في الانضمام الى المجموعة الاوروبية وقد زادت المشكلات التي تعانيها دول « الكوميكون » من حدة تلك الرغبة.

ادى استئناف النشاط الاقتصادي العام، في اعقاب برنامج التسلح الاميركي والثورة التكنولوجية، الى تكثيف التبادل التجاري الذي لم يتأثر بانهيار البورصة عام ١٩٨٧، نتيجة النمو السريع في الانتاج. وازدادت التجارة الكبرى بنسبة تفوق ٨٪، عام ١٩٨٨. افادت اوروبا من هذا النمو بشكل واسع لدرجة ان الولايات المتحدة اخذت تضاعف من الحواجز التشريعية للحؤول دون تسلل منتجات القارة القديمة اليها. فقامت حرب الذرة ضد البرتغال، وحرب المعجون الورقي ضد الدول المتوسطية، وحرب البوينغ ولوكهيد ضد « الايرباص ». واظهر الأوروبيون بدورهم مهارة حاذقة في التفنن في وضع التشريعات التي تعيق دخول الانابيب الاميركية، وآلات التصوير والطابعات والمسجلات اليابانية. وتحولت الحكومات الى وكلاء تصدير متجولين. ففي فرنسا، اهتمت الحكومات بأسواق الطيران وتابعت عن كثب تسويق القطار السريع والميترو والصواريخ. وعززت اوروبا شأن الاقتصاد القومي في كل بلد، وسعت الى دفع حركة التصدير حتى الذروة. وعام ١٩٨٧، انضمت المجموعة الى مفاوضات الدول السبع الاكثر ثراء في العالم التي كانت تتداول في مسألة توفير سبل زيادة الطلب العالمي.

من المؤكد، ان العروس كانت جميلة بالنسبة لالمانيا الشرقية، لا سيما وان انضمام دول الجنوب المنتجة للزيتون والنبيذ، الى السوق الأوروبية المشتركة قد تمخض عن تقدم هائل في الصناعة والتجارة. وقد حولت حرية تنقل الرساميل كلا من اسبانيا والبرتغال الى جنة من الثروة تضم ٥٠

مليون مستهلك وتسحر الباب المستثمرين. وانشأت الشركات المتعددة الجنسيات فروعاً عديدة لها، وشقت فرنسا الطرقات الواسعة وبنت القطار الاطلسي السريع لوصل البلاد بمختلف الانحاء الاوروبية. ووفرت بروكسيل مساعدات سخية للزراعة، بفضل السياسة التي دعا اليها جاك ديلور. وعام ١٩٨٩، اصبح الاسباني انريك بارون كريسبو رئيس البرلمان الاوروبي. وحقق انضمام دول الجنوب الى السوق المشتركة نجاحاً باهراً دفع بالدول الشرقية الى طلب مساعدة المجموعة الاوروبية. وفي الاجتماع المنعقد في « سفينة الدفاع » التي تم تدشينها بمناسبة ذكرى مرور مئتي سنة على الثورة الفرنسية، قررت الدول السبع الاكثر ثراء في العالم الطلب الى اللجنة الاوروبية تنسيق المساعدات الممنوحة لدول اوروبا الشرقية، خصوصاً الى بولونيا والمجر. وسبق للسوق الاوروبية المشتركة ان عقدت، عام ١٩٨٨، اتفاقاً مماثلاً مع بودابست ثم مع براغ

واخيراً مع فرصوفيا، عام ١٩٨٩. وكان شيفارنادزه قد انتقل بنفسه الى بروكسل، في كانون الأول، لتوقيع اتفاق اقتصادي وتجاري مع المجموعة الاقتصادية الاوروبية. فالحركة الاقتصادية بين الشرق والغرب كانت قائمة على قدم وساق قبل تحطيم جدار برلين. كما كان توق الغرب لدفعها الى الامام على قدر موازٍ للرغبة العارمة التي كانت تستعر في قلب دول الستار الحديدي السابق الى مزيد من الحرية الاقتصادية.

رحلات يوحنا بولس الثاني

ثمة عامل آخر من عوامل التطور الهامة تمثل في الشأن الديني الذي تولاه البابا يوحنا بولس الثاني الذي يضطلع برسالة الكنيسة الكاثوليكية في العالم، وفي طليعة ذلك، المعركة التحررية التي قادها في اوروبا. من المؤكد ان انتخاب الكاردينال البولوني كارول ووجتيلا الى سدة البابوية، في ١٦ تشرين الأول ١٩٧٨ لم يكن حدثاً بريئاً. بالنسبة للمجمع المقدس،

كان بوسع « البابا القادم من الشرق » ان يحيي الكنيسة من جديد من خلال ضخ الهواء المنعش في رئتي بلد ما يزال الايمان الكاثوليكي يضطرم في قلبه. في الواقع، كانت الكنيسة المقاومة في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر، تستطيع اعادة « الحيوية المسيحية » للقارة، ومساعدة كاثوليك اوروبا على الانطلاق مجدداً نحو « التبشير بالانجيل » في العالم كله. تتوجت معركة البابا البولوني من اجل الحرية بالنجاح، باعتبار ان رجال الحرس البابوي ادوا التحية، في الاول من كانون الأول ١٩٨٩ لزائر رسمي قادم من الشرق، هو ميخائيل غورباتشيف، الامر الذي لم يكن يخطر في البال قبل عشر سنوات.

عام ١٩٧٩، استهجن البابا يوحنا بولس الثاني، من على منبر الامم المتحدة « المفهوم الماورائي، لا بل الملحد » الذي تقدمه الشيوعية للعالم. وزار في السنة نفسها بولونيا حيث رافقته الجماهير المحتشدة الى مزار السيدة العذراء. وكان اخذ عن البابا بولس السادس فكرة الرحلات الكبرى واستخدام التلفزيون لاهداف الارشاد والتنوير، كما كان قبله الآباء اليسوعيون يستخدمون المسرح لمناهضة الاصلاح. واتاحت له الاحتفالات التي اقيمت بمناسبة رحلاته الى الولايات المتحدة وافريقيا الجنوبية واميركا اللاتينية واوروبا « الحمامات الجماهيرية » والقاء خطب ورسائل نقلتها وسائل الاعلام الى كافة انحاء العالم. فالرسالة البابوية الاولى بعنوان « افتداء البشر » تضمنت دعوة لاحترام الكائن البشري سواء في الدول الشيوعية أو في اميركا اللاتينية. وجمع البابا اساقفة افريقيا الزنوج وهنود اميركا والفيتناميين، تأكيداً منه لصفة الكنيسة « الجامعة » وطابعها اللاعنصري. وقد نجا البابا عام ١٩٨١ من محاولة الاغتيال برصاص التركي محمد علي اخجا، وتلقى صورة « بابا طائرة « الجيت » والمدارج، قبولاً افضل في دول اوروبا الشرقية، لكونه يدين المادية الماركسية، واحتقار الانسان، وكذلك الفوضى الصناعية التي تدمّر الكون وتقود البشر الى العنف والفساد الاخلاقي، والبطالة والجوع. وفي معرض

تذكيره بالجذور المسيحية لاوروبا، حرص على تلطيف حدة اندفاع اليسوعيين الذين يتولون، بقيادة رئيسهم العام، الاب اروب، العمل الرسولي سواء ضد الانظمة الديكتاتورية في اميركا اللاتينية، أو في الصين، ضد اتباع الثورة الثقافية المدمّرة لكل قيمة انسانية.

شدّد البابا باستمرار على احترام الحرية الدينية، في المعركة التي يخوضها في اوروبا الشرقية، وتبث اذاعة الفاتيكان برامجها بكل اللغات، باتجاه دول الستار الحديدي، لاسماع رسالة الفاتيكان الثاني القائمة على غزو العالم الحديث من خلال مبادئ احترام الايمان التقليدي، والانسان والاخلاق والعائلة. تجمع العمال البولونيون، طيلة عشر سنوات، في كنيسة القديسة بريجيت في غدانسك، لسماع عظات الاب هنريك جانكوفسكي. واقرت السلطة الشيوعية بشرعية الكنيسة المجاهدة بفضل التقدم المتواصل الذي احرزته. وادى انخراط الكاثوليك في المعركة (تستوحي نقابة التضامن مبادئها من التعاليم المسيحية) الى تعبئة شعب بكامله يضم ٣٣ مليوناً مسيحياً (من اصل ٣٨ مليون بولوني). وقد خاضت اندية النخبة الكاثوليكية معركة حامية من اجل التعددية والادارة الذاتية. وهذه النخبة لا يستهويها العالم الرأسمالي، بل تؤيد قيام مجتمع مسيحي تسوده العدالة في توزيع الثروة، واحترام حقوق الفرد. عندما استولى الجنرال باروزيلسكي على السلطة، في كانون الأول ١٩٨١، نسج الكاثوليك علاقات وثيقة مع نقابة التضامن التي عقدت « اسابيع الثقافة الكاثوليكية »، بدلاً من الاجتماعات النقابية، وشجعت على خوض نضال سلمي، مشروع، لا هوادة فيه ضد السلطة الشيوعية. لا شك ان غلامب، رئيس اساقفة بولونيا، كان يعمل على البقاء متمايزاً في مواقفه عن ليش فاليسا. فالسلطة الدينية لا تستطيع تولّي الدفاع عن المؤسسات المنحلة وتحدي السلطة. غير ان البابا قام مجدداً بزيارة بلده، في حزيران ١٩٨٣، واثبتت انتخابات عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥، مدى حيوية نقابة التضامن المنحلة. واستعد الديمقراطيون المسيحيون لاستلام

الحكم في العام ١٩٨٩. وقد عملت معركة البابا على تنظيم الحصار حول الدولة الشيوعية.

ليست الكاثوليكية القوة الدينية الوحيدة للمقاومة في الدول الشرقية. فقد اظهر بعض القساوسة البروتستانت في بروسيا شجاعة في مقاومتهم للنازية. كما تظاهر اللوثريون مجدداً في المانيا الشرقية ضد النظام الشيوعي، ويبلغ عددهم فيها ٧ ملايين مقابل ١,٧ مليون من الكاثوليك) من اصل ١٧ مليون نسمة. لكنهم يحسنون تنظيم شؤونهم وقد خاضوا معركة سياسية فرضتها الرعايا على السلطات الكنسية حول موضوعات السلام ومناهضة الروح العسكرية، والدفاع عن البيئة، وحقوق الانسان، والعالم الثالث. وقد افسحت هذه الموضوعات في المجال لشحن النفوس والقاء المواعظ واقامة الصلوات العامة، وتنظيم التظاهرات، وشكلت مناسبة الذكرى الخمس مئة لولادة لوتر، التي يحتفل بها النظام القائم بصورة رسمية، فرصة لعقد لقاءات حيث كان يجري التداول باستمرار بموضوعات تتصل بالمقاومة السياسية. اتخذ اللوثريون موقفاً مناهضاً للظلم والى جانب التعددية وحوّلوا مقررات مجمع الكنائس البروتستانتية المنعقد في ايلول ١٩٨٩ الى التزام سياسي. وهكذا كان البروتستانت في قلب الموجة التي ستجتاح، مع اقتراب الشتاء نظام ايريك هونيكر.

ربطت التجمعات الجماهيرية السلمية والمناهضة للتسلح النووي، في المانيا الشرقية معارضتها بالحركة العامة القائمة في اوروبا الشمالية والتي كانت تجتاح الغرب. تلقف الكاثوليك هذه الحركة مشددين على حقوق الانسان والحرية الدينية. واحيا الشرق وكذلك الغرب، ذكرى وفاة ماركس وسط اجواء من الهيجان التي كانت تنبئ بقلب الاوضاع خلال شتاء ١٩٨٩ ــ ١٩٩٠. واستقبل الكاثوليك في اوروبا تعاويذ « اتباع الروح القدس » القادمين من اميركا والذين ما لبثوا ان حملوا تسمية « الهبة السماوية الجديدة ». وهكذا استطاع « التبشير الانجيلي الجديد »

الذي حمل آفاق العام ٢٠٠٠، ان يظهر كأنه مستمر في الاخذ بتعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني الذي استلهم منه الطروحات التالية : تحديث الليتورجيات، التزام الزوجين بالايمان، مسكونية العلمانيين ومسؤوليتهم الدينية في الدفاع عن المجتمع المسيحي وقيمه، ادانة الاجهاض والفلتان الجنسي، والنزعة المادية الى المتعة واللذة، ومجتمع الاستهلاك. زار يوحنا بولس الثاني في تشرين الأول ١٩٨٦، مركز هذه الحركة، في باراي ــ لو ــ مونيال، حيث يجري بعث موضوع الاخاء في وجه صراع الطبقات، من خلال استقبال الهامشيين، والعاطلين عن العمل والمصابين بالسيدا والمدمنين والمنحرفين، ويصار الى اشراك الجميع في اللقاءات والزيارات الى الاماكن المقدسة، والصلوات والمؤتمرات، والى دمج « الياقات البيض » مع « الياقات الزرق » (وهو حلم قديم في الكنيسة المناضلة). وهكذا حذت « الهبة السماوية الجديدة » حذو الحركات الاكثر قدماً والقادمة من اسبانيا أو ايطاليا (فوكولاري)، فيما الحركة الكشفية تستعيد قوتها ونشاطها في ظل تخلي السلطات العامة عن مسؤولياتها حيال الشباب. بهذه الطريقة، استعاد التسلح الروحي مواقعه على حساب التسلح الايديولوجي، مفسحاً في المجال لعودة دول اوروبا الشرقية الى احضان الكنيسة التي افتقدتها.

الالمانيتان

تبدلت الذهنيات في شطري المانيا بسرعة اكبر من البنيات السياسية. لا شك ان التجدد الديني كان عاملاً مؤثراً في مشاركة الشبيبة في التظاهرات ضد الحرب والتسلح في الغرب والشرق. واثار التقدم السريع لأحزاب « الخضر » تساؤلات القيادات السياسية. فقد دفعت النتائج التي احرزتها تلك الاحزاب بهيلموت كول، الى انشاء وزارة البيئة والطاقة، عام ١٩٨٥، والتي تسلم حقيبتها جوشكا فيشر، وهو من قدامى الحركة الطالبية لعام ١٩٦٨، لا يحمل شهادات عالية، وينتقل الى وزارته منتعلاً

حذاء لعبة طاولة السلة، من دون حلاقة ذقنه او ارتداء ربطة عنقه. اسس هذا الممثل السينمائي السابق، وصديق رودي دوتشكي، صحيفة « النضال الثوري » قبل ان يفتتح مكتبه، ويترأس حركة لمالكي الأرض بوضع اليد. ناهض حركة الارهاب التابعة لبادر، وانتخب نائباً عن « الخضر » منذ عام ١٩٨٣ وما زال يناضل في سبيل نزع السلاح. طيلة سني الارهاب (حين قتل المفتش العام اودران في لا سيل ــ سان ــ كلو، عام ١٩٨٥، والصناعي في « مجال انتاج السلاح، زيمارمان، بعد بضعة ايام في منزله في غارشينغ، بالقرب من ميونيخ)، ابتعد « الخضر » عن مجموعة « الجيش الاحمر » و « العمل المباشر »، لكنهم دافعوا عن الارهابيين المحكومين بالسجن مدى الحياة، الذين اعلنوا الاضراب عن الطعام، باسم حقوق الانسان. كما تظاهروا ضد قرار اتخذه البند ستاج، واجاز ملاحقة « الاشخاص الذين يتنكرون خلال التظاهرات العنفية ويرفضون كشف هويتهم للشرطة »

تلاحقت الاجتماعات والمسيرات في الغرب ضد الصواريخ الاميركية ومشاريع مشاركة المانيا الفيديرالية في البرنامج الاميركي. عام ١٩٨٤، تظاهر اكثر من ٥٠٠٠٠٠ شخص ضد السباق الى التسلح وحاولوا عرقلة المناورات العسكرية لحلف الاطلسي. وادت المسيرات والاحتفالات الدينية و « الحلقات البشرية » في الساحات العامة الى تدخل الشرطة مستخدمة وسائل متطورة. احتج « الخضر » على شراء كول لصواريخ اميركية وتجهيزات فرنسية. ورفضوا دخول المانيا الفيديرالية نادي تجار الاسلحة منذ ان اجيز لها انتاج قاذفات استراتيجية وصواريخ معدة للتصدير. ونوهوا، عام ١٩٨٦، « بزواج الفيلة » بين داملر ــ بينز (والتي تملك شركة طائرات دورنير ومجموعة المحركات م.ت.و) ومجموعة ا.ي.ج. الالكترونية، اذ ان التحول من شركة لانتاج السيارات إلى احدى اكبر الشركات العالمية للتكنولوجيا العالية اثار القلق، وكذلك اندماج ب.م.ف والشركة الفضائية ميسير شميت ــ بولكو ــ بلوم لم يكن اقل

شأناً. وقد تمت التحضيرات الكاملة، لمشاركة المانيا في البرنامج العسكري ــ الفضائي لحرب النجوم. غير ان الباحثين في ميونيخ ابدوا رغبتهم في عدم المشاركة في الاعمال. فالبلد الذي احرز، مع كلوز فون كلينرينغ، جائزة نوبل في الفيزياء، وهي اكبر تكريم لمؤسسة ماكس ــ بلانك في شتوتغارت، كان له رأيه في مدى اخلاقية برنامج التسلح الاميركي. ومن المؤكد ان الذهنيات الالمانية تغيرت.

اما الحكم الذي تورط في جملة فضائح لطخت سمعة بعض الوزراء من اصحاب المكانة الرفيعة، فلم يستطع عدم الالتفات الى هؤلاء « الخضر » الذي يشكلون ضميره الحي. وعندما استعاد قدامى الثورة الطالبية لعام ١٩٦٨، لايلائهم شؤون البلديات والحقائب الوزارية، امل الاهتمام مجدداً بالشباب والحصول على عطف الحركات الدينية. كما ينبغي مخاطبة الرأي العام بشكل يطمئنه ويتيح وضع نوع من عقد اخلاقي، والنضال من اجل السلام يجب ان يتوافق مع معركة تحرير الدول الشرقية. وبات ضرب اليساريين رياضة سياسية مقبولة لمجرد كونها تناوئ الشيوعية.

هكذا يمكن فهم جهود كول الذي كان يحاول طرح نوع من « رؤية سلمية جديدة » على البلاد. وقد أفادت المانيا الفيديرالية من احتفالات « نهاية الحرب » ايضاً، اذ بوسعها الانضمام الى « ائتلاف الدول »، وادانة النازية من اجل الجلوس على طاولة المنتصرين القدامى. واذا كان فرنسوا ميتران قد وافق على الاحتفال مع هيلموت كول في مصالحة فرنسا والمانيا، امام ضريح دوامون، فان الحلفاء لم يدعوا المستشار الى احتفال النورماندي الذي حضره ريغان وملكة بريطانيا ــ وحده ميتران حيّا « الشهداء الالمان » الذين يبني ابناؤهم « اوروبا الحريات ». عندما توفي هنريتش بول، عام ١٩٨٦، وهو الروائي المناهض للنازية وحائز نوبل للآداب، قام المستشار بمحاولة جديدة حين دعا ريغان

الى ضريح الجندي المجهول في بيتبورغ، بهدف تكريس المصالحة العسكرية بين البلدين بصورة رسمية، ووضع باقة من الزهر على ضريح ضحايا الحرب، على ان يتولى ذلك جنرالان من المحاربين القدامى، وهما الاميركي ريغواي، والالماني ستينهوف. وتبين عندئذ ان الضريح يتضمن ايضاً رفات بعض النازيين. فتحرك بعض النواب، وجمعيات المحاربين القدامى والمؤتمر اليهودي العالمي، كما استنفرت صحافة نيويورك — تدخل الخضر الالمان في البرلمان دون جدوى، من اجل الغاء الاحتفال الذي لا يستغرق سوى بضع دقائق. ونقلت محطات التلفزيون الالمانية خطابين هامين : الأول، لكول الذي ندد بالمانيا النازية التي اغرقت العالم « في الخوف والارهاب » وطلب الى الالمان تحمل أعباء هذا الارث الثقيل « لان الشعب الذي يتنكر لماضيه ينكر ذاته ». والثاني للرئيس ريشار فون ويزاكر الذي اذيع في كافة المدارس، وناشد فيه الرئيس الالمان « التحلي بالشجاعة في مواجهة الحقيقة ». لانه لا يمكن « ان تقوم مصالحة من دون استذكار الماضي ». ودعا التلامذة الى التعايش بدلاً من وقوف بعضهم في وجه البعض الآخر ».

اذا كانت المانيا الفيديرالية قد اصبحت قوة اقتصادية كبرى واتاحت لميزانها التجاري بلوغ ارقام قياسية جديدة، فهذا لا يعني ان الاضرابات والبطالة قد انتفت من البلاد، وفي أعمدة الصحافة، اشارات كثيرة إلى تواطؤ المال والسياسة والى فضائح تثير الاستنكار الواسع. ومن غير المؤكد، في مثل هذه الاوضاع، ان يترجم انضمام المانيا الشرقية الى الغربية من دون تحفظات حول النظام الرأسمالي. ومن غير المؤكد بدرجة اقل ايضاً ان جماهير الشباب التي تتظاهر، تحت قيادة « الخضر »، ضد التسلح النووي في الغرب، لن تعتبر السبعة عشر مليوناً من الالمان الشرقيين، بمثابة مجموعة جديدة من اللاجئين الذين ينبغي العمل على اندماجهم في البلاد. انما يمكن توحيد اولئك الشباب من عشاق الروك اند رول، واصحاب الشعر الطويل، حول موضوعات تناهض الشيوعية

والرأسمالية معاً وتقودهم في طريق السلم العالمي المنشود.

٩ تشرين الثاني ١٩٨٩ : تحطيم جدار برلين

بدا هذا التقارب بين فئات الشباب قريب المنال، لان المانيا الفيديرالية حرصت على الظهور بمظهر الدولة بكل معنى الكلمة، وعلى الحفاظ على ارثها الثقافي الالماني من خلال استعراض جنودها في شوارع برلين بمناسبة الذكرى الخامسة والثلاثين لتأسيس الجمهورية. وقاد الحرص الرسمي على اعادة تدريس التاريخ الالماني العريق، الى اعادة الاعتبار لبسمارك وفريديريك الكبير. واحتفل النظام القائم بالذكرى الاربعين للانتصار على النازية، لكنه حرر الالمان من مسؤولية الجرائم الهتلرية، لكونهم عانوا من « تحالف » الرأسمال الكبير مع القوى الرجعية في المانيا، عام ١٩٨٩ ». ولولا السوفيات، لكانت النازية ما تزال مسيطرة على المانيا. واحتفل هونيكر بالذكرى السبعماية والخمسين لبرلين، اذ على المانيا ان تستعيد قوتها وتقاليدها حتى العسكرية منها. غير أن انصار السلم بقوا يتعرضون لمعاملة سيئة كالسجن والمحاكمة والادانة ــ وقد اعتقلت اولريك بوب وباربل بوهلي وأفرج عنهما وكلتاهما عضوان نشيطان في احدى التجمعات النسائية من اجل السلام، وكان يخشى من عواقب محاكمتهما العلنية، اذ كانت الكنيسة الانجيلية تعقد الندوات العديدة حول شؤون المرأة « وعسكرة » المجتمع. واثار نصب الصواريخ السوفياتية احتجاج سينودس غريفسوالد، في ايلول ١٩٨٤. كما افسحت الذكرى التاسعة والثلاثون لقصف دريسد، في المجال لمسيرة سلمية ضمت ٤٠٠ مشارك متحدين التقاليد القائمة. كما احتجت الكنيسة البروتستانتية في برلين ــ براند ينبورغ ضد تضمين البرنامج المدرسي تمارين على اطلاق الرصاص، ابتداء من سن الثامنة، وضد تطويع الجنود المحترفين، اعتباراً من السنة السابعة. وكان ٥٠٠ جندي يمتنعون كل سنة، عن الالتحاق بالخدمة العسكرية، مفضلين قضاء سنتين في السجن

والاشغال الشاقة، عليها. كانت الصناعة الالمانية، في الشطر الغربي، كما في الشرقي، تعمل لصالح الجيوش الاجنبية. وكانت احواض السفن في روستوك تكرس ثلاثة ارباع انتاجها لتجهيز الاسطول السوفياتي، فضلاً عن الاتفاقات المعقودة بين المانيا الفيديرالية وفرنسا من اجل تنفيذ برامج عسكرية. وعقد بروتوكول الماني — اميركي حول برنامج الدفاع الاستراتيجي على الرغم من تنديد المانيا الشرقية « بالروح الثأرية » لدى المانيا الفيديرالية، اذ كانت نفسها تشارك في المجهود العسكري والقمعي السوفياتي واشتركت وحداتها في غزو تشيكوسلوفاكيا، عام ١٩٦٨، ولا يسع اكبر جيش في حلف فرصوفيا ان يعطي درساً في المحافظة على السلام، الى الجيش الالماني الفيديرالي.

ازدادت الاتفاقات المعقودة بين المانيا الديمقراطية والغرب، على الرغم من ان مجمل علاقاتها التجارية كانت تتوجه نحو الاتحاد السوفياتي الذي يوفّر لها الطاقة والمواد الاولية. وكان وضعها المالي يشجع على توفير العديد من القروض المصرفية، الالمانية والاميركية، والتي بلغت عام ١٩٨٤، ٩٠٠ مليون دولار. وكان التطور التقني في حقلي الالكترونيك والميكانيك عالياً. وحلّت الاجهزة البصرية والكهربائية والآلية في المرتبة الاولى من الصادرات. وجرى تشغيل سكك الحديد بالطاقة الكهربائية، وتنظيم النقل بالمستوعبات. وحقق ميزان التجارة الخارجية فائضاً مع كل الدول باستثناء الاتحاد السوفياتي.

تعرّض هذا التوازن للخطر من جراء الازمة الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي وفشل برنامج غورباتشيف الاصلاحي. واعتبر هونيكر ان بلاده قد حققت قدراً كبيراً من الازدهار والنمو بحيث لا يجوز وقفها لمجرد الرغبة في الاقتداء بموسكو، وصرح احد الوزراء في المانيا الشرقية، لمجلة شترن، في نيسان ١٩٨٧ بالقول : « اذا استبدل جارك سجاد شقته، فهل تشعر بواجب تغييره في بيتك ».

استمر التبادل الاقتصادي مع الشطر الغربي، وارتفعت اجازات الهجرة الى ٢٠٠٠٠ شخص سنوياً، من دون احتساب اولئك الذين يمنعون من السفر. كان من المتعذر العثور على خطابات غورباتشيف في برلين، من جراء عدم وجود اي عدد لصحيفة البرافدا. كان هواة موسيقى الروك الذين يقتربون من الحائط لسماع العزف في الجانب الآخر، يطلقون صيحات متقطعة: « غورباتشيف، نريد غورباتشيف! » غير أن التظاهرات من اجل السلام تواصلت بتشجيع من رجال الدين البروتستانت، فيما كان ايريك هوينكر يسعى للتفاوض مع كول حول انشاء منطقة مجردة من السلاح النووي والكيميائي في اوروبا الوسطى. في حزيران ١٩٨٧، اقترب ٤٠٠٠ شاب من الحائط مجدداً، على الرغم من الحزام الذي اقامته الشرطة، من اجل الاستماع الى حفلة المغني مايكل جاكسون، بالقرب من بوابة براندينبورغ. وصرح احد الطلاب المعتقلين الى مراسل وكالة فرانس ـــ برس بالقول: « ان ما هو ممكن في موسكو، يجب أن يكون كذلك هنا ايضاً ». كما جرى استجواب موزعي المناشير حول حقوق الانسان، في مكتبة كنيسة صهيون، حيث يتجمع الرافضون. وكان هؤلاء قد ادخلوا في كانون الثاني ١٩٨٨، شارات تحريضية في المسيرة الصامتة احياء لذكرى روزا لوكسمبورج وكارل ليبنخت. وكانت احدى الشارات التي صادرتها الشرطة تحمل قولاً مأثوراً لروزا: « لا حرية من دون احترام رأي الآخر ». اما المغني ستيفان كروزكي الذي كان يسخر في اغانيه من الحياة البائسة في المانيا الشرقية، فقد وجد نفسه ممنوعاً من الظهور الا في احتفالات الكنائس البروتستانتية.

اعتباراً من عام ١٩٨٧، تفاقم الوضع الاقتصادي. واضطرت الحكومة الى شراء الطاقة الكهربائية من النمسا، من جراء برد الشتاء القارس في تلك السنة. وازدادت المستوردات، ولم يستطع الاتحاد السوفياتي في ظل الازمة التي يتخبط فيها، دعم بعض وجوه العجز. وتبين ان التجهيز

الصناعي اصبح قديم العهد في عدد من القطاعات (ما عدا قطاعي الالكترونيات والصناعات المتطورة)، كما لوحظ ان بعض الاحوال الجوية السيئة من شأنه تعريض تموين السكان للخطر، من دون توافر امكانية ايجاد ما يعوّض عنها في كتلة الدول الاشتراكية (الكوميكون) لم يعد باستطاعة هونيكر رفض اصلاحات غورباتشيف بحجة التفوق الاقتصادي المزعوم للنظام الالماني ـــ الشرقي.

حاذرت المانيا الغربية التعبير عن فرحها، ذلك ان موجة الارهاب بدت تتحدى بعنفها اقوى الدول الاوروبية، وهي التي احتلت المرتبة العالمية الاولى في حقل التصدير، وارتفعت القدرة الشرائية لدى الاسرة بنسبة ٦٪ كما انخفضت الضرائب، عام ١٩٨٦ وتدنّى عدد العاطلين عن العمل. فهل يمكن لدولة شهدت هذا القدر من الازدهار ان تسمح بوجود شبكات ارهابية منظمة على ارضها ؟ ففي ميونيخ، اغتالت مجموعة « روت ارم فراكشين » الاستاذ الجامعي بيكورت، الاخصائي في الفيزياء النووية، وفي بون، صرع قاتلان جيرالد فون براونمول مدير وزارة الخارجية. وجرى تفجير مركز الابحاث العائد لشركة اي.بي.ام. في هيد لبيرج وكذلك مكاتب لوفتهانزا. وعلم ان المجموعة « الشيطانية » المؤلفة من باربارا وهورست ماير، والبالغين من العمر ثلاثين سنة كانت الرأس المدبر للارهاب على الارض الفيديرالية، مع حفنة من المشبوهين تضم ٢٠٠ عضو « شبه شرعيين »، و ٢٠٠٠ من المتعاطفين معها. كانت فعالية القتلة اشد فتكاً خلال العام ١٩٨٧. فجرى تعزيز وسائل الاستقصاء والتحري لدى الشرطة، واقر القانون تخفيض الاحكام عن الارهابيين الذين يبلغون عن شركائهم. ترافقت هذه الموجة من الاعتداءات، بعد كارثة تشير نوبيل، مع تظاهرات اشد من تلك التي قامت بوجه التسلح النووي. واثار تشغيل مفاعل بروكدورف، في منطقة شليسفيك ـــ هولستاين، ومفاعل كاتينوم في فرنسا، بالقرب من الحدود الالمانية، تظاهرات في غاية العنف. طالب « الخضر » بوقف العمل في كافة المفاعل النووية

فوراً، وحاصر انصارهم الثكنات والمخيمات العسكرية، مستخدمين تقنية المتظاهرين الاميركيين، اي الاعتصام.

بحثت المانيا الغربية، على غرار الشرقية، عن امجادها الغابرة، فأحيت، عام ١٩٨٦، ذكرى مرور مئتي سنة على وفاة فريدريك الثاني، امبراطور بروسيا، واستقبل التلفزيون الاستاذ الجامعي البرليني ارنست نولتي الذي صرخ بأن البولشفيك قتلوا من المعارضة اكثر مما فعلت التازية، وانه لا يجوز ادانة الحزب القومي ــ الاشتراكي، الا من وجهة نظر الاساليب المستخدمة. تندرج هذه « الرؤية » الجديدة التي لاقت اصداء لها في فرنسا وغير مكان من العالم، في سياق الحملات القائمة ضد مؤسس المجموعة الصناعية « فليك »، الذي سبق له خلال الحرب ان استخدم بعض المبعدين المنفيين عن البلاد، وضد كورت فالدهايم رئيس الجمهورية النمساوية اثر نبش ماضيه ودفاع المستشار كول عنه. اذا كانت دور النشر الالمانية قد منحت جائزة الى المقاوم في معتقل فرصوفيا، المؤرخ البولوني، بارتوزفسكي، واذا كان تم تسليم المجرم ديمجانجوك، جزار تريبلانكا، الملقب « بايفان الرهيب » فان انقسام الرأي العام كان يثير قلقاً تزيد من حدته الفضائح الناجمة عن النقص في المناعة الاخلاقية. كانت المانيا الغربية ابعد من ان تمارس سحراً فكرياً او ايديولوجياً على المانيا الديمقراطية.

كان همها الاكبر ان تحتوي تدفق اللاجئين القادمين من الجنوب الذين يحتشدون على حدودها. واذا كانت ابقت على ابوابها مشرّعة امام عمليات الفرار من المانيا الشرقية، فانها كانت تخشى ايضاً تسلل الارهابيين القادمين من الشرق الأوسط، اذ كانت الشرطة قد اعتقلت، عام ١٩٨٧، الشيعي اللبناني محمد علي حمادة، المرتبط بحزب الله. فردّ الشيعة بخطف المانيين في بيروت، وهما رودولف كوردس، من شركة هوشتس، والفرد شميدت، من شركة سيمنس. ولا بد هنا من التوضيح

بأن المانيا الغربية كانت تحتل المرتبة العالمية السادسة من حيث بيع الاسلحة وان الوزير فرانز جوزف شتراوس، رئيس مقاطعة بافاريا، قد اتهم بتسهيل تسليم تصاميم هندسية لغواصات الى جنوبي افريقيا. كما انتشرت شائعات حول مبيع اسلحة لايران. واضطرت المانيا الغربية لدفع فدية مرتفعة لتحرير رهائنها واستخدام علاقاتها الطيبة مع الكويت (التي تملك جزءاً من اسهم شركة داملر ـــ بنز) والمملكة العربية السعودية. وتعيّن عليها بعد الآن اقامة توازن بين اصدقائها وزبائنها العرب وبين اسرائيل. قام حاييم هرزوك رئيس دولة اسرائيل بأول زيارة لرئيس دولة اسرائيلية لالمانيا، في السنة ذاتها عام (١٩٨٧) التي كان البابا يوحنا بولس الثاني يعلن فيها تطويب ضحيتين للنازية هما اديت ستاين والاب روبرخت ماير. وحذا الالمان الشرقيون حذوهم، فأعلن هونيكر عن منحه ١٠٠ مليون دولار لضحايا النازية من اليهود وعن اعادة بناء الكنيس في برلين، رغبة منه في تحسين علاقاته مع البيت الابيض. وتعهد بانزال اشد العقوبات بحق الزقاقيين والمختلين الذي دنسوا المدافن اليهودية. غير أن هذا التقارب غير المتوقع لم يمنع المانيا الشرقية من الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، كما لم تؤدِ سياسته (التي هبطت مصداقيتها بنسبة كبيرة في المانيا الغربية) الى الوقوف في وجه تشكيل مجموعة داملير ـــ بنز، م ب ب، المرشحة ان تصبح احد اكبر المنتجين العالميين للسلاح.

كان الازدهار المالي في المانيا الغربية (التي تدنت تجارتها الخارجية مع الولايات المتحدة، وتضاعفت مع السوق الاوروبية المشتركة والاتحاد السوفياتي) يتناقض بصورة صارخة مع تفاقم الأوضاع الاقتصادية في المانيا الشرقية بصورة مستمرة. فالالمان الغربيون الذين يبلغ عددهم ٦١ مليوناً لم يحافظوا على توازنهم الديمقراطي على الرغم من تدفق المهاجرين من اصل الماني (او من يفترض ان يكونوا كذلك) من بولونيا ورومانيا وحتى من الاتحاد السوفياتي والمانيا الشرقية. في شباط ١٩٨٨، كانت النار ما تزال تطلق على من يجتاز الجدار بصورة غير

شرعية، الامر الذي لم يمنع ٩٠٠٠ فار من دخول الشطر الغربي، في تلك السنة. وقد جرى استضافة ٢٠٠٠٠ مسافر في مخيمات مجرية، في اعقاب سقوط الستار الحديدي. وفي ١١ ايلول ١٩٨٩، اجتازوا « كمن يقترعون بأرجلهم »، الحدود البافارية عبر النمسا. ونظم الفريق الاصلاحي « كيوس فوروم، الذي حظره هونيكر من القيام بنشاطاته، تظاهرات في شوارع ليبزيغ. وفي ٧ تشرين الأول، نشرت سبع احزاب سياسية، ومنها نيوس فوروم، برنامجاً مشتركاً، قبل زيارة غورباتشيف لبرلين. وفي ٩ منه، طالب ٧٠٠٠٠ متظاهر بالديمقراطية السياسية مشترطين تحولاً حاسماً في هذا السياق، واستقال هونيكر في ١٩ منه. فهل كان غورباتشيف قد اخلى المكان ؟

سارع ايغون كرانز الذي عيّن رئيساً للدولة، لزيارة موسكو. وفي ٥ تشرين الثاني، سار مليون الماني في شوارع برلين، و ٣٠٠٠٠٠ في ليبريغ. وحلّ الاصلاحي هانز مودرو محل كرانز، واعداً بالعمل على اقرار التعددية. في ٩ منه، سقط الجدار، وانتقل مليونا الماني شرقي الى الشطر الغربي، اعتباراً من ١١ و ١٢ منه، وثلاثة ملايين في ١٨ و ١٩ منه، غير ان معظمهم عادوا فيما بعد الى ديارهم. في ١٠ منه، ايدت موسكو الانفتاح بين البلدين. في حكومة مودرو، كان ما يزال عدد الوزراء الشيوعيين ١٧، مقابل ١١ اصلاحياً. وفي ٢٠ تشرين الثاني، طالب متظاهرو ليبزيغ بتوحيد البلدين الذي اعلنه كول في بون، في ٨ منه، امام البوندستاج. استقال كرانز في ٦ كانون الأول وحلّ محله الليبرالي مانفريد جيرلاش. واعلن عن اجراء انتخابات حرة في ايار ١٩٩٠. وسيشترك فيها الحزب الشيوعي تحت تسمية خجولة هي « حزب الاشتراكية الديمقراطية ». في ٢٢ كانون الأول، فتح كول ومودرو معاً بوابة براندبورغ.

طمأن المستشار كول الفرنسيين والبولونيين انه لن يعيد النظر في

الخط الحدودي اوديرـــ ناسيس. وصرح فرانسوا ميتران، في ١٩ كانون الأول ١٩٨٩، في مدريد، قائلاً: « لتعبّر ادارة الشعب عن ذاتها، ولتتحقق ! » واقرّ غورباتشيف، لدى استقباله مودرو، بحتمية اعادة توحيد المانيا، لكنه شدد على وجوب تخلّي المانيا الجديدة عن عضوية الحلف الاطلسي. وفيما كان الفرنسيون يعقدون اتفاقاً دفاعياً مع البريطانيين. وريغان يصرف النظر عن تحديث الصواريخ المتوسطة المدى المنصوبة في اوروبا، بدت بون وباريس متفقتين على تسريع الوحدة السياسية والاقتصادية والنقدية لدول السوق الاوروبية المشتركة. ومهّد المؤتمر الذي اطلق عليه تسمية « ٢+٤ » (المانيا الغربية المانيا الديمقراطية الشرقية، الولايات المتحدة، بريطانيا، الاتحاد السوفياتي وفرنسا) الطريق امام استعادة المانيا الموحدة لسيادتها. كما سكت غورباتشيف عن ظنونه ووقّع، في ١٦ تموز ١٩٩٠، مع كول، معاهدة تضمنت سحب ٣٨٠٠٠٠ جندي سوفياتي من المانيا الشرقية. وسيكون لالمانيا الموحّدة جيش قوامه ٣٧٠٠٠٠، لكنها لن تستطيع انتاج اسلحة نووية او كيميائية أو جرثومية. أما منظمة حلف الأطلسي التي بقيت المانيا عضواً فيها، فهي تعرض صداقتها على اعدائها السابقين، واقترحت على حلف فرصوفيا (الذي اعلنت المجر عن نيتها الانسحاب منه) ان يصار الى اعلان بيان مشترك بعدم الاعتداء. وموّلت بون رحيل السوفيات ووافقت على منح موسكو قرضاً قدره مليار مارك، كما وعدت فرنسا بتقديم قرض يبلغ خمس مليارات فرنك. وتشكلت منظمة « بيرد » على الفور وترأسها جاك اتالي واتخذت مقراً لها في لندن، ويفترض بها ان تتلقى، اعتباراً من نيسان ١٩٩١، مبلغ ١٢ مليار دولار لمساعدة دول اوروبا الشرقية.

في ٣١ آب، جرى توقيع اتفاق الوحدة بين الالمانيتين. وبذلك اصبحتا الدولة الكبرى (٧٨ مليون نسمة) في القارة الاوروبية، بمباركة مزدوجة من موسكو وواشنطن ووسط ترحيب طيف فريدريك الكبير في بوتسدام لهذا الانبعاث الجديد.

تحرّر المانيا الشرقية من الاستعمار

لم يكن لالمانيا الشرقية ان تتحرر من الاستعمار لولا الضعف الذي اصاب الشيوعية تدريجياً في اوروبا. وكانت اولى اعراض هذا الضعف، اضراب غدانسك في آب ١٩٨٠، حين عدل السوفيات عن التدخل في بولونيا، لانشغالهم في افغانيستان، ووافقوا على قيام نقابات حرة. في كانون الأول ١٩٨١، اضطر الجنرال ياروزلسكي للقيام بانقلاب عسكري لتأكيد سيطرة الحزب. لكن الثغرة فتحت في جبهة الدول الدائرة في الفلك السوفياتي، ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٨، خسر ياروزلسكي الاستفتاء بشأن خطة الاصلاح الاقتصادي. وادى هذا الفشل الى اتساع الثغرة. في ربيع ١٩٨٨، ادى انبعاث حركة النهضة الكاثوليكية في البلاد التشيكية، الى تظاهرة تطالب بالحرية الدينية. فالكاثوليك كانوا، على غرار البولونيين، يناضلون في سبيل الحرية. وادت التركة الثقيلة التي خلّفها جانوس كادار في المجر الى الاضطرابات في بودابست، خلال السنة نفسها، حيث اكّد ايمري بوزغي، وهو عضو اصلاحي في المكتب السياسي ومؤسس حزب « المؤتمر الديمقراطي » ان ثورة عام ١٩٥٦ كانت حركة شعبية اصيلة. واسفرت الانتخابات البولونية في حزيران ١٩٨٩ عن هزيمة شنعاء للشيوعيين.

فازت المعارضة، في دول عدة، بمطلب اجراء انتخابات حرة، بالاستناد الى اتفاقات هلسنكي حيث تعهدت الديمقراطيات الشعبية بمنح « الحريات، كي تحظى باعتراف الغرب بها. هكذا رفضت الحكومة المجرية، في آب ١٩٨٩، منع الهاربين من المانيا الشرقية من الانتقال الى الغربية. وقامت حينذاك تظاهرات جماهيرية عارمة في المجر وتشيكوسلوفاكيا. واسوة بهونيكر في المانيا الشرقية استقال غوستاف هوساك والبلغاري تودور جوكوف من الحكم. واصبح الشاعر والمسرحي فاكلاف هافل رئيساً لحكومة براغ، وكذلك الاصلاحي بيتر ملادينوف، في صوفيا. وتعهدت البرلمانات في كل الدول، باجراء انتخابات تعددية.

في بوخارست، حيث يتولى السلطة تشاوشسكو صديق بكين، قامت « ثورة » تساندها الدبابات، بطرد الديكتاتور من الحكم قبل اعدامه مع زوجته. وكان القس توكيس، في تيميسوارا، وراء الاضطرابات التي ادت الى عمليات قمع وحشية، وانتفاضة الجماهير في البلاد ضد زمر الشرطة السياسية، « لاسيكوريتا ».

لم يعد حلف فرصوفيا يتطابق مع الواقع الجديد وكذلك الكتلة الاقتصادية الاشتراكية، الكوميكون. وبدا واضحاً ان الدول المحررة تتلهف للتوجه نحو الغرب. وافسحت الانتخابات الحرة في المجال لظهور احزاب عديدة في الدول الاشتراكية. هل قضي على الشيوعيين، كذا، بشحطة قلم ؟ في بولونيا، انقسم خصوم ياروزولسكي بين ليش فاليسا، ورئيس الوزراء تادوز مازوفسكي. اما الشيوعيون المجريون الذين يشكّلون احد التيارات الاربعة القائمة في البلاد، فقد استبدلوا اسمهم فقط. وفي براغ، انتهت « الثورة المخملية » الى ركود سياسي لم تفلح محاولات هافل في تحريكه. ولم يتوجه الى صناديق الاقتراع سوى قلة من البولونيين والمجريين باعتبار أنهم فقدوا عادة الديمقراطية لكونهم لم يمارسوها الا قليلاً او على الاطلاق. اما الاقليات العرقية، فكانت ناشطة، اذ ظمعت المجر في ترانسيلفانيا فيما وجهت رومانيا انظارها الى صربيا. وتقاسم الشيوعيون الحكم في بولونيا وبلغاريا، وبقيت لهم السيطرة في حكومة الياسكو الرومانية عبر جبهة الانقاذ الوطني. ففي بلغاريا، شكلوا الاكثرية حيث انشأوا حزباً اشتراكياً يشبه تماماً الحزب الشيوعي السابق. واذا كان النواب الشيوعيون قد شكلوا اقلية في براغ وبرلين الشرقية وبودابست، فان الانظمة التي قامت مكانهم، كانت ما تزال في معظمها بعيدة عن ممارسة الديمقراطية.

في الاتحاد السوفياتي، خطا الحكم خطوات متقدمة على طريق التحرر، حين بدأ غورباتشيف الحوار مع ساخاروف ومهّد للقضاء على

معسكرات الاعتقال (الغولاك). وقد اتخذ هذا الاجراء اعتباراً من عام ١٩٨٨، مع قيام التظاهرات الارمنية، خوفاً من خطر انفجار البلاد، كما اقرّ، في حزيران ١٩٨٨، مبدأ اجراء الانتخابات العامة، وفقاً لقاعدة تعددية الترشيح. في ايار ١٩٨٩، افتتحت الدورة الاولى لمؤتمر نواب الشعب، وهو اول برلمان ينبثق من انتخابات حرة جزئياً. وفي كانون الأول، افسح اجتماع غورباتشيف وبوش، في المجال، للترحيب بقيام « العهد الجديد » الذي سيشهد انضمام الاتحاد السوفياتي الى المؤسسات الاقتصادية الدولية. وبذلك يكون وطن الشيوعية الام قد عاد الى حضن « الاسرة الدولية »، تحقيقاً لما سبق لكيسينجر، تلميذ ماترنيخ، ان تنبأ به.

الغى تعديل الدستور، في ١٤ آذار ١٩٩٠، امتيازات الحزب الشيوعي، وانشأ التعددية السياسية. وفي الانتخابات العامة لعام ١٩٩٠، حصل الناخبون في جيورجيا على مطلب احترام هذا المبدأ. كذلك، اجبر عمال المناجم في كوزباس السلطة على الموافقة على قيام حركة نقابية مستقلة. وكان النائب بوريس يلتسين في طليعة المستقيلين من الحزب الشيوعي الذي بات على هامش الاحداث، وفي مواجهة معركة سياسية اخذت تحتل حيزاً كبيراً من اخبار التلفزيون وشهدت الدولة انهيارها وتفككها : فالجمهوريات المتحدة لم تعد تتصور امكانية الخروج من الازمة الاقتصادية والاجتماعية الا بالانفصال. وبات الحكم الذاتي في اطار فيديرالية رئاسية غير كافٍ.

في ١٤ آذار ١٩٩٠، غدا غورباتشيف، بموجب التعديل الدستوري رئيساً منتخباً لخمس سنوات، ويمكنه اعلان حالة الطوارئ « وضم الادارة الرئاسية الى الجمهورية الاتحادية، بصورة مؤقتة ». لكن كيف يمكن حلّ القوات المسلحة القائمة في المناطق ؟ صدر في تموز ١٩٩٠، مرسوم يقضي بمصادرة السلاح. وينبغي ارسال حملة عسكرية الى ارمينيا واذربيجان لتجريد جنود القوات المحلية من اسلحتها، وسبق للغالبية منهم

ان رفضت الخدمة العسكرية في الجيش السوفياتي. وفقد الحزب الشيوعي كل نفوذه، اذ تحوّل، في الجمهوريات، الى احزاب محلية. وماشى غورباتشيف التطور الحاصل، فحوّل المكتب السياسي الى مجلس رئاسي يضم امناء سر مختلف الاحزاب. وكانت الوسيلة الوحيدة لاحتواء الاضطرابات في الجمهوريات تقوم على انشاء قوات امن مدربة خصيصاً لهذه الغاية، الامر الذي يحول دون الوقوع في الاخطاء التي ارتكبها الجيش الاحمر في باكو، في كانون الثاني ١٩٩٠. وهكذا جرى تصوّر انشاء جيش مستقل عن القوى النظامية. اذ أي والدين من ليتوانيا أو أوكرانيا يرتضيان التضحية بحياة ولدهما في سبيل قمع الفتنة في اذربيجان ؟

اتجه ابناء موسكو وروسيا الى رفض الاعباء الثقيلة التي يضطلعون بها في الاتحاد. كان الروس يخشون تزايد عدد السكان في الجمهوريات الاسلامية والمعارضة السياسية لبلاد البلطيق التي تنادي بالليبرالية. ووجدوا انفسهم مع يلتسين الذي انتخب -بصورة ديمقراطية، رئيساً لجمهوريتهم عام ١٩٩١، في وضع افضل مما كانوا عليه مع غورباتشيف. ومالت الاكثرية في صفوف الروس انفسهم الى الانفصال عن الاتحاد. فالمجابهة القائمة بين السلطة المركزية ودول البلطيق، وتزايد تدخل الجيش ومطالبة الجمهورية بممارسة سيادتها على اراضيها وتخلف موسكو عن تحقيق مسيرة الاستقلال، كل ذلك افضى الى المأزق. فهل كان الاتحاد السوفياتي ينوي التخلي عن واجهته في البلطيق والسير وراء الاوكرانيين الذين قرروا بعد تشرنوبيل، « عدم القبول باقتناء السلاح النووي او انتاجه او الحصول عليه » ؟ كيف يمكن تسوية الخلاف على السيادة بين ارمينيا واذربيجان في منطقة كاراباخ بعد المذبحة التي وقعت بين الارمن المسيحيين والاذربيجانيين المسلمين، من دون التدخل في شؤونهما الداخلية ؟ لم يكن التفكك ناجماً فقط عن رحيل الجمهوريات الراغبة في التخلي عن الاتحاد، بل من جراء مطالبة اقاليم باكملها داخل الجمهورية، باستقلالها، مثل الاقاليم البولونية داخل ليتوانيا والبشكير والتتر. لم يكن

متعذراً على الجمهوريات ان تسعى لانشاء اتحادات، ليس مع الاتحاد السوفياتي، ولكن مع الدول المجاورة التي تتكامل معها، مثل الدول السكاندينافية والبلطيق، ومولدافيا ورومانيا وكازاخستان وايران ...

جعلت بلقنة اوروبا الشرقية من مسألة انسحاب الجيوش السوفياتية مسألة خطيرة، واعتبر بعض الدول، مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ان الوجود العسكري ضروري في هذه المنطقة لضمان الامن ومنع المجر ورومانيا ويوغوسلافيا من فتح الابواب امام النزاعات الاقليمية. هل ينبغي التوجه الى الحلف الاطلسي، وطلب تدخل المراجع الاوروبية مثل مؤتمر الامن والتعاون في اوروبا الذي انشئ في اعقاب اتفاقات هلسنكي عام ١٩٧٥ لضمان الامن في القارة والتعاون والدفاع عن حقوق الانسان أو من مجلس اوروبا ؟ بدا واضحاً ان زوال حلف فرصوفيا قد فتح الباب على مصراعيه في المنطقة، امام المغامرة. وتمنى وزير خارجية بولونيا بقاء الجيش السوفياتي في قواعده لبعض الوقت.

كان غورباتشيف يرغب في اعادة جنوده الى ديارهم من اجل تخفيض النفقات العسكرية بسرعة. كان التنافس يشتد، في عهد بريجنيف على التوسع الاستعماري. اما اليوم، فان التدخل في القارة الاميركية لم يعد وارداً، وبات الدعم المالي لنظام كاسترو، مشكلة، وتوقفت كل مساعدة عسكرية لنيكاراغوا منذ بداية العام ١٩٨٩. وكان فيوليتا شامورو قد انتخب بصورة شرعية على رأس ائتلاف مناوئ للساندينية فطالب من دون جدوى الابقاء على مساعدة موسكو المالية. وجعلت نهاية الساندينية من غورباتشيف قاسياً لا يرحم. وتوسّل اليه جايمس بايكر، ناظر الخارجية الاميركية شخصياً، الا يترك نيكاراغوا ! لكنه وقّع في ٢٤ تموز ١٩٩٠ مرسوماً يقضي بأن يتوافق منح المساعدة الخارجية مع « الامكانات الفعلية » للبلاد. واستمر انسحاب القوات السوفياتية من اوروبا بوتيرة سريعة لدرجة انه خلق لوحداتها مشكلات سكنية في الاتحاد السوفياتي.

ووفى غورباتشيف بالتزاماته تجاه سوريا، انما بالنسبة للاسلحة الدفاعية فقط. اذ من غير الوارد تزويدها بصواريخ ارض — ارض، بعيدة المدى. ولم يعد يتلقى العراق والحبشة وانغولا شيئاً البتة، وبقيت كوبا وحدها، حتى اللحظة، على لائحة المصدرين. وفي الاتحاد السوفياتي، جرى تخفيض انتاج الدبابات والطائرات من ٧ الى ١١٪، وقامت محاولة لتحويل قطاعات الانتاج المتطورة التي كانت تقتصر حتى الآن على الاستعمال العسكري، الى صناعة مدنية. حتى أنه بحثت مسألة الغاء الخدمة العسكرية التي كانت تزود القوى البرية بمتطوعين تبلغ نسبتهم ٥٠٪ من المسلمين الذين يجهلون اللغة الروسية. كان الجنود ينسحبون من المواقع الاوروبية مرتاحي البال، باعتبار ان المانيا الموحدة ما تزال عضواً في الحلف الاطلسي وبالتالي مرتبطة بنظام دفاعي تشرف عليه واشنطن. وبلغ توسل غورباتشيف للغرب لدرجة انه طالب بتفكيك قواعد الغواصات الذرية في فنلندا، واقامة منطقة مجردة من الاسلحة النووية في بحر البلطيق.

في آسيا، كان فك الارتباط العسكري السوفياتي شاملاً. واعتبر غورباتشيف ان لا جدوى من الاسطول في المحيط الهادئ حيث لم يوفّر اية فائدة استراتيجية، لكنه كان باهظ الكلفة. واغلقت القواعد الفيتنامية قبل أن تنسحب الولايات المتحدة كلياً من الفيليبين واليابان وكوريا الجنوبية حيث جرى تخفيض الجيوش عدداً وعتاداً. ورفع غورباتشيف كل الموانع حول هجرة اليهود السوفيات (بعد تجريدهم من الجنسية وبالتالي من جواز السفر بحيث لا يستطيعون السفر الى الولايات المتحدة) فاختارت بضعة مئات الالوف منهم اسرائيل التي ابتهجت لهذا الدعم الديمغرافي الامر الذي اثار بالمقابل سخط الفلسطينيين. وفي سبيل استعادة رصيدهم في العواصم العربية، وافق السوفيات، في ايار ١٩٩٠، على تزويد اليهود بجوازات السفر. واتاحت سياسة فك الارتباط العسكري في الشرق الأوسط اعادة العلاقات الطبيعية مع اسرائيل،

وكذلك مع المملكة العربية السعودية والكويت وايران. ووافق الرئيس رفسنجاني، في حزيران ١٩٨٩، على تهدئة الاذربيجانيين الشيعة في باكو. واجيز للسعودية ارسال مليون نسخة من القرآن الكريم الى الجمهورية الاسلامية. وأمل غورباتشيف، اقامة علاقات تعاون وتصفية النزاعات الحدودية مع الصين.

اثناء انهيار النظام السوفياتي، كان باستطاعة الاشتراكية الصينية ان تكون البديل للماركسية ــ اللينينة، لو لم تكن الصين نفسها عرضة لأزمة خطيرة، عام ١٩٨٩. كان غورباتشيف يزور بكين في عز الثورة الشعبية، وامتلأت ساحة تيانامين بالرافضين من المتظاهرين، بين شهري نيسان وحزيران ١٩٨٩. منذ عودة دينغ كسياوبينغ الى الحكم، عام ١٩٧٨، ساعدت الاصلاحات المعروفة « بالتحديثات الاربعة »، على تقدم الناتج الوطني غير الصافي بنسبة ١٠٪ في عشر سنوات، وعلى تحسين الانتاج الزراعي، ورفع مستوى المعيشة خصوصاً في الارياف، ومضاعفة التجارة الخارجية واجتذاب الاستثمارات الاجنبية ــ لا سيما في المناطق البحرية. وتحقق هذا التطور على حساب القضاء التدريجي على المبادئ الماوية، ومن خلال اعادة الاعتبار الى العديد من كبار الموظفين والباحثين والاداريين من ضحايا حملات التطهير السابقة.

اثار الغاء التأميم في الارياف وازدهار الشركات الصناعية المختلطة التي تجتذب الرساميل الاجنبية، اعتراضات في جهاز الحزب، ولا سيما في صفوف الجيش. كان هوياوبانغ السند الرئيسي للحركة الاصلاحية، واتهم بتحريك المطالب الديمقراطية لدى الطلاب. فعزل من منصبه، عام ١٩٨٧، ليحل محله الليبرالي المعتدل، زاو زيانغ، الذي حرص على اعادة العمل باشتراكية الدولة. شعر دينغ سياوبينغ بهبوب الريح فآثر مساندة هوباربانغ، بعد التظاهرات العنيفة للطلاب، في شتاء ١٩٨٦ ــ ١٩٨٧. واشارت الاخبار الواردة من الاتحاد السوفياتي الى اخطار التطور السريع

على النظام الاشتراكي. واستعاد الحزب الشيوعي الذي يسيطر الجيش على قياداته العليا، الاشراف على الشؤون العامة، مرتكباً الكثير من الاخطاء والتناقضات. واظهر القمع الشديد الذي تعرض له انصار التيبت مدى تصميم العسكريين على الامساك بالبلاد. وقد اعتبر هؤلاء ان زاو يبالغ في التحديث. والتفوا حول رئيس الوزراء لي بينغ. واثارت وفاة « هو » انقسام الزمر حوله فأفاد الطلاب من المناسبة لاطلاق تظاهرة الربيع الكبرى، عام ١٩٨٩، والتي عمت فيما بعد مختلف المدن. كانوا يظنون ان بامكانهم ضم ابناء المدن الى صفوفهم، في سبيل حشدهم في المعركة من اجل الديمقراطية. هل كان زاو يساندهم ؟ انزل دينغ ولي بينغ الحرس الشيوعي القديم وسال الدم في ٣ و ٤ حزيران ١٩٨٩، في ساحة تيانامين. واتخذت القوات المسلحة المشكلة من جنود الخدمة العسكرية المتحدرين من اصل ريفي، مواقعها وانتشرت الدبابات، من اجل التصدي لاية مقاومة. استبدل زاو بجيانغ زيمان الذي يهيمن عليه العسكريون. وطال القمع على وجه الخصوص المثقفين، ووزير الثقافة وانغ مينغ والممثل ينغ روشين الذي لعب دور الحارس الشيوعي للملك المخلوع بوبي في مسرحية « الامبراطور الاخير » لبرتولوتشي، ووزير السينما شين هاوزو. وبحسب لجنة العفو الدولية، جرى اعدام ما لا يقل عن ٥٠٠ متهم. وفرّ الكثير من المثقفين الشباب الى الخارج، وحتى باريس ولندن.

لم يرفع القمع من شأن النظام ــ ويتولى شؤونه حفنة من المسنين ــ بحيث لم يعد يستطيع الظهور بمظهر النظام الثوري، لا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. بقيت الصين في خط الاصلاح المتوازن والانفتاح المعتدل ولم تقطع صلاتها مع الخارج، اذ على العكس، كانت تفاخر بصلاتها الجديدة مع المملكة السعودية واندونيسيا، وحتى تايوان. كان النظام مطمئناً الى اهتمام جورج بوش الخاص، وهو الذي شغل منصب سفير في بكين ومدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزية. وقد تدخل

سراً مع الكونغرس كي يصار الى متابعة تزويد الصين باكثر من مليار دولار من القمح سنوياً، وبمبلغ مماثل للتجهيزات المعدة لصناعة الطيران والفضاء، الامر الذي اتاح لبكين ابقاء جيشها في مستوى رفيع، وتنفيذ برنامجها الفضائي « المسيرة الطويلة » بغية اطلاق الاقمار الصناعية في مدارها. واتاحت زيادة الموازنة العسكرية محاربة النزعة الانفصالية من جراء الانسحاب السوفياتي. وتدخل الجيش في كسينجيانغ، وكشفر حيث كانت جماعات الاويغور المسلمين تتطلع الى اخوانهم في روسيا. وفي نينكسيا ومونغوليا الداخلية والتيبت، لم تهدأ عمليات القمع، اذ لا ترغب « امبراطورية السماء الجديدة » ان تعاني من الاضطرابات العرقية التي تصيب الاتحاد السوفياتي. غير أن صور تيانامين قد حطمت آمال العالم كله في قيام ثورة عالمية حسب النموذج الصيني، اذ ان الاشارات الواردة من بكين كانت ما تزال سلبية.

اليابان : سيدة المحيط الهادئ الغربي

فيما تحرر السوفيات من الخطر الصيني من جراء الانقسامات والاضطرابات التي عصفت بنظام بكين، وبعدما تخلوا عن كل مسؤولية في المحيط الهادئ، وجدوا ان بوسعهم التفاوض مع اليابانيين. وكانت متاعب الصين والانسحاب العسكري السوفياتي والتراجع الاميركي النسبي، قد ادت الى تحرير المحيط ووضعت اليابان امام السؤال التالي : من يملأ هذا الفراغ العسكري في القطاع الشمالي الغربي ؟ هل يستطيعون التقدم وحدهم في ظل الانسحاب الجزئي للقوات الأميركية ؟ هل يمكنهم الانقياد لاغراءات واشنطن التي تطالبهم بالحاح، كما المانيا في اوروبا، بأن يأخذوا في المنطقة المكانة التي يستحقونها بفضل تطورهم، والاضطلاع بصورة اكبر بأعباء الاغاثة والمساعدة التي تتيحها ثروتهم الطائلة ؟

في اوروبا، بلغ الامر بغورباتشيف حد تمني الحفاظ على حلف

الاطلسي. كما اعتبر اليابان عامل توازن. واعلن عام ١٩٩١ : ليست فقط قوة صناعية عظمى، بل زعيمة منطقة اسيا ــ المحيط الهادئ بلا منازع، حيث نواجه نحن وضعاً « في غاية الصعوبة ». وكان يغتبط لكون اليابان، مثل المانيا، ليست محايدة بل حليفة الولايات المتحدة وهذا التحالف يحول دون انسياقها وراء اية مغامرة.

كان السؤال يدور في ذلك الحين، حول ما اذا كانت العظمة الصناعية والمالية لطوكيو هي الوحيدة القادرة على تطوير سيبيريا الشرقية والافادة من السوق الصيني. لا شك أن هذه الطموحات ليست وشيكة التحقيق لكن اليابان قادرة على انتظار نضوج الثمرة. فتجارتها غدت الاولى بين الدول الاسيوية، خصوصاً مع « التنانين » الاربعة وازاء الولايات المتحدة. واذا كانت فيتنام (ما تزال تعاني من الحرب مع كمبوديا) وكوريا الشمالية حافظتا على نظامهما العسكري وغير قادرتين بالتالي على الاندفاع في التوسع، فان الدول الاخرى قد افادت من نمو المبادلات التجارية والمالية مع الولايات المتحدة واليابان. وبفضل النزوع المتنامي الى الديمقراطية والاستقلال في كوريا الجنوبية والفيليبين وتايوان، تنوعت مصادر المبادلات تحاشياً للوقوع تحت رحمة المزود والمستثمر الاميركي وحده. وهكذا تغلبت مقتضيات الحاضر في النهاية على احقاد الماضي. واذا كانت البنيات السابقة ما تزال تبقي الصين وبرمانيا في ركود نسبي، واذا كان تصلب الحكم في باكستان وسنغافورة يفرض، كما في الهند، نوعاً من الاصولية القومية، فان فيتنام تقرّبت من الصين، لقلقها من غياب السوفيات، وتطلعت الكوريتان الى اعادة توحيد البلاد على الطريقة الالمانية. كما اتيح لجنوبي شرقي آسيا، الاستعداد للدخول في مرحلة جديدة من الازدهار الاقتصادي بعد انحسار الاستعمار على انواعه.

بدت اليابان عازمة على الافادة من الانفتاح القائم. وظهر اليمين في الحكم اكثر ميلاً لتعزيز الشعور الوطني بعد حفلة التنصيب التي اقيمت

للامبراطور الخمسيني اكي ــ هيتو الذي استطاع محو الصورة العسكرية لوالده هيروهيتو. واتخذ الابن لملكه اسم « هيسي »، اي السلام والازدهار. انه بمثابة برنامج عمل لجنوبي ــ شرقي آسيا ! هل يمكن للشيطان أن يوسوس لليابان مجدداً، فيقودها إلى حب السيطرة؟ اعتبر ٥٠٪ من الاميركيين، في تموز ١٩٩٠ ان اليابان ستكون القوة العظمى في العالم. وكان هذا رأي التيار الجديد المناهض لاميركا حتى في قلب برلمان طوكيو حيث نشر احد اعضائه للتو كتاباً بعنوان « اليابان التي تستطيع ان تقول لا ». ألم يؤدِ الوفاق الدولي وزوال الخطر السوفياتي الى اسقاط الدرع النووي الاميركي ؟ الا تشتري الولايات المتحدة التقنيات المتطورة اليابانية، لصناعتها من الاسلحة ؟ فلمَ لا يصار الى الاستجابة للنداءات الفرنسية التي تعرض مبادلة التكنولوجيا النووية، والدعوات البريطانية الحريصة على بيع انتاجها في حقل صناعة الطائرات. كان وجود ٢٠٠٠٠ جندي من البحرية الاميركية في اوكيناوا مصدر طمأنينة لبعضهم، ومثار سخط لدى البعض الآخر من اليابانيين الذين اخذوا يتساءلون، منذ عام ١٩٨٩، فيما اذا كانوا يستطيعون ارسال قواتهم الامنية، في بعض الحالات خارج الحدود لحماية رعايا بلادهم. في تموز ١٩٨٩، فشل الحزب الليبرالي. الديمقراطي الحاكم، لأول مرة في الانتخابات. وسعى رئيس الوزراء كيفو للتحالف مع الحزب اليميني كوميتو، المنبثق عن الطائفة البوذية سوكاناماكي بدلاً من الحزب الاشتراكي ــ الديمقراطي مينشاتو. واصبح باستطاعة شركة ميتسوبيتشي التي انضمت الى المجموعة الالمانية الضخمة لانتاج السلاح داملر ــ بنز، تطوير التكنولوجيات الدفاعية المتطورة. الم تدخل البلاد لتوها في السباق الفضائي، بفضل اختراع صواريخ واجهزة متطورة من المعدات الآلية المختصة بالفضاء ؟

مع ذلك، اختار اليابانيون طريق التعقل والحكمة : لا زيادة محسوسة في موازنتهم الدفاعية، ولا توجّه في الانتاج الصناعي نحو الاسلحة

الهجومية. مارس الاميركيون ضغوطاً على طوكيو لشراء طائرات الرادار من طراز، اواكس. بدا واضحاً ان اليابانيين يرغبون في تخصيص فائض ارباحهم للاستثمارات الخارجية. واذا كانوا لم ينجحوا حتى الآن، في الاتفاق مع غورباتشيف حول جزر كوريل، فان المسؤولين حاذروا المشاركة في الاحتجاج الدولي ضد عمليات القمع التي مورست بحق انتفاضة ساحة تيانامين، متذرعين بالقول ان سياسة التنديد سوف تعزز سيطرة « الصقور » في بكين واعاقة مسيرة التحرر. وكما فعل الالمان مع موسكو، فضلت اليابان الحوار (واستثمار الاموال) مع النظام القائم، مهما كانت درجة مناهضته لمبادئ حقوق الانسان. لا شك ان هذه « الواقعية » تستوحي نهجها من الشركات اليابانية المتعددة الجنسيات التي لها مصالح كبرى في الشركات الصينية المختلطة.

لم يحلّ اليابانيون، بعد، محلّ الاميركيين في الميحط الهادئ. وقد نجحوا في اقتسام الاسواق معهم فقط. وبقيت السيطرة للرساميل الاميركية في الصين، كما في الاتحاد السوفياتي وكوريا الجنوبية واستراليا. غير أن التقدم الهائل مع ما حققته الاستثمارات اليابانية، وانكبابها على انتاج التكنولوجيات الدفاعية، طرح على الجمهور الاميركي السؤال الذي ما انفكت استطلاعات الرأي تردده بصورة دورية : بعد حمأة الاستعمارات العسكرية، الا تقوم اليوم منافسة مسعورة بين الاستعمار المالي والصناعي والتجاري من شأنها ان تؤدي في العالم، بعد خمسين سنة على بيرل هاربور، الى اذلال الولايات المتحدة، مرة جديدة ؟

ازمة الخليج الفارسي

احتلت حرب الخليج، خلال صيف عام ١٩٩٠ وفي خلفية من الحرب الاقتصادية واجهة الاحداث، فالشرق الأوسط يمثل لليابان كما لاوروبا والولايات المتحدة، مصدراً للطاقة لا غنى عنه، ويشكل مال

النفط للدول الصناعية رهاناً ذا أهمية بالغة، لكونه يموّل مشتروات الاسلحة والتكنولوجيات المتطورة. ولا تستطيع اية قوة من القوى العظمى الثلاث الا تبالي بنزاع ينشب في الخليج الفارسي. اما المصالح السوفياتية فهي خصوصية، لأنه ثمة ٥٠ مليون مسلم يقيمون في الاتحاد السوفياتي في اطار دولة مجاورة للخليج، فضلاً عن ان الاتحاد السوفياتي يشتري هو الآخر النفط ومن ابرز باعة الاسلحة في العالم.

تنتج الدول الاسلامية من النفط ما لا يقل عن ربع الانتاج العالمي وتمتلك ٦٥٪ من احتياطيه. وتستورد المنطقة ٤٥٪ من الاسلحة الثقيلة المباعة الى دول العالم الثالث، خصوصاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. بين الاعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٨، تلقت الدول العربية من كافة انواع الأسلحة ما يزيد عن ٥٠ مليار دولار، بما في ذلك الصواريخ المعترضة. وقد تزودت بهذه الاسلحة كل من المملكة العربية السعودية، والعراق ومصر وايران وسوريا والاردن وليبيا واسرائيل. وتمتلك اسرائيل وحدها القنبلة الذرية، بعد ان دمرت المفاعلات النووية التي زودتها فرنسا للعراق. اما ايران، وهي الدولة الاكثر كثافة سكانية في المنطقة (اكثر من ٤٨ مليون نسمة)، فتتنافس مع العربية السعودية (١٤ مليون) والعراق (١٧,٦ مليون) على زعامة المنطقة. وبين الدول الثلاث، يستطيع العراق وحده، تعبئة مليون رجل و ٥٠٠٠ دبابة. لكنه، قد يجد في وجهه، في الشرق الادنى، ٤٥٠٠٠٠ جندي مصري و ٤٠٠٠٠٠ سوري مع قوة مدرعة تزيد عن ٧٠٠٠ آلية. اذا كان العراق القوة العسكرية الأولى في الخليج (على الورق، لأن تفوقه في السلاح لم يتح له كسب الحرب ضد ايران)، فانه لا يستطيع ادعاء السيطرة على المنطقة اذا لم ينجح في توحيد العرب ضد اسرائيل التي تمتلك جيشاً اقل عديداً لكنه اكثر تجهيزاً وتدريباً.

يبدو من غير المعقول للدول العظمى التي تتزود بالنفط من الخليج ان

تدع واحدة من تلك الدول تتغلب على سواها بحيث تجد نفسها في موقع احتكاري. لهذا السبب، قاتلت الولايات المتحدة وحلفاؤها. ايران وساندت العراق. فقد باعت فرنسا وبريطانيا الاسلحة لصدام حسين، وجازفتا بالتالي بتحمل ردة فعل ارهابية مصدرها طهران. اما الولايات المتحدة واسرائيل والاتحاد السوفياتي فقد اتخذوا موقفاً اكثر مرونة، اذ زودوا بطريقة مباشرة او غير مباشرة ايران بالاسلحة ايضاً، وهو ما اتهم به ريغان. هل يستطيع الالمان الغربيون ممارسة اللامبالاة ازاء ايران التي تمتلك ربع اسهم شركة « كراب » وكذلك الكويت وهي المساهم الاكبر في شركة داملر ـــ بنز ؟ لليابان ايضاً مصالح لدى الطرفين. عام ١٩٨٤، صفق الجميع للمبادرة الاميركية، حين ارسلت حاملة الطائرات، كونستلايتشين، لاول مرة، الى الخليج لضمان الامن، في عز النزاع بين العراق وايران. بدا من الضروري للدول الصناعية تأمين حرية التزود بالنفط، على الرغم من النزاعات بين الدول الاسلامية. واعلن جورج بوش غداة غزو الكويت : « ان الانقطاع الطويل عن تزويد الولايات المتحدة والغرب عامة بالنفط، قد يكون له، في المدى الطويل، تأثيرات سيئة على العالم الحر ». وضماناً لامن النفط، باعتباره سلعة دولية، كان كارتر السبّاق الى تشكيل قوة التدخل السريع واسناد قيادتها الى احد الجنرالات في القوات البحرية، وقد اتخذت قاعدة لها في فلوريدا. وعام ١٩٨١، حوّلها رونالد ريغان الى « قيادة مركزية اميركية »، مماثلة لقيادات اوروبا وآسيا واميركا الجنوبية والكاراييب، وكانت وسائل التدخل المتاحة لعام ١٩٨٩ على الشكل التالي : ٥٠٠٠٠٠ رجل اي فرقة مجوقلة، وثانية منقولة بالحوّامة، وثالثة ميكانيكية، واثنتان من المشاة. الى ذلك، هناك لواء برمائي من القوات البحرية، وسبع تشكيلات جوية تكتيكية، وسريتان من القاذفات الاستراتيجية، وثلاث مجموعات من حاملات الطائرات، وخمس سريات من الدوريات البحرية، وكلها تمتلك لوجيستية قوامها ١٠٠٠ طائرة و ٦٠٠ سفينة. بهذه الطريقة، تستطيع هذه القوة التحرك

خلال ٤٨ ساعة للوحدات السريعة وشهر ونصف الشهر للوحدات الاكثر بطءاً. وقد اعلن ريغان، عام ١٩٨٣ : لن يسمح العالم الحر لاحد ان يغلق مضيق هرمز والخليج الفارسي في وجه مرور النفط ». وهذا الكلام موجه الى النظام الايراني في حينه.

اما محطات توقف القوة الاميركية فتقع في المغرب وتركيا ومصر ودياغو غارسيا وبابرا، وكذلك في اسرائيل والعربية السعودية. وقد استخدمت تلك القواعد بشكل ناجح عندما قام الاميركيون بتأمين حرية الملاحة في الخليج ابان الحرب العراقية ــ الايرانية. وهي مهيأة لاعادة تشغيلها بحسب خطط باتت معروفة. لكن لا احد يتصور بامكانية توجيه هذه القوة ضد الدولة التي تلقت الجزء الأكبر من المساعدة الغربية خلال النزاع.

خرج العراق من الحرب ضعيفاً وخائباً وشبه مفلس. وطلب عند ذاك، من الامراء الذين حماهم من الهجمة التوسعية للخميني « ثمن الدم » (عشر مليارات دولار على الاقل) والغاء ديونه. فهو مدين لمجموعة من الدول بمبلغ ٧٠ مليار دولار، منها ٥٠٪ تستحق لدول الخليج والعربية السعودية الى ذلك يدفع سنوياً ١٦ مليار دولار لوارداته، ويشكو ميزان المدفوعات عجزاً قدره ٥ مليارات دولار. ويحتاج الى ٦٠ مليار لاعادة بناء ما تهدم بعد حرب مدمرة خسرها لكونه لم يحقق النصر فيها. ويخشى الاضطرابات السياسية والاجتماعية اذا لم تتوافر له امكانات تأمين العمل للجنود العائدين من الخدمة. وعلى الامراء ان يدفعوا، لكونهم استفادوا من الحرب، وخصوصاً الكويت.

في الواقع، حقق الكويت هذا البلد الصغير، عام ١٩٨٩، ٨,٨ مليار دولار من الايرادات عن رساميله البالغة بين ١٠٠ و ٢٠٠ مليار دولار والمستثمرة في مختلف انحاء العالم. وتفوق مداخيله عائدات النفط (٧,٧ مليار) حيث يشكل هبوط اسعاره اثراً طفيفاً عليه، فيما ينعكس

بصورة مأساوية على العراق. انكر صدام على جاره الكويتي ملكية آبار النفط في رميلة والغى من طرف واحد ديونه المستحقة للكويت ثم حشد جيوشه على حدوده. ويكفيه وضع يده على كافة موجودات واحتياطي النفط لدى جاره، كي يحلّ مشكلاته المالية وترتفع شعبيته في « الشارع العربي » من خلال استعادة ما استولت عليه احدى اكثر الدول ثراء في الخليج.

غير ان الخطاب السياسي الموجّه ضد الاثرياء العرب، سرعان ما تجاوز المشكلة الاسرائيلية. ذلك ان الاميركيين، في سعيهم لاعادة السلام في المنطقة، اصطدموا، مثل الرئيس مبارك، بالتصلب الاسرائيلي الذي لم تنجح « حرب الحجارة » على التخفيف منه. وجاءت انتخابات عام ١٩٨٨ لتعزز موقع اسحاق شامير الذي قاوم الضغط الاميركي. واتاح تدفق اليهود والسوفيات الى البلاد، تعزيز المستوطنات في الاراضي المحتلة والتي تعدّ اكثر من مئة الف نسمة. في خضم هذه الازمة التي لا تجد حلاً لها، وجد صدام ان بوسعه الافادة منها، من خلال مهاجمته الاميركيين. اليسوا ضالعين في المخطط الاسرائيلي ؟ فالمأساة الفلسطينية لا تهم الولايات المتحدة، وبدرجة ادنى الدول المصدرة للنفط التي لم تعد تخصص للمساعدات الانمائية سوى ٠,٨٦٪ من ناتجها القومي غير الصافي (مقابل ٤,٢٣٪، عام ١٩٧٦)، اذ ان هبوط اسعار النفط جعل من الامراء الاثرياء اقل سخاء تجاه المحتاجين الفقراء، وقد دفع الفلسطينيون ثمن هذا التقنين. وانفجرت في الجزائر والاردن كما في تونس، « ثورة الجوع ». وهنا سنحت الفرصة لصدام كي يشن على الامراء وحلفائهم الاميركيين حرب « الفقراء العرب ».

تورط الولايات المتحدة

لا شيء يخشاه صدام من الاتحاد السوفياتي ولا من الولايات المتحدة : ذلك ان سقوط جدار برلين يحول دون تدخل غورباتشيف في

المنطقة وفرض حل عادل يرى العرب انهم دفعوا طويلاً ثمن انتظاره. اما بوش، فيعلم ان العراق كوّن له « مجموعة ضاغطة » داخل الكونغرس منذ ان اصبح هذا البلد المستورد الاول للارز واحتلّ المركز الثامن في شراء القمح الاميركي ولكونه يفضّل الولايات المتحدة على اليابان فيما خص الحصول على التكنولوجيات المتطورة. وقد سانده الاميركيون بقوة في حربه ضد ايران. واعتقد صدام ان الاميركيين سوف يغضّون الطرف عن حرب محلية باعتبار ان مجلس الشيوخ لا ينظر بارتياح الى اي تدخل عسكري خارجي لا يشكل خطراً على امن البلاد.

عزم صدام على المجازفة بافتعال الازمة. وتساءل الرأي العام الاميركي على الفور، عن ردة فعل بوش وعن اهداف تلك الحرب المحتملة التي أعلن عنها بوش فجأة. لا شك أن اعادة السيادة لدولة الكويت المعتدى عليها تتوافق مع أحكام القانون الدولي. ومما لا شك فيه ان تدمير القدرة على انتاج الاسلحة التدميرية بكثافة والتي يبدو ان العراق يتمتع بها، مسألة مشروعة. كما يمكن التصور ايضاً ان الولايات المتحدة تحلم بوضع خطة سلام في المنطقة لمصالحة اسرائيل والدول العربية المعتدلة، المناوئة للعراق. لكن، كيف يمكن تفسير التعبئة الفورية لقوة عسكرية بهذه الاهمية : ٥٠٠٠٠٠ رجل (استغرق ارسال مثل هذا العدد الى فيتنام ثلاث سنوات) و ٢٩٠٠ دبابة و ١٣٥٠ طائرة من الطراز المتطور، (من طائرات الاواكس الضخمة، الى القاذفات ب ١ الحديثة، و « الطائرات الخفية » التي لا تلتقطها اجهزة الرادار)، ومن دون تعداد ٨ حاملات ــ طائرات، و ١٥٠ بارجة حربية اخرى، ومن دون اغفال طائرات النقل التابعة لقيادة سلاح الجو. وسبق لكارتر ان وضع خطة مماثلة ترمي للتصدي لهجوم سوفياتي في الخليج. وليس امام الاميركيين سوى جيش عراقي عجز عن دحر متطوعي الثورة الايرانية.

ثمة تفسير آخر عرضه بوش على التلفزيون الاميركي، ينبغي اخذه بعين

الاعتبار؛ ففي ٣٠ تشرين الثاني صرح بالقول : « دعوني أؤكد لكم انه في حال القيام بعمل عسكري، فلن يؤدي ذلك الى فيتنام اخرى ... واني اتعهد الا ينتهي الامر الى وضع مفجع ». الى ذلك، اوضح للبنتاغون « لا نستطيع ضمان الثمن الذي سندفعه لكننا نستطيع ضمان النتيجة ». وأكد كولين باول رئيس الأركان العامة، امام مجلس الشيوخ » ان الحرب ستستغرق بضعة اشهر وليس اسابيع معدودة، وستؤدي الى مقتل الالوف لا المئات من الاميركيين ». عيّن الرئيس، على رأس عملية « درع الصحراء » الجنرال نورمان هـ. شوارزكوف الذي خدم في وكالة الاستخبارات المركزية في الخليج، طيلة عشر سنوات. كان الأميركيون مطلعين تماماً على وضع الجيش العراقي، وعلى أن الانتشار السريع والكثيف لقواتهم يمكن أن يجنّبهم حرباً طويلة وباهظة الثمن في الرجال اذا ما احسنوا مسبقاً شل كل ردّ على الهجوم. لعلّ بوش (الذي لم ينج من معارضة الكونغرس والتعليقات الصحفية المتشائمة واحتجاجات الاساقفة الكاثوليك) كان ينوي الافادة من دعم الرأي العام المؤقت له للحصول على الامكانات اللازمة فور وقوع الاعتداء العراقي، من دون توزيع التعزيزات المرسلة على فترة طويلة. كما يمكن التصور اخيراً، ان الولايات المتحدة التي اشركت في الحرب حلفاءها الاوروبيين (٤٨٥٠٠ جندي فرنسي وبريطاني) والعرب (١٢٠٠٠٠ جندي مصري ومغربي وسعودي وسعودي وآخرون من الدول الاسلامية) اعتبرت وجوب تأكيد تفوقها المطلق في ميدان المعركة، كما سبق لها ان فعلت في كوريا، بغية البقاء على رأس التحالف.

عندما اكّد جايمس بايكر وزير الخارجية بأن « على اميركا ان تتولى القيادة، وعلى شعبنا ان يدرك ذلك، اذ نحن نشكل الدولة الوحيدة التي تمتلك الوسائل السياسية والعسكرية والاقتصادية »، فانه كان يشير ايضاً الى ان بلاده التي افادت من كسوف نجم الاتحاد السوفياتي تستطيع بمناسبة هذه النزاع ــ المتدني الكلفة في كل حال ــ تأكيد ذاتها مجدداً

على انها القوة العالمية الوحيدة العظمى، محققة حلم روزفلت في عام ١٩٤٥. وستسجل حرب الخليج والقضاء على صدام ــ هتلر، لاميركا تفوقها ــ الذي تنازعها فيه اليابان واوروبا ــ بحيث ينبغي على قوتها العسكرية والمعنوية ان تضمن السلام ليس في الخليج وحسب، بل في مختلف انحاء المعمورة. ويستطيع عند ذاك جايمس بايكر ان يختم بالقول : ستكون حرب الخليج، اذا وقعت، « امتحاناً سياسياً لانتظام سير العالم بعد حقبة الحرب الباردة ». وسوف يكون الحشد الاعلامي الكثيف والبراعة في ادارة العملية العسكرية، كافيين لتأسيس « النظام الاميركي » على عتبة القرن الواحد والعشرين، لمدة طويلة.

افاد الاميركيون، كما في كوريا، من الدعم الفوري للامم المتحدة الذي اعيد اليها دورها فجأة كحارسة للامن والنظام. وانضم السوفيات بعد لقاء بايكر ــ شيفارنادزه، في موسكو، الى ادانة العراق. انها المرة الاولى، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، التي تقرر فيها واشنطن وموسكو القيام بعمل دولي مشترك. وتشكّل الائتلاف الاوسع مع انضمام دول عربية واسلامية اخرى من الغرب حتى سوريا الاسد. فتحرير الكويت هو هدف الحرب الذي يرتضيه الجميع. واذا كانت المملكة السعودية ترفض اقامة قواعد اميركية دائمة على اراضيها، فان الصحافيين بيار سالينجر وايريك لوران يؤكدان على وجود بروتوكول سري يجيز لواشنطن اقامة قواعد في البحرين وفي الاراضي المحررة من الكويت، بغية ضمان السلم في المنطقة من خلال رقابة طويلة الامد.

ثمة جديد آخر حظي بتقدير الكونغرس : ارتأت وزارة الخارجية انه لا يتعين على الولايات المتحدة ان تتحمل وحدها تكاليف عملية سوف يستفيد منها كل حلفائها. وعلى المانيا واليابان اللذين لم تتدخلا في المعركة، ان تشاركا في تحمل النفقات. وقام وزير الخزينة، برادي، بوضع موازنة الحرب، خلال جولة قام بها على دول الخليج حيث جمع

١٢ مليار دولار، تضاف اليها مساهمة اوروبا (٦ مليارات) واليابان (٤ مليارات)، اي ما مجموعه ٢٢ مليار خصص منها ١٨ مليار للعمليات العسكرية. وهكذا بات واضحاً ان الولايات المتحدة لا تتدخل الا لتكون على رأس « الائتلاف الدولي »، ومن اجل فرض القانون الدولي على النظام العراقي المعتدي، مع المحافظة على السيطرة التامة على حرية مرور النفط الذي يعتبر السلعة المشتركة بين الدول التي تسعى الى الطاقة. ان اطلاق « حرب العرب » في ظروف دبلوماسية مقبولة، سوف يظهرهم بمظهر المدافعين عن مصالح « الاسرة الدولية » والدول المسالمة والمعتدلة في الخليج. غير أن ذلك لا يكفي اذا ما نجحت الحرب. لكن، الا يمكن توقع قيام ردة فعل عنيفة لدى الدول العربية، ضد الاستعمار الغربي ؟

حرب الخليج

لم يكن ممكناً الاكتفاء، في هذه الظروف، بالحصار والحظر، اذ كان يقتضي الحصول على انسحاب العراق، من دون مفاوضات، الامر الذي كان اتاح لصدام التخلص من المسألة بلباقة. وللانتقال من الحرب الاقتصادية الى التدخل العسكري، على الحكومة الاميركية مواجهة الشروط السوفياتية والفرنسية، وممارسة اللعبة الدبلوماسية حتى النهاية، كيلا تظهر بمظهر المعتدي. وبرز الحدث الحاسم هنا في القرار الثاني عشر الصادر، عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة والذي أجاز للحلفاء « استخدام كل الوسائل اللازمة اعتباراً من ١٥ كانون الثاني ». انه بمثابة الانذار لتعجيل كل محاولات الوساطة. اما فرنسا التي ارسلت منذ بداية الازمة، حاملة طائراتها كليمنصو وبضع وحدات الى الخليج، فقد اكدت باستمرار ان تدخلها يندرج في اطار « التعاون، لا التبعية »، واشترط وزير الدفاع، جان بيار شوفينمان قيادة فرنسية لعملية « داغيت » وهكذا باتت باريس حرة في التفاوض بصورة مستقلة، واتيحت للرئيس ميتران فرص

عدة للتدخل، لا سيما في ايلول، في الامم المتحدة، طالباً فتح مفاوضات مع العراق من دون وضع شرط مسبق يقضي بالانسحاب الفوري من الكويت، بل الاكتفاء بتحرير الرهائن الغربيين الذين استبقاهم صدام في بلاده. وبعد الافراج عن الرهائن الفرنسيين في ٢٩ تشرين الأول، اكد الرئيس الفرنسي على ضرورة اجراء مفاوضات دولية، وليس فقط حول العراق، اذ ينبغي ادخال النزاع العربي ـــ الاسرائيلي ضمن التسوية الشاملة. وقد رفضت واشنطن هذا الموقف لعدم رغبتها في ربط مشكلات الشرق الادنى بمشكلات الشرق الاوسط. كان الهم الاول لدى بوش ينصب على ابقاء اسرائيل بمنأى عن النزاع. في نهاية المطاف، اكدت فرنسا وقوفها الى جانب السياسة الاميركية، كما لعب الاتحاد السوفياتي ورقة « التحالف »، مع أنه سعى عبر طرق عدة، للتفاوض مع صدام. واطمأن غورباتشيف للتأكيد الصريح الذي أعطاه بوش بأن الاميركيين سينسحبون من الخليج بعد اعادة الامور الى نصابها القانوني.

لم تجمع الدول العربية على ادانة حسين، ويمكن تفسير اعتدال باريس وموسكو بمعارضة منظمة التحرير الفلسطينية وليبيا وتحفظ كل من الجزائر وموريتانيا واليمن (التي توحدت مؤخراً) والسودان، وجاء التعبير عن هذا التحفظ واضحاً في قمة الجامعة العربية المنعقدة في القاهرة في ١٠ آب. واقتصرت ادانة العراق على دجيبوتي والصومال ولبنان وسوريا والمغرب ومصر. وكان يخشى، على الرغم من الاحتياطات التي اتخذتها واشنطن، من اتساع النزاع في الشرق الأوسط وبالتالي الى اشتعال العالم العربي كله. اما صدام الذي كان يدعي خوض حرب مقدسة ويتخذ مواقف دينية امام عدسات التلفزيون، فكان يدفع باتجاه وحدة المسلمين ضد الكافر الذي وطئ ارض العروبة المقدسة، وانتهك الحرمات بتحريض من الامراء العرب. وبدت كل المسألة مرهونة بموقف الثنائي اسرائيل ـــ منظمة التحرير الفلسطينية.

لم يكن لمنظمة التحرير خيار آخر : بعد ابعادها من لبنان وتدمير مقر

قيادتها العامة في تونس، عام ١٩٨٥، وقبولها مساعدة العراق، كان عليها تأييد وجهة نظر صدام حسين، سيما وان حقها منتهك بارخص الاثمان في الأراضي المحتلة، فيما غزو دولة نفطية قد حرّك على الفور ضمير العالم كله. غير أن عرفات كان يعلم ان العراق « يقبّله كي يتمكن من خنقه » بعد ان ساند باستمرار منظمة ابو نضال الارهابية او جناح ابو العباس داخل منظمة التحرير الفلسطينية. وهذا الموقف المرتبك لعرفات (تدخّل لدى الملك الاردني من اجل القيام بوساطة في قمة القاهرة) كلفه نفور الرأي العام المؤيد للسلام في اميركا واوروبا، هذا الرأي العام الذي يدين معاً، في الغالب، عدوان صدام وسياسة « البوارج » التي تنتهجها واشنطن.

لم ينخدع الاسرائيليون بلهجة صدام العدائية، اذ كان يجد مصلحته في توريطهم في النزاع، بغية تحويل الدول العربية عن تأييد القضية الاميركية. لم يخشوا هجوماً عراقياً على اراضيهم، واوضحوا تكراراً أنهم يمتلكون وسائل الرد « الفورية والكثيفة » ولن يترددوا في استخدامها، في اشارة الى القنبلة الذرية التي لم تعترف الحكومة الاسرائيلية رسمياً بامتلاكها. واذا كانوا قد اتخذوا « المظهر الوضيع » الذي تمناه الاميركيون الذين كانوا يرغبون بابقائهم بمنأى عن هذه الحرب، مهما كان الثمن فان الاسرائيليين ساورتهم الخشية من قيام مفاوضات تتيح لصدام، الذي يوشك ان يمتلك السلاح الذري، البقاء سيد الساحة في شبه الجزيرة العربية، لكونه يستطيع في آن واحد اجتياح الاردن وتهديد حدود اسرائيل، بمساعدة الفلسطينيين. مقابل عدم تدخلهم، سيحصل الاسرائيليون من واشنطن على اسلحة حديثة بقيمة مليـاري دولار، وخصوصاً على الصواريخ المعترضة الشهيرة باتريوت التي تتيح ضرب الصواريخ السوفياتية سكود التي اشتراها العراق، خلال وجودها في الجو. لا شك أن باستطاعتهم الاعتماد على قول بوش الذي تعهد رفض عقد مؤتمر دولي على الفور لتسوية مجمل مشكلات المنطقة، ومنها المشكلة الفلسطينية. باءت المحاولات الفرنسية والسوفياتية حتى آخر لحظة

بالفشل. كما لم ينجح الامين العام للامم المتحدة خافييه بيريز دي كويلار اكثر من جايمس بايكر (الذي التقى في جينيف وزير الخارجية العراقية طارق عزيز) في ايجاد تسوية مقبولة. رفض صدام حسين ان يخسر ماء الوجه برحيله عن الكويت، وافسح لبوش في المجال لفتح باب الحرب بعد انتهاء مهلة الانذار المحددة في ١٥ كانون الثاني ١٩٩١.

على الرغم من معارضة الرأي العام في اوروبا الغربية، في فرنسا (٥٣٪)، وايطاليا (٥١٪)، و المانيا (٧٠٪) لاستخدام القوة، وكذلك في الولايات المتحدة (٤٦٪)، فان العمليات العسكرية بدأت بسلسلة من الغارات الجوية. وبدا واضحاً ان اشارة الاقتحام لن تعطى الا بعد تسديد ضربات شديدة للمواقع العسكرية لصدام حسين. وهذا التشكل يتيح في كل لحظة اعادة النظر في سير العمليات اللاحقة والتحكم بكل تصعيد للمعركة. بالنظر لجهل الاميركيين بنوايا صدام حسين، فقد اكتفوا بمنعه من الحاق الضرر بهم عبر عمليات « جراحية » محسوبة بدقة متناهية بفضل سيطرتهم على الوسائل الحديثة للاتصال بواسطة الاقمار الاصطناعية بحيث لم يخشَ الرأي العام عواقب القصف المدمر للسكان المدنيين والتي قامت به طائرات ب ٥٢، في آخر مرة، في فيتنام. ذلك ان بوش لم ينسَ، منذ البداية انه يخوض الحرب امام عدسات التلفزيون.

الحرب ووسائل الاعلام والرأي العام

لا معنى للتورط الاميركي في الحرب، اذا لم يكن الجنود الاميركيون وحلفاؤهم المدافعون اليوم أكثر من أي وقت مضى عن الحق المنتهك وعليهم ان يتحصّنوا بالله والاخلاق، في كل الظروف. ومن غير الوارد جعل الشعب العراقي يدفع « جنون » صدام القابع، مثل هتلر، في غرفة محصنة تحت الأرض من صنع المانيا، ويرغب مثل هتلر، استخدام القنابل الكيميائية التي يقال أن عناصرها المكوّنة قد شحنها اليه صناعيون المان. ألم

يتم تطوير الصواريخ السوفياتية لاصابة الاهداف الاسرائيلية من قبل فيزيائيين المان ؟ الم ينتهك صدام حسين حدود دولة لا دفاع لها كما فعل هتلر في الماضي، مع النمسا وتشيكوسلوفاكيا ؟ هذه المقارنة المستمرة التي عرضتها وسائل الاعلام في فرنسا والولايات المتحدة، كانت تمسّ ايضاً المانيا حيث استهجن الرأي العام في غالبيته التظاهرات الصاخبة التي قام بها انصار السلام وسدوا مداخل المطارات ونشروا خطاً من الدم الحيواني بين السفارة العراقية ومقر قيادة الاركان الاميركية في برلين. كان ويلي براندت والوسط السياسي يؤيدان اميركا، حتى ولو عبّر شميدت وكول عن « تفهمهما » لانصار السلام الانقياء » الذين نادوا بشعار : « ان شن الحرب ضد مجنون، عمل مجنون »، ورفضوا التورط في التصعيد المأساوي، على الرغم من ان عدداً كبيراً من المثقفين لفت نظر الرأي العام الى مسؤولية المانيا، على وجه الخصوص في الحكم على نزاع يطرح مبدأ حق الدول على بساط البحث.

وكتب غونر نونينماخر في « فرانكفورت المانيا زيتونغ » يقول : « من لا يكون على استعداد لمحاربة العنف بالعنف، فلا مصداقية لديه ». في بريطانيا، حيث الشعب يميل بصورة خاصة للدفاع عن حقوق الانسان والدول، ايد مجلس العموم بشبه الاجماع رئيس الوزراء جون مايجور عندما اعلن : « ثمة مبدأ حيوي يتعرض للخطر، اذ لا يجدر البتة ترك المعتدي يفعل ما يشاء ». كذلك حقق فرانسوا ميتران النجاح نفسه في البرلمان الفرنسي. فذاكرة الشعوب كانت تدين صدام ايضاً.

كانت التظاهرات من اجل السلام حاشدة واحياناً عنيفة في الولايات المتحدة اولاً ثم في فرنسا والمانيا وخصوصاً في بعض الدول العربية كالمغرب والاردن. واعادت مسيرتا نيويورك وسان فرنسيسكو الى الاذهان مسيرات سنوات فيتنام والنضال من اجل الزنوج. لكن الصحافة، هذه المرة، لم تجارها، حتى ولو طالبت نيويورك تايمز النواب بالتصويت

ضد الحرب اذ يجب الاقرار بان هؤلاء كانوا فريسة « الهاجس الفيتنامي » كما لم ينل بوش سوى غالبية من خمس اصوات في مجلس الشيوخ، فيما دعا السيناتور ادوار كينيدي الى عدم تورط الولايات المتحدة في « وكر الزنابير » الجديد. غير أن الواشنطن بوست ايدت بوش، فيما سارعت نيويورك تايمز الى اللحاق بالركب والى معادلة افتتاحياتها بدقة بغية الاخذ بعين الاعتبار الانقسامات الواقعة في صفوف جمهورها. لم يؤيد ديمقراطيو اليسار والجمهوريون في اقصى اليمين دخول الحرب، واسفوا ان تأتمر قنوات التلفزيون « بأوامر البيت الابيض »، على حد ما كتب معلقِ التايمز دافيد برودر. في فرنسا، أدان الشيوعيون وانصار جان ماري لوبان مع بعض الشخصيات من محبي السلام، حرب الخليج، فيما عرض التلفزيون، كما في الولايات المتحدة، مقابلات لاسر الجنود الذاهبين الى الجبهة، وكذلك مشاهد وصوراً للطاغية العراقي، جزّار الاكراد والشيعة. اما تحفظات وزير الدفاع جان ـــ بيار شوفينمان الذي واجه صعوبة في احلال التوافق بين القوات الفرنسية والباكستانيين العاملين في الجيش السعودي من جراء استياء هؤلاء من وجود اولئك الجنود الكفار على الأرض العربية المقدسة، فلم تكشف عن قيام تيار مناهض للحرب داخل الاكثرية الا مع استقالته التي جاءت بعد بدء الاشتباكات العسكرية. واعرب قسم من الاسرة الديغولية (الاميرال فيليب ديغول، وعضو مجلس الشيوخ والنائب الشاب جان ديغول، ميشال جوبير وزير الخارجية السابق في حكومة جورج بومبيدو والنائب في حزب التجمع من اجل الجمهورية (ر ب ر) جان ـــ لوي دوبريه نجل رئيس الوزراء السابق) عن خشيته من القضاء على سياسة فرنسا العربية، فيما ضاعف المسؤولون الحكوميون من التصريحات لاقناع الاقلية المسلمة في فرنسا بأن الاشتراك في الحرب لا ينطوي على موقف معادٍ للعالم العربي. وحرص رئيس الجمهورية على التوضيح بأن هدف فرنسا من الحرب هو تحرير الكويت وليس القضاء على العراق.

تعزز الاجماع تدريجياً في الرأي العام الفرنسي على الرغم من التعاطي الاعلامي الشاذ مع العمليات العسكرية الذي فرضته الولايات المتحدة. ويمكن تفسير الاجراءات التعسفية التي اتخذتها القيادة العسكرية من اجل احتواء الاعلام في اطار رقابة شديدة، بذكرى « السنوات الفيتنامية » وشن وسائل الاعلام الحملات المناهضة للحرب (كذا فعلت الحكومة البريطانية ابان حرب جزر المالوين على الرغم من احتجاج المراسلين الاجانب والتابعين لاذاعة بي بي سي. واذا كانت القناة سي.ان.ان. بثت الاخبار طيلة ٢٤ ساعة دون انقطاع، فان مصادر اخبارها خضعت للرقابة والتحريف. وكان التضليل الاعلامي، الذي افاد منه صدام، ناجماً عن كم الافواه الاعلامية، وذلك ان مراسلي كل الاقنية العالمية الذين وضعت تحت تصرفهم احدث وسائل الاتصال واستخدموا اجهزة الاقمار الاصطناعية الباهظة الثمن، كانوا لا يبثون سوى صورتهم الشخصية من غرفة الفندق حيث يقبعون او من تحت خيمة نصبت لهم. كانوا ينقلون صوراً خاطفة عما لا يقال لهم.

بين ليلة وضحاها، اخذت الاخبار حتى المراقبة منها تتداخل فيما بينها بشكل خطير. فقد علم في اليوم الأول ان الغارات الحليفة قد دمرت تماماً كل الاهداف العسكرية وشلت الدفاعات العراقية من دون وقوع خسائر في صفوف الحلفاء. في اليوم التالي، سقطت اولى صواريخ سكود على اسرائيل. واعلن شوفينمان ان اربع طائرات جاكوار فرنسية اصيبت بنيران الدفاع العدوة التي قيل عنها انها ابيدت. بعد خمسة ايام، كان لا بد من التصويب واعلن عن قيام « حرب اطول مما كان متوقعاً »، وكشف عن المبدأ الذي اعتمده العراق في الدفاع، حيث دفن طائراته تحت الارض فيما كان يمتلك منصات متحركة للصواريخ لم تتمكن الاقمار الاصطناعية من كشفها — والمنصات التي احصيت بين الخسائر، كانت بلا شك خدعاً منصوبة لايهام العدو. واضطرت قيادة الاركان الفرنسية للاشارة الى ان اطلاق صواريخ باتريوت لم يكن دائماً ذا فعالية وان امد تلك

الصواريخ قد سقط على احدى البنايات في الرياض. ولم تعط اية معلومات عن الخسائر في صفوف السكان المدنيين العراقيين، فيما عدا مناسبة الخطأ الجسيم الذي ارتكبه الطيران حين قصف غرفة محصنة كان يظن انها عسكرية وكانت في الحقيقة ملجأ يضم سكان الحي. وكان الرأي العام الذي سحرته صور الحرب التلفزيونية، يلتقط أحياناً برامج تعبّر عن رفض لما يجري. ففي بريطانيا، ساد الاستهجان اوساط الرأي العام لما قام به مراسلو البي.بي.سي حين كشفوا في برنامج « بانوراما » (الذي اعادت بثه القناة ٣ في فرنسا) تفاصيل مبيعات الاسلحة التي تزود بها العراق من الدول الصناعية منذ عشر سنوات. غير أن بعض الصور كان لا بد منها، كتلك التي بثت بموافقة العراق حول الاسرى. الاميركيين المذعورين والمنهوكي القوى، ولا سيما مشاهد اول صاروخ سكود سقط على تل ابيب في ٢٢ كانون الثاني وأوقع ٣ قتلى وما يقارب ١٠٠ جريح. فهل كانت اسرائيل الضحية الوحيدة لحرب العرب ؟

النهاية الغربية

كان من السهل التحكم بنزوات الرأي العام بقدر ما كانت مصادر الاخبار حذرة. وقد اثارت ردات فعل الطائفة اليهودية في اميركا واوروبا، بعد سقوط اولى صواريخ سكود على اسرائيل، قلق الرئيس بوش : كيف يمكن تحاشي تدخل الجيش الاسرائيلي في المعركة والغارات الانتقامية الاسرائيلية ؟ واذا كانت صواريخ باتريوت غير فعالة، كيف يستطيع السكان في ظل اجواء القلق السائدة احتمال المراحل المقبلة للحرب ؟ واثار توزيع كمامات الغاز الخوف من الضربات بالاسلحة الكيميائية. وجرى الحديث عن قذائف ذرية مصنوعة بطريقة يدوية. فماذا ينتظر شوارزكوف لاصدار الامر بالهجوم ؟

كان خطر الهجوم الاسرائيلي على العراق كبيراً بحيث ان القوات الحليفة بقيت ساهرة على سلامتها حتى بعد تشرذم قوات العدو. ولم

يتسرب شيء عن مضمون الاتصالات التي قام بها الاميركيون لابقاء اسرائيل على الحياد. من الواضح ان الشجاعة السياسية في هذا البلد جعلت عملية الهجوم ممكنة آنذاك، الامر الذي ادى الى القضاء على « رابع جيش في العالم ». جرى تنفيذ الخطة الاميركية حرفياً، بعد الخدعة بقيام انزال بحري في المنطقة الشمالية الشرقية من الكويت، وقامت الدبابات السعودية بعملية استطلاع اتاحت لجمهور التلفزيون رؤية الاعلام الخضراء تخفق فوق المواقع المحصنة الى جانب الحلفاء. هل يتجرأ المسلمون في الجانب الآخر اطلاق النار على اخوانهم ؟ سبق هذه الحركة بفترة وجيزة هبوط سرب من الطائرات الفرنسية التي انجزت اطول مسيرة لها في اطار عملية « داغيت ». خلال بضع ساعات، توقفت كل مقاومة، من دون التوصل الى معرفة عدد الضباط الفارين. وابرزت الصور الملتقطة بين حطام الدبابات المشتعلة، مجموعات من الجنود منهكي القوى، وهم يخرجون من خنادقهم. في ٢٨ شباط، وبعد ٤٢ يوماً من المعارك، منها مئة ساعة من الهجمات البرية، جرى توقيع وقف اطلاق النار.

ذكرت الصحف آنذاك نشوء خلاف بين بوش وشوارزكوف. هل نجا الحرس الجمهوري لصدام من الحصار ؟ حافظ العراق على بعض قواته سالمة وكان يمكن القضاء عليها بسلوك الطريق الى بغداد. لا شك أن العراقيين دفنوا عشرات الآلاف من القتلى، فيما لم يخسر الحلفاء سوى عدد ضئيل من الضحايا. اما المجابهة التي أعلن عن احتمال وقوعها وجهاً لوجه في الخنادق فلم تقع. والقوات الفرنسية والسنغالية وكذلك البحرية الاميركية والفرقة البريطانية، لم تشترك فعلياً في المعركة. كم هي غريبة تلك الحرب التي انتهت بلا انتصار، وحيث بقي صدام حسين متخفياً وصامتاً، ومحتفظاً بما يكفي من الجيش لسحق المتمردين الشيعة والاكراد بكل وحشية. من اقنع بوش بالعدول عن تحقيق انتصاره ؟

كان بوش يحرص على تحرير الكويت، وهو هدف الحرب المعلن من بداية الازمة الى نهايتها. كان بوش وشوارزكوف وبايكر على معرفة وافية بأحوال الشرق كيلا يخشوا تحقيق سلام مخزٍ للرأي العام العربي. فلو هُزم العراقيون، لكانوا تمتعوا في العالم العربي بتلك الهالة من البطولة الشهيدة التي اتاحت لعبد الناصر اعتلاء المرتبة الاولى بعد هزيمته العسكرية عام ١٩٦٧. حتى ولو لم يكن السوفيات هناك لاعادة تسليح البلاد بسرعة، فإن غورباتشيف حذّر اصدقاءه الجدد بأنه يعتبر العملية بمثابة ضربة رادعة لتوسّع صدام حسين وليس هزيمة للعراق. كذلك كان الموقف الفرنسي مماثلاً للسوفياتي. فالعدول عن تدمير ما بقي من القوة العراقية من شأنه اقامة علاقات متينة بين الولايات المتحدة وحلفائها العرب ان لم يكن بدء مفاوضات فورية حول الشرق الاوسط، وهو احتمال يرفضه شامير بشدة، ولا يستطيع الفلسطينيون الذين تورطوا في تحالفهم مع صدام، ان يفرضوه.

كان بوسع بوش الاعتقاد أنه حقق انتصاراً فعلياً من خلال عودة الولايات المتحدة الى ممارسة دور الحكم في احلال السلام في العالم، وفي المنطقة الوحيدة التي تشهد نزاعات تثير القلق والخوف. وقد نجح فارس البيت الابيض بلباسه الاسود في اللحظة الاخيرة، في ترويض الحصان المجنون « لدرع الصحراء »، الامر الذي اسبغ على تلك الحرب الوان النقاوة والاخلاق والانسانية. واستعاد المحاربون في الخليج في المقابلات التي اجريت معهم، نبرات ولسون وروزفلت في « حرب الحق والقانون ». وبفضل تعاونهم مع حلفائهم، اعادوا للامم المتحدة نفوذها المعنوي الذي خسرته خلال الحرب الباردة. وجرى نفض الغبار عن عبارة الاسرة الدولية التي تختلف عن « الائتلاف الدولي » العزيزة على قلب كيسينجر. واصبح العالم واحداً من جديد وصار اميركياً. يا للنصر الكبير، بعد نصف قرن من الجهد والتضحية ! فحرب الخليج تكمّل من هذه الزاوية الانفراج الذي قام في اوروبا الشرقية. وكان غورباتشيف قد دخل،

حتى النهاية، في لعبة واشنطن، وهي لعبة شارك فيها لان السلام من دون انتصار يندرج في صلب اهتماماته الشخصية. ولم تعد اميركا، كما في عهد ترومان او ايزنهاور، « شرطي العالم »، ويمكنها ان تعتقد او تعطي الانطباع ـــ بانها عادت لتكون « ضمير العالم ».

ان العرض المدهش للطائرات والصواريخ والدقة العلمية لحرب لم تعد بحاجة لبطل بل لعامل ميكانيكي (اوبراتور) فقط، ويمكنها، من خلال استخدام الاسلحة والصور، تحقيق وفر كبير في عدد الضحايا، كل ذلك ابرز تفوق التكنولوجيات الاميركية التي تحدّت وهزمت الاسلحة المنافسة وغطت على اسلحة الحلفاء التي بدت فجأة بالية وقديمة العهد، بالمقارنة مع الطائرات الخفية واللايزر. اية دعاية لانجازات حرب النجوم افضل مما عرضته شاشات سي.ان.ان. : فالتقدم التكنولوجي لم يعد بحاجة للجوء الى الصواريخ الذرية من اجل خوض حروب من دون ضحايا ومن دون عدو حقيقي، لانه يقتضي لخوض معركة فعلية، بلوغ مستوى تقني جيد. لقد تكللت جهود البنتاغون، في عهد ريغان، بالنجاح. وبرهنت اميركا انها عادت تمتلك وحدها « الدرع » الاقوى في العالم. وباستطاعتها استثمار هذا التفوق المعلن في كل الاسواق، في حين ان منافسيها المباشرين، المانيا واليابان، لا وجود لهم في هذا السباق، فهما ثريان، انما عاجزان.

ما تزال آبار النفط التي احرقها صدام مشتعلة، لكن الذهب الاسود عاد الى حضن الغرب، بصورة قاطعة لا لبس فيها. لم يظهر القذافي في هذا النزاع كما لم تساعد ايران العراق. اما الاوروبيون فيمكنهم الاغتباط لعودة الحق والقانون، حتى ولو كان الثمن المدفوع باهظاً لبعضهم. واستعادت المبادلات الاقتصادية انماطها السابقة، لكنها بقيت بعيدة، اكثر من اي وقت مضى، عن المناطق المحرومة من الكرة الأرضية، وهي المناطق التي لا تمتلك امكانات خوض حربٍ للتحرر من البؤس.

البشرية : خمس مليارات نسمة

خلال نصف قرن، تضاعف عدد سكان الأرض وتجاوز عام ١٩٩١، الخمس مليارات نسمة. لم يتغير توزع البشر في المعمورة. والجغرافيا لم يلحق بها اي تعديل لجهة أعمال المناطق الصحراوية والجبلية والغابات وتحويلها الى امكنة آهلة بالسكان. كما ان الشيوعيّة لم تحوّل صحراء بامير اكثر مما استطاعت الرأسمالية ــ على الرغم من ضراوتها التدميرية ــ على فعله في غابة الامازون، اذ لم تستطع سوى قطع بعض الروابي لاستخراج الحديد في ميناس جيري، وحفر بعض منخفضات النحاس في التشيلي.

يصيب الاكتظاظ السكاني، اليوم أكثر من أي وقت مضى، سهول الاندوس والغانج والانهر الصينية الكبرى الثلاث والنيل والفرات، ووادي نهري السين والرين. وبحيرات اميركا الكبرى. وحركات السكان، بحسب احصاءات الامم المتحدة، لا تتم في معظمها، بين القارات، اذ أن البشر ينزحون، على كافة القارات، من الريف الى المدن، هاربين من الجوع الى البؤس. وأدى بناء سد اصوان الذي يزود مصر بالكثير من الطاقة الى قحط جزئي في واديه، والى رحيل الفلاحين باتجاه القاهرة حيث يشكلون فئة واسعة تتضور جوعاً. فهم يصنعون، ليلاً، حجارة الآجر من الطمي الاكثر خصباً في العالم، والذي لم يعد فيضان النيل يرويه بمياهه. كان ثلث سان العالم يعيشون في المدن، عام ١٩٥٠، ولا شك أنهم بلغوا

النصف، في الوقت الحاضر. وارتفعت هذه النسبة في الدول المتطورة من ٥٣ الى ٧٤٪، بين الاعوام ١٩٥٠ و ١٩٩٠. وتراوحت بين ١٧ و ٣٤٪ في الدول النامية حيث الاقامة في المدن هي في الغالب مرادفة للبؤس. وتحوي افريقيا وهي الاكثر فقراً بين القارات ضعف عدد سكانها في المدن (من ١٤ الى ٣٥٪). واذا كان الاكتظاظ السكاني في المدن يعتبر في الماضي رمز التقدم، حتى في الدول المتطورة، فقد اصبح اليوم اشارة خطر : « فالشارع العربي » الذي يدخل في الحسابات الجيوستراتيجية، هو قبل كل شيء ملاذ المجتمعات الريفية المحرومة والمتسكعة. وثمة احتياطي حقيقي من البؤس يحيط ببعض المدن كنيويورك ولوس انجلوس وريو دي جانيرو والقاهرة وكلكوتا. فالمدن الكبرى في اوروبا الغربية تحولت، في زمن البطالة والهجرة غير المشروعة الى مناطق غير آمنة لكونها تضم فئات اجتماعية تعاني الفقر والعوز.

كان سكان العالم، عام ١٩٤٥، بنسبة الربع، سوفيات واوروبيين. وتدنت هذه النسبة، عام ١٩٩٠، الى ١٤٪. ويخشى ان تهبط اكثر، من جراء تدني معدل الولادات لسكان النصف الشمالي للكرة الأرضية. فالاتحاد السوفياتي يفتقر الى اليد العاملة، والشعب الفرنسي لا يتزايد الا بفضل الهجرة. منذ عشرين سنة، ثمة ٢٤ بلداً اوروبياً من اصل ٢٠، لم تعد تؤمن استبدال الاجيال باخرى. وفي المانيا وهي الدولة الاكثر غنى بينها، تدنى معدل الاستبدال من ٢,١ الى ١,٥. ويعود احد اسباب هذه الظاهرة الى امتداد الحياة لسنين طويلة بفضل تقدم الطب الاجتماعي. ولا يصيب تدني معدل الولادات اوروبا الشمالية وحدها. فقد سجلت كندا أيضاً هبوطاً في الولادات بنسبة النصف. أما في الولايات المتحدة فلم يسجل معدل الولادات هبوطاً سوى بنسبة الربع فقط بالنظر لارتفاع الخصوبة في اوساط المتحدرين من اصل اسباني والمهاجرين اليها من بورتوريكو. واتاح نشاط منظمة الصحة العالمية والتقدم الطبي الحدّ من الوفيات بنسبة النصف في دول العالم الثالث، فيما بقي مستوى الولادات

مرتفعاً طيلة ثلاثين سنة. ويفسر هذا الهبوط في معدل الوفيات الكثافة السكانية لبعض مناطق آسيا وافريقيا وكذلك اميركا اللاتينية حيث تميل تلك الكثافة الى الانكفاء بسبب تدني الخصوبة منذ عام ١٩٧٠. وتشهد البرازيل ومصر والهند واندونيسيا تناقصاً يفوق ٢٠٪ في غضون عشر سنوات. ومارست الصين الشعبية سياسة متشددة في تنظيم الولادات وحققت هبوطاً قدرها ٣٤٪، فيما بلغ في كوبا ٤٧٪.

يتفاوت التعاطي مع مسألة الكثافة السكانية تبعاً لاهمية العامل الديني. فالدول الشيوعية نجحت في الاجمال في انتهاج سياسة الحد من تزايد السكان، التي تتناقض مع نظريات علماء السكان السوفيات في الخمسينات التي كانت تنتقد المفهوم الغربي لعدد « السكان الامثل ». وادى الثراء والتقدم الصناعي في حقل وسائل منع الحمل الى تغلّب المجتمعات المسيحية المتطورة على المحرّمات الدينية، وبدا تأثير البابا في هذا الموضوع غير ذي فعالية كبيرة. بالمقابل منيت سياسة الحدّ من الولادات بالفشل في الهند، حيث ارتفع عدد السكان من ٣١٢ مليون، عام ١٩٣٩، الى ٧٦٦، عام ١٩٨٦، ويتوقع ان يبلغ هذا البرقم ٩٧٦ في العام ٢٠٠٠. فهل التحريم الديني واستمرار العادات الريفية في القرى المكتظة مسؤولان عن هذه الحال ؟ ان الشعوب الاسلامية ما تزال على الرغم من اقامتها جزئياً في المدن، كثيرة الانجاب، لدرجة الاخلال بالتوازن الديمغرافي في المناطق الجنوبية من الاتحاد السوفياتي.

ادت الكثافة السكانية العالية في بعض المناطق الى هجرة شبيهة بالدياسبورا، مع استيطان بعض الجاليات في مهاجرها الجديدة. ولا يشكل البؤس السبب الوحيد لهذه الحركات السكانية، التي نجمت ايضاً عن دوافع سياسية. واتاحت المجاعات التي وقعت في القرن التاسع عشر نشوء تجارة العمال الصينيين في مناجم اميركا واوستراليا. كما ادت حروب القرن العشرين الى هجرات جديدة. ففي جنوبي شرقي آسيا، لا يقل عدد

الصينيين عن ٢٠ مليون نسمة (من دون احتساب تايوان وهونغ كونغ). وهم كثيرو العدد وناشطون خصوصاً في الفيليبين واندونيسيا على الساحل الغربي للولايات المتحدة وفي نيويورك. ومن بين الصينيين المقيمين في الولايات المتحدة والبالغ عددهم ١٢٦٠٠٠٠ نسمة، ثمة العديد من اللاجئين الوافدين حديثاً. فقد رحل ٣٠٠٠٠٠ من فيتنام لمشاركة سائر المهاجرين الآخرين بؤسهم. فالاحياء الصينية في المدن الكندية والاوروبية تتوافر فيها بنيات متماسكة لاستقبال ومؤازرة القادمين الجدد، الامر الذي يؤمن للمهاجرين امكانات الاقامة الدائمة. ويقدّر عدد هؤلاء المهاجرين بنحو ٢,٥ مليون نسمة، و ٦ ملايين من الطليان القاطنين في سينغافورة، وسريلانكا وجزيرة موريس في افريقيا الجنوبية. في بريطانيا، لا يقل عددهم عن ١,٥ مليون، اذا اخذ الباكستانيون والسريلانكيون بعين الاعتبار. فيما يعيش ٨٠٠٠٠٠ في الولايات المتحدة وكندا.

كثر عدد الاذاعات العربية في اميركا بسبب تدفق اللبنانيين والفلسطينيين الهاربين من الحرب الاهلية والارهاب. ما هو عددهم في افريقيا السوداء والارجنتين والبرازيل؟ يقدر عدد المغتربين بنحو ٢,٥ مليون من التجار والفلاحين الذين استوطنوا فرنسا واوستراليا وكندا والولايات المتحدة، بفضل ما يتمتعون به من مواهب تجارية وشبكة علاقات واسعة. لم يبقَ الفلسطينيون مقيمين جميعاً في مخيمات الاردن ثم في لبنان وسوريا. فالذين توافرت لهم الامكانات، هاجروا الى اميركا اللاتينية، وحديثاً الى الولايات المتحدة حيث يؤلفون بعض الجاليات فيها. وتلتقي هذه الهجرة السياسية مع تلك الهجرة الأكثر عدداً التي اضطرت الولايات المتحدة الى استقبالها من ضحايا حرب كوريا وفيتنام. فالكوريون قدموا للمعامل اليابانية اليد العاملة لفترة طويلة وباجرة متدنية. ومنذ عام ١٩٧٥، حلّ ٥٠٠٠٠٠ مهاجر منهم في كاليفورنيا. حول لوس انجلوس. ترافق هذا الغزو السلمي مع اولى عمليات التسلل بحراً (٢٠٠٠٠٠ نسمة). واستؤنفت هذه الحركة بعد تحوّل فيتنام الجنوبية

الى دولة تدور في فلك الاتحاد السوفياتي، عام ١٩٧٨. فغادر حينذاك حوالي ١,٣ مليون شخص، بلادهم بكافة الوسائل المتاحة، واستوطن ٧٠٪ منهم في اميركا. واضطرت الدول الغنية الى مواجهة موجات هجرة غير متوقعة جاءت تثأر لشعوب جار عليها التاريخ بمظالمه.

كانت الهجرات، في معظمها، حصيلة حركة سكانية مستمرة باتجاه مناطق النشاط والعمل. فالهجرة من الجنوب الى الشمال كانت بهدف الاستثمار في الدول الصناعية في اوروبا واميركا. ومن المتعذر كبحها. والاميركيون انفسهم الذين يتشددون في تطبيق سياسة الحد من موجات الهجرة، لم يتمكنوا من اغلاق حدودهم. فهناك ١١ مليون مكسيكي وكوبي وبورتوريكي و ٨٠٠٠٠٠ عربي، و ٦,٧ مليون هندي من امريكا اللاتينية، وقد التقوا مع مليوني اصفر، ليؤلفوا الى جانب ٢١ مليون زنجي دولة إميركية متعددة الاعراق حيث تتعايش شعوب من كل الديانات والاصول في احياء بائسة من المدن. الى ذلك، هناك ٥ ملايين يهودي، و ٨,٢ مليون بولوني و ١٢ مليون ايطالي وعدد مماثل من الفرنسيين (الناطقين بالفرنسية في مقاطعة لويزيانا)، ويبلغ مجموعهم ٣٨ مليون اوروبي، مقابل مجموعة انكلوسكسونية يبلغ عددها ٩٨ مليون نسمة ونصفها من اصل الماني. اما الاسكوتلانديون والايرلنديون فيميلون بالاحرى، الى المجموعة الكاثوليكية بحيث ان البروتستانت لم يعودوا يشكلون سوى اكثرية ٥٥ مقابل ٤٥. الامر الذي يحدّ من تفوق الآباء المؤسسين، حتى ولو كان الرئيس بوش خير من مثّل استمرارية حكم الابيض المتزمت. ولد في ميلتون، من ولاية ماساتشوستس، وهو يجسد استمرارية مفارقة تاريخية لتقليد سياسي وضعه سياسيون من شمالي ــ شرقي البلاد لاميركا متغيرة ومتعددة الاعراق والديانات.

ومثلما حافظت الهجرة الحديثة على معدل ولادات ملائمة للشعب الاميركي كذلك كانت فرنسا مدينة للاقليات بالمحافظة على مستواها

الديمغرافي المناسب، مقابل تراجع واضح في اوروبا، (ما عدا ايرلندا واليونان ويوغوسلافيا). واهم مصادر الهجرة اليها تتمثل في افريقيا الشمالية مع قدوم ٧٨٠٠٠٠ جزائري و ٥٢٠٠٠٠ مغربي، عام ١٩٨٤، (بحسب مصادر وزارة الداخلية)، مقابل ١٣٥٠٠٠ من المتحدرين من المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا السوداء. بين الاعوام ١٩٧٤ و ١٩٨٤. اقام في فرنسا مليونا اجنبي اضافي، منهم مليون واحد ولد على ارضها من ابوين اجنبيين. قياساً على هذه الهجرة، تبدو اقامة الفرنسيين المتحدرين من المقاطعات الفرنسية وراء البحار متواضعة، اذ بلغ عددهم ١٣٢٠٠٠ من الانتيل و ٤٠٠٠٠ من الرينيون، و ٣٠٠٠ من غويانا. اما المسلمون الاجانب المقيمون مع عائلاتهم في فرنسا، فيشكلون الطائفة الدينية الثانية في البلاد اذ يتراوح عددهم بين ٣ و ٤ ملايين مسلم (من بينهم ١٥٠٠٠٠ فرنسي اهتدوا الى الاسلام)، وجرى افتتاح ٤٠٠ جامع ومكان عبادة في منطقة باريس وحدها. وقدّر عدد المهاجرين خلسة الى البلاد، عام ١٩٨٤، بنحو ٣٠٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠٠ نسمة. هل كانت فرنسا معنية وحدها بهذه الموجة القادمة من الجنوب ؟ في الواقع، واجهت المانيا الفيديرالية في السنة نفسها هجرة ٤,٣ مليون اجنبي، ثلثهم من الاتراك، كما استقبلت بريطانيا ٣,٥ مليون معظمهم من الباكستانيين والهنود وبلاد الانتيل، وواجهت بلجيكا هجرة ٩٦٠٠٠٠ من بينهم ٤٢٠٠٠٠ قدموا من مستعمراتها السابقة. وهكذا قررت دول اوروبا الشمالية التي كانت تدّعي الليبرالية التجارية، الحد من هذه الموجة، اعتباراً من عام ١٩٧٥، في الوقت الذي كان فيه الركود الصناعي والتحولات الاقتصادية يدفعان باتجاه الاستغناء عن اليد العاملة غير المتخصصة. وكان من الصعب وغير العادل ان يصار بموجب القوانين الاجتماعية، الى طرد عائلات اولئك العمال حيث قام الكثيرون من بينهم بتعداد انفسهم بين العاطلين عن العمل.

اتاحت مساعدة البلدان المصدّرة للمهاجرين، التخفيف من حدة تلك

الموجة، من خلال انشاء مؤسسات تساعد على استقرار اليد العاملة في موطنها. غير ان توالي الازمات ادّى الى تضاؤل تلك المساعدات بصورة تدريجية. وسعت كل « القمم » المخصصة، منذ عام ١٩٧٤ للحوار بين الشمال والجنوب (كانكون : عام ١٩٨١؛ فرساي : عام ١٩٨٢ ثم كينشاسا) الى تحديد قواعد صارمة بشأن المساعدات الالزامية التي تقدمها الدول المتطورة، وتخفيف ديون البلدان النامية او الغائها. في الواقع، جاءت اللعبة الدولية الجديدة وظروف المنافسة القاسية لتخفف من حجم القروض الممنوحة، من جراء تدني المساعدات العسكرية التي كانت تشكل غالباً، في ظل المواجهة بين الشرق والغرب، القسم الاكبر من الاستثمارات. وفيما توقفت الولايات المتحدة عن اعتبار افريقيا مصدراً احتياطياً للمواد الاستراتيجية، شهدت هذه القارة انخفاضاً كبيراً في مبادلاتها الدولية، سيما وان المواد الاولية الزراعية كانت تعاني، في الوقت نفسه من منافسة شديدة مع منتجات سائر القارات الاخرى.

كان التحوّل الصناعي الذي جرى في السبعينات والثمانينات قد جعل الولايات المتحدة اقل حاجة الى المواد الاولية وحتى الى الطاقة. وثمة عشر دول تقريباً تحتكر ٨٠٪ من المبادلات التجارية التي تطال اكثر فاكثر المنتجات الصناعية. وطوّر « تنانين » اسيا مبيعاتهم بقدر ما توصلوا ايضاً الى تسويق الادوات الاستهلاكية وليس السلع الزراعية أو المواد الاولية. عام ١٩٩٠، هبط حجم الصادرات في الدول الافريقية بنسبة الثلث، وفي دول اميركا اللاتينية بنسبة الربع، في الوقت الذي كانت ديونها الخارجية ترتفع ارتفاعاً كبيراً. وفشلت المحاولات الاقليمية الجارية لخلق اسواق اقتصادية مشتركة؛ ولم تنجح الدول الاعضاء في الاتحادات الاميركية ــ اللاتينية أو الاسيوية في انشاء مناطق تجارية حرة ولا في تنفيذ برامج صناعية منتجة. واضطرت، من جراء الأزمة، الى الحفاظ على بنياتها التبادلية القديمة مع الدول الغنية حيث أودت بها الى العجز والانهيار : والغريب ان حجم الديون التي سددتها دول الجنوب

الى الشمال، بدءاً من عام ١٩٨٤ كان اكبر من حجم القروض الممنوحة من الشمال الى الجنوب. انها الحية التي تأكل ذنبها. وارتفع حجم الديون من ٥٠٠ مليار دولار، عام ١٩٨٠، الى ١٣٠٠ مليار، عام ١٩٩٠. وبدا من الملحّ تصور سياسة اخرى غير تلك التي ينتهجها صندوق النقد الدولي الذي كان يشترط، للموافقة على قروض جديدة، القيام « بتطهير » مالي وايجاد التوازن في بنود الموازنة، لا سيما من خلال اقتطاع اجزاء هامة من المساعدات الاجتماعية والبرامج التربوية. اما فرنسا التي نظرت بجدية الى مسؤولياتها الافريقية، فقد عرضت تعديل سياسة التضييق هذه، كما اكد فرانسوا ميتران في خطابه في تورونتو، عام ١٩٨٩، هذا الاتجاه، وكذلك خطة الاميركي برادي عام ١٩٨٩.

غير ان هذه الحلول جاءت متأخرة. ففي العالم الثالث، ادّى تفاقم الأزمة الى عودة المجاعات السالفة الى بنغلادش والحبشة والبرازيل والساحل الافريقي. والتضامن الدولي مع تلك الشعوب غير كافٍ لحمايتها من اخطار الكوارث الطبيعية التي تتهددها، لا سيما الجفاف. وقامت مؤسسات للاغاثة في العالم كله، وسعت مؤسسة « اطباء بلا حدود » لمحاربة عودة ارتفاع الوفيات بين الاطفال في مناطق الجوع، حيث بلغ معدلها في افريقيا ١١٣٪ (مقابل ١٢ في اوروبا و ١٠ في الولايات المتحدة). واجتاحت ثورات جوع حقيقية المناطق النامية في القارات الثلاث واتخذت منحى خطيراً ودائماً في المغرب بسبب ارتفاع اسعار المنتجات الغذائية والنقل والتي اثارها تطبيق تدابير اقتصادية تحظر المساعدة الاجتماعية ورفع الاجور. وادت الاضطرابات الدموية المناهضة لسياسة صندوق النقد الدولي الى سقوط ٩٦ قتيلاً في الدار البيضاء، عام ١٩٨١، و ٤٠٠ في مراكش، عام ١٩٨٤. وتسببت ثورات « الخبز » في تونس عام ١٩٨٤ بمقتل ١٠٠ متظاهر. وكان بورقيبه قد الغى سياسة دعم السلع الغذائية، بناء لتوصيات صندوق النقد الدولي، فاضطر لترك الحكم بعد ثلاث سنوات. وكانت للاضطرابات الخطيرة في الجزائر

والتي ادت الى رحيل الحكومة في تشرين الأول ١٩٨٨ ذات الاسباب والنتائج اذ اوقع تدخل الجيش اكثر من ٥٠٠ قتيل. واعلن صندوق النقد الدولي عدم امكانية « قبوله » عضوية السودان الذي ثار عام ١٩٨٥ ضد التدابير التي اتخذتها الحكومة السودانية. وحدها القروض الاميركية واقامة حكومة عسكرية، اتاحتا لتركيا، في بداية الثمانينات، ان تنجو من فوضى الاضطرابات. وتسبب النقص في الحاجات الضرورية عام ١٩٨٢ في قلاقل دموية، في مدغشقر، وفتن في زائير. وشهدت كل دول اميركا اللاتينية وبحر الكاريبب اضرابات دموية وحوادث نهب وسلب. واثارت سياسة التقشف التي فرضها صندوق النقد الدولي الذي يشرف عليه رجال المال وخبراء من اميركا الشمالية واوروبا واليابان، اضطرابات اجتماعية خطيرة في كل مكان من العالم، لا سيما في الدول الاكثر فقراً كفنزويلا والبرازيل والارجنتين. ولا يمكن للنجاح الذي حققه بعض الدول القليلة التي تحولت حديثاً الى الصناعة، في آسيا، ان يحجب الفشل الذريع لسياسة الانماء التي انتهجتها الدول الغنية والتي سعت، خلال فترة تعاقب الازمات، الى الحفاظ على النظام المالي الدولي، مهما كان الثمن، والى اعادة النظر في مشروعية « الانماء ».

كان لا بدّ للدول الجائعة في غمرة اليأس التي اجتاحتها من ان تلجأ الى الثورة ضد اداراتها الفاسدة، وضد الحروب القبلية والاقليمية، والتجارة غير المشروعة. وهكذا بسطت المخدرات سلطانها على جزء من المناطق النامية في آسيا وافريقيا واميركا. وادت هذه التجارة التي تتيح تحقيق ارباح طائلة، الى تغذية نشوء نزاعات محلية جديدة. « فالاحزاب » اللبنانية كانت تتزود بالسلاح بفضل المال الذي تجنيه من تجارة المخدرات. فالخشخاش لا ينمو فقط في تركيا، بل في سهل البقاع ايضاً، منافساً بذلك الحشيشة التي شكلت مصدر ثروة كبيرة، لمهربي افريقيا الشمالية. وقدّر الانتاج اللبناني من الافيون بـ ٥٠ طناً في السنة، وبملياري دولار قيمة الصادرات من تلك المخدرات. في الهند الصينية،

اجازت وكالة الاستخبارات المركزية، خلال الحرب، للمجموعات العسكرية الهامشية تنمية زراعة المخدرات. وهكذا تمكنت عصابات « المثلث الذهبي » (على حدود برمانيا واللاوس وتايلاندا) من التزود بالسلاح بفضل تصدير الف طن من الافيون في السنة. كان جيش « كاشين » البرماني وجيش « شان » بقيادة الجنرال « خون سا » يمتلكان الوسائل الكافية لمراقبة المناطق كلها ويشكلان دولة ضمن الدولة. وفي برمانيا، كان الحزب الشيوعي يتولى بنفسه الاشراف على انتاج المخدرات، وكانت المقاومة الافغانية تتمول من الارباح الناجمة عن مبيع الخشخاش. في اميركا اللاتينية، كانت المخدرات تتيح لعصابات « الطريق المضيء » في البيرو، ان تبتز الأموال من « كارتل دي ميديلين، في المناطق الامازونية الواقعة في اعالي هوالاغا. وتعاقد المنتجون الكولومبيون مع مرتزقة اوروبيين واسرائيليين لحماية تجارتهم ضد مطامع رجال العصابات وتواطؤ الجيش والحكومة الفاسدة. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية قد تفاوضت مع « كارتل دي ميديللين » من اجل الحصول على الامكانات التي تتيح لها ايصال الاسلحة خلسة الى الكونتراس في نيكاراغوا، خلال عهد الرئيس ريغان. وقدرت قيمة المخدرات بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليار دولار. وكانت الاموال التي تودع في المصارف (السويسرية او البانامية) باسم مؤسسات وهمية، تتيح انشاء مساحات واسعة لانتاج المخدرات في الدول النامية. واضطر الرئيس ريغان تحت ضغط الرأي العام وخطر زعزعة الاستقرار السياسي في الكاريبب، الى التدخل عسكرياً في بوليفيا. وقامت قوة من الجيش الاميركي يقودها الجنرال الان فيشر بمساعدة الجيش النظامي في تلك البلاد على محاربة جيوش المهربين الخاصة. وفي كانون الأول ١٩٨٩، نزل الاميركيون على شواطئ باناما لطرد حليفهم السابق الجنرال الديكتاتور مانويل انطونيو نوريغا الذي كان ينظم ويحمي تجارة المخدرات.

لقيت هذه العملية العسكرية « لاعادة دولة القانون » تأييد الرأي العام الاميركي الذي اغتبط لرؤية رايات الديمقراطية تخفق فوق بلدان اميركا الجنوبية. ففي الثمانينات، قامت الاكوادور والبيرو عام ١٩٨٠ وبوليفيا عام ١٩٨٢ والارجنتين عام ١٩٨٣ والبرازيل عام ١٩٨٤ والاوروغواي عام ١٩٨٥ والباراغواي عام ١٩٨٩، باعادة النظام الديمقراطي والغاء الديكتاتوريات العسكرية فيها. حتى الجنرال بينوشيه نفسه انتهى الى ترك الحكم في التشيلي. كما اتاحت محاربة الفساد اسقاط عدد من مستغلي بؤس الشعوب. فطرد بابي دوك من هايتي، مثل ماركوس في الفيليبين. وادت الازمة الى اضطراب البنيات السياسية وقلب الحكومات، وتعقيد اوضاع الانظمة الحاكمة. ففي فولتا العليا (التي اصبحت بوركينافازو، عام ١٩٨٣) اغتيل النقيب توماس سانكارا على يد مساعده كامبوري. وفي السودان توالت الانقلابات العسكرية. وفي اوغاندا، مارس ميلتون اوبوت القمع بصورة ادهى من سلفه امين دادا (الذي اقيل في نيسان ١٩٧٩)، وقامت في وجهه انتفاضة مسلحة اجبرته على ترك السلطة.

اتت الاخبار السارة من افريقيا الجنوبية وحدها. فقد انسحب الكوبيون من انغولا، وانتهت الحرب في روديسيا باستسلام حكم البيض. ودخلت زيمبابوي المستقلة الامم المتحدة، وكانت ناميبيا (جنوبي غربي افريقيا الالمانية) آخر بلد يتحرر من نير الاستعمار في القارة السوداء. وبدت افريقيا الجنوبية مصممة على التطور باتجاه دولة القانون، تحت ضغط الرأي العام الدولي، لا سيما الاميركي. ففي ١٣ ايلول ١٩٨٩، قامت مسيرة سلمية تندد بالقمع، واطلق الرئيس الجديد فريدريك دي كليرك سراح اربعة مناضلين من الحركة المناهضة للتمييز العنصري. وفي ١٢ شباط ١٩٩٠، تحققت خطوة هامة، بالافراج عن نلسون منديلا، زعيم منظمة الوحدة الافريقية. غير ان السلام الهش في التشاد، واستمرار المعارك في القرن الافريقي، كانا يتناقضان مع التقدم الواضح الذي تحقق في هذه البقعة من القارة، في نهاية الثمانينات. وكان هذا التقدم، بلا

شك، حصيلة الانفراج القائم بين الشرق والغرب. وبدت الولايات المتحدة حريصة على تعزيز تقدم شعوب افريقيا الجنوبية باتجاه احترام مبادئ شرعة حقوق الانسان، وعلى انماء الدولة الوحيدة القادرة على فتح آفاق واسعة امام الاستثمارات الدولية.

حقوق الانسان وحقوق الشعوب ! لم يسبق للولايات المتحدة ان اكدت بهذه القوة تلك المبادئ، وهي التي انتصرت من دون قتال، في حرب الشرق والغرب والتي امتنعت ظاهراً عن الا تكون سوى المدافع الروماني عن عالم خاضع لها، لكنها ارتضت ان تلعب مع شركائها في منظمة الامم المتحدة المتجددة، (حيث لم يعد الاتحاد السوفياتي يقف في وجه مجلس الامن من خلال استخدام حق النقض)، دور الشرطي الذي يفرض احترام القانون على كل شعوب الأرض وصولاً الى استخدام حق التدخل في الشؤون الداخلية لبلد مذنب ـــ كما فعلت في البيرو، وتتهيأ لفعله مجدداً في الشرق الأوسط ـــ وكما نوت ان تفعله في الاتحاد السوفياتي عندما وقع انقلاب عسكري « محافظ » وخيّل اليها ان باستطاعته عزل غورباتشيف، في آب ١٩٩١. غير أنه تبين بوضوح في اعقاب ثورات الجوع، ان حدود حقوق الانسان تدفع بالجماهير الى « انتظار مجيء المسيح »، والى الارتداد نحو الحركات الاصولية، كما تؤدي بالسلطات الحاكمة الى القمع والفساد. لعل مفكري مدرسة شيكاغو ما يزالون يشكلون، لبضع سنوات اخرى، المرجع الاساسي في السياسة الاقتصادية للدول الصناعية في العالم، ويمارسون ضغوطاً لم تعد تتلاءم مع الحاجات المشروعة للشعوب التي تعاني من وطأة زيادة السكان فيها. غير اننا نشهد، داخل النظام قيام محاولات تصحيحية : اذا كان على المال ان يبقى نادراً وثميناً، فكيف يمكن احياء المبادلات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، والتي من شأنها وحدها الحد من هجرات الشعوب ونفخ حياة جديدة في العلاقات بين الشرق والغرب من خلال الرساميل التي تتيح للبلدان المحررة من الستالينية ـــ الماركسية، ان تتحاشى تشنجات الانتقال

الى الاقتصاد الحر، حيث تبدو « المؤامرة » ضد غورباتشيف أحدث مثال عنها ؟ والجواب عن هذا السؤال يندرج ضمن الحوار الدولي الذي ينعقد حالياً، ويدور حول اعادة النظر في سياسة صندوق النقد الدولي، التي تطالب بها بالحاح كل من فرنسا والدول المتضررة، وحول الاسراع في نزع السلاح حيث يبدو ثابتاً ان الاتحاد السوفياتي قد اعطى موافقته بهذا الخصوص. لا شك أن تحويل الميزانيات العسكرية الضخمة باتجاه استثمارات مدنية سوف يتيح تصحيح التفاوت في النمو، وتوجيه الكتلة النقدية الضخمة المخصصة لتكديس الاسلحة، الى قطاعات اكثر فائدة للتطور الاجتماعي. فالاتجاه العام وخصوصاً في الولايات المتحدة، يسير في الخط التالي : لا يمكن الاضطلاع بمهمة الدفاع عن حقوق الانسان، وفي الوقت عينه تكديس الوسائل التدميرية. وقد اتاحت نهاية الحرب الباردة، بعد ٥٠ سنة، بلورة هذه الحقيقة البديهية.

على الدول العظمى ان تنشط في هذا المجال ايضاً خصوصاً ان انتشار الاسلحة النووية يبدو خطيراً اكثر من اي وقت مضى، لا سيما في المناطق الخطرة كالشرقين الأوسط والأدنى. وحظر الأسلحة الكيميائية والجرثومية مسألة اضافية. وينبغي ان يقتصر استخدام الاسلحة « الخاصة » على الدفاع عن « دولة القانون ». ولعل قيام شرطة دولية من شأنه أن يمنحها سلطة التدخل ضد الدول المنحرفة. وقد تلعب الامم المتحدة دوراً مهماً لجهة جعل مواقف الدول الاعضاء تتلاءم مع هذه المبادئ الجديدة، تحت رعاية الدول العظمى التي تراقب بواسطة الاقمار الاصطناعية، كل شيء على الأرض.

يخشى ان تقف حقوق الشعوب في وجه حقوق الانسان. انها عبرة اخرى من عبر حرب الخليج.

ان الرغبة في تجميع الشعوب، بعد ان فرّقها التاريخ تبدو واضحة وجلية. اذ كيف يمكن التصور ان الارمن الذي وقعوا ضحية ولسون،

وشاركوا في مفاوضات مؤتمر السلام في فرساي، عام ١٩١٩، سيظلون الى الابد، مشرذمين ؟ وهل ينبغي ان يترادف تحرير ارمينيا السوفياتية مع تحرير ارمينيا التركية ؟ اما الاكراد الذين كانوا جزاري الارمن في السابق، ويقعون اليوم ضحية الاعتداءات العراقية والايرانية، فان اضطهادهم يطرح تساؤلاً من نوع آخر : اذا كانت فكرة تجميع الشعوب آخذة في الترسخ، فانها تنطوي على ضم الاراضي التركية التي يقطنها الاكراد، الى بلاد كردستان. فهل ينبغي اعادة رسم خريطة المنطقة من جديد ؟ وهل من الجائز تصور ذلك على حساب تركيا ؟ من المؤكد ان الفلسطينيين لن يكونوا وحدهم ضحايا التشتت الذي يصيب شعوب الشرق.

تبدو خريطة افريقيا غير مرضية كذلك. فالنزاعات على الحدود كثيرة، سواء في شماليها أو في وسطها. وفشلت محاولات تجميع شعوبها، كما حصل في امبراطورية مالي السابقة. لماذا لا يشكل شعب البانتو الافريقي الذي يقيم في قلب القارة وشرقيها وجنوبيها الشرقي، كياناً سياسياً، وكذلك شعوب دول خليج بينان ؟ في الحقيقة، هناك تياران متناقضان يبرزان الى الوجود وفقاً لما يظهر ايضاً في اوروبا الشرقية المحررة. لا شك أن مثل اوروبا الغربية، حيث النجاح الاقتصادي الذي تحقق ناجم عن ترابط السوق الاوروبية المشتركة والمؤسسات التي نشأت عنها، يمارس سحراً كبيراً على دول اوروبا الشرقية التي تنتظر بشوق دخول نعيم السوق المشتركة، وتتلهف لعضوية مجموعة تشكل سوقاً ضخمة. وتستعد الدول الاعضاء لاستحقاق عام ١٩٩٣، الذي يشكل امتحاناً عسيراً للاقتصاديات المحلية التي سوف تضطر للقيام بنقلة جديدة باتجاه البحث عن سبل التجدد والابداع والتكيف التي تتيح لها الوقوف في وجه المنافسة الاميركية واليابانية. وتستعجل فرنسا تعديل تشريعاتها بغية الغاء كل الحواجز المحتملة. ان الحاجة الى التكنولوجيات الحديثة التي تتطلب بدورها استثمارات ضخمة واسواق جاهزة، تدفع باتجاه الوحدة والتجمع.

ويعبّر هذا المنطق الاقتصادي عن نفسه بعبارات القوة، ويجهد لجمع الشعوب في مجموعات متكاملة كبرى. بالمقابل تدفع النزعة الانفصالية الدول التقليدية التي تشكلت في غفلة من التاريخ، باتجاه التفكك والانقسام. وتعبّر الاضطرابات في القوقاز، ويوغوسلافيا عن ارادة تلك الشعوب في اتباع مصيرها وحدها. ويتطلع السلوفينيون الى اوروبا والنمسا المجاورة، إذ يرون ان لا شأن لهم مع الكرواتيين الذين يكرهون الصرب منذ مدة طويلة. ويعتبرون ان باستطاعتهم تأمين التطور والتقدم من خلال تحررهم من اعباء دولة فيديرالية تفرض على المقاطعات المتفاوتة في النمو مسيرة واحدة.

ان النزعات السائدة باتجاه التفكك والتي ادت الى زوال الاتحاد السوفياتي لا تخفي اسباباً اخرى سوى ان السكان البلطيق يتطلعون نحو البلطيق وليس صوب موسكو، والجمهوريات الاسلامية لم تعد تشعر بتضامنها مع حكم يلعب اللعبة الاميركية في الشرق الأوسط. والروس، مع يلتسين يرغبون في البقاء وحدهم، تحت راية القياصرة. اما الاوكرانيون الذين تتوافر لديهم الثروات من القمح والفحم والحديد والنفط وسوى ذلك، فيعلمون انهم سوف ينعمون بالثروات الوفيرة اذا افترقوا عن المجموعة الكبرى التي تلتهم تلك الثروات. هل يمكن للشرطة العالمية الجديدة ان تفرض احترام دولة القانون على شعوب رزحت طويلاً تحت نير التسلط وتنوي استعادة حريتها في الفوضى ؟ ويظهر مثل الاتحاد السوفياتي ان اي سلطة في العالم لا تستطيع توحيد شعوب لم تعد ترغب في الوحدة ــ ويبدو ان فشل الوساطة الاوروبية في القضية اليوغوسلافية يسير في الاتجاه نفسه. ان حماية الدول التاريخية من نزعات شعوبها الى الاستقلال، من شأنه تعزيز الظلم وتهديد حقوق الافراد. والحق ان حقوق الانسان لن تصان في العالم الا اذا تم الاعتراف بحقوق الشعوب، بالوسائل السلمية.

بونتكاريه، ٢٤ آب ١٩٩١

عام ١٩٤٥

٤ ــ ١١ شباط ــ مؤتمر يالطا
١٢ نيسان ــ وفاة روزفلت
٢٥ نيسان ــ ٢٦ حزيران ــ مؤتمر سان فرنسيسكو
ليل ٧ ــ ٨ ايار ــ استسلام القوات الالمانية في فرنسا في ريمس.
١٧ تموز ــ ٢ آب ــ مؤتمر- بوتسدام.
٦ آب ــ هيروشيما
٨ آب ــ دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ضد اليابان
٨ آب ــ ناغازاكي
١٤ آب ــ استسلام اليابان
٢ ايلول ــ توقيع وثيقة الاستسلام الياباني في عرض البحر قبالة طوكيو
٨ ايلول ــ دخول الجنرال ماك ارثور الى طوكيو
تشرين الأول ــ اعتزال الرئيس فارغاس الحكم في البرازيل.
٥ تشرين الأول ــ اول انزال للقوات الفرنسية في الهند الصينية
١٧ تشرين الأول ــ تظاهرة عمالية في بونس ايريس.
ايلول ــ تشرين الأول ــ مؤتمر لندن.
٢١ تشرين الأول ــ الانتخابات التشريعية في فرنسا.
كانون الأول ــ مؤتمر موسكو.

كانون الأول (حتى ١٧ كانون الثاني) ـــ بعثة الجنرال مارشال الى الصين.

عام ١٩٤٦

كانون الثاني ـــ اول جمعية عمومية للامم المتحدة في سان فرنسيسكو.

٢٠ كانون الثاني ـــ رحيل الجنرال ديغول الى كولومبي لا دوزغليز بعد تركه الحكومة.

٢٤ شباط ـــ بيرون رئيساً لجمهورية الارجنتين.

نيسان ـــ انسحاب السوفيات من ماندوشوري.

ايار ـــ انسحاب السوفيات من إيران.

تموز ـــ استقلال الفيليبين.

آب ـــ ثورة شيوعية في اليونان.

١٣ تشرين الأول ـــ التصويت على الدستور في فرنسا.

١٦ تشرين الأول ـــ اعدامات نورمبرغ.

٤ تشرين الثاني ـــ اعلان الدستور الياباني.

٤ تشرين الثاني ـــ غالبية جمهورية في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة.

عام ١٩٤٧

كانون الثاني ـــ تعيين الجنرال مارشال وزيراً في واشنطن.

١٤ نيسان ـــ ديغول يؤسس « تجمع الشعب الفرنسي »

٢٢ ايار ـــ اقرار مبدأ ترومان في مجلس الشيوخ.

٥ حزيران ـــ خطاب مارشال في هارفارد.

٢٧ حزيران ـــ ٢ تموز ـــ مؤتمر الثلاثة في باريس.

١١ تموز ــ تعيين الجنرال ويدميير رئيساً لبعثة اميركية في الصين.
١٢ تموز ــ ٢٢ ايلول ــ اجتماع ١٦ دولة اوروبية تستفيد من مشروع مارشال، في باريس.
٢١ تموز ــ القوات النيرلاندية تحتل اندونيسيا.
٢٦ تموز ــ انشاء مجلس الامن في منظمة الامم المتحدة.
١٩ ــ ٢٦ تشرين الأول ــ الانتخابات البلدية في فرنسا : فوز الديغوليين.
٢٤ تشرين الثاني ــ استيلاء الكولونيل جيمينيز على الحكم في فينزويلا.
١٩ كانون الأول : عرض مشروع مارشال على الكونغرس.
انشقاق الاتحاد العمالي العام في فرنسا.
مشروع تقسيم فلسطين الذي وافقت عليه الامم المتحدة ورفضه العرب.

عام ١٩٤٨

٢٤ كانون الثاني ــ تخفيض سعر الفرنك.
٣١ كانون الثاني ــ اغتيال غاندي.
٢٥ شباط ــ « انقلاب براغ ».
١٠ آذار ــ انتحار مازاريك
١٧ آذار ــ معاهدة بروكسيل.
٢ نيسان ــ الكونغرس يقر مشروع مارشال من اجل اوروبا.
ايار ــ مالان في الحكم في افريقيا الجنوبية.
انشاء دولة اسرائيل ــ بداية اول حرب عربية ــ اسرائيلية.
٥ حزيران ــ اتفاق فرنسي ــ فيتنامي في خليج الونغ.
١١ حزيران ــ قرار فاندنبرغ في مجلس الشيوخ الاميركي.
٢٠ حزيران ــ انشاء المارك الالماني.

٢٤ حزيران ــ بدء حصار برلين.
١٥ آب ــ اعلان الجمهورية الشيوعية لكوريا الشمالية.
تشرين الأول ــ اضراب مناجم الفحم في فرنسا.
٢ تشرين الثاني ــ انتخاب ترومان رئيساً للولايات المتحدة.

عام ١٩٤٩

كانون الثاني ــ برنامج النقطة الرابعة للرئيس ترومان.
اعتقال غومولكا في بولونيا
استيلاء الشيوعيين على بكين.
٧ كانون الثاني ــ استقالة الجنرال مارشال ــ وتوزير دين اتشيسون.
٨ شباط ــ ادانة الكاردينال ميدزنتي في المجر.
١٦ شباط ــ اتحاد جمركي بين المقاطعات الغربية الثلاث في المانيا.
٧ آذار ــ اتفاق فرنسي ــ فيتنامي عرف باسم « اتفاق الاليزيه ».
٢٩ آذار ــ ادانة الزوجين روزينبرغ.
٤ نيسان ــ توقيع ميثاق حلف الاطلسي.
٨ ايار ــ اقرار دستور المانيا الفيديرالية (واعلانه في ٢٢ منه).
١٢ ايار ــ رفع الحصار عن برلين.
ايلول ــ اول تفجير نووي سوفياتي.
١٥ ايلول ــ اديناور مستشاراً للجمهورية الفيديرالية الالمانية.
١٨ ايلول ــ تخفيض سعر الجنيه الاسترليني.
٢٠ ايلول ــ اعلان الجمهورية الشعبية في الصين.
٣٠ ايلول ــ ماوتسي تونغ رئيساً للجمهورية الصينية. حكومة شيانغ كاي شيك الوطنية في فورموزا.
٧ تشرين الثاني ــ اعلان الجمهورية الديمقراطية الالمانية.
٢٧ تشرين الثاني ــ حكومة بيدو في فرنسا.
تشرين الأول ــ اتفاق لاهاي : استقلال اندونيسيا.

٩ كانون الأول ـــ الأمم المتحدة تقرر تدويل القدس.
١٦ كانون الأول ـــ زيارة ماوتسي تونغ لموسكو.

عام ١٩٥٠

٦ كانون الثاني ـــ بريطانيا تعترف بالصين الشعبية.
١٩ كانون الثاني ـــ بكين تعترف بالجمهورية الديمقراطية لهوشي منه.
٣١ كانون الثاني ـــ ترومان يعلن بدء انتاج القنبلة الهيدروجينية.
١٨ نيسان ـــ الزعيم الوطني بورقيبه يعلن مطالب حزب الدستور الجديد.
٢٤ نيسان ـــ الاردن يضم فلسطين العربية. اعتراف بريطانيا باسرائيل.
٦ حزيران ـــ توقيع الاتفاقات حول خط اودير ـــ نايس، بين المانيا الشرقية وبولونيا.
١٣ حزيران ـــ المانيا الغربية تدخل مجلس اوروبا.
٢٥ حزيران ـــ بدء حرب كوريا.
٣٠ حزيران ـــ حكومة كويل في فرنسا.
١٢ آب ـــ خطاب تشرشل حول الجيش الأوروبي.
٥ ايلول ـــ مؤتمر لندن لوزراء الدفاع الخمس.
١٢ ايلول ـــ مؤتمر ثلاثي في نيويورك.
١٤ ـــ ١٨ ايلول ـــ اجتماع الدول الاثني عشر الاطلسية في واشنطن.
١٥ ايلول ـــ انزال اميركي في اينشون (كوريا).
٢ تشرين الأول : انتخاب فارغاس رئيساً للبرازيل.
٨ تشرين الأول ـــ كارثة كاوبانغ في الهند الصينية.
١٨ تشرين الأول ـــ انسحاب الفرنسيين من لانغسون في الهند الصينية.
٦ كانون الأول ـــ تعيين دي لاتر قائداً عاماً في الهند الصينية.

١٩ كانون الأول ــ تعيين ايزنهاور على رأس القيادة العسكرية لحلف الاطلسي.

عام ١٩٥١

١٥ شباط ــ تأميم النفط في ايران.
٥ آذار ــ افتتاح مؤتمر الاربعة في باريس.
٢٧ آذار ــ اجتياز القوات الكورية الجنوبية للخط ٣٨.
١١ نيسان ــ عزل الرئيس ترومان للجنرال ماك ارثور.
١٨ نيسان ــ توقيع مشروع شومان.
١٢ ايار ــ تفجير اول قنبلة هيدروجينية اميركية.
٢٦ ايار ــ انتقال الجاسوسين ماك لين وبورجيس الى الشرق.
١٧ حزيران ــ الانتخابات التشريعية في فرنسا.
تموز ــ بدء محادثات السلام في كوريا.
٢٠ تموز ــ اغتيال عبدالله ملك الاردن.
٨ ايلول ــ توقيع معاهدة السلام في سان فرنسيسكو مع المعاهدة الامنية الاميركية ــ اليابانية.
٧ تشرين الأول ــ عودة تشرشل الى الحكم في بريطانيا.
١ تشرين الثاني ــ اعمال شغب في الدار البيضاء.
١١ تشرين الثاني ــ اعادة انتخاب بيرون رئيساً للجمهورية في الارجنتين.

عام ١٩٥٢

١٧ كانون الثاني ــ اعمال شغب في كوكس.
٢٠ كانون الثاني ــ ادغار فور رئيساً للحكومة في فرنسا.
٢٨ ايار ــ انشاء مؤسسة بيناي للتسليف في فرنسا.
٢٧ ايار ــ معاهدة باريس حول مجلس الدفاع الاوروبي.

عام ١٩٥٣

٢٠ كانون الثاني ــ بدء ولاية الرئيس ايزنهاور.

١٣ كانون الثاني ــ اعتقال « القتلة بالبرنس الابيض » في موسكو محاكمة الاطباء اليهود.

١١ شباط ــ قطع العلاقات السوفياتية ــ الاسرائيلية.

٥ آذار ــ وفاة ستالين.

١٦ حزيران ــ اضطرابات برلين الغربية.

١٩ حزيران ــ اعدام الزوجين روزينبرغ.

٤ تموز ــ وصول ايمري ناجي الى الحكم في بودابست.

٢٦ تموز ــ توقيع الهدنة في كوريا.

٣ ايلول ــ تعيين خروتشيف اميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفياتي.

٤ ــ ٧ ايلول ــ قمة غربية في برمودا.

―

عام ١٩٥٤

٢٥ كانون الثاني ــ ١٨ شباط ــ مؤتمر رباعي في برلين.

٢٥ شباط ــ الكولونيل عبد الناصر يستولي على الحكم في مصر، واقصاء اللواء نجيب.

٢٦ نيسان ــ افتتاح مؤتمر جينيف.

٧ ايار ــ سقوط ديان بيان فو.

١٧ ايار ــ قرار المحكمة العليا في الولايات المتحدة حول منع التمييز العنصري في المدرسة.

١٨ حزيران ــ منديس فرنسا، رئيساً لمجلس الوزراء في فرنسا.

٢٠ تموز ــ توقيع الهدنة في الهند الصينية.

٣١ تمو ــ زيارة منديس فرانس لتونس.

٢٤ آب ــ انتحار الرئيس فارغاس في البرازيل.

٣٠ آب ــ عدم موافقة البرلمان الفرنسي على مشروع المجموعة الاوروبية للدفاع.
٨ ايلول ــ حلف مانيلا.
٢٩ ايلول ــ زيارة خروتشوف لبكين.
٣ تشرين الأول ــ اتفاقات لندن حول اعادة تسليح المانيا.
٢٣ تشرين الأول ــ اتفاقات باريس حول دخول المانيا الى منظمة حلف الاطلسي.
١ تشرين الثاني ــ بداية حرب الجزائر.
٢ تشرين الثاني ــ غالبية ديمقراطية في الكونغرس الاميركي.

عام ١٩٥٥

٦ شباط ــ ادغار فور يحل محل منديس فرانس.
٨ شباط ــ بولغانين يحل محل مالينكوف.
٢٤ شباط ــ حلف بغداد.
آذار ــ دخول المانيا الفيديرالية الى منظمة حلف شمالي الاطلسي.
انسحاب القوات الحليفة من النمسا.
٥ نيسان ــ ايدن يحل محل تشرشل.
١٧ ــ ٢٤ نيسان ــ مؤتمر الدول الافريقية ــ الاسيوية في باندونغ.
٢٧ نيسان ــ اتفاق موسكو ــ بكين حول التعاون الذري المدني.
٢٦ ايار ــ زيارة خروتشوف لبلغراد.
٩ ايلول ــ زيارة المستشار اديناور لموسكو ــ اقامة علاقات دبلوماسية بين موسكو وبون.
١٦ ايلول ــ الجيش يطيح بالرئيس بيرون في الارجنتين.
٢٧ ايلول ــ تزويد مصر بالاسلحة التشيكية.

عام ١٩٥٦

كانون الثاني ــ كوبيتشيك رئيساً للبرازيل.

٢٩ كانون الثاني ــ تكليف غي موللي‌ه برئاسة الحكومة الفرنسية.

٢ آذار ــ استقلال المغرب.

٢٠ آذار ــ استقلال تونس.

١٤ شباط ــ تقرير خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي.

١٧ شباط ــ حلّ المنظمة الدولية للاحزاب الشيوعية في العالم.

حزيران ــ اضطرابات في بولونيا ــ ثورة العمال في بوزنان.

١٩ حزيران ــ انسحاب البريطانيين من السويس.

١٩ تموز ــ رفض اميركا تمويل بناء سد اصوان.

٢٦ تموز ــ عبد الناصر يؤمم قناة السويس.

١٦ آب ــ مؤتمر لندن.

٢٢ تشرين الأول ــ غومولكا في الحكم في فرصوفيا.

٢٣ تشرين الأول ــ ثورة بودابست.

٢٤ تشرين الأول ــ ايمري ناجي في الحكم في بودابست.

٢٩ تشرين الأول ــ بداية الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثانية. اسرائيل تهاجم مصر.

تشرين الأول ــ مؤتمر « دول كولومبو العظمى » في نيودلهي.

٤ تشرين الأول ــ نزول الدبابات الروسية الى بودابست.

٦ تشرين الثاني ــ اعادة انتخاب ايزنهاور رئيساً للولايات المتحدة. وقف اطلاق النار في مصر.

٥ تشرين الثاني ــ انزال مظلي بريطانيا ــ فرنسي في مصر وتهديد موسكو بالتدخل.

٢٥ تشرين الثاني ــ خطف ايمري ناجي في المجر

٢٤ كانون الأول ــ انسحاب الفرنسيين والبريطانيين من مصر.

عام ١٩٥٧

٥ كانون الثاني ــ مبدأ ايزنهاور في الشرق الأوسط.
١٧ كانون الثاني ــ شو إن لاي في موسكو.
٢٧ شباط ــ بداية المئة زهرة في الصين.
٦ آذار ــ استقلال غانا : بداية زوال الاستعمار من افريقيا السوداء.
١٠ ــ ١٧ نيسان ــ ازمة في الاردن.
تموز ــ اقرار الخطة النووية الثانية في فرنسا.
ايلول ــ اقرار قانون الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.
١٣ ايلول ــ اقرار قانون اساسي في باريس حول الجزائر.
٤ تشرين الأول ــ اطلاق اول سبوتنيك.
١٥ تشرين الأول ــ اتفاق ذري بين بكين وموسكو.

عام ١٩٥٨

كانون الثاني ــ اطلاق اول قمر اصطناعي اميركي، اكسبلورير.
٣١ كانون الثاني ــ الوحدة السورية المصرية (الجمهورية العربية المتحدة).
١ آذار ــ خروتشوف يحل محل بولغانين كرئيس لمجلس الوزراء.
نيسان ــ ايار ــ رحلة نائب الرئيس الأميركي، نيكسون الى اميركا الجنوبية.
١ ايار ــ زيارة عبد الناصر لموسكو.
٣ ايار ــ خطوة كبرى الى الامام في الصين.
١٣ ايار ــ اعمال شغب « وانقلاب عسكري » في الجزائر : « لجنة الانقاذ الوطني ».
٢٩ ايار ــ ديغول رئيساً لمجلس الوزراء.
حزيران ــ الحرب الاهلية في لبنان.
١٧ حزيران ــ اعدام ايمري ناجي وماليتير في بودابست.

تموز ــ انشاء النازا ــ تدخل عسكري اميركي في لبنان.
آب ــ تعميم العاميات الشعبية في الصين.
٢٨ ايلول ــ استفتاء في فرنسا : انشاء الجمهورية الخامسة.
٢٧ تشرين الثاني ــ تهديدات خروتشوف تفتح ازمة برلين.
٢١ كانون الأول ــ انتخاب ديغول رئيساً للجمهورية الفرنسية.

عام ١٩٥٩

١ كانون الثاني ــ فيديل كاسترو في الحكم في كوبا.
دخول السوق الاوروبية المشتركة حيز التنفيذ. قبول الاسكا في الاتحاد الاميركي.
٨ كانون الثاني ــ ميشال دوبريه، رئيساً لمجلس الوزراء في فرنسا.
٢١ شباط ــ زيارة ماكميلان لموسكو.
١٧ آذار ــ ثورة التيبت.
١١ ايار ــ مؤتمر جينيف حول برلين.
آب ــ قبول هاواي والاسكا في اتحاد الدول الاميركية.
١٢ ايلول ــ اتفاق موسكو ــ نيودلهي.
١٥ ايلول ــ زيارة خروتشوف للولايات المتحدة.
١٦ ايلول ــ خطاب ديغول حول حق الجزائر في تقرير مصيرها.
٣٠ ايلول ــ خروتشوف في بكين.

عام ١٩٦٠

كانون الثاني ــ اتحاد جنوبي افريقيا يتخلى عن عضوية الكومنولث ويصبح جمهورية افريقيا الجنوبية ــ اضطرابات شاربفيل : ٧٠ قتيلاً.
١ كانون الثاني ــ استقلال الكميرون (اولى الدول الافريقية المستقلة لهذه السنة).
٢٤ كانون الثاني ــ متاريس في الجزائر.

شباط ــ بدء الاعتصامات في الولايات المتحدة ــ رحلة الرئيس ايزنهاور الى اميركا الجنوبية.

نيسان ــ زيارة ديغول للولايات المتحدة.

ايار ــ قانون جديد حول الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.

حادثة الطائرة يو ٢ ــ فشل مؤتمر باريس.

٣٠ حزيران ــ استقلال الكونغو البلجيكي.

١١ تموز ــ انفصال كاتانغا.

آب ــ استدعاء الخبراء السوفيات من الصين.

٨ تشرين الثاني ــ انتخاب كينيدي رئيساً للولايات المتحدة.

٢٠ كانون الأول : انشاء الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية.

عام ١٩٦١

كانون الثاني ــ جانيو كادروس، رئيساً للبرازيل. قطع العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وكوبا.

٨ كانون الثاني ــ استفتاء في الجزائر.

١٤ شباط ــ وفاة لومومبا.

١٥ آذار ــ كينيدي يطلق « الاتحاد من اجل التقدم ».

١٧ نيسان ــ فشل العملية البحرية للقوات المناوئة لكاسترو في خليج الخنازير.

٢٢ ــ ٢٥ نيسان ــ مؤامرة الجنرالات في مدينة الجزائر.

٣٠ ايار ــ زيارة كينيدي لباريس.

٣ حزيران ــ لقاء كينيدي خروتشوف في فيينا.

١٣ آب ــ بناء جدار برلين.

٢٦ آب ــ استقالة كادروس في البرازيل ــ وغولارت يخلفه.

عام ١٩٦٢

١٩ آذار ــ اتفاقات افيان بين فرنسا والجبهة المؤقتة للمقاومة الجزائرية : نهاية حرب الجزائر.

١٤ نيسان ــ جورج بومبيدو يحل محل ميشال دوبريه.

٤ ايار ــ مبدأ الجواب المرن لماكنمارا.

٢ تموز ــ زيارة فيديل كاسترو لموسكو.

٣ تموز ــ استقلال الجزائر.

٤ تموز ــ « تصور » كينيدي لاوروبا.

٢٧ ايلول ــ بدء الحرب الاهلية في اليمن.

١٤ ــ ٣١ تشرين الأول ــ ازمة الصواريخ في كوبا.

٢٠ تشرين الثاني ــ بدء الحرب الصينية ــ الهندية.

٢٨ تشرين الثاني ــ سحب الصواريخ السوفياتية من كوبا. استفتاء في فرنسا : انتخاب رئيس الجمهورية من الشعب.

١٨ ــ ٢١ كانون الأول ــ اجتماع كينيدي ــ ماكميلان في ناسو.

عام ١٩٦٣

١٤ كانون الثاني ــ ديغول يرفض دخول بريطانيا الى السوق المشتركة.

٢٣ كانون الثاني ــ المعاهدة الفرنسية ــ الالمانية (ديغول واديناور).

٨ شباط ــ انقلاب عسكري في العراق. مصرع عبد الكريم قاسم.

نيسان ــ ايار ــ تظاهرات ضد العرقية في الولايات المتحدة.

حزيران ــ مشروع قانون جديد حول الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.

١٤ حزيران ــ البنود الخمس والعشرون للحزب الشيوعي الصيني ضد خروتشوف.

٢٠ حزيران ــ تركيب الهاتف الاحمر بين موسكو وواشنطن.
١٤ تموز ــ خلاف ايديولوجي بين موسكو وبكين.
آب ــ مسيرة الزنوج الى واشنطن.
٥ آب ــ اتفاق ثلاثي (الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي) حول وقف التجارب النووية ما عدا تحت الأرض.
٩ تشرين الأول ــ استقالة كل من ماكميلان في بريطانيا واديناور في المانيا الغربية.
١٤ تشرين الأول ــ ارهارد، مستشاراً لالمانيا الغربية.
١ تشرين الثاني ــ اغتيال ديام في فيتنام.
٢٢ تشرين الثاني ــ اغتيال كينيدي، وجونسون يخلفه.

عام ١٩٦٤

استقلال زامبيا وكينيت كوندا رئيساً لها.
آذار ــ ازمة قبرص.
١ نيسان ــ الجيش يخلع الرئيس غولارت من الحكم في البرازيل.
٢٧ ايار ــ وفاة نهرو.
تموز ــ صدور قانون الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.
٧ آب ــ الكونغرس الاميركي يصوت على قرار خليج تونكين.
١٥ تشرين الأول ــ كوسيغين وبريجينيف يعزلان خروتشوف. تفجير اول قنبلة ذرية صينية.
١٦ تشرين الأول ــ فوز حزب العمال في انكلترا ــ ويلسون رئيساً لمجلس الوزراء.
٣ تشرين الثاني ــ انتخاب جونسون رئيساً للولايات المتحدة.

عام ١٩٦٥

٢ آذار ــ عملية رولينغ ثوندر : غارات اميركية على شمالي فيتنام.

٨ آذار ــ اولى طلائع البحرية الاميركية تنزل في دانانغ.
٢٤ نيسان ــ عملية اميركية في جمهورية الدومينيك في اعقاب انقلاب عسكري.
١٩ حزيران ــ بومدين يخلع بن بيلا في الجزائر.
آب ــ قانون اميركي حول حق الزنوج في الانتخاب. اعمال شغب في واتس.
٢٥ آب ــ الحرب الهندية ــ الباكستانية في كشمير.
٣٠ ايلول ــ قمع الشيوعيين في اندونيسيا في اعقاب محاولة انقلاب عسكري.
١١ تشرين الثاني ــ ايان سميث يعلن من جانب واحد استقلال روديسيا.
٢٤ تشرين الثاني ــ موبوتو يستولي على السلطة في كونغو ــ كينشاسا.
١٩ كانون الاول ــ اعادة انتخاب ديغول في الدورة الثانية، رئيساً للجمهورية، ضد فرنسوا ميتران. وصول نيكولا تشاوشيسكو الى السلطة في رومانيا.
٣١ كانون الأول : بوكاسا يخلع دافيد داكو في جمهورية وسط افريقيا.

عام ١٩٦٦

٧ ــ ٨ شباط ــ مؤتمر هونولولو.
٧ آذار ــ انسحاب فرنسا من حلف الاطلسي.
٢٩ آذار ــ بريجينيف، اميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفياتي.
١٨ نيسان ــ بدء الثورة الثقافية الصينية.
٢١ نيسان ــ البابا يستقبل غروميكو.
٢٠ حزيران ــ زيارة الجنرال ديغول لموسكو.

٢٨ حزيران ــ الجنرال اونغانيا يستولي على الحكم في بونس ايريس.
٣١ آب ــ خطاب ديغول في بنوم بنه، (ضد حرب فيتنام).
١ كانون الأول ــ زيارة كوسيغين لفرنسا.

عام ١٩٦٧

كانون الثاني ــ الكولونيل ايديما يستولي على الحكم في توغو.
آذار ــ مؤتمر غوام. نيكسون يعلن « مبدأه ».
٣١ آذار ــ تعيين الماريشال غريشكو وزيراً للدفاع في الاتحاد السوفياتي.
٢١ نيسان ــ انقلاب عسكري في اليونان.
١ حزيران ــ الكولونيل جيوكو ينشئ جمهورية بيافرا بالانفصال عن نيجيريا : ثلاث سنوات من الحرب الاهلية.
٥ ــ ١٠ حزيران ــ الحرب العربية ــ الاسرائيلية المعروفة بحرب الايام الستة.
٩ حزيران ــ وقف اطلاق النار في الشرق الأوسط.
١٧ حزيران ــ اول قنبلة هيدروجينية صينية.
٢٣ حزيران ــ لقاء جونسون ــ كوسيغين في غلاوسبورو.
تموز ــ اضطرابات زنجية في نيومارك وديترويت.
٢٤ تموز ــ خطاب ديغول حول « كيبيك الحرة ».
آب ــ قرار اميركي بارسال ٥٠٠٠٠٠ جندي الى فيتنام.
ايلول ــ نغوين فان نيو، رئيساً لفيتنام الجنوبية.
تشرين الأول ــ مسيرة الى البنتاغون.
٨ تشرين الأول ــ وفاة تشي غيفارا.

عام ١٩٦٨

٥ كانون الثاني ــ دوبتشيك يحل محل نوفوتني في براغ. بداية « ربيع براغ ».

آذار ــ ثورة الطلاب في بولونيا.

١٠ ايار ــ افتتاح مؤتمر فيتنام في باريس.

ايار ــ حزيران ــ اضطرابات طلابية في فرنسا والمانيا والعالم. اضرابات في فرنسا.

٢٩ ــ ٣٠ حزيران ــ انتخابات تشريعية في فرنسا.

٢١ آب ــ اجتياح الجيش الاحمر لتشيكوسلوفاكيا.

٢٤ آب ــ القنبلة الهيدروجينية الفرنسية.

٣ تشرين الأول ــ انقلاب عسكري للجنرال الفارادو في البيرو.

١ تشرين الثاني ــ وقف الغارات في فيتنام الشمالية.

٣ تشرين الثاني ــ نيكسون يطلق نداء « للاكثرية الصامتة ».

٥ تشرين الثاني ــ انتخاب نيكسون رئيساً للولايات المتحدة.

١٩ تشرين الثاني ــ الكولونيل موسى تراوري يستولي على الحكم في مالي.

عام ١٩٦٩

١٧ كانون الثاني ــ جان بالاش يحرق نفسه بالنار في براغ.

شباط ــ زيارة رئيس الوزراء الفرنسي السابق بومبيدو للولايات المتحدة.

شباط ــ نيسان ــ لقاء سرّي لكيسينجر مع الفيتناميين الشماليين.

آذار ــ حوادث صينية ــ سوفياتية.

نيسان ــ زيارة ويلي براندت للولايات المتحدة.

٢٨ نيسان ــ استقالة الجنرال ديغول.

٣٠ نيسان ــ دخول القوات الاميركية الى كمبوديا.

٤ ايار ــ اعمال شغب في كنت كوليدج في الولايات المتحدة وسقوط ٤ قتلى من الطلاب.

٨ ايار ــ تظاهرات عنيفة في نيويورك وواشنطن.

١٥ حزيران ــ بومبيدو، رئيساً للجمهورية الفرنسية.

١٦ تموز ــ نجاح ابولو ١١ ــ السير على سطح القمر.

٧ آب ــ وقف اطلاق النار بين اسرائيل ومصر في قناة السويس.

ايلول ــ الاردن يصد اعتداءً سورياً.

٣ ايلول ــ وفاة هوشي منه.

٢١ تشرين الأول ــ ويلي براندت، مستشاراً لالمانيا الفيديرالية.

١٩ تشرين الثاني ــ معاهدة عدم انتشار الاسلحة النووية.

١ ــ ٢ كانون الأول ــ قمة اوروبية في لاهاي ــ اتفاق من اجل توسيع السوق الاوروبية المشتركة.

عام ١٩٧٠

١٨ آذار ــ اقالة نورودوم سيهانوك في كمبوديا.

١٩ آذار ــ لقاء سياسي بين المانيا الغربية والشرقية في ايرفورت.

١٤ نيسان ــ فشل ابولو ١٣.

١٨ حزيران ــ عودة المحافظين الى السلطة في بريطانيا.

٢٦ حزيران ــ عزل دوبتشيك من الحزب الشيوعي في براغ.

١٢ آب ــ اتفاق سياسي بين المانيا الغربية والاتحاد السوفياتي.

١ ــ ٨ ايلول ــ حرب اهلية في الاردن.

٤ تشرين الثاني ــ وصول الجبهة الشعبية برئاسة الاشتراكي ييندي الى الحكم في التشيلي.

٩ تشرين الثاني ــ وفاة الجنرال ديغول.

كانون الأول ــ اضطرابات في الموانئ البولونية ــ جيريك يحل محل غومولكا.

عام ١٩٧١

٢٦ كانون الثاني ــ عيدي امين دادا يستولي على الحكم في اوغندا.
٨ شباط ــ دخول الاميركيين الى لاوس.
آذار ــ الجنرال لانوس يستولي على الحكم في الارجنتين.
نيسان ــ ايار ــ تظاهرات واشنطن.
٣ ايار ــ هونيكر يحل محل اولبريخت في المانيا الشرقية.
٢٧ ايار ــ معاهدة صداقة بين مصر والاتحاد السوفياتي.
حزيران ــ نشر « اوراق البنتاغون ».
٢٣ حزيران ــ دخول بريطانيا للسوق الاوروبية.
٩ تموز ــ رحلة كيسينجر الى بكين.
٩ آب ــ معاهدة صداقة بين الاتحاد السوفياتي والهند.
١٥ آب ــ نيكسون يعلن عدم امكانية تحويل الدولار الى ذهب.
٣ ايلول ــ اتفاق الدول الكبرى الأربع حول برلين.
١٣ ايلول ــ حادث يودي بحياة لين بياو.
١٢ تشرين الأول ــ قبول الصين الشعبية في الامم المتحدة وعزل تايوان منها.
تشرين الثاني ــ نزاع هندي باكستاني ــ انشاء دولة بنغلادش.
٢٨ تشرين الثاني ــ فوز بوردابري في الاورغواي.
كانون الأول ــ تخفيض سعر الدولار.

عام ١٩٧٢

٢١ كانون الثاني ــ زيارة نيكسون للصين
٣٠ آذار ــ هجوم فيتنامي شمالي.
٨ ايار ــ حصار الاميركيين لفيتنام الشمالية.
٢٢ ايار ــ زيارة نيكسون لموسكو. توقيع اتفاق نزع السلاح سالت ١

١ حزيران ــ تأميم النفط العراقي.
١٧ حزيران ــ بداية فضيحة ووترغيت.
١٨ تموز ــ طرد الخبراء السوفيات من مصر.
ايلول ــ حملة الواشنطن بوست على نيكسون.
٢٥ ايلول ــ زيارة رئيس الوزراء الياباني تاناكا الى بكين.
٧ تشرين الثاني ــ اعادة انتخاب نيكسون.
١٨ كانون الأول ــ قصف فيتنام في عيد الميلاد.

عام ١٩٧٣

٢٧ كانون الثاني ــ اتفاقات باريس حول السلام في فيتنام.
٣٠ كانون الثاني ــ مفاوضات فيينا حول تخفيض القوات المسلحة التقليدية في اوروبا.
١٢ شباط ــ تخفيض الدولار للمرة الثانية.
٢٠ شباط ــ وقف النار في لاوس.
١١ آذار ــ فوز اليمين في الانتخابات في فرنسا ــ انتخاب البيروني هكتور كامبورا في بونس ايريس.
١٢ نيسان ــ اعادة الاعتبار لدينغ كسياوبينغ في بكين.
١٧ حزيران ــ زيارة بريجنيف للولايات المتحدة ــ اتفاق حول الوقاية من الحرب النووية.
١٧ تموز ــ اعلان الجمهورية في افغانيستان.
٢٧ تموز ــ انتخاب بيرون رئيساً للجمهورية في بونس ايريس.
٢٢ آب ــ تعيين كيسينجر وزيراً للخارجية.
١١ ايلول ــ انقلاب عسكري للجنرال بينوشيه في التشيلي ــ وفاة الليندي.
٦ تشرين الأول ــ بداية حرب الغفران ــ مصر وسوريا تهاجمان اسرائيل.

١٧ تشرين الأول ــ منظمة الدول المصدرة للنفط تخفض من شحن النفط.

٢٣ كانون الأول ــ مضاعفة سعر النفط.

عام ١٩٧٤

كانون الثاني ــ دبلوماسية المكوك لكيسينجر بين سوريا ومصر واسرائيل.

١٨ كانون الثاني ــ اتفاق مصري ــ اسرائيلي.

١٤ آذار ــ الجنرال جيزل يحل محل الجنرال ميديسي في البرازيل.

٢٥ نيسان ــ ثورة القرنفل في البرتغال.

٦ ايار ــ استقالة ويلي براندت في المانيا الفيديرالية. هيلموت شميدت، مستشاراً.

١٩ ايار ــ انتخاب فاليري جيسكار ديستانغ رئيساً للجمهورية الفرنسية.

٢٨ ايار ــ مناحيم بيغن، رئيساً لوزراء اسرائيل.

٣١ ايار ــ اتفاق مصري اسرائيلي للجلاء عن سيناء.

٢٧ حزيران ــ زيارة نيكسون لبكين.

١ تموز ــ وفاة بيرون.

٢٠ تموز ــ انزال بحري تركي في قبرص.

٢٣ تموز ــ مغادرة كولونيلات اليونان للحكم. كارامنليس، رئيساً للحكومة اليونانية.

٨ آب ــ استقالة نيكسون.

٩ آب ــ تنصيب فورد.

١٢ ايلول ــ خلع جيش الحبشة للامبراطور هيلاسيلاسي.

١٨ ايلول ــ افتتاح مفاوضات معاهدة سالت ٢ في جينيف حول نزع السلاح.

١٣ ايلول ــ عرفات في الامم المتحدة.

٢٢ تشرين الثاني ــ الامم المتحدة تعترف بحق الفلسطينيين في الاستقلال.

عام ١٩٧٥

٢٠ آذار ــ هجوم الفيتكونغ وفيتنام الشمالية على فيتنام الجنوبية. سقوط « هوي ».

٢٥ آذار ــ اغتيال فيصل، ملك العربية السعودية.

١٣ نيسان ــ بداية الحرب الاهلية في لبنان.

١٧ نيسان ــ سقوط بنوم بنه بين ايدي « الخمير الحمر ».

٣٠ نيسان ــ سقوط سايغون.

٢٩ ايار ــ هوساك، رئيساً لتشيكوسلوفاكيا.

٢٥ حزيران ــ استقلال موزامبيك. سامورا ماشيل رئيساً.

٣٠ تموز ــ مؤتمر هلسنكي حول الامن والتبادل في اوروبا.

٢٣ آب ــ لي باتيت لاو يستأثر بالسلطة في لاوس.

٤ ايلول ــ اتفاق مصري ــ اسرائيلي حول حل النزاعات بصورة سلمية بين البلدين.

١١ تشرين الثاني ــ في انغولا، اعلان الجمهورية الشعبية.

٢٠ تشرين الثاني ــ وفاة فرانكو ــ خوان كارلوس، ملكاً على اسبانيا.

٢ كانون الأول ــ لاوس تصبح شيوعية.

عام ١٩٧٦

كانون الثاني ــ اضطرابات في سواتو : بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قتيل في افريقيا الجنوبية.

٧ شباط ــ هوا غوفونغ، رئيساً للحكومة الصينية.

١٦ شباط ـــ رحلة كيسينجر الى اميركا اللاتينية.
٥ آذار ـــ اصوات بكين ـــ اقالة دينغ كسياوبينغ من منصبه.
٢٤ آذار ـــ الجنرال فيديلا يتسلم الحكم في بونس ايريس.
٢٦ نيسان ـــ تعيين « المدني » اوستينوف (بعدما اصبح ماريشالاً)، وزيراً للدفاع في الاتحاد السوفياتي.
١٠ ايار ـــ دخول السوريين الى لبنان.
١ تموز ـــ غارة اسرائيلية على انتيبي لتحرير الرهائن.
١٠ تموز ـــ كارثة سيفيسو.
٩ ايلول ـــ وفاة ماوتسي تونغ.
ايلول ـــ ديكتاتورية عسكرية في الاوروغواي.
٩ تشرين الأول ـــ هواغوفونغ، رئيساً للحزب الشيوعي الصيني.
٢ تشرين الثاني ـــ انتخاب كارتر رئيساً للولايات المتحدة.

عام ١٩٧٧

١١ شباط ـــ وصول الكولونيل مينغيستو الى السلطة في الحبشة.
١٧ ايار ـــ فوز بيغن في الانتخابات الاسرائيلية.
٢٤ ايار ـــ بريجنيف يقيل بودغورني.
٢٢ تموز ـــ اعادة الاعتبار لدينغ كسياوبينغ.
٣٠ آب ـــ زيارة تيتو لموسكو وبكين.
١٣ تشرين الثاني ـــ قطع العلاقات بين الصومال وموسكو.
١٩ تشرين الثاني ـــ زيارة السادات للقدس.

عام ١٩٧٨

١٦ آذار ـــ خطف الايطالي الدومورو، رئيس الوزراء السابق على يدي الالوية الحمراء، ومصرعه فيما بعد. غرق ناقلة النفط اموكو ـــ كاديز في بريطانيا.

٢٧ نيسان ــ انقلاب شيوعي في افغانيستان.
١٩ ايار ــ المظليون الفرنسيون والبلجيكيون ينقذون الاوروبيين في كولوزاي.
٢٦ حزيران ــ اليمن الجنوبية في احضان السوفيات.
١٠ تموز ــ انقلاب في موريتانيا. اعتقال الرئيس اولد دادا.
١٧ ايلول ــ اتفاقات كمب دافيد بين كارتر والسادات وبيغن.
١٦ تشرين الأول ــ انتخاب البابا يوحنا بولس الثاني.
٣ تشرين الثاني ــ معاهدة صداقة بين الاتحاد السوفياتي وفيتنام.
١٦ كانون الأول ــ زيارة كارتر لبكين.
٢٧ كانون الأول ــ غزو فيتنام لكمبوديا.

عام ١٩٧٩

٧ كانون الثاني ــ سقوط الخمير الحمر في بنوم بنه.
قيام حكومة موالية لفيتنام.
١٦ كانون الثاني ــ الشاه يغادر ايران.
٢٨ كانون الثاني ــ زيارة دينغ كسياوبينغ للولايات المتحدة.
١ شباط ــ وصول الخميني الى طهران.
١١ شباط ــ تدخل عسكري صيني في فيتنام.
٢٦ آذار ــ توقيع المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية في واشنطن.
٢٨ آذار ــ كارثة المفاعل النووي الاميركي في « ثري مايل ايسلاند ».
١ نيسان ــ اعلان الجمهورية الاسلامية في ايران.
١١ نيسان ــ خلع امين دادا.
٤ ايار ــ مارغريت تاتشر رئيسة للحكومة في بريطانيا (من حزب المحافظين).
٢ ــ ١٠ حزيران ــ زيارة البابا لبولونيا.

١٥ حزيران ـــ لقاء كارتر بريجنيف في فيينا. عقد معاهدة سالت ٢.
١٧ تموز ـــ انتصار عسكري للساندينيين في نيكاراغوا ـــ فرار سوموزا.
ايلول ـــ وفاة نيتو في انغولا. دوس سانتوس يخلفه.
٢٠ ايلول ـــ خلع بوكاسا في افريقيا الوسطى.
٤ تشرين الثاني ـــ احتجاز رهائن اميركيين في طهران.
٢٠ تشرين الثاني ـــ متظاهرون مسلحون يحتلون جامع مكة.
٢٤ كانون الأول ـــ الجيش الأحمر يغزو افغانيستان.

عام ١٩٨٠

٢٩ شباط ـــ فوز موغاب في الانتخابات في موزامبيك.
١ آذار ـــ في الكويت، فاليري جيسكار ديستانغ يوافق على حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم.
٦ آذار ـــ اغتيال الاسقف روميرو ـــ حرب اهلية في السلفادور.
٢٥ آذار ـــ فشل الحملة الاميركية لتحرير الرهائن في ايران.
١٨ نيسان ـــ استقلال زيمبابوي.
ايار ـــ وفاة تيتو.
١٨ ايار ـــ اجتماع جيسكار ديستانغ وبريجنيف في فرصوفيا. اول قنبلة نيترون.
٩ ايار ـــ مقاطعة الاميركيين للالعاب الاولمبية في موسكو.
حزيران ـــ تموز ـــ زيارة البابا يوحنا بولس الثاني الى البرازيل.
١٤ ـــ ٣١ آب ـــ اضرابات غدانسك.
٣٠ آب ـــ الاعتراف بنقابة « التضامن » في بولونيا.
٢٢ ايلول ـــ بدء الحرب بين العراق وايران.
٨ تشرين الأول ـــ معاهدة صداقة بين سوريا والاتحاد السوفياتي.
تشرين الثاني ـــ عودة الحكم المدني الى البيرو.

٤ تشرين الثاني ـــ انتخاب ريغان رئيساً للولايات المتحدة.
٢٠ تشرين الثاني ـــ محاكمة « عصابة الاربعة » في بكين.
١٤ كانون الأول : تدخل عسكري للقذافي في التشاد.

عام ١٩٨١

كانون الثاني ـــ القذافي يعلن الوحدة بين التشاد وليبيا.
١ كانون الثاني ـــ استقالة سنغور، رئيس السنغال. عبدو ضيوف يخلفه.
٢٠ كانون الثاني ـــ الافراج عن الرهائن الاميركيين في طهران.
٢٩ آذار ـــ الجنرال فيولا يخلف الجنرال فيديلا في بونس ايريس.
٣٠ آذار ـــ محاولة فاشلة لاغتيال ريغان.
١٢ نيسان ـــ اطلاق المكوك الفضائي الاميركي.
١٠ ايار ـــ انتخاب فرنسوا ميتران رئيساً للجمهورية الفرنسية.
١٣ ايار ـــ محاولة فاشلة لاغتيال البابا.
٧ حزيران ـــ الاسرائيليون يدمرون المفاعل النووي العراقي.
٢١ حزيران ـــ تموز ـــ سقوط بني صدر في ايران.
٢٣ حزيران ـــ اربعة وزراء شيوعيين يدخلون حكومة موروا.
٢٩ حزيران ـــ هوياويانغ، رئيساً للحزب الشيوعي الصيني.
٦ تشرين الأول ـــ اغتيال الرئيس المصري، السادات.
١٨ تشرين الأول ـــ فوز الاشتراكيين في الانتخابات اليونانية.
١١ تشرين الثاني ـــ الجنرال غاليتيري يخلع فيولا في بونس ايريس.
١٣ كانون الأول ـــ الجنرال ياروزلسكي يقبض على بولونيا بيد من حديد.
١٤ كانون الأول ـــ اسرائيل تضم الجولان.

عام ١٩٨٢

٧ كانون الثاني ـــ اول انتخابات ديمقراطية في البرازيل منذ عام ١٩٦٤.

ايار ـــ حرب المالوين بين بريطانيا والارجنتين.

٢٠ ايار ـــ لاول مرة، تقرر الحكومة اليابانية ضمان سلامة طرقها البحرية.

٣٠ ايار ـــ انتخاب بيتانكور رئيساً لكولومبيا.

حزيران ـــ اسرائيل تجتاح لبنان. عملية سلام الجليل.

استسلام القوات الارجنتينية في مالوين.

١٠ حزيران ـــ موسكو ترفض محاولة اليابان للتفاوض حول « اراضي الشمال ».

آب ـــ منظمة التحرير الفلسطينية تغادر لبنان.

ايلول ـــ مذبحة المخيمات الفلسطينية في صبرا وشاتيلا.

١٠ تشرين الثاني ـــ وفاة بريجنيف.

١٢ تشرين الثاني ـــ انتخاب اندروبوف اميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفياتي.

عام ١٩٨٣

٦ شباط ـــ اعادة انتخاب الجنرال ستروسنير في باراغواي.

ايار ـــ معاهدة السلام بين لبنان واسرائيل.

١١ ايار ـــ اول عملية « احتجاج » في التشيلي. اول القتلى.

عملية مانتا في التشاد.

تشرين الأول ـــ عملية عسكرية اميركية في جزيرة غرانادا.

٢٣ تشرين الأول ـــ تفجير شيعي لمقري الاركان الفرنسي والاميركي في بيروت.

٣٠ تشرين الأول ــ انتخاب راول الفونسو في بونس ايريس : اعتقال العسكريين. عملية عسكرية فرنسية في التشاد.

تشرين الثاني ــ نصب صواريخ بيرشينغ في اوروبا الغربية لاول مرة.

عام ١٩٨٤

شباط ــ آذار ــ وصول تشيرنينكو الى الحكم في موسكو. اعادة الديمقراطية الى الارجنتين.

٨ ــ ١٤ حزيران ــ الزيارة الثانية للبابا الى بولونيا.

تموز ــ مقاطعة دول أوروبا الشرقية للألعاب الأولمبية في لوس أنجلوس.

٢ ــ ٤ ايلول ــ اعمال شغب في المدن الزنجية في جنوبي جوهانسبورغ.

١٤ ايلول ــ بيتر بوتا، رئيساً لجمهورية جنوبي افريقيا.

تشرين الأول ــ اغتيال انديرا غاندي. اغتيال الاب بوبيولوزكو مرشد عمال الحديد البولونيين.

تشرين الأول ــ انخفاض اسعار النفط.

تشرين الثاني ــ ٦ ملايين شخص مهددون بالجوع في الحبشة.

١٠ تشرين الثاني ــ انسحاب الليبيين من التشاد.

١٥ تشرين الثاني ــ لقاء ميتران والقذافي.

٢٥ تشرين الثاني ــ انتخابات حرة في الاوروغواي.

عام ١٩٨٥

كانون الثاني ــ استئناف المحادثات الاميركية ــ السوفياتية حول نزع السلاح.

١٥ كانون الثاني ــ تانكريدو نيفيس، رئيساً للبرازيل.

الربيع ــ احتجاز رهائن فرنسيين في بيروت.
آذار ــ انسحاب الاسرائيليين من لبنان.
١٠ آذار ــ غورباتشيف، اميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفياتي.
١١ نيسان ــ وفاة انغر هودجا في البانيا.
٢٢ نيسان ــ محاكمة الجنرالات في الارجنتين.
حزيران ــ خطف طائرة ركاب اميركية في مطار بيروت.
٢٦ آب ــ مسيرة رأس الرجاء الصالح للافراج عن نيلسون مانديلا.
٥ آب ــ عودة باز استينزورو الى الحكم في بوليفيا.
١٩ تشرين الأول ــ اعدام بنجامين مولويز لاتهامه بمقتل شرطي في جنوبي افريقيا. اعادة الديمقراطية الى البرازيل.
تشرين الثاني ــ لقاء غورباتشيف ــ ريغان في جينيف.

عام ١٩٨٦

كانون الثاني ــ المجموعة الاقتصادية الاوروبية تعدّ ١٢ عضواً بعد دخول اسبانيا والبرتغال.
١٠ ــ ١٩ شباط ــ عملية « الصقر » في التشاد.
٢٥ نيسان ــ كارثة المفاعل النووي السوفياتي في تشرنوبيل.
الربيع ــ فوز اليمين في الانتخابات التشريعية الفرنسية : بداية نظام « التعايش » بين فرنسوا ميتران ورئيس الوزراء جاك شيراك.
٢٥ ايار ــ فوز فيرجيليو باركو في الانتخابات في كولومبيا.
١ تموز ــ خطاب البابا في كولومبيا ضد العنف.
٢ ــ ٣ تموز ــ اضراب عام في سانتياغو في التشيلي : ٧ قتلى.
تشرين الأول ــ لقاء ريغان ــ غورباتشيف في ريكجافيك.
١ تشرين الثاني ــ حريق مصانع ساندوز في بال ــ تلوث الرين.

عام ١٩٨٦

كانون الثاني ـــ غورباتشيف يعلن في واشنطن سحب القوات السوفياتية من افغانيستان.

٢٢ آذار ـــ سيطرة السوريين على بيروت الغربية.

١ ـــ ٦ نيسان ـــ تمرد عسكري في كوردوبا (الارجنتين).

٢٥ حزيران ـــ غورباتشيف يعلن البيريسترويكا.

تموز ـــ فضيحة ايران غيت.

٢١ تموز ـــ اتفاقات اميركية ـــ يابانية حول مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

آب ـــ انخفاض الدولار في الاسواق المالية.

٢٠ آب ـــ اتفاق حدودي بين موسكو وبكين.

تشرين الأول ـــ الاثنين الاسود للبورصات العالمية.

١٥ تشرين الأول ـــ وصول النقيب كامباوري الى الحكم في بوركينا فازو.

١٦ تشرين الأول ـــ اتفاق حدودي بين فيتنام ولاوس.

١٧ تشرين الأول ـــ ميلوس جاكس يحل محل غوستاف هوزاك في براغ.

تشرين الثاني ـــ اضطرابات برازوف في رومانيا.

كانون الأول ـــ توقيع ريغان وغورباتشيف لمعاهدة واشنطن حول ازالة الصواريخ من اوروبا.

عام ١٩٨٨

شباط ـــ « ثورة الحجارة » في الاراضي المحتلة من الضفة الغربية وقطاع غزة.

٢٣ شباط ـــ مجزرة الأرمن على يدي الاذربيجانيين.

ايار ــ اعادة انتخاب فرنسوا ميتران رئيساً للجمهورية الفرنسية، ضد جاك شيراك ــ ميشال روكار رئيساً للوزراء.

٤ ايار ــ الافراج عن آخر الرهائن الفرنسيين في بيروت.

آب ــ وقف النار في انغولا، انسحاب فيتنامي من كمبوديا ــ نهاية الحرب بين ايران والعراق.

٦ تموز ــ غورباتشيف يجيز للفلاحين السوفيات استئجار الأرض.

١ تشرين الأول ــ غورباتشيف، رئيساً للدولة.

٥ تشرين الأول ــ فوز المعارضة (ضد بنيوشيه) في استفتاء التشيلي.

٢٨ تشرين الأول ــ تظاهرات في براغ.

٢ تشرين الثاني ــ انتخاب جورج بوش رئيساً للولايات المتحدة.

٢٨ تشرين الثاني ــ اتفاق حدودي بين الصين ومونغوليا.

٤ كانون الأول ــ انخاب بيريز رئيساً لفنزويلا.

٧ كانون الأول ــ غورباتشيف يعلن في الامم المتحدة سحب عدة فرق عسكرية من منطقة الحدود الصينية ــ السوفياتية. زلزال في ارمينيا : ٥٥٠٠٠ قتيل بحسب الاحصاءات الرسمية.

عام ١٩٨٩

٥ شباط ــ طرد الجنرال ستروسنير من الحكم في الباراغواي.

٢١ شباط ــ سجن هافل في براغ.

آذار ــ اول صاروخ اميركي باللايزر.

٨ آذار ــ الاحكام العرفية في التيبت.

٥ نيسان ــ تشريع نقابة التضامن في بولونيا.

١٤ ايار ــ فوز البيروني كارلوس منعم في الانتخابات في بونس ايريس.

١٥ ــ ١٨ ايار ــ انفراج العلاقات بين موسكو وبكين. انسحاب الجيوش عن الحدود.

٣ حزيران ــ اضطرابات في اوزباكستان.

٣ و ٤ حزيران ــ قمع الجيش الصيني للحركة الطلابية في ساحة تيانامين.

١٧ حزيران ــ اضطرابات في كازاخستان.

٢٤ حزيران ــ اقالة زاوزيانغ في الصين. جيانغ زيمين يخلفه.

٤ ــ ٦ تموز ــ زيارة غورباتشيف لفرنسا : « البيت الاوروبي المشترك ».

١١ ايلول ــ كوريا الجنوبية تعرض على كوريا الشمالية تشكيل منظمة كومنولت.

١٤ ايلول ــ انتخاب فردريك دي كلارك رئيساً لجمهورية جنوبي افريقيا.

٢٦ ايلول ــ انسحاب القوات الفيتنامية من كمبوديا.

٩ تشرين الأول ــ الاعتراف بحق الاضراب في الاتحاد السوفياتي.

١٨ تشرين الأول ــ بداية « المنعطف » في المانيا الشرقية. هونيكر يستقيل.

٤ تشرين الثاني ــ مليون متظاهر في المانيا الشرقية.

٩ تشرين الثاني ــ سقوط جدار برلين.

١ كانون الأول ــ يوحنا بولس الثاني يستقبل غورباتشيف في الفاتيكان.

٢ ــ ٣ كانون الأول ــ كول ومودروف يفتحان معاً في برلين بوابة براندبورغ. لقاء غورباتشيف وبوش قرب مالطة.

٢٦ كانون الأول ــ انتخاب لوي كال رئيساً للاورغواي.

عام ١٩٩٠

مطلع كانون الثاني ــ تدخل الجيش الأحمر في اذربيجان في اعقاب اضطرابات باكو.

٢ كانون الثاني ــ اول زيارة رسمية لالمانيا للرئيس التشيكي هافل.

٣ كانون الثاني ــ نورييغا يستسلم للجنود الاميركيين في باناما.

١٠ كانون الثاني ــ رفع الاحكام العرفية في الصين.

٢٣ كانون الثاني ــ اتفاقات حول انسحاب الجيش السوفياتي من المجر وتشيكوسلوفاكيا.

٢٥ كانون الثاني ــ نداء البابا من اجل افريقيا.

٤ شباط ــ كالديرون يخلف اوسكار ارياس في رئاسة الجمهورية في كوستاريكا.

٩ شباط ــ سان نوجوما، رئيساً للوزراء في ناميبيا.

١١ شباط ــ الافراج عن نيلسون مانديلا في جنوبي افريقيا.

١٨ شباط ــ توشيري كيفو رئيساً للوزراء في اليابان. تظاهرة طلاب شاطئ العاج ضد هوفويت ــ بوانيي.

١٩ شباط ــ مبيع مفاعل نووي فرنسي للباكستان.

٢٣ شباط ــ تظاهرات مناهضة لتدابير صندوق النقد الدولي في الغابون.

٢٤ شباط ــ فوز الاستقلاليين في ليتوانيا، في الانتخابات.

٢٥ شباط ــ انتخاب فيوليتا شامورو، في نيكاراغو، ضد اورتيغا.

١١ آذار ــ البرلمان الليتواني يقر استعادة السيادة.

١٣ آذار ــ مؤتمر نواب الشعب السوفياتي يقر النظام الرئاسي وتعددية الاحزاب والحق بالملكية الخاصة. انتخاب غورباتشيف لمدة خمس سنوات.

١٤ آذار ــ تسلّم الرئيس فرناندو كولور سلطاته في البرازيل.

٢٥ آذار ــ رفض النظام السابق في المجر.

٢٧ آذار ـــ ميشال روكار يعرض خطة لمكافحة التمييز العنصري في فرنسا.

٨ نيسان ـــ فوز اليمين في الانتخابات اليونانية.

فشل الكاتب ماريو فارغاس في الانتخابات الرئاسية في البيرو. انتخاب فوجيموري.

١٦ نيسان ـــ فوز مانديلا في حفلة روك في لندن.

٢٠ نيسان ـــ تظاهرات في شوارع الجزائر.

٤ ايار ـــ كارامنليس، رئيساً للجمهورية اليونانية.

ليل ٨ ـــ ٩ ايار ـــ انتهاك حرمة المقابر اليهودية في كابانتراس (فرنسا).

١٨ ايار ـــ رقم قياسي للقطار الفرنسي ت ج ف : ٥١٥,٣ كلم في الساعة.

٢٠ ايار ـــ فوز اليسكو في الانتخابات الرومانية.

٢٢ ايار ـــ توحيد اليمنين.

٢٧ ايار ـــ انتخاب سيزار غافيريا (ليبرالي) في كولومبيا.

٢٩ ايار ـــ انتخاب بوريس يلتسين رئيساً لبرلمان اتحاد روسيا.

٣٠ ايار ـــ قمة بوش ـــ غورباتشيف في واشنطن.

٧ حزيران ـــ الغاء التمييز العنصري في الاماكن العامة في جنوبي افريقيا.

١١ حزيران ـــ اسحاق شامير يشكل حكومة يمينية في اسرائيل بعد ازمة امتدت ثلاثة اشهر.

١٢ حزيران ـــ فوز الاسلاميين في الانتخابات البلدية في الجزائر. جمهورية روسيا تعلن استقلالها.

١٣ حزيران ـــ « عمال المناجم » يعيدون الامن الى بوخارست.

٢ تموز ـــ اعلان بوش عن تخفيض القوات الاميركية بنسبة ٢٥٪ خلال خمس سنوات.

٤ تموز ــ ارمينيا تعلن استقلالها.
٦ تموز ــ خلع بنازير بوتو في الباكستان.
٨ تموز ــ هجرة البانية باتجاه ايطاليا.
١٦ تموز ــ اتفاق غورباتشيف ــ كول حول توحيد المانيا وسلامتها.
٢٥ تموز ــ تخفيض الجيوش العسكرية في بريطانيا.
٢٧ تموز ــ العفو عن الارهابي الايراني نقاش في فرنسا.
٢ آب ــ القوات العراقية تجتاح الكويت. ادانة مجلس الامن للاعتداء.
٦ آب ــ القرار رقم ٦٦١ للامم المتحدة : فرض الحصار على العراق.
٧ آب ــ بوش يطلق عملية « درع الصحراء ».
٨ آب ــ بغداد تعلن ضم الكويت الى العراق.
١٠ آب ــ صدام حسين يدعو العرب للجهاد المقدس، القمة العربية تقرر ارسال قوة عربية لمحاربته.
٢٥ آب ــ القرار رقم ٦٦٥ : اجازة استخدام القوة لفرض احترام الحصار.
٢٩ آب ــ بوش يبيع الرياض اسلحة حديثة بملياري دولار.
٩ ايلول ــ البابا يكرّس كاتدرائية يوموسوكرو، في شاطئ العاج.
٢٠ ايلول ــ تصديق البرلمانين الالمانيين لمعاهدة الوحدة.
١٨ ايلول ــ تخفيض او الغاء ١٥١ قاعدة عسكرية اميركية.
١ تشرين الأول ــ اعادة الحرية الدينية في الاتحاد السوفياتي.
٣ تشرين الأول ــ الاسرائيليون يقتلون ٢٢ فلسطينياً في ساحة احد جوامع القدس.
١٣ تشرين الأول ــ الجيش السوري يسيطر على الحي المسيحي من بيروت ــ لجوء الجنرال عون الى السفارة الفرنسية.

١٤ تشرين الأول ــ فوز كول في الانتخابات المحلية الالمانية.
٢٦ تشرين الأول ــ استقلال كازاخستان.
٣٠ تشرين الأول ــ الافراج عن الرهائن الفرنسيين في بغداد.
٤ تشرين الثاني ــ غالبية ديمقراطية في الكونغرس الاميركي.
١٩ ــ ٢١ تشرين الثاني ــ ثاني اجتماع لمجلس الدفاع الاوروبي : تخفيض القوات التقليدية في اوروبا.
٢٢ تشرين الثاني ــ استقالة مارغريت تاتشر وجون مايجور يخلفها.
٢٥ تشرين الثاني ــ الدورة الاولى من الانتخابات الرئاسية في بولونيا. انتخاب ليش فاليسا في الدورة الثانية في ٩ كانون الأول.
٢٦ تشرين الثاني ــ زيارة طارق عزيز لموسكو.
٢٩ تشرين الثاني ــ قرار الامم المتحدة رقم ٦٧٨ : اجازة استخدام القوة ضد العراق اعتباراً من ١٥ كانون الثاني ١٩٩١.
٢ كانون الأول ــ فوز كول في الانتخابات التشريعية الالمانية.
٦ كانون الأول ــ افراج صدام حسين عن كل الرهائن.
٩ كانون الأول ــ فولسفاكن تستعيد شركة سكودا التشيكية.
١٤ كانون الأول ــ اعمال شغب في المغرب.
١٩ كانون الأول ــ خطاب ميتران على التلفزيون لاعداد الرأي العام لحرب الخليج.
٢٠ كانون الأول ــ استقالة وزير الخارجية السوفياتية شيفارنادزه.

الفهرس

نظرة إلى الأرض من فوق
١٩٥٧ ــ ١٩٧٣

حرب النجوم



منذ العام ١٩٤٥، وتاريخ العالم يهيمن على تاريخ الدول حيث بات على القديمة منها والحديثة ان تندمج، شاءت أم أبت، ضمن المجموعات الاقتصادية والاستراتيجية التي تسيّر الكون. وإن تضاعف عدد سكان العالم في فترة نصف قرن، من شأنه أن يظهر مدى التحركات الاجتماعية التي تهزّ بعض المناطق التي تشهد تصدعاً دامياً على سطح الكرة الأرضية، كالشرقين الأدنى والأوسط وجنوبي شرقي آسيا وبحر الكارايبب. ففي تلك المناطق تتجابه الامبراطوريات الجديدة بواسطة دول صغيرة تشكو نمواً سكانياً مطرداً.

في سرد متواصل، وجيز وممتع، يحدد بيار ميكال مناطق الصراع في مسيرة المجموعات الكبيرة، بأسلوب يتيح فهم الأزمات القائمة حيث الإحاطة بها سيئة في الغالب — مثل حرب الخليج — من جراء عدم ربطها بنصف قرن من التطور.

يبدو، منذ العام ١٩٨٩، ان بوصلة التاريخ أضلت طريقها : وذلك ان سقوط جدار برلين ينذر بزوال امبراطورية القياصرة الجدد، مشرعاً أبواب الاتحاد السوفياتي على العواصف، فيما يبدو ان حرب الخليج أعادت الى العالم « الوحدة » التي كان يحلم بها روزفلت، تحت المظلة الاميركية المتزمتة. غير ان الحرب الاقتصادية ما تزال مستمرة بين أميركا الشمالية وأوروبا واليابان فيما دول « العالم الرابع » تواجه، أكثر من أي وقت مضى، أخطار الحرب والأوبئة والجوع.

ويتحدث بيار ميكال في كتابه هذا، في ما يتحدث، عن الإعصار الجديد الذي بدأ يتكوّن في أوروبا، منذراً بعودةٍ صاخبةٍ للتاريخ الى القارة التي شهدت ولادته.

دار الجيل